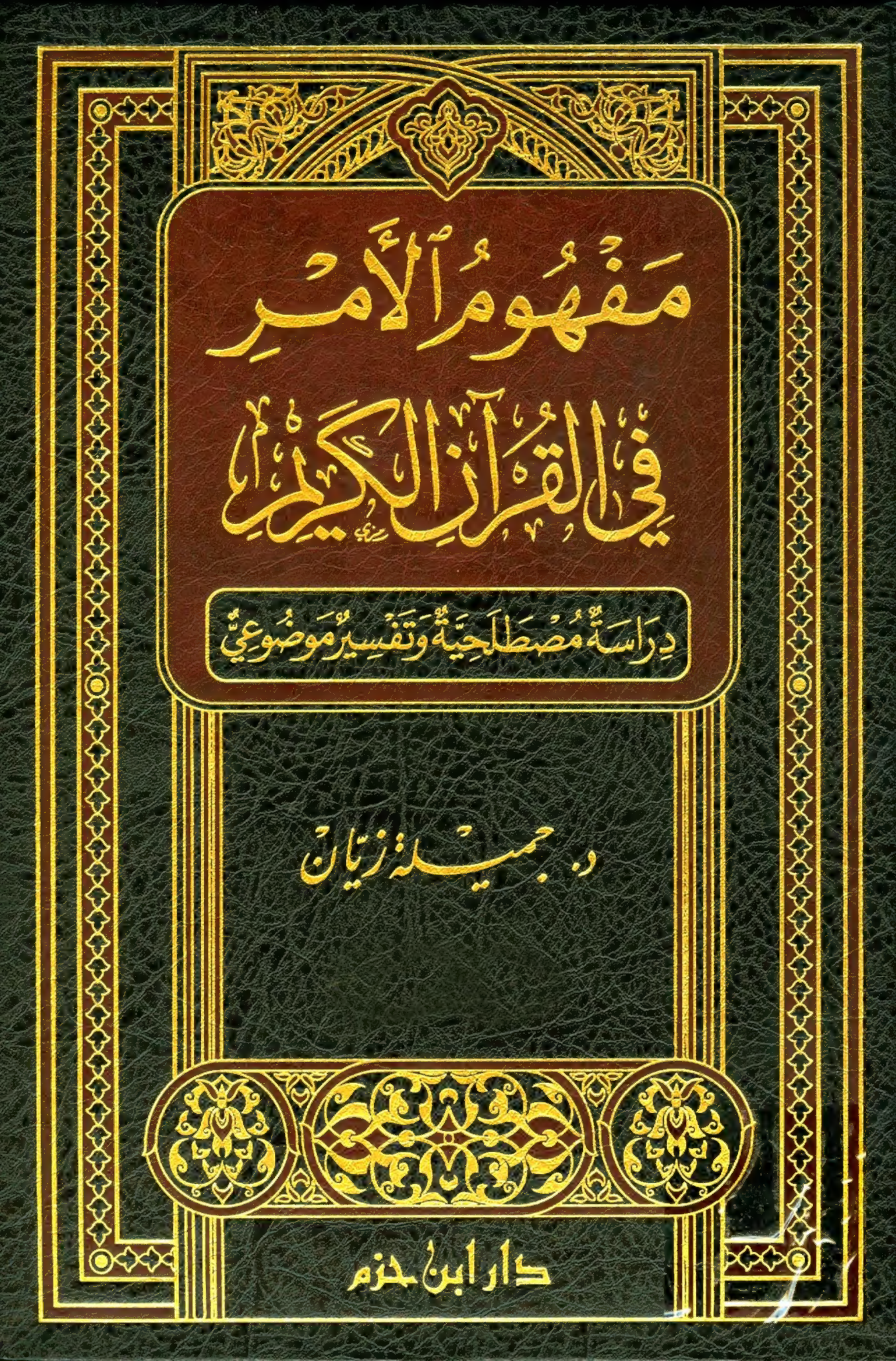

مفهوم الأمر
في القرآن الكريم
دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي
د. جميلة زيان
دار ابن حزم

مَفهُومُ الأمرِ

فِي القرآنِ الكريمِ

دِراسةٌ مُصطلحِيَّةٌ وتفسِيرٌ موضُوعِيٌّ

د. جميلة زيّان

المجلَّد الأوَّل

دار ابن حزم



الطَّبعَة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-9953-81-961-7



الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ . . .

[ص: ٢٩].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

[الأعراف: ٥٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ﴾.

[النحل: ٩٠].

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ﴾.

[البقرة: ٢٦٨].

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ﴾.

[آل عمران: ١٠٤].



إهداء

إلى من غرسا في قلبي حب القرآن وتعلمه... والديّ تغمدهما الله برحمته.

إلى من صبَّر نفسه معي وآنس في بيداء البحث وحشتي... زوجي، حفظه الله.

إلى من أهدتني من طفولتها وبراءتها واحة للراحة من تعب التحليل والدرس... ابنتي صفاء، أنبتها الله نباتاً حسناً.

إلى شباب أمة الإسلام الآتين على سفائن الإيمان والقرآن...

إلى كل هؤلاء أهدي كتابي هذا راجية من الله العلي القدير أن يكون تذكرة خالصة لكل ذي حجر، ويكون لي نصيب من عظيم النفع ومذخور الأجر.





نظرات

«والعلم إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى هذا فإما مزيف مردود، وإما موقوف لا يُعلم أنه بهرج ولا منقود».

[تفسيرات ابن تيمية: ١٠].

«ومعرفة حدود الأسماء واجبة؛ لأن بها تقوم مصلحة بني آدم في النطق الذي جعله الله رحمة لهم، لا سيما حدود ما أنزل الله في كتبه...».

[مجموعة الفتاوى: ٣٣/٩/٥].

«لا يوجب أن يكون مدلول اللفظ واحداً حيث ورد في الكتاب والسنة...، بل يُنظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه، وما يبين معناه من القرآن والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقاً...».

[مجموعة الفتاوى: ١٥/٦/٣].

«ولئن كان في الأفق منهج يلوح وكأن به بعضا من خصائص عصا موسى ﷺ في إبطال السحر وإحقاق الحق في الفهم، فهو منهج الدراسة المصطلحية؛ ذلك بأنه يتصدى أساساً لضبط المفاهيم المكونة لأي نسق، والدين في جانبه المعنوي التصوري نسق من المفاهيم، أصلها في كتاب الله تعالى، وبيانها في بيانه السنة. من تمكن من تلك المفاهيم، ومن نسقها العام، تمكن من الصورة الصحيحة لهذا الدين، ومن تشوه لديه شيء منها أو منه، تشوهت لديه الصورة العامة لهذا الدين».

[نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية: ٢٤].



المقدمة

١ - بين يدي البحث:

الحمد لله الذي له الخلق والأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[١]. وإليه مصائر الخلق وعواقب الأمر: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٢]. ما شاء سبحانه كان، وما لم يشأ لم يكن، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣]. قضى بنفع العبد وضره، وأمضى القدر بشره وخيره، وتفضل بإنزال القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان. أنزله بأفصح لسان، وأوضح بيان، وأكمل نظام، مشتملاً على حكمة وإحكام، وثناء على أسماء، وتنزيه في صفات، وإعذار وإنذار، وخبر واستخبار، وأمر بالعدل والإحسان، ونهي عن الفحشاء والمنكر والطغيان... إلى غير ذلك من الأقسام التي حارت فيها الأفهام.

والصلاة والسلام على خاتم النبوة بالإتمام، محمد المبعوث بالأمر الصادع والنهي الرادع؛ لهداية كافة الأنام إلى سبل السلام، القائل شرُف من قائل: «... **فإذا نَهيتُكم عن شيءٍ فاجتَنِبوه، وإذا أَمرتُكم بأَمرٍ فأْتوا مِنه ما استَطَعتم**»[٤]، وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه الكرام الأخيار، البالغين

---

(١) الأعراف/٥٤.

(٢) الشورى/٥٣.

(٣) آل عمران/٤٧.

(٤) رواه البخاري في الاعتصام، برقم ٧٢٨٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ذروة الكمال في الإطاعة والامتثال، والحث على الجميل والإحسان.

أما بعد: فإن أولَّ العلم العلمُ بالله، وأجل العلم العلم بمسميات الأسماء، وأصل العلمِ العلمُ بوحي الأنبياء، وأصلَ أصله العلم بالقرآن، وأكمل العلم بالقرآن العَلم بمعاني الكلمات ومدلولات الألفاظ.

ألا إن ملاك العلم بالله معرفة الاسم الأعظم، وسبيل معرفة حقيقة هذا الاسم معرفة الأسماء الحسنى، وسبيل معرفة معاني هذه الأسماء معرفة أسماء وأوصاف المخلوقات!

وألا إن مفتاح العلم بحقائق الأشخاص ومفاهيم الأشياء معرفة الأسماء التي عُلمها أول الأنبياء آدم عليه السلام ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[١] وبتعلمها كان لهذا الإنسان فضل على الخلق ومزية، ومعرفة بالله علية، وعبودية له كلية!

وألا إن مدار العلم بوحي الرحمٰن، تعالى وتقدّس، منذ آدم حتّى محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، العلم بكلمات هن لباس فُصل بميزان، لا زيادة فيه ولا نقصان، لكنوز من المعاني الإلهية والنوافح الربانية: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[٢]، ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾[٣]، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى﴾[٤].

وألا إن قطب الرحى الذي على العلم بالوحي يدور وعنه لا يحور، العلم بالقرآن، الذي مُنح أعلى مقام من بين جميع الكلام، والعلم بالقرآن لا يمكن من غير فهم مدلولات ألفاظه الشريفة، المروية من ماء البيان، والمبنية على الحق المحض والعدل التام، والمستعصية على التبديل والانقسام، والمكتنزة لكليات دين الإسلام، والمثمرة لجلائل الأقوال

---

(١) البقرة من الآية: ٣١.
(٢) البقرة من الآية: ٣٧.
(٣) البقرة من الآية: ١٢٤.
(٤) الأعراف من الآية: ١٤٤.

والأعمال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[١]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾[٢].

وإذا كان الأمر كذلك؛ فلا غرو أن كانت أول قطرة صخت سمع النبي ﷺ، وأشخصت بصره، وأرجفت فؤاده، أمراً تكوينياً نافذاً، بعد أن اعتصره جبريل عصراً ثلاث مرات: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ . . .﴾[٣]؛ أي: كن قارئاً القراءة التي تفضي بك إلى العلم بالله، وعبادته بالاختيار وفق هداه، وذلك يتناول أصالة قراءة آيات الله المشهودة في الأنفس والآفاق ومجاري الأحوال، وتبعاً قراءة كلماته المتلوة في القرآن، وفهم معانيها الكلية، التي تنوء بثقلها الجبال، بله إنسان لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان!

لكن هل كان في مكنة هذا الإنسان المجتبى لختم ديوان الأنبياء إلا أن يسمع ويخنع لسلطان الربوبية، ويقرأ ويفهم ويخزن المعلومات الإلهية، ليُعلم ويبين للناس ما نُزل إليهم من الهدايات الربانية؟ وكيف لا يسمع ويخنع، وهذا الأمر فيه واقع ماله من دافع؟ وكيف لا يقرأ ويفهم، وهذه قطرات الوحي تتنزل على قلبه في صورة أفعال حُذفت مفعولاتها ومتعلقاتها، وهي تنادي على نفسها بتميزها وتفردها، وتدعو من تدبر وتفكر فيها أن يبلغ الغاية في اكتناه صيغها ومبانيها، وفهم مفاهيمها ومعانيها؟ ولم لا يقرأ ويفهم، وتلكم القطرات الأولى تترى في ترتيب منطقي تصاعدي لتشكل عقداً فريداً من المصطلحات: أول فصوصه قراءة، فخلق، فعلم، وآخرها إطاعة، فسجود، فاقتراب. . .؛ مصطلحات تؤسس وتبني مفاهيم كلية تترتب عليها الرؤية الكاملة التي تريك الرب والمربوبات في أوضاعها الطبيعية وبأحجامها الحقيقية. وإلا فهل كان يمكن للنبي عليه السلام أن يعلم ويرى ما الرب؟ وما المربوب؟ من غير أن يقرأ ويفهم ويعلم: ما الخلق؟ وما

(١) الأنعام من الآية: ١١٥.

(٢) الكهف من الآية: ٢٧.

(٣) العلق/ ١ ـ ٣.

الكرم؟ وما العلم؟، وهل كان يمكن أن يعلم نفسه ويرى وصفه من غير أن يقرأ ويفهم ويعلم: ما الإنسان؟ وما الاستغناء؟ وما الطغيان؟، وهل كان يمكن أن يعلم ما وظيفة فطرته ونتيجة خلقته؟ من غير أن يقرأ ويفهم ويعلم: ما التقوى؟ وما السجود؟ وما الاقتراب؟ بل هل كان يمكن أن يحقق مقصد القراءة، فيتعلم، حسب تعليم الرب وهدايته، ويَعْلَم ويعمل من غير أن يقرأ ويفهم ويعلم ما القراءة؟!

ألا ما أشد حاجتنا اليوم، وقد رُفض الاستهداء بالقرآن، فقل العلم، وفشا الجهل، وغلب الفساد، واستحوذ الشيطان، واختل الميزان، وعشا الإبصار، وضعف اللسان؛ إلى من يشمر لقراءة القرآن على منهاج ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، فيقرأ القراءة الكاملة الشاملة، التي تعطينا العلم والعمل والحال، ونستروح منها نسيم الجنان. ولا سبيل إلى ذلك بغير تحقيق ألفاظ القرآن، والعلم بمعانيها اللطيفة، وتنزيلها في الأفهام بمنتهى العدل والإحسان. وإلا نفعله يكن تشوه في الفهم وعشو عن العلم خطير، وتبديل للدين وفساد في الأرض كبير، وشقاء في الحال وخسران في المآل مبين.

ألا ليت أهل العلم في الدراسات القرآنية، والباحثين في سائر العلوم، إنسانية كانت أم مادية، والمفكرين في نقطة انطلاق لحلول جذرية لأمر هذه الأمة الإسلامية؛ ألا ليتهم يعلمون بأن كلمات ربي هي أصول العلم، وغايات العلم، وبأن النظر فيها وصفاً وتحليلاً، وتعليلاً وتركيباً، وتَبَيُّناً وتبييناً، من أوجب الواجبات عليهم بوصفهم قارئين يقظين، وأسبق المهمات المنوطة بهم لإيقاظ الغافلين الجاهلين، وبأن استكشاف أسرارها ومبانيها، وفهم حقائقها ومعانيها لا يمكن من غير منهاج ينبني في الأساس، بعد إزاحة حاجز الإيمان وبلوغ أقصى ما يُستطاع في الإحسان، على تذوق لسان العرب، واستقراء استعمال القرآن ثم السنة البيان لتلك الألفاظ في جميع الموارد والمقامات؛ فإن القرآن أُنزل بأفصح لسان ومقال، وعلى أحسن تركيب ونظام، وسيق في أعجب سياق وقران، واختير لأحدث معان وأحكام، يفسر بعضه بعضا، ويعتنق بعضه ببعض، ويُفهم بعضه من بعض، والسنة تطابقه وتفسره

على التمام، وذلك أوثق تعويلاً في معرفة المفاهيم وصحة البيان.

ومن هاهنا، كان البحث في المفاهيم علي حتماً مقضياً، بمقتضى (اقرأ)، وإذا قضى الله أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقد قُضي الأمر بأن أقرأ القرآن ومفاهيم القرآن، امتثالاً لأمر معلم الأسماء الله جل جلاله، واقتداء بسيد القراء والعلماء، المصطفى عليه السلام، وبأن أختار من بين السيل الزخار من مصطلحات القرآن، أعلاها شأنا، وأكبرها حجما، وأكثرها معنى. . . ، وبأن أجتبي من بين المناهج في سبيل إيضاحه أكملها بصرا بنظام القرآن، وأدقها بياناً لنصوص القرآن، وأقدرها تحقيقا لهدايات القرآن، وأي مفهوم يكون أعلى وأكبر من مفهوم الأمر؟ وأي منهج يكون أكمل وأدق وأقوم من منهج الدراسة المصطلحية؟

ذلكم هو مفهوم بحثي ومنهج تحقيقي، ومن المركب منهما، جعلت موضوع هذا البحث، المعد لنيل دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تحت عنوان: «**مفهوم الأمر في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي**» فما مفهوم هذا الموضوع؟ وما المقصود به؟

٢ ـ المقصود بموضوع البحث:

والمقصود بهذا الموضوع: هو دراسة مفهوم «**الأمر**» في القرآن الكريم؛ دراسة وصفية تحليلية تكشف عن ستر معانيه اللغوية والشرعية القرآنية، وما يعتريه من خصائص وصفات، وما يربطه بغيره من علاقات، وما ينشأ عنه من ضمائم وتركيبات، وما ينتمي إليه من مشتقات، وما يتصل به من قضايا وموضوعات، وذلك تبعاً لما يرسمه منهج الدراسة المصطلحية من قواعد وإجراءات في التَّبين والبيان.

وغني عن البيان أن هذا الموضوع لم يكن ليحقق هذا المقصود، ويخرج إلى الوجود، سوي الخلقة، سليم البنية، لولا دوافع قوية حفزت على تقليب النظر فيه، وبواعث جدية دعت إلى القول فيه. فماذا هي؟

٣ ـ بواعثه:

إن مما حرك إلى هذا الموضوع ـ علاوة على ما تقدم ـ أمور، أهمها:

* **أولاً**: الرغبة العارمة في تحقيق أمل قديم استشرفته النفس منذ زمن بعيد، ألا وهو تكميل وتوسيع بحث أنجزته لنيل الإجازة في موضوع: «**صيغة الأمر من خلال سورة البقرة**»؛ فإن ذلك البحث، كما يوحي به العنوان، لم يدرس مفهوم الأمر؛ وإنما درس أسلوب الأمر، ولم ينطلق في الدرس من كل القرآن، وإنما انطلق من بعض القرآن، وإن كان هو فسطاط القرآن؛ كما أنه لم يحقق وجوه الأساليب والمعاني الحقيقية والمجازية، التي ورد بها الأمرفي السورة تأسيسا على قواعد اللسان، وأساليب القرآن، وصحيح الأحاديث الموافقة للقرآن؛ وإنما حققها بناء على ما راكمته العصور وأنتجته الفهوم، وفق نظرات تجزيئية في النصوص... ولكن أنى لباحثة ضعيفة التكوين، تقود أول الخطى على طريق البحث العسير، مجردة من منهج علمي رشيد، أن تستكمل وتحقق ما لم يستكمله ويحققه ذلكم البحث الهزيل؟. ألا يكون من الأجدى لها والأنفع أن تلوذ بجناب الكتاب العزيز، وتقتصر على النظر في تفسير القرآن الكريم، وتستفيد من شروح ومناهج المفسرين، قدماء ومحدثين، عسى أن تتبين ضوابط الفهم السليم، التي تحمي من عثرة الرأي وسطحية النظر، وتعصم من الزيغ في التأويل. إن ذلك فقط ما حاولت في سنوات ما بعد الإجازة.

حتى إذا ألف القلب لقاء القرآن الكريم، وتزود الفكر من جهود المفسرين، وتلقى السمع وهو شهيد من شيخي ـ حفظه الله ـ المعالم الكبرى لمنهج قويم، هو منهج الدراسة المصطلحية، الذي يضبط المفاهيم، وخاصة مفاهيم القرآن الكريم، كما سيأتي بيان ذلك بعد حين؛ شرعت في تحقيق الحلم القديم، فكان ما كان من تسجيل البحث أول الأمر بعنوان يزاوج بين مصطلحي «**الأمر**» و«**النهي**»: «**مفهوم الأمر والنهي في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي**»؛ ولا غرو فهما مصطلحان يتلازمان، ويشكلان قاعدتي الإسلام اللتين أرساهما الله تعالى في محكم كتابه، بياناً لشرائعه

وأحكامه، وإرشادا لخلقه إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وبعد محاولات مضنية في دورات تدريبية متتالية لاستيعاب خصائص المنهج ومصطلحاته، وفهم الكيفيات العملية لتطبيق خطواته وإجراءاته على مختارات من القرآن الكريم والحديث الشريف؛ استيقنت النفس أن دراسة مصطلحين شامخين كـ«**الأمر**» و«**النهي**» بمنهج حديث السن حملٌ ثقيل، قد لا تنهض به باحثة مثلي، قليلة التجربة وحديثة التكوين، فضلاً عن كونها مأخوذة بالسنين، ومنشغلة بهم العمل وتربية البنين... ومن ثم قر العزم، بعد تشاور مع شيخي - حفظه الله - على حصر الموضوع في مفهوم الأمر، كما تقدم. وزكى ذلك ونماه في شعوري أني ألفيت عند إحصاء مصطلحي «**الأمر**» و«**النهي**» في آيات الذكر الحكيم، أن الأمر أكثر وأوسع من النهي. لذا تركت ما قل لما كثر، وما ضاق لما اتسع.

* **ثانياً**: الحاجة الماسة لدراسة جادة لمفهوم الأمر خاصة؛ دراسة منهجية علمية تصله بأصله الأصيل: القرآن الكريم ثم بصحيح الحديث الشريف، ثم بالنافع من جهود علماء المسلمين، وذلك:

١ - لأنه مصطلح ينتمي إلى زمرة المصطلحات الكبيرة، لذا فهو يتميز بموارد غزيرة، وصيغ متنوعة، ودلالات متشعبة، وأبعاد ممتدة، كما تبين من سبر آياته وأشكاله، وتصنيف استعمالاته، وتحليل مقوماته وامتداداته في القرآن الكريم.

٢ - لأنه مصطلح عظيم خطير؛ إذ ارتبط أوثق ارتباط بكلام الله ذي الجلال، وكلام الإنسان، ووحي الشيطان، وندت عنه أمور وأشياء، لها تعلقات بكل خير وصلاح، وكل شر وفساد، وكل ثواب وعقاب، ولها تنزلات في كل مكان وزمان وكيان؛ ولا غرو فإن الأمر مدار الكلام الإلهي الذي عليه يدور، والقطب الأعظم الذي عنه لا يحور؛ وذلك لأنه يؤسس لتثبيت سبيكة الحق الكامنة في الشريعة التكوينية والتكليفية على السواء، فهو لشريعة الأكوان كالمفتاح للشفرات، به تُكون عوالم وأكوان وتخلق دساتير وأحكام بمنتهى الميزان، وبه تُقدر طبائع وآجال وأقدار، وتُدبر شؤون

وأحوال، وتُسخر جميع الكائنات لمنافع الإنسان، وتُؤدى مهمات وأعمال، وبه ينفذ القضاء بالنجاة والهلاك، والثواب والعقاب...! وهو لدين الإسلام كالأس للبناء؛ وذلك لأنه أصل الهدى النازل من السماء، به أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ فغلب على شرائع الرسل، وامتلأت منه الكتب، ألا ترى كيف جعل الله القرآن ـ أصل دين الإسلام ـ كتاب دعوة وأمر منذ أول الأمر إلى آخر الأمر؟ وكيف لا وثمرة معارفه الإلهية وبياناته الكونية وإخباراته الغيبية والأخروية ليست إلا دعوة لاحبة إلى عبادة الله؟ وهل العبادة ـ جوهر الإسلام وثمرة خلق الإنسان ـ إلا انقياد لأمر الله في العقائد والأقوال والأعمال؟ بل هل الدافع إلى العبادة، والإخلاص في الدين إلا الأمر الإلهي ليس إلا؟ وهل دين الإسلام نفسه إلا انقياد لله، وامتثال لأمره في كل أمر وحال؟ بل هل هذا الدين إلا فعل أولاً وترك ثانياً؛ فعل للمأمورات إيجاباً واستحباباً، وترك للمنهيات تحريماً وكراهة؟

أجل، إن أمر ذي الجلال هو أساس الدين، وقطب القرآن، وخلاصة الدعوة، وجوهر العبادة، وإذ كان كذلك؛ فلا غرو أن كان الإنسان الذي يدخل في دين الإسلام، وينتسب بالقرآن والإيمان إلى مولاه الحق، ويتقلد قلائد العبودية لله دون سواه؛ مرآة عاكسة لتجليات أمر الرحمٰن وأسمائه المقدسة، فيكون مؤتمراً آمراً، ومهتدياً راشداً، وهادياً مرشداً، وداعياً مبلغاً؛ يفعل الخير في نفسه، ويدفع الخير إلى غيره، فيكتسي ـ بذلك ـ قيمة **«أحسن تقويم»**، ويحلق عالياً إلى أعلى عليين، ويدخل بسلام في جنة النعيم.

أما الإنسان الذي يخرج من دين الإسلام، وينتسب بالكفر والطغيان إلى شريعة الهوى والشيطان، فإنه ـ حتماً ـ يصير مظهراً لتجليات وحي الشيطان التدميرية، ومرتعاً خصباً لوساوسه الفرعونية، بل ويصير شيطاناً رجيماً، مجنداً في كتائب إبليس المظلمة، يعصي أمر الله ويطيع أمر الشيطان، فيشرح الصدور بالكفر، ويأمر بالشر وينهى عن الخير، فينتكس بظلمة الكفر والدعاء إليه إلى أسفل سافلين، ويهوي في نار الجحيم.

ومن هنا، تتجلى أهمية مفهوم الأمر وخطورته في فتح باب نوراني يوصل إلى العلم بالله وكلامه وكمالاته، والعلم بالكون ووظائفه وأعماله، والعلم بالإنسان وأقواله وأفعاله وأحواله، والعلم بالشيطان ووساوسه وخطراته. ومن ثم تتبين الحاجة الشديدة إلى تَبيُّن عناصر هذا المفهوم وضبط مكوناته، وتحليل المفاهيم المرتبطة به، المجلية لسماته ومقوماته وامتداداته؛ «**كالقضاء**»، و«**القدر**»، و«**الإرادة**»، و«**التكليف**»، و«**الوحي**»، و«**الدين**»، و«**الوسوسة**»، و«**التزيين**»، وغير ذلك. . .

ولعمري لو لم يكن لمفهوم الأمر من شأن وخطر إلا أن يتعلق بالله، صاحب الخلق والأمر، لكانت دراسته فرضاً إلهياً لازباً، ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس.

٣ ـ لأنه مفهوم هبت عليه أعاصير التغيير والتبديل، وحامت حوله شبهات وأباطيل، ودارت حوله ظلالات وأقاويل، وكثر فيه التنازع والتفريق، سواء على مستوى التصور، أو على مستوى التطبيق، قبل زمن التنزيل، أو بعد إقصاء شريعة الإسلام عن الحكم والتنفيذ.

ومثل ذلك، تغيير المشركين الأمر المحضور إلى الأمر المشروع؛ إذ جعلوا فاحشة التعري في الطواف مما أمر الله به في أصل الدين: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1] فجعلوا بذلك المنهيات مأمورات شرعية، والتروك أفعالاً مرضية، والفواحش قربات تعبدية، على مألوف عاداتهم الجاهلية في تشريع ما لم يأذن به الله، ولم ينزل به من سلطان، افتراء عليه وهدماً لدينه وإقامة لدين الشرك والشيطان.

ومن ذلك، خلط أهل الضلالة من المتكلمين في الأمر وغلطهم في معانيه، وأيضاً في نظائره من الألفاظ المتعلقة به؛ كالإرادة، والقضاء، والقدر، والإذن، والحكم، والشرع. . . وذلك بحكم الاشتراك والاشتباه

---

(١) الأعراف/٢٨.

والمذاهب والأهواء، فكثر لذلك الشغب والالتباس، وخفيت الحقائق، وغلب الفساد.

ومن هذا الباب، غلطهم في أمر الله؛ إذ جعلوا مسماه تابعاً لأهوائهم الباطلة، وإن لووا في سبيل ذلك عنق الآية الواحدة، فذهب فريق[١] إلى أن لفظ الأمر يقع على فعل العباد القديم، وهو نفس كلام الله القديم، واحتجوا بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٢]، واستمسك آخرون[٣] بنفس الآية، وقالوا: إن كلام الله مخلوق وما كان مقدوراً فهو مخلوق.

وخلط أقوام بين دلالة أمر الله التكوينية ودلالته التكليفية، وجعلوا لهذا اللفظ دلالة واحدة في السياقات المختلفة؛ فأقر فريق بحقيقته الشرعية وعظموها وغلوا فيها، وأنكروا حقيقته الكونية، وعموم مشيئته سبحانه وخلقه؛ فأبطلوا بذلك الإيمان بالقدر الذي هو من أصول الإيمان ومن تمام الإخلاص[٤]، وأقر فريق آخر بحقيقته الكونية، وأعرضوا عن حقيقته الشرعية، فأبطلوا الإيمان بالشرع والوعد والوعيد، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه[٥].

وبسبب من هذا التخليط، ثارت شبهات ودارت أقاويل حول مسألة الأمر الشرعي: هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا؟ وبلفظ آخر: هل يأمر بما لا يريد أو يأمر بما يريد[٦]؟ فهذا ومثله شر غليظ، معظمه مستمد من الهوى ومن التبعيض والتخليط في الفهم والتطبيق، ومؤسس على النظر في الفكر اليوناني القديم، الذي جاء من تلبيس إبليس، ولبس مسوح الكلام،

(١) حكاه ابن تيمية قولاً للحلولية: (مجموعة الفتاوى: ٢٤٥/٨/٤).

(٢) الأحزاب/٣٨.

(٣) مجموعة الفتاوى: الموضع نفسه، نقلاً عن الجهمية ـ بتصرف ـ.

(٤) مجموعة الفتاوى: ٧٥/٣/٢، عن المعتزلة ومن وافقهم ـ بتصرف ـ.

(٥) مجموعة الفتاوى: ٣٧٥/١٠/٥، و٧٦/٣/٢ ـ ٧٧، عن المُشركية ودعاة الحقيقة من المتصوفة.

(٦) نفسه: ٢٤٩/٢/١ و٨١/٨/٤.

وتسرب إلى العلم الإسلامي الأصيل، وترسب في عقول كثير من المسلمين، وأحدث تشوهات في الرؤى والمفاهيم، واختلالات في التصرفات والموازين. وما عهدُ التخلف والانحطاط بسبب غلط الناس في مفهوم أمر الله وإرادته وقدره ببعيد، وما أثر هذا الغلط في تعطيل الأمر بالجهاد بخفي.

والآن، وقد ابتعد الناس عن أجواء الجدل الكلامي العقيم، وعن الجو الذي تنزل فيه القرآن الكريم، وعن الأهداف التي تنزل لها هذا القرآن الكريم، وطغى شياطين الفكر الغربي الجديد في الأرض، وأكثروا فيها الفساد، وهم من كل حدب ينسلون، ولدين الله يغيرون، ولمفاهيمه يحرفون، ولمرجعيته يضيقون؛ بل يزيلون، ولعقدة أوامره يَحلون، ولنظام أحكامه يبددون؛ اشتد احتياجنا إلى الخروج من فتن الشقاق في الدين، والتخلص من آثار الدخيل، القديم والحديث، والرجوع إلى الأصل الأصيل: إلى القرآن الكريم، والحديث الصحيح؛ لنبني عليه صورة صحيحة كاملة، ورؤية سليمة متماسكة لهذا الدين القويم، تنفي عن مفاهيمه المتناسقة انتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وتلبيس الشياطين. وبغير ذلك ليس من سبيل إلى تجديد فهم، وإصلاح عمل، وتغيير حال، وارتقاء إلى مقام الشهادة على الناس أجمعين.

ومن هاهنا، كان لا بد من التشمير لبيان الحق الأصيل في مفهوم الأمر، من أجل هدم الباطل الدخيل من التصورات والمفاهيم، وكان لا بد من تأسيس هذا البيان على النظر في كل ما في القرآن من الأمر، لا في **«بعض الأمر»**، ثم النظر فيما يوافقه من السنة والخبر الصحيح، وما يؤيده من البيان العربي الظاهر الصريح. وذلك أقوم قيلا في تصحيح الفهم، ووزنه بميزان الحق، وأهدى سبيلا إلى تجديد الدين، وتنفيذ أوامره كاملة في واقع المسلمين.

٤ ـ لأني نظرت في أغلب دراسات المتقدمين والمتأخرين، وأنا أمهد السبيل للدراسة المصطلحية لمفهوم الأمر في القرآن الكريم، فما وجدت

أحداً من أهلها وفاه من البيان والتبيين حقه، فدقق درسه، وبين حده ووصفه، وكشف نظمه ورصفه، واستقصى غوره وعمقه، ومده وجزره. كيف؟ ولم يمتلك مفتاح المفاتيح للدرس المصطلحي العميق، وهو منهج الدراسة المصطلحية؛ المنهج الذي يقوم على الاستقراء والوصف، والدرس والتصنيف، والاستنباط والتنسيق، ويهدف إلى تبين مفاهيم المصطلحات، ضمن عرض نسقي منهجي تترابط فيه أركانها المفهومية، من تعريف، وصفات، وعلاقات، وضمائم، ومشتقات، وقضايا وموضوعات. ولكن أنى للقدماء من الدارسين أن يهتدوا إلى هذا المنهج الدقيق، وهم محكومون بحاجة الظرف، وشمولية التكوين والتأليف؟ وأنى للمحدثين منهم أن يتبعوا مسالكه، وتطويعها لخدمة المصطلح القرآني الكريم حديث السن لما يُجاوز بضع سنين؟

أجل، إن نظرة وجيزة في جل ما أُنجز في القديم لتكشف عن غياب هذا المنهج الجديد، بيد أنها تكشف أيضاً عن الجهد الكبير الذي بذله القدماء في بيان دلالات الأمر في القرآن الكريم، كل في دائرة تخصصه، وبحسب حاجة عصره.

فاللغويون، إذ أفرغوا الجهد التام لخدمة لغة القرآن، ودراسة معاني ألفاظ القرآن؛ تتبعوا دلالات الأمر اللغوية، المعجمية والاصطلاحية، في معاجم خاصة؛ مثل معجم مفردات الراغب الأصفهاني، (ت ٥٠٣هـ) الذي تفطن إلى خصوصية استعماله في القرآن الكريم، كما ذكروا وجوهه القرآنية بتركيز شديد، في كتب الوجوه والنظائر؛ مثل: الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) وإصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني(ت ٤٧٨هـ).

ومما يسجل على هذه الوجوه التفسيرية للأمر، أنها تتردد بين من سلف وخلف، وتصيب وتخطىء في غياب السبر والتقسيم، ورد الجزئيات إلى الكليات، والالتفات إلى سياق الكلام...

والأصوليون، إذ كان غرضهم الأسمى دراسة دلالات الأساليب والألفاظ القرآنية، وبيان أثرها في الأحكام العملية؛ درسوا دلالات الأمر

الشرعية لعلهم يشهدون ما فيها من المنافع، فيأتمروا حيث أمر الشارع، بيد أن دراستهم انصبت بالأساس على تحديد دلالات الأمر الصيغي من جهة الوضع والاستعمال والحقيقة والمجاز[١]، كما فعل الآمدي في الإحكام[٢]، والسبكي في الإبهاج[٣] والغزالي في المستصفى[٤]؛ ولم تعط لفظ «**الأمر**» الصريح حظه من الرعاية والاهتمام؛ فلم تستقرئ دلالته اللغوية والقرآنية كاملة، ولم تدرسه الدراسة النصية الشاملة، بل اكتفت بتحديد دلالته الوضعية والمجازية والمشتركة في خضم خلاف مذهبي[٥]، قوامه الاحتجاج والاعتراض، وعماده الاستدلال ببعض أقوال أهل اللسان وآيات القرآن[٦].

والمتكلمون، إذ كانت حاجتهم شديدة إلى المناظرة والجدال في الكلاميات، ولا سيما في مسألة الكلام الإلهي، التي أشعلت نار الفتنة بين الأمة زمناً غير يسير؛ درسوا الأمر بوصفه كلاماً وتكليفاً بطلب فعل[٧]، وتكلموا كثيراً في الأمر الصيغي ـ على غرار ما نجده عند الأصوليين ـ واختلفوا في حقيقته، ومقتضى صيغته، ووجوه استعمالاتها (كما ذكر البغدادي في أصول الدين)[٨]، وتجادلوا حول علاقته بالإرادة،

---

(١) وعلى هذا الشأن جرى النحاة والصرفيون والبلاغيون؛ إذ لم يتجاوز حديثهم عن الأمر، بيان حده وصيغته ومعانيه الحقيقية والمجازية، مع ضرب الأمثلة بنزر يسير من القرآن، وكلام العرب، كما فعل أساطينهم في غرة مصنفاتهم؛ مثل ابن يعيش في شرح المفصل: ٥٨/٧، وابن الحاجب في الكافية: ٢٦٧/٢، والسكاكي في مفتاح العلوم/١٥٢، والقزويني في الإيضاح/٢٤١ ـ ٢٤٣.

(٢) ينظر الإحكام: ٢/ص١٣.

(٣) ينظر الإبهاج: ١٦/٢ ـ ٢٠.

(٤) ينظر المستصفى: ٤١٨/١.

(٥) انظره مبسوطاً في مثل: المحصول للرازي: ١٨٤/١ ـ ١٨٨، والمعتمد لأبي الحسين البصري: ٤٥/١ ـ ٤٨.

(٦) وهي آيات القمر/٥٠، والحج/٦٥، والأعراف/٥٤، وهود/٩٧، وسيأتي تحرير الخلاف الذي أثاره الاستدلال بهذه الآيات في موضعه الملائم من البحث.

(٧) انظر الإحكام للآمدي: ١٣/٢ ـ ١٤، وأصول الدين للبغدادي/٢٠٧.

(٨) أصول الدين/٢٠٧.

بناء على خلافهم الشهير في معناه النفسي القديم (كما نجد في الاقتصاد للغزالي)[١]، وقد انصبت جهود طائفة منهم على تأويل القرآن إلى ما يخالف آياته ويوافق مذهبهم الضعيف، كما تقدم، وانتصبت طائفة أخرى من الفقهاء والمحدثين والعلماء المجددين لتحقيق وتصحيح بعض ألفاظ القرآن الكريم، ومنهم شيخ الإسلام، أحمد بن تيمية؛ حيث نشط إلى تحديد لفظ الأمر، وألفاظ أخرى التبس مفهومها على الناس بسبب الإجمال والاشتراك، كما بينا آنفاً؛ ففرق بين معنييه المصدري والاسمي، والكوني والشرعي[٢]، وحدد علاقته بالإرادة[٣]، في سياق المناظرة والجدال مع خصومه في مسائل أظلمت بها ساحة الكلام آنذاك؛ ككلام الله، وإرادته، وقدره، وقدرة العبد وأفعاله. ولعل ذلك كان أكبر شاغل له عن تتبع موارد اللفظ في كل الآيات القرآنية، وعرض دلالاته ضمن منهجية محددة، وإن كان هذا العرض لا يخلو من لمحات مفيدة للدراسة المصطلحية.

وعلاوة على هذه اللمحات والنظرات المتناثرة في مصنفات الكلام، أُفردت تآليف باسم قضية لها بمصطلح الأمر اتصال وثيق، وهي: قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك مثل كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال (ت ٣١١هـ)، والكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعبدالرحمٰن بن أبي بكر بن داود الحنبلي (ت ٨٥٦هـ) وسواهما من التآليف التي عمد أصحابها أن يبينوا مراتب الأمر والنهي، وأركانهما، ودرجاتهما، وأوصاف الآمرين والناهين. . .، وذلك انطلاقاً من القرآن الكريم، وبعض نصوص الحديث الشريف، وأقوال الصحابة والتابعين، وأئمة السلف. لكن هذه التآليف ومعها من تآليف المحدثين

---

(١) ينظر الاقتصاد /٧٦. وسيأتي تحرير الخلاف الذي أثاره الاستدلال بهذه الآيات في موضعه الملائم من البحث.

(٢) مجموعة الفتاوى: ٧٩/٨/٤، ٢٣٣، ٢٤٥، و٢٤٨/٢/١.

(٣) نفسه: ٢٨٢/٨/٤، ودرء التعارض ٢١٥/١٠.

الكثير[١]، جعلت من قضية الأمر والنهي الموضوع المطروح، وحشدت لخدمته مختلف النصوص الواردة في الأصول والفروع، ولم تراع في عرض أبعاده الموضوعية أي ترتيب مقصود، وكان حرياً بها أن تنطلق من الدراسة النصية الدقيقة لموارد هذه القضية في كل النصوص، وتعمد لتركيب المعلومات المستلهمة من الدراسة وفق ترتيب منهجي مرسوم.

ويضاف إلى جهود اللغويين والأصوليين، بلا ريب، جهود المفسرين، على اختلاف مناهجهم، وفي مختلف أعصارهم وأمصارهم، وهي جهود، على وفرتها، لا تعدو كونها مجرد تعاريف وشروح جزئية لمصطلح الأمر، تراكمت في سياق التفسير التحليلي العام للقرآن الكريم، وفي نطاق حاجة الأمة والتخصص. ومن ثم لم تقدم هذا الفهم الشامل المتكامل، الذي ترنو إليه الدراسة المصطلحية، نستثني من ذلك بعض جهود المفسرين المحدثين، الذين انطلقوا من ظرف انحطاط الأمة العام في العقيدة والنظام، وهجر القرآن، وبُعد القلوب والأفهام عن فهمه وهدايته، فبثوا وعياً قرآنياً جديداً بالمصطلحات التي يشتمل عليها القرآن الكريم، ضمن مباحث دقيقة مختصرة، تتخلل بيانهم لمعانيه، وهي مباحث تحدد مفاهيم المصطلحات، وتصحح فهمها، وتُذوق شرحها، وتربط نظامها، وتبسط موضوعاتها، على الوجه الذي يجدد فهم القرآن، ويجذب القلوب إلى هدايته والعمل بأحكامه؛ ومن ذلك: تحديد رشيد رضا للفظي **«الأمانة»** و**«العدل»** المتعلقين بالأمر، وتحليله لقضية أولى الأمر في **«المنار»**[٢]، وتفسير سيد قطب لأمر التكوين بتصوير بديع بعيد عن تعليل المخلوقين، وتصحيحه لمفهوم **«العبادة»** بين يدي تحليل قضية الحاكمية والاتباع، في **«الظلال[٣]»**، وربط سعيد حوى

(١) مثل: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لضياء العمري، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمحمد علي مسعود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة لعبدالعزيز بن أحمد المسعود.

(٢) بين يدي تفسير آيتي النساء/٥٧ ـ ٥٨.

(٣) ينظر: ٥٤٨/٥، و٥٧٤/٤ ـ ٥٨٧، تفسير آية هود/٥٩ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾.

لقضية أمر الله بقضايا سورة الأحزاب، في «**الأساس**»[١]، وبسط الشنقيطي لمسائل تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالقدر أو الأمر الكوني، في «**الأضواء**»[٢]، وكلام الطباطبائي في إبليس وعمله، في الميزان[٣].

ولعمري إن هذه الجهود التفسيرية الحديثة، رغم خلوها من السمات العلمية والمنهجية للدراسة المصطلحية لهي أغزر مادة، وأكثر إفادة من ذلك النزر القليل من دراسات المحدثين، التي اهتمت بدراسة مفهوم الأمر في القرآن الكريم، ضمن مباحث أو تآليف؛ إذ لم أظفر بعد طول بحث وتنقيب إلا ببحث وحيد عن معنى الأمر في القرآن الكريم، ضمن كتاب القضاء والقدر في الإسلام لفاروق أحمد الدسوقي، وهو بحث لم يستوف موارده ومعانيه، في غياب الاستقراء التام والتصنيف الدقيق. ولم أجد ـ فيما اطلعت عليه ـ من التآليف التي أفردته ببحث مستقل سوى كتاب «**الأمر ودلالته على الأحكام الشرعية**» لعبدالله محمود أحمد محمد؛ وهو كتاب مؤلف على نمط الأصول[٤]، وليس فيه من معنى الأمر في اللغة وفي اصطلاح القرآن الكريم إلا شذرات يسيرة لا تشفي الغليل.

فإذا أضيف إلى ذلك كون الرسالة الجامعية الوحيدة المسجلة في الموضوع ـ فيما أعلم ـ لم يُتعرف إلا على عنوانها المسطور في وراقية عن المفاهيم القرآنية[٥]، وهو «**الأمر في القرآن الكريم (أساليبه ومجالاته وثمراته)**» ليوسف بن عبدالعزيز الشبل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وحتى وإن حُصل عليها، فأغلب الظن أنها غير معدة بالمنهج

(١) ٨/٤٤٤٤.
(٢) ٢/١٥٣ ـ ١٥٩، و٨/٣٣٦.
(٣) ٨/٣٦ ـ ٤٥.
(٤) وكثيرة هي المؤلفات التي درست الأمر على منهج الأصوليين في التحليل، لكن بتعبير جديد ييسر فهمه وهضمه للقراء؛ مثل: تفسير النصوص لمحمد أديب صالح، ومنهج القرآن في تقرير الأحكام لمصطفى محمد الباجقني. . .
(٥) مجلة دراسات مصطلحية: العدد الأول، ٢٠٠١م ـ ١٤٢٢هـ، ص: ٢٧٣.

المعلوم؛ إذا أضيف هذا إلى ما تقدم، تبين مدى الحاجة إلى دراسة علمية منهجية لمفهوم الأمر في القرآن الكريم، ومدى التحدي الذي تواجهه الدارسة لهذا المفهوم، لاستيعاب جهود المتقدمين والمتأخرين، وتقويمها، وتوظيفها توظيفاً صالحاً لأن يعين على تقديم فهم كامل شامل، وفق منهج هادف، لمصطلح الأمر في القرآن الكريم.

* ثالثاً: الرغبة الصادقة في الالتحاق بركب الباحثين في مفاهيم القرآن الكريم[١]، الذين هم أشبه بالفدائيين الصابرين المتيقظين؛ لتجريب منهج جديد أصيل، هو منهج الدراسة المصطلحية، المرشح باقتدار لضبط مصطلحات القرآن الضبط التام، وتحقيق مقاصده العلمية والعملية بمنتهى الإحسان، ولعل اختيار مفهوم الأمر المتشعب الحجم، والاجتهاد في تطبيق هذا المنهج على دراسته وعرضه، أن يسهم في التفقيه المنهجي، النظري والعملي في المصطلح عامة، والمصطلح القرآني خاصة، ويعين على توضيح خصوصية هذا المفهوم المنهجية، في الدرس والعرض، ويُيسر لمنهجه البكر طورا من النمو والنضج، وقدراً من التداول بين الدارسين بأقل كبد وجهد.

فماذا عن هذا المنهج البكر؟ وماذا عن خصوصية تنزيله على واقع البحث في مفهوم الأمر في القرآن الكريم؟

٤ ـ منهجه:

٤ ـ ١ ـ مفهوم المنهج

يقصد بالمنهج المتبع في هذه الدراسة ذلك المنهج الذي يتأسس على أصول إجمالية حاكمة للبحث في المصطلحات داخل نصوصها، ومؤطرة للمجهود البحثي المصطلحي كله، وقائمة على رؤية معينة في التحليل

---

(١) المنضوين في إهاب وحدة القرآن والحديث وعلو مهما بكلية الآداب ـ ظهر المهراز ـ جامعة فاس، والتي يشرف عليها شيخنا، الدكتور الشاهد البوشيخي (حفظه الله).

والتعليل والهدف[١]، وبما أن الدراسة المصطلحية موضوعها المصطلح في كل علم ومجال، وهدفها تبين وبيان الواقع الدلالي للمصطلح، ورصد تطوره التاريخي في كل نص واستعمال؛ فإن الأصول العامة التي تحكمها مستمدة من روح المنهج الوصفي المطعم بالمنهج التاريخي[٢] والإجراءات التفصيلية التي تتفرع من تلك الأصول، وتُطبق على كل مصطلح مدروس، تتلخص ـ أساساً ـ في مرحلتين[٣]: الأولى: مرحلة الدرس المصطلحي، وتبتدىء بالإحصاء، فالدراسة المعجمية، فالدراسة النصية، فالدراسة المفهومية، وتنتهي باستخلاص التعريف. والثانية: مرحلة العرض المصطلحي، وتبتدىء من حيث انتهت الأولى؛ أي: بعرض التعريف، ثم عرض الخصائص والصفات، فالعلاقات، فالضمائم والمشتقات، وتنتهي ببسط القضايا والموضوعات. فهل ترى تلاءمت هذه الأصول والإجراءات المنهجية، ولانت لخصوصية مصطلح الأمر على مستوى الدرس والعرض؟

٤ ـ ٢ ـ خصوصية المصطلح ومنهج دراسته

يتسم مصطلح الأمر ودرسه في القرآن ـ على الإجمال ـ بالخصوصيات التالية:

* خصوصيات نابعة من طبيعته، وهي تتمثل، كما قلنا آنفاً، في غزارة الموارد، وتنوع الصيغ والسياقات، وكثافة المعاني، واتساع الأبعاد، وتعدد الوظائف داخل الجهاز، وعلو الموقع في النسق والنظام... وكل ذلك أثمر تشعبا في مفهوم المصطلح، وتعقيداً في صياغة تعريفه، ووفرة وتميزاً في خصائصه وصفاته، وكثرة وتنوعاً في علاقاته وضمائمه، وتضخماً في قضاياه

---

(١) انظر: نظرات في منهج الدراسة المصطلحية/ ٧، ومشروع المعجم التاريخي/٢٩.

(٢) ينظر تفصيل ذلك في: مصطلحات النقد العربي/٢٧ ـ ٣٢، ومفهوم التأويل في القرآن والحديث/ ٤٠ ـ ٤١.

(٣) يراجع ذلك مبسوطا على الترتيب في: نظرات في المصطلح والمنهج/٢٢ ـ ٣١، ومشروع المعجم التاريخي/٢٩ ـ ٣٧، ومفهوم التأويل/٤١ ـ ٥٣.

وموضوعاته، وسيأتي بيان ذلك مفصلاً في موضعه بأدلته وشواهده.

* خصوصيات نابعة من طبيعة النص القدسي الذي وُضع فيه؛ إذ هو نص قرآني الأصل، وحداني المصدر، عالمي المقصد، عالي النظم، منسوق المفاهيم، على مستوى التنزل والتنزيل، وبشكل لا يقبل التغيير والتبديل، وإنما السبيل الوحيد الموصل إلى فهمه الفهم الصحيح، وتنزيله التنزيل الصحيح، هو الإتيان بما أمر الله من التدبر في أسرار معانيه ورباط مبانيه، **«بقلب سليم وسؤول»**[(١)]، والتزود بما يلزم لذلك من ضوابط للتبين والبيان صحيحة، ومدد من الصبر على كشف الحق الواضح وفيرة...

* خصوصية راجعة إلى موقع النصوص الحديثية التي ورد فيها من الدراسة الأصل؛ إذ روعي في تنزيلها على واقع البحث، أن تكون معضدة لنصوص القرآن فقط، مكملة لها، مقارنة بها - ما أمكن -، سواء على مستوى الإحصاء والتصنيف، أو على مستوى الدراسة والتحرير؛ ولا غرو في ذلك فإن «نقل الأحاديث تصديقاً لآيات القرآن أحسن شيء»[(٢)]، ولا سيما حين يتعلق الأمر بأحاديث **«الأمر»**، فهي من الكثرة الغامرة بحيث تستعصي على العد والدرس.

وإذا كان الأمر كذلك، كان من الحتمي المقضي أن تُسلك في هذه الدراسة المصطلحية إجراءات منهجية خاصة، نابعة من أصول المنهج الدارس، وملائمة لخصوصيات المصطلح المدروس والمتن المدروس، وذلك وفقاً لمرحلتين اثنتين:

أولاً: مرحلة الدراسة:

١ - إحصاء المصطلح وما يتصل به: وقد اتجه بالأساس إلى:

* إحصاء كل الآيات القرآنية التي ورد فيها المصطلح؛ إحصاء لا

---

(١) دلائل النظام/٥٥.

(٢) التكميل في أصول التأويل/٦٩.

يغادر مشتقاً من مشتقات جذره اللغوي والمفهومي، مفرداً كان أم مركباً، اسماً كان أم فعلاً أم مصدراً، معرَّفاً كان أم مُنكراً؛ إلا عده عدا.

* إحصاء التراكيب التي ورد بها مفهوم المصطلح دون لفظه؛ إحصاء لا أدعي له ـ كسابقه ـ التمام والكمال، نظراً لترابط مفاهيم القرآن، ودلالة بعضها على بعض بصفة عامة، وضخامة مفهوم الأمر، وموقعه الكبير داخل النسق القرآني بصفة خاصة.

* إحصاء القضايا العلمية التي يكتنزها مفهومه دون لفظه.

* إحصاء الأحاديث الصحيحة التي ورد بها المصطلح في الصحيحين أساساً، وفيما صححه غير الشيخين أحياناً؛ إحصاء يغلب عليه طابع الانتقاء لقرآنية الدراسة، لكن يدفع إليه، رغم عفويته، ابتغاء جزيل الثواب في الاعتناء بألفاظ الحديث الشريف أولا، وتدارك ما فات هذا البحث من إبعاد نصوصه من صلب الدرس ثانياً، إيماناً مني أن السنة وحي بعد القرآن، تطابقه وتدل عليه وتفسره. ومن ثم، فجمع ألفاظها وتصنيفها ـ وإن لم يتم بشروطه ـ أصل عظيم لفهم ألفاظه وشرح معانيه.

* إحصاء التعاريف والشروح التي شُرحت بها نصوص المصطلح، عبر مختلف الأعصار، ولدى مختلف العلماء، في مختلف المظان، معاجم لغة واصطلاح كانت أم كتب غريب وأشباه، وكتب تفسير وشروح حديث كانت أم كتب أصول وكلام، وغير ذلك من كتب الدارسين، من الذين حددوا مصطلح الأمر ضرباً من التحديد، فأعانوا بعض الإعانة على عملية التبين والتبيين.

٢ ـ تصنيف النصوص:

واستصحاباً للإحصاء الذي أُجري مرات، تم تصنيف النصوص المحصاة التصنيف التمهيدي التالي:

* تصنيف الآيات المتضمنة للأمر بحسب الصيغ الصرفية والتركيبية، وروعي في ترتيب الأولى: إلحاق الأفعال بالمصدر، وفي ترتيب الثانية: قوة

الصلة بالمصطلح؛ فالمركب الإضافي قبل المركب الوصفي، والمركب الإسنادي قبل المركب العطفي... كما أن التصنيف هنا لم يخل من ترتيب الآيات وفق النزول، ومن تصنيف أولي للمفاهيم حسب بنية المفهوم العامة، التي دل عليها لفظ المصطلح أو مفهومه.

* تصنيف الأحاديث بحسب ترتيب الصيغ السابق، وبمراعاة دلالات المصطلح وعناصره وموضوعاته في القرآن حسب بادي النظر، وما اختص به الحديث من استعمال للمصطلح قدر الإمكان.

* تصنيف الشروح اللغوية، والتفسيرية، والحديثية، وغيرها من الكتب الدارسة للمفهوم بتقديم أقدمها على أحدثها، وراجحها على مرجوحها، وأدقها على متساهلها، وأقربها إلى المجال القرآني للمفهوم على أبعدها منه.

٣ ـ دراسة المصطلح في النصوص المحصاة:

وقد تناولت:

* دراسة معنى المصطلح في اللغة والاصطلاح، اعتماداً على النصوص المستخلصة من المعاجم اللغوية فالاصطلاحية، وما في حكمها من الكتب الدارسة للمفهوم، والقصد منها:

- معرفة معاني الجذر الذي ينتسب إليه المصطلح، وتلمس تطورها الدلالي والاستعمالي عبر السير فيها من الحسي إلى العقلي، ومن الحقيقي إلى المجازي، ومن الوضعي إلى الاصطلاحي...

- تجميع تلك المعاني في أصل دلالي تشترك فيه كل مشتقات الجذر اللغوي للمصطلح.

- تحديد المعنى اللغوي الذي يُظن أن منه ـ عند الاصطلاح ـ كان التخلق.

- استخلاص الشروح الاصطلاحية التي شُرح بها المصطلح في أي مجال علمي، مع الحذر ـ ما أمكن ـ من إسقاطها على دراسة نصوص

المصطلح، والاقتصار على ما أضاء منها دلالة المفهوم، واختيار ما أعان منها على التدقيق في صياغة التعريف، وأفاد في تأييد ما تفرد به التحديد، وأجاد في تحليل سمة من السمات، ورد فهم خاطئ ببرهان. . .

* دراسة المصطلح وما يتصل به بكل آية من آياته؛ دراسة تستعين بكل ما يلزم لفهم القرآن الكريم، من أدوات تحليل الخطاب المقالية والمقامية والاستعمالية، ومن معطيات الإحصاء الرقمية والشكلية، ومن إجراءات المنهج النظرية والعملية، ومن معطيات الفهوم في جميع التخصصات العلمية، ولا سيما الفهوم التفسيرية، وذلك بهدف الفهم «السليم العميق للمصطلح في كل نص، والاستنباط الصحيح الدقيق لكل ما يمكن استنباطه مما يتعلق بالمصطلح في كل نص»[(١)]؛ وروداً كان أم دلالة، وصفة كان أم خصيصة، وعلاقة كان أم ضميمة، ومشتقاً كان أم قضية.

* دراسة المصطلح بكل نصوص الحديث التي أمكن استخلاصها بهدف التماس المطابقة والموازنة بين وروده فيها ووروده في القرآن الكريم، شكلاً وحجماً ومعنى؛ ذلك بأن الحديث على المطابقة التامة للقرآن، وموازنة مفاهيم المصطلح في القرآن بما أمكن الوقوف عليه من مفاهيمه في الحديث، تُفضي إلى العلم بما طوته تلك المفاهيم من خصوصيات مشتركة أو خاصة، وتؤكد اختلاف منهج القرآن والسنة وتكامله في التعبير عن المفاهيم وتقرير الأحكام.

٤ ـ تصنيف النتائج المستخلصة من الدراسة:

وقد تم وفق الخطوات التالية، على الترتيب:

* **التصنيف المفهومي الجزئي**: وقد تم عبر دراسة النتائج الجزئية المستخلَصة من تفهم كل آية على حدة، بالمقارنة بينها في ضوء ما وفرته

(١) نظرات في المصطلح والمنهج/٢٤.

الآيات من ضوابط لغوية، واشتقاقية، ومفهومية، وسياقية، وغيرها[1]، ثم تسجيل نتائج هذه المقارنة لاستثمارها في باقي الخطوات.

* **التصنيف المفهومي الكلي**: وقد تم عبر نسق نتائج التصنيف الجزئي السابق حسب الأركان المفهومية المكونة للمصطلح في كل نص، من تعريف له يحدد دلالته، وخصائص له تبرز مدى قوته وأهميته وموقعه، وصفات حاكمة له أو عليه، وعلاقات له تربطه بغيره، وضمائم إليه تكثر نسله، ومشتقات حوله من جذره، وموضوعات ترتبط به أو يرتبط بها، مما يتوقف على فهمها فهمه.

وقد روعي في تصنيف هذه العناصر، أن يكون مناسباً لحجم المصطلح الكبير ودلالته المتشعبة، ومستبصراً بالنتائج المستخلصة من النصوص الشارحة للمصطلح.

* **تحصيل التعريف**: وقد تطلب ذلك تجميع كل ما تقدم من معطيات الإحصاء ونتائج الدراسة والتصنيف في كل نص نص، ومحاولة تركيبه في صورة متكاملة تحدد كل العناصر والسمات الدلالية المكونة للمفهوم؛ تحديداً يراعي شرط مطابقة المفهوم للمصطلح في كل السياقات والنصوص... ولعل أهم ما ميز هذه الخطوة المنهجية، صعوبة تركيب تعريف جامع مانع للمصطلح، يستوعب كلياته وجزئياته ولوازمه، وذلك لأسباب أهمها: شمولية المصطلح المفهومية، وتمايز دلالاته المصدرية والاسمية، وتنوع مجالاته وسياقاته، وكثرة قيوده ومتعلقاته، وعموم إطلاقاته. لذا كان من اللازم لتحصيل معانيه المتشعبة، صياغة تعريف له، حاول

---

(١) كدراسة نتائج الآيات التي ورد فيها الأمر بصيغة الجمع تارة ثم مقارنتها بنتائج الآيات التي ورد فيها الأمر بصيغة الإفراد، ودراسة نتائج الآيات التي جاء فيها أمر الله بمفهوم التكليف، ومقارنتها بنتائج الآيات التي جاء فيها المصطلح بمفهوم التكوين، ودراسة نتائج الآيات التي ورد فيها المصطلح في سياق بيان الأحكام والتشريعات، ومقارنتها بالآيات الواردة في مقام الإنذار والوعيد للكافرين، وبيان كمال قدرة الله تعالى وهكذا...

تحديد القاسم المشترك الأعظم بين تلك المعاني، بشكل يفضي إلى العلم به في صورة متكاملة.

وبعد أن تمت هذه الخطوة الحاسمة في جلو ذات المصطلح وتشكيل هويته، تم الانتقال إلى وضع تصميم يراعي حجم المصطلح وواقع النصوص، وإنجاز تحرير أولي يروم تدريب القلم على الكتابة المصطلحية بتركيز، وتنزيل المعلومات المصطلحية والمستفادات العلمية مكانها المناسب من المتن أو الهامش، وانتقاء أصرح الشواهد وأجمعها للشوارد، ومراجعة التحقيقات والتعليقات بمزيد من التثبت والاحتياط في ضوء ما تكامل وتناسق من نتائج وخلاصات، ورصد العلاقات بين مفهوم المصطلح في القرآن ومفهومه في الحديث وباقي الفهوم...

وبالجملة، فقد أجريت محاولات في الكتابة مضنية، تراوحت بين إجمال وتفصيل، ومراجعة وتحقيق، ونظر وتعليق، وتهذيب وترتيب، وتقديم وتأخير، قبل الوصول إلى المنهج المختار لعرض المفهوم، حسبما أعطته القدرة والمنة.

ثانياً: مرحلة العرض:

لقد انعكست في مرآة العرض آثار الدرس السابق، وانتظمت منادية على نفسها بالخصوصية ضمن الأركان المفهومية التالية:

١ ـ التعريف:

وبه تظهر حقيقة المفهوم، وعليه يتوقف قوام صورته، وقد تضمن:

* التعريف اللغوي للأمر في المعاجم، وعُني في عرضه ببيان المدار الذي على مادة اللفظ يدور، والمأخذ الذي منه المعنى الاصطلاحي مأخوذ، والمعنى الذي به اللفظ مشروح.

ومما يُسجل أن هذا العرض لم يُتبع بعرض التعريف الاصطلاحي العام، كما هو معلوم ومعهود؛ نظراً لاهتمام أغلب شروح السابقين بتحديد

دلالات صيغة الأمر دون لفظه، وتأثر تلك الشروح بالمجال العلمي المدروس، كما تبين فيما تقدم. أما شروح المفسرين، وبعض جهود الأصوليين والمتكلمين، وغيرهم؛ فقد أوثر عرضها بوصفها خادمة لنصوص المفهوم، في المكان المناسب لذلك، وهو الهامش في الغالب، وذلك للإفادة منها في التعضيد، والنقد، والمقارنة، والتحقيق، بالقدر الذي يضيء عناصر المفهوم، ويخدم واقع النصوص.

* التعريف الاصطلاحي القرآني: وقد تمهد عرضه بإحصاء عام شامل لموارد المصطلح وأشكاله في القرآن الكريم؛ إحصاء توسل بالخطاطات والرسوم، لتحديد حجم الورود داخل آيات القرآن وسوره أولاً، ورصد كثافته بحسب النزول ثانياً، ووصف أشكال الورود وحجمها ثالثاً. وكل ذلك تُوج بعرض استنتاجات، أعانت على كشف طبيعة التدرج في حقائق المفهوم العامة وتنوع سياقاته، حسب مراحل الدعوة وملابسات النزول، وتعرف سمة التشعب والقوة والتنوع في دلالاته، وفق وفرة النصوص، وتنوع أحوال الورود.

وتبعاً لهذه المؤشرات الإحصائية والدلالية الموحية بضخامة المفهوم، تم عرض التعريف الاصطلاحي القرآني باستقراء مختلف معاني المصطلح المصدرية والاسمية؛ استقراء يراعي في صياغتها أدق الألفاظ، وفي الاستدلال عليها أصرح الشواهد وأوضح الموارد، مع التركيز على ذكر أحوالها ومساقاتها وأشكالها ودلالات ذلك[1]، واللفت إلى بعض المستفادات كلما أمكن ذلك، والحرص على إثراء تلك المعاني وتقويتها، وتذويق شرحها، وتكميل عرضها في الهامش؛ وذلك بإلحاق بعض المعاني التي ندَّت عن التعريف، وإيراد نصوص من الحديث الشريف، حسبما وفره الإحصاء والتصنيف؛ لتُقابل وتُقارن بها، ونصوص من نتاج الفهوم، ولا

---

(١) وعرض أحوال الورود وما يتعلق به هنا، بمثابة التفصيل لذلك الإحصاء العام، الذي رام وصف ورود المصطلح العام في القرآن، ورصد تطوره عبر زمن الإنزال، وتحليل ذلك بإجمال، مما أعان على فهم طبيعة المصطلح بشكل عام.

سيما نصوص التفسير «للتأييد عند الموافقة، ورجع النظر عند المخالفة»[١]؛ حتى يطمئن القلب بما يفهم من النصوص، فإنه أوثق وأبعد عن الخطأ والعقوق.

ومن هذا الاستقراء التام لمعاني اللفظ في القرآن، تم الانتقال إلى استنباط تعريف جامع لتلك المعاني، روعي في عرضه الجمع بين معنييه المصدري والاسمي، والتنسيق ضمن شرحه بين مجموع سماته الدلالية، بشكل يجلي صورة المفهوم متكاملة للفهم، ويفتح فيها نافذة إلى العلم. ولعل اختيار هذه الطريقة في العرض، رغم طولها، أن يكون الأوفق لتناول هذا «اللفظ اليسير المنطوي على المعنى الكثير»[٢]، باستقصاء جزئيات معانيه، وردها إلى كلياتها، وتحصيل وحدتها، كما هو مطلوب القرآن؛ والأهدى إلى تدبر حسن ترتيبه، وفهم تناسب معانيه في كل الأحوال والمقامات، مما يورث علما بنظام القرآن المعجز.

٢ ـ الخصائص والصفات والعلاقات:

وبها يتميز المصطلح، ومنها تتقوم حقيقته، وتتحدد طبيعته، بالنظر إلى غيره من المصطلحات. ونظراً لطبيعة هذا المفهوم الكثيفة وواقع نصوصه الكثيرة، فقد سارت طريقة عرض هذه الأركان ـ على الترتيب ـ كالتالي:

* تحديد الخصائص والسمات المميِّزة للمصطلح، المبينة لمداه الاصطلاحي، ووظيفته في الجهاز المصطلحي، وموقعه داخل النسق المفهومي. وقد حُلل المدى الاصطلاحي للمصطلح من خلال حجم الورود وأشكاله، وجدة المعاني وقوتها، وسعتها واستيعابها، واستُدل على هذا التحليل بما يناسب من الشواهد من موارد اللفظ واستعمالاته وعلاقاته، بشكل حدد طاقة اصطلاحيته، وسعة معانيه، وكشف التطور الدلالي الذي أحدثه القرآن فيه.

---

(١) التكميل/٧.

(٢) مقدمة جامع التفاسير/٧٣.

وامتدادا لذلك، بُينت وظائف المصطلح، وشُرحت طبيعتها، وحُللت مجالاتها وثمراتها بحسب طبيعة المعاني المحدَّدة في التعريف، وباعتبار تلك الوظائف والمعاني، حُلل موقع المصطلح انطلاقاً من تحديد نوع العلاقات التي تربطه بمجموع المصطلحات المنضوية في إهاب أسرته المفهومية، وتم إيضاحه بالرسوم والأشكال المناسبة لتَمثل صورة له واضحة المعالم، عالية المشارف.

* عرض الصفات الحُكمية التي أُلصقت بالمصطلح، نعتا كانت أم عيباً، باستقراء موضع ورودها وصيغها، وذكر مقامها في الآية والسورة ـ ما أمكن ـ وبيان دلالتها، في حال إفرادها وتركيبها؛ بياناً غالباً ما يُمهَّد له ـ عرضاً ـ ببيان دلالتها في اللغة وباقي القرآن، نظراً لأهميته في اختيار أصح التأويل، عند اختلاف الأقوال وتعدد الاحتمالات. وقد تُوج هذا العرض باستخلاص ما تلقيه الصفة على المصطلح من إيحاءات، وما تضيفه إليه من دلالات.

* عرض العلاقات الواصلة للمصطلح بسواه، والفارقة له عن سواه، وقد شمل:

● استقراء موارد العلاقة بتحريرها إذا كانت قليلة، والاكتفاء بالإلماع إلى مواضعها إن كانت كثيرة، مع ذكر أحوالها، ونظمها، ومقامها، ومقابلتها ومقارنتها بما وُجد من نظائرها في الحديث الشريف بالهامش.

● تحليل أوجه الائتلاف والاختلاف بين المصطلح وسواه، وذلك ببيان دلالة اللفظ المتعالق مع المصطلح المدروس في اللغة وفي اصطلاح القرآن، مع الاهتمام بدلالته في مورد العلاقة، وقد يجاوزه عند الاقتضاء إلى بيان دلالته أو أوجه تعالقه مع المصطلح في الاصطلاح العام (كما وقع في دراسة علاقة الأمر بالنهي والإرادة).

● تحديد نوع العلاقة الرابطة بين المصطلحين بتحليل أوجهها بحسب حجم العلاقة وأهميتها، وذلك من خلال معطيات المقام والمقال، وشواهد القرآن، وإفادات العلماء، وإيضاحات الجداول والخطاطات قدر الإمكان،

مع مراعاة اجتناب النمطية والتكلف في التسميات. . .

• بيان المستخلص والمستفاد من العلاقة، بحسب نوعها ومجالها، واستثمار ذلك في ترسيخ موقع الأمر داخل أسرته المفهومية، وتخريج قواعد منهجية لها تعلق بمنهج القرآن في البيان والدعوة والإرشاد، وفوائد علمية وعملية لها صلة بتصحيح الفهم والعمل، وأثر في تحريض الإنسان على الامتثال.

٣ ـ الضمائم والمشتقات:

وبهما يتسع المصطلح مفهومياً من داخل ذاته وخارجها. ولذلك تزاوج عرضهما هنا، وأشبه إلى حد كبير عرض مصطلح جديد ومفهوم جديد.

أما الضمائم، فقد سار عرضها مرَتباً حسب قوة علاقة اللفظ بالمصطلح المدروس، وقوة الاصطلاحية أو ضعفها في الضميمة؛ فكان السبق لضمائم الإضافة، فضمائم الوصف، فضمائم الإسناد، وللضمائم الاصطلاحية على الإضافات اللغوية العادية، وقد شمل هذا العرض:

* استقراء موارد الضميمة على نفس النهج السابق تقريباً.

* بيان مفهوم الضميمة، وذلك بدراسة اللفظ المضموم إلى المصطلح أو المضموم إليه المصطلح في اللغة واصطلاح القرآن، ثم تعريف الضميمة، وتحليل صفاتها وعلاقاتها إن وجدت، والإشارة إلى قضاياها ضمن مستفادات من نصوصها إن وجدت.

وقد سار عرض كل ذلك على نفس الطريقة الوصفية التحليلية السابقة، من استقراء للموارد، واستدلال على المفاهيم بالشواهد، وتحلية للهامش بالمقارنات والتعليقات والفوائد، وتحليل للعناصر المتعلقة بالضميمة بكل الأدوات والإمكانات من الداخل والخارج، مع اعتبار حجمها وأهميتها في التبين والبيان، وبحسب ذلك يكون البسط والتفصيل، أو الاختصار والإجمال، ولكل مقام مقال.

وأما المشتقات، فقد سار عرضها مرتباً حسب الاشتقاق، ونظراً لندرتها وقلة مواردها وضآلة عناصرها؛ تم التفصيل في تحديد دلالتها، بشكل يتناسب مع موقعها من العرض، وذلك بـ:

* تعريف المشتق في اللغة وفي الاصطلاح القرآني، تعريفاً يسير على الطريقة المعروفة في التعريف بالمصطلح الأم، مع الاقتصار في التعريف اللغوي على التذكير به أو الإحالة عليه حيثما عُرض سابقاً.

* عرض ما وُجد من عناصره على نحو ما تقدم في عرض عناصر المصطلح الأم، لكن بحسب ما يتطلبه المقام من تركيز واختصار.

* ذكر العلاقات المفهومية التي تربط المشتق بالمصطلح الأم، والفروق التي تفصله عنه، وحاصل ذلك والمستفاد من ذلك.

٤ ـ القضايا والموضوعات:

وتتضمن مختلف المعلومات والأبعاد والمستفادات المستنبطة من كل نصوص المصطلح وما يتعلق به، متسلسلة حول وحدة موضوعية مترابطة، متخذة أشكالاً مختلفة خاضعة لدراسة مستفيضة، تختلف تجلياتها وطريقة عرضها بحسب حجم كل قضية وموقعها وخصوصيتها.

ولما كان المصطلح المدروس ضخم الورود، ونصوصه متميزة بغزارة المفهوم، وعلو الموقع، وسعة الموضوع، وامتداد الأبعاد، وتنوع المجالات؛ فقد كان من المفروض أن يُخصَّص باب مستقل واسع لعرض كل المستفادات العلمية، والمعلومات المصطلحية، والموضوعات القرآنية المستخلصة من تحليل عناصره، والمستلهمة من دراسة نصوصه؛ في إطار قضايا موضوعية كبرى متلاحمة تكتسي صوراً متنوعة، أوحت بتسمياتها طبيعة المواضيع التي تطرحها النصوص نفسها. وقد شمل هذا العرض: تحليل كل قضية على حدة؛ تحليلاً يراعي حجمها وأهميتها وخصوصيتها (فقضية الأمر الإلهي مثلاً، ليس كمثلها قضية). وقد تطلب الأمر في هذا التحليل، من بين ما تطلب، شرح ما رُتب من نصوص القضية، ودراسة ما

أعان على بيان حقيقتها من مصطلحاتها، وإيراد ما ساعد على توسيعها وإثرائها من أحاديثها وشروحها، واستخلاص ما أعطاه تحليلها من مستفاداتها وإيحاءاتها، وتتبع منهج القرآن في إنزال آياتها وتقرير أحكامها، إلى غير ذلك من الإجراءات التحليلية التي سيأتي ذكرها لاحقاً في مطلع التفسير الموضوعي، وعرضُ تجلياتها على مدار هذا التفسير الكبير. . .

وإضافة إلى كل ما تقدم، فقد تم الحرص ـ ما أمكن ـ على:

* نسج خيوط الترابط المنطقي بين الأركان المفهومية للمصطلح في العرض، بل وبين كل أوصال هذا البحث ومعاقده؛ ليُفهم رباط مفاهيم المصطلح واعتناق بعضها ببعض وحسن ترتيبها، ويُلمس اتساق إجراءات المنهج الدارس وتكاملها.

* صيانة العرض عن التكرار إلا إذا توقف عليه إبراز التحام المعاني والأفكار، وزيادة فائدة غير ما كان، وتفصيل إجمال، وتذكير بكلام، وتقوية استنتاج. . .

* الإعراض عن التأويلات السقيمة التي قُصد بها تأييد مذهب وتعضيد مشرب، وتأويل متشابه وما أشبه، إلا ما سقته منها للتعليق والنقد والتحقيق.

* الكتابة بأسلوب فيه قدر من الإيحاء والإيقاع والتأثير، ولا سيما في قسم التفسير؛ أسلوب يلمس القلب ويستجيش الضمير إلى استشعار عظمة الخالق سبحانه وكمال خلقه وإبداعه، وتذوق إعجاز كلامه وحكمة أحكامه، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

* اعتماد ترتيب النزول في عرض الآيات التي ورد فيها المصطلح المدروس، يطرد ذلك ولا يكاد يتخلف إلا إذا غُلِّبَت أهمية الاستدلال على سمات المفهوم وأحوال الورود، بشكل يجعل تقديم المتأخر نزولا أنسب، وبالعكس.

أما غيرها من الآيات، فرُتبت حسب ورودها في النسق المصحفي لكثرتها كثرة غامرة تغطي سائر البحث، وتعذر خضوعها جميعاً لترتيب

النزول، واستُثني منها ما توقف على ترتيبه بحسب ذلك بيان مراحل الدعوة والتبليغ، ومسلك القرآن الحكيم في بيان أوامر هذا الدين، كما سيأتي عرضها ضمن التفسير الموضوعي.

* اتباع نهج الاختصار في الإحالة على المضان عموماً، والمعاجم اللغوية والاصطلاحية، وكتب التفسير، والوجوه والنظائر خصوصاً؛ فالتهذيب بدل تهذيب اللغة، وكشاف الاصطلاحات بدل كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، والوجوه عوض قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر، والمجموع أو الفتاوى بدل مجموعة الفتاوى، والبحر عوض البحر المحيط، والجامع بدل جامع البيان، والمجمع بدل مجمع البيان، وقد يُنسب التفسير إلى صاحبه أحياناً؛ كتفسير ابن كثير، وعند المزاحمة بين تسميتين يضاف المُميِّز؛ ككشاف الزمخشري، وكشاف الاصطلاحات...

٥ ـ خطته:

وفي ضوء ما تحدد من نطاق الموضوع، وتنزل من قواعد المنهج على واقع المفهوم، وتحصل من نتائج الدرس المصطلحي للنص المخصوص؛ جاء تخطيط هذا البحث في بابين كبيرين وخاتمة.

أما الباب الأول، فقد خُصص للدراسة المصطلحية، ويشمل ثلاثة فصول:

* **الفصل الأول**: جعلته لتعريف الأمر في القرآن الكريم، وضمنته مبحثين: (**أولهما**): التعريف اللغوي للفظ الأمر، و(**ثانيهما**): التعريف الاصطلاحي القرآني للأمر.

* **الفصل الثاني**: أفردت فيه بالدراسة خصائص الأمر وصفاته وعلاقاته، ضمن مبحثين: (**أولهما**): خصائص الأمر وصفاته، و(**ثانيهما**) علاقاته.

* **الفصل الثالث**: خصصته لدراسة ضمائم الأمر ومشتقاته، ويشمل مبحثين:

(**أولهما**): ضمائم المصطلح، و(**ثانيهما**): مشتقاته.

وأما الباب الثاني، فقد خُصص للتفسير الموضوعي، ويضم ـ على غرار سابقه ـ ثلاثة فصول:

* **الفصل الأول**: بسطت فيه قضية الأمر الإلهي ضمن مبحثين كبيرين: (**أولهما**): الأمر الإلهي التكويني، و(**ثانيهما**): الأمر الإلهي التكليفي.

* **الفصل الثاني**: حللت فيه قضية الأمر الشيطاني، في خمسة مباحث:

(**أولها**): حقيقته، و(**ثانيها**): متعلقاته، و(**ثالثها**): أسبابه، و(**رابعها**): نتائجه، و(**خامسها**): أبعاده.

* **الفصل الثالث**: درست فيه قضية الأمر الإنساني الموسومة بـ«**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»، ويشمل ـ كسابقه ـ خمسة مباحث: (**أولها**): حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و(**ثانيها**): شروطه، و(**ثالثها**): مراتبه، و(**رابعها**): صفات الآمر والناهي، و(**خامسها**): القِيم في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما الخاتمة، فخُصصت لأبرز الخلاصات العلمية التي أسفر عنها البحث، والفوائد المنهجية التي كشفت عنها الدراسة.

٦ ـ صعوباته:

إن إخراج هذا البحث وفقاً للمنهج المرسوم، وطبقاً لخصوصية الموضوع، وطبيعة المصطلح المدروس؛ قد حفته عقبات ومهالك، واعترضته صعوبات ومكاره، لعل من أبرزها:

* صعوبة هضم منهج الدراسة المصطلحية، وفهم قواعده وإجراءاته وعباراته، وذلك بسبب غياب تجربة سابقة فيه، ودربة كافية عليه، فضلاً عن جدته وندرة تطبيقاته، وخاصة على المصطلح القرآني الكريم. وقد اضطرني ذلك إلى التنقيب ـ جهد الإمكان ـ عن كل ما كُتب من دراسات وأبحاث

ورسائل وأطروحات عن المصطلح في أي مجال من المجالات، بهدف التفقه النظري والعملي، واستلهام التطبيق الأمثل لهذا المنهج على المصطلح المدروس في مجال بحثي. ومهما أنس من شيء، فلن أنسى نظرات منهجية تلمست في ضوئها المعالم الكبرى لهذا المنهج الجديد؛ نظرات عظيمة الشأن، متكاملة الأركان، لفارس هذا الميدان، أستاذنا الجليل الدكتور الشاهد البوشيخي (حفظه الله تعالى)، فضلاً عن دراسات له تطبيقية على مصطلحات نقدية **«تتصف بالعمق والمنهجية العلمية»**(١). ومهما أنس من شيء، فلن أنسى دورات تدريبية هامة عُقدت لفائدة المهتمين بالدراسة المصطلحية، سايرت أطوار هذا البحث الجنينية، ودراسات رائدة جادة أنجزها أساتذة باحثون، استبصر بها هذا البحث استبصاراً، لكونها شرحت بعمق كتابات أستاذنا النظرية، ودرست باقتدار مصطلحات أصولية وقرآنية(٢)!

ورغم هذه المعالم والدراسات، التي شقت لي الطريق، وذللت لي السبيل إلى استيعاب ذلكم المنهج العلمي الجديد، فقد بقي الفهم من بعض إجراءاته؛ كتحليل الخصائص وتصنيف المفاهيم في **«أمر مريج»**، وذلك بسبب طبيعة المصطلح المتشعبة؛ فضاق الصدر، وحار الفكر إلى أن أتى الله بفتح وأمر من عنده، بعد أن شارف القلم على إنهاء التحرير.

* صعوبة تنزيل هذا المنهج العلمي على مصطلح قرآني كبير في كل مراحل دراسته، انطلاقاً من مرحلة الجمع والاستيعاب، ومروراً بمرحلة التفهم والاستنباط، ووصولاً إلى مرحلة التركيب والبناء؛ وذلك لأن دراسة مثل هذا اللفظ الكبير في نص قدسي كالقرآن الكريم، أمر عسير غير يسير؛ إذ يحتاج من الباحث قدرة فائقة على السبر والتقسيم، ورد جزئيات معانيه إلى كلياتها، وتفهماً سليماً لنصوصه بتحليل سياقاتها المقالية والمقامية،

---

(١) مصطلحات نقدية وبلاغية/١٠.

(٢) مثل: المصطلح الأصولي في تراث الشاطبي: د فريد الأنصاري، ومفهوم التأويل في القرآن الكريم والحديث الشريف: د فريدة زمرد.

والاستعانة بسائر المعارف الممكنة، منهجية وعلمية. . .، وتتطلب منه جهدا كبيرا في صياغة نتائج التفهم ضمن بناء هندسي متماسك، يُتوخى منه الكشف عن البنية المفهومية للمصطلح، وموقعه في نسق القرآن الكريم، وذلك يقتضي المثابرة في إجادة التلخيص والترتيب، ودقة اختيار الشهود للتمثيل، وإجراء ما يناسب العرض من تعديل، سواء كان بالذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والإجمال والتفصيل، والحرص ـ ما أمكن ـ على الموازنة بين الهامش والمتن، واستحضار ذلكم الهدف الأسمى من الدراسة في كل مراحل البحث، واجتناب ـ ما أمكن ـ النمطية في تسمية عناصر العرض، والحشو والإخلال في اللغة. . . وغير ذلك مما تقضي به طبيعة العرض المصطلحي، وتحكم به أدبيات البحث العلمي، وما أشق كل ذلك على الباحثين الأغرار الناشئين، الذين ما زالوا يتلمسون موطئ قدم بين الدارسين المصطلحيين!

* صعوبة الإفادة من الكتب الدارسة للمصطلح، ولا سيما في مجال اللغة والتفسير. أما بالنسبة لكتب اللغة، فلأن في جلها نقصا في الاستيعاب، يحتاج إلى جهد في تكميل بعضها ببعض، والتنسيق بين معاني المصطلح فيها لتحصيل أصله الدلالي. وأما بالنسبة لكتب التفسير، فإن من مضاعفات الجهد والمشقة في التعامل معها: ضخامة النتاج، وكثرة الآراء، وتشاجر الروايات، حتى ليكاد الباحث المصطلحي أن يتيه في مساربها، ولا يظفر فيها بالمعنى الأرجح والحكم الفيصل. لذا كان لا بد من بذل البذل في فهمها، ونخلها؛ لتوظيفها في المقارنة والتعضيد، والنقد والتعليق، والتوسيع والتحقيق، وغير ذلك. . .

وإلى الله تعالى أضرع أن يري هذا الفهم لمصطلح الأمر في القرآن في الأخلاق والأعمال؛ فإن «**أوْضَعَ العلم ما وقف على اللسان، وأَرفعه ما ظهر في الجوارح والأركان**»[1]، وأن يجعل هذه الدراسة في ميزان الحسنات يوم

(١) نهج البلاغة: ٢٠/٤.

يُرجع الأمر إليه سبحانه، وأن يحقق بها النفع المرجو، والأثر المأمول، ويكتب لها النجاح والتوفيق والقبول. والله من وراء القصد، وله الأمر من قبل ومن بعد، ومنه التوفيق وبه المستعان.





الباب الأول:
الدراسة المصطلحية





بين يدي الدراسة

لا جرم أن الدراسة المصطلحية هنا تصدق على دراسة مصطلح الأمر داخل كل نص من نصوصه في القرآن الكريم؛ دراسة تحليلية تجزيئية تمر بخطوات منهجية، كما تصدق أيضاً على عرض نتائج تلك الدراسة التجزيئية للنصوص، ونسقها في ترتيب منطقي يتساوق مع أركان المصطلح المفهومية.

وليس من ريب أن هذا العرض لم يكن ليظهر في مرآة هذا البحث لولا بذل البذل في سلوك السبيل الوعر، وهو دراسة مصطلح الأمر في كل نص؛ إحصاءاً وتصنيفاً، وتفهماً وتدقيقاً، وتحليلاً وتعليلاً، واستنباطاً وتركيباً. . .

ولقد بُذل البذل زمناً غير يسير في السير على طريق الدرس العسير، قبل البلوغ إلى مرحلة التحرير؛ فأحصي مصطلح الأمر: لفظا ومفهوما وقضية، وأدخل إلى مختبر التحليلات المجهرية التجزيئية، وهناك قطرت من جميع نصوصه المعلومات المصطلحية، والفوائد العلمية، والنوافح الربانية، بمعونة أدوات الفهم المقالية والمقامية، والإحصائية والمعجمية، والمنهجية والمعرفية. . .، ثم أخرج من هذا المختبر التحليلي بإعادة تركيب المعلومات والمعطيات التي فُهمت منه، واستُنبطت من نصوصه، وما يتعلق بها، وتصنيفها تصنيفاً مفهومياً ضمن ترتيب منهجي دقيق يراعي العناصر المكونة لمفهومه، من تعريف له يحدده، وخصائص وصفات له تخصه وتميزه، وعلاقات له تربطه بغيره، فتزيد ذاته شخوصا، وضمائم إليه تبرز نموه

الداخلي، ومشتقات من حوله تشي بنموه الخارجي، وقضايا تتصل به ويتصل بها، مما يستلزمه تفهم المفهوم في أبعد آفاقه.

والآن، وبعد أن أحصي المصطلح، ودرس الدراسة المعجمية فالنصية فالمفهومية، على المقرر في منهج الدراسة المصطلحية؛ نركب مطية البحث، ونقود الخطى في اتجاه البدء من حيث انتهى بنا الدرس؛ في اتجاه عرض نتائج هذا الدرس وطرح ثمراته ضمن الأركان المفهومية الكبرى للمصطلح، وأولها: التعريف، وثانيها: الخصائص والصفات والعلاقات، وثالثها: الضمائم والمشتقات. أما الركنان الأولان فيمثلان ما به يقوم المفهوم المستخلص من النص المدروس، وسوف نجتليهما في فصلين: (الأول): تعريف الأمر في القرآن الكريم، و(الثاني): خصائص الأمر وصفاته وعلاقاته في القرآن الكريم. وأما (الثالث)، فيمثل امتدادات المصطلح الملتصقة بذاته، وسيتم عرضه في فصل: ضمائم الأمر ومشتقاته في القرآن الكريم.

ولما كانت القضايا أو الموضوعات المتصلة بالمصطلح وبنصه وما يتعلق به العنصر الأخير من عناصر العرض، الذي يمثل امتدادات المفهوم الخارجية، ولما كانت هذه الامتدادات كثيرة ومتشعبة، ولا يمكن حصر تجلياتها في فصل ومباحث؛ فقد كان لزاماً أن يُفرد لدراستها وتحليلها ما أمكن باب واسع، هو باب التفسير الموضوعي، الذي سيُفتح على مصراعيه بعد إغلاق باب الدرس المصطلحي.



الفصل الأول

تعريف الأمر في القرآن الكريم





تمهيد

للتعريف في صرح الدراسة المصطلحية موقع الحجر الأساس الذي تُبنى عليه سائر أركان البناء، أو موقع الهيكل العظمي الذي تُبنى عليه سائر المكونات والمقومات التي تشكل الصورة الكاملة للإنسان. وليس ذلك غلوا في البيان، فإن التعريف هو الذي يحدد هوية المصطلح وهيكله العام بتضمنه لكل السمات الدلالية المكونة للمفهوم، والتي على أساسها تُبنى سائر المقومات والامتدادات. وليست تلك السمات إلا حصيلة لدرس مصطلحي للمصطلح مضن في المعاجم اللغوية فالاصطلاحية، ثم في المجال العلمي المخصوص، في المتن المدروس.

وبما أن الدرس في هذا البحث درس مصطلحي، وبما أن مصطلح الأمر هو موضوع هذا الدرس، وبما أن هذا المصطلح قرآني النص، وتعريفه هو الفرض الأول في العرض، وبما أنه ما من تعريف مصطلحي إلا ويتضمن مفهوم المصطلح، مُعَبَّراً عنه بأدق لفظ، مما يتحصل من مجموع المعطيات الإحصائية والمعجمية والدلالية المستفادة من كل نص.

بما أن الأمر كذلك؛ فقد كان من الحتمي أن يُشقق فصل التعريف إلى مبحثين:

(الأول): التعريف اللغوي للأمر، وفيه سيتم استخلاص مختلف المعاني والدلالات التي تدور عليها مشتقات الجذر «أمر» في المعاجم اللغوية، مع التمثيل لكل معنى بما يناسبه من نصوص العربية شعراً ونثراً،

ثم استنباط الأصل الدلالي المشترك بين تلك المعاني، واقتناص المأخذ اللغوي الذي انطلق منه المصطلح وتطور حتى صار خلقاً آخر... وكل ذلك مما يمهد السبيل إلى فقه المصطلح وتذوقه؛ تذوقا يضيء دلالته الاصطلاحية التي سيؤول إليها في الاستعمال القرآني.

(الثاني): التعريف الاصطلاحي القرآني للأمر، وفيه سيتم بيان مفهوم المصطلح انطلاقا من مجموع نصوصه في القرآن الكريم. وللعروج إلى هذا المفهوم كان لا بدَّ من المرور بمسلكين:

(الأول): الإحصاء الكامل لموارد المصطلح من حيث أحجامها وأشكالها، ثم استخلاص إيحاءاتها ودلالاتها على العموم، وذلك مما يمهد السبيل إلى تجلية دلالات المصطلح وصيغ موارده على الخصوص.

(الثاني): استقصاء معاني المصطلح المصدرية والاسمية في مطلبين، والتمثل لها جميعاً بما يدل عليها من موارد، ثم بيان مساقات هذه الموارد وأحوالها وأشكالها، ودلالات ذلك، والمستفاد من ذلك ما أمكن.

وانطلاقاً من تلكم المعاني القرآنية، سيتم استنباط التعريف المختار للمصطلح، مشفوعاً بشرحه وبيان الأواصر المفهومية الرابطة بين عناصره.

وفي ضوء ما تقدم من خطوات لكيفية العرض، نمضي باسم الله في وضع تعريف لمصطلح الأمر في اللغة وفي القرآن الكريم، راجين أن يكون من معنى كلامه سبحانه قريباً، وأن يؤسس فهما لمصطلح الأمر صحيحاً، ويثمر عملاً بأحكامه صالحاً.





المبحث الأول:

مفهوم «الأمر» في اللغة

تدور مادة «أ. م. ر» في المعاجم على أربعة معان وهي:

المعنى الأول:

(الأَمر) نقيض النهي[١] وجمعه أوامر[٢]، وهو «مصدر أمرته: **إذا كلفته**

---

(١) ينظر العين ومقاييس اللغة ولسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس/أمر.

(٢) وهذا الجمع هو الذي شاع ذكره في المعاجم المتأخرة، التي أشربت تحقيقاتها اللغوية في (الأمر) بعضاً من مباحث الأصوليين المسهبة، فاتسعت لمثل التدقيق في مسألة الجمع؛ حيث نقل الزبيدي ما نصه: «وقد وقع في مصنفات الأصول الفرق في الجمع، فقالوا: الأمر إذا كان بمعنى ضد النهي فجمعه أوامر، وإذا كان بمعنى الشأن فجمعه أمور، وعليه أكثر الفقهاء، وهو الجاري على ألسنة الأقوام»، وهذا الفرق بين الجمعين دليل فريق من الأصوليين القائلين بإطلاق لفظ (الأمر) على الفعل حقيقة: (انظر المعتمد في أصول الفقه: ٤٧/١).

ونحن إذا نظرنا فيما ذكره النحاة من أبنية الثلاثي، لم نجد أن فَعْل ـ بفتح الأول وسكون الثاني ـ أو شيئاً من الثلاثيات يُجمع على فواعل، في حين نجد أن القياس في «فَعْل» أن يأتي في الكثرة على «فِعال» و«فُعول»، كما نجد أن بناء «فاعل» و«فاعلة» يجمع في التكسير على «فواعل»: (انظر: شرح المفصل: ١٥/٥، ٥٢، ٥٤).

ومن هنا، قال الزبيدي ـ نقلاً عن المحكم ـ : «لا يُجمع (الأمر) إلا على (أمور)» وهذا الجمع هو الذي استعمله القرآن الكريم والحديث الشريف دون سواه، باستقراء مواضعه فيهما، على ما سيأتي بيانه. وحكى أبو الحسين البصري في المعتمد: ٤٨/١، عن أهل اللغة «أن «الأمر» لا يُجمع «أوامر»، لا في القول، ولا في الفعل؛ وأن «أوامر» جمع «آمرة»» والآمرة: الأمر، وهو أحد المصادر التي جاءت على فاعلة؛ «كالعافية» و«العاقبة»...»: (انظر اللسان والتاج/أمر). =

أن يفعل شيئاً»[١]، وفيه معنى طلب الفعل[٢] والعرب تقول: «أمرتُك أن تَفعل ولِتفعل وبأن تَفْعل»[٣]، ويقال: «لك علي أَمْرَة مُطاعة؛ أي: تأمرني مرة واحدة فأطيعك»[٤]، وجماع هذه الاستعمالات يدل على الطلب، وهو المعنى الظاهر للأمر، وينضوي في إهاب المشتقات التالية:

* (الإِمْرَة) و(الإِمارَة)[٥]: ....

= ولعل هذه التحقيقات اللغوية توضح كيف جرى جمع الأوامر على ألسنة اللغويين والأصوليين، على مخالفته للقياس؛ إذ الغالب ـ والله أعلم ـ أنهم نزلوا «الآمرة» منزلة «الأمر» بمعنى نقيض النهي، فأطلقوا جمعها على جمعه. وتصحيحاً لهذا الجمع نقل صاحب المصباح عن بعض الأئمة في تأويل الأمر: «إن الأمر مأمور به ثم حُول المفعول إلى فاعل، كما قيل: أمر عارف، وأصله معروف... ثم جُمع فاعل على فواعل، فأوامر جمع مأمور». ولعل في هذا التأويل تكلفاً، وإن كان يصح على مقتضى قواعد العربية في جمع «فاعل».

(١) المفردات/أمر. وقد يراد بالمصدر المفعول، كما في التأويل السابق: «أن الأمر مأمور به»: (انظر المصباح والتاج/أمر وكذلك مجموعة الفتاوى: ٢٤٥/٨/٤ والتفسير الكبير: ٣٧٢/٧).

(٢) المصباح وعمدة الحفاظ/أمر، وانظر كذلك إرشاد الفحول: ٩٤، والحدود الأنيقة: ٨٤.

(٣) التاج واللسان/أمر، وبيان ذلك أن فعل الأمر يتعدى بحرف الباء. وأكثر ما ورد في القرآن الكريم من أفعال الأمر على مقتضى هذه القاعدة العربية؛ مثل: آية الأعراف: ١٥٧ ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾. ويحذف حرف الجر قبل «أن» المصدرية بقياس مطرد؛ ومن ذلك: آية الأنعام/١٤ ﴿يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: بأن أكون أول من أسلم.
وقد يجيء فعل الأمر في بعض النصوص القرآنية متعديا، في ظاهره، «باللام»، وبالتدبر يتكشف أن هذه «اللام» هي لام التعليل للمأمور به المحذوف، وذلك في مثل آية البينة: ٥ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية، أي: وما أمروا بكل أوامر التكليف التي أُنزلت إليهم وبلغها رُسُلُهم إلا لأجل أن يعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء: (انظر قواعد التدبر الأمثل: ٥٤٧، ٥٤٨ ـ بتصرف ـ).

(٤) أساس البلاغة، وكذلك الصحاح والمقاييس والجمهرة واللسان والمصباح والقاموس والتاج/أمر.

(٥) ذكر الجوهري أن «الإمرة» مصدر «أَمَر» و«أَمُر». وقرنه ابن منظور بالإمارة؛ إذ قال: «والمصدر الإمرة والإمارة»، في حين ذكر الفيروزآبادي أن الأمر مصدر «أَمَرَ علينا» والإمرة=

الولاية[١] يقال: «أَمَر فلان وأَمُر يَأْمُر: إذا **وَلي**»[٢] أو «صار أميرا»[٣]، و«التأمير: تولية الإمارة»[٤]. يقال: «هو أمير مُؤَمَّر»[٥] و«تأمر عليهم؛ أي: **تَسَلَّط**»[٦].

* **(الائتِمَار)**، وهو «كالمؤامرة[٧] والاستئمار[٨]»[٩]. وأصله: **قبول الأمر وامتثاله**[١٠] يقال: «ائتمر الأمر: **امتثله**»[١١] و«ائتُمر بخير؛ كأن نفسه

= اسم، ونسب قول الجوهري إلى الوهم. وقد استدرك عليه الزبيدي معقباً بقوله: «. . .لعله ـ أي: الجوهري ـ أراد كونه مصدراً على رأي من يقول في أمثاله بالمصدرية، كما في النِّشْدَة وأمثالها. . . أو جاء به على حذف مضاف؛ أي: اسم مصدر الإمرة ـ بالكسر ـ، أو غير ذلك. . .»: (انظر: الصحاح واللسان والقاموس والتاج/أمر).

(١) الصحاح والتاج/أمر. والإمارة بهذا المعنى وردت في مثل وصية النبي ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «**لا تسأل الإمارة**. . . الحديث» رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، رقم: ٦٦٢٢.

(٢) التاج/أمر.

(٣) وهو قول الأصمعي وابن الأعرابي: انظر تهذيب اللغة والمقاييس والصحاح واللسان/أمر.

(٤) الصحاح/أمر وفي المصباح: «أمَّرته تأميراً فتأمَّر» والتعدية بالتضعيف أمكن في معنى الأمر.

(٥) العين والمقاييس والصحاح/أمر. وفي القاموس: «المؤمر: المُمَلَّك».

(٦) الصحاح/أمر.

(٧) يقال: آمرته ـ بالمد ـ في أمري مؤامرة: إذا شاورته: (اللسان والمصباح/أمر).

(٨) يقال: آمره في أمره، ووَامره، واستأمره: شاوره: (التاج/أمر). ومن الاستئمار في الحديث قول رسول الله ﷺ: «**لا تُنكَح الأيم حتى تُستَأمر، ولا تُنكَح البكر حتى تُستَأذن**»: (رواه مسلم في النكاح، من حديث أبي هريرة رقم: ١٤١٩).

(٩) التاج/أمر.

(١٠) المفردات/أمر (بتصرف).

(١١) الصحاح والأساس واللسان/أمر، وشاهده من الشعر قول امرئ القيس: «وَيَعْدُو عَلى المَرْءِ مَا يَأْتَمِرُ»؛ أي: ما تأمُره به نفسه فيرى أنه رشد، فربما كان هلاكه في ذلك: (الصحاح/أمر) و«المؤتمر»: «المستبد برأيه. . .كأن نفسه أمرته بشيء فَائْتَمَر؛ أي: أطاعها»: (اللسان/أمر) ونقيضه: الإِمَّرْ؛ أي: الضعيف الرأي الأحمق: (المقاييس/أمر)؛ لأنه يستأمر كل أحد في أمره: (تهذيب اللغة/أمر) أخذاً من قولهم: «الإِمَّرُ: الصغير من أولاد الضأن»: (الصحاح/أمر).

أمرته به **فقبله**»[١] و«ائتمر القوم وتآمروا، إذا أمَر بعضهم بعضاً»[٢]، ثم شاع استعمال الائتمار في **التشاور في الشيء والهم به**، قال الراغب: «ويقال للتشاور ائتمار لقبول بعضهم أمر بعض فيما أشار به»[٣]، ومنه قولهم: «ائتمر القوم **إذا تشاوروا**»[٤]، وقال الجوهري: «وائتمروا به، **إذا هموا به وتشاوروا فيه**[٥]».

* **(التَّأمُور)**[٦]، تفعول من الأمر، وهو **الأمر والنفس** لأنها الأمارة[٧]. ولعل أصل استعماله في وعاء كل شيء؛ ومنه قيل: «التأمور: الحُقَّة يُجْعل فيها الخمر، والإبريق. والتأمور: عريسة الأسد...»[٨].

المعنى الثاني:

(الأَمْرُ) واحد من أمور الناس[٩]، ويستعمل في **الحادثة**[١٠] **والحال، والشأن**[١١] **والشيء والصفة**[١٢] يقال: «وقع أمر عظيم، أي: **الحادثة**»[١٣] و«أمر فلان مستقيم، أي: **شأنه** وأموره مستقيمة»[١٤]، وهو ما يشير إليه

---

(١) التاج/أمر.
(٢) تهذيب اللغة والتاج/أمر.
(٣) المفردات/أمر.
(٤) تهذيب اللغة واللسان/أمر.
(٥) الصحاح/أمر.
(٦) قيل في أصل الكلمة: إنها سريانية، وهي تتردد في المعاجم المتأخرة: انظر القاموس والأساس واللسان والتاج/أمر.
(٧) أساس البلاغة وتاج العروس/أمر.
(٨) اللسان والقاموس والتاج/أمر.
(٩) العين وتهذيب اللغة/أمر.
(١٠) اللسان والتاج/أمر.
(١١) المصباح والمفردات والتاج/أمر.
(١٢) الكليات/أمر.
(١٣) اللسان والتاج/أمر. ومثلوا له من القرآن بقوله تعالى، من آية الشورى: ٥٣ ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.
(١٤) الصحاح واللسان والتاج وتهذيب الصحاح/أمر.

شمول الأمر للأقوال والأفعال كلها»[١]. ومن قولهم: «لأمر ما كان كذا، أي: **لشيء ما**»[٢] وفي المثل: «لأمر ما يُسَوَّدُ من يسود»[٣]؛ أي: **لصفة من** صفات الكمال»[٤].

المعنى الثالث:

(**الأَمَرُ**)[٥] و(**الأَمَرَة**) مصدر «أَمِرَ يَأْمَرُ»[٦]. ومداره في المعاجم على **الكثرة والنماء والبركة**[٧]. وأغلب استعماله في كثرة المال والنسل والنتاج؛ من قولهم: «أَمِرَ المال؛ أي: **كثُر**»[٨]، و«في وجه المال تعرف أَمَرَتَه؛ أي: **نماءه وكثرته ونفقته**»[٩]، و«الأَمِرُ: الرجل المبارك، يقبل عليه المال، وامرأة أَمِرَة: مباركة على بعلها... وكله من **الكثرة**»[١٠]، وتقول العرب: «أَمِرَ بنو فلان... أي: **كثروا وكثرت نعمهم**»[١١]، و«أَمِرَ الأمْر، أي: **كبُر وكثُر**؛

---

(١) ومثل الراغب لهذا الشمول بآية هود: ١٢٣ ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ وانظر كذلك ما في عمدة الحفاظ/أمر.

(٢) الكليات/أمر.

(٣) وهذا المثل استعمله أنس بن مدركة الخثعمي في شعره، قال: عَزَمْت على إِقَامَةِ ذِي صَباح لأمر ما يُسودُ من يسود: (راجع المقاييس/أمر).

(٤) الكليات/أمر.

(٥) هكذا ضُبطت في الصحاح واللسان والقاموس، بفتح الميم، وضُبطت في اللسان والتاج بسكون الميم.

(٦) الصحاح واللسان والقاموس/أمر.

(٧) انظر الصحاح: ٥٨١/٢، وتهذيب اللغة: ٢٩٢/١٥، والمقاييس: ١٣٧/١، والأساس/١٩. ومثل ذلك معنى الزيادة. وقد حكاه صاحبا التهذيب واللسان، عن الفراء، وشَرَح به صاحب الأساس قول العرب: «ألقى الله في مالك الأَمَرَة».

(٨) تهذيب اللغة واللسان/أمر. وفي الجمهرة: «أَمَرَ الله مالَكَ وآمره ـ بالفتح والمد ـ أي: أكثره»، وهما لغتان، كما في الصحاح. وفي القاموس: «أَمَرَه الله وآمره كنصره؛ لُغَيَّة، ومنه في الأساس: «مهرة مأمورة: كثيرة النتاج، كأنها أُمِرَت بذلك، وقيل لها: كوني نثورا فكانت».

(٩) الصحاح/أمر.

(١٠) التاج/أمر.

(١١) العين والمقاييس واللسان/أمر.

كقولهم: «استفحل الأمر»[١] واشتق منه الاسم الإمر ـ بالكسر ـ، جاء في التاج: «أَمْر إِمْر: . . . اسم من أَمِرَ الشيء إذا اشتد؛ أي: منكر عجيب»[٢].

المعنى الرابع:

(الأَمَار) و(الأمارَة): الوقت والعلامة[٣] ومنه قيل **لمعالم الطريق**: أَمارٌ، والواحدة أمارَة[٤]، وسُمي **العلم الصغير** من أعلام المفاوز من الحجارة أَمَرا، جمع أَمَرَة[٥]، «وكل **علامة** تعد، فهي أمارة، وتقول: «هي أمارة ما بيني وبينك، أي: **علامة**»[٦]، ويقال: «جعلت بيني وبينه أمارة **ووقتاً وموعداً وأجلاً**، كل ذلك أمار»[٧].

تعليق:

ومن مجموع ما ورد في معاجم اللغة من معاني الأمر واشتقاقاته، يمكن أن يستفاد:

---

(١) المفردات والمقاييس/أمر، ومنه حديث أبي سفيان: «لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة. . .» ـ يعني النبي ﷺ ـ : (رواه البخاري في الجهاد والسير، رقم: ٢٩٤١، ومسلم رقم: ١٧٧٣. وفي اللسان والتاج بإضافة: «وارتفع شأنه»).

(٢) التاج/أمر. وبمعنى المنكر فسر الراغب «إمراً» من آية الكهف: ١٨، أخذا من قولهم: أَمِرَ الأمر؛ أي: كُبر وكثُر. وردَّ ابن فارس «الإمر» إلى معنى العجب، وجعله أصلاً خامساً من أصول المادة. ولعل الصواب أن يُرَد إلى معنى الكثرة وما في حكمها؛ لأن مأخذه اللغوي ـ كما تبين ـ يشهد بذلك.

(٣) الصحاح/أمر. وفي القاموس: «الأمارة والأمار: الموعد، والوقت، والعلم»، وفي المقاييس: «المعلم والموعد»، وفي التاج: «الأمار والأمارة: العلامة، وفي التهذيب: «والأمار: الوقت والعلامة».

(٤) المقاييس والتاج/أمر.

(٥) الصحاح والتاج/أمر. وفي اللسان والتاج: «وأمارة مثل أَمَرة» لذلك قال ابن سيدة: «الأَمَرَة: العلامة. . . والأمَرة أيضاً: الرابية» وفي تهذيب اللغة: «الأَمَرُ: الحجارة».

(٦) تهذيب اللغة واللسان والتاج/أمر.

(٧) المقاييس/أمر.

أولاً:

أن معاني الأمر موصولة ببعضها رغم تمايز صيغ ألفاظها؛ (فالأمر) من الأمور لا يكون إلا بأمر من الأوامر[١]، وقيل (للأمر): أمر، باعتبار طلب الفعل[٢]، وقيل له: أمر، تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه **مأمور به**[٣] كما قيل له: **شأن**، و«الشأن: **الطلب**، من قولهم: «ما هذا شأني، أي: ما هذا من **مطلبي** والذي أبتغيه»[٤] و«شأنت شأنه، أي: قصدت قصده».

و(الائتمار) لا يكون إلا في أمر وبقبول أمر، وذلك لأن **المتشاورين** يقبلون أمر بعض بعضاً في أمر من الأمور، وكل قوم **تناسلوا وتكاثروا** (أَمِرَ) أمرهم، وصاروا ذا (أمير)، «من حيث إنه لا بد لهم من سائس يسوسهم»[٥].

ثانياً:

أن هذه المعاني المؤتلفة مردها ـ عند التأمل ـ إلى أصل واحد، وهو **الظهور**؛ ومنه قيل للشيء إذا كثُر: (أمِر) ومع الكثرة **ظهور** الشأن[٦] ومن ثم قيل: (الإِمَارة) **لظهور** الشأن، وسمي (الأمْر) أمراً **لظهور** شأن الآمر وعلوه على المأمور[٧]، كما سُميت المشورة (ائتماراً) **لظهور** الرأي بها، وقيل: «للعلامة **الظاهرة** (أَمَارة)»[٨].

وبلمح هذا الملحظ الدلالي المشترك بين صيغ المادة في شتى

---

(١) وشاهده قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.
(٢) وهو المعنى الأول المتقدم.
(٣) ينظر هامش: ١ من ص: ٥٤. ويعضد ذلك قول الطاهر ابن عاشور في التحرير: ٢٠/١٠: «وما سمي الأمر أمراً إلا باعتبار أنه مما يؤمر بفعله أو بعمله...» وانظر كذلك: المصباح والتاج/أمر.
(٤) ينظر ما في المقاييس/شأن، والبحر المحيط: ٢٠٧/١.
(٥) المفردات/أمر.
(٦) ويقوي ذلك قول أبي سفيان إثر الحديث المتقدم: «...واللهِ ما زلْتُ ذليلاً مُسْتَيقناً بأن أمْره سَيظهَر حتى أدخل الله قلبي الإسْلاَم....».
(٧) وملاك الأمر في الأمر هو الاستعلاء، ومعه الظهور.
(٨) راجع الفرق بين الأمارة والعلامة في الفروق/٦٣.

استعمالها يبدو ـ في الغالب ـ أن المادة **أُخذت** حسياً من (الأمار) و(الأمارة) وهي «معالم الطريق»[(١)] **لظهورها** وارتفاعها.

حاصل الكلام:

إن (الأمر) مصدر مشتق من أَمَرْتَه؛ أي: كلفته أن يفعل شيئاً[(٢)]. ومن أَمَرَ وأَمُرَ يَأْمُرُ: إذا ولي، اشتُق اسم (الإمرة) و(الإمارة)[(٣)]. وإذا أَمَرَ القوم بعضهم بعضا أو قبل بعضهم أمر بعض، قيل: ائتمروا وتآمروا، ثم أُطلق (الائتمار) على التشاور؛ لقبول بعضهم أمر بعض فيما أشار به[(٤)]، وقد يراد بالأمر المصدر: اسم المفعول؛ أي: المأمور به[(٥)]، ويُستعمل بمعاني الشأن، والحادثة، والحال، والشيء، والصفة.

ومن الجذر (أَمَرَ) اشتُق مصدر (الأَمَرُ) و(الأَمَرَةُ) ـ بفتح الميم ـ؛ من أَمِرَ يأمَر، ودل على الكثرة والنماء والبركة[(٦)]، كما اشتُق من هذا الفعل الاسم (الإمْر) ـ بالكسر[(٧)] ـ، وسُمي الوقت والعلامة (أمارا) و(أمارة)[(٨)].

والراجح ـ كما مضى ـ أن الأمر ـ بسكون الميم ـ المصدر والاسم معاً، بهذه المعاني المتآلفة التي شُرح بها في المعاجم، ولا سيما تلك التي انطلق منها قبل أن يصير خلقاً آخر في الاستعمال القرآني ـ كما سيأتي ـ، وهي: **الطلب، والحال، والشأن، والشيء، والصفة**؛ موصول بالدلالة الأصيلة لمادته، وهي **الظهور**، ومأخوذ حسيا من **معالم الطريق الظاهرة**.

---

(١) تقدم هذا الشرح ـ وهو لابن فارس ـ وسيق هنا دون غيره لأنه الأوفى والأجمع (فيما أعلم).
(٢) المفردات/أمر.
(٣) التاج/أمر.
(٤) تهذيب اللغة والمفردات/أمر.
(٥) المصباح/أمر.
(٦) الصحاح وتهذيب اللغة/أمر.
(٧) التاج/أمر.
(٨) الصحاح/أمر.

فلعل هذه الدلالات اللغوية الأصيلة المُوَضَّحَة بالشروح اللغوية المذوقة، أن تمهد لنا السبيل إلى الغوص على دلالات مصطلح الأمر في القرآن الكريم، والغور في دقائقه، وتذوق معانيه وحقائقه، ومن ثم إلى رصد التطور الدلالي الكبير الذي أحدثه القرآن بمجرد نزوله، في كثير من الألفاظ العربية التي عرفها العرب بمعانيها العادية في الجاهلية.





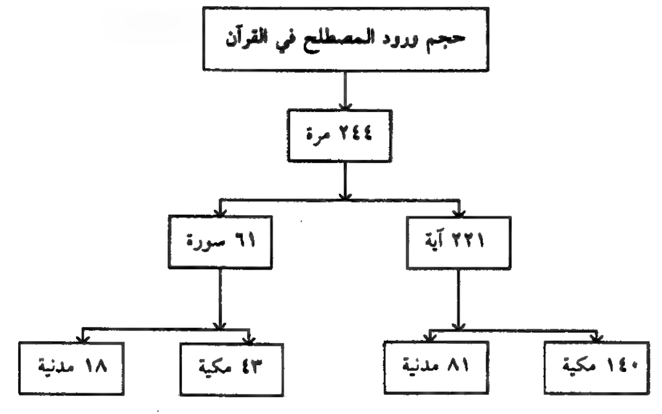
المبحث الثاني:

مفهوم الأمر في اصطلاح القرآن الكريم

مدخل تمهيدي:

١ ـ إحصاء عام:

١. ١ ـ توزيع إحصائي لحجم ورود الأمر ومشتقاته في القرآن الكريم:



تبرز هذه الخطاطة الإحصائية موقع المصطلح المتميز من مصطلحات القرآن الكريم، وآيه، وسوره؛ إذ يجيء في النص القرآني ٢٤٤ مرة[1]،

---

(١) تبين من إحصاء المصطلح في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، أن عدد وروده في القرآن الكريم ٢٤٨ مرة، وبمراجعات متتالية لسور القرآن برواية ورش، ألفينا أن هذا العدد ينحصر في ٢٤٧ مرة فقط، اجتزأنا منها لفظتي: (إمراً)، و(الائتمار) من آيات الكهف/٧٠ والقصص/١٩ والطلاق/٦؛ لأنها لا=

مفرقاً في ٢٢١ آية[1]؛ منها ١٤٠ آية مكية وردت في ٤٣ سورة مكية، و٨١ آية مدنية وردت في ١٨ سورة مدنية!

وبتدبر كثافة المصطلح في هذه السور، لاحظنا أن المصطلح يكثر وروده في معظم السور المتأخرة نزولا؛ كالبقرة، وآل عمران، والنساء، والطلاق، والتوبة!

كما يكثر وروده في السور المتوسطة نزولاً؛ كالأعراف، وهود، ويوسف، والكهف، والنحل، ويليها في حجم الورود: طه، والنمل، ويونس، والأنعام، والشورى!

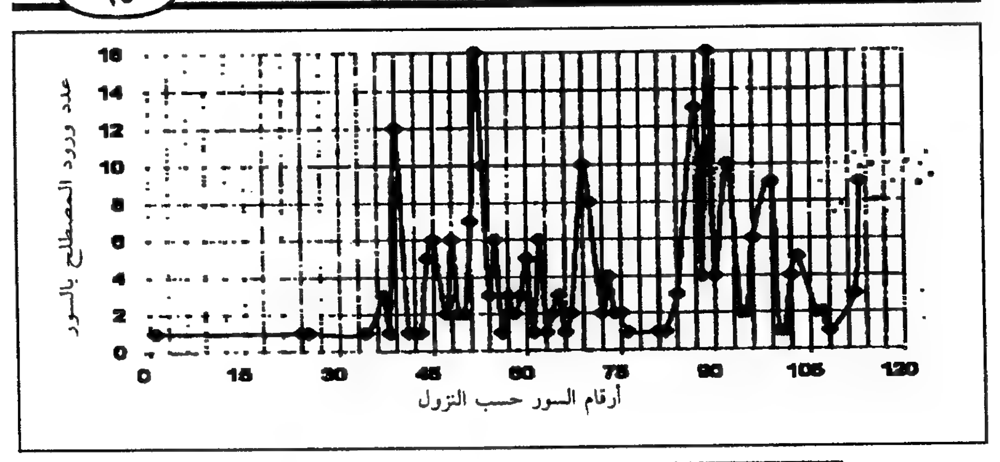
ويتدرج هذا الورود من الكثرة إلى القلة في أوائل السور أو أوسطها نزولاً؛ كالعلق، وعبس، والقدر، ويس، وفاطر، والصافات، والزخرف... إلخ. ولعل الجدول والرسم البياني الذي سنسوق بعد، وفق ترتيب النزول[2]، يكشف بالأرقام الواضحة هذه اللطائف الإحصائية القرآنية:

= تنتسب مفهوميا إلى مشتقات المصطلح، وإن كانت موصولة بها من حيث الجذر اللغوي.

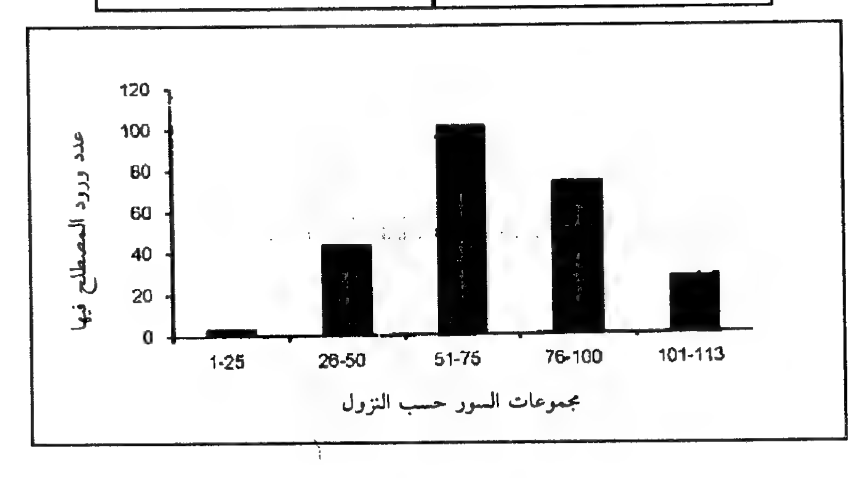
(١) ومعظم هذه الآيات، ولاسيما المدنية، متراصة، يتلو بعضها بعضا، دلالة على تكامل دلالاتها. وأوضح شاهد على ذلك من المكي: آيات هود: ٤٠ ـ ١٠١، والكهف: ١٠ ـ ٢٨، وآيتا الأعراف: ٢٧ ـ ٢٨، والجاثية: ١٦ ـ ١٧، ومن المدني: آيات الطلاق: ١ ـ ١٢، والنساء: ٥٧، ٥٨، ٥٩، والأحزاب: ٣٦، ٣٧، ٣٨، وآيتا البقرة: ٦٦ ـ ٦٧، وآل عمران: ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) اعتُمد في هذا الترتيب على جدول المكي والمدني لسور القرآن الكريم، الذي سطره حنبكة الميداني في قواعد التدبر الأمثل: ص ١٧٨ ـ ١٨٤.

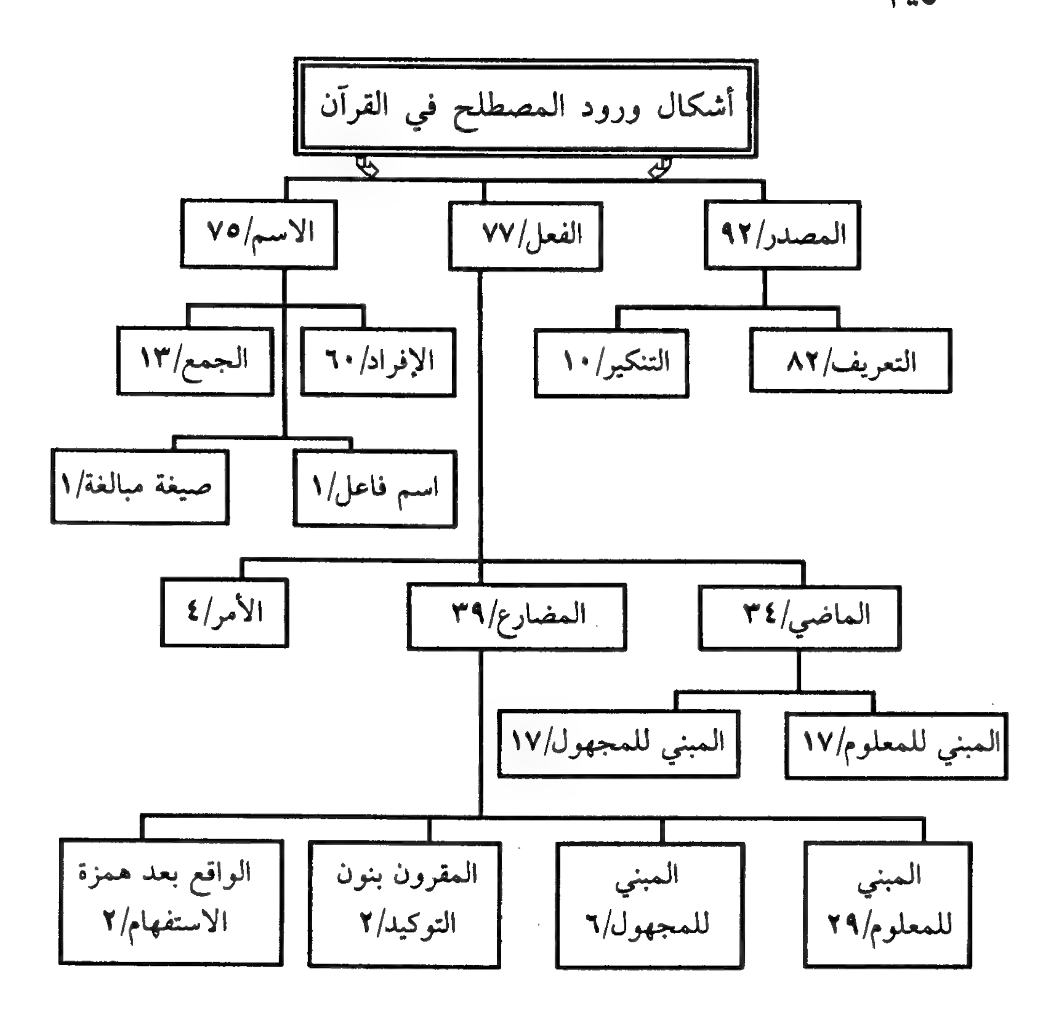
رقم السورة بحسب النزول	اسم السورة	عدد ورود المصطلح فيها	رقم السورة بحسب النزول	اسم السورة	عدد ورود المصطلح فيها	رقم السورة بحسب النزول	اسم السورة	عدد ورود المصطلح فيها
١	العلق	١	٥٦	الصافات	١	٨٤	الروم	٣
٢٤	عبس	١	٥٧	لقمان	٣	٨٧	البقرة	١٣
٢٥	القدر	١	٥٨	سبأ	٢	٨٨	الأنفال	٤
٣٤	ق	١	٥٩	الزمر	٣	٨٩	آل عمران	١٦
٣٧	القمر	٣	٦٠	غافر	٥	٩٠	الأحزاب	٤
٣٨	ص	١	٦١	فصلت	١	٩٢	النساء	١٠
٣٩	الأعراف	١٢	٦٢	الشورى	٦	٩٤	الحديد	٢
٤١	يس	١	٦٣	الزخرف	١	٩٥	محمد	٢
٤٢	الفرقان	١	٦٤	الدخان	٢	٩٦	الرعد	٦
٤٣	فاطر	١	٦٥	الجاثية	٣	٩٩	الطلاق	٨
٤٤	مريم	٥	٦٦	الأحقاف	١	١٠٠	البينة	١
٤٥	طه	٦	٦٧	الذاريات	٢	١٠١	الحشر	١
٤٧	الشعراء	٢	٦٩	الكهف	١٠	١٠٢	النور	٤
٤٨	النمل	٦	٧٠	النحل	٨	١٠٣	الحج	٥
٤٩	القصص	١	٧٢	إبراهيم	٢	١٠٦	الحجرات	٢
٥٠	الإسراء	٢	٧٣	الأنبياء	٤	١٠٧	التحريم	٢
٥١	يونس	٧	٧٤	المؤمنون	٢	١٠٨	التغابن	١
٥٢	هود	١٦	٧٥	السجدة	٢	١١٢	المائدة	٣
٥٣	يوسف	١٠	٧٦	الطور	١	١١٣	التوبة	٩
٥٤	الحجر	٣	٨١	النازعات	١			
٥٥	الأنعام	٦	٨٢	الانفطار	١			



عدد ورود المصطلح فيها	مجموعات السور بحسب النزول (من ـ إلى)
٣	١ ـ ٢٥
٤٢	٢٦ ـ ٥٠
١٠٠	٥١ ـ ٧٥
٧٢	٧٦ ـ ١٠٠
٢٧	١٠١ ـ ١١٣



١. ٢ ـ توزيع إحصائي لأشكال ورود الأمر ومشتقاته في القرآن الكريم:



ترسم هذه الخطاطة الإحصائية الأشكال المختلفة التي صُب فيها الأمر ومشتقاته في القرآن الكريم؛ إذ ورد في الصورة الاسمية ٧٥ مرة، ٦٠ منها بصيغة المفرد[١]، و١٣ بصيغة الجمع[٢]، وجاء منها: (الآمرون)[٣]: اسم فاعل، وهو جمع آمر، و(لأمارة)[٤]: صيغة مبالغة.

وورد «الأمر» في الصورة المصدرية: ٩٢ مرة، وأكثر وروده معرفاً بأل[٥] أو مضافاً، ولاسيما إلى اسم الجلالة، ظاهراً أو مضمراً[٦].

كذلك ورد في الصورة الفعلية[٧] ٧٩ مرة، بصيغ عدة: أمر، الماضي من الثلاثي: ٣٤ مرة، ومضارعه[٨]: ٣٩ مرة، وفعل الأمر منه: ٤ مرات.

---

(١) كقوله من آية هود: ١٢٣ ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾. ويغلب مجيء المفرد مضافاً إلى ضمائر الناس؛ مثل: «أمري» و«أمره» و«أمرنا» و«أمركم» و«أمرهم»... (انظر: آيات: النمل/٣٢ والكهف/١٠، ٢٨ ويونس/٧١ ويوسف/١٥).

(٢) كقوله من آية لقمان: ١٧ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

(٣) جزء من آية التوبة/١١٣.

(٤) جزء من آية يوسف/٥٣.

(٥) كقوله من آية الجاثية: ١٧ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ ومعها الآية: ١٨.

(٦) كالذي في آية الأحزاب: ٣٧ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وفي آية الروم: ٤٦ ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

(٧) كقوله من آية يوسف: ٤٠ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ويكاد يطرد ورود الأمر في الحديث الشريف على هذه الصورة. ومرد ذلك أن السنة المطهرة تكاد تتمحض لبيان التشريعات والسنن التي أمر بها رسول الله ﷺ أمته عن أمر الله، وهي أمور عملية، شأنها الحدوث والتجدد، وغايتها الطاعة من المكلفين. ومن ثم تتصدر هذه التشريعات أقوال؛ من مثل: «أمَر رسول الله ﷺ»: (البخاري في الصوم، رقم ١٨٩٣، عن عائشة رضي الله عنها) أو «أمرنا رسول الله»: (البخاري في المغازي، رقم ٤٢٢٦، عن البراء بن عازب) أو «أمرني رسول الله ﷺ»: (البخاري في الوكالة، رقم ٢٢٩٩، عن علي رضي الله عنه)، أو «افعلوا ما أمرتكم»: (البخاري في الحج، رقم ١٥٦٨، عن جابر بن عبدالله)... ونظائر هذه الأقوال أكثر من أن تحصى.

(٨) كقوله من آية النساء/٥٨ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

وفي هذه المرات التي استُعمل فيها الفعل، جاء الماضي الثلاثي ومضارعه مبنياً للمعلوم وللمجهول، واقترن المضارع بنون التوكيد الشديدة[١]، وبهمزة الاستفهام في سياق الإنكار والتوبيخ[٢].

والمصطلح في كل صور تصاريفه ورد مقيداً[٣] أكثر منه مطلقاً.

١. ٣ ـ مستفادات:

وفي ضوء هذا الإحصاء العام لحجم الورود وأشكاله، نستنتج اللطائف التالية:

* أكثر ما يرد الأمر ويشيع في السور والآيات المكية، وهذا يفيد أن القرآن المكي على امتداد مراحله، ولاسيما المتوسطة والختامية، قد خصص للأمر مجالاً فسيحاً من نصوصه الخبرية عن الكون ونهايته[٤]، وعن الأمم الماضية[٥]، ومن نصوصه المبينة للعقائد، وأصول التربية، ومحاسن الأخلاق[٦]. وكل هذه النصوص ذوات دلالات مقصودات في كل مراحل التنزيل؛ ومن ثم فلا غرابة في أن تطالعنا نصوص ثاوية في الآيات المدنية، تكشف لنا حقائق إيمانية، بها امتاز العهد المكي؛ كالأمر بعبادة الله وحده[٧]، والإيمان بقدرته وأدلة علمه وحكمته[٨]، وبقضائه وقدره في كل تصاريف الامتحان؛ كالنصر والهزيمة[٩]... وهذه الحقائق الإيمانية نجدها

---

(١) نحو قوله من آية النساء: ١١٩ ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾.

(٢) كقوله من آية البقرة: ٤٤ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾.

(٣) وأغلب تقييده بمتعلق في صورته الفعلية، وبمضاف إليه في صورته الاسمية أو المصدرية، وذلك في مثل آيات: آل عمران/١٠٤ وهود/٩٧ والكهف/٢١.

(٤) راجع مثلاً: يونس/٣ ـ ٣١ والسجدة/٤ وفصلت/١١ والنحل/٧٧.

(٥) انظر: الأعراف/٧٦ وهود/٧٥، ٨٢، ٩٤.

(٦) مريم/٣٤ والزمر/١٢ وغافر/٦٦ والأعراف/٢٧ ـ ٢٨ والنحل/٩٠.

(٧) كالرعد/٣٧ والمائدة/١١٩.

(٨) مثل آل عمران/٤٧.

(٩) السورة نفسها/١٥٤.

تتخلل بيان الأحكام والتشريعات العملية؛ كتكاليف الجهاد، وما يتعلق بالوقائع والغزوات[١]، والأمر بأداء الأمانة وطاعة أولي الأمر[٢]، وبيان صفات المسلمين والمنافقين واليهود[٣]...

ولعل هذا التكامل في النصوص يبرز بجلاء أن القسم المدني، على قلة ورود الأمر فيه مقارنًا بالقسم المكي، جاء تكميلاً وبياناً لتلكم الحقائق الإيمانية الكبرى التي احتف بها القرآن المكي، وحرص على غرسها في قلوب المسلمين الأُول.

* يلفت الرسم البياني بأرقامه ومخططاته المتأرجحة بين الطول والقصر، وفق وفرة ورود المصطلح وقلته، إلى الطريقة الحكيمة والمتنوعة التي سلكها الرب الخالق، المكلِّف، الآمر الناهي في كلامه للناس، على اختلاف أحوالهم وظروفهم النفسية والزمانية والمكانية؛ فحيث كان الناس في جاهلية تعمي وتصم، خاطبهم الخالق في مرحلة اصطفائية إيوائية للرسول الكريم، وضمن قطرات الوحي الأولى وما تلاها من المفصل، بالأوامر الصيغية؛ لتركيز الاهتمام على أفعال[٤] هي جوهر الدين وفلسفته؛ كقوله[٥]: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ و﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ و﴿سَبِّحِ﴾ ﴿فَصَلِّ﴾ ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾.

ولما ثاب ثلة قليلة منهم إلى الإسلام، وتعرضوا للأذى والاعتداء، ناسب أن ينزل على الرسول ﷺ في مرحلة متوسطة وختامية في مكة، ملفوظات أمرية صريحة، تهدد المشركين وتقرعهم بعذاب وشيك، وتسلي الرسول ﷺ والمؤمنين، وتعلمهم الصبر والصفح والثبات على الدين،

---

(١) السورة نفسها/١٤٧ وقارنها بالآيات: ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤.

(٢) انظر: النساء/٥٧، ٥٨ وقبلهما الآية/٤٦.

(٣) انظر: آل عمران/١٠٤ مقارَنة بالآية/٧٩، والنساء/٥٤ مقارنة بالآية/١١٩ والبقرة /١٠٨ - ١١٦ والتوبة/٦٧ مقارنة بالآية/٣١.

(٤) وهي ظاهرة تشيع في زُمر العهد المكي؛ لأن الأفعال هناك مقصودة في ذاتها.

(٥) والآيات على التوالي من سور: العلق/١ والمدثر/٢ والأعلى/١ والكوثر/٢ وقريش/٣.

وتكشف النقاب عن آلاء الله ونعمه وقدرته؛ من مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾[١]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، و﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾[٢]، ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾[٣]، ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[٤]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾[٥].

ثم لما هاجر المسلمون إلى المدينة، وأمِر أمرهم، وكوَّنوا جماعة متماسكة قوية، على هدى من الله، لاءمهم أن يُخاطَبوا ببيان صفات الكملة منهم، وصفات أعدائهم من المنافقين واليهود؛ حرصا على انتشار دين الله وسلامته، وأن يخاطبوا بتفاصيل الأحكام، المتعلقة بحياة الجماعة والفرد، في السلم والحرب. ومن ثم جاءت الآيات المدنية آهلة بالملفوظات الأمرية الصريحة في الوجوب[٦]؛ لحمل الناس على امتثال شرائع الدين وأحكامه النهائية، بعد أن أُشربَت قلوبهم أصول الإيمان.

* تبين من إحصاء أشكال الورود:

** أن (الأمر) يشكل بتصاريفه واشتقاقاته المتنوعة تنوعاً في دلالاته، مما يوحي بخصوبة معانيه، وقوة أثره، واتساع مداه[٧].

** أن أكثر ورود (الأمر) في الصورة الاسمية والمصدرية، وهذا يدل على أن القرآن الكريم قد ضمن الأمر وأكسبه حقائق الدين وأصوله الكبرى التي تحتل من تعاليم الإسلام الصدارة، وهي حقائق ثابتة وراسخة وممتدة

---

(١) من آية مريم/٣٩.
(٢) من آيات هود/٥٨، ١١٢، ١٢٣.
(٣) من آية الحجر /٩٤ وكذلك الأنعام/١٦٤ ـ ١٦٥.
(٤) من آية النحل/١.
(٥) من آية الروم/٢٥.
(٦) راجع ما تقدم في الهوامش: ٢، ٣، ٤، ص ٦٩.
(٧) وهذا الذي سيُبَيِّن على التفصيل في التعريف والخصائص.

في أعماق تاريخ الرسالات، وفي ضمائر الناس وفطرهم، ويقوي هذا الامتداد والإطلاق ورود المصطلح في كثير من المواضع معرفاً بأل.

** أن ورود (الأمر) في صورته الإسنادية الفعلية أفاد تمايزاً في معاني الأمر، بالنظر إلى اختلاف أحوال الذين أُسند إليهم فعل الأمر، من خالق ومخلوق، ومؤمن وكافر...

كذلك فإن تنوع الصيغ الفعلية للأمر أفاد تنوعاً في دلالات الحدوث، وفق الأزمنة التي يتوجه فيها الأمر إلى الناس، ولاسيما أكثرها وروداً، وهي أزمنة الماضي والمضارع؛ فحيث أريد تقرير المسائل الاعتقادية وإثباتها؛ كالإيمان بالله، أُتي بصيغة الفعل الماضي الدالة على التقرير والإخبار، وحيث أريد تجديد الأمر بمطلق الأمور العملية؛ كالمعروف، والأمانات، والصلاة...، أُتي بصيغة الفعل المضارع الدالة على التجدد والاستمرار. وفي كل حالات ورود الصيغتين لطيفة من لطائف القرآن الممتعة!

هذه إذن، بعض لمحات الدلالة المستفادة من معطى الإحصاء، فماذا عن الحديث عن معاني هذا المصطلح الشامخ؟

٢ ـ التعريف

غني عن البيان أن القرآن الكريم قد استعمل ألفاظه، على اختلاف حجمها وروداً ودلالة، في معانيها التي استعملها العرب استعمالاً عادياً، ثم أكسب تلك الألفاظ التي رَكَّبَها تركيباً خاصاً في معجمه الخاص دلالات جديدة، خارجة عن مألوف العرب في تراكيب كلامها واستعمالاته... ولعل هذه الحقيقة اللغوية المعجزة في لغة القرآن الكريم تتجسد بوضوح في استعمال القرآن الكريم لمصطلح الأمر بمختلف تصاريفه؛ حيث أطلقه على معانيه الرائجة في كلام العرب الأول ـ كما سلف البيان ـ ثم ولد معاني جديدة جعلها دالة عليه، وذلك بوضعه في سياقات مختلفة؛ كتهديد

المشركين، وتسلية النبي الكريم[١]، وبإضفاء الصفات على ذاته؛ كالحكمة[٢]، وبرصفه في شبكة من العلاقات الائتلافية والاختلافية التي تميزه عن سواه؛ كعلاقته بالوعظ والنهي[٣]، وبضمه إلى ألفاظ أخرى؛ كلفظ الجلالة[٤]، وكل هذه الاستعمالات والمقومات وغيرها شكلت معاني اصطلاحية، اكتنزت بداخلها التصور القرآني لمفهوم الأمر في العقائد والأخلاق، والاجتماع والاقتصاد، والسياسة والحكم... وإنه لمن المفيد حقاً الغوص على تلك المعاني المتشعبة لمصطلح الأمر في سبيل الانتهاء إلى تركيب نسق مفهومي كامل، يعكس رؤية قرآنية متكاملة لهذا المصطلح، وهو الذي سنحاوله بعد، إن شاء الله، في قسم التفسير الموضوعي.

وانطلاقاً من هذه الحقائق والاعتبارات، يمكن التمييز في الدلالات الغزيرة للأمر بين نمطين من المعاني:

النمط الأول: المعاني الاسمية، وهي أكثر المعاني وروداً[٥].

النمط الثاني: المعاني المصدرية.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول: المعاني الاسمية

بملاحظة دلالة اللفظ العامة في اللغة على المأمور به والشأن والحادثة

---

(١) انظر مثلاً: آيات: فاطر/٤ وآل عمران/١٠٩ والحديد/٥.

(٢) راجع: الدخان/٣.

(٣) انظر مثلاً: آيتي آل عمران/١١٠ والنساء/٥٨.

(٤) كآية هود/٤٣.

(٥) وهذا يوحي بأن القرآن الكريم قد أولى العناية الكبرى للحقائق الدينية والكونية الثابتة؛ ولا عجب في ذلك فهذه الحقائق هي التي بدأ بها الناس وفطمهم عليها، ليسلس قيادهم للدين الجديد، وتتحقق أحكامه وشرائعه في واقعهم، قصداً إلى سعادتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة.

والشيء والصفة. . .، استُعمل الأمر في القرآن الكريم ـ بوصفه نتيجة ـ في معنيين كبيرين هما:

١ ـ الشأن التدبيري:

وهذا المعنى الكوني الضخم أكثر ما ورد به الأمر في القرآن الكريم. ولسبر آياته وتصنيف دلالاته، يمكن تشقيقه وفق مجالات تعلقاته وأحوال وروده إلى:

شؤون تتعلق بالخلق والتكوين، وشؤون تتعلق بالحكم والقضاء، وشؤون تتعلق بالتدبير والتصريف.

فبخصوص تعلقها بالخلق والتكوين، ورد الأمر في صورته الاسمية مضافاً إلى اسم الجلالة، ظاهراً أو مضمراً، يطرد ذلك ولا يتخلف في مواضع استعماله الثمانية[(١)]؛ كالذي في قوله تعالى من آية الإسراء: ٨٥ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾. . .

وورد الأمر مطلقاً منَكراً، والتنكير فيه للتفخيم والتعميم، وأُسند إلى الفعل الماضي «قَضى» ـ الذي فُسر بأراد ـ [(٢)]، المسبوق بأداة الشرط «إذا»، التي تدخل على الحدث المقطوع بوقوعه[(٣)]، وجاء متجاوراً مع الأفعال

---

(١) سنأتي على ذكرها في موضعها من تعريف ضميمة «أمر الله».

(٢) ينظر مغني اللبيب: ٦٨٩/٢، وجامع البيان: ٢٧٣/٣/٣، والبحر: ٥٨٣/١، وتفسير ابن كثير: ٢٧٣/٣، والمنار: ٣٠٨/٣، والمراغي: ٤٣/١٦/٦، ولطائف الإشارات: ٤٢٩/٣. ويجوز أن يُفسَّر بأحكم وأتم كما في: جامع البيان: ٥٠٩/١/١، ومفاتيح الغيب: ٢٩/٤/٢، وهذا المعنى ينسجم مع دلالة فعل القضاء على الإيجاد الإبداعي، وما يقتضيه من الابتكار والإسراع.

(٣) ويعضد هذا المعنى قول عبدالخالق عظيمة: «الأصل في استعمال «إذا» أن تدخل على الذي تيقن وقوعه أو رجح»: (دراسات لأسلوب القرآن: ١٦٩/١) وقول ابن يعيش: «ولهذا كثر في الكتاب العزيز استعماله لقطع علام الغيوب سبحانه بالأمور المتوقعة»: (شرح المفصل: ٤/٩).

الإلهية كـ «**الإبداع**»، و«**الخلق**»، و«**الكون**»، و«**الإحياء**»، و«**الإماتة**». . . ، في مقام تنزيه الله عن اتخاذ الولد، وبيان كمال قدرته وحقيقة إيجاده وكيفية إبداعه؛ فأريد به ـ على العموم ـ: **كل شيء**[(١)] **مأمور بالوجود أو العدم بأمر «كن»، على وفق الإرادة التكوينية الإلهية**؛ وهذا المعنى ظاهر في مثل آية مريم: ٣٥ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾[(٢)].

وقد يراد بالأمر ـ على الخصوص ـ: **خلق عيسى من غير أب**، وذلك في حالة مجيئه موصوفاً بـ«**مقضياً**»، في سياق بيان الحكمة من خلقه عليه السلام بأمر التكوين، بصريح آية مريم: ٢١ ﴿. . . وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

وبخصوص تعلقها بالقضاء والحكم، يرد الأمر بهذ المعنى أكثر ما يرد، مقيداً بالإضافة إلى اسم الجلالة؛ ظاهراً أو إلى ضميره جل جلاله ولكل إضافة دلالة أو دلالات فرعية[(٣)] **كالعذاب** في مثل آية هود: ٤٠ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، كذلك يرد مطلقاً معرفاً بـ«**أل**»، والتعريف فيه للعهد، في تركيب جرى مجرى المَثَل، وذلك في حالة إسناده إلى الفعل الماضي المبني للمجهول «**قُضِيَ**»[(٤)] المفيد للتمام والفراغ والفصل

---

(١) وهو المشار إليه في آية يس: ٨٢ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، وكذلك في آية النحل: ٤٠ واسم الشيء يقع ـ والله أعلم ـ على كل شؤون التكوين التي لا تحتاج إلى المادة والمدة والزمن، وإنما توجد أو تُعدَم بمجرد كلمة واحدة هي «كن»، وذلك مثل: خلق عيسى، وإزهاق الأرواح، وبعث الموتى، وإقامة الساعة، مما سيأتي بيانه تفصيلاً في باب التفسير الموضوعي.

(٢) وانظر معها: آيات غافر/٦٨، والبقرة/١١٦، وآل عمران/٤٧.

(٣) سيأتي بسطها مشفوعة بشواهدها عند تعريف ضميمة «أمر الله» في الفصل الثالث.

(٤) ورد هذا التركيب في الحديث بتأخير «قضي» عن «الأمر»، في سياق الحديث عن استراق الشياطين السمع لِما قُضي من الحوادث الأرضية في السماء، بصريح قول رسول الله ﷺ: «**إن الملائكة تنزل في العَنانِ**» ـ وهو السحاب ـ «فتَذكُر الأمْرَ قُضِي في السماء فتسترق الشياطين السمع فَتَسمعُه، فتوحيه إلى الكُهان. . .» (البخاري في بدء الخلق، برقم: ٣٢١٠، من حديث عائشة رضي الله عنها).

والإحكام[١]. والملحظ الاستقرائي لسياق هذا التركيب ومعانيه الفرعية في مواضعه السبعة، هو أن يأتي في الغالب في مقام الوعيد والإنذار للكافرين، مراداً به معنيان:

أحدهما[٢]: إتمام الهلاك في الدنيا، في آيتي:

هود: ٤٤ ... ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾...

الأنعام: ٨ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾[٣].

ثانيهما: إمضاء حكم الله بين عباده في الدنيا والآخرة؛ وذلك في آيات:

يوسف: ٤١ ... ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾...[٤].

البقرة: ٢١٠ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ

---

(١) انظر غريب القرآن وتفسيره/٨٠. ولعل هذه الدلالات تلقي بظلالها الحاسمة على «الأمر» لتوحي بتفخيمه وتهويله وتوكيده في النفوس المرتابة في إنجاز الله لوعده ووعيده. وهذا يدل على أن تركيب «قُضي الأمر» لا يغني غيره غَناءَه في التنبيه على الحوادث والشؤون الكونية ووقوعها، والفراغ من إنجازها، وفصلها.

(٢) يُلحق بهذا المعنى: الفصل في النزاع بين الرسول ﷺ ومعارضيه بإهلاكهم، في مقام تلقين الرسول ﷺ ما يُحاجُّ به السائلين للآيات، المستعجلين بالعذاب، بصريح آية الأنعام: ٥٨ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

(٣) ويعضد هذا المعنى في الآية، أن سنة الله جارية في إرسال الملائكة بالهلاك والتدمير: (ينظر مفاتيح الغيب: ١٧١/١٢/٦، وتفسير المنار: ٣١٥/٧، وفي الظلال: ٥٣٧/٣، وأضواء البيان: ١٦٤/٢). وقد فسر جمهور المفسرين الأمر بمطلق العذاب والإهلاك: (ينظر البحر: ٤٤٢/٤، وتفسير ابن كثير: ١١٨/٢، وجامع البيان: ١٥١/٧/٥...). وخصصه الرازي بالموت من هول رؤية الملك: (مفاتيح الغيب: ١٧١/١٢/٦).

(٤) وأَمْر تعبير رؤياهما الذي أبرمته الإرادة التكوينية هو نجاة أحدهما وهلاك الآخر، كما هو واضح من سياق الآية ولفظها.

﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ﴾...[(١)]، وأيضاً مريم: ٣٩، وإبراهيم: ٢٢.

ويرد الأمر مطلقاً منكراً، ومقترناً بالفعل المضارع المتصل بلام الغرض: «**ليقضي**» دلالة على إتمام ما كان ثابتاً في علمه وحكمته سبحانه من إظهار دينه وتحقيق وعده لرسوله ﷺ؛ في مقام بيان عناية الله بأوليائه من المؤمنين، فيُراد به معنى: **النصر**، وذلك في آيتي الأنفال: ٤٢، ٤٥: ... ﴿لِّيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[(٢)].

ومن مجموع نصوص المعنى التي ورد فيها الأمر مسنداً إلى فعل القضاء، يُستفاد:

* أن استقراء تركيبي: «**قُضي الأمر**» و«**قَضى أمراً**» يكشف عن سر استعمال فعل القضاء، متى يُسنَد إلى الأمر مبنياً للمجهول؟ ومتى يسند إليه مبنياً للمعلوم؟

فحين استُعمل القضاء في مجال الإرادة الإلهية بالأحكام الجزائية؛ أي: أحكام الإدانة والعقاب أو النجاة والثواب في الدنيا والآخرة؛ أُسْند إلى الأمر فعلاً ماضياً مبنياً للمجهول، تركيزاً للاهتمام على ما يحمله فعل

---

(١) وأدق أقوال المفسرين في الأمر ملاءمة للمعنى المتقدم، قول الرازي: «والأمر المذكور ها هنا، هو فصل القضاء بين الخلائق، وأخذ الحقوق لأربابها، وإنزال كل أحد من المكلفين منزلته من الجنة والنار»: (مفاتيح الغيب: ٢٣٦/٥/٣، ومثله ما في جامع البيان: ٣٣١/٢/٢). وأنسبها لمقام التهديد في الآية قول أبي حيان: «وقع الجزاء وعُذّب أهل العصيان»: (البحر: ٣٤٥/٢، وكذلك التحرير: ٢٨٧/٢، وتفسير غريب القرآن: ٧٨).

(٢) ومعهما في مثل مقامهما: آية المائدة: ٥٢ ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾... وسياقها في الرد على المنافقين الموالين لليهود والنصارى، وقطع أطماعهم، وبشارة المؤمنين. وأُبهم الأمر فيها للتهويل، فصار محتملا لكل ما فيه إدالة المؤمنين على أهل الكفر والنفاق؛ كالجزية: (جامع البيان: ٢٧٨/٦/٤، ومجمع البيان: ٦٥/٢، عن السدي)، أو إجلاء بني النضير، وأخذ أموالهم بإلقاء الرعب في قلوبهم: (البحر: ٢٩٢/٤، وتفسير المراغي: ٤٥٤/٦/٢).

القضاء[١] من معاني الإنهاء والإمضاء والفراغ، التي أضفت على الأمر تهويلاً وترويعاً، واقعاً من القلوب موقعاً عظيماً؛ فجعلت هذه القلوب أسيرة قضاء محتوم، أبرمته الإرادة الربانية وأنهت قرار إنجازه.

أما حين استُعمل القضاء في مجال الإرادة التكوينية، التي تقرر إيجاد شيء أو إعدامه بأمر التكوين؛ فإنه أسند إلى الأمر مبنياً للمعلوم؛ للتعريف به تعالى رباً خالقاً مقتدراً، وللإخبار عن جريان عادته في قضائه الأزلي، وأنه لا بد واقع، وليس له دافع.

* أن إيثار تعبير «**قُضي الأمر**» دون غيره، من مثل «**ظهرْ الحق**»، أو «**تبين الصدق**»، أو «**تم الهلاك**» ترشيح لما في هذا التعبير من التعريض بأنه أمر انتصاف وانتقام من الكافرين المتعنتين، وقد يستتبع الحكم بالنجاة والثواب للمؤمنين. ومن ثم لم يُستعمل هذا التركيب في هذا المعنى الخاص إلا في سياق التهديد والوعيد ـ كما تقدم ـ وهذا يؤكد ما حاك في النفس حوكا من «**اصطلاحية**»[٢] هذا التعبير، على الجاري والمقرر في أمثاله.

وبخصوص تعلقها بالتدبير والتصريف، يرد الأمر بمعنى: **شؤون المخلوقات التي بها تَقوُّمها وصلاحها**، مفرداً، مطلقاً، معرفاً، والتعريف فيه للجنس، وهو مفيد لاستغراق الأمور كلها، لا يخرج عن تصرفه شيء منها؛ فيعم[٣] أحوال الخلق وأحوال ملكوت السماوات والأرض؛ بما فيها حركة

---

(١) وتركيز الاهتمام على الأفعال بصرف النظر عن فاعلها، ظاهرة أسلوبية يفيض بها القرآن المكي خاصة، وتكاد تطرد في موقف العقاب الدنيوي والجزاء الأخروي، في مثل آيتي هود/٤٤، ومريم/٣٨ المتقدمتين، وآية الحاقة: ١٣ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾.... ولعل الغرض من هذا التركيز في جانب الحكمة القرآنية، هو تكثيف الطاقة التعبيرية للأفعال، التي تكتنز الحقائق الاعتقادية الكبرى لهذا الدين، كي تصدقها القلوب وتستسلم لها الوجوه....

(٢) آثرتُ التعبير بـ«الاصطلاحية» لمناسبته لنظم الكلام ليس إلا؛ وهو مأخوذ من التعبير الاصطلاحي، الذي عرفه زكي حسام الدين بأنه «نمط تعبيري خاص بلغة ما، يتميز بالثبات، ويستمد معناه من اتفاق الجماعة اللغوية». (التعبير الاصطلاحي: ص ٣٤)، ولعل هذا التعبير هو الذي عناه منهج الدراسة المصطلحية بمصطلح «الضميمة».

(٣) إن جميع ما نُقل عن أرباب الوجوه والنظائر في تفسير «الأمر» بصيغة المفرد، يرجع=

الكون، وتقدير الأرزاق، وإنزال الوحي، وتدبير الأفعال والأحداث بين المخلوقات زماناً ومكاناً وكيفاً وكما، فقيام الله تعالى على شؤون العالم والكون المخلوق هو قيام المالك المهيمن على ملكه بالتدبير والتصريف والترتيب، بشكل يحدد ماهية المخلوقات ونواميسها التي ستسير عليها تحقيقاً لحقيقتها، وإنجازا لوظيفتها، ضمن الطاعة التامة لأمر العظيم ذي العزة والجلال.

وهكذا، استُعمل الأمر في هذا المعنى الشامل في أربعة مواضع، اقترن فيها بالفعل المضارع «يدبر»[١] المسند الى الله تعالى، دلالة على تجدد تدبيره سبحانه واستمراره، وذلك في سياق امتنان الخالق على خلقه بالإيجاد والإمداد الدالين على عظمة ربوبيته وسعة تدبيره وكمال تقديره، ترغيبا لكفار قريش في إخلاص العبادة له بنبذ الشركاء والشفعاء، وفي الإيمان بالبعث والمعاد، بصريح آيات[٢]:

= إلى بعض هذا العموم؛ مثل قول الفيروزآبادي في تفسير آيتي السجدة/٤ والطلاق/١٢: «الأمر: بمعنى الوحي إلى أرباب النبوة والرسالة»: (البصائر/٤١، وكذلك الوجوه لابن الجوزي/٦٤)، وهو في الآيتين: «القضاء» عند الرازي: (الزينة ٢/١٢٩). وإلى نفس المعنى ذهب ابن الجوزي في تفسير آيات: الأعراف/٥٣، ويونس/٣، والرعد/٢: (الوجوه/٦٤، وكذلك الأشباه لمقاتل/١٩٤، ١٩٥). وإلى دلالة العموم وجه معظم المفسرين (الأمر) في هذه الآيات ونظائرها. ولعل أوفى عباراتهم في تفسيره، قول الطاهر ابن عاشور: «(الأمر): جنس يعم جميع الشؤون والأحوال في العالم» (التحرير: ٨٧/١١، ومثله ما في مفاتيح الغيب: ١٦/٩/١٧، وجامع البيان: ٨٣/١١/٧، تفسير آية يونس/٣). وقول أبي حيان: «والأمور التي يدبرها تعالى لا نهاية لها، فلذلك جاء بالأمر الكلي بعد تفصيل بعض الأمور...»: (البحر: ٥٣/٦، وكذلك مفاتيح الغيب: ٩١/١٧/٩. تفسير آية يونس/٣١).

(١) سيأتي بيان مفهومه في باب التفسير الموضوعي. ويلحق بهذا الفعل اسم فاعله (المدبرات)، الذي جاء وصفا لمأموري الخالق المدبر: الملائكة، وإليهم الإشارة في آية النازعات: ٥ ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾، فهذا الأمر في الآية ينضوي في إهاب المعنى الواسع الذي نحن بصدده.

(٢) ومساق هذه الآيات يتطابق مع مساق آيات المعنى المصدري الثاني، كما سيأتي. ومن ثم، فمعنى الأمر هنا يتداخل مع معنى الأمر هناك ويتكامل، غير أن الأمر في هذه الآيات أعم؛ لأنه يتناول أمر التكوين والتشريع والتصرف والتدبير، وما به وعليه يقوم نظام المخلوقات كلها. ولعل هذا العموم شبيه بالعموم الذي في قوله، من آية الأعراف: ٥٤ ...﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. وكل ذلك ينتصب دليلاً قوياً على تساند آيات القرآن الكريم وتعاونها وتراحمها، مصداقاً للقول المشهور «القرآن يصدق بعضه بعضا».

الرعد: ٢ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ والسجدة: ٥ ...﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾...، ويونس/٣، ٣١.

ونظير هذه الآيات في عمومها قوله تعالى في آية الطلاق: ١٢ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾...

ثم إن الأمر تخصص بإضافته إلى الضمير العائد على السماء، واقترن بالفعل الماضي «**أوحى**» المتعدي بـ: «**في**»، بآية فصلت: ١٢ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾.

وامتدادا لما سبق من تدبير الله لأمر المخلوقات في مجال الكون الفسيح، استُعمل الأمر بصيغته المفردة مسبوقا بالجار والمجرور «**لله**»، دلالة على اختصاصه به سبحانه وقصره عليه، في معنى: **شأن التصرف في أمور الخلق بالتكوين والتقدير**؛ كأمر النصر والهزيمة، وأمر الهداية والإضلال، وسواهما...

ويأتي هذا المعنى في سياق تصريف أمور العباد، وتقدير ما يقع في الكون بين الخلق من أحداث وأحوال؛ كالذي جاء في خبر الله الغيبي عن تأييد المسلمين بنصر الروم على الفرس في آية الروم: ٤ ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، وأعم منها ما جاء في سياق التعقيب القرآني على أحداث معركة أحد، بآية آل عمران: ١٥٤ ...﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، وأيضاً ما جاء في جواب الله على طلب الكفار للآيات من رسول الله ﷺ في آية الرعد: ٣١ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، وأيضاً ما ورد في سياق الحديث عن أحكام الطلاق، بآية الطلاق: ١ ...﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

٢ ـ الشأن التكليفي:

والاستعمال القرآني للأمر بهذا المعنى ورد سبع مرات في الصيغة

المصدرية[(١)]، منها أربع ورد فيها الأمر مصدراً مضافاً إلى اسم الجلالة في صورته الظاهرة[(٢)]، كالذي في آية الطلاق: ٥ ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾، وثلاث ورد فيها مضافاً إلى الضمير العائد على أمم الأنبياء وأتباع الرسل، كما في آية الأنبياء: ٩٣ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾...[(٣)].

وورد الأمر ثلاث مرات معرفاً مطلقاً، والتعريف فيه للتعظيم، وأضيفت إليه «**البينات**» ثم «**الشريعة**» في سياق الإخبار عن إنعام الله بالآيات الواضحات على بني إسرائيل، والتنويه بالشريعة الخاتمة، وتوجيه النبي ﷺ إلى اتباعها والتمسك بهديها، بصريح آيتي الجاثية: ١٦ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾...، ١٨ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾.... كذلك ورد في سياق جدال الكفار لرسول الله ﷺ في أمر المناسك بالحج، بآية الحج: ٦٧ ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾...[(٤)].

---

(١) والمصدرية هنا أفادت معنى المفعولية بدلالة السياق في الآيات قيد الدرس.

(٢) سيأتي بيانها عند تعريف ضميمة «أمر الله».

(٣) وانظر معها: المؤمنون/٥٤، وآل عمران/١٤٧.

(٤) فسر الطبري الأمر بخصوص النسك والذبح: (جامع البيان: ١٩٩/١٧/١٠، وكذلك المجمع: ٩٤/٧). وفسره الرازي والقرطبي بعموم الشرع والدين: (مفاتيح الغيب: ٦٥/٢٣/١٢، والجامع لأحكام القرآن: ٩٤/١٢، وكذلك في ظلال القرآن: ٦٢٧/٥، وتفسير المراغي: ٢٥٥/١٦/٦، وفتح البيان: ٨٠/٩). ولعله من المستبعد أن يكون المراد بـ«المنسك» في قوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ هو نفس المعنى المراد من «الأمر» هنا؛ إذ لو ذهبنا نفسر الأمر بالذبح ـ مثلاً ـ، لأصبح معنى الآية: لكل أمة جعلنا ذبحاً... فلا ينازعنك في الذبح، وهذا تكرار يتنزه كلام الله تعالى عنه؛ لأن الأصل فيه التأسيس لا التأكيد، وعليه فالغالب أن يكون معنى الأمر مغايراً لمعنى المنسك؛ إذ المنسك ـ كما دل عليه السياق العام والخاص ـ يتصل معناه بشرائع الحج سواء أريد به الذبح أو موضعه (كما في جامع البيان: ١٩٨/١٧/١٠، والتحرير: ٣٢٨/١٧/٨، طبع سحنون). أما الأمر، فوروده معرفا بأل أفاد من الإطلاق في مفهومه ما يجعله شاملا لكل ما شُرع للأمة المحمدية من شرائع الدين وأحكامه، ومنها شرائع الحج، حتى ليصير الأمر هو الشريعة نفسها والدين نفسه. ولعل في هذين المعنيين تدرج واضح من الخصوص إلى العموم؛ وهو ما يتناسب مع براعة البيان وقوة البرهان التي تقطع منازعة المشركين وتثبت الرسول الكريم.

وورد الأمر أيضاً بهذا المعنى مضافاً إلى الضمير العائد على موسى عليه السلام، وذلك في مقام الإخبار عن ضراعته إلى الله تعالى بالمعونة والتأييد على العبادة، وتبليغ الرسالة إلى فرعون برفقة أخيه هارون، وذلك في آيتي طه[1]: ٢٦، ٣٢: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾، ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾.

هذا، وقد يمتد الأمر بالمعنى الاسمي بشقيه: التدبيري والتكليفي في مجالات لها تعلق بأمور الإنسان الدنيوية والأخروية، وهي:

ـ مجال السياسة والحرب:

وقد ورد الأمر بهذا المعنى مقترناً بلفظ «**الشورى**»، في سياق مدح الأنصار ودعوة النبي ﷺ إلى التجاوز عن المخالفين لأمره يوم «**أُحُد**»، بصريح آيتي: الشورى: ٣٨ ... ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾...، وآل عمران: ١٥٩ ... ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[2]، كما ورد

---

(١) ويقوي معنى الشأن في الآيتين قول الطاهر بن عاشور في تفسير الأمر: «أي: أمر رسالته»: (ينظر: التحرير: ٢١٣/١٦/٨، وفتح البيان: ٢٢٨/٨).

(٢) اختلف المفسرون في المعنى الذي أمَرَ الله نبيه ﷺ أن يشاور فيه أصحابه، فذهب كثير من العلماء إلى أن (الأمر) هنا مخصوص بالمشاورة في الحروب، وهو المناسب لسياق معركة أحد، وحجتهم أن «ال» في لفظ «الأمر» للعهد وليس للاستغراق، والمعهود السابق في هذه الآية يتعلق بالحرب ولقاء العدو: (طالع: مفاتيح الغيب: ٦٩/٩/٥ ـ ٧٠، والكشاف: ٤٧٤/١، والجامع للأحكام: ٢٥٠/٤، وجامع البيان: ١٥٣/٣/٣ ـ عن قتادة، والربيع، وابن إسحاق، ومجمع البيان: ٥٢٧/٢).
وذهب آخرون إلى أن (الأمر) عام، و«ال» فيه للجنس، ومن ثم فهو شامل لمهمات الأمة ومصالحها في الحرب وفي أمثاله، مما تجري فيه المشاورة عادة. وخُص منه أمر التشريع؛ لأن أمر التشريع إن كان فيه وحي فلا محيد عنه، وإن لم يكن فيه وحي وقلنا بجواز الاجتهاد للنبي ﷺ في التشريع، فلا تدخل فيه الشورى؛ لأن شأن الاجتهاد أن يستند إلى الأدلة لا للآراء، والمجتهد لا يستشير غيره إلا عند القضاء باجتهاده، كما فعل عمر وعثمان رضي الله عنهما: (انظر التحرير: ١٤٧/٤، وروح المعاني: ١٦٦/٤/٣، ومفاتيح الغيب: ٧٠/٩/٥). والتحقيق في الأمر أن الآية وإن دلت بسياقها على أن الشورى مأمور بها الرسول ﷺ فيما عبر عنه بالأمر، وهو أخطر الشؤون وأعظمها؛ كمعركة «أُحُد»؛ فقد دلت بمفهومها على أن الشورى مبدأ أساسي يمكن أن=

مضافاً إلى «**أولي**» في آية النساء: **٥٩** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾...[(١)]، فشكل بهذه الإضافة ضميمة اصطلاحية، نرجئ دراستها إلى ركن الضمائم. كذلك استُعمل الأمر مقترناً بفعل «**الفُتيا**» في معنى[(٢)]: شأن الكتاب المرسل من سليمان إلى ملكة سبأ، بآية النمل: **٣٢** ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي﴾...

ويغلب أن يأتي الأمر بصيغة المفرد المعرف مسنداً إلى فعلي «**العزم**» و«**التنازع**»[(٣)]، بمعنى: شأن القتال. ويتعين هذا المعنى في سياق وصف حال المنافقين من الهلع عند سماع ذكر القتال، بنص آية محمد: **٢١** ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾، وفي سياق تقدير أسباب النصر للمؤمنين في معركة بدر، بآية الأنفال: **٤٣** ...﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾...، وفي مقام بيان حال الرماة من الضعف أمام إغراء الغنيمة في غزوة أحد، بصريح آية آل عمران: **١٥٢** ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾....

= يزاوله أهل الحل والعقد في كل الأمور الجليلة، كمصالح العائلة والقبيلة والبلد، وغير ذلك من المصالح القابلة للتغيير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها وظروف زمانها ومكانها؛ فما كان يلائم إنشاء أمة مسلمة تحيط بها الأخطار والعداوات من المشاورة في الحروب، قد لا يلائم أمة ترفل في حلة الأمن والاستقرار؛ لأنها ستحتاج أشد ما يكون الاحتياج إلى المشاورة في مصالح البلاد وعمارتها. ومن ثم فالقرآن الكريم، بخطابه الذي يعلو فوق الزمان والمكان والإنسان، حينما أصدر الأمر الإلهي إلى الرسول ﷺ بمشاورة أصحابه في الأمر كان يرنو إلى إقرار مبدأ الشورى في حياة الأمة المسلمة، وتعليم هذه الأمة إبداء الرأي واحتمال تبعته، بتنفيذه في أخطر الشؤون التي تمس أمنها وسلامتها، أو تعرض مصالحها للخطر والفوات.

(١) وانظر معها الآية/٨٣.

(٢) وهذا المعنى الخاص يتسق مع المعنى العام المتقدم، من حيث إن المشاورة والفتيا في الأمر تجري في المصالح العليا للأمة المهددة بالأخطار.

(٣) وقد أُسند فعل «**التنازع**» في غير هذا المجال إلى الأمر بمعنى: الشأن، واستُعمل الأمر في المعنى المتقدم مضافاً إلى الضمير العائد على فرعون وملئه، وعلى أهل الكهف أو الذين عثروا عليهم، في آيتي طه: ٦٢ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ والكهف: ٢١ ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ﴾.

ـ مجال الطاعات ومكارم الأخلاق:

ويرد الأمر في هذا المجال، جمعاً معرفاً، مضافاً إلى كلمة «**العزم**» في صورتها المصدرية، بمعنى: الطاعات أو الصفات المَعْزوم عليها أو العَازم أصحابها عليها[١]، وهي المُصَرَّح بها في مثل آية لقمان: ١٧ ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

ـ مجال الجزاء الدنيوي على أعمال الكفر والعصيان:

ويرد الأمر في هذا المجال مفردا مقترناً بألفاظ جزائه: «**الوبال**»[٢] و«**العاقبة**»[٣]، بمعنى: شأنهم من الكفر والتكذيب. ويجيء هذا المعنى في مقام الاعتبار بمآلات الأمم الكافرة، بصريح الآيات المدنية التالية: الطلاق: ٩ ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ﴿٩﴾﴾ ومعها الحشر/١٥، والتغابن/٥.

وعلى وزان تركيب الأمر في هذه الآيات، يرد الأمر بمعنى الشأن والفعل في سياق بيان جزاء المُحرم القاتل للصيد عمدا والحكمة منه، بآية المائدة: ٩٥ . . . ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾. . . .

ـ مجال حشد الرأي وتدبير الأمر وإحكام الكيد:

ويجيء الأمر في هذا المجال، مفرداً منكَّراً، وتنكيره للتعظيم، كما يجيء ـ في الغالب ـ مقترناً بألفاظ جمعه وإحكامه وتزيينه: «**الإجماع**»[٤] و«**الإبرام**»[٥]

---

(١) سنزيد هذا المعنى بيانا مع شواهده ضمن دراسة ضميمة «عزم الأمور» في مبحث الضمائم.

(٢) سيأتي بيانه عند دراسة المركب الإضافي: «أمر القرية»، في فصل الضمائم.

(٣) سيأتي تحليله عند دراسة ضميمة «عاقبة الأمور».

(٤) سيأتي بيان معناه في دراسة صفة «الجمع» في مبحث الصفات.

(٥) والإبرام: «**إحكام الأمر**»، ومأخذه الحسي من «إبرام الحبل: وهو ترديد فتله»: (المفردات/برم، وكذلك الجامع للأحكام: ١١٨/١٦، وجامع البيان: ١٠٠/٢٥/١٣، والتحرير: ٢٦٢/٢٥).

و«التسويل»[١]، بمعنى شأن الكيد والمكر، وذلك في الآيات المكية التالية:

يونس: ٧١ ... ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾...[٢].

يوسف: ١٨ ... ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾....

الزخرف: ٧٩ ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

ـ مجال الجزاء الأخروي على الأعمال:

والأمر في هذا المجال ورد في معنى: الشؤون الأخروية، بصيغة الجمع المعرف، دلالة على الكثرة والتنوع والعموم، وبإيحاء من هذه الدلالة، ألف مع ألفاظ عوده[٣]: «**الرجوع**»، و«**العاقبة**»، و«**المصير**»؛ جملاً اسمية مُذيِّلة للآيات، يتقدم فيها الجار «**إلى**» أو «**اللام**» على المجرور «**الله**» جل جلاله لإفادة الحصر الحقيقي، وتعقب هذه الجمل تقرير ملكيته تعالى المفردة للمخلوقات، في السماوات والأرض، وتصرفه المطلق في شؤونهم، وتقرير كمال علمه برسله وخلقه وعدالة جزائه على أعمالهم، وكل ذلك يجيء غالباً في مقام تسلية الرسول والمؤمنين، وتأنيسهم بالثواب والنجاة، وتهديد الكافرين والمكذبين وإنذارهم بالعقاب والهلاك. ولعل الآيات المكية والمدنية التي نسوقها، تنطق بذلك بأبلغ بيان:

فاطر: ٤ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾[٤]، ومعها: الأنفال: ٤٤، وآل عمران: ١٠٩، والحديد: ٥، والحج: ٧٦.

---

(١) والتسويل: **التزيين**، كما في المفردات/سول. وسيأتي بيانه على التفصيل في قضية الأمر الشيطاني.

(٢) ومعها آيتا يوسف/١٥، ١٠٢.

(٣) سيأتي بيانها على التفصيل في مبحث الضمائم أو في باب التفسير الموضوعي.

(٤) ظاهر هذه الآية يوحي بأن عواقب التبليغ والتكذيب في الدنيا متروكة لله وحده، يدبر أمرها كيف يريد؛ غير أن المُضي مع سياق الآيات بعدها: ٥، ٦، ٧، يبين أن لهذه العواقب علاقة مع الإخبار بوعد الله الحق الآتي، والتحذير من خداع الشيطان،=

لقمان: ٢٢ ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾، ومعها الحج: ٤١.

الشورى: ٥٣ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم إن «**الأمر**» بهذا المعنى قد يرد مفرداً معرفاً بـ«**أل**» للجنس، مؤكداً بـ«**كله**» للتنصيص على عمومه، مسندا إلى الفعل المضارع المبني للفاعل «**يُرجع**» في الآية الخاتمة لسورة هود: ١٢٣ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[١].

وقد يرد الأمر بصيغته المفردة، متقدما على الجار والمجرور «**إلى الله**»، ومضافا إلى الضمير العائد على آكل الربا؛ لإبهام الجزاء، وهو ما يفيد تعظيم الأمر وتهويله. وبتلك الإضافة يخرج هذا الأمر من العموم إلى الخصوص، فيصير مختصا ببعض شؤون العباد[٢]، وهي: أعمال الإثم السالفة، التي يتعلق بها حكم الله على مقترفيها بالمؤاخذة، أو بالعفو والتفضل في الآخرة؛ وهذا المعنى يتعين في سياق تحريم الربا وبيان حكم آكله، بصريح آية البقرة: ٢٧٥ ... ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ...[٣].

= والكشف عن جزاء الكافرين الذين لبوا دعوته وجزاء المؤمنين الذين حاربوه. ولعل هذا السياق يوحي بأن رجعة الأمور إليه سبحانه تميل إلى المعنى الذي ذكرناه، وإن كانت تتضمن تهديد الكفار بسوء العاقبة في الدنيا.

(١) ويجوز أن يكون المعنى، اعتباراً بالعموم الذي في لفظ «الأمر»: «أن أمر التدبير والنصر والخذلان، وغير ذلك يرجع إلى الله؛ أي: إلى علمه وقدرته»: (التحرير: ١٩٥/١٢/٦، طبع سحنون). ويُرجح هذا المعنى الدنيوي سياق الآية؛ إذ وردت تتويجا لقصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم، مما يزيد النبي ﷺ اعتباراً وتذكراً بأن عاقبة أمره وأمر المستضعفين من أتباعه، العزة والنصرة على المشركين أولي البطش والقوة.

(٢) وليس جميع الشؤون، كما دل عليه قبلُ لفظ «الأمر» بصيغة الجمع والمفرد المطلق.

(٣) وظاهر قوله: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: سالف إثمه الذي استحق به الجزاء في الآخرة، وقد أبهم هذا الجزاء، لعل آكل الربا يغص بأكل ما في يده، ويتوجس من الأمر، =

وفي ضوء ما تقدم، نستفيد:

* أن مجيء الأمر هنا جمعاً أو مفرداً معرفاً بـ«أل» في أعقاب الآيات، أفاد امتداداً وإطلاقاً في مفهومه، فدل على أنه يعم ويشمل جميع الشؤون، من أقوال الناس وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم...

* أن في التعبير بفعل «الإرجاع»، الذي يكاد يطرد إسناده إلى لفظ الأمور في موقف الآخرة، إيحاء مؤثر يستجيش القلوب ويوقظ الضمائر للمراجعة والمحاسبة، قبل أن تُساق الأجساد إلى المحشر أمام الجمع الأكبر، لتحاكم في المحكمة الإلهية الكبرى.

* أن ختم الآيات وبعض السور بكلام قاطع، منذر بوعيد للمعرضين، ومبشر بالوعد لكل الخاشعين؛ يجسد الختم الأنسب لمقام التكذيب بالرسالة ولجو التأنيس للنبي الكريم وصحبه... وكأن الستار أسدل على كل المواقف المتعنتة من النبوة والرسالة، فبقيت الحقيقة الحاسمة لكل هذه المواقف، الحقيقة التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لأنه هو الله جل جلاله المتفرد بالألوهية والأمر والحكم والجزاء!.

❋ ❋ ❋

= ويرجو الله أن يعفيه من جرائره: (راجع: الكشاف: ١/٤٠٠، وتفسير المنار: ٣/٩٨، وفي الظلال: ١/٤٨١). والواضح من هذه الآية وآيات أخرى أن الله لا يؤاخذ الإنسان بفعل أمر إلا بعد أن يحرِّمَه عليه (انظر إيضاح ذلك في الأضواء: ١/٢٠٠) لذا فإن الجزاء الملائم لكمال عدله سبحانه، يميل إلى العفو فضلا منه ومنة على التائبين من عباده. والجدير بالذكر أن الطبري أخرج الآية من معنى الجزاء والمحاسبة إلى معنى المشيئة الإلهية في تثبيت الآكل أو خذلانه (جامع البيان ٣/٣/١٠٤، وكذلك الجامع للأحكام: ٣/٣٦١). وهذ المعنى يحتمله قوله ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بسبب إبهامه؛ غير أن سياق هذا القول ونسجه يرجح المعنى المتقدم؛ إذ جاء على مهيع الاستعمال القرآني في رد الأمور إلى الله، فضلا عن كون سياقه في الأحكام المتعلقة بآكل الربا.

المطلب الثاني:
المعاني المصدرية

استحدث القرآن الكريم لمصطلح (الأمر) دلالات مصدرية قرآنية، انبثقت من معنى لغوي أساسي، استعملته العربية وألفه العرب في جاهليتهم؛ وهو معنى طلب الفعل المأمور به، أو التكليف به، أو استدعائه بالقول.

وانطلاقاً من هذا المعنى، نمضي في تشقيق المعاني المصدرية وإدراجها تحت الوحدات الدلالية التالية:

أ ـ الأمر الإلهي. ومداره على معنيين تبعا للمأمور:

١ ـ طلب يتم به التكليف.

والمأمورون به أنواع ثلاثة: الإنس والجن والملائكة.

١ ـ ١ ـ تكليف الإنس

والأمر بهذا المعنى[1] يكون بكلامه تعالى الذي أوحاه إلى رسله،

(١) يشهد لهذا المفهوم من حديث رسول الله ﷺ قوله عليه السلام: «**من أتم الوضوء كما أمره الله تعالى. فالصلوات المكتوبات كفارات لما بينهن**»: (مسلم في الطهارة، برقم: ٢٣١، عن عثمان بن عفان). وهذا المفهوم القرآني للأمر يقابل مفهوم الأمر في الحديث الشريف؛ إذ هو: طلب يتم به تكليف الأمة بجميع شرائع الدين وسننه. ومن ذلك ما رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: «قالت: لما ثَقُل رسول الله ﷺ جاء بلال يُؤَذِّنه بالصلاة، فقال: «**مروا أبا بكر فليُصَل بالناس**... الحديث»: (أخرجه مسلم في الصلاة، برقم: ٤١٨ والبخاري في الأذان، برقم: ٦٧٨، من حديث أبي موسى الأشعري). ومن جوامع كلمه ﷺ التي تصرح بهذا المفهوم، قوله ص في سياق تمييزه بين التوقيفي والتوفيقي في أمره: «**إذا أمَرْتُكم بشيء من دينكم فخذوا به**...» (مسلم في الفضائل، برقم: ٢٣٦٢ من حديث=

وينبني على حرية الإرادة ومسؤولية الاختيار، ويتعلق بجميع الطاعات الواجبة والمندوبة، التي يشملها لفظ الدين من أعمال القلب وأفعال الجوارح، ولفظ الأمر هنا يأتي بصيغة الفعل الثلاثي ومصدره[(١)]؛ كما في آيات الزمر: ١١ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾، النحل: ٩٠، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ومعهما آيتي: طه: ١٣٢، والطلاق: ٨.

وهذه الآيات ونظائرها تشهد على أن مفهوم الأمر يتسع ليشمل جوانب متعددة لها تعلقات بالعقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، كما سيأتي بيانه على التفصيل في باب التفسير الموضوعي.

١. ٢ ـ تكليف الجن ومنهم إبليس:

والأمر بهذا المعنى لم يرد إلا في آيتي:

الكهف: ٥٠ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ وفيها جاء الأمر معرفاً بطريق الإضافة[(٢)].

= رافع بن خديج). ويتبين من المقارنة بين المفهومين في القرآن والحديث: أن الأمر بهذا المفهوم المصدري يرد أكثر ما يرد في الحديث الشريف، ويكاد يطرد إسناده إلى الرسول ﷺ. ومرد ذلك ـ فيما ألمح ـ إلى اختلاف البيان ـ بصفة عامة ـ بين أمر الله وأمر رسوله؛ حيث تعلق أمر الله أساسا بتقرير أصول الدعوة الإسلامية، وبيان الأحكام بياناً عاماً، على عادة القرآن في البيان، في حين تعلق أمر رسول الله ﷺ ببيان ما في القرآن من وجوه أمره؛ واجبه، وندبه، وإرشاده، ومبالغ فرائضه وحدوده، وما أشبه ذلك من أحكام آيه، التي لم يُدْرَك علمها وتفصيلها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمته. ومن ثم، فلا عجب أن نجد لرسول الله ﷺ في كل حادثة أمراً بأفعال، وفي كل مناسبة تكليفا بأحكام تصير سننا لأمته من بعده.

(١) والصيغة الفعلية للأمر كثيرة الورود إذا قورنت بصيغته المصدرية، ودلالة ذلك صريحة على كون (الأمر) طلب يتم به التكليف بصالحات الأعمال على وجه الدوام، وفي كل حال، منذ فجر الرسالة إلى قيام الساعة.

(٢) ولذلك دلالة سنكشف عنها ضمن تعريف ضميمة «أمر الله» في ركن الضمائم.

الأعراف: ١٢ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾... وفيها جاء الأمر فعلاً ماضياً بصيغة الاستفهام الإنكاري دلالة على الإخبار والتوبيخ[١].

١٠. ٣ ـ تكليف الملائكة

والأمر بهذا المعنى ورد في أربعة مواضع، يشهد استقراؤها بأن أمر الله تعالى ملائكته جاء مصدرا مضافا إلى اسم الجلالة، كما في آية الأنبياء: ٢٧ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، وفعلاً ماضيا، دلالة على تقرير ثبات الملائكة على تنفيذ أوامر الله الكونية وعدم مخالفتها، بصريح آية التحريم: ٦ ...﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وفعلاً مضارعاً، في آية النحل: ٥٠ ...﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾. إفادة لتجدد فعلهم كلما صدر الأمر في الحال.

٢ ـ **طلب يتم به التدبير**. وذلك بتصريف نظام الكون والموجودات كلها حسب ما وضعه الله في هذا النظام من السنن الكونية التي تحرس العالم من الاختلال وتمنعه من الزوال، ويتم ذلك وفق إرادته وتقديره وحكمته[٢]، واستُعمل الأمر في هذا المعنى بصيغة المصدر المعرف، أو المتصل باسم الجلالة: المضمر والظاهر، وهو الاستعمال الغالب؛ كالذي في آيتي:

الأعراف: ٥٤ ...﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

الأحقاف: ٢٥ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾....

ب ـ **الأمر غير الإلهي**. وهو مستعمل بالدلالة اللغوية: طلب فعل الشيء. ويتنوع إلى أنواع حسب الآمر:

---

(١) يعضد ذلك ما في جامع البيان: ١٢٩/٨/٥، والكشاف: ٦٩/٢.

(٢) سيأتي بيان هذا المعنى بمزيد تفصيل عند تعريف ضميمة «أمر الله».

١ ـ أمر الفئة المؤمنة، ويدخل تحتها: الأنبياء والمؤمنون

ورد الأمر في القرآن الكريم مسنداً أو مضافاً إلى الأنبياء[١] في صيغة الفعل: الماضي والمضارع، ومصدره[٢]، بمعنى: الدعوة إلى الإيمان بالله وطاعة رسوله[٣] بصريح السياق في آيتي: مريم: ٥٥ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ

---

(١) يكاد يطرد مجيء الأمر في الحديث مسنداً إلى سيد الخلق، محمد ﷺ، في صورته الظاهرة والمضمرة، في مقامات مختلفة، وبصيغ شتى: الفعل الثلاثي: ماضياً، نحو: «أمر رسول الله أبا بكر أن يصلي بالناس»: (مسلم في الصلاة، من حديث عائشة رضي الله عنه، رقم ٤١٨) أو «... **فأمر** النبي، فَرُضَّ رأسه بالحجارة»: (البخاري في الوصايا، عن أنس، رقم ٢٧٤٦) و«**أمَر** بالقِصاص»: (البخاري في الديات، عن أنس رضي الله عنه، رقم ٦٨٩٤) و«**أمرَ** بزَكاة الفِطْر أن تُؤدَّى...»: (مسلم في الزكاة، عن ابن عمر، رقم ٩٨٦) و«**أمر** بصيامه ـ يوم عاشوراء ـ»: (البخاري في أحاديث الأنبياء: ٣٣٩٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنه «**وأمرني** بالتزوج»: (البخاري في المغازي رقم ٣٣٩٤، من حديث سبيعة بنت الحارث) و«**أمرنا** أن نَسْلُت القصعة»: (مسلم في الأشربة (٢٠٣٤) من حديث أنس) «**فأمرنا** أن نَحِل»: (مسلم في الحج، عن جابر بن عبدالله، رقم ١٢١٦)؛ ومضارعاً، نحو: «...كان **يأمر** بالغسل»: (مسلم في كتاب الجمعة، من حديث عمر بن الخطاب، رقم ٨٤٥)، «**ويأمُرنا** بالصلاة والزكَاةِ والصِّدق والعَفافِ والصِّلة...»: (البخاري في بدء الوحي، عن أبي سفيان، رقم ٧)؛ ومصدره، مثل قول عطاء، عن ابن عباس: «... وكان يأخذ ذلك من أمر النبي عليه السلام، حيث أمرهم أن يَحِلوا في حجة الوداع»: (مسلم في الحج، من حديث ابن عباس رضي الله عنه، رقم ١٢٤٥).

(٢) ودلالة الفعل على الحدوث والتجدد تهدي إلى أن الأنبياء كانوا دوماً دعاة الحق، يجدد الله بهم دينه كلما انحرف الناس عن سواء السبيل، كما أن دلالة المصدر على الثبات تصرح بثباتهم ـ عليهم السلام ـ في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وإقامة دينه في أرضه، وذلك رغم ما يلاقونه من كفر وتكذيب ونفاق....

(٣) وأكثر ما ورد في الحديث الشريف من (الأمر) ورد بهذا المعنى. ولعل أجمع حديث لسماته الدلالية، قوله ﷺ في حديث وفد عبد قيس: «**آمركم بأربع وأنهاكم عَن أرْبَع، الإيمانُ بالله، هل تَدْرُون ما الإيمَان بالله؟: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقَام الصَّلاة، وإيتَاء الزَّكاة، وصَومُ رَمَضان، وأن تُعْطوا من المَغانِم الخُمسِ...**»: (أخرجه البخاري في المغازي من حديث ابن عباس رضي الله عنه، برقم ٤٣٦٨، وكذا مسلم (بلفظ مقارب) في الإيمان، برقم ١٧).

ومما يُسجَّل أن أكثر ما رُوي في الحديث من الأوامر، يتعلق بالسنن الفعلية المبينة=

بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾، وطه: ٩٠ ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، والآية: ٩٠، وأيضاً آيات: الأعراف: ١٥٧، والفرقان: ٦٠، والنور: ٥٣.

واستناناً بأمر الأنبياء؛ رأس الدعاة، يأتي «**الأمر**» في القرآن الكريم مسنداً إلى المؤمنين، ومقترناً بالمعروف[١] الصدقة، والإصلاح بين الناس، والقسط، في تسعة مواضع[٢] وبصيغ مختلفة: الفعل الثلاثي؛ ماضياً، ومضارعاً، وأمراً[٣]، واسم فاعله[٤]. وتدبر سياق آياته على اختلاف صيغه، يفيد معنى: دعوة الناس إلى الأمور المعروفة والمحمودة في الشرع والعقل، وهي أمور تتنوع دلالتها بحسب الإطلاق والتقييد[٥].

٢ ـ أمر الفئة غير المؤمنة، ويدخل تحتها: الكفار والمنافقون

ورد الأمر مسنداً إلى هذه الفئة، بمعنى دعوة الناس إلى الأمور المنكرة والمذمومة في الشرع والعقل. وجاء في موضع واحد أمراً بمطلق المنكر، في مقابل النهي عن مطلق المعروف، في سياق بيان حال المنافقين وسلوكهم، كما يأتي مقترناً بمنكر فعلي هو قبض الأيدي، بصريح آية

= للمراد من القرآن الكريم في العبادات والمعاملات، والحدود والجنايات، والعلاقات الدولية، والأحوال الشخصية... والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى.

(١) والاقتران به يكاد يطرد، كما سيتبين ضمن دراسة ضميمة (الأمر بالمعروف) في الفصل الثالث.

(٢) وهي آيات: لقمان/١٦، وآل عمران/٢١، ١٠٤، ١١٠، ١١٤، والنساء/١١٣، والحج/٣٩، والتوبة/٧٢، ١١٣.

(٣) سيأتي ذكر هذه الصيغ الفعلية ودلالتها ضمن دراسة ضميمة (الأمر بالمعروف).

(٤) في آية التوبة: ١١٣ ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾. وسيأتي تحليل هذا المشتق ضمن ركن المشتقات في الفصل الثالث.

(٥) جاء أمر المؤمنين مقترناً بلفظ المعروف مطلقا، في مقابل النهي عن المنكر، في جل مواضعه؛ فأفاد الأمر بكل خير، في مقابل النهي عن كل شر «ثم قُيد المعروف، فاقترن بما هو أخص منه؛ كالصدقة، والإصلاح بين الناس، في آية النساء/١١٣»: (يُنظر فتاوى ابن تيمية: ١٠٤/٧/٤).

التوبة: ٦٧ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ الآية.

وانسجاماً مع هذه الآية الجامعة للأمر بكل قبيح، يأتي الأمر متعلقاً بالكفر، وهو أكبر المنكرات وأشنعها، مصرحاً به على لسان المشركين عامة، ومشركي قريش خاصة، في آيتي: سبأ: ٣٣ ... ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾، والزمر: ٦١، المكيتين.

ويأتي الأمر بالبخل وصفاً لازماً للباخلين من اليهود والمنافقين وغيرهم، سواء كان بخلهم بالمال أم بالعلم والدين، بصريح آيتي: النساء: ٣٧ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾...، والحديد/٢٤، المدنيتين.

ويأتي الأمر بالزنا مسنداً إلى امرأة العزيز، مُضَمَّنا في سياق اعتذارها عند النسوة، وتوعدها يوسف عليه السلام بالسجن، في آية يوسف: ٣٢ ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

٣ ـ أمر الشيطان:

استُعمل الأمر مسنداً إليه، وإلى الضمير العائد على الناس أو الذين آمنوا، أربع مرات؛ للدلالة على تزيين الشر والبعث عليه[1]. ويأتي في

---

(١) وهذا المعنى هو المتعين من قوله عن الشياطين، فيما يرويه عن ربه **(وإني خَلقتُ عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتَتْهم الشياطين، فاجتالَتْهم عن دينهم وحَرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزِّل به سلطانا الحديث)**: (مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، من حديث عياض بن حمار المجاشعي، برقم: ٢٨٦٥). ومما يؤيده في التفسير، قول الزمخشري في تفسير آية البقرة/١٦٨: «فإن قلت: كيف كان الشيطان آمرا مع قوله: ليس لك عليهم سلطان؟ قلت: شُبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الآمر؛ كما تقول: أمرتني نفسي بكذا، وتحته رُمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه...»: (الكشاف: ٣٢٨/١)، ومثله قول البخاري في تفسير نفس الآية: «استعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيها لرأيهم وتحقيرا لشأنهم»: (فتح البيان: ٣٣٦/١. وينظر كذلك: تفسير المنار لآية البقرة/٢٦٧: ٧/٣، وجامع البيان: ٢٨٥/٥/٤، ومفاتيح الغيب: ٥١/١١/٦، تفسير آية النساء/١١٨).

المواضع الأربعة: فعلاً مضارعاً، مقترناً بالسوء، والفحشاء، والمنكر، والقول على الله بلا علم، في سياق تحذير الناس من عداوة الشيطان، بذكر شروره وآثامه، في ثلاثة منها؛ كالذي في قوله في آية البقرة: ١٦٩ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾، وفي الرابعة: فعلاً ماضياً، مؤكدا بلام القسم ونون التوكيد الشديدة، ومقترناً بتغيير خلق الله، على لسان الشيطان، بصريح آية النساء: ١١٩ ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾.

ولعل في هذا الاستقراء إيذاناً صريحاً بأن وسوسة الشيطان أمر دائم متجدد في كل لحظة من لحظات غفلة الإنسان عن ذكر الله؛ وبأنها صادرة عن إصرار سابق، وعزم نافذ على غواية الإنسان؛ وبأنها قرينة للسوء، والفحشاء، والمنكر، وتغيير خلق الله!

وفي إيهاب هذا المفهوم القرآني لأمر الشيطان، ينضوي ما جاء في آية يوسف: ٥٣، على لسان امرأة العزيز، في سياق الاعتذار لنفسها من ذنب المراودة: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ﴾ الآية.

ومن مجموع الآيات المتقدمة، يتبين:

أن (الأمر) في القرآن الكريم يأتي مسندا على وجه المجاز إلى الآمر المذموم، الذي يصرف الناس عن الإيمان بالله وامتثال أوامره، ويدعوهم إلى الشرور والآثام، يطرد ذلك ولا يتخلف في أمر الشيطان والنفس.

أما إذا أُسند مجازاً إلى الآمر المحمود؛ كالصلاة، والأحلام، والإيمان، فلا يكون ذلك الإسناد ـ غالبا ـ إلا في سياق الذم، وبصيغة الاستفهام الإنكاري، الدالة على التهكم والتوبيخ؛ كما في آية هود: ٨٧ ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾، ومعها: الطور: ٣٠، والبقرة: ٩٢.

مِلاك الأمر في تعريف «الأمر»:

يُستخلص من جميع ما تقدم، أن القرآن الكريم استعمل «**الأمر**» في مجموع موارده وسياقاته بمعنيين: اسمي ومصدري.

* المعنى الاسمي: ١ ـ الشأن التدبيري. ٢ ـ الشأن التكليفي.

* المعنى المصدري: ١ ـ طلب يتم به التكليف. ٢ ـ طلب يتم به التدبير.

ومن مجموع ذلك، يمكن تحصيل زبدة التعريف وصياغته كما يلي:

الأمر هو: **الشأن الرباني المتعلق بالخلق تدبيراً وتكليفاً.**

فهذا التعريف يجسد القاسم المشترك الأعظم بين معنيي الأمر الاسمي والمصدري؛ ذلك بأن لفظ الشأن يشمل الأقوال والأفعال والأحوال كلها، ومن ثم فهو يتناول هنا شؤون الربوبية، الجارية في الكون والخلق، وفي عالمي الشهادة والغيب؛ تدبيراً وتكليفاً.

أما الشأن التدبيري، فيتعلق تارة بتكوينه وخلقه؛ كالإيجاد والإعدام، والبعث والإحياء...، وتارة بقضائه وحكمه؛ كالهزيمة والنصر، والتنجية والهلاك في الدنيا، والنعيم والجحيم في الآخرة، وطوراً بتدبيره وتصريفه؛ كتصريف نظام الكون والمخلوقات كلها على الحكمة، وإنزال الوحي، وبعث الرسل، وتكليف العباد، وابتلائهم بدعوة إبليس وأتباعه إلى الشر...

وأما الشأن التكليفي، فيتناول أمر الدين، والدعوة إلى اتباعه وإقامته وشرح الصدور به، ومآل ذلك إلى الشأن التدبيري، إذ ليس للإنسان من أمره من شيء إلا أن ينهض بالتكاليف، ويطيع الأوامر ـ بمقتضى ما حمل من أمانة إنسانيته وتقلد من مهام خلافته عن الله وأنبيائه ـ ثم يحيل النتائج إلى قدر الله ومشيئته وتدبيره.

ويتناول هذا الشأن الرباني أيضاً شؤون العبودية، من أقوال وأفعال وأحوال وطاعة وعصيان؛ إذ هي شؤون تؤول إلى صاحب الشأن، الله جل

جلاله، تدبيراً وتكليفاً في الدنيا والآخرة، وليس للعباد من أمرها شيء، ولا لهم نصيب في خلقها إلا العزم الاختياري على فعلها والتلبس بها.

وهكذا يتبين الخيط الرفيع الراتق بين دلالات الأمر في القرآن الكريم، وإن شئنا مزيداً من البيان لتكامل هذه الدلالات، أمكننا القول:

إن الأمر في القرآن ـ فيما يبدو ـ خضع لتطور دلالي من المعنى المصدري إلى المعنى الاسمي؛ ومن أمثلة ذلك: تطور الأمر من معنى الطلب الذي يقع به التدبير إلى معنى الشأن التدبيري[(١)]. وهذا الذي يغلب على الظن أنه استُعمل ثانياً.

وأيضاً تطور الأمر من معنى الطلب الذي يقع به التكليف بالدين إلى معنى الشأن التكليفي، وهو الأمر الذي يفيد أن أصل كل أمر من الأمور أنه صدر به أمر من الأوامر، ومن ثم سميت الشؤون والأشياء أموراً، لأن الأمر سببها.

ولما كان الله جل جلاله صاحب الشأن والتصرف والتدبير والتكليف كان الأمر سبباً بينه وبين خلقه، وصارت الأمور كلها صادرة عن أمره، ومردها إليه، وقضاؤها وتدبيرها من شأنه في كل حال، بمقتضى عموم قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[(٢)]، و﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[(٣)] ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[(٤)].

وانطلاقاً من هذه الحقيقة الكلية التي يستند إليها مفهوم الأمر في القرآن الكريم، نأخذ في بناء سائر الأركان والمقومات، ورسم مختلف الامتدادات والتشعبات، وذلك ابتداء من الخصائص والصفات والضمائم والمشتقات، وانتهاء بالتفسير الموضوعي أو القضايا.

---

(١) ويوضح ذلك ما تقدم في هامش ٢ ص: ٧٨.

(٢) آل عمران/١٥٤.

(٣) هود/١٢٣.

(٤) الأعراف/٥٤.

الفصل الثاني

خصائص «الأمر» وصفاته وعلاقاته



توطئة

من تمام التكميل والتفصيل لما سبق في مرحلة التعريف، من تحديد لغوي تمهيدي يستهدف معرفة نقطة التخلق، وتحديد قرآني تأسيسي يستهدف معرفة الذات أو «**اللب والنواة**»[١]، التي هي أشبه بالأنسجة الغضروفية والعظام المخلقة في بدايات الإنسان؛ النظر في الخصائص والصفات، التي هي «**اللحمة والكسوة**»[٢] الملتصقة بالذات، الكاسية لأركانها، المميزة لأوصافها، مثلها في هذا كمثل الأنسجة اللحمية الكاسية للعظام، المشكلة للصورة الكاملة للإنسان؛ ولا غرو فإن الخصائص والصفات من المقومات الذاتية للمفهوم؛ إذ بها يُستدل على موقع المصطلح داخل النسق المفهومي الذي ينتسب إليه، وعلى وظيفته في هذا النسق، وبها يقاس مداه الاصطلاحي فيه، ويماط النقاب عن أهم ما يُنعت به أو يُعاب... وذلك كله يستفاد من كل المعطيات المعجمية والإحصائية والدلالية المتوفرة لدى الدارس.

ثم من كمال التعريف بالذات، والتدقيق في إيضاحها، والتفصيل في خصائصها؛ النظر في العلاقات الواصلة للمصطلح بسواه والفاصلة له عن سواه، وهو أشبه بالنظر في العلاقات الرابطة بين نماذج البشر، التي جعلها الله متميزة... كلهم إنسان، وكلهم له خصائص الإنسانية، ولكنهم

(١) نظرات في منهج الدراسة المصطلحية: ١٠.

(٢) المرجع نفسه.

بعد ذلك نماذج متنوعة أشد التنويع؛ نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح، وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة. . .

وبملحظ من هذا التقارب الكبير بين مقومات الذات المصطلحية، ومقومات الذات الإنسانية، ومن هذا التكامل النسقي والتناغم المنطقي بين عناصر هذه المقومات، نخضع خصائص مصطلح «**الأمر**» وصفاته وعلاقاته في القرآن الكريم لمبضع التحليل على الترتيب؛ لنجلوه ذاتاً مستقلة بخصائصها وصفاتها، متفردة بروابطها، وكأنها شخص كُسيت عظامه بجلده ولحمه، ومُيزت ملامحه عن ملامح غيره.





المبحث الأول:

خصائص «الأمر» وصفاته في القرآن الكريم

١ ـ المطلب الأول: الخصائص

وبيان هذه الخصائص المميزة لمصطلح **«الأمر»** لا يتم إلا بتحليل مداه الاصطلاحي، ووظيفته في الجهاز المصطلحي، وموقعه داخل النسق المفهومي.

١. ١ ـ مداه الاصطلاحي

مصطلح **«الأمر»** مصطلح واسع المدى دلالياً، جديد المعنى اصطلاحياً، قوي الاستيعاب مجالياً وعلائقياً. والدليل على ذلك أمور:

* **أولها: حجم الورود وشكله**؛ ذلك بأن مصطلح **«الأمر»** في القرآن، كما مضى[١]، مصطلح كثير النصوص، غزير الورود، متشعب الأغصان والفروع، ومن ثم كانت له صفات وعلاقات كثيرة، وضمائم وفيرة، وقضايا كبيرة[٢]. وليس من ريب أن هذا الكم الهائل قد أثمر طاقة كبرى في

---

(١) في الإحصاء العام لحجم ورود الأمر ومشتقاته في القرآن: (انظر ص ٦٢) من هذا البحث.

(٢) وسيأتي التدليل على هذا الأمر في كل ركن آت من أركان الدراسة.

اصطلاحية المصطلح، الأمر الذي أكسب مفهومه امتداداً، وصفاته امتيازاً، وزاد امتداداته انبساطاً، واصطلاحيته اصطلاحاً.

فإذا أضيف إلى ذلك أن الأمر، كما مضى[١]، ورد في تصاريف وبصيغ متنوعة، مما أفاد تنوعاً في مفهومه وامتداداً في معانيه[٢]؛ تأكدت قوة اصطلاحيته، وخصوبة دلالته، واتساع آماده.

* **ثانيها: جدة الدلالة وقوتها**؛ ذلك بأن موازنة يسيرة بين استعمالات الأمر اللغوية، كما حُددت في التحليل اللغوي، واستعمالاته القرآنية، كما بُسطت في التعريف الاصطلاحي، تبين بوضوح: أن مصطلح **«الأمر»** قد عرف في القرآن، وفي استعمالاته المختلفة وسياقاته المتنوعة، طفرة دلالية إعجازية للغة العربية، شأنه في هذا كشأن ألفاظ القرآن عامة، مما أضفى على معانيه المصطبغة بصبغة الإسلام قوة وثراء، وعلى موضوعاته المنضبطة بمقاصد القرآن جدة وانطلاقاً...

فالأمر، كما تقدم، عرفته العربية قبل نزول القرآن شيئاً، وحالاً، وشأناً، ووصفاً، وطلباً لفعل، وغير ذلك من المعاني العادية والدلالات العامة، التي تحشدها المعاجم اللغوية، مشفوعة بالاستعمالات الحسية والمعنوية، التي تناقلها العرب الخلص الفصحاء...

لكن، بمجرد نزول آيات القرآن المعجزة، استُعمل الأمر استعمالاً خاصاً؛ بحيث أدير في سياقات مختلفة، ولمقاصد جليلة، أكسبته وجوداً جديداً؛ أي: دلالات جديدة لم يكن للعرب بها عهد ولا قبل. ألا ترى - مثلاً - أن **«الأمر»** بمعنى الشيء، وهو أعم العمومات في العربية، قد أحدث فيه القرآن تطوراً دلالياً كبيراً، فصار بوروده في مقام تنزيه الله عن اتخاذ الولد، وبيان كمال قدرته وحقيقة إيجاده وكيفية إبداعه، مرادا به: كل شيء مأمور بالوجود أو العدم بأمر كن، بتعبير الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾[٣].

---

(١) في إحصاء أشكال الورود: انظر ص ٦٦ من هذا البحث.
(٢) انظر ذلك بشواهده في ص ٧٠ - ٧١ من هذا البحث.
(٣) مريم/٣٥.

إنه شيء عظيم يفتح في كل شيء نافذة إلى معرفة الخالق العظيم، وليس مجرد شيء عادي يجري على لسان عربي، غارق في أشد أمية وأعرق بداوة، ولا عهد له بما أظهره القرآن الكريم من دلالة لها جدة ونظارة، وبلاغة لها حلاوة وعليها طلاوة...!

ولنأخذ مثلاً آخر: «**الأمر**» بمعنى الحادثة والشأن، لم يستعمله القرآن بهذه الدلالة العادية العامة؛ وإنما استعمله بدلالة متميزة خاصة، في حالة اقترانه بفعل «**القضاء**» الموحي بالإنهاء والإمضاء، في مقام التهديد والوعيد، فصار مع قرينه أمارة على تحقق الهلاك بشكل حاسم، بدلالة الآية الكريمة: ... ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[١]. ولا ريب في أن هذه الدلالة الموحية بالقوة والقهر، لم يكن ليتخيلها العربي الجاهلي مجرد تخيل، وهو يتناقل أثناء سمره أخبار الهالكين من السالفين، بل لم يكن ليتصور - استناداً إلى أسرار لغته وأجواء بيئته ومبادئ عقيدته - أن ذلك الأمر العظيم، إنما هو أمر انتصاف من الجاحدين بالألوهية، المتنكبين عن الصراط المستقيم، وليس هو أمر انتصاف لموت قريب أو حليف، أو أمر انتصار لأخ ظالم أو مظلوم!

ومثل آخر: «**الأمر**» بمعنى التكليف بفعل شيء من الأشياء التي ألفها الإنسان في حياته؛ صار في لغة القرآن لا يقاس بأي أمر آخر، بمجرد اقترانه باسم الجلالة، ودورانه في سياقات مختلفة؛ كسياق الامتنان على الخلق وسوقهم إلى العبادة والشكر، بتعبير الآية الكريمة: ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[٢]، أو سياق بيان ما في الكتاب من الهدى والرحمة، بهذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾...[٣].

إن العربي في ذلك العصر المظلم، حالماً ينصت إلى هذه الآيات الكريمات ويتدبرها، يدرك أن هذا الأمر حقيقي نافذ، يتضمن القوة والإرادة، ويسري سريان الكهرباء من دون إعاقة، فيهتف بحيرة وإعجاب:

---

(١) هود/٤٤.

(٢) الأعراف من الآية: ٥٤.

(٣) النحل من الآية: ٩٠.

ما هذا أمر بشر! وأين هذا الأمر الجازم من أمر إنسان عاجز، لا يُبالى به؟.

ثم يرى ذلك العربي، وهو ينقل الخطى في صحراء البداوة ويقلب الوجه في السماء المظلمة التي تستعر فيها نجوم جامدة؛ أن هذه النجوم ليست جامدة دون حياة وشعور، وعاطلة دون مهام، ولامعة في الفضاء دون تسخير وامتثال. . . !

ثم يهتدي بالإيمان ـ بحق اليقين ـ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾. . . إلى أصلح عبادة وأقوم عادة، بعد أن كان غارقاً في أفسد عبادة وأرذل عادة. . .

وهكذا، ففي هذه الأمثلة وسواها بيان يورثنا القناعة والاطمئنان إلى أن الأمر عبر في جل موارده وسياقاته وصوره وأوضاعه في القرآن، من الدلالة اللغوية العامة إلى الدلالة القرآنية الخاصة، فزخر بمعان في منتهى القوة والفتوة، بها صار مصطلحا قوي الإيحاء، متميز السمات، متفرد القسمات، لا يرقى إلى اصطلاحه اصطلاح الإنس والجان، ولو كان بعضهم لبعض، على معارضته ومضاهاته، ظهيراً ونصيراً.

* **ثالثها: سعة الدلالة واستيعابها**، وتحليل هذه الخصيصة يستدعي بسط الكلام في أمرين:

** **الأول**: امتداد معاني المصطلح المصدرية والاسمية إلى كل شؤون الربوبية وكمالاتها، ووظائف العبودية وأحوالها. وتفصيل هذا الأمر يستدعي التمثيل لكل نمط من تلكم المعاني، كما حُدد في التعريف.

فأما ما يتعلق بالمعاني المصدرية، فإن مصطلح «**الأمر**» يتوغل بهذه المعاني إلى أكثر من تكليف وتدبير، وأكثر من كيان وعالم ومجال؛ إذ هو بدلالته ـ مثلاً ـ على معنى: **الطلب الذي يتم به تكليف الملائكة، وتدبير شؤون الكون والموجودات كلها**[1] يستوعب وظائف الملائكة في عالمي الشهادة والغيب، في الدنيا والآخرة، ويستوعب إجراءات الربوبية في الكون

---

(١) انظر: ص٨٩ (بتصرف).

والكائنات، من الذرات إلى المجرات؛ الأمر الذي يقرب للأذهان كمال الربوبية وسعة تدبيرها.

وهو بدلالته على معنى: **طلب يتم به تكليف الإنس**(١)، يمتد إلى جميع تكاليف العبودية المنوطة بالإنسانية؛ فكرية كانت أم عملية.

وهو باستعماله في معنى: **دعوة الناس إلى الأمور المعروفة أو المنكرة في الشرع والعقل**(٢)، تنفسح آماده لتشمل جميع أصناف الآمرين، ابتداء من الأنبياء والمؤمنين، وانتهاء بالكفار والمنافقين، وتنبسط آفاق تعلقاته لتتناول كل خير أوشر، من العقائد والأقوال والأعمال.

وأما ما يتعلق بالمعاني الاسمية، فإن «**الأمر**» ينفسح بهذه المعاني إلى أبعد الآماد باتساع الزمان والمكان، وامتداد شؤون الربوبية التدبيرية والتكليفية؛ فحيث يجئ «**الأمر**» بدلالة كلية على **الشأن التدبيري**(٣)، فهو يستوعب شؤون الخلق والتكوين؛ ابتداء من خلق الإنسان والكائنات من رحم العدم، وانتهاء بذهاب هذا الإنسان إلى القبر، فالمحشر بعد فناء الكون. ويدل على هذا الاستيعاب معاني: الخلق، والموت، والقيامة(٤).

ويستوعب أيضاً شؤون الحكم والقضاء، فيمتد في الزمان انطلاقاً من الماضي السحيق، ووصولاً إلى المستقبل البعيد، ومروراً بالحاضر القريب، وذلك استلهاماً من بعض معانيه الجزئية، كالهلاك، والنجاة، والنصر، والهزيمة، والثواب والعقاب(٥).

ويتسع مفهومه أكثر بدلالته على معنى: **شؤون المخلوقات التي بها تقوُمها وصلاحها**(٦)، ليشمل جميع شؤون الخلق وأحوال ملكوت السماوات

---

(١) انظر: ص ٨٧.
(٢) انظر: ص: ٩١ ـ ٩٢.
(٣) انظر: ص ٧٣.
(٤) انظر: ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(٥) انظر: ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٦) انظر: ص ٧٨.

والأرض[١]، التي تدبرها الربوبية في كل زمان ومكان، بالتكوين والتقدير والتنظيم والتصريف...

وحيث يجيء الأمر بدلالة كلية على **الشأن التكليفي**، فهو يستوعب مفهوم الدين بوصفه نظاماً كاملاً وقانوناً شاملاً لحياة الإنسان كلها[٢]، مما يدل على هيمنة الأمر وإشرافه.

وهو يمتد بدلالته الاسمية إلى مجالات الشؤون الإنسانية في الدنيا ويستوعب جميع شؤون العباد في الآخرة[٣].

وبهذا التحليل الوجيز، تتكشف قوة المصطلح الاستيعابية الكبرى لمعانيه، بشكل يجعل هذا المصطلح جامعاً، بأحرف قليلة وأساليب معجزة، لحقائق ودلالات عظيمة، بوصفها تتعلق بما يخص الإنسان ووظيفته، والكون وخالقه، والأرض، والسماوات، والملائكة، وسائر المخلوقات...؛ وتضم مباحث مهمة وقضايا ملمة، ابتداء من مباحث التكليف إلى مباحث التدبير، ومن خلق الإنسان إلى دخوله القبر، ومن انفتاح الدنيا للامتحان إلى انتهاء الاختبار، ومن قضايا الأمر الإنساني والشيطاني إلى قضايا الأمر الإلهي، ومن واقع الزمن الماضي إلى وقائع الزمن الحاضر فالآتي...

فهذه الجامعية الخارقة لمصطلح «**الأمر**» تدل دلالة قاطعة على جامعية القرآن المعجزة في ألفاظه ومعانيه؛ إذ هو يصطفي من الألفاظ أوجزها وأدقها وأمسها رحماً بمعانيه المرادة، إلى درجة نملك معها أن نجزم بأن مصطلح «**الأمر**» لا يمكن أن يقوم غيره مقامه، أو يبلغ المدى الاصطلاحي الذي بلغه؛ ذلك بأنه لفظ خارق، لا يليق بغير الخالق الذي يتصرف بالأمر

(١) على المدى الذي بيناه في التعريف آنفاً، وسنزيده بياناً في باب التفسير الموضوعي لاحقاً.
(٢) وسنزيد هذا المفهوم بياناً في باب التفسير الموضوعي.
(٣) انظر: من ص ٨١ إلى ص٨٥.

في الكون والخلق، ويطلع على الماضي والمستقبل، ويفتح الدنيا والآخرة: الله جل جلاله!

** **الثاني**: اتساع جهازه المصطلحي ونسقه المفهومي، ودليل ذلك: وفرة وتنوع المصطلحات المتعالقة معه بنوع من التعالق، سواء تلك التي تبين المقومات الدلالية لذاته، أو تلك التي تسهم في كشف امتداداته داخل ذاته أو خارجها؛ فمن الصنف الأول، نجد مصطلحات كبيرة تكاد تناظره في القوة والاتساع؛ كمصطلحات «**الإرادة**»، و«**الإذن**»، و«**الحكم**»، وأخرى صغيرة تكمله؛ كمصطلحات: «**النهي**»، و«**الوعظ**» و«**الوعد**»[1].

ومن الصنف الثاني، نجد مصطلحات «**أصول**» و«**فروع**» تضيف إلى معاني «**الأمر**» معان جديدة، تسهم في امتداده داخل ذاته؛ كألفاظ «**الله**»، و«**العزم**»، و«**العاقبة**»، و«**المعروف**»...[2].

كما نجد مصطلحات تندرج تحته في التصور، لتسهم في تحليل عناصره وتوسيع دلالته خارج ذاته؛ كـ«**التكليف**»، و«**الوحي**»، و«**فطرة الله**»، و«**الوسوسة**»، و«**التمنية**»، و«**التزيين**»، و«**السلطان**»...

وليس من ريب أن تحليل هذه المصطلحات وغيرها لاحقاً، سيزيد معاني الأمر بياناً وامتداداً، ومن هذا الامتداد سنحصل على شجرة مفهومية، متشعبة الأغصان، متنوعة الأفنان، وهذا ما سنرسمه بعد حين.

١ ـ ٢ ـ وظائفه:

تتنوع وظائف «**الأمر**» بحسب طبيعة المعاني المستنبطة من نصوصه.

فمن جهة المعاني المصدرية، نستلهم ثلاث وظائف متباينة بحسب: من أمر؟ ولمن أمر؟ وبم أمر؟ وهي:

---

(١) وهذا الصنف من المصطلحات سيتم تحليله وتحديد نوع علاقته بالأمر، في مبحث العلاقات.

(٢) سيأتي دراستها مضمومة إلى الأمر بشكل من أشكال التضام، في مبحث الضمائم في الفصل الثالث.

١. ٢. ١ ـ وظيفة تأسيسية تاصيلية:

ويُقصد بها: أن مصطلح «**الأمر**» بمعنى طلب يتم به التكليف والتدبير؛ يؤسس لتثبيت الحق الكامن في الشريعة التكوينية، الصادرة من صفة الإرادة الإلهية والمنظمة لحركات العالم الاضطرارية، وفي الشريعة التكليفية، الآتية من صفة الكلام الإلهي والمنظمة لأفعال الإنسان الاختيارية. . .

فأما تأسيس الشريعة التكوينية، فالمراد به أن الأمر أساس مكين لتكوين الأكوان، وتدبير العوالم، وتسخير الكون والكائنات لمنافع الإنسان، واستمرار الذرات والأجرام، وجريان الوظائف بانتظام؛ وهو أيضاً سبب أصيل لتيسير الأحوال، وتغيير الأوضاع، وتقدير الحوادث والأقدار في دار الابتلاء، ولبعث الأموات وتوفية الحساب على الأعمال في دار الجزاء.

وحاصل المراد: إن الأمر ـ بمقتضى هذه الوظيفة القدرية الجليلة ـ هو قوام الوجود وعلته[١]؛ خلقاً، وتدبيراً، وتسخيراً، وتقديراً، وقضاءً، وبعثاً، وجزاءً. . .[٢].

وإن إدراك الإنسان لهذه الوظيفة الأصيلة، تترتب عليه أمور عظيمة لها صلة وثيقة بحياته المعنوية والأخروية، أهمها: معرفة الرب الخالق الآمر، والتعرف على صفاته وشؤونه الجليلة، بدرجة تسوقه إلى السير على صراط الطاعة لأوامره؛ طاعة شعورية كاملة، نابعة من الإيمان بأن كل شيء في الوجود قائم بكلمة الحق (كن) في منتهى الاستقامة والاستسلام، وصادر عنها في غاية العدالة والالتزام، وصائر إليها في النهاية بمطلق الطاعة والامتثال!

وأما تأسيس الشريعة الدينية، فالقصد به: أن مدار الكلام الإلهي على

---

(١) بدلالة ورود أمر التكوين في جل موارده مجرورا بباب السببية، كما سيأتي ذكره عند دراسة ضميمة «أمر الله»، في مبحث الضمائم: (انظر ص ٢١٥ من هذا البحث).

(٢) وبسط الكلام في ذلك، بما يليق به، سنرجئه إلى حين دراسة قضية الأمر الإلهي الكوني في باب التفسير الموضوعي.

الأمر أساساً؛ إذ هو أصل الهدى، الذي أرسل الله به الرسل، وأنزل الكتب، وفي امتثاله رغب، وعلى عصيانه عذب[١]؛ ولا غرو فهو بوصفه طلباً يتم به تكليف العباد بفعل الحسنات، من باب الإثبات والإيجاد والدفع؛ يؤسس لتثبيت الحق، وإيجاد الخير، ودفع النفع، وإفاضة الصلاح، وإطلاق القابليات للعمل والبناء؛ لتحقيق جلائل الأعمال التي لها يانع الثمار في دار البقاء...[٢].

نعم، إن أمراً هذا شأنه وموقعه، لخليق بأن يوظَّف في تثبيت عقائد الدين، وتأصيل شعائره وشرائعه المتسقة مع ما فُطر عليه الإنسان من معرفة الله وعبادته، وبذلك يصير جوهر الدين، وأساس العبادة ـ غاية الخلق ـ وسائق الإنسان إلى الثبات على الحق، وبحسب تحقيق إطاعته وامتثاله، يكون تحقيق الدين والعبادة، وبحسب التفكر في كونه الداعي إلى العبادة لا غير، يكون الإنسان سلطانا في عبديته لله، محرزاً للإخلاص، مؤهلاً للثواب.

١. ٢. ٢ ـ وظيفة دعوية إصلاحية:

وتستفاد صراحة من معنى: دعوة الناس إلى الأمور المعروفة والمحمودة في الشرع والعقل. ومن هنا، فإن هذه الوظيفة يتقلدها جميع المؤمنين، بمقتضى عقيدة الموالاة لله والاتباع لرسله، وقوامها دعوة الناس إلى الإسلام، وإصلاحهم وتوجيههم وإسعادهم في جميع مناحي الحياة، بالقدر الذي يضمن التمكين لدين الله، ويوطد أركان المجتمع المسلم، ويربي أفراده، ويصلح فساده، وينظم حياته وفق شرع الله.

ومن هنا، كان مجال هذه الوظيفة العظيمة واسعا بدرجة سعة مفهوم

---

(١) انظر بيان ذلك على التفصيل، عند تحليل وجه التقابل في علاقة الأمر والنهي، في مبحث العلاقات.

(٢) انظر بيان ذلك فيما سيأتي من تحليل لطبيعة الوحي، ضمن دراسة قضية الأمر الإلهي الديني، في باب التفسير الموضوعي.

«الأمر» ودلالة «**المعروف**»، أشهر الألفاظ تعلقاً بالأمر، كما سيأتي[١]؛ إذ ينفسح ليشمل جانب الدعوة، والتبليغ، والتذكير، والإنذار والتبشير...، ثم جانب التربية، والإصلاح، والتهذيب، والتنظيم، ومن ثم يستوعب جميع المعروفات التي لها تعلقات بقواعد العقائد، وفرائض العبادات، ومكارم الأخلاق، وطرائق المعاملات، وحدود الجنايات...[٢].

وليس من ريب أن الإنسان الذي خالط جذر قلبه الإيمان، وانتسب بصالح الأعمال إلى الإسلام، حالما يدرك هذه الوظيفة الرسالية العظيمة للأمر، ويتبين مجالاتها الفسيحة، وأهدافها النبيلة؛ ينتصب من فوره، بحسب طاقته وعزمه، للدعوة إلى الخير، والدلالة على المعروف، كل المعروف؛ من معرفة الله ـ رأس الأمر ـ إلى حسن الجوار، ومن الجهاد ـ ذروة سنام الإسلام ـ إلى الإنفاق؛ ومن الصلاة ـ عمود الإسلام ـ إلى إماطة الأذى عن الطريق...

إنها حقاً وظيفة لازمة لكل المسلمين ـ أفراداً وجماعات ـ، ولو أنهم تجردوا لأدائها وحدها بعزم وثبات، لا تثنيه المصاعب والمشقات، لكفتهم في تجديد هذا الدين، وتأمين ثبات المجتمع المسلم على صراطه القويم، وتمكينه من استرجاع مقام خلافته العظيم.

١. ٢. ٣ ـ وظيفة عدمية تخريبية

ويمكن استنباطها من معنى أمر الشيطان وأوليائه من الكفار والمنافقين، كما تقدم في ركن التعريف[٣]؛ ذلك بأن هذا الأمر المتعلق بما يغضب الله، من شر العقائد والأقوال والأعمال؛ أمر عدمي تخريبي، وسلبي جزئي؛ أي:

---

(١) عند تعريف ضميمة (الأمر بالمعروف)، ضمن مبحث الضمائم في الفصل الثالث.

(٢) انظر تفصيل الكلام في مجالات هذه الوظيفة، معززاً بأدلته، في مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضمن دراسة قضية الأمر الإنساني في باب التفسير الموضوعي.

(٣) انظر: ص ٩١، ٩٢، ٩٣.

بلا أصل ولا أساس، وليس له نصيب في الخلق والإيجاد؛ لأنه، كما سيأتي[1]، من نوع الأمر بترك الواجب، وتعطيل العمل، وتقويض الحق، وتفعيل الباطل. . . !

ومن ثم، فإن كان لا بد لهذا الأمر من وظيفة؛ فإن وظيفته الأساس - بإذن من الله لتحقيق سنة الابتلاء - هي التشريع للهدم والتخريب، وذلك بإغراء الإنسان بجميع الشرور، والإيعاز إليه باتباع شهواته، والتشريع وفق أهوائه، والإيقاع به في سبل الضلال المتفرقة، المفضية إلى الشقاق فالضعف فالدمار. . . وغاية ذلك: إفساد فطرته، وإعدام صلته بخالقه، وإحباط عمله، وتغيير دينه وولائه، من طاعة الله وموالاته إلى طاعة الشيطان واتباع خطواته. . .، وثمرة ذلك: انحدار أهل الضلالة والشر، بانخراطهم في سلك هذه الوظيفة العدمية، إلى أسفل سافلين، إلى عذاب الجحيم، ثم ارتقاء أهل الهداية والخير في سلم الكمالات إلى أعلى عليين، في جنة النعيم، بالمجاهدة والدعوة إلى التعمير بدل التخريب.

وأما من جهة المعاني الاسمية، فنستفيد وظيفة عظيمة أنيطت بالأمر بوصفه نتيجة، وهي الرابعة:

١. ٢. ٤ ـ وظيفة إنجازية

وهي وظيفة لا حدود لمنجزاتها ومجالاتها، كما تبين من قياس المدى الاصطلاحي لتلكم المعاني آنفاً؛ إذ بمقتضاها تُنجَز الشؤون التكليفية في الأرض، فيتم بذلك التمكين لدين الله وتكاليفه، وبمقتضاها تقع الشؤون التدبيرية في الكون والخلق؛ فيتم الإيجاد والإعدام، وينفذ التدبير والتقدير، ويمضي التنظيم والتصريف، ويُنجز الوعد والوعيد في الماضي والحاضر؛ كالوعد بالنصر والنجاة، والوعيد بالعذاب والهلاك، ويتحقق البعث والجزاء في المستقبل، وبمقتضاها ـ أيضاً ـ تقع أعمال الإنسان في الدنيا، وتتحقق ثمارها في الآخرة!

---

(١) عند تحليل حقيقة الأمر الشيطاني في الفصل الثاني من باب التفسير الموضوعي.

وبناء على مقتضيات هذه الوظيفة، يدرك كل مؤمن إدراكاً جازماً أن الله متم أمره وهديه في أرضه، فيسارع إلى امتثاله وإنجازه، ابتغاء مرضاة ربه؛ وأنه سبحانه منجز قدره وتيسيره في كونه وخلقه؛ فيعتقد بأن جميع الأمور تُنجز تحت تصرفه وتدبيره، جل شأنه، وينظر إلى القدر في المصائب الواقعة به؛ فيصبر، ويرى التيسير في الرغائب؛ فيشكر، ويرى أعماله التي أنجزها في حياته؛ فيُرجِع حسناتها إلى ربه، ويسند سيئاتها إلى نفسه، ولا يتهم القدر ويتملص من المسؤولية!

١. ٣ ـ موقعه

يتنوع موقع المصطلح في نسقه المفهومي القرآني الجزئي[١] بحسب الوظائف التي يشغلها والمعاني التي يلبسها:

فمن جهة وظيفته التأسيسية والإنجازية، المستنبطة من بعض معانيه المصدرية والاسمية المتقدمة، فإن مصطلح الأمر يحتل مركز الصدارة ضمن المصطلحات التي تشاركه في مفاهيمه التكوينية والتكليفية، المصدرية والاسمية:

فباعتبار مفاهيمه التكوينية المصدرية، فإن الأمر التكويني الصادر إلى المخلوقات يؤسس لتثبيت الشريعة التكوينية، بوصفه سبباً أصيلاً في تحقق الشؤون التكوينية واستمرارها وفق السنن الكونية، ومن هذا الموقع التأسيسي يترادف ويتكامل مع ما كان من كوني في مصطلحات: «**الإرادة**»، و«**القضاء**»، و«**القدر**»، و«**الإذن**»، و«**الحكم**»[٢]، و«**البعث**»...

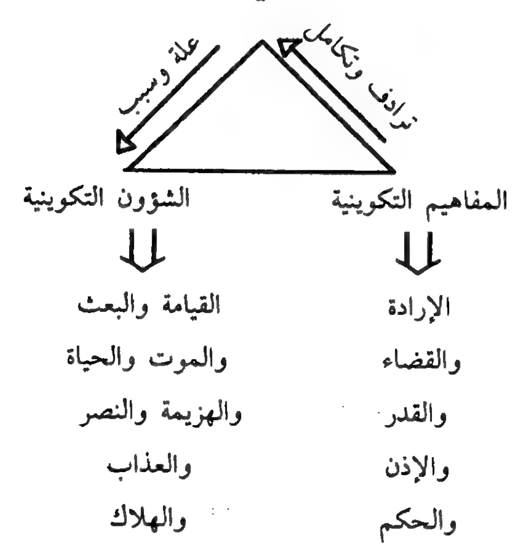
(١) وتحديد موقع المصطلح داخل هذا النسق أمر متيسر، بخلاف تحديده داخل النسق القرآني الكلي؛ فإنه أمر متعذر، من حيث إن القرآن الكريم في عمومه نسق من المفاهيم، على غاية الكمال، وفي منتهى التشعب والنظام، وتحديد موقع هذا المصطلح الضخم داخل هذا النسق الكلي يستدعي دراسة مجموع المفاهيم والمصطلحات المشكلة لهذا النسق، وهو أمر قد يستغرق العمر كله...!.

(٢) وسيأتي تحليلها في موضعها الملائم من البحث.

وباعتبار مفاهيمه التكوينية الاسمية، فإنه ينتمي إلى المصطلحات المتعلقة بالشؤون التدبيرية، الجارية في عالمي الشهادة والغيب، في الدنيا والآخرة؛ كـ«**الموت**»، و«**الحياة**»، و«**القيامة**»، و«**البعث**»، و«**النصر**»، و«**الهزيمة**»، و«**العذاب**»، و«**الهلاك**». . .

ولإيضاح هذا الكلام، نورد الرسم التالي:

الأمر التكويني (التدبيري)



أما باعتبار مفاهيمه التكليفية المصدرية، فإن الأمر الذي يتم به تكليف الإنس والجن، يتبوأ أعلى مقام في الخطاب الإلهي[1]، وذلك لما فيه من معنى الاستعلاء، ومع الاستعلاء الظهور والإشراف، كما دل عليه أصل معناه في اللغة. ومن هذا الموقع يشرف «**الأمر**» على مصطلحي: «**النهي**»، و«**الوعظ**»، إشراف الأصل على الفرع؛ ذلك بأن الأمر، كما مضى، يؤسس لتثبيت الحق وامتثاله، وهو الأصل. والنهي، كما سيأتي[2]، تبع له، وهو الفرع، وكذلك الوعظ تأكيد له وتكملة.

---

(١) كما سيأتي بيانه عند تعريف الوحي، ضمن بيان حقيقة الأمر الإلهي الديني في باب التفسير الموضوعي.

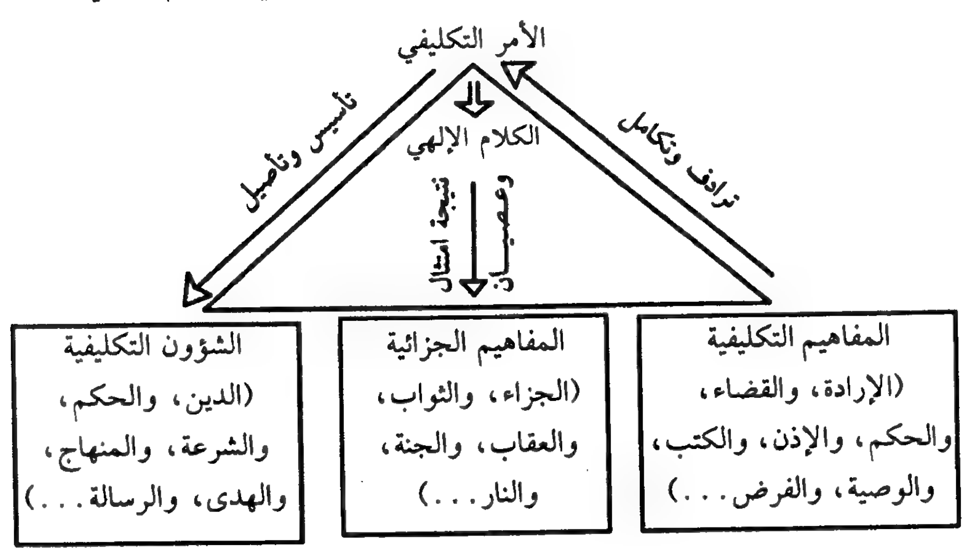
(٢) في مبحث العلاقات.

وبملحظ من هذا الموقع الأصيل للأمر داخل أصول الدين وشرائعه، يتبوأ الأمر مكانة علية ضمن المفاهيم التكليفية، التي تؤسس لبناء هذا الدين: عقيدة وشريعة، فيترادف ويتكامل مع مصطلحات: «**الكَتب**»، و«**الوصية**»، و«**الفرض**»، و«**الإرادة**»، و«**القضاء**»، و«**الحكم**» و«**الإذن**». . .

وأما باعتبار مفاهيمه التكليفية الاسمية، فإن «**الأمر**» ينتمي إلى المصطلحات المتعلقة بالشؤون التكليفية؛ كـ«**الدين**»، و«**الحكم**»، و«**الشرعة**»، و«**المنهاج**»، و«**الهدى**» و«**الرسالة**». . .

ومما يُسجل تتويجاً لما تقدم، أن للأمر التكليفي تعلقا بالثواب والعقاب، من حيث نتائجه الأخروية؛ إذ هو الذي يترتب على امتثاله أو عدم امتثاله سعادة الإنسان أو شقاوته في الآخرة، وبذلك يأخذ مفهومه موقعاً عقدياً عظيماً ضمن المفاهيم الجزائية الأخروية؛ كـ«**الجزاء**»، و«**الثواب**»، و«**العقاب**»، و«**الجنة**»، و«**النار**». . . ويعزز هذا الموقع اقتران المصطلح بألفاظ[١]: «**الرجوع**»، و«**العاقبة**»، و«**المصير**»، التي تلوح بالجزاء الأخروي، على مألوف الاستعمال القرآني.

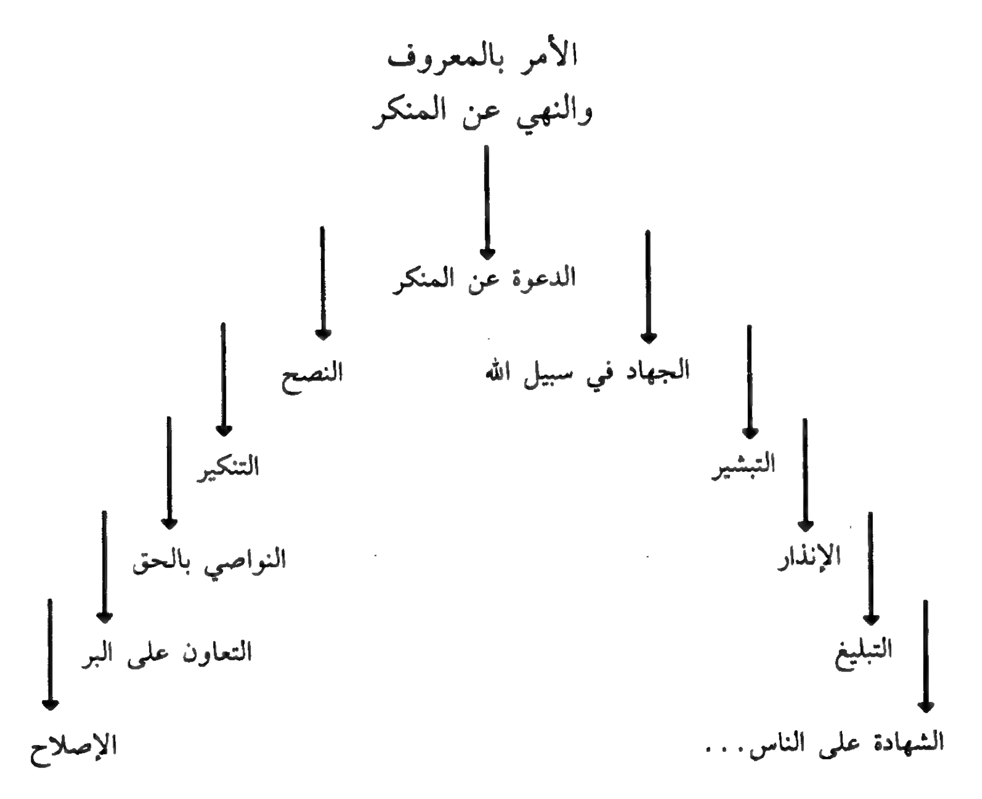
وحاصل الكلام في موقع الأمر التكليفي نتمثله في الرسم التالي:



(١) تقدمت ضمن شواهد المعنى الاسمي بشقيه في مبحث التعريف: انظر ص ٨٤ ـ ٨٥.

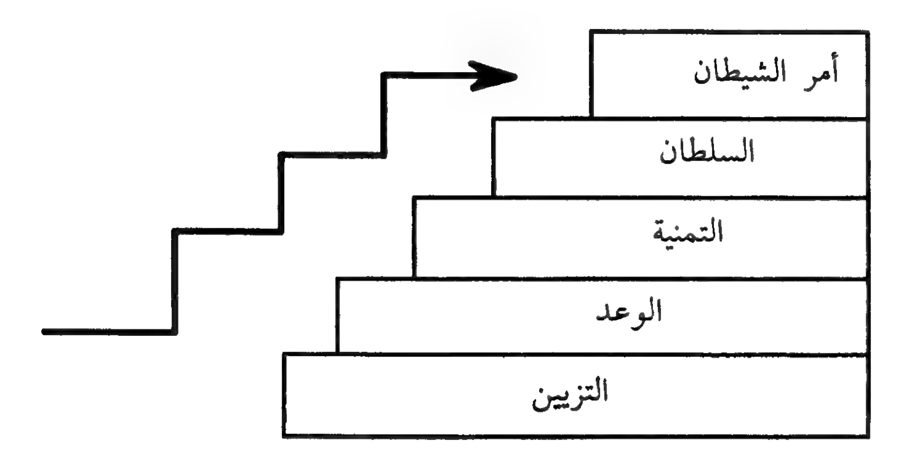
وأما من جهة وظيفته الدعوية الإصلاحية، المستفادة من بعض معانيه المصدرية، كما مضى؛ فإن «**الأمر**» يتربع ـ بالحق ـ على سدة المصطلحات، التي تجسد حقيقة الدين الرسالية، ووظيفة أتباعه التبليغية؛ نحو: «**الدعوة إلى الله**»، و«**الإنذار**»، و«**التبشير**»، و«**الشهادة على الناس**»، و«**الإصلاح**»، و«**النصح**»، و«**التذكير**»، و«**التبليغ**»، و«**الجهاد في سبيل الله**» و«**إظهار الدين**»، و«**إعلاء كلمة الله**»، و«**التواصي بالحق**»، و«**التعاون على البر**»، وغير ذلك مما سيأتي عرضه وتحليله، ضمن النصوص الشارحة لقضية «**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» في باب التفسير الموضوعي.

وإذا كان لا بد من وضع تشجير مفهومي لهذا الموقع السامي، فإنه لا يخرج ـ حسب الفهم ـ عن الشكل التالي:



وأما من جهة وظيفته العدمية التخريبية المستلهمة من معنى أمر

الشيطان وأوليائه المتقدم؛ فإن الأمر بوصفه وسوسة شيطانية، كما سيأتي[١]، تفضي إلى امتثال الإنسان لدعوة الشيطان، وتسخيره لأعمال الشر والعصيان؛ يتبوأ أعلى مراتب الوساوس الإبليسية، ويتوج، في تدرج من مرحلة التسويل والتزيين إلى مرحلة التسلط والتسخير، مفاهيم: «**التزيين**»، و«**الوعد**»، و«**التمنية**»، و«**السلطان**»...، ويمكن توضيح السلم التراتبي لهذه الوساوس، وتحديد موقع الأمر فيه، من خلال الرسم التالي:



فهذا الرسم يوضح التدرج في الوساوس الشيطانية؛ حيث تبتدئ في مستوى أول تمهيدي بـ«**التزيين**» فـ«**الوعد**» فـ«**التمنية**»، ثم ترتقي في مستوى ثان تسخيري إلى «**السلطان**» فـ«**الأمر**»، الذي إذا عزم عليه العبد؛ وقع في المعاصي والعياذ بالله!

وهكذا تتميز الذات المصطلحية لـ«**الأمر**» بموقع عظيم داخل أسرتها المفهومية، ومن خلال هذا الموقع، تطل بحلة قشيبة من المعاني الجديدة، التي أُخرجت إخراجاً من مصنع الكلام الإلهي القرآني، بطاقة قوية على الاستيعاب، ودرجة عالية في الاتساع، ووظيفة هامة في الهدم والتخريب أو الإنجاز والإصلاح!

---

(١) عند تحليل لفظ الوسوسة ضمن بيان حقيقة الأمر الشيطاني في باب التفسير الموضوعي.

وإذا كانت تلكم هي الخصائص المميزة لـ«**الأمر**» في القرآن الكريم، فإن هذه الخصائص لا تكتمل إلا بدراسة الصفات الحُكمية التي وُصف بها المصطلح، فازداد بها تميزاً وشخوصاً.

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني: الصفات

والصفات التي أفادت حكماً على مصطلح الأمر في القرآن، على ضربين:

الأول: صفات مطردة، سُكت على المصطلح، فصارت ضميمة اصطلاحية؛ كـ«**العزم**» و«**العاقبة**»...، ومن ثم كان من الأنسب دراستها ضمن ركن الضمائم.

والثاني: صفات غير مطردة، ألصقت بالمصطلح على سبيل المدح أو الذم، وهي: «**المرج**»، و«**الحكمة**»، و«**الجمع**»، و«**القضاء**»، و«**الأمن**»، و«**الخوف**»، و«**الفعل**». ولعل استقراء موارد هذه الصفات، وتحليل طبيعتها ببيان مفاهيمها في حالة إفرادها وتركيبها، ثم استخلاص ما تضيفه إلى دلالة المصطلح من اللطائف والإيحاءات؛ هو مطلب هذا المطلب الأساس.

٢. ١ ـ (المرج):

وردت كلمة «**مريج**»[1]، وهي اسم فاعل من المرج، وصفا للأمر في آية ق المكية: ٥: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

---

(١) ومن مادة هذه الكلمة جاء: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ في الفرقان: ٥٣ والرحمن: ١٧، ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ في الرحمن: ١٥، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ مع اللؤلؤ في الرحمن: ٢٢، ومع الياقوت في الرحمن: ٥٧.

٢. ١. ١ مفهوم المرج في اللغة:

الأصل في المرج: **القلق والاختلاط والاضطراب**[١] وهو مأخوذ حسياً من قولهم: «**مَرَجَ الخاتم في الأصبع: قَلِقَ**»[٢]، وقولهم: «**غصن مريج: مختلط**»[٣] و«**خَوط مريج: متداخل الأغصان**»[٤]؛ ومعنوياً، كما يقال: «**أمر مريج: مختلط**»[٥]، و«**مرجت أمانات القوم وعهودهم: اضطربت واختلطت**»[٦].

٢. ١. ٢ مفهوم المرج في آية «ق»:

إن تدبر الآية في مقامها من السورة يفيد أنها سيقت للتنديد بالكفار الذين بادروا بتكذيب القرآن الكريم[٧] لما جاءهم، دون تأمل ونظر فيما حواه من الحق؛ ومنه الإيمان بالبعث الذي أنكروه في أول السورة، ونُبهوا على دليله في الآيات التالية[٨].

والمراد بـ«**الأمر**» هنا: «**الحال المتلبسون هم به تلبس المظروف بظرفه، وهو تلبس المحوط بما أحاط به**». وتعين هذا المراد بقرينة وقوع «**الأمر**» بعد

---

(١) القاموس المحيط والمفردات/مرج، وفي التاج أضاف الزبيدي إلى الاختلاط معنى الالتباس.

(٢) مقاييس اللغة/مرج.

(٣) المفردات/مرج.

(٤) القاموس/مرج.

(٥) القاموس والمفردات/مرج.

(٦) المقاييس/مرج، والجامع لأحكام القرآن: ٥/١٧، ومنه حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: «أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا** ـ وشبك بين أصابعه ـ. . .»: (صحيح سنن أبي داود: ٣٧/٣ في الملاحم، رقم: ٤٣٤٣).

(٧) ولعل هذا المعنى هو المراد بالحق؛ لأنه أشمل وأعم من سواه؛ كالإخبار بالبعث، أو النبي، أو الإسلام. . . وهذه المعاني متلازمة، يتضمنها القرآن الكريم: (انظر جامع البيان: ١٤٩/٢٦/١٣ وتفسير الطوفي: ص ٣٠).

(٨) من قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾: ق/٦ ـ ١١.

حرف (في) المستعمل للظرفية المجازية[١]. أما صفة «مريج» فقد ذهب المفسرون في تفسيرها طرائق قدداً؛ فقال ابن عباس رضي الله عنه: المريج: الباطل[٢]، وأسند الطبري عنه أنه قال: المريج: المنكر، وقال آخرون: بل معناه: في أمر مختلف، وقيل: في أمر ضلالة. وقيل: في أمر ملتبس عليهم، وقيل: هو المختلط[٣] وفسر الطاهر ابن عاشور دلالة الاختلاط والاضطراب التي هي أصل في المادة، بقوله: «والمريج: المضطرب المختلط؛ أي: لا قرار في أنفسهم في هذا التكذيب، اضطربت فيه أحوالهم كلها من أقوالهم في وصف القرآن، فإنهم ابتدروا فنفوا عنه الصدق، فلم يتبينوا بأي أنواع الكلام الباطل يلحقونه؛ فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقالوا: ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾، وقالوا: ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾، وقالوا: (هذيان مجنون). وفي سلوكهم في طرق مقاومة دعوة النبي ﷺ وما يصفونه به إذا سألهم الواردون من قبائل العرب... وهذا تحميق لهم بأنهم طاشت عقولهم فلم يتقنوا التكذيب، ولم يرسوا على وصف الكلام الذي كذبوا به»[٤].

والأقوال في تأويل الآية متقاربة. وفي الاختلاط والاضطراب والالتباس ملحظ من دلالة اللفظ على حالة الارتياب والحيرة التي اعترت المشركين لما جاءهم القرآن الكريم، وما فيه من المعاد والجزاء؛ فكذبوا وزاغوا عن الحق.

٢. ١. ٣ ـ من إيحاءات الصفة

ومن مجموع ما تقدم، نستوحي اللطيفة القرآنية التالية:

---

(١) التحرير: ٢٦/٢٨٤.

(٢) ذهبت بنت الشاطئ إلى أن هذا التفسير من قبيل التقريب؛ إذ ليس في سياق كلمة (باطل) ـ كما وردت في القرآن الكريم ـ معنى الاختلاط الذي تفيده كلمة «مريج»: (انظر: الإعجاز البياني: ٥١٨).

(٣) راجع هذه الأقوال في جامع البيان: ٢٦/١٣/ من ص ١٤٩ إلى ١٥١.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٦/٢٨٥، وانظر كذلك: تفسير الزمخشري: ٤/٤.

إن وصف حال الكفار لما جاءهم الحق بصفة المرج المذمومة يدل على أن الكفار تقلقهم الشكوك، وتمزقهم الحيرة، وتتأرجح مواقفهم إلى اليمين وإلى الشمال، فيفقدون الاستقرار والطمأنينة. ولا شك أن هذه الحالة النفسية القلقة هي حال كل من يفارق الحق، ويجاوز نقطته الثابتة التي يقف عليها من يؤمن بالحق، فلا يستقر على حال، ولا يهنأ له عيش.

٢. ٢ ـ (الحكمة)

ورد لفظ «**حكيم**» صفة للأمر، وهو اسم الفاعل من الحكمة، في آيات الدخان: ٢، ٣، ٤ ﴿... إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

فما هو أصل «**الحكمة**» في اللغة؟ وكيف ورد لفظ «**حكيم**» في القرآن الكريم؟ وما هو معناه؟

٢. ٢. ١ ـ مفهوم الحكمة في اللغة

أصل الحكمة في اللغة: **المنع لإصلاح**، ومنه سميت اللجام حَكَمة الدابة[١]؛ لأنها تمنعها[٢]، وهذا الاستعمال الحسي للحكمة ملحوظ فيه المعنى المعنوي للحكمة، وهو المنع من الجهل والظلم؛ إذ الحكمة تمنع من الجهل» تقول: «**حَكَّمت فلاناً تحكيماً منعته عما يريد**» والحُكم هو «**المنع من الظلم**»[٣].

٢. ٢. ٢ ـ ورود «حكيم» في القرآن الكريم

من اللافت، أن القرآن الكريم لم يستعمل «**الحكيم**» قط إلا مسنداً

---

(١) المفردات/حكم.

(٢) المقاييس والقاموس/حكم.

(٣) المقاييس/حكم.

إلى الله تعالى، أو اسماً من أسمائه الحسنى[١]، أو وصفاً لكتابه القرآن[٢] باستقراء مواضع الكلمة، وهي نحو سبعة وتسعين موضعاً، معظمها ورد في سور مكية[٣].

٢. ٢. ٣ ـ مفهوم الصفة في آيات الدخان

وانسجاما مع هذا الملحظ الاستقرائي لاستعمال لفظ «حكيم»، جاء الأمر هنا موصوفاً بالحكمة في سياق الحديث عن ليلة القدر المباركة من شهر رمضان، التي جعلها الله تعالى وقتاً لقضاء الأمور الشريفة الحكيمة.

وأكثر المفسرين على أن الأمر الذي يُفصل ويُقضى في ليلة القدر هو

---

(١) وهذا الاسم الكريم قد كثر تزاوجه مع أسماء الله الحسنى، بلا حرف عطف بينهما، فاقترن «بعليم»: (البقرة/٣١)، و«عزيز»: (إبراهيم /٥)، و«خبير»: (الأنعام/١٩)، و«تواب»: (النور/١٠)، و«حميد»: (فصلت/٤١)، و«علي»: (الشورى/٤٨) و«واسع»: (النساء/١٢٩). وأكثر حالات اقترانه بالاسمين: «عليم» و«عزيز»... ويتأخر عن العليم في أكثر المواضع، وهذا التأخير ـ في تقديرنا ـ إنما يجري مع مفهومنا نحن البشر؛ فالعلم أولا، ثم من العلم تجيء الحكمة، فلا حكمة ما لم تستند إلى علم؛ قال الله تعالى في آية الجمعة: ٢ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.
ويتقدم العزيز على الحكيم في أغلب المواطن؛ لأن العزة تجمع بين القوة والسلطان، وهي ليست عزة غاشمة جهول، بل عزة عالمة حكيمة! تضع كل شيء موضعه عن علم وحكمة.

(٢) ويعضد هذا الملحظ الاستقرائي لاستعمال «حكيم» في القرآن، ما ساقه الراغب ضمن إشارته الدقيقة إلى الدلالة القرآنية للحكمة؛ حيث قال: «والحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات... فإذا قيل في الله تعالى هو حكيم، فمعناه بخلاف معناه إذا وُصف به غيره... وإذا وُصف به القرآن فلتضمنه الحكمة...»: المفردات/حكم.

(٣) في مثل آيات: الأنعام: ٨٣ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ومعها الزخرف: ٨٤ وآل عمران: ١٢٦. وكذلك آيات: يس: ١ ـ ٢ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ ويونس: ١ ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ ومعها: الزخرف: ٣ وآل عمران: ٥٧ والجمعة: ١.

أمر السنة كلها، من رزق، وموت و حياة، وفقر وغنى، وخصب وجدب، وصحة ومرض، وغير ذلك من جميع أمور السنة[١].

وفي وصفه بالحكمة قولان: (أولهما) أن الحكيم المشتمل على حكمة بالغة من حكمة الله تعالى، و(ثانيهما) أنه المحكم الذي أحكمه الله تعالى وأتقنه، فلا يتغير ولا يتبدل[٢]. وكلا الأمرين حق؛ لأن ما سبق في علم الله محكم لا يتغير، ولأن جميع أفعاله في غاية الحكمة[٣].

وقد فصل الطاهر ابن عاشور تلك الأمور الحكيمة التي يقضي بها الله تعالى في ليلة القدر، فلم يكتف ببيان ما يقدره فيها من وقائع السنة؛ حيث قال: «وبعض تلك الأمور الحكيمة ينفذ الأمر به إلى الملائكة الموكلين بأنواع الشؤون. وبعضها ينفذ الأمر به على لسان الرسول ﷺ مدة حياته الدنيوية. وبعضها يلهم إليه من ألهمه الله أفعالاً حكيمة. والله هو العالم بتفاصيل ذلك»[٤]. ولعل في هذا التفصيل إيماءا إلى أن هذه الليلة المباركة جعلها الله مفرق كل ما يريد قضاءه في الناس من الشؤون العظيمة. ومن أهمها في تقدير الحكمة الإلهية: نزول القرآن الذي فيه صلاح الناس كافة؛ حيث كان ابتداء نزوله فيها ملابساً لوقت مبارك، فازداد فضلاً وشرفاً، ومن ثم أعاد كلمة «**أمرا**» التي انتصبت على الحال من «**أمر حكيم**» دلالة على تفخيم شأنه[٥]؛ «أي: أمراً فخماً إذا وُصف بـ«**حكيم**» ثم بكونه من عند الله

---

(١) أضواء البيان: ٣٢٠/٧ وجامع البيان: ١٠٨/٢٥/١٣ والكشاف: ٥٠١/٣ وفتح البيان: ٣٩٠/١٢.

(٢) التحرير: ٢٨٠/٢٥ وأضواء البيان: ٣٢٠/٧ وجامع البيان: ١٠٩/٢٥/١٣ وتفسير غريب القرآن: ٣٧٢.

(٣) أضواء البيان: ٣٢٠/٧.

(٤) التحرير: ٢٨٠/٢٥.

(٥) وقال الشنقيطي مرجحاً هذا الوجه الأعرابي: «وهذا الوجه جيد ظاهر، وإنما ساغ إتيان الحال من النكرة وهي متأخرة عنها؛ لأن النكرة التي هي «أمر» وصفت بقوله «حكيم»»: (أضواء البيان: ٣٢٢/٧). وقد ذكر المفسرون وجوها أخرى للأعراب أظهرها هذا الوجه: (يراجع تفصيل ذلك في أضواء البيان: نفس الجزء والصفحة، والجامع لأحكام القرآن: ١٢٨/١٦.

تشريفا له بهذه العندية. وينصرف هذا التشريف والتعظيم ابتداء وبالتعيين إلى القرآن. . .»[١] وإلى هذا المعنى أشار البخاري في قوله، متعقباً وجه انتصاب أمراً على الاختصاص[٢]: «وقيل: على الاختصاص، أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، وفيه تفخيم لشأن القرآن وتعظيم له»[٣].

٢. ٢. ٤ ـ من دلالات الصفة:

ويستفاد مما تقدم أن لفظ «**الحكيم**» ورد في آية الدخان صفة لكل شأن مفعول على وفق الحكمة، على جهة الإسناد المجازي؛ لأن صاحب الأمر، الموصوف بالحكمة على الحقيقة، هو الله تعالى، وسواء كانت هذه الحكمة وصفا لما قضاه الله في تلك الليلة المباركة من أحوال عباده، أو وصفا لكلامه الذي أنزله من عنده، فإن الحكيم من صفاته المتناهية في الكمال، التي تنسجم مع كثرة شؤونه الحكيمة.

٢. ٣ ـ (الجمع):

ورد لفظ «**جامع**» وصفا للأمر، وهو اسم الفاعل من الجمع، في آية النور المدنية: ٦٢ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

٢. ٣. ١ ـ مفهوم الجمع في اللغة:

يدل الجمع على **تضام الشيء، بتقريب بعضه من بعض**[٤] يقال:

---

(١) التحرير: ٢٥/٢٨٠. وهذا المعنى ينسجم مع عادة القرآن في استعمال صيغة «حكيم».

(٢) وهو التوجيه النحوي الذي اختاره الزمخشري في الآية: انظر الكشاف: ٣/٥٠٠.

(٣) فتح البيان: ١٢/٣٩٠.

(٤) المقاييس: ١/٤٧٩ والمفردات/٩٤.

«جمعته فاجتمع»[١] وفي الجمع معنى القوة والعظمة والخطر. ولعل أصل استعماله الحسي من قولهم: «أتان جامع إذا حملت، وقِدْر جِماع جامع: عظيمة...»[٢].

٢. ٣. ٢ ـ مفهوم الجمع في القرآن الكريم:

و«**الجمع**» أكثر ما يُستعمل في القرآن الكريم في معنى: **الحشد الكاثر في المعركة، ومع مظنة القوة والغلبة**[٣] كما يُستعمل «**الإجماع**» في **حشد الرأي، وتدبير الأمر، وإحكام المكيدة**[٤].

أما صيغة «**جامع**» فجاءت في القرآن الكريم مرتين، مضافة إلى الله تعالى، على جهة الحقيقة، في مقام البعث وعذاب الآخرة؛ لأنه هو القادر سبحانه على حشد الناس في يوم الجمع للجزاء[٥].

وجاءت مرة وصفاً للأمر ـ كما تقدم ـ، على سبيل المجاز العقلي[٦] في آية النور[٧].

---

(١) المفردات/جمع.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) كما في آيات: القمر: ٤٥ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ القصص: ٧٨ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾... آل عمران: ١٥٥ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.

(٤) في مثل آيتي: طه: ٦٤ ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ الآية يوسف: ١٠٢ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

(٥) مصداقاً لقوله تعالى في آل عمران: ٩ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾... والنساء: ١٤٠ ...﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

(٦) لأن الأمر سبب للجمع: انظر التحرير: ٣٠٧/١٨ ومفاتيح الغيب: ٤٠/٢٤/١٢ ومجمع البيان: ١٥٨/٧ والبحر المحيط: ٧٤/٨.

(٧) ونظير ذلك قوله تعالى من آية يونس: ٧١ ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾.

٢. ٣. ٣ ـ مفهوم «الجامع» في آية النور:

ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية نزلت في حفر الخندق، وكان قوم من المنافقين يتسللون بغير إذن ويعتذرون بأعذار واهية[١]، فبين الله بصريح الآية وجوب استئذان الرسول ﷺ في الذهاب من مجلسه، وجعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين، وعرَّض بحال الماضين وتسللهم لواذاً تشهيراً بنفاقهم.

ومن هنا، فإن سياق الآية يدل على أن الأمر الجامع الذي يقتضي الاجتماع عليه، والتشاور فيه، أمر جسيم، لا يحتمل الانصراف عنه والاشتغال بغيره إلا لضرورة ماسة وعذر مبسوط بين يدي رسول الله ﷺ، ومن ثم فسره الطاهر ابن عاشور بالشأن والحال المهم، الذي من شأنه أن يجتمع الناس لأجله للتشاور أو التعلم[٢]، والتفت الراغب إلى خطورته في قوله: «(أمر جامع)؛ أي: أمر له خطر يجتمع لأجله الناس، فكأن الأمر نفسه جمعهم»[٣]، وفسره أبو حيان مخصوصاً بالحرب؛ نحو مقابلة عدو وتشاور في أمرهم، أو تضام لإرهاب مخالف، أو ما ينتج في حلف وغير ذلك[٤]، وأضاف الطبري: «أو صلاة اجتمع لها أو تشاور في أمر نزل»[٥].

وهذه الأقوال متقاربة يحتملها لفظ (الجامع) لغوياً واصطلاحياً، غير أننا نرجح تفسير الأمر الجامع **بالاجتماع للحرب ولترهيب عدو**[٦] لأن هذا

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٧٤/٨ والجامع لأحكام القرآن: ٣٢١/١٢ والتحرير: ٣٠٦/١٨. ونقل القرطبي عن مقاتل: «أنها نزلت في عمر رضي الله عنه: استأذن النبي ﷺ في غزوة تبوك في الرجعة، فأذن له...» والصحيح ما أوردناه، لقوله تعالى في الآية التي تليها: ٦٣ ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾....

(٢) التحرير: ٣٠٧/١٨.

(٣) المفردات/جمع.

(٤) البحر المحيط: ٧٤/٨.

(٥) جامع البيان: ١٧٧/١٨/١٠ وكذلك: مجمع البيان: ١٥٨/٧ وتفسير ابن كثير: ٢٩٦/٣.

(٦) وهو المختار عند أبي حيان وابن العربي: (انظر: البحر: ٧٤/٨. والجامع لأحكام القرآن: ٣٢١/١٢).

المعنى يستقيم مع سياق الآية، ومع ما في لفظ «**الجمع**» من دلالات التجمع وحشد الآراء ومظنة القوة، التي نجدها في أصل استعماله اللغوي، وفي استعماله القرآني[١].

٢. ٣. ٤ ـ من إيحاءات الصفة:

إن مجيء صفة الجمع بصيغة اسم الفاعل يوحي بأن هذه الصفة ميزت الأمر بأنه ذو خطر عظيم؛ إذ لا يجتمع الناس للإدلاء بآرائهم في الشورى إلا لأمر يعظم محله من الدين، ويشمل الأمة نفعه وضرره. ولولا دلالة الضم والتأليف التي توحي بها هذه الصفة لما تميز هذا الأمر من بين سائر الأمور.

٢. ٤ ـ (القضاء)[٢]:

جاء الأمر موصوفاً بالمقضي[٣] مرة واحدة في آية مريم المكية: ٢٠ ـ ٢١ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

فما هو السياق الذي وردت فيه كلمة «مقضياً» وما هو معناها؟

تبين الآية بصريح سياقها الحكمة من خلق عيسى بأمر التكوين من غير أب، وهي ما أراده الله تعالى من بيان كمال قدرته على أنواع الخلق للناس،

---

(١) ويعضد هذا الترجيح قول أبي حيان في البحر: ٨/٧٤: «وفي قوله: «وإذا كانوا معه على أمر جامع» أنه خطب جليل، لا بدَّ لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة، يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفاءته، فمفارقة أحدهم في مثل هذه الحالة مما يشق على قلبه، ويشعث عليه رأيه، فمن ثم غلظ عليهم، وضيق الأمر في الاستئذان. . .».

(٢) سيأتي ـ إن شاء الله ـ الحديث عن معاني القضاء في القرآن الكريم في قسم التفسير الموضوعي.

(٣) وصيغة «المقضي» جاءت أيضاً صفة للحتم بمعنى الواجب في آية مريم: ٧١ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

وهديهم لرسالة عيسى؛ لأنها طريق الرحمة. وهذه الحكمة العظيمة تنسجم مع تنكير الأمر وتنوينه للتفخيم والتعظيم. ومعناه هنا: «الشيء العظيم... أو يُجعل بمعنى الشأن. والعرب لا يطلقون «الأمر» بهذا المعنى إلا على شيء مهم»[١]. فإذا أسند إلى (كان) فمعناه تحقق ثبوته في الماضي، بتقدير و«كان خلقه»[٢] أو «وجوده»[٣] أمراً مقضياً.

وهذا الوصف للأمر في تأويل الطبري: «وكان خلقه منك أمراً قد قضاه الله، ومضى في حكمه وسابق علمه أنه كائن منك»[٤]. وقيل: «وكان وجوده أمراً مفروغاً منه»[٥] و«تحقق وقوعه»[٦]، وقيل «مقدراً، محكوماً، مفروغاً منه، لا يرد، ولا يبدل، ولا يتغير، مسطورا في اللوح المحفوظ قد قدره الله سبحانه وجف به القلم»[٧].

والأقوال في تفسير الصفة في الآية متقاربة. وفي **الفراغ والتحقق والحكم ملحظ من دلالة اللفظ على القطع والفصل والإحكام**. وهذه الدلالة أصل في المادة، كما في تهذيب اللغة، والمفردات، والمقاييس. قال الأزهري: «القضاء في اللغة على أوجه مردها إلى انقطاع الشيء وتمامه»[٨]، وقريب منه قول الراغب: «القضاء فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً» وأضاف: «والقضاء هو الفصل والقطع»، وبالفصل فسر قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[٩]، تنبيهاً على أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه، ثم قال: «**وكل**

---

(١) التحرير: ١٠/٢٠.

(٢) فتح البيان: ٨/١٤٩.

(٣) البحر المحيط: ٧/٢٥٠.

(٤) جامع البيان: ٩/١٦/٦٢، وتفسير المراغي: ٦/٣٧.

(٥) البحر: ٧/٢٥٠.

(٦) في ظلال القرآن: ٥/٤٣٢.

(٧) فتح البيان: ٨/١٤٩ ومثله ما في أضواء البيان: ٤/٢٥٩.

(٨) تهذيب اللغة/قضى. وكذلك فقه اللغة للثعالبي/٢٢٨.

(٩) وكذلك نظائرها؛ مثل آية مريم/٢١ وآية البقرة/٢٠٨.

قول مقطوع به من قولك هو كذا أو ليس بكذا يقال له قضيته»»[١]. وورد ابن فارس أصل المادة إلى معنى **إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته**... ولذلك سمي القاضي قاضياً، لأنه **يُحكم الأحكام وينفذها**...»[٢].

وفي ضوء أقوال أهل العربية والتفسير، المتقاربات المعاني بعضها من بعض، يكون مفاد الأمر وصفته: **أن الله قدر في الأزل خلق عيسى، وحكم أنه سيكون بالنفخ في فرج مريم العذراء، فصار مقطوعاً بتحققه.** ولعل أدق معنى الصفة هو ما يعطيه صريح نص هذه الجملة الوجيزة: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ من قطع لمراجعة مريم، وإخبار بأن القضاء قد نفذ، والتخليق قد حصل في رحمها.

٢. ٥ ـ الأمن والخوف:

جاء الأمن والخوف، وهما مصدران متعاطفان بأو[٣] التقسيمية على جهة التقابل، صفتين مخصصتين للأمر في آية النساء: ٨٣ ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ الآية.

وفي ضوئها، نحدد مفهوم الصفتين، اهتداء باستعمالهما القرآني، وبسياق ورودهما في الآية.

---

(١) المفردات/قضى.

(٢) المقاييس/قضى.

(٣) إن عطف الخوف على الأمن بأو التقسيمية، وهو حرف يفيد التنوع والتمايز بين المتعاطفين، يلفت إلى ملحظ في تقسيم الوصفين، هو تفصيل الإجمال في: «جاءهم أمر»؛ إذ ما قبل أو التقسيمية وما بعدها بعض لما تقدم عليهما من المجمل، فيكون المعنى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ وهذا يدل على أن الأخبار الواردة على المسلمين وغيرهم، إما أن تكون في جانب الأمن، وإما أن تكون في جانب الخوف.

٢. ٥. ١ ـ مفهوم الأمن والخوف في القرآن الكريم:

جاء المصدر من «الأمن» في الاستعمال القرآني، خمس مرات، في **اطمئنان الإنسان وسلامته مع زوال أسباب الخوف، من عدو أو غيره**(١).

أما المصدر من «الخوف»، فجاء في القرآن الكريم ستاً وعشرين مرة، معظمها في **نفي الخوف من العذاب**(٢) **عن المؤمنين في الآخرة**(٣).

وجاء الخوف مقترناً بالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمار، في مقام ابتلاء المؤمنين بالجهاد، كما جاء في شعور المنافقين بالضرر المنتظر عند البأس ولقاء الأعداء(٤).

٢. ٥. ٢ ـ مفهوم الأمن والخوف في آية النساء:

وانسجاماً مع سياق آيات الأمن والخوف في القرآن الكريم، وردت آية النساء في مقام الحرب والقتال، وذم إذاعة الأخبار المظنونة عن سرايا المسلمين الغازية. والموصوفون بتلك الإذاعة المذمومة هم «**المنافقون**»(٥)؛ لأنها الطائفة المبيتة غير الذي يقول رسول الله ﷺ، فنهوا عن إفشاء الأخبار

---

(١) ومثال ذلك آيتا: الأنعام: ٨٢ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، والنور: ٥٥ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ الآية.

(٢) ويعضد ذلك قول الدامغاني عند بسط أوجه الخوف: «...كقوله في سورة فصلت: ٣٠ ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ من العذاب»: (إصلاح الوجوه والنظائر: ١٦٥).

(٣) نحو آيتي الأعراف: ٤٩ ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ومعها آية الزخرف: ٦٨، والمائدة: ٦٩ ...﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٤) في آيتي البقرة: ١٥٥ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ الآية، والأحزاب: ١٩ ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ الآية.

(٥) جامع البيان: ١٨٠/٥/٤.

لما يلحقهم من الكذب الكثير في الإرجاف الذي كان منشئاً للفتن والآفات من كل الوجوه. وقيل: هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بأمور الحرب ومكايدها. كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ من أمن أو خوف أذاعوا به، وكانت إذاعتهم مَفسَدة. وقيل: كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئاً من الخبر عن السرايا مظنوناً، غير معلوم الصحة؛ فيذيعونه، فيعود وبالاً على المؤمنين[1]، ولو ردوا ذلك الخبر إلى الرسول ﷺ وإلى أمرائهم، وقالوا: نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع، لعلموا صحته وحقيقته من جهتهم[2]. وعليه، فالكلام مسوق مساق التوبيخ أصالة للمنافقين، وتبعا لمن يقبل مثل تلك الإذاعة من المسلمين الأغرار.

وبملاحظة مساق الآية، يتبين أن الأمن هو: ما يوجب اطمئنان المسلمين وسلامتهم، والخوف هو: ما يوجب خوف المسلمين من الهزيمة والقتل[3].

٢. ٥. ٣ ـ من لطائف الصفتين:

إن الأمر في هذه الآية **تخصص** بوصف الأمن والخوف؛ إذ لولا هذا الوصف لبقي «**الأمر**» مطلق خبر، ولما دل على أنه شأن من شؤون

---

(١) انظر وجوه وبال الإذاعة ومفسدتها في محاسن التأويل: ٣٢٣/٥.

(٢) ينظر هذا القول الثاني في: الكشاف: ٥٤٧/١ ـ ٥٤٨ وجامع البيان: ١٨١/٥/٤ (بتصرف). والأقرب إلى الصواب أن ضمير الجمع راجع إلى الضمائر قبله العائدة على المنافقين، من قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾، وهو الملائم للسياق، وقد يكون الضمير هذا راجعاً إلى فريق من ضعفة المؤمنين الذين وجدت فيهم صفة الإذاعة بالأمر من الأمن أو الخوف قبل تحققه، وهو المناسب لقوله: ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾ بحسب الظاهر، فيكون معاد الضمير محذوفاً من الكلام اعتماداً على قرينة حال النزول: (ينظر التحرير: ١٣٩/٥).

(٣) يعضد هذا المعنى للوصفين ما في: التحرير: ١٣٩/٥ وجامع البيان: ١٨٠/٥/٤ ومحاسن التأويل: ٣٢٢/٥ وإصلاح الوجوه والنظائر /١٦٥.

الحرب، وله تعلق بالنصر والهزيمة. ولعل في هذين الوصفين إيماءاً إلى الاضطراب الذي كان يعيشه معسكر الجماعة الناشئة في مرحلة صناعتها وتكوين قيادتها وفق المنهج الإسلامي، وذلك من جراء أخذ كل شائعة وإذاعتها هنا وهناك، سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف. ويبدو أن تلك الإشاعات كانت تعكس سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه، أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته، لاحتوائه على طوائف مختلفة المستويات في الإيمان والإدراك والولاء. وتلك الإشاعات هي التي كان يعالجها القرآن الكريم بمنهجه الرباني، ويدل المسلمين على السبيل الأقوم لتمحيصها، وذلك بغرس الإيمان والولاء للقيادة المؤمنة التي تملك استنباط الحقيقة وتقدير المصلحة في إذاعة الخبر أو عدم إذاعته.

٢. ٦ ـ (الفعل):

ورد «**الفعل**»[١] صفة للأمر، بصيغة اسم المفعول، في آيتي الأنفال المدنية:

٤٢ : ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

٤٤ : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

وتأتي صيغة (**مفعولاً**) في القرآن الكريم مسبوقة بـ «**كان**» خمس مرات ـ عدا آيتي الأنفال ـ صفة لأمر الله ووعده، بمعنى: **وقوع ما سبق به**

---

(١) «الفعل يدل على إحداث شيء من عمل وغيره» و«المفعول يقال إذا اعتُبر بفعل الفاعل»: (انظر: مقاييس اللغة والمفردات/فعل).

التقدير من الأمور في الأزل[١].

٢. ٦. ١ ـ مفهوم الصفة في آيتي الأنفال:

وانسجاماً مع ما تقدم، وردت الآيتان في سياق وصف تدبير الله للنصر والهزيمة في غزوة بدر؛ حيث دبر الله لقاء المؤمنين مع المشركين، على غير ميعاد، في وقت متحد، وفي مكان متجاور متقابل؛ ليؤلف بينهما على القتال المفضي إلى نصر أوليائه، وقهر أعدائه.

وكان من عناية الله بالمؤمنين ـ أيضاً ـ أن قَلَّلهم في أعين المشركين ليترك هؤلاء الاستعداد والاستمداد، وقلل المشركين في أعين المؤمنين تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ وأيضاً لتقوى قلوبهم وتزداد جراءتهم عليهم.

وفي ضوء هذ التدبير الإلهي، يأتي «**الأمر**» في الآيتين، بمعنى: **نصر المؤمنين وقهر المشركين**»[٢]، كما يأتي «**مفعولاً**» بمعنى: **ثابتاً في علمه تعالى وحكمته أنه يُفعل في أوانه،** «فاشتق له صيغة «**مفعول**» من «**فَعَل**»؛ للدلالة على أنه حين قُدرت مفعوليته، فقد صار كأنه فُعل. فوُصف لذلك باسم المفعول، الذي من شأنه أن يُطلقَ على من اتصف بتسلط الفعل في الحال لا في الاستقبال»[٣]. ويقوي دلالة الوصف على الثبوت والتحقق إسناد الأمر إلى فعل «**كان**» الذي يفيد الكون والوجود في الماضي.

٢. ٦. ٢ ـ من دلالات تكرار الصفة في الآيتين

ويستفاد من تكرار[٤] الأمر ووصفه بالفعل في الآيتين: تأكيد الله تعالى

---

(١) وهذا المعنى ظاهر في مثل قوله تعالى، من آيتي: النساء: ٤٦، والأحزاب: ٣٧ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وقوله من آية: المزمل: ١٨ ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ ومعها آية الإسراء: ١٠٧.

(٢) تقدم هذا المعنى مختصراً بمبحث التعريف ص ٧٦.

(٣) التحرير: ١٨/١٠.

(٤) يكشف الرازي النقاب عن سر تكرار الفعل المُعَلَّل في الآيتين في قوله: «المقصود من ذكره في الآية المتقدمة ـ أي: الآية/٤٢ ـ هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل=

على تحقق تدبيره وقضائه، ونفاذ وعده ووعيده، وذلك بإعلاء كلمة الإسلام ونصر أهله، وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله. ومن ثم، فإن هذا التكرار تأكيد منه تعالى على أن ما جرى يوم بدر من القتال كان بحكم التقدير، لا بما يحصل من الخلق من التدبير.

● **تعليق:**

وفي ضوء ما تقدم، نلحظ ونستفيد:

* أن هذه الصفات الحُكمية اطرد تركيبها مع مصطلح الأمر في صورته الاسمية، مما يدل على أنها صفات لازمة لكل الشؤون الربانية والإنسانية الثابتة.

* أن ما ورد من هذه الصفات على سبيل المدح، إنما ورد وصفا لكل الشؤون والأفعال الإلهية الحكيمة، المجلية لعظمة ربوبيته سبحانه وكمال قدرته؛ كورود «**حكيم**» وصفاً لما قضاه الله في ليلة القدر المباركة من أحوال عباده أو أنزله من كلامه، و«**مقضياً**» وصفاً لخلق عيسى على خلاف عادته. وفي ذلك دلالة على أن الخلق والتقدير من أهم شؤون الربوبية؛ وأن من أهم سمات هذه الشؤون: **الحكمة، والقضاء، والنفاذ**، بشهادة حال الكون والإنسان.

وأما ما ورد من هذه الصفات على سبيل الذم: «**مريج**»، فإنما ورد وصفاً لكل حال مضطربة تعتري الكافر. وذلك يفيد أن هذا الوصف من أخص الأوصاف المميزة لأحوال الكفار الذين تنكبوا عن الحق، وفارقوا صراط الوحدانية المستقيم.

= استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ، والمقصود من ذكره ها هنا ليس هو ذلك المعنى؛ بل المقصود أنه تعالى ذكر ها هنا أنه قلل عدد المؤمنين في أعين المشركين... ليصير ذلك سبباً لئلا يبالغ الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر...»: (مفاتيح الغيب: ١٧٦/١٥/٨).

وأما ما ورد منها على سبيل تمييز طبيعة الشؤون المتعلقة بمصالح الجماعة المسلمة: («**الجامع**»، و«**الأمن**»، و«**الخوف**»)، فإنما ورد وصفا لأبرز هذه الشؤون وأخطرها، وهي الشؤون السياسية والحربية، كما عينها سياق آيتي النور والنساء، مما يوحي بقيمة هذه الصفات في تجلية ميزة الاجتماع للتشاور في أمر التمكين لأمر الله، التي اتسمت بها الجماعة المسلمة الناشئة على عهد رسول الله ﷺ، وإظهار خاصية الاضطراب في تناقل أخبار الحرب، التي كان يتسم بها معسكر المسلمين آنذاك.

* أن هذه الصفات، كما تبين آنفاً، تؤكد بدلالتها على التحقق والنفاذ والإيجاد على غاية الإحكام: («**حكيم**»، و«**مقضياً**») ودلالتها على النصر والهزيمة والقوة والاجتماع: («**الأمن**» و«**الخوف**» و«**جامع**»)؛ ما أثبتناه في التعريف من دلالة الأمر على الشأن الرباني المتعلق بخلقه تدبيراً وتكليفاً[١].

وإذا كانت هذه الصفات تؤكد دلالة الأمر وتضفي على معناه لطائف وإيحاءات، فإن العلاقات التي تميز الأمر عن سواه من المصطلحات تزيد تلك الدلالة بياناً وخصائص الأمر امتيازاً...

فما هي يا ترى هذه العلاقات؟ وما هي أشكالها ودلالاتها؟ جواب ذلك في المطلب التالي.



(١) انظر: التعريف ص ٩٤.



المبحث الثاني:

علاقاته

مقدمة

غني عن البيان، أن الكشف عن شبكة الترابط المفهومية بين الألفاظ، وبيان الدلالات الفارقة أو الواصلة بين الكلمات في نسق الكلام، يفيد غاية الإفادة في تمييز شخصية المصطلح المستقلة، واستكناه روحه المتميزة، وتلمس بصمته المنفردة، فضلاً عن تعرف مسالكه الدلالية المشتركة بينه وبين سواه. ولعل الكشف عن بعض نقط الترابط والتقاطع في شبكة العلاقات بين مصطلح «**الأمر**» وغيره من المصطلحات، التي تأتلف معه ضرباً من الائتلاف أو تختلف معه ضرباً من الاختلاف، من خلال نسق الآيات ومقامها؛ يحدد - بوضوح - ما يكتسيه المصطلح من ثراء الدلالة، ودقة البيان، وإحكام البلاغ، مما يلمسه المتدبر للغة القرآن، الكلام الذي فُصلت عباراته وأحكمت ألفاظه.

ذلك ما سنحاوله في هذا المبحث، متهيبين من خطر الدراسة ومخاطرها، ومقبلين عليها طلباً لفيض القرآن الكريم، واستكشافاً لأسراره، وتذوقا لأعجازه. . . !

❋ ❋ ❋

المطلب الأول: «الأمر» و«النهي»

تزاوج **«الأمر»** مع **«النهي»** في صيغ صرفية[١] متماثلة، وبدلالات متقابلة متلازمة، بحرف العطف: **«الواو»**، في أحد عشر موضعا من القرآن الكريم[٢]. والنظم في هذه المواضع أن يتقدم **«الأمر»** على **«النهي»**[٣]،

---

(١) وهي الفعل الماضي المبني للمعلوم والمجهول؛ نحو قوله تعالى في آيتي: الحج ٤١ ﴿وَأَمَرُواْ﴾... ﴿وَنَهَوْاْ﴾ وغافر: ٦٦ ﴿نُهِيتُ﴾... ﴿وَأُمِرْتُ﴾، والفعل المضارع في مثل آية الأعراف: ١٥٧. ﴿يَأْمُرُهُم﴾... ﴿وَيَنْهَنْهُمْ﴾، وفعل الأمر في لقمان: ١٦ ﴿وَأْمُرْ﴾... ﴿وَٱنْهَ﴾...، واسم الفاعل في آية التوبة: ١١٢ ﴿ٱلْآمِرُونَ﴾... ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾...

(٢) أما في الحديث الشريف، فقد اجتمع «الأمر» مع «النهي» في مواضع كثيرة، فكان صنوا له، يتقدمه في معظم المواطن، ويماثله في جميع الصيغ الصرفية التي ألبسها، وهي : الفعل الثلاثي: ماضياً، ومضارعاً، ومصدره. بل إن المماثلة بينهما في المبنى قد تجاوزت الصيغ إلى ما اقترن بها ـ أحياناً ـ من الأعداد والحروف. وعلى الرغم من هذه المماثلة الظاهرة، فإن المقابلة بينهما في مفهومهما أو مفهوم متعلقاً تهماً يغدو واضحاً بيناً حينما نتدبر سياقات ورودهما، وهي سياقات التشريع وبيان الأحكام.

وهكذا، نجد من شواهد ورودهما في الصورة الفعلية، حديث وفد عبد قيس، المتقدم في مبحث التعريف: ص ٩٠ (هامش ٣) **«آمرَكم بأربع وأنهاكم عن أربع...»** وحديث البراء بن عازب رضي الله عنه الذي رواه البخاري في الجنائز. رقم١٢٣٩ «أمرَنا النبي ﷺ بسَبع ونهانًا عَن سَبْع...»، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال في سياق التحذير من كثرة السؤال والاختلاف: **«فإذا نهيتكُم عَن شيء فاجْتَنِبوه، وإذا أمَرتُكم بأمرٍ فأتوا مِنه ما استَطعْتم»**: (البخاري في الاعتصام. رقم ٧٢٨٨)، وحديث زيد بن الأرقم، في سياق بيان حكم الكلام في الصلاة: «...فأُمرنا بالسكوت، ونُهينا عن الكلام...»: (مسلم في المساجد ومواضع الصلاة. رقم ٥٣٩)، وقول أنس بن مالك عن إقرار رسول الله ﷺ لصلاة التطوع بعد العصر: «...فلم يأمرنا ولم ينهنا»: (مسلم في صلاة المسافرين وقصرها. رقم ٨٣٦).

ومن شواهد ورودهما في الصورة المصدرية، حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ، قال: **«فتنة الرجل في أهله، وماله، وولده، وجاره، تكفرها الصلاة، والصوم، والصدقة، والأمر والنهي...»**: (البخاري في مواقيت الصلاة. رقم: ٥٢٥).

(٣) سيأتي الكشف عن شفرة هذا النظم حين تحليل العلاقة.

باستثناء آية غافر[١]؛ حيث ورد فيها متأخراً عنه[٢]. وقد تعلقت بالمصطلحين مجتمعين ألفاظ متقابلة؛ «**كالعدل**» و«**الإحسان**» مع «**الفحشاء**» و«**المنكر**»، و«**عبادة غير الله**» مع «**الإسلام**». وأكثر متعلقاتهما وروداً وشهرة لفظاً «**المعروف**» و«**المنكر**»، ويؤلفان معهما ضميمتين، يضفيان دلالات زائدة على معنى المصطلحين[٣].

والمتأمل في مختلف مقامات اجتماع «**الأمر**» مع «**النهي**»، يلحظ مجيئهما في سياقات متشابهة، في وصف الحق، أو وصف رسوله ﷺ، أو بيان حال المؤمنين والمنافقين من عباده في الدنيا، بصريح آيتهما المكية والمدنية[٤] نحو: النحل/٩٠، والأعراف/١٥٧، وآل عمران/١٠٤، والتوبة/٦٧. وتعاطف «**الأمر**» و«**النهي**» في هذه الآيات وغيرها، يلفت إلى

---

(١) وينظر معها كذلك: آيتا العلق: ٩، ١٢، اللتين تجاورتا في مقام واحد، بلا حرف عطف بينهما.

(٢) وتقديم النهي على الأمر في هذه الآية، وفي آيتي العلق ينسجم مع سياق ورودهما ودلالته؛ فحيث كان المقام في آيات العلق مقام بيان لموقف الناس من الإنعام والكرم، وحيث كان الاستهلال بتقرير فعل الطغيان الغالب على الإنسان بسبب الاستغناء، والمشار إليه في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ جيء بنموذج الطغيان أولا، في سياق التعجب منه؛ لأنه الأبشع في نظرة القرآن إلى أعمال الإنسان؛ إذ أن الناهي كافر في نفسه، وداع إلى الكفر، ثم ناسب أن يعقب عليه بما يزيد التعجيب من فعل النهي بنموذج الإيمان؛ النموذج المهدي والآمر بالتقوى. ومن هنا، لاءم في هذا المقام أن يلتفت النظم المعجز، في مقابلته بين نموذجي الطغيان والإيمان، إلى جهة السلب أولا؛ لأنه المقدم في السياق، والأغلب على الإنسان، والأعجب الأشنع من أحواله.
أما آية غافر، فالمقام فيها مقام تقرير لدليل الوحدانية بإبطال مذهب الشرك. ومن ثم ناسب أن يعلن الرسول ﷺ، تقوية لهذا الإبطال، نهيه تعالى له عن عبادة غير الله. وفائدته التعريض بنهي المشركين له ﷺ عن عبادة الله، وتحذيره من عبادة الأوثان، وسوقهم إلى اتباعه فيما نُهي عنه. ومع الانتهاء عن عبادة غير الله ـ وهو سلب ـ الإسلام لرب العالمين ـ وهو إيجاب ـ ومن الشقين تتكامل العقيدة.

(٣) وسنبسط القول في ذلك في مبحث الضمائم، إن شاء الله.

(٤) سيأتي عرض هذه الآيات بشكل يبرز الفرق بين المصطلحين في جدول توضيحي، يضم أيضاً الآيات التي ورد فيها المصطلحان مفترقان.

مغايرة واضحة بينهما. ولعل الكشف عن مسمى هذه المغايرة في القرآن الكريم يمهد السبيل اليه أساليب العربية وفهوم الراسخين.

١. ١ ـ العلاقة من خلال اللغة

«**النهي**» في المعاجم «**خلاف الأمر**»[١]. وأصله يدل على «**غاية وبلوغ**»[٢] و«**حبس**»[٣]، ومنه «**نهاية كل شيء: غايته**» «**وناقة نَهِية: بلغت غاية السمن**»[٤] «**وتناهى الماء: إذا وقف في الغدير وسكن**»[٥]، وقيل للعقل: نُهْيَة؛ لأنه ينهى **ويحبس عن القبائح**[٦]ومن هذا المأخذ جاء قولهم: «**نَهَيته عن كذا فانتهى عنه وتناهى، أي: كف**»[٧] و«**النهي**»: الزجر عن الشيء، و«**الانتهاء**»: الانزجار عما نهى عنه»[٨].

أما «**الأمر**»، فقد تقدم استقراء معانيه اللغوية في مبحث التعريف، فهدى الى أن العربية استعملته نقيضا للنهي[٩]، وضمنته معنى «**طلب الفعل**»[١٠]، المقابل لمعنى «**طلب الكف من الفعل**»»[١١]. ومن ثم، فاللفظان

---

(١) العين، والصحاح، وتهذيب اللغة، واللسان/نهى، وفي التعريفات / ٢٤٨: «النهي: ضد الأمر».

(٢) مقاييس اللغة / نهى.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات/نهى.

(٤) مقاييس اللغة/نهى. وجاء في العين واللسان/نهى: « والنهاية: طرف العِران الذي في أنف البعير، وذلك لانتهائه».

(٥) الصحاح، واللسان، والتاج/نهى.

(٦) تهذيب الأسماء واللغات/نهى. وجاء في اللسان ـ نقلا عن ابن جني ـ : «وسمي العقل نُهية، لأنه يُنْتَهى إلى ما أمر به، ولا يتعدى أمره».

(٧) الصحاح، واللسان/نهى.

(٨) المفردات/نهى، ونبه الراغب إلى أن معنى الزجر قد يكون بالفعل أو بالقول كـ«اجتنب» أو «لا تفعل».

(٩) العين/أمر، والقاموس/نهى.

(١٠) عمدة الحفاظ/أمر، وفي شرح المفصل: ٥٨/٧: «الأمر معناه طلب الفعل. . .».

(١١) كشاف الاصطلاحات/أمر، أو هو طلب البلوغ بأمر ما نهايته وغايته؛ كما دل عليه أصل المادة.

يتقابلان؛ لأن في أحدهما خلاف للآخر، وهذا باستثناء ما يشتركان فيه من معنى الطلب[١]. ومما يزيد هذا التقابل جلاء، قول العرب في صفة أحدهم: «**هو نهو عن المنكر أمور بالمعروف**»[٢].

١. ٢ ـ العلاقة من خلال الاصطلاح العام

إن هذا التمايز بين المصطلحين في المعاجم اللغوية لا نخطئه في دراسة الأصوليين وغيرهم[٣] لحقيقتهما، ودلالات صيغهما الحقيقية والمجازية، وعلاقتهما[٤]؛ حيث ذكروا أن «**الأمر طلب الفعل على جهة الاستعلاء**»[٥]، ويكون بقول القائل لغيره: «**أمرتك وأنت مأمور**»[٦]، أو قوله «**لمن دونه «افعل»**»[٧] وما ذكروه في الأمر قالوه مقابلة في النهي؛ إذ «عَرَّفه

---

(١) والطلب مفهوم نفسي، نابع من إرادة وقصد لدى الآمر والناهي.

(٢) القاموس، والتاج/نهى.

(٣) إن بحوث الأمر والنهي ملحظ مشترك بين أرباب العربية والأصوليين، غير أن الأصوليين تعمقوا في بحث مدلولهما الشرعي، وما يتصل به أكثر من غيرهم؛ لأن معظم الابتلاء بهما، وبمعرفتهما تتم معرفة الأحكام، ويتميز الحلال من الحرام: (راجع ـ مثلاً ـ الإيضاح/ص ٢٤١ وما بعدها، وشروح التلخيص: ٣١١/٢ ـ ٣٢٤، والكافية : ٢٦٧/٢، ومغني اللبيب: ٢٤٦/١ ـ ٢٤٧ وقارنها بـ: المحصول : ١/ ص١٨٤ وما بعدها، والمعتمد: ١/ص٤٣ وما بعدها، والإحكام في أصول الأحكام: ٢/ص ٣ وما بعدها).

(٤) إن نظرة سريعة في كتب الأصول، لتكشف بوضوح عن وعي الأصوليين بهذا التقابل بين المصطلحين. ولعل أدق عباراتهم في وصف ذلك، قول الآمدي في الإحكام : ٤٧/٢ : «اعلم أنه لما كان النهي مقابلاً للأمر، فكل ما قيل في حد الأمر على أصولنا وأصول المعتزلة من المزيف والمختار، فقد قيل مقابله في حد النهي. . .والكلام في أن النهي. . . هل له صيغة تخصه وتدل عليه، فعلى ما سبق في الأمر أيضاً. . . «إلى قوله» والخلاف في أكثر مسائله، فعلى وزان الخلاف في مقابلاتها من مسائل الأمر، ومأخذُها كمأخذِها، فعلى الناظر بالنقل والاعتبار».

(٥) الإحكام: ١١/٢.

(٦) المصدر نفسه ١٢/٢.

(٧) التعريفات/٣٧.

البعض بأنه طلب الكف عن الفعل استعلاء، والبعض بأنه طلب الترك عن الفعل استعلاء...»[١]، ويكون بقول «**القائل لمن دونه «لا تفعل»**»[٢]

وبملحظ من تقابل المصطلحين وصيغتيهما في المبنى والمعنى، مع اشتراك بينهما في الطلب والاقتضاء[٣] أطلق الأصوليون صيغتى «**افعل**» و«**لا تفعل**» على وجوه متعددة، تتمحض العلاقة بين معظمها للتقابل؛ كالذي نجده بين «**الوجوب**» و«**الندب**» و«**التحريم**» و«**الكراهة**»[٤].

ولتحديد ما يربطهما من علاقات، ناقش الأصوليون دلالاتهما الاستلزامية، وهي التي أطلقوا عليها مصطلح «**دلالة المخالفة**»؛ كدلالة الأمر بالشيء على النهي عن ضده، ودلالة النهي عن الشيء على الأمر بضده[٥]. وإلى علاقة اللزوم والتضمن الواصلة بين دلالتيهما الفارقة التفت ابن تيمية في نظرة مصطلحية ثاقبة، تنبني على الاستقراء القرآني للأوامر ألفاظاً وصيغاً؛ حيث قال عقب حديثه عن علاقة اللزوم بين المعطوف والمعطوف عليه، ضمن قاعدة في إطلاق الأمر وتقييده «... ولهذا كان لفظ «**الأمر**» إذا أُطلق يتناول النهي، وإذا قُيد بالنهي، كان النهي نظير ما تقدم ـ أي: أنه من عطف الملزوم ـ فاذا قال تعالى عن الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾[٦] دخل في ذلك أنه إذا نهاهم عن شيء اجتنبوه...، ومنه قوله:

---

(١) كشاف الاصطلاحات/نهي.

(٢) التعريفات/٢٤٨. والملاحظ أنه لم يقع في مصنفات الأصول إشارة إلى الفعل الإنشائي الصريح: «أنهى» المقابل «لآمر». ولعل مرد ذلك إلى أن النزاع لم يكن وارداً بينهم حول دلالته، وأيضاً لأن بحوثهم في «الأمر» غطت على بحوثهم في «النهي».

(٣) والمقصود بالاقتضاء: ما يقوم بالنفس من الطلب، سواء كان هذا الطلب طلب ترك أو طلب فعل.

(٤) يراجع المستصفى: ٤١٧/١ ـ ٤١٨.

(٥) ينظر في الإحكام: ٣٦/٢ الخلاف الأصولي المشهور في مسألة: الأمر بالشيء على التعيين، هل هو نهي عن أضداده؟.

(٦) التحريم من الآية: ٦.

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾[١]؛ أي: أصحاب الأمر، ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهي، ووجبت طاعته في هذا وهذا... فالنهي داخل في الأمر....، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[٢] وقد دخل النهي في الأمر، ومنه قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾...[٤]، فإن نهيه داخل في ذلك...»[٥].

ومن هنا، يظهر أن علاقة الأمر مع النهي في اللغة والعرف تتألف من أربعة أوجه، نحددها بالرسوم التالية:

* **الاختلاف**: يخالف الأمر النهي من حيث الحقيقة اللغوية؛ إذ الأمر هو طلب الفعل واستدعاؤه، والنهي هو طلب ترك الفعل وإنهاؤه. ومن ثم فالاختلاف بينهما اختلاف بين الطلب الفعلي والطلب التركي[٦]؛ أو بين الثبوت والنفي، وذلك على النحو التالي:

الأمر	النهي
الفعل	الترك
الثبوت	النفي

ومع الاختلاف، يشترك المصطلحان في معنى الطلب، فيتولد من هذا الاشتراك علاقة:

---

(١) النساء من الآية: ٥٩.

(٢) الأعراف من الآية: ٥٤.

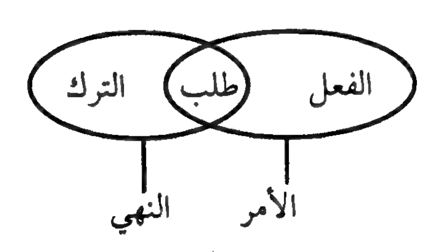
(٣) النور من الآية: ٦٣.

(٤) الأحزاب من الآية: ٣٦.

(٥) فتاوى ابن تيمية: ١١١/٧/٤ ـ ١١٢ ـ بتصرف ـ ومن التفريعات الفقهية على هذه العلاقة أن الرجل لو قال لامرأته: إذا عصيت أمري فأنت طالق، فعصت نهيه، يحنث؛ لأن ذلك مخالفة لأمره في العرف، ولأن النهي نوع من الأمر: (انظر المصدر نفسه: ١١٣/٧/٤ و٦٨/٢٠/١٠).

(٦) ويعضد ذلك قول الفقهاء المشهور: الأمر من باب الأفعال، والنهي من باب التروك.

* **التداخل**: كما في الرسم التالي:

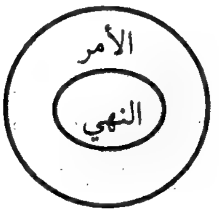


* **اللزوم**: في حالة التعاطف؛ فإن الآمر بإيقاع الفعل المأمور به ناه عن إيقاع ضده، بطريق اللازم؛ إذ «**الأمر بالشيء نهي عن ضده، والنهي بالشيء أمر بضده**»[(١)]، لأن كلاً من الأمر والنهي يستلزم طلباً وإرادة من الآمر والناهي؛ فالأمر يتضمن طلب المأمور به وإرادة إيقاعه، والنهي يتضمن طلبا لترك المنهي عنه وإرادة لعدم إيقاعه، فعُلم أن **المطلوب بالأمر يلزم عنه المطلوب بالنهي**:

الأمر بالفعل ⟵⟶ النهي عن ضده

* **التضمن**: إذا أطلق الأمر تناول النهي، ودل عليه بالتضمن؛ لأن النهي أمر بترك المنهي عنه، ولهذا كان **نوعاً من الأمر**؛ «إذ الأمر هو الطلب والاستدعاء والاقتضاء، وهذا يدخل فيه طلب الفعل وطلب الترك، لكن خُص النهي باسم خاص، كما جرت عادة العرب أن الجنس إذا كان له نوعان أحدهما يتميز بصفة كمال أو نقص، أفردوه باسم، وأبقوا الاسم العام على النوع الآخر؛ كما يقال: . . . نبي ورسول»[(٢)].

وإذا كان النهي نوعاً من الأمر، فإن **الأمر أصل عام، والنهي فرع خاص**:



---

(١) انظر: مجمع البيان: ٣٨٩/٢.

(٢) فتاوى ابن تيمية: ٦٨/٢٠/١٠.

وبملحظ من هذه الأوجه المُختلفة والمُؤتلفة للعلاقة في اللغة والعرف، نفزع إلى القرآن الكريم ليقول قوله الفصل في مسمى أو مسميات هذه العلاقة، وذلك من خلال بيان مفهوم النهي في اصطلاح القرآن - بإجمال - ثم استقراء ومقارنة المصطلحين معطوفين في مقامات واحدة، ومفترقين في سياقات متشابهة ونظوم متناظرة.

١. ٣ - العلاقة من خلال الاصطلاح القرآني

١. ٣. ١ - مفهوم النهي في اصطلاح القرآن الكريم

ورد النهي في البيان القرآني نحو خمسين مرة، بصيغ عدة، منها: الفعل الثلاثي[١]، ومطاوعه[٢]، واسم الفاعل منه[٣].

وتدبر الاستعمال القرآني للنهي، على اختلاف الصيغ، يفيد ثلاثة معان:

أولها: طلب يتم به التكليف بترك المعاصي كلها[٤]، وأكثر ورود النهي بهذا المعنى، مسنداً إلى الله تعالى ورسوله ﷺ، في مقام الترغيب في عبادته واتباع شرائعه[٥].

---

(١) نحو آية النازعات: ٤٠ ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، وآية هود: ٨٨ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾، وآية لقمان: ١٧ ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

(٢) مثل آيات: البقرة: ١٩٢ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ والمائدة: ٩١ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

(٣) في آية التوبة: ١١٢ ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

(٤) ومما يندرج تحت هذا المعنى في الحديث الشريف، قوله ﷺ في سياق تحريم أكل لحوم الحمر الأهلية، على لسان مناد ينادي في الناس «**إن الله ورسوله ينهاكم عن لحوم الحُمُر الأهلية، فإنها رجس فأكفئت القدور، وإنها لتفور باللحم**»: (رواه البخاري في الذبائح والصيد، برقم: ٥٥٢٨، من حديث أنس بن مالك).

(٥) كما في آيات: الأنعام: ٥٧ ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومعها غافر: ٦٦، والنحل: ٩٠ ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، والحشر: ٧ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ ومعها آية الأعراف: ٥٧.

ثانيها: الزجر عن كل قبيح في الشرع والعقل، وبهذا المعنى جاء النهي في مقام المدح، مسنداً إلى: من خاف مقام ربه في زجر النفس عن شهواتها[١]، وإلى المؤمنين من أمة محمد، ومن أهل الكتاب، في زجر الناس عن المنكر والسوء وقول الإثم...[٢]، وإلى الصلاة، على المجاز، في الزجر عن الفحشاء والمنكر[٣].

ثالثها: الكف[٤] عن الإثم والعدوان ومعصية الرسول[٥]. ويغلب مجيء هذا المعنى في مقام الإنذار والوعيد، ملحوظاً فيه أصل المادة المتقدم[٦]، كما يطرد مجيئه بأسلوب المطاوعة، المستعمل في معنى قوة حصول الفعل؛ ليناسب عتو من أُسند إليهم فعل الانتهاء من العصاة والمعتدين والكفار والمنافقين[٧].

---

(١) بصريح آية النازعات: ٤٠ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ الآية.

(٢) كما في آيات: الأعراف: ١٦٥ ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾...، وآل عمران: ١١٤ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، والمائدة: ٦٣ ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾.

(٣) بآية العنكبوت: ٤٥ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

(٤) واستعمال النهي في هذا المعنى يخالف استعماله في المعنى المتقدم؛ إذ الانتهاء فعل لازم يتجه فيه النهي إلى المنهي، ليوقع نهاية الفعل في نفسه، في حين أن النهي فعل متعدي يتضمن طلب الناهي إيقاع النهي من غيره.

(٥) وهو الغالب من استعماله، وقد يأتي مطاوع (النهي) بمعنى: كف الرسل عن عبادة الله، امتثالاً لطلب الكفار من أقوامهم؛ كالذي في آيتي مريم: ٤٦ ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾... والشعراء: ١١٦ ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

(٦) وهو البلوغ بالفعل أو القول نهايته.

(٧) كما في آيات: البقرة: ١٩٣ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والبقرة: ٢٧٥ ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ الآية، والأحزاب: ٦٠ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ ومعها المائدة: ٧٣.

١. ٣. ٢ ـ العلاقة بين المصطلحين مجتمعين:

جدول إحصائي لمواردهما مع المقارنة

السورة /الآية	نص الآية		المعاني		نوع العلاقة
	شطر «الأمر»	شطر «النهي»	الأمر	النهي	
الأعراف /١٥٧	﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾	﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾	طلب يتم به التكليف بفعل الطاعات	طلب يتم به التكليف بترك المعاصي	التضاد، واللزوم والتقابل (أو العموم والتضمن)
لقمان/١٦	﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾	﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾	دعوة الناس وإرشادهم بالقول إلى الأمور المعروفة والمحمودة في الشرع والعقل	زجر الناس عن الأمور المنكرة والمذمومة في الشرع والعقل	التضاد، واللزوم، والتقابل
غافر/٦٦	﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾	طلب يتم به التكليف بالانقياد لله تعالى	طلب يتم به التكليف بترك عبادة غير الله، في مقام إثبات وحدانية الله تعالى، وتحذير المشركين من عبادة الشركاء والشفعاء	التضاد، واللزوم
النحل/٩٠	﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾	﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾	طلب يتم به التكليف بمحاسن الأخلاق، من العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى	طلب يتم به التكليف بترك مذام الأخلاق ومفاسدها، من الفحشاء والمنكر والبغي	التضاد واللزوم والتقابل

السورة /الآية	نص الآية		المعاني		نوع العلاقة
	شطر «الأمر»	شطر «النهي»	الأمر	النهي	
آل عمران /١٠٤	﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾	﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾	دعوة الناس وإرشادهم بالقول إلى الأمور المعروفة والمحمودة في الشرع والعقل	زجر الناس عن الأمور المنكرة والمذمومة في الشرع والعقل	التضاد واللزوم والتقابل
آل عمران /١١٠	﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾	﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾	دعوة الناس وإرشادهم بالقول إلى الأمور المعروفة والمحمودة في الشرع والعقل	زجر الناس عن الأمور المنكرة والمذمومة في الشرع والعقل	التضاد واللزوم والتقابل
آل عمران /١١٤	﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾	﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾	دعوة الناس وإرشادهم بالقول إلى الأمور المعروفة والمحمودة في الشرع والعقل	زجر الناس عن الأمور المنكرة والمذمومة في الشرع والعقل	التضاد واللزوم والتقابل
التوبة /٦٧	﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾	﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾	دعوة الناس إلى الأمور المنكرة والمذمومة في الشرع والعقل، وأعظمها هاهنا الكفر بالله وتكذيب رسوله ﷺ	زجر الناس عن الأمور المعروفة والمحمودة في الشرع والعقل، وأعظمها ها هنا: الإيمان بالله ورسوله ﷺ	اللزوم والتضاد والتناظر
التوبة /٧١	﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾	﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾	دعوة الناس وإرشادهم بالقول إلى الأمور المعروفة والمحمودة في الشرع والعقل، وأعظمها ها هنا: الإيمان بالله ورسوله ﷺ	زجر الناس عن الأمور المنكرة والمذمومة في الشرع والعقل، وأعظمها ها هنا: الكفر بالله وتكذيب رسوله ﷺ	التضاد واللزوم والتقابل

السورة /الآية	نص الآية		المعاني		نوع العلاقة
	شطر «الأمر»	شطر «النهي»	الأمر	النهي	
التوبة /١١٢	﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾	﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾	دعوة الناس وإرشادهم بالقول إلى الأمور المعروفة في الشرع والعقل، وأعظمها ها هنا: الإيمان بالله ورسوله ﷺ	زجر الناس عن الأمور المنكرة في الشرع والعقل، وأعظمها ها هنا: الكفر بالله وتكذيب رسوله ﷺ	التضاد واللزوم والتقابل
الحج /٤١	﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾	﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾	دعوة الناس وإرشادهم بالقول إلى الأمور المعروفة في الشرع والعقل، وأعظمها ها هنا: الإيمان بالله ورسوله ﷺ	زجر الناس عن الأمور المنكرة في الشرع والعقل، وأعظمها ها هنا: الكفر بالله وتكذيب رسوله ﷺ	التضاد واللزوم والتقابل



اشتمل هذا الجدول على سبر آيات «**الأمر**» و«**النهي**»، ودلالات استعمالهما في القرآن الكريم، وذُيل ذلك ببيان نوع العلاقة بينهما. ومن خلال هذا البيان، اتضح أن العلاقة بين «**الأمر**» و«**النهي**» تتسلسل حول ثلاثة أوجه فارقة، وهي:

أولاً: وجه الاختلاف

وقد استُعمل «**الأمر**» ومتعلقاته بخلاف استعمال «**النهي**» ومتعلقاته؛ إذ دل «**الأمر**» على «**طلب يتم به تكليف العباد بفعل الطاعات**»، أو «**دعوتهم إلى الأمور المحمودة في الشرع والعقل**»، في حين دل «**النهي**» على «**طلب يتم به تكليف العباد بترك المعاصي**»، أو «**زجرهم عن الأمور المذمومة في الشرع والعقل**»؛ فتكليف العباد بفعل محاسن الأخلاق في جانب «**الأمر**»؛ بآية النحل مثلاً، يخالف تكليفهم بترك مذامها في جانب «**النهي**»، ومحاسن الأخلاق المأمور بها في نفس الآية، تخالف مذام الخلال المنهي عنها.

وهكذا شأن العلاقة في آيات «**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»[1].
وعليه، فالأمر طلب يتم به التكليف بالفعل والدعاء إليه، ويتعلق بأعيان المصالح في المأمور به؛ بينما النهي طلب يتم به التكليف بترك الفعل، والزجر عنه، ويتعلق بالمفاسد في المنهي عنه. فالأمر إذن، من باب الإثبات والإيجاد والدفع، والنهي من باب النفي والإعدام والصد، والمأمور به هو الأمور التي يصلح بها العبد ويكمل، والمنهي عنه هو ما يفسد به وينقص. ومن ثم، فالاختلاف بين الأمر والنهي اختلاف تضاد، وباختلافهما يتحقق التكليف والابتلاء.

ثانياً: وجه التداخل (أو الاشتراك):

وينبني على الوجه الأول، فكما أن الأمر يفيد الطلب الذي يتم به التكليف بالفعل والدعاء إليه، كذلك النهي يفيد الطلب الذي يتم به التكليف

(١) سيأتي تحليل العلاقة بين المصطلحين عند دراسة ضميمة «الأمر بالمعروف».

بترك الفعل والزجر عنه، ومن ثم فالمصطلحان يشتركان في إفادة معنى الطلب الذي يتم به التكليف، فضلا عن كونهما من جنس الكلام.

ثالثاً: وجه اللزوم

ويجليه التعاطف بالواو بين الأمر والنهي في جميع مواردهما المثبتة بالجدول، ويعضده اشتراكهما معاً في معنى **التكليف والطلب**. وبيان ذلك: أن اقترانهما بالعطف يفيد، بمعونة النظم الجاري فيهما، أن **النهي لازم للأمر**، لزوم الأعمال الصالحة للإيمان في حال الاقتران به[١]. واشتراك الأمر والنهي في المعنى الذي ذُكر لهما يعزز هذه العلاقة؛ إذ يلزم من الطلب الذي يتم به التكليف بفعل المأمور به، الطلب الذي يتم به التكليف بترك المنهي عنه؛ فمثلاً: آية الأعراف أخبرت أن الرسول ﷺ يأمر بما هو معروف، وينهى عما يضاد ذلك، وهو المنكر، فعلم أن بين الوصفين لزوم؛ لأن الآمر بالشيء ناه عن ضده بطريق اللازم، وطرد ذلك يستلزم أن يكون الناهي عن الشيء آمراً بضده، على ما قرره الأصوليون؛ نحو آية غافر، فإن الله كلف رسوله بترك عبادة غير الله لما جاءته البينات من الأمر، فلزم ذلك تكليفه بإسلام الوجه لله سبحانه، وإخلاص العبادة له.

رابعاً: وجه التقابل (أو العموم والتضمن)

وتحليل هذه العلاقة والإمساك بمعاقدها يستدعي بسط ثلاثة أمور:

أولها: جرت الآيات المصنفة بالجدول على تقديم الأمر على

---

(١) ومعنى ذلك أن الأعمال متى عُطفت على الإيمان، في مثل آية البقرة: ٢٥ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنه أريد به أنه لا يكتفى بإيمان القلب، بل لا بدَّ معه من الأعمال الصالحة، وهي لازمة له (وتتخرج هذه الدلالة، على قول من قال: «إن الأعمال في الأصل ليست من الإيمان، فإن أصل الإيمان هو ما في القلب، ولكن هي لازمة له...»: (راجع الفتاوى: ١٢٩/٧/٤)، وكذلك الشأن في الأمر والنهي، فإن النهي لازم للأمر، متمم له، واقترانه به لئلا يظن الظان الاكتفاء بمجرد امتثال الأمر دون ترك النهي، فإن فعل الحسنات يلزم منه ترك السيئات.

النهي[١]، باستثناء آية غافر، وسر هذا النظم المطرد ـ فيما ألمح ـ أن مدار الكلام الإلهي على الأمر أولاً، ثم النهي ثانياً. ومرد ذلك إلى أن الأمر يؤسس عادة لتثبيت الحق وامتثاله، والنهي تبع له، يختص بإزهاق الباطل واجتنابه[٢].

والقصد من ذلك: أن الدين القيم منذ بداياته الأولى مع آدم ومن كان على دينه من بنيه، هو أوامر تتطلب التنفيذ والتثبيت؛ فقد أمر الله آدم وبنيه من حين أهبط من الجنة باتباع هداه المنزل على الأنبياء، حيث قال له: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[٣]، وهذا الهدى لم يأمر الله بني آدم باتباعه، إلا وقد خلق هواتفه في جبلتهم، وركب أسبابه في فطرهم[٤]، وجعلهم محتاجين إليه لكمالهم وصلاحهم، فإنه أمرهم بعبادته على ألسن الرسل، وفي قلوبهم معرفته ومحبته والخضوع له، وذلك هو أصل الهدى الذي جاء في قول نوح، وهود،

---

(١) وهذا النظم ملحوظ ومقصود في معظم الأوامر والنواهي الصيغية في القرآن، وذلك في مثل هذه الكلمات الجوامع: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ الأعراف: ٣ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ الأنعام: ١٥٣ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ﴾ هود: ١١٢.

(٢) ونظرا لطبيعة الأمر التأسيسية والتثبيتية، كان وروده في القرآن أشيع من ورود النهي، كما تبين من إحصائهما فيما تقدم، ويتبين من استقراء صيغهما، ولهذا جاء الأمر في القرآن الكريم بالإثبات المفصل للمأمورات الواجبة والمستحبة، في حين جاء النهي بالنفي المجمل للمنهيات المحرمة والمكروهة.

(٣) أثبتت هاتان الآيتان أن علة الكفر والتكذيب كان من ترك اتباع الأنبياء فيما أمروا به من الهدى. وهذا يدل على أن المنهي عنه الذي يستحق فاعله العذاب يأتي من ترك المأمور به الواجب؛ لأن المأمور به من التوحيد والدين هو أصل الفطرة الموجود.

(٤) ويشهد لهذه الحقيقة الربانية الأصيلة في المخلوق، قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾... الروم: ٣٠، وقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**إني خلقتُ عِبادي حُنفاء فاجْتَالتْهُم الشياطين عَن دِينِهِم...**» الحديث: رواه مسلم في الجنة (٦٣/٢٨٦٥) وهذا يبين أن الأصل الذي بنيت عليه القلوب البشرية وهيئت للاستناد إليه واتباعه، هو الدين القيم المنزل بالأمر على الفطر السليمة.

وصالح، وإبراهيم، وشعيب: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[١]، وقول عيسى: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾[٢]، وقول محمد ﷺ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣].

ثم أمرهم بعد ذلك بسائر الصفات والأخلاق والأعمال التي في قلوبهم معرفتها ومحبتها، والتي تكمل ما خلقهم له من العبادة[٤]؛ كالعدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، والمعروف، كما في الآيات المتقدمة وأمثالها[٥]، التي بين فيها أن امتثال المأمورات من العزم، كقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، وأن الفلاح والصلاح في اتباع ما أمر، كما قال عن أصفيائه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وأنه لا بد أن يأمروا بكل معروف، وأنهم إن تركوا ذلك، تركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته؛ كما قال عن المنافقين: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾، ونحو ذلك، مما يدل على أن الأمر يتعلق به كل خير وصلاح، وأنه طريق الرسل والصالحين، ومن يرجون رحمة الله ورضوانه. وهذا يشهد بوضوح على ترجيح الأمر على النهي، وعلى أنه الأشرف والأكمل، وأن اتباعه اتباع أصل عام موجود ومقصود لذاته.

---

(١) الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، والعنكبوت: ١٦.

(٢) المائدة: ١١٧.

(٣) وتقديم النهي على الأمر في آية غافر، بخلاف عادة القرآن في نظمهما، تقديم يتسق مع ورود الآية في مقام صرف المشركين عن عبادة الأوثان، كما تقدم، ونضيف في هذا الموضع، أن الابتداء بالنهي لا يعني ـ بحال ـ أنه الأصل، بل إن سياق الآية المقالي يؤكد أن النهي لا يكون قبل مجيء الأمر، وذلك في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ فهذا القول توقيت لنهيه ﷺ عن عبادة غير الله بوقت مجيء البينات؛ أي بينات الوحي فيما مضى، وهو يقتضي أن النهي لم يكن قبل وقت مجيء البينات، فثبت أن الأمر هو الذي يحصل الاستئناس به قبل النهي؛ لأنه الأصل.

(٤) مصداقاً لقوله من آية الذاريات: ٥٦ ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾.

(٥) كقوله في آية البقرة: ٨٣ ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾... وآية النساء: ٥٨ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾....

وأما النهي فإنه ينفي عن الخلق ما يُفسد عبادتهم وطاعتهم ومعرفتهم ومحبتهم، وسائر الأمور المركوزة في فطرهم؛ إذ المقصود منه حفظ المأمور به الموجود وسلامته، والمطلوب من عدم المنهي عنه صلاحُ أصل ما خُلق له الخلق؛ كعدم الشرك لصلاح الإيمان، وإنما يُطلب عدمه؛ لأنه مانع من الأصل، فإن النبي ﷺ نُهي عن الشرك لأنه مانع من أصل عبادة الله وحده، وهو الإسلام، ونُهي الخلق عن الفحشاء، والمنكر، والبغي، وسائر الأمور المذمومة؛ لأنها مانعة من كمال ما خُلقوا له وعرفوه من الأمور المحمودة.

فثبت أن النهي حال عارضة مانعة، قد يحتاج إليه الأمر، حين ينحرف العبد عن الدين القيم، أصل الخلقةِ؛ وذلك بسبب الجهل، وتشوه الفطرة، وغبار الابتلاء، فعُلم أن المطلوب بالأمر هو الأصل، وهو المقصود، وأن المطلوب بالنهي فرع، وهو التابع.

ثانيها: إذا ثبت أن المأمور به خَلق الله في العبد أسبابه، من معرفته والإقرار به والعمل بشريعته؛ فإن المنهي عنه إنما يقع لعدم الفعل المأمور به، المانع عنه؛ كالشرك مثلاً، فإن وقوع المشركين فيه أصله ترك شريعة الأنبياء؛ وليس بوقوعهم في الشرك خرجوا عن شريعة الإسلام، فقد تقدم أن الأنبياء جميعاً أُمروا بالتوحيد، وأَمَروا به، فثبت بذلك أن وجود المنهي عنه ليس فيه سببه في الأصل إلا مع عدم المأمور به، أما عدمه فلا يقتضيه إلا بفعل المأمور به. ومن ثم عُلم أن **المأمور به أصل والمنهي عنه تبع فرع**.

ثالثها: أن اقتران الأمر بالنهي في هذه الآيات، يفيد أن النهي داخل في مسمى الأمر، وأنه نوع منه؛ إذ من المعلوم أن الأمر إذا أطلق تناول النهي بطريق التضمن، كما تقدم، وأيضاً فإن الأمر هو الاستدعاء والتكليف والطلب، وهذا يدخل فيه التكليف بالفعل والتكليف بالترك[1]، لكن أُفرد

---

(١) ويعضد ذلك، قول الشاطبي عن حقيقة الأمر: إنه «إلزام المكلف الفعل أو الترك»: (الموافقات ٢/١٢٠).

النهي باسم خاص، وأُبقي الاسم العام على الأمر، والأعم أفضل وأكمل. ولهذا فإذا قال تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عُلم أن الآمر مستدع من الأمر فعلاً، هو فعل كل معروف، وأن الناهي مستدع من النهي فعلاً، هو الكف عن كل منكر. وإذا كان النهي نوعاً من الأمر، فإن العطف بينهما يكون إذن، **من عطف الخاص على العام؛ إذ الأمر أصل عام، والنهي فرع خاص.**

خامساً: وجه التناظر المتضمن للتضاد والتلازم

ويبينه حال المنافقين في سياق ذمهم بآية التوبة؛ حيث إن قوله ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ يناظر في المعنى قوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ لأن رسوخهم في الكفر والنفاق، بسبب خروجهم من محيط الإيمان وفضائله إلى طريق الشيطان ورذائله، أوقعهم في فعل المحرم، وهو دعوة الناس إلى الأمور المنكرة في العقل والشرع؛ ومنه الكفر بالله ورسوله، والكذب، والخيانة، وإخلاف الوعود...، وزَجْرُهم عن الأمور المعروفة في العقل والشرع؛ ومنه الإيمان والطاعات. ومن ثم، فالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف يقتضيان ترك الواجب وفعل المحرم، وكلاهما ينتسبان إلى جنس المنهي عنه في الشرع مطلقاً، فثبت أن الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف **يتناظران**، ومع هذا التناظر، **يتلازمان ويتقابلان**؛ إذ الأمر بالمنكر يلزم منه النهي عن المعروف، وبالعكس. والمعروف ما يقابل المنكر مقابلة التضاد.

١. ٣. ٣ ـ العلاقة بين المصطلحين متفرقين

جدول إحصائي لمواردهما مع المقارنة

السورة / الآية، رقم: ١	الآية الأولى	السورة / الآية، رقم: ٢	الآية الثانية	المعاني / السياق الآية الأولى	المعاني / السياق: الآية الثانية	نوع العلاقة
العلق/٩ و١٠	﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾	العلق/١٢	﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾	يزجر المصلي عن الحق واتباعه	في سياق بيان موقف الناس من الرسالة الربانية يدعو الناس إلى الإيمان والإسلام	التضاد بين نموذجين للإنسان
الأعراف/٧٧	﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[1]	الأعراف/١٦٦	﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝١٦٦﴾	استكبروا عن أمر الله، وهو قوله على لسان صالح: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾[2]. في مقام الإخبار عن قوم صالح	استكبروا عن نهي الصالحين لهم عن الاعتداء في السبت. في مقام الاعتبار بمخالفات بني إسرائيل وعذابهم	التناظر والتلازم
هود/٨٧	﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾	العنكبوت/٤٥	﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾	تدعو إلى الجميل والمعروف في مقام التهكم بصلاة شعيب عليه السلام	تحذر من الفحشاء والمنكر. في مقام التنويه بالصلاة وبيان مزيتها في الدين	التلازم والاختلاف



(١) وينظر معها: الذاريات/٤٤.

(٢) الأعراف/٧٢.

يبرز هذا الجدول المصطلحين متفرقين في نسق متشابه وسياق متقارب، ويميط النقاب عن معانيهما وفقا لدلالة مقامهما، ثم يكشف عن أوجه العلاقة بينهما. ويمكن إجمالها ـ عند التأمل ـ إلى أوجه ثلاثة:

أولها: الاختلاف

ويتجسد هذا الوجه بجلاء، في آيتي العلق[١]؛ إذ اختلف التعبير فيهما بين الأمر والنهي، وذلك من خلال الاختلاف القائم بين نموذجين للإنسان؛ الأول: نموذج أئمة الضلال، وهو كافر في نفسه، وناه عن الصلاة، وعن الحق واتباعه. والثاني: نموذج الدعاة إلى الله، وهو مؤمن في نفسه مهدي، وداع إلى الإيمان والإسلام، وهذين الوصفين المتضادين للإنسان يأتيان في مقام يقدم موقفين متقابلين من الرسالة الربانية، ويُعَجِّبُ من فعل الطغيان، ويزيده تعجيباً بفعل التقوى والإيمان.

ثانيها: التلازم

في آيتي هود والعنكبوت، ووجه التلازم بين الأمر والنهي يرجع إلى التلازم بين مضمون الآيتين؛ ففي الآية الأولى جُعلت صلوات شعيب في مقام التهكم[٢]، آمرة بترك عبادة الأوثان[٣]، ونقص المكيال والميزان[٤]، وذلك يعني أنها تدعو إلى الجميل والمعروف؛ وأما في الآية الثانية، فجُعلت الصلاة في مقام التنويه بها، ناهية عن الفحشاء والمنكر، وذلك يعني أنها تحذر من كل منكر وقبيح.

ومن هنا، نستشف أن الصلاة أسندت مجازا إلى كل من الأمر

---

(١) تقدم الحديث عن سر تقديم النهي على الأمر في هاتين الآيتين: (انظر ص ١٣٧، هامش ٢).

(٢) وهو المستفاد من دلالة همزة الاستفهام بالآية: (انظر: مغني اللبيب: ١/١٨).

(٣) وجاء هذا الأمر موضحاً على لسان شعيب، في آية الأعراف: ٥٩ ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

(٤) وإليه الإشارة في قول هود لقومه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ﴾ من آية هود: ٨٤.

والنهي[١]، وأن العلاقة بين مضمون الآيتين علاقة تلازم، على اختلاف المقام فيهما؛ ذلك بأن الصلاة جُعلت آمرة بالمعروف والجميل، ناهية عن الفحشاء والمنكر بطريق اللازم؛ لأن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده.

ثالثها: التناظر

وهو المفهوم من التناظر في النسق التركيبي والسياق المقامي والمقالي بين آيتي الأعراف؛ ذلك بأن قوله: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ جاء على وِزان قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾، والمقام في الآيتين متشابه في الدلالة على الإخبار والاعتبار: الإخبار عن الأقوام الكافرة العاتية، والاعتبار بمخالفاتهم وهلاكهم.

ولسان مقال الآية الأولى ينطق بمعنى: استكبار قوم صالح عن أمر الله، وهو ما نهوا عنه على لسان صالح، من قوله: ... ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ ...[٢]. وهذا المعنى يناظر ـ بوجه ما ـ ما دلت عليه الآية الثانية من معنى استكبار بني إسرائيل عن تحذير الصالحين لهم من الاعتداء في السبت[٣].



(١) يراجع: البحر: ١٩٧/٦، والتحرير: ١٤١/١٢، والكشاف: ٢٨٦/٢.

(٢) هود/ ٦٤، ومعها الأعراف /٧٣.

(٣) وقد أخبر الله عن اعتدائهم في السبت في قوله ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾: جزء من آية الأعراف / ١٦٣.



خلاصة ومستفادات

وفي ضوء ما سبق، نحصل ونستفيد:

* أن العلاقة بين الأمر والنهي علاقة ذات أوجه متعددة ودلالات مختلفة؛ فمن علاقة الائتلاف التي ترقى إلى درجة التكامل، بملحظ من دلالات التقابل، والتناظر، والتلازم، والتداخل، إلى علاقة الاختلاف التي ترقى إلى درجة التضاد بالنظر إلى الدلالات الفارقة للمصطلحين ومتعلقاتهما[1]. ولعل هذا التآلف والاختلاف في ارتباط الأمر بالنهي يشكلان مجتمعين مقصوداً كلياً؛ تربوياً وتشريعياً في البيان القرآني، وهو تحديد معالم الحق والباطل، وتكاليف الطاعة وزواجر المعصية، وتحقيق امتثال المكلف للأوامر واجتنابه للنواهي، حتى تزكو نفسه وتسمو فطرته، فيصل إلى كماله المادي والأدبي.

* أن التتبع الاستقرائي لمجال هذه العلاقة الفارقة الواصلة بين المصطلحين يشهد أن القرآن الكريم لا يكاد يستعمل الأمر والنهي بدلالات

---

(١) والجدير بالذكر، أن هذه المتعلقات يصلح تعميمها على سائر الكمالات أو النقائص الإنسانية، وذلك يفيد أن بيان الأمر والنهي اقترن بالأمور المطلقة التي ليست على وزان واحد، بل منها ـ كما يقول الشاطبي ـ ما يكون من الفرائض أو من النوافل في المأمورات، ومنها ما يكون من المحرمات أو من المكروهات في المنهيات، لكنها وكلت إلى أنظار المكلفين، ليجتهدوا فيها بحسب ما دلهم دليل الشرع والمساق: (ينظر الموافقات: ١٤٢/٢ ـ بتصرف ـ).

التقابل والتضاد والتلازم والتداخل إلا متعلقين بأمور الدنيا، لا بأمور الآخرة؛ إذ الدنيا هي مجال الابتلاء، وذلك يحصل بالأمر والنهي.

* أن دلالة التضاد التي تفرق بين الأمر والنهي في البيان القرآني تجسد قدرة الله سبحانه على جمع الأضداد[١] وحكمته في خلقها؛ إذ بإيجاد هذين الضدين والجمع بينهما، يتحقق التكليف والابتلاء، وتحصل التقوى[٢]، وتصير المحاسبة على الطاعة والمعصية!

* أن علاقة التقابل بين الأمر والنهي أو بين الأصل العام والفرع الخاص، تتركب عليها فوائد جليلة، وهي:

الفائدة الأولى:

إن الأمر أجل شأناً، وأعظم خطراً من النهي؛ لذا كان فعل المأمور به أعظم من ترك المنهي عنه، وترك المأمور به أضر من فعل المنهي عنه، وكانت مثوبة بني آدم على أداء الواجبات أعظم من مثوبتهم على ترك المحرمات، وعقوبتهم على ترك الواجبات أعظم من عقوبتهم على فعل المحرمات[٣].

الفائدة الثانية:

إن ضلال بني آدم وخطأهم في أصول الدين وفروعه إذا تأملته تجد

---

(١) وذلك ملحوظ في كل أمور الحياة، والكون، والإنسان؛ فالضوء مدين للظلام، واللذة مدينة للألم، ولا متعة للصحة من دون المرض... وهكذا الأمر مع النهي؛ إذ لا يتحقق الامتثال إلا بالاجتناب، ولا تُفعل الحسنة إلا بترك السيئة، ولا يلتزم الإنسان الأمر الإلهي في كل أحواله، لضعف في أصل تكوينه، ولا يضبط نفسه على الاستقامة طوال حياته؛ إلا إذا وُجد النهي عن المعاصي والمحرمات. ومن ثم فإن إيجاد الأمر والنهي على طرفي نقيض تجسيد واضح للصراع الدائب في النفس البشرية، بين نوازع الطاعة ونوازع المعصية؛ بين امتثال الأمر واجتناب النهي.

(٢) وليست التقوى ـ كما فسرها الأولون والآخرون ـ إلا فعل ما أُمرتَ به وترك ما نُهيتَ عنه: (انظر الفتاوى: ٨٤/١٩/١٠).

(٣) يراجع بيان هذه الفائدة وتفصيلها في الفتاوى: ١٩/١٠/ص: ٥١ وما بعدها.

أكثره من عدم التصديق بالحق، لا من التصديق بالباطل، ومن ترك الحسنات، لا من فعل السيئات، فما من مسألة تنازع الناس فيها، في الغالب، إلا وتجد ما أثبته الفريقان صحيحاً، وإنما تجد الضلال وقع من جهة النفي والتكذيب؛ مثال ذلك: أن الكفار لم يضلوا من جهة ما أثبتوه من وجود الحق، وإنما أتوا من جهة ما نفوه من كتابه وسنة رسوله، وغير ذلك، وحينئذ وقعوا في الشرك.

وكذلك أهل البدع، فيما أثبتوه من الحق أحسنوا، لكن إنما أصل ذنوبهم وإساءتهم من جهة ما نفوه؛ فإن الخوارج، مثلاً، فيما يعظمونه من أمر المعاصي، والنهي عنها، واتباع القرآن، وتعظيمه، أحسنوا، لكن إنما أصل بدعتهم من جهة عدم اتباعهم للسنة، وإيمانهم بما دلت عليه من الرحمة للمؤمن وإن كان ذا كبيرة. وكذلك المرجئة، فيما أثبتوه من إيمان أهل الذنوب والرحمة لهم، أحسنوا، لكن إنما أصل إساءتهم من جهة ما نفوه من دخول الأعمال في الإيمان وعقوبات أهل الكبائر. وكذلك الجهمية؛ فإن أصل ضلالهم إنما هو التعطيل وجحد ما جاءت به الرسل عن الله عز وجل من أسمائه وصفاته.

وهكذا كل صاحب ضلالة، إنما أصل ضلاله من جهة ترك الواجب، وترك الإثبات[1].

الفائدة الثالثة:

أن الأصل إثبات الحق الموجود، وفعل الحق المقصود، وبالأمر يقع. أما ترك المحرم، ونفي الباطل فهو تبع، وبالنهي يقع، ولهذا غلب الأمر والإثبات، المانع من الفساد على ما جاءت به شرائع الرسل، وتضمنته الكتب الإلهية[2]، في حين غلب النهي والنفي على المعطلة من المتفلسفة،

---

(١) يراجع: فتاوى ابن تيمية: ٦٠/١٩/١٠ ـ ٦٣ ـ ٦٤. ـ بتصرف ـ.

(٢) فهذه الكتب والشرائع ممتلئة من الأمر والإثبات في العقائد والأعمال، فقد أمر الله خلقه في العقائد بالاعتقادات المفصلة في أسماء الله وصفاته وسائر ما يحتاج إليه من الوعد والوعيد، وفي الأعمال بالعبادات المتنوعة، من أصناف العبادات الباطنة والظاهرة.

ونحوهم. وقد شاع في المنهج القرآني الدعوي والتشريعي، تثبيت الحق وبيانه أولاً؛ لأن ببيان الحق يزهق الباطل، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[1]، فكما أن الظلام ينطرد بمجيء النور، كذلك الباطل ينهدم ببناء الحق. ومن هنا نجد أن القرآن الكريم في بداياته الأولى تتصدره أوامر تتطلب التنفيذ والتثبيت، كـ «**اقرأ**» و«**قم فأنذر**» و«**سبح**»...، وهي أوامر شكلت مجتمعة الغراس الأول الذي سيوجه استعدادات النبوة نحو الكمال، وسيُخرِج أشجارا مثمرة نافعة للعالمين.

فهل يعي دعاتنا أن تثبيت الحق هو السبيل الأقوم إلى هدم الباطل، وأن الواجب الأوجب هو بيان ما أنزله الله تعالى من الكتاب، والحكمة، والهدى؛ لأن ببيان الهدى المنزل من السماء، سيذهب دهاء روما واليونان الخارج من الأرض؟!

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني: الأمر والوعظ

ورد الوعظ متأخراً عن الأمر[2] في ذيل آيتي:

---

(١) جزء من آية الإسراء: ٨١.

(٢) رتبهما حديث ابن عباس في سياق حظ النساء على الصدقة، بتقديم الوعظ على الأمر، وقرنهما بالتذكير، معطوفاً على الوعظ، ومعطوفاً عليه الأمر، وذلك فيما أسنده البخاري عنه رضي الله عنه، قال: «خرجت مع النبي ﷺ يوم فطر أو أضحى، فصلى ثم خطب ثم أتى النساء فوعظهن وذكّرهن وأمرهن بالصدقة»: (البخاري في كتاب العيدين؛ رقم الحديث ٩٧٥، ورواه من حديث ابن عباس أيضاً. رقم ٩٦٤ بلفظ (فأمرهن) فقط). وخالف مسلم هذا الترتيب بعطف الوعظ والأمر على التذكير، فيما رواه من حديث ابن عباس، قال: «أشهد على رسول الله ﷺ لصلى قبل الخطبة. قال، ثم خطب، فرأى أنه لم يُسمع النساء، فأتاهن فذكرهن ووعظهن، وأمرهن بالصدقة، وبلال قائل بثوبه، فجَعلت المرأة تُلقي الخاتم والخُرص والشيء...»: (أخرجه في كتاب صلاة العيدين، برقم ٨٨٤). ولعل تقديم الوعظ على الأمر في الحديث ينسجم=

النحل: ٩٠: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

النساء: ٥٨: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

وفي ضوء هاتين الآيتين، نقف على اختلاف التعبير بهما، بعد استقصاء مفهوم الوعظ في اللغة وفي اصطلاح القرآن الكريم.

٢. ١ ـ مفهوم الوعظ في اللغة

يدور الوعظ في تصاريفه[(١)] حول معنى «**الزجر المقترن بتخويف**»[(٢)]. قال الخليل: «هو التذكير بالخير فيما يَرِقُّ له القلب»[(٣)]، وعليه فالأمر **يرادف** الوعظ في اللغة، ولا يطابقه؛ لأن كلا منهما يكون بكلام يتضمن معنى الطلب[(٤)]، إلا أن الأمر يقال باعتباره تكليفا بفعل على وجه الاستعلاء. أما الوعظ فيقال باعتباره زجراً أو تذكيراً بطريقة فيها تخويف وترقيق.

= مع سياقه ودلالة مقامه؛ إذ أن الصدقة، وهي من النوافل، أمر شاق على النفوس، ولاسيما نفس المرأة التي تحرص على حليها وزينتها. لهذا جاء وعظ النساء بالصدقة، بتليين قلوبهن لفعلها وتحذيرهن من تركها، توطئة لصدور الأمر النبوي الشريف الذي تجب طاعته بأمر الله.

(١) جاء في القاموس/ وعظ: «وعظه، يعظه، وعظاً، وعظة وموعظة» وفي المفردات/ وعظ: «والعظة والموعظة الاسم».

(٢) المفردات/وعظ.

(٣) المفردات والمقاييس/ وعظ، ومثله ما في القاموس: «وعظه... ذكَّره ما يُلين قلبه من الثواب والعقاب فاتعظ».

(٤) ويعضد ذلك قول الطاهر ابن عاشور في تفسير آية النساء: ٦٥: «الوعظ: هو الكلام والأمر»: التحرير: ١١٤/٥/٣ (طبع سحنون).

٢. ٢ ـ مفهوم الوعظ في اصطلاح القرآن الكريم

وبملاحظة دلالة اللفظ في اللغة على الزجر والتخويف والتذكير، يرد الوعظ في القرآن الكريم ست عشرة مرة[(١)] بصيغ مختلفة[(٢)]، بمعنى: **التذكير بالخير، والتحذير من الشر**، وذلك بطريقة فيها تخويف وترقيق يحملان الموعوظ على الامتثال للموعظة. وأكثر ما يسند الوعظ بهذا المعنى إلى الله تعالى، مقروناً بشرط الإيمان في الموعوظ، في مقام تقرير الأحكام وبيانها، والتحريض على امتثالها[(٣)]، كما يُسند إلى الأنبياء والصالحين؛ للتحذير من عاقبة الكفر، في مقام جدل الكفار والمشركين، وإمحاض النصح لهم[(٤)]، وإلى المؤمنين من الأزواج أو ولاة الأمور[(٥)]، في مقام الإرشاد والنصح[(٦)].

٢. ٣ ـ العلاقة بين الوعظ والأمر من خلال الآيتين

إن المقام في الآيتين متشابه متكامل، وهو مقام التشريع و بيان الأحكام، غير أن السياق في آية النحل أعم؛ إذ وُصلَت الآية بهدى القرآن

---

(١) والاسم منه الموعظة، ورد تسع مرات.

(٢) وهي: الفعل الثلاثي، كالذي في آيتي النحل والنساء، واسم فاعله، في آية الشعراء: ١٣٦. ولم يرد الوعظ قط بصيغة المصدر، وذلك للإشعار بأنه فعل الله المتجدد وفق حاجة الإنسان إلى التذكير والنصح، وبأنه فعل الإنسان الواعظ أيضاً، يُطالَب به، ويؤاخذ على إهماله؛ ولاسيما من كان في مرتبة الأنبياء ثم الصالحين ثم الأمثل فالأمثل.

(٣) كالذي في آيات: البقرة: ٢٣١: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ الآية ومعها آيات النور: ١٧، والطلاق: ٢، والمجادلة: ٣.

(٤) بصريح آيات: الشعراء: ١٣٦ ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾، ولقمان: ١٣ ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ الآية، وسبأ/٤٦ والنساء/٦٢.

(٥) جوز الطاهر ابن عاشور أن يكون المخاطب بآية النساء مجموع من يصلح لهذا العمل من ولاة الأمور والأزواج: التحرير: ٤٣/٥/٣.

(٦) بآية النساء: ٣٤ ... ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ الآية.

ورحمته[١]، فبينت أصول هداه في التشريع للدين الإسلامي، الآيلة إلى الأمر والنهي: أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهي عن الفحشاء والمنكر والبغي. ومن ثم انصب البيان فيها على التكاليف فرضاً ونفلاً، وأخلاقاً وآداباً، وانسجم مع بيان القرآن المكي لأصول التكاليف التي يقوم عليها صرح الدين[٢]؛ ومنها محاسن الأخلاق التي تقتلع جذور الشر والفساد من النفس، فتزكو ويستقيم عوجها.

أما الآية الثانية، فقد تفرعت عن الأولى، اعتباراً بانتسابها إلى التشريع المدني؛ إذ بَينت شرائع العدل والحكم ونظام الطاعة، بعد حديث عن أحوال أهل الكتاب؛ اشتمل على «خيانة أمانة الدين، والعلم، والحق، والنعمة، وهي أمانات معنوية، فناسب أن يعقب ذلك بالأمر بأداء الأمانة الحسية إلى أهلها، ويتخلص إلى هذا التشريع»[٣].

ونظرا لعموم آية النحل، ورد الخطاب فيها لكل الخلق[٤]؛ لأجل أن يمتثلوا أمر الله ويجتنبوا نهيه. ولقصد التعميم حُذف مفعول «**يأمر**» و«**ينهى**»[٥]، في حين ذكرت الآية الثانية[٦] المأمور مُضَمنا في كاف

---

(١) وذلك قوله تعالى في الآية: ٨٩ . . . ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

(٢) والشواهد كثيرة على هذا الانسجام بين تشريع القرآن المكي وهذه الآية الجامعة لكل خير وشر؛ كالذي في آيات: البلد: ١٣ ـ ١٦ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ ومعها آية الروم/ ٣٧.

(٣) انظر التحرير: ٣/٥/٩١، وانظر مثله فيما اختاره أبو حيان في البحر: ٣/٦٨٤.

(٤) أضواء البيان: ٣/٣١٦ وتفسير ابن كثير: ٢/٥٦٣. ويوحي تأويل الطبري للآية بأن الخطاب خاص بمحمد ومشركي قريش: (مجمع البيان: ٨/١٦٢).

(٥) أضواء البيان: ٣/٣١٦.

(٦) أشهر ما قيل في سبب نزولها هو ما رواه كثير من المفسرين، عن ابن عباس، وقاله ابن جريج، ومجاهد، ومقاتل، وغيرهم: «أن الرسول ﷺ أخذ مفتاح الكعبة من سادنيها؛ عثمان بن طلحة، وابن عمه شيبة بن عثمان بعد تَأَبٍّ من عثمان، ولم يكن أسلم، فسأل العباس الرسول ﷺ أن يجمع له بين السقاية والسدانة، فنزلت، فرد المفتاح إليهما وأسلم عثمان»: (انظر البحر المحيط: ٣/٦٨٣، وتفسير ابن كثير: =

الخطاب، المتصل بفعل الأمر، واتجه الخطاب فيها إلى «كل من يصلح لتلقيه والعمل به من كل مؤتمن على شيء، ومن كل من تولى الحكم بين الناس في الحقوق»[١].

كذلك يبدو التشابه واضحا بين الآيتين، بالنظر إلى نسقهما التركيبي؛ إذ جاءت كلتاهما في جملتين خبريتين، مُصَدرتين بحرف التوكيد (إن) للاهتمام بالخبر، وللتنبيه إلى أنه لا يقبل الشك، مثله مثل أخباره تعالى المقطوع بصحتها؛ وباسم الجلالة للتشريف، وبفعلي الأمر والنهي الصريحين في «**يأمر**» ويأمركم» و«**ينهى**»، دون صيغتيه كـ«**أدوا**» واعدلوا» و«**اجتنبوا الفواحش**»؛ لإفادة التشويق، وفي مجيئهما بصيغة المضارع دلالة على استمرارية الخطاب وتجدده.

وعلى نحو من هذه الدلالة، وعلى نسق يشبه نسق «**الأمر**» و«**النهي**»، ورد فعل الوعظ مضارعاً في ذيل كل من الآيتين، وجاء في الآية الأولى جملة في موضع الحال من اسم الجلالة، خالياً مما تُصَدر به الجمل، في حين جاء في الآية الثانية، مقترناً بحرف التوكيد (إن) للاهتمام بالخبر، كالذي تقدم في صدر الآية، وبـ(نِعْم) لمدح ما وعظ الله به المسلمين من تأدية الأمانة والحكم بالعدل.

= ٤٨٩/١، والتحرير: ٩٢/٥/٣، وفتح البيان: ١٥٣/٣). واختار الطبري، عن ابن زيد: أن الخطاب لولاة المسلمين خاصة، بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية، ودل على ذلك ما وعظ به الرعية في قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾: (جامع البيان: ١٤٥/٥/٤)، ونقل أبو حيان، عن التبريزي: «أنها خطاب لأمراء السرايا بحفظ الغنائم ووضعها في أهلها»: (البحر: ٦٨٤/٣). والظاهر أنها نزلت عامة لكل أحد في كل أمانة وكل حكم؛ فلا يجوز أن يعتبر السبب مخصصا لدلالة النص العامة التي هي قابلة لأن تنطبق على أشباه هذا المؤتمن الذي نزلت فيه الآية، ونظرائه في كل الأزمنة اللاحقة.

(١) التحرير: ٩١/٥/٣ (طبع سحنون)، وانظر مثله فيما اختاره أبو حيان في البحر: ٦٨٤/٣.

وبملاحظة سياق الآيتين ونسجهما التركيبي، يتبين أن الأمر والوعظ اجتمعا في سياق واحد، هو سياق بيان الأحكام التشريعية لهذا الدين، المجملة منها والمفصلة، وأُسندا معاً إلى الله تعالى، وهو الخالق للعباد، العليم بمصالحهم، الرحيم بأحوالهم، المشفق بضعفهم[١]؛ فلا عجب أن يأمرهم، وهو الغني عن العالمين، بما يصلح نفوسهم وحياتهم، وأن يعظهم بأمره ونهيه لتليين قلوبهم، وتخليص نفوسهم من الغفلة، وتحريضهم على الطاعة.

وهكذا جاء الأمر في الآيتين تكليفاً على سبيل الوجوب بأصول المصالح من العدل والإحسان. . .، وفروعها من الأمانة والحكم بالعدل، فناسب أن يعقب عليه بالوعظ، ليكون ذلك أدعى لامتثال مضمون متعلقاته. ومن ثم كان وقوعه في ذيل آية النحل موقع التحريض على امتثال الأمر، وكلها معان تجسد السمات الدلالية لمفهوم الوعظ في استعمال القرآن الكريم، كما تبين من تعريفه.

ومما زاد المفهوم إيحاء وتأثيراً، اقترانه في آية النحل بجملة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لإفادة أن الوعظ تذكير بالأمر والنهي، دافع إلى التفكر فيهما واختيارهما[٢]؛ واقترانه في آية النساء بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ لإفادة البشارة والنذارة، وكلتا الجملتين مكملة للمقصود من الأمر والوعظ به، وهو الامتثال رجاء صلاح الحال والمآل.

---

(١) وبالنظر إلى هذا المعنى من معاني ربوبيته تعالى، جاء الوعظ في القرآن الكريم، في الغالب، مسنداً إليه، جل ثناؤه ـ كما تقدم ـ وفي ذلك الإسناد كناية عن إمحاض النصح للعباد، وحب الخير لهم، وإرادة التقوى منهم.

(٢) ولعل هذا هو المعنى الظاهر الذي تفيده كلمة (لعل)، وذلك لأن الأنسب في هذا المقام هو معنى التعليل الذي حكاه ابن هشام قسيما لمعنيين آخرين، هما: التوقع، والاستفهام، وبمقتضاه تقول: (لعلكم تذكرون) أي: لأجل أن توجهوا إرادتكم الحرة لامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، فتتذكروا وتتعظوا بما فيها من عظات، وتعلموا بما تضمنته من أحكام ووصايا وتوجيهات: (راجع: مغني اللبيب: ١/٢٨٧ ـ ٢٨٨، وقواعد التدبر الأمثل ص ٦٢٩).

وفي ضوء ما سبق، نستبين العلاقة بينهما:

فالأمر: طلب يتم به التكليف بفعل الخير وترك الشر، ويكون بكلام يتوجه إلى المأمور ابتداء، على سبيل الإلزام، قصد امتثاله.

والوعظ: كلام يطلب به فعل الموعوظ به للخير وتركه للشر، بطريقة فيها تذكير وتخويف وترقيق، تحرض على الامتثال.

فمن كلفك بأمر وألزمك بفعله، فقد **أمرك**.

ومن نصحك، وذكرك، وحذرك، وزجرك، فقد **وعظك**.

وعليه، فهما يتفقان في كونهما يكونان بكلام يُطلَب به من المأمور والموعوظ فعل الخير وترك الشر، ويقصد منه الامتثال. ويختلفان في رتبة الخطاب وطريقته؛ إذ الأمر أصل في الخطاب، والوعظ تأكيد له وتكملة. والأمر يكون بإلزام وإيجاب، والوعظ يكون بتخويف وترقيق يحرضان على الامتثال، فتكاملاً إذن معاً وتلازماً لتحقيق مراد الشارع من خطاب الخلق بالأحكام، وهو المسارعة في الاستجابة للأوامر والنواهي.

٢. ٤ ـ استفادتنا من دراسة هذه العلاقة

وفي ضوء هذه العلاقة، نفهم ـ على سبيل التقريب ـ تقديم الأمر على الوعظ في البيان القرآني[١]؛ ذلك بأن الله تعالى، وهو العليم الحكيم واللطيف الخبير، حينما أراد بيان الأحكام والتشريعات، وتكليف الخلق بها، فرضها بشكل قاطع، فأمضى أمره بها، ثم رغب الخلق في امتثالها عن طواعية واختيار بالموعظة الحسنة؛ لأنها تلين القلوب، وتزجر النفوس، فتحملها على الامتثال.

وهكذا، فإن تقديم الأمر على الوعظ في الآيتين، تقديم لما يحتل من الشريعة الصدارة؛ إذ الشريعة كلها أمر ونهي، وبهما تُقطع حجة الخلق،

---

(١) قارن بالترتيب الوارد في الحديث الشريف بالهامش.

حتى إذا وعظوا بعد، فذُكروا وزُجروا، سارعوا إلى الإجابة، فهدوا إلى أقوم سبيل.

فهل يلتفت دعاتنا ـ رجالاً ونساء ـ إلى هذا الترتيب المقصود في المنهج القرآني الدعوي، ويتمثلوه في كل توجيه، وتعليم، وموعظة، وترغيب وترهيب، وأمر ونهي؟!

***

المطلب الثالث: الإرادة والأمر

وردت الكلمتان فعلين متجاورين ومسندين إلى الله تعالى في صورة الفعل الماضي، بصريح آية الإسراء المكية: ١٦: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

لقد استعمل التعبير القرآني الأمر متعلقا بإرادته، متأخراً عنها[1]، مما

---

(١) وعلى نفس النسق من التقديم والتأخير، جمع الحديث الشريف بين الإرادة والأمر في دار الجزاء، بخلاف القرآن الكريم الذي جمع بينهما في دار الابتلاء، وقد تعلقت الإرادة في غيب الآخرة برحمة من أراد الله رحمته من أهل النار بسبب عبادتهم لله. ويعقب تلك الإرادة النافذة صدور الأمر الإلهي إلى الملائكة بإخراجهم من النار، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة، أن رسول الله ﷺ قال ضمن حديثه عن مرور الناس على الصراط المضروب بين ظهراني جهنم: «**وفي جَهنَّم كَلاليبُ مثل شَوكِ السعدان... تخطَف الناسَ بأعمالهم، فمنهم من يُوبَق بعمله، ومنهم من يُخَرْدل ثم ينجو، حتى إذا أرادَ الله رحمة مَن أراد مِن أهل النار، أمَر الله الملائكة: أن يخرجُوا مَن كانَ يعبدُ الله فيخرجونهم ويعرفونَهم بآثارِ السُّجود...**»: (البخاري في الأذان برقم: ٨٠٦). وبمقارنة ما ورد في القرآن بما ورد في الحديث، على اختلاف المراد والمأمور به، بسبب اختلاف الدارين؛ نجد أن إرادة الله الهلاك في القرآن أو الرحمة في الحديث، نابعة من إرادة الإنسان الحرة في دار الابتلاء، التي اختارت الكفر أو الإيمان، وترجمته إلى أعمال كانت سببا للهلاك أو الرحمة في الدنيا أو الآخرة.

يشي بوجود علاقة مكنونة بينهما، نمهد للكشف عنها ببيان مفهوم الإرادة لغة، وعرفا، واصطلاحا قرآنيا.

٣. ١ ـ مفهوم الإرادة في اللغة

«الإرادة» اسم نُقل من راد يرود رَوْدا. والرَّوْد يأتي في اللغة بمعنى: «**التردد في طلب الشيء برفق**»[١]، ومنه: «الرائد الذي يَرُود الكلأ؛ أي: **ينظر ويطلب**»[٢] ورِياد الإبل: «**اختلافها** في المرعى مقبلة ومدبرة»[٣]، والإرواد في السير وفي الفعل: أن يكونْ رُوَيداً؛ أي: **مهلا**[٤].

وباعتبار السعي في طلب الشيء، جُعلت الإرادة «**اسما لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يُفعل أو لا يُفعل...**»[٥].

٣. ٢ ـ مفهوم الإرادة في الاصطلاح العام

تطلق كلمة الإرادة في اصطلاح المتكلمين على الشاهد والغائب جميعاً، فبالنسبة للشاهد، تستعمل في معنى: «ميل النفس إلى إيقاع الفعل وإيجاده»[٦] وبالنسبة لله تعالى، اختُلف في المراد بها، على مذاهب وأقوال؛ فذهبت الأشاعرة إلى أنها «صفة أزلية قائمة بالذات، تُخصص

---

(١) المفردات/رود، وفي الكليات: ١/١٠٢، والقاموس/رود: «الرود: الطلب». ولتصور هذا المعنى، ترادف الإرادة الأمرَ، ويؤيد ذلك قول الراغب: «وقد تُذكر الإرادة، ويراد بها معنى الأمر؛ كقولك: أريد منك كذا، أي: آمرك بكذا...».

(٢) المقاييس/رود، ومثله ما في القاموس والمفردات.

(٣) القاموس/رود.

(٤) المقاييس والقاموس/رود: ـ بتصرف ـ.

(٥) المفردات/رود. وإلى معنى النزوع أشار التهانوي في قوله: «الإرادة في اللغة نزوع النفس وميلها إلى الفعل، بحيث يحملها عليه. والنزوع: الاشتياق، والميل: المحبة والقصد...»: (انظر: كشاف الاصطلاحات: ١/١٣١ ـ ١٣٢) ومن الواضح أن نزوع النفس صفة يتصف بها المخلوق دون الخالق، فإنه تعالى يتنزه عن معنى النزوع.

(٦) كشاف الاصطلاحات: ١/١٣٢.

الممكن ببعض ما يجوز عليه، على وفق العلم»[١]، وذهب أكثر المعتزلة إلى أنها صفة ذاتية[٢]، وقال الكرامية[٣]: «إنها حادثة قائمة بالذات»[٤]، وقال النجار[٥]: «المعنى بكونه مريداً، أنه غير مستكره ولا مغلوب»[٦]، وجعل الكعبي ـ من المعتزلة ـ الإرادة والأمر بمعنى واحد؛ حيث قال: «إن الباري لا يتصف بكونه مريداً على الحقيقة؛ وإن وصف بذلك شرعاً في أفعاله، فالمراد بكونه مريداً لها أنه خالقها ومنشئها، وإذا وصف بكونه مريداً لبعض أفعال، فالمراد بوصفه أنه أمر بها[٧].

---

(١) كبرى اليقينيات/١٢٠، وفي التوقيف /٤٨: «الإرادة...صفة تخصص أمرا، بحصوله ووجوده»، وجاء في التمهيد/٤٧ «فلولا أنه قصد الى إيجاد ما أوجد منها ـ أي: الممكنات ـ لما وجد، ولا تقدم من ذلك ما تقدم وتأخر منه ما تأخر، مع صحة تقدمه بدلاً من تأخره، وتأخره بدلاً من تقدمه» وفي ص/٣١٧: «والله مريد لجميع المخلوقات عند أهل السنة، وخلافاً للمعتزلة؛ إذ قالوا: الله لا يريد إلا الخير، والشر غير مراد؛ لأن الله لا يفعل القبيح ولأن فعله للقبيح مخل باللطف».

(٢) وهو المألوف من مذهبهم في الذات والصفات؛ إذ الإرادة ـ عندهم ـ هي نفس الذات استلزاما، فمن حيث هو موجود، واجب الوجود، فهو مريد، بخلاف المعدوم.

(٣) وهي الفرقة الثانية عشرة من المرجئة، أصحاب «محمد بن كرام»: (انظر طرفا من عقائدهم في: مقالات الإسلاميين: ١/٢٠٥).

(٤) الكليات: ١/١٠٤، وكذلك شرح العقيدة الواسطية /٨١. وهذا القول مناف للتنزيه، وكان من أسباب حمل أهل السنة والمعتزلة على هذه الفرقة، فالله متنزه عن قيام الحوادث به.

(٥) هو أبو الحسين بن محمد النجار رئيس الفرقة النجارية، وهو وأتباعه يوافقون أهل السنة في بعض أصولهم؛ مثل خلق الأفعال، والمعتزلة في بعض أصولهم أيضاً؛ مثل نفي الرؤية، والقول بحدوث الكلام. توفي ٢٣٠: (الإرشاد/٦٣).

(٦) الإرشاد/٦٣ ومثله ما في كشاف الاصطلاحات: ١/١٣٥، وهي مقولة في الظاهر تفيد التنزيه، إلا أنها مردودة عند أهل السنة؛ لأنها تصبح مساوية للسوالب التي تقوم بالذات.

(٧) الإرشاد/٦٣. وأكثر المعتزلة على أن الأمر يستلزم الإرادة. ولعل هذا التصور للعلاقة بينهما ينبني على قولهم: إن كلام الله حادث، وليس صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، لأنه راجع في الحقيقة إلى صفة العلم، إن كان المدلول خبراً، وراجع إلى صفة الإرادة، إن كان أمراً أو نهياً: (راجع: كبرى اليقينيات/١٢٦)، كما ينبني على مذهبهم=

والحق الذي عليه جمهور الأشاعرة، ووافقهم معتزلة البصرة: «إنها صفة مغايرة للعلم والقدرة، توجب تخصيص أحد المقدورين بالوقوع بأحد الأوقات»[(١)] وهي مغايرة ـ كذلك ـ للأمر إذا كانت كونية شاملة لكل الحوادث؛ لأن الله قد يأمر بخلاف ما يريد، كإيمان من علم تعالى كفرهم، ويريد خلاف ما يأمر به؛ كالكفر الواقع ممن علم منهم عدم الإيمان[(٢)]. أما إذا كانت شرعية دينية، فإنها ملازمة للأمر؛ لأن الله لا يأمر إلا بما يريده شرعاً وديناً[(٣)]، بمعنى: «أنه يحبه ويرضاه ويثيب فاعله[(٤)]».

= في العدل الإلهي؛ إذ مراد الله تعالى من العباد في نظرهم، هو الطاعة والخيرات، وليس المعاصي والشرور، وذلك ما يحقق كمال عدله في الثواب والعقاب. وأيضاً فإن لهذا التصور صلة واضحة بمسألة التحسين والتقبيح العقليين في التكليف، ومعنى ذلك أن الحسن هو الذي كُلفنا به، على مقتضى العقول. أما القبيح، فلم نكلف به؛ لأن الله لا يفعل القبيح، ولأن فعله للقبيح مخل باللطف. ومن ثم فالله لا يريد إلا الخير والحَسَن. والظاهر أن المعتزلة ذهلوا عن الفرق الكبير بين الخالق والمخلوق، وبين منطق الألوهية ومنطق العبودية، حينما قيدوا إرادة الله المطلقة والشاملة لسائر أفعال الخلق وجميع الحوادث، وحَكَّموا عقولهم في تحديد كنه ذاته سبحانه وصفاته وأفعاله. . . !.

(١) كشاف الاصطلاحات: ١٣٥/١.

(٢) الإنصاف بهامش الكشاف للزمخشري: ٤٣٨/٣ ـ بتصرف ـ ومثله ما في كشاف الاصطلاحات: ١٣٤/١: «فإن الأمر لا يوجب وجود المأمور به، كما في العصاة».

(٣) الكليات/أمر ـ بتصرف ـ، وفيه: ١٠٥/١، عن علاقة الإرادة بالأمر بالنسبة للإنسان: «والإرادة قد يراد بها معنى الأمر؛ إلا أن الأمر مفوض إلى المأمور، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، والإرادة غير مفوض إلى أحد، بل يحصل كما أراده المريد».

(٤) مجموعة الفتاوى: ٣٢٨/١٠/٥، وكذلك الموافقات: ١٢٠/٣، والتفسير الكبير: ١٦٦/٧. وتفترق الإرادة عن الرضا بأنها قرار العقل القاضي بفعل أو تصرف ما، بقطع النظر عن كونه مرغوباً أو غير مرغوب إلى نفس المريد. أما الرضا فهو حب الشيء والرغبة فيه. ومن هنا، يتبين أنه لا يوجد تلازم بينهما، فقد يكون الشيء مراداً وهو غير مرضي عنه، وقد يكون الشيء مرضياً عنه وهو غير مراد، وقد يكون مراداً ومرضياً عنه في وقت واحد. وتسمى النسبة القائمة على هذا النوع من العلاقة بالعموم والخصوص من وجه، وعليه يبطل وهم المعتزلة الذين أصروا على أن الكلمتين مترادفتين، وأنه لا فرق بينهما: (يراجع الإنسان، مسير أم مخير/٧٥، ٧٦ ـ بتصرف).

ولا خلاف بين المتكلمين في أن الإرادة القديمة متى تعلقت بفعل من أفعاله تعالى لزم وجود ذلك الفعل وامتنع تخلفه عن إرادته[١]، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[٢].

وبعيداً عن جدل المتكلمين وتصوراتهم الفلسفية، نفزع إلى القرآن الكريم نتدبر استعماله للإرادة في الخالق وفي المخلوق، لنستخرج مفهوماً خالصاً من شوائب القرون، محرراً من أقوال الفرق والخصوم، ولو بدا بعضها من المسلمات البديهية!

٣. ٣ ـ مفهوم الإرادة في اصطلاح القرآن الكريم

وردت «الإرادة» في القرآن الكريم **١٣٩** مرة، كلها بلا استثناء بصيغة الفعل الماضي أو المضارع فحسب، ولم يستعملها القرآن قط بصيغة المصدر، أو أي صيغة من مشتقاته، كما لم يستعمل الفعل منها بصيغة الأمر في أي آية من آياته!

وملحظ التدبر في هذا الورود أن البيان القرآني ـ كما ذكرت بنت الشاطئ ـ لا يعرف الإرادة إلا عملاً وفعلاً وكسباً، فليس عنده من المجردات الذهنية التي تختص بالأسماء، ولا هي من الصفات التي تطلق على الأشخاص أو تضاف إليهم، فكأن العبرة في الإرادة بالفعل، لا بالتصور أو الوصف أو الادعاء. أما قصر استعمال فعل الإرادة في القرآن كله على الماضي والمضارع دون الأمر، فالذي يلوح من سره البياني هو أن مناط الإرادة في القرآن الكريم وقوع الفعل، لا الأمر به أو الحمل عليه[٣].

والاستقراء القرآني للإرادة يشهد بمجيء فعلها مسنداً إلى اسم الجلالة في صورته الظاهرة أو المضمرة، في أربع وخمسين آية، وإلى غيره من

---

(١) كشاف الاصطلاحات: ١٣٤/١ ـ بتصرف ـ.

(٢) مجموعة الفتاوى: ٨١/٨/٤، والموافقات: ١١٩/٣.

(٣) مقال في الإنسان/١٠٨ ـ بتصرف ـ.

مخلوقاته[١] في خمس وثمانين. وعليه، يمكن تصنيف آيات الإرادة إلى آيات تتحدث عن الإرادة الإلهية، وأخرى تتحدث عن إرادة المخلوقات. وتدبر سياقها يفيد أن المفهوم من هذه غير المفهوم من تلك! إذ تأتي إرادتنا بمعنى: قوة اختيارية[٢] يصحبها العزم وتسبقها الرغبة، فتتجه إلى إنفاذ عمل ما[٣] في حين تأتي إرادة الله غير مصحوبة بعزم، ولا مسبوقة برغبة[٤]، مرادا بها معنيان:

الأول: **الحكم**[٥] **أو القضاء**[٦]. والإرادة بهذا المعنى الكوني تلازم

---

(١) أكثر ما يرد فعل الإرادة مسندا إلى الإنسان، فرداً أو جماعة، للإشعار بأنه الجانب الكسبي والاختياري، الذي يثاب به المكلف ويعاقب عليه. ومن هنا، تقرر آيات كثيرة أن إرادة المخلوقين هي التي تسبق فتختار، وبعدها تأتي إرادة الله وفق ما أرادوا؛ كالذي في آية آل عمران: ١٤٥ ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾....، وآيتي الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩. وقد يرد فعل الإرادة مسنداً إلى الشيطان، في مثل آية النساء: ٦٠ ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ۝٦٠﴾، وإلى الجماد في آية الكهف: ٧٧ ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾....

(٢) وهذه القوة أو الملكة، مما خلقه الله منحة في كيان الإنسان. وتتجلى ثمرتها في ممارساته الجزئية والتطبيقية لها، مما يؤكد الاختيار الذي يتمتع به الإنسان، ويتجه به إلى مقصوداته التي يتخيَّرها.

(٣) وهذا المعنى ينسجم مع ورود الإرادة في القرآن الكريم في صورتها الفعلية فحسب؛ ذلك أنها لا تعني مجرد الرغبة والميل، كما هو استعمالها في اللغة؛ بل تعني انتقال الرغبة إلى فعل؛ وذلك ظاهر في مثل آيات: الطور: ٤٢ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝٤٢﴾، الأنفال: ٦٧ ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، هود: ٨٨ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ والكهف: ٧٩ ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾.

(٤) ويعضد ذلك أن العزم والرغبة لم يردا في القرآن الكريم مسندين أو مضافين إلى الله تعالى، ولا وُصف سبحانه بأنه ذو رغبة أو عزم، وإنما أسندا، بلا استثناء، للمخلوق لا للخالق.

(٥) ويرجح هذا المعنى، ما ذكره الراغب من استعمال الإرادة في الله، إذ قال: «فمتى قيل: أراد الله كذا، فمعناه: حكم فيه أنه كذا وليس بكذا؛ نحو آية الأحزاب: ١٧ ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.: (المفردات/رود).

(٦) والقضاء فُسر بالإرادة في مثل آية غافر: ٦٨ ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾....: (راجع مثلاً هامش التحقيق لتفسير غريب القرآن/٦٥) وذلك لما فيه من معنى الفراغ والإتمام والإمضاء، =

أمر الله التكويني[١]، فهي الإرادة التي يتم بها أمر الله وقضاؤه وقدره، وهي نافذة لا مرد لها، ومرادها إما إيجاد من عدم بكلمة ﴿كُن﴾ الإلهية[٢]، وإما قضاء بالحوادث والأقدار التي تغير مصائر الشعوب والأفراد، وفق سنته تعالى التي لا تتبدل في معاملة عباده؛ كالذي أراده الله من إهلاك المترفين بسبب فسقهم وكفرهم، أو من رحمة المستضعفين بسبب إيمانهم[٣]، وإما تقدير لأسباب تحقيق ذلك المراد الإلهي[٤]. وهذا الحكم النافذ للإرادة الكونية لا يصدق فحسب على ما تقدم من خلق، وجزاء، وتقدير لأسباب، بل يصدق كذلك على الإنسان، فيما أراد لنفسه من هداية أو ضلال[٥].

= وهو يوافق معنى الحكم النافذ والقضاء المبرم الذي تتضمنه الإرادة. وهذا يعني أن كل أمر يُنهي الله قرار إيجاده أو إعدامه بأمر التكوين، إنما يكون على وفق مراد الله فيه.

(١) ونفهم هذا التلازم من خلال ما مر بنا، في مبحث التعريف من صور الأمر الإلهي؛ كعذاب الاستئصال الذي أراده الله، فقضاه وحكم به على الأمم الغابرة؛ فهذا العذاب وغيره من الأفعال والأقدار الإلهية إنما تقع في حياة الإنسان بإرادته سبحانه. ويعضد ذلك مجيء قوله تعالى من آية هود: ١٠٧ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ تذييلا لحكمه النافذ على أمم كافرة، ضلت فأخذها الله بظلمها: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾... من الآية: ١٠١ إلى الآية: ١٠٧.

(٢) كالذي في آية يس: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ وفي آية النحل: ٤٠ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

(٣) نحو آية الإسراء، وآية القصص: ٥ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾....

(٤) كالذي دبره الله وقدره من أسباب حفظ كنز الغلامين؛ حيث قال في آية الكهف: ٨٢ ... ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾....

(٥) كقوله تعالى على لسان نوح، عقب الحديث عن الملأ الذين كفروا من قومه، وتبرمهم بنصحه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ هود: ٣٤، وآيتا يوسف: ١٠٦ ـ ١٠٧، جاءتا في سياق النهي عن الإشراك بالله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾... وعلى هذا يصح تخريج كل آيات الإرادة الإلهية في تعلقها بالنفع أو الضر، وبالغواية أو الهدى؛ فلا يبقى للجبرية متمسك بهذه الآيات في إسناد ما يحدث من الطاعات والمعاصي، والهداية والضلال إلى فعل الله ومشيئته.

الثاني: الأمر[١] والتشريع. وإرادة الله بهذا المعنى إرادة تشريعية، والمراد لها هو الأمر التشريعي أو القضاء التكليفي[٢] من الله لابتلاء العباد، وهي تتعلق بالطاعات دون المعاصي، سواء وقعت أو لم تقع[٣].

وفي ضوء ما تبين - إجمالاً - من فرق واضح بين مفهوم إرادة الخالق، ومفهوم إرادة المخلوق، وبين إرادة التدبير وإرادة التكليف في إرادة الخالق، نتدبر آية الإسراء المكية في «الإرادة» و«الأمر» الإلهيين، موصولة بسياقها، منظورا في نظمها، وذلك لنتبين خيوط العلاقة بين المصطلحين.

٤.٣ - العلاقة بين الأمر والإرادة من خلال آية الإسراء

لقد وردت هذه الآية مسبوقة بآية وزر الضلال ومثوبة الهدى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]. فالمقام في هذه الآية مقام تقرير مسؤولية الإنسان عن عمل نفسه من هداية أو ضلال، ثم إعذار إلى أهل الكفر وقطع حجتهم بأنه تعالى لا يعذبهم إلا بعد بعثة الرسول[٤] والإمهال لهم، ويعذبهم بتكذيبهم وسوء أعمالهم، فناسب هذا المقام التفريع الذي جاء بعدُ في قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ﴾ الآية لتبيين أسباب حلول التعذيب وكيفياته، وأُدمج في هذا التفريع تهديد قادة المشركين من أهل مكة

---

(١) ويشهد له قول الراغب المتقدم: «وقد تذكر الإرادة ويراد بها معنى الأمر...» وكذلك ما جاء في مجموع الفتاوى: ١٢٠/٨/٤.

(٢) وهذا القضاء التكليفي الذي يرادف الإرادة بحكم تكليفي هو المفهوم من مثل قوله تعالى في آية الإسراء /٢٣: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾....

(٣) كما في قوله تعالى في سياق تشريع رخصة الإفطار في السفر والمرض: ...﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾... البقرة: ١٨٥، وقوله تعالى في سياق تشريع نكاح المحصنات وملك اليمين: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾... النساء: ٢٦.

(٤) لقد دل على هذا الإعذار وقطع الحجة آيات كثيرة، منها آية القصص/٥٩: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾....

وتحميلهم تبعة الذين أضلوهم[١].

واستصحاباً لهذا السياق المترابط، نفهم إرادة الله إهلاك قرية، ملحوظاً فيها المعنى الأول في الاستعمال القرآني لها، حكماً لازماً وقضاء نافذا، قدر الله تنجيزه عند حصول أسباب الهلاك[٢]، المشار إليها في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾. والأمر هنا، هو الذي **خلاف النهي** دون غيره[٣]، ومتعلقه

---

(١) وهذا التهديد ينصرف إليهم بالتحديد دون جميع الناس؛ لأن طبقة الكبراء المترفين في كل أمة هم أول الناس تكذيباً بالرسل، وأقدرهم على صرف أقوامهم عن الهدى بفسوقهم وكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾: سبأ/٣٤.

(٢) وهذا المعنى يتعين في كل آيات الإرادة الإلهية التي تعلقت بالعذاب الدنيوي في حق الأمم والأفراد، بعد أن أصروا عمداً على الشرك والعمى والعناد، كآية الرعد/١٢ . . . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾. . . وآية هود/١٠١.

(٣) ويتوجه هذا المعنى على قراءة الأئمة السبعة: «أمَرْنا» ـ بالتخفيف ـ وقد أسنده الطبري عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ثم اختاره لأنه الأعرف الأشهر من معاني الأمر: (جامع البيان: ٥٦/١٥/٩ وكذلك مفاتيح الغيب: ١٧٦/٢٠/١٠وغريب القرآن وتفسيره/٢١٢) وأنكر الزمخشري هذا المعنى. وآثر حمل القراءة على المجاز؛ لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا. وهذا لا يكون، على المقرر في مذهبه الاعتزالي. ومن ثم قال في معنى الأمر: «أنه صب عليهم النعمة صبا فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات. فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب آلاء النعمة فيه» وعمدة إنكاره للمعنى الأول، حذف ما لا دليل عليه: (الكشاف: ٤٤٢/٢) وتُعُقِّب بأن السياق يدل عليه، كقولك: أمرتُه فعصاني؛ أي: بطاعتي، وكذا: أمرته فامتثل: (فتح الباري: كتاب التفسير: ٣١١/٩ ـ بتصرف ـ)، ونقل ابن كثير من معاني الأمر، على القراءة المشهورة، المعنى الكوني، أي: «أنه سخرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب»: (تفسير ابن كثير: ٣٢/٣).

وفي الآية أيضاً قراءة التشديد: «أمَّرْنا» من الإمارة، عن أبي عثمان النهدي، وغيره، ومعناها ـ بإسناد الطبري، عن ابن عباس ـ : «سلطنا أشرارها، فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب» وهذا المعنى يوافق تفسير ابن عباس للآية، على قراءة الجمهور، كما رواه عنه نافع بن الأزرق في مسائله: (انظر: جامع البيان: ٦٧/١٥/٩ وفي الظلال: ٣١٢/٥، والبحر: ٢٧/٧، والمفردات/أمر، والإعجاز البياني/٤٧٩). =

محذوف[1]، يهدي إليه التقابل بين «**الأمر**» والفسق[2]؛ فإن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به؛ لأنه خروج عما أمر الله به، فدل ذلك على أن المأمور به ليس بفسق ومعصية؛ وإنما هو طاعة الله تعالى واتباع رسله، ومما يعضد دلالة التقابل على حذف هذا المعنى، قرينة السياق؛ إذ جُعل فعل ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ في هذه الآية معطوفاً بالواو على ﴿نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ في الآية قبلها[3]، فدل ذلك على أن بعثة الرسول تتضمن أمراً بشرع؛ إذ الغاية

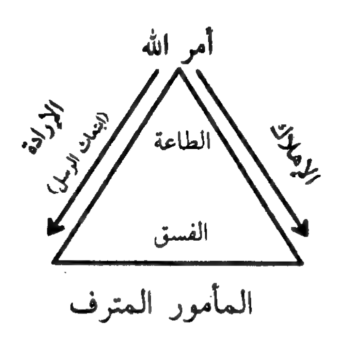
= وروي عن الحسن البصري ـ وهو اختيار يعقوب ـ : «آمرنا» ـ بالمد ـ بمعنى: أكثرنا فسقتها، واستدلوا له بقول رسول الله ﷺ: «**مهرة مأمورة**»: أي: مأمورة بتكثير النسل، على سبيل الإستعارة، وقول عبدالله بن مسعود، فيما أسنده البخاري عنه: «كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية: أَمِر بنو فلان»: (طالع: البخاري في التفسير (٤٧١١)، وجامع البيان: ٥٥/١٥/٩ ومفاتيح الغيب: ١٧٧/٢٠/١٠). والظاهر هو أن معظم التفسيرات للآية فيها تعسف واضح بسبب العدول عن ظاهر اللفظ. ولعل أقربها إلى النظم الذي نزل به القرآن، وأبعدها عن التكلف، هي قول من حمل الآية على ظاهرها، فجعل الأمر من الله للمترفين أمرا بالطاعات والخيرات، وهو المعنى الظاهر القريب إلى فهم السامع، دون حاجة منا إلى استقصاء للقراءات ومعانيها، وحمل المشهور منها على المجاز، كما فعل الزمخشري الذي سيطرت على فكره نصوص الحكمة والعدل والتكليف. . . !

(١) وأكثر استعمال الأمر مثبت المفعول؛ لانتفاء الدلالة على حذفه، كما تبين من استقراء أحوال وروده. . . والملحظ الاستقرائي العام في حذف متعلقات الأفعال في القرآن الكريم هو التركيز على الفعل في حد ذاته؛ بحيث تصير كل المفاعيل قابلة لأن تتعلق بالفعل. ومن ثم فإن التركيز هنا على كون الله يأمر، مقصود لله ابتداء؛ لأن السياق في الجاحدين بربوبيته والعاصين لأمره والمكذبين برسالته، فكان خطابهم بالأمر وحده هو الملائم لهذا السياق. ولهذا، فإن اختيار حذف متعلقه هو اختيار كمال، لا اختيار نقص؛ لأن الغرض منه هو تكثيف الطاقة التعبيرية للأمر؛ إذ يقتضي بمجرد لفظه الامتثال الفوري لمضمونه، واستدعاء كل الطاعات التي يمكن أن يأمر بها رسول أمة من الأمم.

(٢) ونظير هذا الحذف الذي يدل عليه نقيضه أو ضده قوله تعالى من آية الأنعام: ١٣ ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾. . . قالوا: تقديره: ما سكن وما تحرك: (انظر: البحر: ٢٥/٧).

(٣) والأفعال يُعطَف بعضها على بعض، سواء اتحدت لوازمها أم اختلفت: (انظر: التحرير: ٥٤/١٥/٧ ـ طبع سحنون ـ).

منها تفصيل ما يريده الله من الأمم من الأعمال والطاعات، ومن ثم فإن عدم امتثال هؤلاء الأمم لما أمرهم الله به من الشرائع على لسان الرسول سبب إهلاكهم وتدميرهم، فيكون حاصل معنى: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ﴾: بعثنا إليهم الرسول، وأمرناهم بما نأمرهم به على لسان رسولهم. ويعم ذلك مطلق الأوامر التكليفية، فعصوا الرسول، وخالفوا أمر الله عنادا، وأقدموا على الفسق وبذلك حق عليهم قول الوعيد الذي قاله رسولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾. وعليه، يمكن اختزال معنى الآية، والعلاقة الطردية بين أوصالها في الرسم التالي:



بيد أن الناظر في ظاهر موقع (إذا)، المتمحضة للظرفية المستقبلية[١] والمتضمنة لمعنى الشرط، قد يستشكل المعنى في الربط بين جملة شرط (إذا) وجملة جوابه؛ إذ أن قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾، وهو جواب (إذا)، يقتضي «أن إرادة الله إهلاك القرية سابقة على حصول أمر المترفين سبق الشرط لجوابه، فيقتضي ذلك أن إرادة الله تتعلق بإهلاك القرية ابتداء، فيأمر مترفيها، فيفسقوا فيها فيحق عليها القول الذي هو مظهر إرادة الله إهلاكهم، وأن الله لا تتعلق إرادته بإهلاك قوم إلا بعد أن يصدر منهم ما توعدهم عليه لا العكس، وليس من شأن الله أن يريد إهلاكهم قبل أن يأتوا بما يسببه، ولا من الحكمة أن يسوقهم إلى ما يفضي إلى مؤاخذتهم ليحقق سببا لإهلاكهم»[٢]. ومن هنا، فلا بدَّ من النظر في المعنى الذي لا يقيد إرادة الله المطلقة، وعلمه المحيط

(١) دراسات لأسلوب القرآن: ١٧٤/١ ومجموعة الفتاوى: ١٣٦/٦/٣.

(٢) التحرير: ٥٤/١٥/٧.

من جهة، ولا يلحق بأحد ضرراً دون استحقاق، ولا يلغي إرادة الإنسان الحرة من جهة أخرى، فالله تعالى قادر على الغواية والإضلال، ولكنه لا يغوي ولا يضل، ولا يظلم، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يسوقهم إليه، وذلك لأن الله سبحانه حين أراد أن يخلق الإنسان ليبتليه في الحياة الدنيا، منحه الصفات التي يكون بها أهلاً للابتلاء، وأودع فيه نوازع الطاعة ونوازع المعصية. ومن شأن الإرادة الحرة أن تختار الطاعة أو المعصية، فتصدر عنها أعمال الكفر أو الإيمان، بعد أن يهيئ الله لها أسباب الاختبار، وهو يعلم تعالى علماً مطلقاً بتلك الإرادة وحقيقة غايتها، سواء تحققت أم لم تتحقق، والله سبحانه الذي يملك الأسباب، ويعلم العلم الكاشف للمستقبل، غير المجبر للإرادات، قد تمضي إرادته باتجاه ترك إرادة الإنسان، المصر على الكفر والضلال، تنساق إلى الأسباب التي سخرها لها، من أجل ترجمة كفرها وضلالها إلى أعمال فسق وعصيان، وهكذا تكون سبباً للتدمير على الإنسان وتعذيبه في الدنيا، وشاهدا عليه يوم القيامة[1].

وهكذا فإن إرادة الله التي تعلقت بهلاك القرية الفاسقة لا تحمل لهم الظلم، ولا تدفعهم باتجاه الفسق ابتداء، كما يبدو من ظاهر موقع إذا، لأن هذه الإرادة إنما تعلقت بترك الإرادة الضالة لأهل القرية تترجم ضلالها إلى أعمال الفسق. وذلك عبر تفاعلها مع أسباب الامتحان المحيطة بهم؛ ومنها أمرهم باتباع الرسول، وإمداد مترفيهم بالمال، والسيادة، وسائر ألوان النعم. والله تعالى يعلم بعلمه المطلق أن أهل القرية الفاسقة، مهما تطاول بهم الزمن، لا يصدر عنهم إلا الفسق والعصيان؛ لأن إرادتهم ـ في علم الله ـ لا تحمل غير ذلك. ومن ثم، كان تعلق الإرادة الإلهية بجزائهم على فسقهم

---

(١) والشواهد القرآنية على ذلك أكثر من أن تحصى؛ منها قوله تعالى في آيتي التوبة: ٥٤ ـ ٥٥ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وكذلك آية آل عمران: ١٧٦ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

وعصيانهم، حكما عادلا، لا يحمل الظلم لأهل القرية[١]؛ لأن حقيقة الظلم كانت نابعة من إرادتهم التي اختارت العصيان على امتثال أمر الله واتباع منهجه، وإنما قُدمت الإرادة بالهلاك في الآية على الأمر بالطاعة والفسق عنها؛ لقطع علام الغيوب بالهلاك المرتقب، ويفيد هذا القطع مجيء فعل الإرادة بصيغة الماضي بعد «إذا» الظرفية[٢]، دلالة على أن الهلاك سبق به القضاء في الأزل، فلم يكن بد من نفاذه في المستقبل عند وقوع أسبابه.

أما الأمر، فقد جاء هنا متسقا مع فعل الإرادة من حيث الصيغة؛ حيث ورد في صورة الفعل الماضي المسند إلى الضمير العائد على اسم الجلالة، للدلالة على أنه ـ كالإرادة ـ لا يكون إلا من الله سبحانه، كما أن هذا الأمر ينقل لنا صورة إعلام الغارقين في لهو الدنيا وتابعيهم، وهو إعلام ثابت أصيل، يمتد على مر تاريخ الرسالات السحيق.

وفي ضوء ما تقدم من معنى إرادته تعالى، وإرادة الإنسان الحرة، جعل الله الأمر متعلقا بإرادته، من حيث شمولها لجميع المرادات من الممكنات؛ ومنها ـ كما سلف به البيان ـ الخلق، والتكوين، والقضاء، والتقدير، وبعثة الرسل بالأوامر والنواهي، وكل تصاريف الامتحان لإرادة الإنسان. ومن ثم فإن أمر الله المترفين باتباع منهجه وإطاعة رسله مراد من مرادات الله؛ كالإهلاك وسواه، بيد أنه مراد شرعي، وهو بهذا الموقع الخاص يمثل مظهرا من مظاهر الإرادة الإلهية التي لا تريد إلا الخير للعباد.

وهكذا، فإن الله يريد من عباده الإيمان ويأمرهم به، ولا يريد منهم

---

(١) وهذا من الزاوية التي ينظر منها البشر، ونحن إذا نظرنا إلى العقاب الدنيوي الذي تعلقت به الإرادة، من الزاوية التي يُرى منها الغيب، فإن هذا العقاب لا يحمل الشر لهم، بل يجنبهم التمادي في الفسق، وازدياد ذنوبهم، وما يترتب على ذلك من عقاب في الآخرة... فهل هناك من شر أكبر من بقائهم على فسقهم، وما يترتب عليه من آثام وجزاء؟!.

(٢) وهذا القطع من الله سبحانه بالأمور المتوقعة هو أغلب استعمال «إذا» حين تدخل على الفعل الماضي؛ نحو آية التكوير: ١ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾: (انظر دراسات لأسلوب القرآن ١٧٤/١/١).

الفسق، ولا يأمرهم به، وإن أراده الإرادة الكونية التي تتناول ما قدره وقضاه وفق علمه المطلق؛ فيكون الفرق بينهما الفرق بين العام والخاص؛ فإرادة الله عامة وأمره خاص!

❋ ❋ ❋

المطلب الرابع: الحكم والأمر

اجتمع «الأمر» مع «الحكم» في آية يوسف المكية: ٤٠ ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾. ولبيان الفرق بين دلالتهما في هذا الموضع، نتدبر الاستعمال اللغوي والقرآني للحكم في صورته المصدرية التي ورد بها في الآية.

٤. ١ ـ مفهوم «الحكم» في اللغة

أصل الحكم في اللغة «**المنع**»[١]، قال ابن فارس: «الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو المنع، وأول ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم»[٢] مأخذه الحسي من «**حَكَمَة الدابة**»، وهي لجامها، وسميت بذلك لأنها تمنعها[٣] ثم استعمل معنوياً في **الأخذ على يدي السفيه**، يقال: «حكمت السفيه وأحكمته، إذا **أخذت** على يديه...»[٤] واستُعمل متعديا بالباء في **القضاء بالشيء على الشيء**. جاء في المفردات: «والحكم بالشيء: **أن تقضي** بأنه كذا أو ليس بكذا، سواء أَلْزَمْتَ ذلك غيرك أو لم

(١) تقدم أصلاً لصفة «الحكمة» في مطلب الصفات.

(٢) المقاييس/حكم.

(٣) المقاييس والمفردات/حكم.

(٤) نفس المصدرين.

تلزمه...»[١]، وفي اللسان: «الحكم:... **القضاء** بالعدل»[٢].

٤. ٢ ـ مفهوم «الحكم» في اصطلاح القرآن الكريم

استعمل القرآن الكريم «الحكم»[٣] في صورته المصدرية ثلاثين مرة، في سور معظمها مكية[٤]، ومن بين هذه المرات ورد «الحكم» ست عشرة مرة، مضافاً إلى اسم الجلالة ظاهراً ومضمراً[٥]، أو مختصاً به سبحانه، وذلك في حالة اقترانه بالمجرور، وتأخره عليه[٦]، أو في حالة وقوعه وسطاً بين (إن) و(إلا) لتوكيد مفهوم القصر، في مثل آية يوسف. و«الحكم» في الحالتين جاء معرفا بـ«ال»، والتعريف فيه للجنس، لإفادة قصر جنس الحكم حقيقة على الله، والمبالغة في عدم الاعتداد بحكم غيره. ومن ثم فإن مجيئه مقترناً بـ«العلم»[٧]، ومتعلقاً بالأنبياء والصالحين؛ إنما كان على سبيل «الإيتاء»، وهو فعل الله تعالى، فضلاً منه ونعمة على أوليائه والصالحين من

---

(١) المفردات/حكم.

(٢) اللسان/حكم. وبتفصيل أدق: عن ابن سيدة: «الحكم: القضاء، وجمعه أحكام... وقد حَكم عليه بالأمر يحكُم حُكْما وحُكُومة...» وانظر كذلك: القاموس/حكم.

(٣) وروده الإجمالي في القرآن الكريم، نحو اثنتي عشرة ومائتي مرة، بصيغ مختلفة، منها: الفعل الثلاثي، كالذي في آيات: غافر: ٤٨ ...﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾، ومصدره كما في آية يوسف، واسم فاعله، واسم التفضيل منه، كقوله تعالى في آية التين: ٨ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ والفعل الرباعي المضعف العين، في مثل آية النساء: ٦٥ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾...، و«الحكيم» من أسماء الله الحسنى و«الحكمة» من صفات القرآن والأنبياء والصالحين، كالذي مر بنا من شواهد الحكمة في مطلب الصفات.

(٤) وفي ذلك إيماء إلى اشتمال «الحكم» على معان كونية كبيرة؛ كما سيأتي.

(٥) نحو آية القلم: ٤٨ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾... وآية الرعد: ٤١ ...﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾.... وإذا أضيف الحكم إلى غير الله تعالى، فعلى وجه الإنكار على حكم الكفار، بصريح آية المائدة: ٥٠ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾....

(٦) كقوله تعالى من آية القصص: ٨٨ ...﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾... وقوله، بإضافة أداة الاستفتاح للتنبيه على أهمية الخبر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾...: الأنعام: ٦٢.

(٧) وهذا الاقتران هنا نظير الاقتران بين حكيم وعليم، وقد ألمحنا إلى سره البياني عند دراسة صفة الحكمة.

عباده[١].

وبملاحظة ما تقدم، يأتي الحكم مضافاً إلى اسم الجلالة بمعنى:

القضاء الإلهي المتعلق بخلقه تقديراً وتكليفاً:

ويرد هذا المعنى في مقام تفويض الأمر إلى الله عند اليقين بنفاذ مراده[٢]، كما يرد مقروناً بالصبر، ومذيلاً للسور في مقام تسلية النبي ﷺ حين يضيق صدره بالأسى على ضلال قومه[٣]، وأيضاً في مقام الفصل بين الناس عند اختلافهم في الدنيا[٤]، وإنذارهم بالرجوع إلى ربهم بالجزاء في الآخرة[٥].

وتأسيساً على ما سبق من دلالات الحكم في اللغة وفي اصطلاح القرآن الكريم، نمضي في تحديد العلاقة بين الحكم والأمر، وذلك بمراجعة مفهوميهما من خلال مقامهما الدلالي، وإيحاءات نظمهما في آية يوسف.

---

(١) بصريح قوله مثلاً، عن يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾: يوسف: ٢٢.

(٢) كالذي جاء على لسان يعقوب في آية يوسف: ٦٧ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ﴾....

(٣) بصريح آية الطور: ٤٨ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾... ومعها آيتا: القلم/٤٨، والإنسان/٢٤. (فسر ابن عاشور قوله ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ من آية الطور بما حكم به تعالى وقدَّره من انتفاء إجابة بعضهم، ومن إبطاء إجابة أكثرهم، أو هو ما حكم به من إرساله إلى الناس، أي: «اصبر لأنك تقوم بما وجب عليك»: (التحرير: ١٣/٢٧/٨٣). ولا يخفى ما في هذا المعنى من قرب واضح من دلالة الوجوب التي يقتضيها «الأمر»).

(٤) كالذي في آيتي: الشورى: ١٠ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾... والممتحنة: ١٠ ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾....

(٥) ولعل العلاقة بين «الأمر» و«الحكم»، تميل إلى الترادف إذا نحن نظرنا إليها من زاوية الآخرة: (راجع آية هود: ١٢٣ ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ وقارنها بآية القصص/٧٠).

٤. ٣ ـ العلاقة بين «الحكم» و«الأمر» من خلال الآية

إن الناظر في هذه الآية المكية يجد أن المقام فيها مقام نداء ودعوة: نداء يوسف السجين لصاحبيه، وكان معروفاً فيهم بتأويل الأحلام والعقل وصلاح الأمر: ﴿يَصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾... من الآية/٤١. ويعقب هذا النداء اللطيف دعوته لهما[١] إلى الإيمان بالله تعالى، وإخلاص العبادة له دون ما سواه من الشركاء[٢]: ... ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾[٣] الآية.

إن تدبر سياق الآيتين في استدلال يوسف على تفرد الله بالإلهية والحكم، يلفت إلى وجود ترتيب منطقي، فطري وعقلي[٤] في هذا الاستدلال، ولعل بيان ذلك الترتيب يفيد في إماطة النقاب عن وجه العلاقة بين المصطلحين، فمن أن يبدأ الاستدلال وإلى أين ينتهي؟

لقد توجه يوسف إلى إيقاظ فطرة السجينين بسؤال الاستفهام التقريري:

---

(١) وتجيء هذه الدعوة بعد كسب ثقتهما بقدرته على تأويل الرؤيا، فضلا من ربه ونعمة، ومن ثم ثقتهما فيما سيبلغه من أمور الدين: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾...: يوسف/٣٧ ـ ٣٨.

(٢) ويجيء هذا التصحيح والتصريح بعد كسب ثقة السجينين بقدرته على تأويل الرؤيا، فضلا من ربه ونعمة، ومن ثم ثقتهما فيما سيبلغه من أمور الدين: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾...: يوسف/٣٧ ـ ٣٨.

(٣) يوسف/٣٩ ـ ٤٠.

(٤) وهذا الترتيب يتسق مع طريقة القرآن المكي الرشيدة في قيادة المشركين إلى الاعتراف بالألوهية والربوبية، وذلك بتنبيه فطرهم إلى ما غُرس فيها من شعور بالتدين، ولفت أنظارهم إلى آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾؟ إن الفطرة تعرف لها رباً واحداً، ففيم تعدد الأرباب؟ إن الذي يستحق أن يكون رباً، ويُعبد ويطاع أمره هو الله الواحد القهار، وليس الأرباب المتفرقون الذين لا يخلو حالهم من تطرق الفساد في تصرفهم(١)؛ إذ لا يملك الواحد منهم أمر الكون كله، ولا التصرف المطلق في الموجودات كلها، وذلك عجز يستلزم بأنه ليس إلها.

وبعد أن بث يوسف بذور الشك في قلبيهما بصدد صحة إلهية آلهتهم، انتقل إلى إبطال وجود تلك الآلهة على الحقيقة بصيغة القصر: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ فهذه الآلهة المزعومة أسماء لا مسميات لها، وليس لها من حقيقة الربوبية إلا بقدر ما لأسمائها من تحقق في الواقع؛ لأن الربوبية الحقة لا تكون إلا لله الواحد القهار الذي له الغلبة والقدرة والسلطان؛ وهو سبحانه لم يجعل لها سلطاناً، ولم ينزل بها من سلطان! وهنا بين يوسف ﷺ لمن ينبغي أن يكون السلطان والحكم، ولمن ينبغي أن يكون الأمر والنهي؟ أو بمعنى آخر: لمن ينبغي أن تكون العبادة؟: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الآية. فالحكم لا يكون إلا لله وحده، وهو أولى خصائص ألوهيته، ويشمل في هذا السياق، ما حكم به تعالى وقَدَّره من أفعاله جبراً في حياة الناس وفي نظام الوجود عامة، وما حكم به وشرعه اختيارا في حياة الناس خاصة، وكل من حكمه الكوني والشرعي(٢) يجسد المعنى المتقدم للحكم في الاصطلاح القرآني.

وبملحظ من هذا المعنى العام، شكل إثبات انفراد الله بالحاكمية قاعدة عامة توجت تتويجاً رائعاً الدلائل المتقدمة على بطلان دين الشرك؛ فكان لا بد من نتيجة لهذا الإثبات، ومن بيان بعد هذا الإجمال. ومن ثم جاء الأمر

---

(١) وكثيراً ما يحاكم القرآن المكي المشركين إلى المشاهدات، في مثل قوله تعالى من آية الأنبياء: ٢٢ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾....

(٢) ويؤيد اجتماع الحُكمين في الآية قول ابن تيمية: «وقد يجمع الحكمين مثل ما في قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾»: (ينظر: الفتاوى: ٢٤٩/٢/١).

بالعبادة «نتيجة منطقية» تبين وتعلل اختصاصه تعالى بالحكم؛ ذلك بأن الذي له الحكم وحده له الأمر وحده، وعلى العباد الخضوع له، واتباع أمره وحده، سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية، أو تعلق بتوجيه أخلاقي، أو تعلق بحكم تشريعي. وعليه فإن جملة ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ بيان لجملة ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ من حيث ما فيها من مقتضى الحكم، فيكون بين دلالتيهما إذن، الفرق بين الإجمال والبيان، أو العموم والخصوص. فهل في نظم الآية وتركيبها ما يؤكد هذا الفرق ويوضحه؟

لقد ورد الحكم والأمر في صيغتين صرفيتين مختلفتين، لا يكاد يجمع بينهما عند التركيب سوى (إلا) لإفادة القصر وتأكيده.

أما الحكم، فورد معرفا في الصورة المصدرية، ليفيد معنى الإطلاق إلى أقصى المدى في حكمه تعالى؛ إذ هو متحقق في كل زمان، ومستمر إلى قيام الساعة وإلى ما لا نهاية، سواء التزمه العبد أو لم يلتزمه[١]، رضيه أو لم يرض به، فحكمه تعالى نافذ على الخلق والكون بدساتير قدره وحكمته، وإرادته وقدرته، وبشرائع أمره ونهيه... ولعل هذا المعنى الضخم يتسق مع مقام الدعوة إلى الاعتقاد بالحقائق الكبرى للدين القيم.

وأما الأمر فورد فعلا ماضيا، وفاعله، اسم الجلالة، أُضمر لدلالة ما تقدم عليه، وفي الفعلية والمضي معنى التقرير والإخبار، وهو يتسق مع بيان ما حكم الله به على الخلق في دار الابتلاء من إفراده بالعبادة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٢] وهذا الحكم بلغه الرسل إلى الخلق، ومضت به مواكب الرسالات على مدار الزمان، فصار حقيقة أساسية من حقائق هذا الدين، تنسجم مع سلطان ربوبيته وألوهيته.

وفي ضوء هذا البيان، يتضح أن التغاير في الصيغتين يوجب تغايرا في الدلالة بين المصطلحين؛ إذ ورد الحكم مصدرا على إطلاقه، ليشمل كل

---

(١) وهذا المعنى ملحوظ فيه المعنى اللغوي المتقدم، كما حدده الراغب في المفردات.

(٢) الذاريات/٥٦.

المعاني التي تستلزمها الحاكمية وجوبا، من أمر ونهي، وتشريع، وتدبير، وغير ذلك؛ بينما ورد الأمر بالعبادة فعلاً ماضياً ليفيد البيان لما ورد من إجمال في «الحكم»، فخَلُصت العلاقة بينهما[1] إذن، إلى **علاقة المبين بالمجمل أو العام بالخاص.**

٤. ٤ ـ من ثمرات دراستنا لهذه العلاقة

وانسجاماً مع ما تقدم، نستخلص الثمرة التالية:

إن وجود الحاكمية الواحدة المطلقة يدل دلالة ساطعة على صدور الآمرية الواحدة الكلية؛ إذ أن الذي له الحكم والتصرف وحده، يكون له الأمر والنهي وحده، وكما أن حاكماً لمملكته يُدِل على حكمه وسلطانه بأمره ونهيه، ويسوق رعيته إلى طاعته. كذلك الخالق لهذا الكون ـ وله المثل الأعلى ـ له الحاكمية المطلقة على سائر الموجودات، لذا فهي مسخرات ومأمورات تحت تصرفه وفق ما تتلقاه من تعليمات ونظام من خالقها، ومن هنا، فإن الإنسان ـ وهو أشرف هذه الموجودات وأكرمها على الله ـ حينما يزاول أمره تعالى ونهيه، بمقتضى خلافته في الأرض وأمانته؛ إنما يزاوله بسلطانه تعالى وحكمه، أما ما لم يحكم به الله ويشرعه، فلا سلطان له ولا حكم ولا شرعية؛ إذ ليس لغير الله حكم واجب القبول، ولا أمر واجب الامتثال؛ بل الحكم والأمر والتكليف ليس إلا له، ولا يليق بغيره، سواء كان ذلك الغير أصناماً كما هي آلهة القبط في زمن يوسف، أو فرداً، أو طبقة، أو حزباً، أو هيئة، أو أمة، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية... !

❋ ❋ ❋

---

(١) يوحي كلام الفيروزآبادي عن وجوه الأمر بوجود علاقة ترادف بين الحكم والأمر؛ حيث قال: «الأمر: الحكم واستدعاء الطاعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾... النحل/٩٠»: (بصائر ذوي التمييز: ٤٢/٢). ولعل منشأ هذا التصور للعلاقة، فيما أرى والله أعلم، أنه نظر إلى اشتراك كل من «الحكم» و«الأمر» في معنى الإلزام بالفعل.

المطلب الخامس: الوعد والأمر

ذُكر الأمر متأخراً عن الوعد، معطوفاً عليه بالواو، في آية البقرة: ٢٦٨ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ وتعاطف اللفظين في الآية الكريمة، على هذا النسق من النظم، يرشد إلى اختلاف في معناهما. فما هو سر التعبير بهما؟ وما الفرق بينهما في الآية؟ ذلك ما سنُمَهد لتوضيحه بدراسة مفهوم الوعد في اللغة وفي اصطلاح القرآن الكريم.

٥. ١ ـ مفهوم الوعد في اللغة

الوعد «مصدر»[(١)] «وعده الأمر، وبه»[(٢)] ويقال: «وَعَدْته أَعِدُه وعدا...»، وأصله: «**ترجية بقول**»[(٣)] ويكون ذلك «في الخير والشر»[(٤)]، ومنه قيل للأرض إذا رُجي خيرها من النبت: واعدة[(٥)]، وعليه فإن الوعد في اللغة يدور حول معنى **الإخبار بحصول أمر في المستقبل**[(٦)] **وتحققه**[(٧)]

---

(١) المفردات/وعد ومثله: العِدَة، والمَوْعِد، والموعدة...: القاموس/وعد.

(٢) القاموس/وعد. وجاء في المفردات: «ووعدتُ يقتضي مفعولين؛ الثاني منهما مكان أو زمان أو أمر من الأمور...» وعلى هذا النحو من التعدية المباشرة، جاء فعل الوعد في الآية.

(٣) المقاييس/وعد، وفي الكليات: ٥/٤٠: «الوعد: الترجية بالخير» وأصله: «إنشاء لإظهار أمر في نفسه يوجب سرور المخاطب».

(٤) المفردات، والقاموس، والمقاييس/وعد.

(٥) نفس المصادر. واستعمال الوعد فيهما، في حالة اقترانه بأحدهما. أما إذا أُسقطا بترك المفعول، كما في قوله: «**وإني وإن أَوْعَدْتُه أو وَعَدْتُه لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ موعدي**»؛ قيل في الخير: وعد، وفي الشر: أوعد: (القاموس/وعد والكليات: ٥/٤٠ وتاج العروس/وعد).

(٦) ويفيد هذا الحصول عبارة ابن فارس: «الترجية»؛ إذ الرجاء «يقتضي حصول ما فيه مسرة»: (انظر: المفردات/رجا).

(٧) ويدل على تحققه، وجوب الوفاء به وتحريم الخُلْف فيه، وكانت العرب تستقبحه، ولهذا قالت: «إِخْلافُ الوَعدِ من أَخْلاقِ الوَغْدِ»: (انظر التاج/وعد) ومما يدل عليه=

فالوعد والأمر إذن، يتقاربان في المعنى العام المشترك، وهو القول؛ إذ الوعد «ترجية بقول» والأمر، كما مضى، قول يقتضي طاعة المأمور، بيد أن اللفظين يتمايزان في القصد والجهة، وزمن الحصول، فالوعد ترجية وخبر بحصول أمر في الاستقبال، ويكون من جهة المخبِر الواعد، والأمر استدعاء الفعل في الحال من جهة الآمر، على سبيل الاستعلاء، وثمة فرق آخر نلحظه بين اللفظين؛ فالوعد قد يتناول الواعد؛ إذ لا يمتنع أن يعد نفسه كما يعد غيره. أما الأمر، فلا يتناول الآمر؛ لأنه لا يصح أن يأمر الإنسان نفسه، ولا أن يكون فوق نفسه في الرتبة.

٥. ٢ ـ مفهوم الوعد في اصطلاح القرآن الكريم

جاء الثلاثي من الوعد[١] في **١٣٩** موضعاً من القرآن الكريم، ومن صيغه:

المصدر: الوعد[٢] ويغلب مجيئه مضافاً إلى اسم الجلالة[٣]، أو مقترناً بأوصاف: الصدق، واليقين، والتحقق[٤]؛ والفعل الماضي:

= أيضاً، إفادة اللفظ لمعنى التعهد، في مثل قولك: «قطعت وعدا على نفسي». وبهذا المعنى فسر أرباب المعاجم آية طه: ٨٧ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾.

(١) اكتفينا به دون: المواعدة، والإيعاد، والوعيد...؛ لأنه الصيغة التي ورد بها فعل الوعد في آية البقرة.

(٢) ومعه: الموعد، والميعاد، ويكونان مصدرا واسما: (انظر: المفردات/وعد). قال تعالى في آية الكهف: ٥٨ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ وفي آية آل عمران: ٩ ... ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، وكذلك الموعدة وهو اسم يوضع موضع المصدر: (اللسان/وعد). وذلك في آية التوبة: ١١٤ ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾....

(٣) كالذي في آية الروم: ٦ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾. وقد يجيء مضافا إلى الآخرة، في آيتي الإسراء: ٧ ـ ١٠٤: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾.

(٤) نحو: ﴿ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾: (كما في الأنبياء/٩٧ ومعها: إبراهيم/٢٤. وكثيراً ما يجيء لفظ الحق وصفا لضميمة وعد الله)، و﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾: (كما في الأحقاف/١٦)، و﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾: (هود/٦٥)، و﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾: (الفرقان/١٦).

وعد[١]. ويكاد يطرد إسناده في مقام التقرير والإخبار إلى الله سبحانه[٢]؛ والفعل المضارع: يعد، ويوعدون، وتوعدون. . .، والإسناد فيه إلى الله تعالى[٣] والأنبياء[٤][٥][٦]؛ وفعل الأمر: عدهم، وإسناده إلى الشيطان[٧].

وتدبر آيات القرآن الكريم في الوعد على اختلاف الصيغ، يهدي إلى:

* أنه يأتي على أصل معناه، في **الإخبار بحصول أمور الآخرة** من بعث وثواب وعقاب، وذلك في مقام إثبات القيامة والبعث لمنكريه، والترغيب في ثواب الله، والترهيب من عقابه[٨]، وقد يأتي في الإخبار لتحقق نجاة المؤمنين ونصرهم، وهلاك الكافرين في الدنيا، وذلك في مقام تأنيس النبي ﷺ بالنصر، وإنذار مكذبيه[٩].

* أنه يأتي بدلالة مجازية على **تسويل الشيطان** الموعودَ وإيهامه بوقوع المرغوب أو المكروه فيما يُستقبل، قصدا إلى إضلاله، كالذي في الآية قيد الدرس.

---

(١) وصيغة الماضي معهودة في الالتزام الذي لا يتخلف، مثل صيغ العقود والالتزامات.

(٢) الذي «وعد» ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾. . . : التوبة/٧٢ و﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾: التوبة/٦٨ و﴿وَعَدَنَا﴾: الأعراف/٤٤ و﴿وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾: إبراهيم/٢٢.

(٣) وشاهده: آية البقرة.

(٤) كالذي في آية الأعراف: ٧٧ . . .﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾. . . .

(٥) خمس مرات، باستثناء آية البقرة.

(٦) كآية فاطر: ٤٠ . . .﴿إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

(٧) في آية الإسراء: ٦٤ ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾. . . .

(٨) كالذي في آيتي، الأنعام: ١٣٤ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ والفتح: ٢٩ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٩) كالذي في آيات: الأنبياء: ٩ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾، والروم: ٦٠ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ومعها: آيتا غافر/٥٤، ٧٦، والنور: ٥٥ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. . . .

وبملحظ من هذا الاستعمال الإجمالي «للوعد» في البيان القرآني، نمضي في تبين فروق الدلالات بين الوعد والأمر في آية البقرة.

٥. ٣ ـ العلاقة بين الوعد والأمر من خلال الآية

٥. ٣. ١ ـ نظرة موجزة في سياق الآية

ارتبطت هذه الآية بآيات الحث على الإنفاق والأمر بالصدقات[(١)]، فسيقت بين يدي مواعظ وترغيب وتحذير، وجاءت تالية لقوله تعالى من الآية: ٢٦٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾... وقد اتصلت بها اتصال السبب بالمسبب؛ إذ بينت أن سبب صد الناس عن إنفاق خيار أموالهم، وإغرائهم بتيمم الخبيث منها وإعطائه صدقة، هو تخويف الشيطان لهم من الفقر إن أعطوا بعض مالِهم. ومن ثم، كان المقصود من الكلام في الآية عن وعد الشيطان بالفقر وأمره بالفحشاء، وعن وعد الرحمن بالمغفرة والفضل؛ هو تحذير المتصدقين من وساوس الشيطان، والترغيب في دعوة الرحمن.

ومن هنا، دل سياق التحذير[(٢)] والترغيب في الآية على أن ثمة **تظاهراً وتكاملاً** بين دلالتي الوعد والأمر، إذ وردا على المجاز متناسقين مع دلالة مقامهما، فأفادا **التسويل والتخويف والوسوسة**، وهي معاني تنتسب إلى الخواطر الشيطانية، الداعية إلى الأفعال الذميمة، في حين ورد وعد الله[(٣)]

---

(١) ابتداء من قوله تعالى، من آية البقرة: ٢٦١ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الآية.

(٢) انظر في نفس المساق كل آيات الوعد، والتزيين، والأمر، والإضلال، والتمنية؛ مثل آيات النساء/٥٩ ـ ١١٩، والإسراء/٦٤، والنور/٢١، والنمل/٢٤، فهذه الآيات ونظائرها، حذرت الناس من وساوس الشيطان، ومن عداوته لهم، لعل ذلك يورثهم كراهية له، وسوء ظنهم بوعده، وما يعدهم إلا غروراً.

(٣) وروده من باب المشاكلة لوعد الشيطان، إظهاراً للفرق بينهما، وإنما لم يُعطف عليه أمر الله، على طريقة العطف في أمر الشيطان؛ لدلالة مقابله عليه، أو لدلالة الآية=

على حقيقته، كما سبق بيانه، وعدا بالإخلاف والفضل. لكن ما هو الفرق بين وعد الشيطان وأمره؟ وما هو سر هذا الترتيب الملحوظ والمقصود فيهما؟

٥. ٣. ٢ ـ الفرق بين وعد الشيطان وأمره

نستأنس لبيان الفرق بين اللفظين في الآية بمقارنة نظمهما، والغوص على معنييهما؛ فالوعد والأمر فعلان تماثلا في المجيء بصيغة المضارع، وفي المضارعة معنى الاستمرار والتجدد؛ إذ لا يزال الشيطان يعد ويأمر، بيد أن هذين الفعلين اختلفا في طريقة تعديتهما؛ حيث جاء الوعد فعلاً متعدياً بنفسه، ناصباً الفقر على المفعولية المطلقة[١]، في حين جاء الأمر متعدياً بالباء، متعلقاً بالفحشاء.

وتدبر سياقهما ونسق تعديتهما، يفيد:

* أن «وعد الفقر» معناه: **تسويل وقوعه، والتخويف من تحققه في المستقبل**[٢] وفي النصب على المفعولية المطلقة مبالغة في الإخبار بحصوله، حتى أن الموعود ليتحقق بمجرد وعد الشيطان أنه سيفتقر إذا أنفق بعض ماله، وأنه لن ينال من الدنيا آماله...!

ولإفادة هذه الدرجة من اليقين، شُبه إلقاء الشيطان في قلوبهم توقع

= بجملتها عليه، بمقتضى التناظر والتكامل. ومن ثم يمكن تقدير هذا المحذوف ومحذوفات أخرى، على النحو التالي: الشيطان ينهاكم عن الإنفاق في سبيل الله، إذ يعدكم الفقر على سبيل التخويف منه، ويأمركم بالفحشاء ولو اقتضت منكم إسرافاً في البذل وتبذيراً. والله ينهاكم عن الفحشاء، وعن التبذير، ويأمركم بالبذل في سبيله في وجوه الخير، ويعدكم إذا عصيتم واستغفرتم مغفرة منه، وإذا أنفقتم في سبيله يعطيكم، ويخلف عليكم ويزيدكم فضلاً منه.

(١) ويعضد ذلك قول الزبيدي: «وعده الأمر: متعدياً بنفسه... وينصب على المفعولية المطلقة»: التاج/وعد.

(٢) يراجع هذا المعنى في: التحرير: ٥٩/٣/٣ (طبع سحنون)، وتفسير المنار: ٧٤/٣، وتفسير المراغي: ٤٠٦/٣/١، والبحر: ٦٨١/٢.

الفقر بوعد منه بحصوله على جهة القطع، ووجه الشبه ما في الوعد من معنى التحقق، الملحوظ في استعماله اللغوي والقرآني.

* أن الأمر بالفحشاء معناه: **الوسوسة والإغراء بفعل كل قبيح في العقل والشرع**. ولعل تعدية الأمر بالباء تفيد هذا المعنى بوضوح؛ إذ تؤذن بأن الموعود بالفقر متى اطمأن إلى الشيطان ووثق بوعده، صار طوع مشيئته ودخل في دينه، وائتمر بأمره، فيزين له الشيطان المعصية، ويدعوه إلى الإنفاق والتبذير في وجوه الإثم، وذلك لأن الأمر بالشيء يستدعي أن يكون المأمور مستسلماً للآمر، واثقاً به، مطمئناً إليه، وأن يكون الآمر مستعلياً على المأمور متسلطاً عليه. واستسلام المأمور للشيطان الآمر، إنما يتحقق بتصديق وعده. ومن ثم يصير تسلط الشيطان على الموعود المأمور بسبب استسلامه، داعياً لحصول الاستجابة الفورية لدعوة الضلال.

وفي ضوء ما سبق، يظهر الفرق بين الوعد والأمر من وجهين:

الأول: أن الوعد يسبق الأمر؛ أي: أنه مرحلة أولى، بينما الأمر مرحلة ثانية. فإذا أراد الشيطان تهييء الإنسان نفسياً لقبول الأمر، ألقى في قلبه مواعيد كاذبة، كأن يقول للرجل: «أمسك، فإن تصدقت افتقرت»[1] فإذا صدق الإنسان وعده، واطمأن إلى تسويله وتخويفه، فقدر الفقر واقعا في غده[2]، تسلط عليه الشيطان بالأمر، فأغراه بالانهماك في معاصي الله سبحانه لتحصيل لذاتها العاجلة، ولو اقتضت منه إسرافا في البذل.

ومن هنا، فإن الوعد مقدمة نفسية شعورية، تمثل البدايات في

---

(١) البحر: ٦٨١/٢. وقريب منه، ما في مفاتيح الغيب: ٧١/٧/٤.

(٢) في حين أن غد العبد لا يعلمه إلا الله، كما أشار إلى ذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والشيطان لا يعلم ذلك، فوعده تغرير، وتقدير المُصَدِّق بوعده غير واقع؛ لأن الله وعد في الآية، ووعده حق، بالإخلاف والفضل. وأخبر رسول الله ﷺ بأنه «**ما مِن يَوم يُصبِح فيه العِبادُ، إلا مَلَكان ينزِلان فَيقولُ أحدُهما: اللّهم أعْطِ مُنفقا خَلَفا، ويقول الآخَر: اللّهم أعطِ مُمسِكا تَلَفا**»: (أخرجه البخاري في الزكاة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رقم ١٤٤٢).

الوساوس الشيطانية، وبها يُتوصل إلى الأمر بالفعل، وهو ارتقاء إلى درجة ثانية في الوسوسة، تفضي إلى نتائج عملية مذمومة، كالتصورات الشريرة، وعبادة الأصنام، والفساد في الأرض...

الثاني: أن كلا من الوعد والأمر أفاد التسويل والإغراء، واقترن بالأمر المكروه، بيد أن الوعد تسويل بحصول الموعود به في الاستقبال، على سبيل التخويف منه. أما الأمر فإغراء للموعود بفعل المأمور به في الحال، على سبيل الاستعلاء.

فشأن الوعد: التسويل بحصول الموعود به في الاستقبال.

وشأن الأمر: الإغراء بفعل المأمور به وامتثاله في الحال.

والجمع بينهما في الآية الكريمة بقصد إظهار تكامل دلالتيهما في التعبير عن الوساوس الشيطانية المتدرجة مع نوازع النفس الإنسانية إلى المعصية.

وصفوة القول في علاقات الأمر في القرآن الكريم:

* إن البحث في علاقات المصطلح بمفاهيم: النهي، والوعظ، والإرادة، والحكم، والوعد، قد رسم شبكة دلالية متقاطعة الخيوط ومتغايرة الخطوط، أسهمت في تأكيد مفهوم الأمر، كما حُدِّد في التعريف، بما هو طلب إلٰهي يتم به التكليف بالدين، ودعاء إنساني إلى الخير وشيطاني إلى الشر، ومن ثم بينت بمزيد تفصيل الموقع التأسيسي للأمر الإلهي التكليفي، والموقع الرسالي للأمر الإنساني، والموقع التخريبي للأمر الشيطاني، كما تحدد بإجمال في ركن الخصائص.

* إن التركيز على علاقة المصطلح بهذه المفاهيم بالذات هو من باب التركيز على الأساس الذي يُبنى عليه ركن العلاقات، بما يسهم في إيضاح أهم المواقع التي يشغلها المصطلح داخل نسقه المفهومي، كما تبين. وإلا فإن ثمة علاقات بين الأمر ومصطلحات أخرى أرجئت دراستها إلى باب التفسير الموضوعي لكون تحليلها هناك أفيد في دراسة أغلب القضايا

المرتبطة بالأمر، وتشريح سماتها، وقياس امتداداتها، وبيان مرتبتها؛ وذلك مثل العلاقات الرابطة بين الأمر ومفاهيم: الخلق، والتكليف، والدين، والوسوسة، والسلطان، والتزيين، وغيرها من المفاهيم التي سيلقي تحليلها وتحليل علاقة الأمر بها مزيداً من الأضواء الكاشفة على موقع المصطلح داخل أسرته المفهومية، وعلى أبعاده وامتداداته الموضوعية.

وإذا كان من المفروض في منهج الدراسة المصطلحية دراسة امتدادات المصطلح المفهومية عبر القضايا، فمن المفروض قبل ذلك، دراسة امتداداته الاصطلاحية داخل ذاته، وهي الضمائم، وتشعباته المفهومية خارج ذاته، وهي المشتقات. ولإقامة هذين الركنين باعتدال قدر الإمكان، ندير دفة الكلام باتجاه الفصل التالي.



الفصل الثالث

ضمائم «الأمر» ومشتقاته



توطئة

لا يتأتى العلم بالمصطلح في دقائقه وجزئياته، والتعمق في معرفة أعماقه وتشعباته، بمجرد البحث في المقومات الدلالية لذاته: من تعريف، وصفات وعلاقات؛ بل لا بد في ذلك أيضاً من استقصاء امتداداته المفهومية داخل ذاته، وهي الضمائم؛ إذ بها يمتد المصطلح، ويطول عمره، ويكثر نسله، فيصير ذاتا جديدة، بدلالات خاصة، ومقومات خاصة. . .، وذلك كما يمتد كل إنسان ويطول عمره بأبنائه وأحفاده، فيرتقي من مستوى فرد أعزل عادي إلى مستوى الأب والأم أو الجدة والجد. . .!

فإذا انتهت الامتدادات المفهومية من الداخل؛ وجب الانتقال ـ ما أمكن ـ إلى استقصاء الامتدادات المفهومية من الخارج، وهي المشتقات؛ إذ بها يمتد المصطلح وينمو من خلال إخوة له في الاشتقاق، ينتمي وإياهم إلى أمومة الجذر اللغوي، وأبوة الجذر المفهومي، شأنه في ذلك كالشأن في كل شخص له إخوة وأقرباء، تضمهم قرابة الرحم من جهة الأب والأم.

وتأسيساً على أهمية دراسة هذه الامتدادات المفهومية؛ الداخلية والخارجية في الكشف عن نمو المصطلح وتشعباته، بما يضمن تجديد دلالاته وإطالة حياته؛ نسلط أضواء البحث والتحليل على ضمائم الأمر ومشتقاته في القرآن الكريم، وكأنها أحفاد وأبناء، وأشقاء وأقرباء لشخص قد تحددت ذاته، وتميزت سماته وشياته.



المبحث الأول:

ضمائم المصطلح

تمهيد

إن الناظر في القرآن الكريم يجد في معجمه الخاص، المشتمل على أفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، ذخيرة هائلة من التراكيب والأشكال التأليفية التي تنضم فيها المصطلحات إلى سواها (المضاف والمضاف إليه غالباً، أو الفعل ومفعوله، أو الأمثال السائرة جملة، وهلم جرا) لتشكل بنيات لغوية ثابتة، لا تتغير صورتها، ولا يتغير ما تقرر لها من الرتبة، ولتفيد معاني جديدة، لا تقتضيها في أصل وضعها، ولا تحتملها في حالة إطلاقها. ولأجل ذلك فإن التعرف على أمرة[1] المصطلح وكثرة نتاجه لا يكون بغير دراسته مضموماً إلى غيره أو مضموماً غيره إليه، وحين الدراسة تتكشف للدارس قيوده واختصاصاته، أو تشعباته وامتداداته، أو لطائفه وإيحاءاته، مما يعينه على تَبَيُّن وتبيين السمات الدلالية المكونة للمفهوم في حالة التركيب والاستعمال.

وانطلاقاً من هذه الأهمية البالغة التي تكتسيها دراسة الضمائم في

---

(١) وشاهد هذا الاستعمال قول العرب: «في وجه المال تعرف أَمَرَتَه، أي: زيادته ونماءه»: (التهذيب/أمر، عن الفراء)، ومثله: «ألقى الله في مالك الأمرة»: (أساس البلاغة/أمر).

القرآن الكريم، نخضع ضمائم الأمر في القرآن الكريم[1] لمبضع الدراسة

---

(١) أما في الحديث الشريف، فإن أكثر ما ضُم الأمر إليه هو الاسم الشريف، في صورته الظاهرة؛ كأمر النبي ﷺ، أو في صورته المضمرة؛ «كأمري» و«أمرنا» و«أمرِه». وتفيد سياقات ورود هذه الضميمة المعاني التالية:

* **التكليف بشرائع الدين**، وإلى هذا المعنى أشار حديث ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي ذر عقب إسلامه: «...**ارجع إلى قَومِك فأخبِرهُم حتى يَأتيك أمري**...»: (البخاري في (مناقب الأنصار) رقم: ٣٨٦١) وأخبر عطاء عن ابن عباس، قال: «كان ابن عباس... يأخذ ذلك ـ أي: الحل بعد الطواف ـ من أمر النبي ﷺ حين أمرهم أن يحِلوا في حجة الوداع»: (مسلم في الحج، رقم: ١٢٤٥).

* **شأن النبي ﷺ**، كالذي في حديث أبي سفيان، قال عن أمر رسول الله: «**ما زِلت ذَليلاً مُستَيقناً بأن أمرَه سيظهر حتى أدخل الله قَلبي إلى الإسلام وأنا كارِه**»: (البخاري في الجهاد والسير رقم: ١٩٤١).

* **عمل النبي وسنته**، وهذا المعنى هو الذي عناه البيان الشريف بمثل قوله من حديث عائشة: «**من أحدَثَ في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رَد**»: (البخاري في الصلح، رقم ٢٦٩٧) وإلى هذا المعنى أشار أبو بكر في حديثه إلى فاطمة (رضي الله عنها) حين سألته ميراثها من رسول الله ﷺ؛ إذ قال: «**لَستُ تارِكا شَيئا كانَ رَسُول اللّهِ يعمَل به إلا عمِلت به، فإني أخشى إن تركتُ شيئاً من أمرِه أن أزيغ**...»: (البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٣)، ومسلم في الجهاد والسير، رقم ١٧٥٩) ومما أضيف الأمر إليه، عدا ما تقدم:

* **المسلمون**: قال رسول الله ﷺ، عن معقل بن يسار: «**ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يَجْهَد لهم وينصح إلا لم يدخل مَعَهُم الجنة**»: (مسلم في الإيمان، رقم ١٤٢).

* **(اليهود)**: قال أنس مخبرا عن قيل اليهود، لما خالفهم رسول الله ﷺ فيما يحرم من المرأة في المحيض، وكانوا لا يؤاكلوها إذا حاضت: «... قال رسول الله: «**اصْنَعُوا كُلَّ شيء إلا النكاح**» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خَالَفَنا فيه...» (مسلم في الحيض، رقم ٣٠٢).

* **الجاهلية**: قال رسول الله ﷺ عن مالك الأشعري: «**أربعٌ في أمّتي مِن أمر الجاهِلية، لا يتركُونَهن: الفخرُ في الأحساب، والطَّعن في الأنسَاب**...» الحديث: (مسلم في الجنائز، رقم ٩٣٤).

* **المؤمن**: قال رسول الله ﷺ، عن صهيب: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمْرَه كلَّه خير**...»: (مسلم في الزهد والرقائق، رقم ٢٩٩٩).

* **العامة**: قال رسول الله ﷺ، عن أبي هريرة: «**بادِروا بالأعْمالِ سِتًا: طلوعُ الشّمسِ من مَغرِبِها، أو الدُّخان، أو الدَّجال، أو الدابة، أو خاصةَ أحدِكم، أو أمْر العامة**» (مسلم في الفتن وأشراط الساعة، رقم ٢٩٤٧).

=

المصطلحية، لنميط النقاب ـ كلما دعانا المقام ـ عن مفاهيمها وصفاتها وعلاقاتها وضمائمها، بشكل يكشف تغير المصطلح الأم عما كان عليه في حال إفراده، ويبرز نموه الذاتي بعرف الاستعمال القرآني.

وامتداداً لأهمية دراسة هذه الضمائم الاصطلاحية وإتماماً لعرضها، سنُتبع ذلك بعرض إضافات لغوية، لا تخلو من إفادات، وإن كانت لا ترقى إلى درجة الضميمة الاصطلاحية، وذلك ما تنتظمه مطالب هذا المبحث.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول: «أمر الله»

وهي أشهر ضمائم الأمر وأكثرها وروداً في القرآن الكريم؛ حيث جاء **«الأمر»** في صيغته المصدرية أو الاسمية مضافاً إلى اسم الجلالة ظاهراً: (أمر الله)[1] (أمر ربك)[2]، أو إلى ضميره عز وجل: (أمره)[3]

= * **الدنيا والآخرة**: قال رسول الله ﷺ، عن جابر: **«إن في الليل لساعة لا يوافقها رَجُل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه...»**: (مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٥٧).

* **الناس**: قال رسول الله ﷺ: **«لا يزال أمر الناس ماضياً ما وَلِيَهم اثنا عشر رجلاً...»**: (مسلم في الإمارة (١٨٢١)، عن جابر بن سمرة).

ومما ضُم إلى المصطلح في الحديث: **«ورطات الأمور»**، و**«شر الأمور»**. وقد تزاوجت الضميمتان مع معانيهما في سياق ورودهما، بصريح حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن خطبة رسول الله ﷺ؛ حيث قال: «...أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهُدَى هُدَى محمد **وشَرُّ الأمور** مُحدَثاتها...»: (مسلم في الجمعة ٨٦٧، وأخرجه البخاري في الاعتصام برقم ٧٢٧٧ من قول جابر، بألفاظ متقاربة) وكذلك حديث عبدالله بن عمر، قال: «إن من **وَرَطاتِ الأمور**، التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها، سَفْكُ الدم الحرام بغير حِلِّه»: (البخاري في الديات، برقم ٦٨٦٣).

(١) كقوله تعالى: ...﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾...: التوبة من الآية/٤٨.

(٢) كقوله: ...﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾...: هود من الآية/٧٦.

(٣) كقوله: ...﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾... الروم من الآية/٣٢ ولم يكد يرد الأمر إلا مسبوقاً بالباء، كما في هذه الآية، أو بـ«عن» كقوله تعالى من آية النور: ٦٣ ﴿فَلْيَحْذَرِ=

(أمرنا)[١] إحدى وخمسين مرة، في اثنتين وعشرين سورة مكية، وثماني سور مدنية. وهذا الاستقراء صريح الدلالة على أن أمر الله التكويني أكثر حضورا في القرآن الكريم من أمره التكليفي!... فهل في دراسة مفهوم الضميمة بمنهج الدراسة المصطلحية ما يؤكد هذه الدلالة العظيمة ويميط النقاب عن وجهها، ويضيء جانبا ـ على الأقل ـ من جوانبها؟ ذلك ما تنتظمه الفقرات التالية:

١. ١ ـ التعريف

١. ١. ١ ـ مفهوم الضميمة في اللغة

ذكر أرباب المعاجم من استعمال (أمر الله)[٢] في القرآن الكريم ثلاثة معان:

الأول: الإبداع، وإليه الإشارة في قول الراغب: «ويقال للإبداع أمر... ويختص ذلك بالله تعالى دون الخلائق... وعلى ذلك حمل الحكماء قوله من آية الإسراء: ٨٥ ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾...؛ أي: من إبداعه...»[٣].

الثاني: القيامة، قال الراغب: «وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾[٤] إشارة إلى القيامة فذكره بأعم الألفاظ...»[٥].

= ﴿ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾... ومعها آيات الأعراف/٥٣ ـ ٧٦.

(١) مثل آية القمر: ٥٠ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾.

(٢) انظر الاستعمال اللغوي الأول والثاني للأمر في مبحث التعريف: ص ٣٢ ـ ٣٤ وأصل (الله) إله بمعنى معبود. قال ابن فارس في المقاييس، مادة (أله): «الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التعبد. فالإله: الله تعالى، وسمي بذلك لأنه معبود» وجاء في المفردات/رب: «وأصل الرب: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام...» وفي القاموس: «ولا يطلق لغير الله تعالى».

(٣) المفردات/أمر وعمدة الحفاظ: ١٢٧/١ وبصائر ذوي التمييز: ٣٩/٢.

(٤) النحل/١.

(٥) المفردات/أمر.

الثالث: العذاب: وهذا المعنى نقله ابن منظور، عن الزجاج، حيث قال: «(أمر الله) ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم من أصناف العذاب. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾[1] : جاء ما وعدناهم به؛ وذلك قوله تعالى: ...﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾[2]، وذلك أنهم استعجلوا العذاب واستبطأوا أمر الساعة، فأعلمَ الله أن ذلك في قُربه بمنزلة ما قد أتى...»[3].

وربط الرازي بين معاني (أمر الله) ومذهب العرب في إطلاق سبب الشيء على الشيء، فقال: «فالعرب تقيم سبب الشيء مقام الشيء... والقرآن نزل بمذاهب العرب، فلما كان أمر الله تعالى سبب كل شيء، وبأمر الله كانت الأشياء كلها، سماها أمرا، فيجوز أن يقال: السماء أمر الله، والأرض أمر الله، والدين أمر الله، والقيامة أمر الله، والموت أمر الله، والعذاب أمر الله، وكل شيء هو أمر الله، لأنه بأمره كان، والأمر سببه، وهي كلمته التي كانت بها الأشياء كلها، وهي سبب بين الله وخلقه...»[4].

ولئن كان مفهوم الضميمة في اللغة هو هذه الشروح والنظرات اللغوية المذوقة، المستفادة من بعض آي القرآن ولغته، فما هو مفهومها في نصوصها جميعا؟ وهل في هذا المفهوم ما تشهد له تلكم النظرات؟ أم فيه ما يضيف إليها دلالات جديدة؟ هذا ما سنشرع بعدُ في بيانه:

---

(١) هود من الآية ٤٠.

(٢) يونس من الآية ٢٤.

(٣) اللسان والتاج/أمر.

(٤) كتاب الزينة: باب الأمر: ١٣٢/٢. ويتبين من قول الرازي أن إطلاق اسم أمر الله على الأمور المختلفة لشهرة هذا الاسم وصدقه عليها.

١. ١. ٢ ـ مفهوم الضميمة في اصطلاح القرآن الكريم

تتسلسل معاني الضميمة ـ على غرار ما تقدم[١] ـ حول قطبين:

الأول: معاني اسمية. ومدارها على معنيين كبيرين[٢]:

أ ـ المعنى الأول، وهو الشأن التدبيري؛ وقد اعتنى القرآن الكريم بتقريره وبيانه العناية الكبرى[٣]، بشكل كشف فيه عن الارتباطات الوثيقة بين الأقدار التي تصيب الإنسان وتقع في الكون وفق علم الله المطلق، وإرادته النافذة المتبدية في سننه الثابتة. وفي ظل هذه الارتباطات، يبدو أن كل حركة، وكل حادث، وكل حالة، وكل عاقبة، وكل نصر، وكل هزيمة... كلها مرتبطة برباط وثيق، محكومة بقانون دقيق، هو أمر الله وقضاؤه المخلوق بدون فعل من المخاطب أو قدرة أو إرادة أو وجود.

وفي إهاب هذا المعنى الكوني الكبير، تنضوي المعاني الفرعية لأمر الله، مُصَنَّفة حسب مجالات تعلقاته وأحوال وروده إلى: شؤون تتعلق بالخلق والتكوين، وشؤون تتعلق بالحكم والقضاء.

فبخصوص تعلقها بالخلق والتكوين، ورد أمر الله مقصورا عليه سبحانه بـ«إنما»، وموصولا بفعل الإرادة بأداة الشرط «**إذا**»[٤]، ومقرونا بـ«**ما**» النافية و«**إلا**» للاستثناء؛ بمعنى: **شأنه العظيم في الخلق والبعث بكلمة «كن»**، وذلك في سياق تحذيرالمشركين من مفاجأتهم بالعذاب في الدنيا وقيام

---

(١) سلف بيانها في مبحث التعريف. ونضيف إليها ـ هنا ـ التفصيل المناسب بتعريف الضميمة.

(٢) تقدما في مبحث التعريف، وسنبين هنا بياناً وافياً ما يندرج تحتهما من معاني فرعية.

(٣) بخلاف الحديث الشريف الذي اعتنى بشرائع الدين وسننه، كما تبين في أكثر من هامش بهذا البحث.

(٤) و«إذا» يقتضي حصول إرادة مستقبلية: (انظر مجموعة الفتاوى: ١٣٦/٦/٣). وقد تقدم استعمال هذا الظرف في نظائر نصوص المعنى، وهي آيات ... ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾، فلتراجَع للمقارنة في موضعها من المعنى الاسمي الثاني في مبحث التعريف.

الساعة في الآخرة، ودحض إنكارهم قدرة الله المطلقة على البعث، بنص آيتي[١]:

القمر: ٥٠ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾[٢]

يس: ٨٢ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾.

وورد أمر الله بصيغة المصدر المضاف إلى اسم الجلالة في صورته الظاهرة، بمعنى: **تكوين إسحاق بعد الإياس**، في سياق إنكار الملائكة على زوجة إبراهيم تعجبها من البشارة بالولد بعد الإياس، بصريح قوله تعالى من آية هود: ٧٣ ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، وأيضاً بمعنى: الموت، مقترناً بالفعل الماضي (جاء) المفيد للتحقق والوقوع، في سياق بيان عاقبة النفاق في الآخرة، تحذيرا للمنافقين منها وتحريضا للمؤمنين على الاعتبار بها، بصريح آية الحديد المدنية: ١٤ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾.

وورد أيضاً بمعنى: **القيامة**[٣]، في مقام التهديد والوعيد للمشركين

---

(١) والمعنى الذي حُدد آنفا هو الأنسب لسياق الكلام في الآيتين: (يراجع: التحرير: ٢٢٠/٢٧/١٣ ـ طبع سحنون ـ و: ٧٩/٢٣، وكذلك تفسير المراغي: ١٥٤/٢٢/٨، والمحصول: ١٨٧/١)، ويجوز أن يكون أمر الله فيهما بمعنى أمر التكوين، وهو المعبر عنه بكلمة «كن»، وإليه أشار الطبري في تفسير آية القمر: (الجامع: ١١١/٢٥/١٣) في قوله: **«وما أمرنا الشيء إذا أمرناه وأردنا أن نُكَوِّنه إلا قولة واحدة: كن فيكون...»** وكذلك ابن كثير في تفسير آية يس (٥٦٠/٣) في قوله: **«إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً، لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد...»**، ويدل لهذا المعنى إخباره تعالى عن نفسه بأنه متكلم بقوله في آية النحل ٤٠ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾. والمآل واحد على الوجهين؛ إذ الآيتان سيقتا لبيان شأن القدرة الكاملة على الخلق والبعث، وإفادة أن الأشياء كلها مسخرة لأوامره تعالى، وأن الله يفعل ما يريد بمجرد الأمر.

(٢) ونظير هذه الآية في تركيبها: آية النحل: ٧٧ ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

(٣) وهذا المعنى تجده شائعاً في تفسير المفسرين لآية النحل/١: (انظر: البحر: ٥٠٣/٦ والجامع للأحكام: ٦٦/١٠ ومجمع البيان: ٣٤٨/٦ ـ عن الجبائي وابن عباس ـ ولطائف=

باقتراب العذاب يوم القيامة، مع نهيهم عن استعجاله، بصريح آية النحل المكية: ١ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾...[١]؛ وفي التعبير بأمر الله عن القيامة[٢] قرب إتيانها إبهام يفيد تهويله وعظمته؛ لإضافته لمن لا يعظم عليه

= الإشارات: ٢٨٤/٢ والتصاريف/٢٣٣ والوجوه/٦٣ والأشباه/١٩٤ والمفردات/أمر). ويعضد هذا المعنى ما أشار إليه تعالى من اقتراب القيامة واستعجال المشركين لما أُنذروا به من العذاب حين مجيئها؛ كقوله في آية القمر: ١ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾، وقوله في آيتي النجم: ٥٧، ٥٨ ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾، وقوله في آية العنكبوت: ٥٤ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾، وقوله في آية الشورى: ١٨ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾.... ونظير هذا المعنى والتركيب في الآية، ما صرح به رسول الله ﷺ عن الحقيقة المستقبلية لأمة الإسلام التي سبق بها العلم: لا يَزال طائِفة مِن أُمَّتي ظاهِرين حَتى يَأتِيهم أَمرُ اللّهِ وَهمْ ظاهِرون: (رواه البخاري في الاعتصام، رقم ٧٣١١، من حديث المغيرة بن شعبة، وكذلك مسلم ـ بألفاظ مقاربة ـ في الإمارة (١٩٢٠) من حديث ثوبان). وعلاوة على هذه النصوص المرجحة للمعنى، فإن معظم أغراض سورة النحل زجر للمشركين عن الإشراك وتوابعه، وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك، وقد دل قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ على تقريعه المشركين ووعيده لهم بقرب الساعة ومجيء عذابهم.

(١) جوز بعض المفسرين أن يكون المراد بـ«أمر الله»، عدا ما تقدم: «عقاب الله لمن أقام على الشرك وتكذيب الرسول ﷺ»، عن الحسن وابن جريج: (حكاه أبو حيان في البحر: ٥٠٣/٦ والطبرسي في المجمع: ٣٤٨/٦). وقريب منه قول الزجاج، فيما نقله القرطبي عنه: «هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم»! وهو كقوله في آية هود: ٤٠ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: (الجامع للأحكام: ٦٥/١٠ وكذلك اللسان/أمر)، وهذا المعنى الذي ذكره المفسرون له وجه قوي ومعتبر؛ لأن استعجال العذاب وطلبه على وجه التحدي والعناد منقول عن كثير من كفار قريش وغيرهم، بدليل ما حكاه القرآن عنهم في آيات كثيرة، منها آية العنكبوت: ٥٣ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾... وآية ص: ١٦ ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾. وفسر الضحاك ومن وافقه «أمر الله» بفرائضه وأحكامه، وهو تفسير مردود، ولا وجه له. وقد رده الإمام بن جرير بقوله: ...«إنه لم يبلغنا أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ استعجل فرائض قبل أن تُفرض عليهم، فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءتكم فرائض الله، فلا تستعجلوها. أما مستعجلوا العذاب من المشركين فقد كانوا كثيراً»: (جامع البيان ٧٦/١٤/٨ وكذلك تفسير ابن كثير: ٥٤١/٢ والبحر: ٥٠٣/٦ وأضواء البيان: ١٩٠/٣).

(٢) وقد عبر عنه تعالى أيضاً بوعد الله تارات، وبأجل الله مرات، ونحو ذلك: (التحرير: ٩٩/١٤).

شيء، وزيد ترويعاً في النفوس، وتوكيداً على وقوعه في الزمن المقدَّر له عند الله تعالى؛ إسناده إلى فعل (الإتيان) ماضياً، تنزيلاً لتحقق وقوعه منزلة الوقوع[(١)]، ويرجح هذا الملحظ البياني أن النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنه غيب لم يأت بعدُ، فضلاً على أنه سبحانه قرَّب أمر الساعة، فجعله أقرب من لمح البصر لقرب تحققه، كما في آية القمر: ١ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾...، وفي آية النحل: ٧٧ ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾....

وقد يرد أمر الله مبهَما[(٢)] بمعنى: **بعض شؤونه سبحانه المختصة بعلمه.** ويتعين هذا المعنى في حالة اقترانه بحرف الجر «**من**»[(٣)] وبلفظ

---

(١) وحاصل هذا الملحظ البياني: أنه لما كان الأمر بالعذاب أو الساعة قضاء محقق الوقوع في المستقبل؛ كان بقوة الأمر الذي وقع فعلا ومضى، فناسب أن يُعبر عن هذا الأمر الذي سيتحقق حتما بالفعل الماضي الذي يدل على أنه قد وقع ومضى، وقد جاء هذا التعبير على مهيع الوضع العربي؛ إذ جرى أن يعبِّر العرب ... «عن الماضي والآتي كما يعبرون عن الشيء الحاضر، قصدا إلى إحضاره في الذهن، حتى كأنه مشاهد حالة الإخبار... مغني اللبيب ٦٩٠/٢ ومن هنا، كان التعبير عن المستقبل بصيغة الماضي كثير الورود في القرآن، ولا سيما في موقف البعث والقيامة كقوله في آية الزمر ٦٨ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾... وقوله في آية الأعراف: ٤٤ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾... وقوله في الزمر: ٦٩ ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾... وهذا التعبير يدل على أن القيامة وأحداثها غيب منتظر، به يكذب المشركون أشد التكذيب، وفي حصوله يشكون.

(٢) وبسبب هذا الإبهام، انقسم المفسرون بصدد تحديده إلى فريقين؛ فمنهم من حمله على المعنى المصدري، ومنهم من حمله على المعنى الاسمي، وسيأتي تحقيقه عند عرض نصوص المعنى.

(٣) و«من» للتبعيض، وعليه يتخرج أمر الله بالمعنى الاسمي الذي حددناه: (انظر ما يعضده في جامع البيان: ١٥٧/١٥/٩، تفسير آية الإسراء، وفي التحرير: ١٥٢/١٥، ١٩٨، تفسير آيتي الشورى والإسراء). ويجوز أن تكون «من» لابتداء الغاية، وهو الغالب عليها: (راجع مغني اللبيب: ٣١٨/١) فيكون أمر الله مراداً به المعنى المصدري؛ أي: بأمره، أو بأمرنا؛ كالذي في آية النحل/٤٠ المتقدمة: (انظر التحرير: ١٠٧/٢٤، تفسير آية غافر، وفتح البيان: ٣٢٢/١٢، تفسير آية الشورى).

(الروح) الذي فُسر على الحقيقة «**بما به حياة الإنسان**»[١] وعلى المجاز «**بالوحي والشريعة**»[٢]، يطرد ذلك ولا يتخلف في سياق الإخبار عن ماهية الروح ومصدر الوحي وحقيقته، بصريح الآيات المكية التالية:

الإسراء: ٨٥ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾...[٣].

---

(١) وهو الظاهر من معنى الروح في آية الإسراء، وعليه جمهور المفسرين: (انظر الكشاف: ٤٦٤/٢ والبحر: ١٠٧/٧ والجامع للأحكام: ٣٢٤/١٠ والتحرير: ١٩٧/١٥) وذلك لأن الروح التي في الجسد هو الأمر المُشْكِل الذي لم تتضح حقيقته للسائلين من كفار قريش بإيعاز من اليهود، كما يوضحه سبب النزول: (راجع تحريره في التحرير: ١٩٦/١٥). ومن ثم لا يُلتفت إلى الأقوال التي فُسر بها هذا اللفظ، والتي أنهاها أبو حيان إلى سبعين: (يراجع بعضها في: البحر: ١٠٧/٧ وجامع البيان: ١٥٥/١٥/٩ ومجمع البيان: ٤٣٧/٦).

(٢) انظر: (جامع البيان: ٤٦/٢٥/١٣ ومجمع البيان: ٣٧/٩، تفسير آية الشورى/٤٩، والكشاف: ٤١٩/٣ ومفاتيح الغيب: ٤٥/٢٧/١٣ والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٩/١٥ والتحرير: ١٠٧/٢٤، تفسير آية غافر/١٤).

(٣) أكثر المفسرين على أن «أمر الله» هنا، هو شأنه وما استأثر بعلمه دون خلقه. وأعم عباراتهم التي تنسجم مع إبهام الأمر في الآية قول الطبري: «وأما قوله: (من أمر ربي) فإنه يعني: أنه من الأمر الذي يعلَمُه الله تعالى دونكم؛ فلا تعلمونه ويعلم ما هو»: (جامع البيان: ١٥٧/١٥/٩) وأوضح منه قول القرطبي: ... «أي: هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى، مبهِما له وتاركا تفصيله؛ ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه، مع العلم بوجودها...»: (الجامع للأحكام: ٣٢٥/١٠ وكذلك تفسير ابن كثير: ٦٠/٣) وتأثر أبو حيان والرازي والطبرسي بفهوم الفلاسفة والمتكلمين، فذهبوا إلى أن معنى (من أمر ربي): من فعله وخلقه، كونها بأمره: (البحر: ١٠٧/٧ والمفاتيح: ٣٩/٢١/١١ والمجمع: ٤٣٧/٦) ويتخرج هذا المعنى على اعتبار أن الأمر بمعنى الفعل، ولا يصح هنا ـ والله أعلم ـ لأن الروح إنما حصل بقدرته لا بفعله، ثم إن المسؤول عنه ليس هو قدم الروح أو حدوثها؛ وإنما هو حقيقتها وبيان ماهيتها؛ لأن السائلين كانوا يعرفون الله وأنه الخالق للأحياء والأعلم بما خلق. وحمل الزمخشري أمر الله على معنى وحيه وكلامه: (الكشاف: ٤٦٤/٢) ويتخرج هذا المعنى على قول من قال: إن الروح هنا هو القرآن: (البحر: ١٠٧/٧). أما على القول المشهور فلا يجوز؛ لأن الروح من مخلوقات الله المكونة بأمره الذي هو كلامه، وليست من كلامه. ولعل معنى الشأن هو الراجح هنا؛ لأن عمومه يناسب الإجمال المراد في تعريف الروح، وسياق الآية في صرف السائلين عن مرادهم، وكأنه سبحانه يقول لهم: إن=

غافر: ١٥ ... ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾...[(١)]،

الشورى: ٥٢ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾...[(٢)].

ومما تقدم، يتبين:

* أن هذه الشؤون الربانية خصها الله تعالى بأن أضافها إلى اسمه الأعظم، إضافة تبين خصوصية خلقه وصنعه، وطلاقة مشيئته وإرادته، وشدة محبته لعباده، وهذا يدل دلالة قاطعة على علمه المحيط وسلطانه العظيم، ويكشف بوضوح عن نور منهجه المبين، ويدعو المعاندين إلى اتباع صراطه المستقيم.

* أن الروح النيرة التي بها حياة الناس الجسدية والمعنوية يرتبط جوهرها النفيس بأمر الله، وبما أنزله الله في قلوب أنبيائه وأوليائه من الإيمان الخالص، ومن ثم فهي تمتلك ماهية سامية شاملة، هي فوق ماهية الحياة والروح التي تدركها النفس العاقلة المتفاعلة مع عالم المادة والحس؛ إذ هي قانون أمري نوراني مشدود إلى عالم ما فوق المادة والزمان والمكان، ومرتبط بالثبات والبقاء والدوام بأمر الله وإذنه.

وبخصوص تعلقها بالحكم والقضاء، استُعمل أمر الله في معنيين:

أولهما: الهلاك، وهو أنواع:

** **هلاك الكفار من الأمم السالفة**[(٣)]. والأمر بهذا المعنى أضيف أكثر

= الروح من شأني ومن أسراري القدسية، فلا جدوى من إدراك حقيقتها...!.

(١) ويعضد المعنى الاسمي للأمر في الآية قول الطاهر بن عاشور: «أي: بعض شؤونه العجيبة التي لا يطلع عليها غيره إلا من ارتضى»: (انظر: التحرير: ١٠٧/٢٤).

(٢) فسر الطاهر بن عاشور أمر الله في الآية بالمعنى الاسمي ولم أجد ذلك عند غيره، وذلك في قوله: «ومعنى (من أمرنا) مما استأثرنا بخلقه وحجبناه عن الناس، فالأمر المضاف إلى الله بمعنى: الشأن العظيم...»: (التحرير: ١٥١/١٥ ـ ١٥٢). وحمل غيره (من أمره) على المعنى المصدري : (المجمع: ٣٧/٩ وفتح البيان: ٣٢٢/١٢).

(٣) ويعضد معنى الشأن الذي يصدق على الهلاك هنا، ما ورد في تفسير المفسرين: (يراجع=

ما أضيف إلى اسم الجلالة مضمراً؛ لتفخيمه وتهويله بأنه فوق ما يعرفون، واطرد استعماله مسنداً إلى الفعل الماضي (جاء)[1] تقريراً وتوكيداً لتحققه الفعلي[2]، وهذه الدلالة تتناسق مع ما يستهدفه القرآن الكريم من إثبات أمر الله وقضائه، والتصديق بوجوبه، مقابل نفي شك الشاكين في وقوعه

= مثلاً مفاتيح الغيب: ٢٣٣/١٧/٩ وروح المعاني: ٧٧/١٢/٧، تفسير آية هود/٤٠، وجامع البيان: ٦١/١٢/٧، والجامع للأحكام: ٥٤/٩، والبحر: ١٧٠/٦، تفسير آية هود/٥٧، والمجمع: ١٨٥/٥، تفسير هود/٨١، والبحر: ٢٠٧/٦، تفسير هود/١٠١) وهذا العذاب في آيات هود، التي نحن بصدد دراستها، عبارة عن حوادث نزلت بالكافرين؛ كحادث الطوفان أو الصيحة أو الريح العقيم... أو غيرها من الحوادث التي سماها الله أمرا على سبيل التعظيم والتفخيم: (ينظر مسميات العذاب في جامع البيان: ٣٨/١٢/٧ والتحرير: ٧٠/١٢، تفسير هود/٤٠، وتفسير ابن كثير: ٤٣١/٢، والتحرير: ١٣٠/١٢، تفسير هود/٥٧)، ويجوز أن يكون الأمر أمر تكوين حُذف متعلقه؛ أي: أمر الله أو قضاؤه بالعذاب والهلاك، وقد تكرر هذا المعنى في تفسيرات المتقدمين، وعلى رأسهم ابن جرير. (يراجع: جامع البيان: ٨٠/١٢/٧، و٩٣/١٢/٧ و١٠٨، تفسير آيات هود/٧٥، ٨١، ٩٤، وكذلك البحر: ١٧٠/٦، والكشاف: ٢٨٢/٢، تفسير آية هود/٥٧، والتحرير: ١٢٦/١٢، تفسير آية هود/٧٥)، ويحتمل أن يكون الملائكة مأمورون من عند الله بإنزال العذاب أمر تكليف كما في تفسير الرازي لآية هود/٧٥: (مفاتيح الغيب: ٣٨/١٨/٩).

وأمر التكوين أو التكليف يتوجه على اعتبار أن التركيز وقع على أمر الله من حيث هو أمر، بصرف النظر عن منفذه من ملائكة ونحوها، وعن متعلقه، وبماذا جاء! وهذا الملحظ البياني في استعمال أمر الله يتسق مع مساق آيات هود في ترويع المشركين بعذاب أسلافهم من المكذبين، لكي تذهب نفوسهم فيه كل مذهب، ويتمثل خيالهم هول المشهد. غير أننا إذا تدبرنا الملحظ الاستقرائي العام للفظ المجيء في حالة إسناده إلى أمر الله، نستشف أن استعماله يطرد في سياق التهديد بالعذاب، وأن دلالته على الفاعلية والشخوص تُناسب التعبير بأمر الله عن الشؤون العظيمة التي وقعت بأمر الله وتدبيره.

وبالجملة، فإن المتأمل في هذه المعاني جميعها، يخرج بخلاصة واضحة هي: أن أمر الله وقضاءه مضى في الكافرين بالهلاك، فحقت عليهم كلمة العذاب، فكانت كما أمر الله أن تكون.

(١) باستثناء قوله من آية هود: ٤٣ ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾....

(٢) أو قرب حدوثه، كما في آية هود/٥٧؛ لأن الإنجاء فيها كان قبل حلول العذاب: (يراجع التحرير: ٣٠٣/١٢).

وإنكار المنكرين لوعد الله وإعاده، بصريح آيات هود المكية: ٤٠ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾... ومعها: ٤٣، ٥٧، ٦٥، ٧٥، ٨١، ٩٤، ١٠١، وكذا آية المؤمنون/٢٧.

** **هلاك كفار قريش**: وهو الهلاك المرتقب الذي توعدهم به تعالى عقب اقتراحهم الآيات على صدق محمد ﷺ. ومن ثم، فإن هذا المعنى ظاهر في مقام التهديد والوعيد، بآيتي[1]:

غافر: ٧٨ ... ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾... والنحل: ٣٣ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾...[2].

فالأمر في الآيتين أضيف إلى اسم الجلالة في صورته الظاهرة، دلالة على ظهوره المناسب لغلبته سبحانه وانتقامه، وأسند إلى الفعل الماضي (جاء) المؤذن بتحقق العذاب، في سياق النفي بأسلوب (ما كان) المفيد للجحد أصالة؛ كما أسند إلى الفعل المضارع (يأتي) في سياق الاستفهام الإنكاري الذي في معنى النفي، دلالة على أن العذاب لا يزال غيباً منتظَراً، والكافرون له منكرون وبه يكذبون.

** **هلاك اليهود**[3]: ويأتي أمر الله بهذا المعنى مصدراً مضافاً إلى

---

(١) ومعهما في نفس مقامهما: آية الأنعام/٩. وقد تقدم تصنيفها ضمن المعنى الاسمي الأول للأمر في مبحث التعريف.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن أمر الله هو حشرهم لموقف القيامة أو هو يوم القيامة: (انظر: جامع البيان: ١٠٢/١٤/٨ وتفسير ابن كثير: ٥٤٩/٢، وحكاه القرطبي وأبو حيان قولاً ثانياً: الجامع للأحكام: ١٠٢/١٠، والبحر: ٥٢٧/٦) والراجح هو المعنى الذي سقناه، لدلالة (هل ينظرون...) عليه، والقوم لم ينتظروا القيامة لأنهم ما آمنوا بها، وكذلك لدلالة قوله بعدُ في نفس الآية: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ على أن الله تعالى حذرهم العاقبة التي آل إليها أسلافهم من الكفرة.

(٣) ويندرج في هذا المعنى: **معنى الغضب والسخط**، وجاء في سياق تهديد موسى لقومه عقب عودته من ميقات ربه، بصريح قوله تعالى على لسانه في آية الأعراف: ١٥٠ ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾. ويرجح هذا المعنى قوله في نظير هذه القصة في سورة طه: =

اسم الجلالة ظاهراً، في سياق الترغيب والترهيب، بصريح آية النساء: ٤٦ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾... ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

** **هلاك المنافقين والعصاة**: وأمر الله بهذا المعنى ورد مصدراً مضافاً إلى اسم الجلالة في صورته المضمرة، دلالة على تهويله، كما ورد في سياق التهديد للذين يؤثرون حب أهلهم وأموالهم على الجهاد والإنفاق في سبيل الله، من المخاطَبين بقوله تعالى من آية التوبة: ٢٤ ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، وقد أبهم الأمر[1] في هذا الوعيد المعرِّض بالمنافقين، لتذهب نفوسهم فيه كل مذهب محتمل.

ثانيهما: النصر:

ويأتي أمر الله بهذا المعنى مصدراً مضافاً إلى اسم الجلالة مضمراً، في سياق حض الرسول والمؤمنين على احتمال أذى أهل الكتاب واليهود منهم خاصة، بصريح آية البقرة: ١٠٩ ...﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[2].

= ٨٦، حكاية عن موسى: ...﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾...: (يراجع هذا المعنى في: مفاتيح الغيب، عن عطاء: ١٢/١٥/٨، والجامع للأحكام: ٢٨٨/٧، والتحرير: ١١٥/٩، وفي الظلال: ٦٤٦/٣، وأضواء البيان: ٢٩٨/٢) ويجوز أن يراد بالأمر هنا: المحافظة على الشريعة وانتظار رجوع موسى: (انظر الكشاف: ١١٩/٢، وتفسير المنار: ٢٠٧/٩، وجامع البيان: ٦٤/٩/٦) والأوضح هو المعنى الأول لاتساقه مع ما ذكر في آية طه، وملاءمته لغضب موسى وسخطه على قومه.

(١) لذلك لم يخصص جمهور المفسرين لفظ الأمر بأية صورة من صور العقوبة؛ كالقتل، أو الجزية، أو نحوهما؛ وإنما حملوه على مطلق العقوبة والنكال: (انظر: روح المعاني: ١٠٤/١٠/١٦، وتفسير ابن كثير: ٣٢٨/٢، ومجمع البيان: ١٢/٥، وفتح البيان: ٢٦١/٥...). أما من فسر وخصص لفظ الأمر بفتح مكة، فقد ذهل؛ لأن سورة التوبة نزلت بعد الفتح: (جامع البيان: ٩٩/١٠/٦، عن مجاهد، والبصائر/٤١ والأشباه/١٩٤ والوجوه/٦٣ والأسماء والصفات/٢٩٥).

(٢) وبسبب الإبهام في الأمر بالآية، اختلف المفسرون بصدد تعيينه، فذهب جمهورهم إلى أن الأمر أمر تكليف، وهو أمر الله بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وإذلالهم=

ومن مجموع نصوص المعنى، يتبين:

* أن تدبر الاستعمال القرآني لفعلي «**المجيء**» و«**الإتيان**» في سياقات ورودهما مسندين إلى أمر الله، يهدي إلى اختلاف دقيق بينهما في الدلالة، وهو أن المجيء تصاحبه معاني: اليقين والعلم والتصديق وتحقق الوقوع[1]، والإتيان تحيط به معاني: الشك والغموض والتكذيب والغيب[2].

= بالجزية؛ كقوله في آية الحشر: ٢ ...﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾...: (البحر: ٥٥٩/١ وفتح البيان: ٢٥٢/١ والأشباه/١٩٤ والبصائر/٤١ والوجوه/٦٣). وعبر بعضهم عن الأمر بآية السيف، ويعنون آية التوبة/٢٩ التي فيها حكم الجزية. وبناء على هذا التفسير، قال كثير من العلماء: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف: (ينظر: جامع البيان: ٤٩٠/١/١، عن ابن عباس وتفسير ابن كثير: ١٤٦/١ ومفاتيح الغيب ـ نقلا عن أكثر الصحابة والتابعين ـ : ٢٦٥/٣/٢). والتحقيق الذي عليه الأصوليون والمفسرون المتأخرون أن هذه الآية من قسم المخصوص بغاية، لا من قسم المنسوخ: (أضواء البيان: ٧٢/١ والإتقان: ٢١/٢). وذهب بعض المفسرين وخاصة المتأخرون منهم إلى أن الأمر في الآية أمر قضاء وتدبير، وهو النصر: (تفسير المنار: ٤٢١/١ وتفسير المراغي: ١٦٠/١/١ والتفسير الكبير: ١١٢/٥). وهذا المعنى أنسب بلفظ الإتيان الذي يكاد يطرد استعماله في حالة إسناده إلى الأمر، في أمر التكوين والتقدير، كما يغلب أن يُعبَّر به عن غيب لم يُحدد زمانه؛ كما هو الحال هنا. وقد يكون المعنى ـ علاوة على ما تقدم ـ جامعاً لأمر التدبير والتكليف؛ إذ أن نصر الله للمسلمين لا يأتي في الغالب إلا مشروطاً بأسبابه، وهي هنا: مجيء أمر الله وإذنه بترك العفو وقتال اليهود. وقد أتى أمر الله وتحقق نصره بقتل اليهود وإجلائهم من المدينة، بعد أن غدروا ونقضوا العهد بموالاة المشركين. وبالجملة فإن قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ غاية مبهمة للعفو والصفح تطميناً لخواطر المأمورين حتى لا ييأسوا من ذهاب أذى المجرمين لهم بطلاً، وهو كقوله تعالى في آيتي الأنفال المتقدمتين: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

(١) لذلك عبر القرآن الكريم بالمجيء في آيات هود عن حصول عذاب الاستئصال وتحققه يقيناً، فضلاً عن علم المشركين بأخباره وآثاره، كما قال تعالى مخاطباً لهم، ومخبراً عن مصير قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ الصافات: ١٣٧، ١٣٨.

(٢) كما في آيات النحل/٣٣ والبقرة/١٠٨ والتوبة/٢٤. فالإتيان بالأمر في هذه الآيات غيب آت، لم يحدَّد زمانه، وأحاط به تكذيب الكافرين والمنافقين وشكهم في حصوله، جهلاً منهم بصدق وعد الله ووعيده. ومن ثم أبهم الأمر في هذه الآيات للإنذار والتهديد.

* أن أمر الله بالمعاني المتقدمة، ينقسم إلى ضربين:

أحدهما: ما يكون بخلق مباشر من الله تعالى؛ كالموت الذي لا صلة لاختيار الإنسان به؛ وإنما هو أمر حتم يباغته، بحيث لا يمكنه تلافيه.

ثانيهما: ما يتم خلق الله له من خلال إرادات الناس واختياراتهم؛ كالعذاب، والنصر، والهزيمة...، وغيرها من الشؤون الكونية التي تنزل جبراً من السماء إلى الأرض، وتصيب الإنسان بناء على أفعاله الاختيارية، ضمن حكمة لله بالغة، ووفق سنة في خلقه جارية.

ب ـ **المعنى الثاني، وهو الشأن التكليفي**، ففي إهابه استعمل أمر الله مصدراً مضافاً إلى اسم الجلالة في صورته الظاهرة، مقترناً بفعل **(الظهور)** ماضيا، في سياق الإخبار عن دأب المنافقين في إيقاع الفتنة في المسلمين وتفريق شملهم، تسلية للرسول والمؤمنين عن تخلفهم عن غزوة تبوك، بصريح آية التوبة: ٤٨ ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

كما استعمل في مقام بيان أحكام الله تعالى في الطلاق والرجعة والعدة، بآية الطلاق: ٥ ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾...، وفي مقام إرشاد المسلمين إلى قاعدة تشريعية للحكم في النزاعات، والفصل في الخصومات، بآية الحجرات: ٩ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾...، ومعها آية التوبة/١٠٧.

وفي ضوء ما تقدم، يتبين:

أن في اطراد إضافة اسم الجلالة في صورته الظاهرة إلى الأمر في صيغته المصدرية، إيماء إلى أن المأمور به من شؤون الدين إنما يُكلف به العباد بأمر الاسم الأعظم؛ ذلك الأمر الذي نزل من السماء هدى لتنوير الأرواح، وتوجيه الإنسان نحو الرقي والكمال، ومنحه السعادة في الدارين. ومن ثم، فهو أمر دائم لا يزول ما دامت السماوات والأرض، وقائم لا يحول حتى يأتي أمر الله ولو كره الكافرون.

الثاني: معاني مصدرية:

وقد استُعمل الأمر مصدراً مضافاً إلى اسم الجلالة في صورته الظاهرة أو المضمرة؛ كـ(أمر الله) و(أمرنا) و(أمر ربك) و(بأمره) و(أمر ربهم)[١].

أ ـ بالمعنى الأول: وهو طلب يتم به التكليف. والمأمورون به أنواع ثلاثة: الإنس والجن والملائكة.

* **تكليف الإنس.** والأمر بهذا المعنى اطرد مجيئه مسبوقاً بحرف **«عن»** المتضمن للاستعلاء والإعراض[٢]، ومقترناً بفعل **(العتو)** ماضياً[٣]؛ في مقام الاعتبار بهلاك القرى الظالم أهلها عامة وقوم ثمود خاصة، بسبب كفرهم وعصيانهم لأوامر الله ورسله، بصريح آيات: الأعراف: ٧٧ ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾. . . والذاريات/٤ ـ بلفظ فعتوا ـ ومعهما آية الطلاق: ٨ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾. . . .

والملحظ الاستقرائي لسياق هذه الآيات التي أضيف فيها (أمر الرب) إلى ضمائر الغيبة يفيد أن هذه الإضافة مقصود بها التقرير والإلزام؛ لأن العاتين عن أمر الله ما قدروا الله حق قدره، إذ جحدوا ربوبيته بالعصيان، تعنتاً واستكباراً.

---

(١) وهذه الشواهد على الترتيب من آيات النساء/٤٧، وهود/٦٦ ـ ٧٦ والحج/٦٥ والأعراف/٧٧.

(٢) يراجع مغني اللبيب: ١٤٧/١ والتحرير: ٢٢٦/٩ وجامع البيان: ٢٣٢/٨/٥، تفسير آية الأعراف/٧٦.

(٣) ودلالته على الاستكبار والتجبر والطغيان تناسب مقام الحديث عن الأمم الغابرة ومخالفتها لأوامر الله: (ينظر: جامع البيان: ٥/٢٧/١٣، ومجمع البيان: ١٥٩/٩، وروح المعاني: ٢٤٥/٨/٥، والكشاف: ٩١/٢، والجامع لأحكام القرآن: ٢٤٠/٧، ومفاتيح الغيب: ١٧٢/١٤/٧، وأضواء البيان: ٣٦٧/٨ وتفسير المنار: ٥٠٦/٨). واطراد مجيء هذا الفعل متعدياً بـ«عن» مقروناً بـ«أمر ربهم» أو «أمر ربها»، كما في آيتي الأعراف/٧٧ والطلاق/٨، فيه دلالة على أن هذا التركيب يتميز بثبات شكله ومعناه، بحيث لا يغني غيره غناءه في إفادة شدة الاستكبار عن امتثال أمر الله والاستعلاء على الحق والتبجح في العصيان.

* **تكليف الجن ومنهم إبليس**[١] ويتعين هذا المعنى في سياق التحذير والتعجيب من اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله، بسبب فسقه عن أمره، بصريح آية الكهف: ٥٠ ...﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾. وإضافة الأمر في هذه الآية إلى (ربه) دون الضمير (أمره)، فيه إيماء إلى تفظيع فسق الشيطان عن أمر الله بأنه فسق عبد عن أمر من تجب عليه طاعته؛ لأنه مالكه.

* **تكليف الملائكة. و«أمر الله»** لم يرد بهذا المعنى إلا في آيتي:

مريم/٦٤: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، في سياق بيان أن نزول الملائكة بالوحي لا يكون إلا بأمره وإذنه.

الأنبياء/٢٧ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٢]، في مقام نفي دعوى العرب في بنوة الملائكة لله سبحانه!

ويستفاد من إضافة الأمر في صورته المصدرية إلى اسم الجلالة في الآيتين:

* أن الملائكة يعملون بأمر الله وحده، لا بحولهم و قوتهم، ولا بأمر سواه[٣]؛ لأن الله تعالى هو الذي يملك كل شيء من أمرهم وأمر الكون كله.

---

(١) ويمكن أن يُلحق بهذا المعنى: **تكليف الله الجن بطاعة سليمان**، وهو معنى يؤذن به سياق التسخير في آية سبأ: ١٢ ...﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وإيثار إضافة الأمر - هنا - إلى الضمير (نا) دون (ربه) ترشيح لما في قوله (امرنا) من التعظيم الموجب لزيادة الخوف. وفي ذلك إشارة إلى تعذيبهم إن هم عصوا الأمر.

(٢) عبَّر بالأمر هنا بدلا من القول، لمناسبة ذلك لمقام عبودية الملائكة لله تعالى؛ إذ كلامهم قول وكلامه أمر، وقد فسر القرطبي «الأمر» بالطاعة؛ وذلك في قوله: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بطاعته وأوامره»: (الجامع للأحكام: ١١/٢٨١) والراجح أن الطاعة ليست هي الأمر من حيث إنه أمر، وإنما هي امتثال الأمر. ويدل لذلك قول الراغب في معناها: ... «أكثر ما تقال في الائتمار لما أمره...»: (ينظر: المفردات/طوع).

(٣) يشهد لهذا المعنى تقديم الجار والمجرور على الفعل في آية الأنبياء لإفادة قصر جنس «الأمر» عليه سبحانه!.

* أن عملهم بأمر الله ثابت وقائم في كل لحظة من لحظات صدوره، لشدة طاعتهم له وتوغلهم في امتثال أمره.

ب ـ **بالمعنى الثاني: وهو طلب يتم به التدبير.** وأمر الله بهذا المعنى يأتي مصدراً مضافاً إلى اسم الجلالة، في صورته المضمرة، ومجرورا بباء السببية، يطرد ذلك ولا يتخلف في جل آياته، وهي ثماني آيات، معظمها مكية؛ كآيتي الأعراف: ٥٤ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾...[1] والجاثية: ١٢ ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[2].

وتدبر هذه الآيات يفيد بأن الأمر الإلهي فيها من أمر التكوين والتدبير؛ لأن المأمورات من الموجودات، عدا الإنس والجن، تسير في هذا الكون بسلسلة من الأوامر التكوينية[3] المتبدية في السنن الكونية، وتدار تحت قيادة

---

(١) ومعها نظيرتها آية النحل/١٢.

(٢) وعلى منوالها نُسجت آيات: إبراهيم/٣٢ والروم/٤٦ والحج/٦٥.

(٣) وهذه الحقيقة الكونية الضخمة التي يحفل القرآن الكريم بإشعارها للنفوس وتعميقها في القلوب، تقتضي ـ بالبداهة ـ أن الموجودات في هذا الكون حية واعية، وكلها تدرك عن ربها، وتُسخر بالأوامر الإلهية وتستخدم في الأفعال الربانية، وهذه الأوامر تنطلق دفعة واحدة في كل لحظة من لحظات هذا الوجود، لا يعجزه تعالى شيء عن شيء، ولا يمنعه أمر عن أمر؛ بل إن الجزئي والكلي، والكبير والصغير من أي شيء كان، ومن كل شيء، مسخر لتعليمات تلك الأوامر، يتلقى ويستجيب، ويمضي حيث أُمِر كما يمضي الأحياء في طاعة الله، وفق سنته التي فطر عليها الكون. وقد صرح القرآن الكريم بسلسلة من أوامر الله التكوينية النافذة؛ كقوله تعالى للسماء والأرض عند إيجادهما: ...﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: فصلت/١١، وقوله لهما في زمن الطوفان لما قضي الأمر: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾: هود/٤٤. وسيأتي عرض المزيد من الشواهد على تلكم الأوامر في باب التفسير الموضوعي. ويؤيد هذه الحقيقة المعجزة من البيان الشريف قوله ﷺ عقب حديثه عن رجل أمر أهله بإحراقه بعد موته، وذر رفاته في البر والبحر؛ لأنه لم يعمل حسنة قط: «...**فأمَر اللّهُ البر فَجَمعَ ما فِيه، وأَمَر البَحرَ فجَمعَ ما فِيه**...»: (رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٦) وكذا=

رب العالمين طائعة منقادة لها، خاضعة بمقتضاها على وجه التسخير، بدون قدرة منها أو إرادة. ومن هنا، فإن أمر الله لم يرد بهذا المعنى إلا مختصا به سبحانه دون الخلائق، ومقترناً بآيات وحدانيته وقدرته وعلمه؛ كالخلق، والتسخير، والإذن، والإمساك، والقيام... في مقام الامتنان على خلقه لهدايتهم إلى حقيقة ربوبيته، وتوجيههم إلى شكره وعبادته[1]، ولا يُستثنى من هذا المقام إلا آية الأحقاف: ٢٥ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[2]؛ حيث

= البخاري ـ بألفاظ مقاربة ـ في أحاديث الأنبياء، رقم (٣٤٨١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه).

ومن هنا، لا يهون أبدا أن نردد مع الرازي قوله: «إن الأفلاك والكواكب جمادات»: (مفاتيح الغيب/١٠/٢٠/٦، تفسير آية النحل/١٢)، ولا أن نسقط في شرك ثنائية الحقيقة والمجاز التي تخبط فيه الأصوليون والمفسرون، ولا سيما متكلموهم، فنقول مع الزمخشري في تفسير قوله من آية الأعراف/٥٤ ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾: «... سمى ذلك أمرا على التشبيه كأنهن مأمورات بذلك...»: (الكشاف: ٨٢/٢) أو نذهب مع الرازي ـ نقلا عن أكثر المسلمين ـ إلى أن لفظ الأمر بمعنى الشأن والفعل، وأنه حُمل في آية النحل/١٢ على الخلق والتقدير: (مفاتيح الغيب ١٠/٢٠/٦ وكذلك ١٢/٢٣/٦٤، تفسير آية الحج/٦٣. وكذلك يُراجع الخلاف الأصولي الشهير حول إطلاق «الأمر» على غير القول؛ كالفعل: هل هو حقيقة أم مجاز أم مشترك لفظي، ويُنظر في الأدلة التي ساقها أرباب الخلاف، والتي منها نظائر هذه الآية، وهي: الأعراف/٥٣ والحج/٦٥، وذلك في المظان التالية: المحصول: ١٨٥/١، ١٨٦، ١٨٧، والمعتمد: ٤٧/١، ٤٨، والإحكام: ٨/٢).

(١) وشبيه بهذا المقام مقام آية الروم: ٢٥ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾...، وذلك من جهة تعداد نعمه سبحانه على مخلوقاته، وتذكير الغافلين عنها والجاحدين بها، إلا أنه هنا يختص بسوق النعمة، وهي قيام السماء والأرض بأمره، مساق الاستدلال على قدرته تعالى الخارقة على البعث؛ إذ أن القادر على إمساك السماوات والأرض بالأمر لا يشق عليه خلق الإنسان وإحياؤه بنفس الأمر بعد أن يبلى جسده وتَرُم عظامه.

(٢) وإنما أوردتها ضمن نصوص المعنى، على فرادة سياقها؛ لأن الريح فيها مثلها مثل عناصر الكون المسخرة بأمر الله، مأمورة من لدن خالقها بالتدمير، وقد جاء هذا التدمير بخلاف السنن الكونية في نظام الريح وبخلاف ما ألفه الناس من عادات هبوبها، ومن منافعها، وهذا كله يجعل الأمر في الآية مغايراً للأوامر المتقدمة؛ إذ يتجه إلى الإعدام لا إلى الإيجاد كسابقيه، وذلك بسبب كفر الإنسان وعصيانه لأوامر ربه.

وردت في سياق الاعتبار بهلاك قوم عاد. وانسجاماً مع دلالة هذا السياق، أضيف الأمر إلى لفظ (الرب)، بدلاً من ضمير (الهاء)، كما في جل الآيات؛ لقصد ما في إظهار اسم الجلالة من تربية المهابة في نفوس المُعَرض بهم من مشركي قريش؛ ليعلموا أن الريح قد دمرت قوم عاد مسخرة بأمر ربها وربهم، فلا يسعهم إلا أن يطيعوه كما أطاعته، وأن يقروا بربوبيته كما أقرت بها حين أدت ما أُمرت به!

ومن مجموع نصوص (أمر الله) بالمعاني المتقدمة، يستفاد:

* أن الضابط الأسلوبي لأمر الله التكليفي والتكويني هو حرفا الجر: **(عن)** و**(الباء)**؛ فحيثما جاء أمر الله مسبوقاً بـ**(عن)**، **فهو من أمر التكليف** للإنس والجن. ويعزز هذا الضابط اقترانه بأفعال الاستعلاء والاستكبار؛ كـ (الفسق) و(العتو) و(المخالفة) و(الزيغ)، وهذا يؤكد إرادة الإنسان الحرة، والتي من شأنها أن تختار الطاعة أو المعصية، دون إجبار من قوة ضاغطة، كما يؤكد ما يقرره القرآن الكريم في مواضع شتى من آياته[١]، من طغيان الإنسان وغروره وجهله وكفره، وسائر ما يتصل بدفين صفاته وخفي نوازعه.

وحيثما جاء أمر الله مسبوقاً بـ **(الباء)، فهو من أمر التكوين والتدبير**، الذي ينفذ في الملائكة والسماوات والأرض، ويستدعي الطاعة الفورية، وهذا يدل على أن تلك المخلوقات، على ضخامتها وإسناد الأفعال الظاهرة إليها، كـ (الجريان) و(القيام) و(التدبير)...؛ غير مستقلة في حركتها وفعلها عن الفاعلية الإلهية، ولا مشاركة للصانع الحكيم، ولا هي وسائط بينه وبين

---

(١) كقوله تعالى في آية العلق: ٦ ﴿كَلَّا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾، وقوله في آية النحل: ٤ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾، وفي آية الأحزاب: ٧٢ ...﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، وفي آيتي عبس: ١٧ ـ ٢٣ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾...﴾. وهذه الآيات وغيرها تفيد أن أغلب دوران لفظ الإنسان في القرآن على الشر.

عباده؛ بل هي منقادة غاية الانقياد لربوبيته، ومفتقرة إلى إرادته وقدرته، وأقصى مقاصدها هو إظهار جمالها وكمالها، تعريفاً بعظمة موجدها واجب الوجود، وتسبيحاً بحمده، وجلباً لأنظار أولي الألباب إلى مطالعة أسمائه الحسنى، وصرفاً لأنظار الغافلين من الأسباب إلى مسبب الأسباب.

* أن معظم ما ورد من تسخير الله الموجودات بأمره للإنسان، ورد مسنداً إليه سبحانه في جانب الإحسانات العظيمة، ووفق سنته الإلهية التي فطر عليها الكون، وأن ما جاء من هذا التسخير بخلاف تلك السنن، في جانب العذاب والنقمة لم يوقف له على ذكر في غير آية الأحقاف، وهذا يشير أن الغالب في المنهج الدعوي القرآني أن يُعَرف الله عز وجل خلقه به ربا رحيماً، وصانعاً حكيماً، ترغيباً لهم في أن يعبدوه[1]؛ فلا غرو إذن أن تسبق رحمته غضبه، مصداقا لقوله تعالى في آيتي الحجر: ٤٩، ٥٠ ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

تلكم كانت أهم المعاني التي أمكن تصنيف ما يتصل بضميمة أمر الله إليها، وهي في جملتها تؤول إلى معنى كلي يجمعها، وهو: **الشأن الرباني المتعلق بالخلق تدبيراً وتكليفاً.**

وإن هذا المعنى الجامع لتصرفات الألوهية وإجراءات الربوبية، ليدل دلالة واضحة على أن إضافة الأمر إلى اسم الجلالة **إضافة حقيقية**؛ لأن الأمر كله لله، والآمر الحقيقي المطلق المالك لأمر التدبير والتكليف هو الله جل جلاله، وجميع مخلوقات الكون تنفذ بكمال الامتثال أوامره التي تصدر مباشرة من فوق عرش ربوبيته؛ فيُجري بها الأمور العظام ويُكَون الحوادث الجسام، دون حجاب الأسباب وتحت ستارها، ومن وراء مخلوقات ذوي مقام، في مقدمتها الملائكة والأنبياء.

---

(١) إن تدبراً يسيراً لأول ما نزل من الهدى في الآيات الخمس الأولى من سورة العلق يهدي بوضوح إلى هذه الحقيقة التي جعلها الله محوراً مهماً لربوبيته.

١. ٢ ـ الصفات

١. ٢. ١ ـ (الفعل)

اقترن (أمر الله) بصفة (الفعل)[١] في صيغتها الاسمية، في آيتي:

الأحزاب: ٣٧: . . . ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ النساء: ٤٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

وتدبر سياق الآيتين يفيد، أن الآية الأولى وردت في مقام تقدير الله المحقق بتزويج النبي ﷺ من مطلقة دعيه «زيد» لإبطال عادة التبني، وأن الآية الثانية وردت في سياق وعظ اليهود[٢] وترغيبهم في الإيمان بالله ورسوله، من قبل أن يُمضِي الله فيهم أمره بالطمس أو اللعنة.

* **مفهوم الصفة:**

وانسجاماً مع سياق تحقق قدر الله وقضائه، ترد صفة (**مفعولاً**) بمعنى: «. . . مخلوقاً، موجوداً، لا يمتنع عليه خلق شيء شاء خلقه»[٣]، «ولا يتعذر عليه شيء يريد أن يفعله، كما تقول في الشيء الذي لا شك في

---

(١) انظر ما تقدم من تعريفها في اللغة في مبحث الصفات. أما في القرآن الكريم، فتأتي صفة (مفعولاً) مسبوقة بـ«كان» خمس مرات ـ عدا آيتي الأنفال/٤٢، ٤٥ ـ صفة لأمر الله ووعده، بمعنى **تحقق ما سبق به التقدير من الأمور في الأزل**، وهذا المعنى ظاهر في الآيتين قيد الدرس، وفي مثل آية المزمل: ١٨ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾.

(٢) ذهب جمهور المفسرين إلى أن الخطاب في الآية ليهود بني إسرائيل الذين كانوا حوالي مهاجر رسول الله ﷺ: (انظر ما في: جامع البيان: ١٢١/٥/٤، والبحر المحيط: ٦٦٧/٣ والتحرير: ٧٨/٤).

(٣) جامع البيان: ١٢٥/٥/٤ وكذلك فتاوى ابن تيمية: ٢٤٥/٨/٤ وتفسير المنار: ١٤٦/٥ وتفسير المراغي: ٢٣١/٢/٢.

حصوله: هذا الأمر مفعول وإن لم يُفعل بعدُ...»[١]، وهذا يعني أن الشأن الرباني التكويني، محقق الوقوع، مقضي مقدر، سواء صدَر الأمر به عند نزول النص فتحقق؛ كزواج النبي ﷺ من زينب، أو أنه سيتحقق حتماً في الزمن المقدر لوقوعه؛ كعذاب الطمس أو اللعنة الذي أُنذر به اليهود[٢]؛ ذلك بأن ما هو محقق الوقوع مستقبلاً بقضاء الله السابق هو بحكم الواقع فعلا. ومما زاد معنى الصفة فاعلية إسناد فعل (الكون) إلى أمر الله، دلالة على كينونته الدائمة، وتحققه الحتمي في الأزل[٣].

* من دلالات الصفة:

ونستوحي مما سبق، أن وصف أمر الله بصفة الفعل أفاد أن الحوادث والأشياء كلها قد أُحكمت في كتاب، قبل وجودها، فصارت أمرا محقق الوقوع في علم الله سبحانه!

كذلك فإن هذه الصفة ميَّزت أمر الله بأنه نافذ، لا ناقض لوقوعه، فهو فوق العادة والعُرف[٤]، وفوق الأسباب الظاهرة ومسبباتها[٥]، بخلاف أمر المخلوقات الذي قد تعيقه الموانع وتنقضه المؤثرات وترده الشروط والأسباب! وهذا التمييز لأمر الله دون أمر سواه ينسجم مع ورود الصفة في القرآن الكريم، صريحة الاختصاص بأمور الباري تعالى وأفعاله ووعده[٦].

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٢٨/١٠/٥.

(٢) ويشهد لقوة هذا النذير وحتمية وقوعه، الفزع الذي أصاب اليهود لما نزلت الآية؛ ومن ذلك ما رواه ابن جرير ـ بإسناده ـ أن كعباً سمع رجلاً من أهل حمص حزيناً، وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية فقال كعب: «يا رب آمنت، يا رب أسلمت، مخافة أن تصيبه الآية...»: (جامع البيان: ١٢٤/٥/٤).

(٣) ويعزز هذا المعنى قول الزمخشري في تفسير آية النساء: «فلا بد أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا ـ يعني: الطمس أو اللعنة ـ»: الكشاف: ٥٣٢/١.

(٤) وكذلك كان أمر زواج النبي ﷺ من زينب؛ إذ هو زواج عُقد بعقد سماوي، وبحكم القدر الإلهي المحض، فهو عقد خارق للعادة والعُرف.

(٥) كتحويل الوجوه أقفاء، أو مسخها قردة في عذاب الطمس واللعنة.

(٦) كما تبين من استقراء موارد الصفة في القرآن آنفاً.

١. ٢. ٢ ـ القدر المقدور

وُصف أمر الله بالقدر المقدور، من القَدْر[١]، في سياق نفي الحرج والإثم عن النبي ﷺ في زواجه من مطلقة متبناه زيد، في آية الأحزاب: ٣٨ ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

*** مفهوم الصفة في الآية:**

التفت الراغب إلى سر المخالفة في التعبير بلفظي (القدر) ـ وهو مصدر ـ و(المقدور) ـ وهو اسم مفعول ـ ؛ حيث قال: «فقَدَر إشارة إلى ما سبق به القضاء والكتابة في اللوح المحفوظ... والمقدور إشارة إلى ما يحدث عنه حالاً فحالاً مما قُدِر، وهو المشار إليه بقوله: ...﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[٢][٣]».

وتدبر سياق الآية والآيات بعدها[٤] يرجح ما ذهب إليه الراغب، ويفيد في تحديد معنى الصفة، فهو يقرر ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ الآية[٥]، أن زواج النبي ﷺ من زينب[٦] هي قضية القدر الإلهي المحض؛ إذ أبرم الله فيه حكمه وأمره في اللوح

---

(١) جاء (القَدْر) في اللغة بمعنى: «**مبلغ الشيء وكنهه ونهايته**... يقال: قَدْرُه كذا؛ أي مبلغه، وكذلك القَدَر»: (مقاييس اللغة/قدر) وفي الاصطلاح، بمعنى: «**الحد المحدود في الشيء حساً ومعنى**»: (التوقيف/٥٧٥) وفي اصطلاح القرآن الكريم، بمعنى: **تعيين ماهيات الكائنات وصفاتها وأفعالها، قبل خلقها، على وفق الحكمة**، ومنه قوله تعالى في آية القمر: ٤٩ ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ ويس: ٣٨ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ والحجر: ٢١ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

(٢) الرحمن من الآية: ٢٧.

(٣) المفردات/قدر.

(٤) سنبسط القول في هذا السياق، في دراسة علاقة أمر الله وسنته.

(٥) الأحزاب من الآية: ٣٦.

(٦) وهو شأن من شؤون الله التدبيرية والتكليفية.

المحفوظ، وحدد زمانه ومكانه وفق سابق إرادته الحكيمة وعلمه المطلق[(١)]، وقد قدر الله أسباب هذا الزواج وأجراها شيئاً فشيئاً؛ فشاء تعالى أن يتزوج زيد زينبا، ثم شاء أن يطلقها بعد أن ساءت العشرة بينهما، ثم حكم الله على نبيه أن يتزوجها؛ لعلمه سبحانه بأن ذلك لائق برسوله، وعلمه بالغاية التي يريدها منه. ولذلك كان هذا الزواج أمراً مقدوراً، نافذاً، حالاً بعد حال وفق ما سطره الله في علمه[(٢)]، وبناء على حكمة سامية، هي إبطال آثار التبني عملياً.

وتأسيساً على ما سبق، يكون جماع معنى الصفة: **وكان أمر الله محدد المقدار في الأزل بإحكام**، منظوراً فيه إلى الغاية التي أرادها الله منه وعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها، فلم يكن بد من نفاذ أمر الله بتقدير أسبابه وإجرائها وفق تلك الغاية.

١. ٣ ـ العلاقات

١. ٣. ١ ـ «أمر الله» و«إذنه»

تجاورت ضميمتا «أمر الله» و«إذن الله» في آيتي:

غافر: ٧٨ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

الحج: ٦٥ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾.

(١) وهذا المعنى يتسق مع ما تقدم من الاستعمال القرآني للقدر (ينظر هامش ١ ص٢٢١).

(٢) ولعل هذا المعنى هو الذي عناه البوطي بقوله في تعريف القدر: «... القدر ليس أكثر من وقوع الأشياء مطابقة لعلمه»: (الإنسان مسير أم مخير: ص ٤٧).

ولدقة الفرق بينهما جوز بعض المعجميين والمفسرين الترادف بينهما:

فابن فارس يقول: «...وفَعَلَه - يعني: الأمر - بإذني؛ أي: بعلمي، ويجوز بأمري، وهو قريب من ذلك...»[١]. ويفسر الراغب قوله تعالى من آية النساء: ٦٤ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾...: بإرادته وأمره[٢]. ويقول الطبرسي عند تفسير آية غافر: «إلا بإذن الله وأمره»[٣].

ومجيء اللفظين على هذا النحو من التجاور في الآيتين يدل على اختلاف في معناهما. ولعل الاستئناس بالبيان اللغوي «للإذن» والاستعمال القرآني «لإذن الله» يفيد في الكشف عن أسرار العلاقة بين الضميمتين.

*** مفهوم الإذن في اللغة:**

«الإذْن» و«الإيذَان» مصدر[٤] أذِن بالشيء[٥]، ويدور معناه في اللغة على **العلم والإعلام**[٦] ومنه «الأُذُنُ: **الجارحة**... وأذِن بمعنى **استمع**...

---

(١) المقاييس/أذن، ولعل هذا القرب في المفهوم بين اللفظين يتجسد بوضوح في قول رسول الله ﷺ، في سياق حديثه عن واجبات المرأة المسلمة إزاء زوجها: «**لا تصُم المرأة وبَعلها شَاهِد إلاّ بإذنِه، ولا تَأذَن في بَيته وهُو شاهِد إلا بإذنِه، ومَا أنفَقَت من كَسْبِه من غير أمرِه، فإن نِصْف أجْرِه له**»: (مسلم في الزكاة/١٠٢٦ من حديث أبي هريرة) والمتأمل في هذا الحديث يلحظ - بيسر - أن ثمة فرقاً دقيقاً بينهما، يتلخص في كون الرسول عبَّر عن الرخصة في الفعل بـ(الإذن) في حال مخصوصة، هي: شهود الزوج وحضوره، في حين عبر بـ(الأمر) في حال مخصوصة، وهي: غياب الزوج؛ لأن الإنفاق غالبا ما يكون في خفاء بين طرفين: المنفِق والمنفَق عليه.

(٢) المفردات/أذن.

(٣) مجمع البيان: ٥٣٣/٨، وكثيراً ما يفسر صاحب المجمع الإذن بالأمر. وانظر كذلك: الوجوه والنظائر للدامغاني/٢٦.

(٤) المقاييس/أذن.

(٥) القاموس/أذن.

(٦) حكاه ابن فارس أصلاً ثانياً للمادة، ومعه: الأُذُن، أصلاً أولاً. والأصلان - على حد=

واستُعمل ذلك في **العلم** الذي يُتوصل إليه بالسماع»[١]. تقول العرب: «قد أذِنت بهذا الأمر، أي: **علمت**، وآذنني فلان: **أعلمني**»[٢]، ثم استُعمل في **الخطاب بإباحة الفعل على طريقة المجاز**[٣] قال الراغب: «والإذن في الشيء: **إعلام بإجازته والرخصة فيه**»[٤].

*** مفهوم «إذن الله» في القرآن الكريم:**

ويملحظ من الدلالة اللغوية على العلم والإعلام بالشيء والخطاب بإباحة فعله، يأتي «إذن الله» في القرآن الكريم في ثمانية وثلاثين موضعاً، مقترناً بباء السببية، مراداً به على المجاز معنيان[٥] مختلفان ومتكاملان:

الأول: إذن التكوين[٦]، وهو ما كونه الله من أسباب الحوادث الخارقة

= تعبيره ـ «متقاربان في المعنى، متباعدان في اللفظ، وعنهما يتفرع الباب كله» والأرجح، والله أعلم، أن الأول أُخِذ منه الثاني، لأن بالأُذُن يُتوصل إلى علم كل مسموع.

(١) المفردات/أذن. والفرق بين الإذن والعلم عند الراغب هو الفرق بين العام والخاص، يقول: «فإن الإذن أخص، ولا يكاد يستعمل إلا فيما فيه مشيئة به راضيا منه الفعل أم لم يرض...».

(٢) المقاييس/أذن.

(٣) بعلاقة اللزوم؛ لأن الإصغاء إلى كلام المتكلم يستلزم الإقبال عليه وإجابة مطلبه. وشاع ذلك حتى صار الإذن أشيع في معنى الخطاب بإباحة الفعل. وبذلك صار لفظ الإذن قابلاً لأن يستعمل مجازاً في معاني من مشابهات الخطاب بالإباحة (يراجع التحرير: ٣١٢/٢/٢ (طبع سحنون)، تفسير آية البقرة /٢١١).

(٤) المفردات/أذن، ومن هذه الدلالة جاء الإذن في الشرع بمعنى: «فك الحجر وإطلاق التصرف لمن كان ممنوعاً شرعاً»: التعريفات/١٦، ومثله ما في التوقيف على مهمات التعريف/٤٧.

(٥) وإليهما أشار ابن تيمية في تفريقه بين الإذن الكوني والإذن الديني: (الفتاوى: ٢٤٩/٢/١) ومما يضاف إليهما، ولم يبلغ درجتهما، مجيء إذن الله على أصله من الإباحة والرخصة في مقام إثبات شفاعة محمد، وإبطال معتقد أهل الجاهلية في شفاعة الأصنام، بآية الكرسي، ومعها آيتا: يونس/٣ وهود/١٠٥: (يراجع هذا المعنى في مجموعة الفتاوى: ٢١٤/١٤/٧).

(٦) وإذن التكوين هو الذي يرادف الأمر الكوني بالمعنى الذي سلف بيانه في تعريف الضميمة.

للعادة، ويندرج في تلك الحوادث: المعجزات التي أيد الله بها رسله في زمن الرسالات[(١)]، وكذلك ما كونه سبحانه من الأسباب[(٢)] التي تفضي في العادة إلى وقوع الحوادث الكونية والدنيوية، وهي من آثار صنع الله في نظام العالم، وعليه فما كان من استمرار الأسباب المودعة في نظام الكون، فهو بمشيئته وتكوينه؛ كالذي في آية الحج، وما أصاب البشر من التقلبات الدنيوية؛ كالموت، والحياة، والنصر، والهزيمة... فبإذن الله ومشيئته وتقديره للأسباب[(٣)].

الثاني: إذن التشريع، وهو الذي أمر الله تعالى به وشرعه لعباده، قصد امتثاله وإصلاح أحوالهم به في الدنيا والآخرة[(٤)].

*** العلاقة من خلال الآيتين:**

إن التماس العلاقة بين «**أمر الله**» و«**إذنه**» في الآيتين لا يتم بغير التدبر الواعي لروابطهما الدلالية والمنطقية داخل الجمل، مع مراعاة مقامهما ونسقهما التركيبي، وعليه فإن هاتين الآيتين مكيتان. أما آية غافر فتأتي في سياق تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين، والرد على مجادلة المكذبين في

---

(١) كالذي في آيتي: سبأ: ١٢ ... ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾...، وآل عمران: ٤٩ ... ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾....

(٢) لما كان الله تعالى هو الذي أوجد الأسباب وأسباب أسبابها، وكان قد جعل ذلك كله أصولاً وفروعاً بعلمه وحكمته، أطلق على ذلك التقدير والتكوين لفظ الإذن.

(٣) وهذا المعنى ظاهر في مثل آيات: البقرة: ٢٤٩ ... ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾...، وآل عمران: ١٤٥ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾...، وآل عمران: ١٦٦ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾...، والتغابن: ١١ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.... ومن نظائرها في آيات الأمر: البقرة/١٠٨ والمائدة/٥٤ والتوبة/٢٤.

(٤) ومثله ما في آيات: النساء: ٦٤ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾...، والأحزاب: ٤٥، ٤٦ ... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾، والحشر: ٥ ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.... ونظائرها في آيات الأمر: الأنبياء/٧٣ والسجدة/٢٤.

الآيات، وإنذارهم بالعذاب الأليم بعد ظهورها[١].

وأما آية الحج فتأتي في مقام استعراض أدلة كمال علمه وقدرته تعالى وعظيم منته وحكمته، ضمن مشاهد الكون وسننه المطردة التي هي آثار خلق الله، وأمره، وإذنه؛ وذلك لاستجاشة القلوب ولفت الأنظار للتدبر.

فالمقام في الآية الأولى ينبئ عن اعتراض المشركين على الرسالة والرسول[٢] بأنه لم يأت بخارقة مادية، فأجيبوا عنه ببيان حقيقة الرسالة، وتأكيدها بأسلوب النفي: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾... فالرسل بشر من الناس، ليس لهم من الأمر شيء[٣]، ووظيفتهم تنتهي عند حد البلاغ. ومن ثم، فالمجيء بالآية ليس إليهم، ولا من أمرهم؛ بل هو أمر يتولاه الله حينما يشاء ويأذن، حتى يلوذ عباده المختارون بفضيلة الصبر والتوكل، ويروضوا أنفسهم عليها، وينفسح المجال لتوبة العصاة والمكذبين.

وبهذه الآية أبطل الله مقترحات المشركين الثاوية في السياق. ثم تلا هذا الإبطال سرعة الجزاء، بالتفريع الذي في قوله تعالى: «فإذا جاء أمر الله...» فدل في هذا المقام على أن أمره التكويني بخلق آية وإظهارها هو إذنه؛ وإنما عدَل عن (إذن الله) إلى (أمر الله) للإيماء بأن ما سيُظهره من

---

(١) وهذا السياق يتسق مع سياق آية الرعد/٣٨، ومع سياق الحواميم السبعة المتتالية في ترتيب نزولها، وفي ترتيب المصحف، وهي سور: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، وفيها جميعاً احتجاج للقرآن، ورد على جدل المشركين فيه بالباطل، وإنذار لهم بمثل ما حاق بالذين كذبوا من قبلهم بآيات الله وجادلوا فيها، فأُخذوا أخذاً وبيلاً....

(٢) وهذا الاعتراض حلقة من سلسلة طويلة من مجادلات المشركين؛ كقولهم في آية الأنعام: ٩١ ...﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾... وقولهم في الآية/٨ من نفس السورة: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾... وفي آية الفرقان: ٨ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ فدُمغت مزاعمهم بأوضح بيان وأقوى برهان، كما قال تعالى في آية الفرقان: ٣٣ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

(٣) نظير قوله مخاطباً نبيه في آية آل عمران: ١٢٨ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

الإذن لمحمد ﷺ هي آيات عقاب لمعانديه[١]، وليست آيات من مقترحاتهم. ولعل ذلك ينسجم مع ما بيناه من اطراد مجيء (أمر الله) في معنى الشأن القاهر للناس[٢]، المناسب لجحود المشركين وتكذيبهم، فكان التعبير به هنا بدلا من «إذن الله» وفق دلالة سياقه.

وثمة ملحظ آخر في وجه ارتباط الجملتين في الآية، وهو التلازم الكائن بين حصول إذن التكوين للآيات المؤيدة لصدق الرسول، ومجيء أمر الله وقضائه بهلاك المكذبين ونصر المؤمنين، ولو بعد حين؛ ذلك بأن الله سبحانه قد قضى بأن يدمر على المكذبين بعد ظهور الآيات[٣]؛ وإنما كان التأخير في هذه الأمة، لإسلام من علِم الله إسلامه منهم، ولمن في أصلاً بهم من المؤمنين، ولإرادته تعالى انتشار دينه.

وفي ضوء هذا، يتبين في هذا المقام أن أمر الله يلازم إذن الله ويرادفه من وجه؛ إذ يلزم من وقوع إذن التكوين للآيات مجيء أمر الله التكويني بالهلاك، وكل منهما تكوينُه وخلقه، ومن ثم فهما يشتركان في إفادة معنى التكوين للآيات، ولكن التكوين فيهما يختلف في غايته، فيتجه إذنه التكويني للآيات إلى إثبات صدق الرسول عند تحدي المنكرين له، في حين يتجه أمره التكويني بخلق آيات العذاب إلى عقاب المكذبين والانتصاف منهم بالحق.

---

(١) ومنها آية الجوع سبع سنين حتى أكلوا الميتة، وآية السيف يوم بدر؛ إذ استُأصل صناديد المكذبين من أهل مكة، وآية السيف يوم حنين؛ إذ استأصل صناديد أهل الطائف، وآية الأحزاب/٩، التي قال الله فيها: ... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾....

(٢) فسر كثير من المفسرين أمر الله بالقيامة، نظير ما فسروا به «أمر الله» في آية النحل/١: (ينظر: الكشاف: ٤٣٨/٣ ومجمع البيان: ٥٣٤/٨ ومفاتيح الغيب: ٩٠/٢٧/١٤ وأضواء البيان: ٩٨/٧). والظاهر ـ حسب السياق ـ أنه وعيد بعذابهم وهلاكهم عقيب اقتراح الآيات: (يراجع: جامع البيان: ٨٧/٢٤/١٢ والجامع للأحكام: ٣٣٤/١٥ وفي الظلال: ٢٠٩/٧).

(٣) وهذه سنته عز وجل التي جرى بها أمره الكوني في هلاك المكذبين من الأقوام الغابرة؛ كعاد، وثمود، والمؤتفكات....

ومما يعضد هذه العلاقة مجيء (إذن الله) و (أمر الله) في تركيب متماثل، وهو المصدر المضاف إلى اسم الجلالة في صورته الظاهرة، فدل ذلك على أن كلا من الإذن والأمر لله تعالى، إلا أن الإذن جاء تكوينا من الله للآيات وإعلاما للرسول ﷺ بأن ستكون آية، ملحوظا فيه معناه اللغوي والاصطلاحي القرآني. أما الأمر فجاء قضاءً وتقديراً من الله بإظهار الرسول آية تكون عقابا لمعانديه. وحصول كل من إذن الله وأمره يؤذن به فعلاً (الإتيان) و(المجيء) المتقاربان في المعنى[١]، والمستعاران لإظهار الآيات في أوانها وفق مشيئته تعالى وحكمته. والمتأمل في نسق الجملتين المشتملتين على إذن الله وأمره يقف على هذا التقارب والتلازم بينهما؛ ذلك بأن أسلوب النفي بـ(ما كان) في الجملة الأولى يدل على المبالغة في النفي[٢]، والتي يقويها أسلوب الاستثناء بـ«إلا»[٣]، كما يدل على الجحد أصالة، وهو يناسب حال المعاندين الذين يجادلون في آيات الله ويقترحون المعجزات على سبيل التعنت، لشك في نفوسهم.

وعليه، تأتي الجملة الثانية تفريعاً على الأولى لتلوح بالجزاء على هذا

(١) وليسا متطابقين في ترادفهما، كما ظن ابن منظور: (يراجع اللسان/ «ج ي أ»، و«أ ت ي»)؛ لأن الاستعمال القرآني لهما ـ كما مضى ـ يهدي إلى أن لكل منهما معناه الخاص ودلالته الفارقة: (تراجع الشواهد على ذلك ضمن تعريف ضميمة أمر الله، ص ٢١١ وفي: الترادف في القرآن الكريم، من ص ١٤٦ إلى ص ١٥١). ونحن لو عرضنا اللفظين في الآية على هذا الاستعمال القرآني الخاص لكليهما، لوجدنا أن الإتيان بالآيات لا يزال غيباً منتظراً، والكافرون في شك منه، وتكذيب له، وجهل بعاقبته التي تنتظرهم فيما لو أتى وتحقق، وهي مجيء أمر الله، وهذا المجيء محقق الوقوع، لا تشوبه شائبة من شك أو تردد؛ لأن الله تعالى قضى بالهلاك على الأمم البائدة عقب تكذيبهم بالآيات التي طلبوا من الرسول الإتيان بها برهانا على صدقه، على وجه التحدي.

(٢) والمعنى: أن شأنك شأن من سبقك من الرسل، لا يأتون من الآيات إلا بما آتاهم الله.

(٣) وهي ظاهرة أسلوبية تكاد تطرد في آيات (إذن الله)، كما تبين من دراسة مفهوم الضميمة في القرآن الكريم.

الجحود، وعبرت عن تحققه يقيناً في المستقبل بالظرف «إذا»، وبالفعل الماضي (جاء) الذي يفيد أن أمر الله في وقوعه بمنزلة ما قد جاء.

أما المقام في الآية الثانية، وهو مقام امتنان واستدلال؛ فيوجه نظر المتأملين في الكون إلى تسخير الله ما في الأرض للإنسان، وذلك بما أودعه فيها من سنن مطردة ترتبط فيها الأسباب بالمسببات، وتوافق فطرة الإنسان وطاقاته الصالحة للتعرف على نواميسها وأحوالها، ومن ثم استغلال ما فيها من خيرات. فتوافُقُ نواميس هذه الأرض وفطرة هذا الإنسان هو الذي سخر الأرض وما فيها لهذا الإنسان، وهو من أمر الله التكويني؛ أي: من تدبيره وتصريفه لنظام الموجودات كلها[١]، وفي ضوئه نفهم قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ الآية، فجريان الفلك في البحر واستمرارُه، وهو المعنى الذي توحي به صيغة المضارع، ويأذن به ما خلقه الله ويسره من أسباب الجريان ونواميسه[٢]؛ كجعل البحر صالحا لحمل السفن، وتعليم الإنسان كيف يصنعها، وكيف يهتدي إلى نواميس جريانها، فيسخرها لمنفعته، «ولو اختلفت طبيعة البحر أو طبيعة الفلك، أو لو اختلفت مدارك هذا الإنسان... ما كان شيء من هذا الذي كان»[٣].

وباستصحاب هذا المعنى الكوني الكامن في تسخير الفلك للإنسان، نفهم الإذن الوارد في الجملة المعطوفة على المتقدمة: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾.... فالله الذي سخر للناس ما ظهر على وجه الأرض من موجودات، سخر لهم أيضاً ما في السماوات من مخلوقات بالإمساك المنوط بقدر الله، كما أشار إليه قوله: (بإذنه)؛ أي: تقديره ومشيئته وتكوينه، وهذا يعني أن النظام الكوني الذي خلق الله الكون وفقه،

---

(١) مضى بسط ذلك ضمن المعنى المصدري الثاني من معاني ضميمة أمر الله: ص ٢١٥.

(٢) كثيراً ما يميل المفسرون إلى تفسير أمره هنا بتسخيره وتيسيره وتذليله: (انظر تفسير ابن كثير: ٢٢٦/٣، وجامع البيان: ١٩٧/١٧/١٠). وهو تفسير مقبول من جهة كون جريان الفلك في البحر هو مظهر تسخيره وتذليله؛ إذ لولا الإلهام إلى صنعها على الصفة المعلومة لكان حظها من البحر الغرق.

(٣) في الظلال: ٦٢٥/٥.

وحكَّم فيه السنن التي تحفظه من الفساد، قد يتعرض في كل لحظة للزوال لولا إمداد الله إياه بمقومات الوجود والاستمرار[١]. ومن ثم، يأتي فعل «يمسك» بصيغة الاستمرارية، دلالة على قيومية الله تعالى، «فالله يمنع ما في السماء، على اختلاف محامله، من الوقوع على الأرض، بفعل ذلك النظام الحارس، إلا وقوعاً ملابساً لإذن من الله تعالى»[٢]، وذلك حين يشاء تعطيل النظام المحكم يوم القيامة[٣]، أو حين يأذن بوقوع ما في السماء من القوى؛ كالمطر، والشهب، والصواعق، والنيازك على الأرض. مما اعتاد الناس إذنه بوقوعه، وما لم يعتادوه؛ كتساقط الكواكب[٤].

وانسجاماً مع ما دلت عليه الضميمتان في سياقهما الدلالي الكوني يتبين:

أن الله تعالى عبر **«بالأمر»** عن صنعه وتدبيره وتصريفه لنظام الكون في مجال معين، هو تسخير الفلك للإنسان[٥]، في حين عبر **«بالإذن»** في مجال أرحب وأوسع، عن مشيئته لوقوع السماء على الأرض، وذلك بخلقه وتكوينه لأسباب ذلك الوقوع[٦] الذي يمنعه النظام الحارس للكون، وهو من أمره وتدبيره. ومن هنا، فإن كلا من **«الأمر»** و**«الإذن»** يتفقان في كونهما من

---

(١) دل على هذا المعنى ما ورد في نظائر الآية، نحو قوله تعالى في آية فاطر: ٤١ ... ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾... وقوله في آية الروم: ٢٥ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾... فوجود الشيء مكاناً وزماناً في لحظة ما، لا يقتضي حتمية وجوده في اللحظة التالية، إلا بمشيئة الله تعالى....

(٢) وهو اختيار الطاهر بن عاشور: ٣٢٤/١٧/٨.

(٣) وهو ما يوحي به تفسير سيد قطب للآية: ٦٢٥/٥ ومثله ما في: أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق/٧٨.

(٤) التحرير: ٣٢٤/١٧/٨ (بتصرف).

(٥) ويتكرر هذا المظهر من التسخير في القرآن المكي، في مثل آيات: الجاثية/١١ وإبراهيم/٣٤ والروم/٤٥.

(٦) وهو الذي جرى عليه عرف الاستعمال القرآني «لإذن الله».

تكوين الله وصنعه، ومن ثم فهما يتفقان في إفادة معنى تكوين الأسباب وتقديرها، ولكن التكوين والتقدير فيهما يختلف في دلالته ومظهره؛ فالتكوين في «إذنه» تكوين أسباب سقوط السماء على الأرض في أية لحظة من لحظات الوجود، وهو مظهر تسخير ما في السماوات لمصلحة الناس بالإمساك المنظم المتعلق بإذنه، وعليه فإن وقوع السماء على الأرض هو استثناء بالمشيئة، وإمساكها عن الوقوع هو بسبب ذلك النظام الرباني المطرد الذي خلقه الله، والذي هو من أمره وتدبيره.

وبتعبير آخر، فإن تسخير ما في الأرض والسماوات للإنسان إنما هو تسخير بأمره، واستمرار هذا الأمر، الذي هو وضع نظام يحمي الكون من الاختلال، مرهون بمشيئته وإذنه. فتتمحض العلاقة بينهما في الآية **للترادف والتكامل.**

١. ٣. ٢ ـ أمر الله وسنته

اجتمعت الضميمتان في آية الأحزاب: ٣٨ ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾. والفرق بينهما دقيق، نمهد لتبيينه بتحديد مفهوم **«سنة الله»** لغة، وشرعا، واصطلاحا قرآنيا.

١. ٣. ٢. ١ ـ مفهوم سنة الله

*** في اللغة:**

تفيد مادة «سَنَّ» في اللغة معنى **«جريان الشيء واطراده في سهولة»**، ومنه قولهم: «سَنَنْت الماء على وجهي أسُنه سناً، إذا **أرسلته** إرسالاً... والحمأ المسنون من ذلك، كأنه قد صُب صبا»[1]

(١) المقاييس/سن.

«وسَنُّ الحديد: **إسالته وتحديده**»[١] و«سَنَن الطريق: **نهجه وجهته**»[٢] و«جاءت الريح سَنائِن، إذا جاءت على **طريقة واحدة**»[٣] وسُنة الوجه: **طريقته**[٤].

* في الاصطلاح العام:

ومن هذا الجريان والاطراد الملحوظين في الاستعمالات الحسية للمادة، قيل لطريقة النبي في الدين سُنة[٥]؛ لأنها **تجري** جريانا[٦] والمراد بها: «**ما أمر به ﷺ أو نهى عنه، أو ندب إليه، قولاً وفعلاً**، مما لم ينطق به الكلام العزيز. ولهذا يقال: أدلة الشرع: الكتاب والسنة؛ أي: القرآن والحديث، وفلان مُتَسَنِّن؛ أي: عامل بالسنة»[٧].

وعليه، فإن السنة بالمعنى العرفي لا تكاد تطلق إلا على سنة رسول الله ﷺ، فهل ورد في القرآن الكريم ذكر لهذه الكلمة مضافة إلى اسم الجلالة؟ وبأي المعاني وردت؟

---

(١) المفردات/سن.

(٢) القاموس المحيط/سن.

(٣) المقاييس/سن. وفي القاموس: «وجاءت الريح سَنَاسِن».

(٤) المفردات/سن.

(٥) والخلاف في أن لفظ السنة عند الإطلاق يقع على سنة الرسول، أو يحتمل سنته أو سنة غيره؛ وعليه جاء في الكليات: ٣/٩، ١٠ «السنة شرعاً: اسم للطريقة المرضية المسلوكة في الدين... إما للرسول بقوله وفعله، أو للصحابة. وعند الشافعي مختصة بسنة رسول الله ﷺ...».

(٦) المقاييس/سن.

(٧) بصائر ذوي التمييز: ٣/٢٦٧ وانظر كذلك: كشاف اصطلاحات الفنون: ٢/٧٠٣. والسنة بهذا المعنى ترادف أمر رسول الله ﷺ في الحديث الشريف، كما تبين ضمن تعريف ضميمة «أمر الله» (ص ١٩٨، هامش ١).

*** في اصطلاح القرآن الكريم:**

وردت ضميمة سنة الله في القرآن الكريم تسع مرات، واقترنت في معظم آياته بالإشارة إلى الأمم الماضية، في سياق بيان سنن التاريخ الكونية[(١)]، وانتفى عنها التحويل والتبديل بحرفي (لن) و(لا)[(٢)]، دلالة على المبالغة في اطرادها وثباتها، كذلك اقترنت بذكر ما شرعه الله للأنبياء في سياق بيان سنن التاريخ الشرعية[(٣)]؛ كالذي فرضه الله لنبيه ﷺ من زواج زينب في آية الأحزاب.

وتأسيساً على استقراء أحوال الورود وسياقاته، تأتي ضميمة سنة الله، بملحظ لغوي من جريان الشيء واطراده ووحدة جهته في الاستعمال الحسي، بمعنى: **عادة الله وطريقه العامة التي يجري بها أمره الكوني والشرعي في خلقه**[(٤)] ويمكن تشقيق هذا المعنى وفق سياق الآيات إلى معنيين:

أحدهما: طريقة الله التي يجري بها أمره الكوني في خلقه، ومن ذلك:

* **إهلاك المكذبين**[(٥)] من الأمم السالفة بعذاب الاستئصال؛ مثل: عاد

---

(١) كالذي في آية الأحزاب ومعها في نفس السياق ضميمة «سُنة الأولين»، في مثل آيات الكهف/٥٤، وتعني: «طريقتهم في تكذيب الرسل والاستخفاف بهم»: (كما في التحرير: ٣٥٠/١٥/٧) ومعها أيضاً لفظ «سُنَن» الذي فُسر «بسنن الله في الأمم الماضية»: (انظر: التحرير: ٩٧/٤/٣) ويرد جمعاً منكراً في آية آل عمران: ١٣٧ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وقد يرد مضافاً إلى ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ في مثل آية النساء: ٢٦.

(٢) كقوله تعالى من آية فاطر: ٤٣ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، وآية الإسراء: ٧٧ ... ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

(٣) وينضوي في إهاب هذه السنن ما ورد في آية النساء: ٢٦ ـ بعد سوق الأحكام ـ من سنن أهل الإيمان وأنبيائه، ومناهجهم.

(٤) وأعم من هذا التعريف قول أحمد كنعان: «هي... مجموعة القوانين التي سنها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا، على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها»: (أزمتنا الحضارية: ٥٤).

(٥) ويتسق البيان القرآني في استعماله لسنة الله في إهلاك المكذبين مع استعماله لأمر الله=

وثمود. . . والقرآن الكريم يخبرنا عن عاقبتهم السيئة، و سنة الله في إهلاكهم، في مقام الاعتبار بأحوالهم، وتهديد مشركي قريش بأن ينتظروا مآلهم[١].

* **تعريض الرسل لاستفزاز أقوامهم**، ويأتي هذا المعنى في سياق الحديث عن سعي المشركين ومحاولتهم استفزاز النبي ﷺ من الأرض[٢].

* **نصر أوليائه على أعدائه في القتال**[٣] وهذه السنة شاملة لأعدائه من المشركين واليهود والمنافقين، وترد في مقام تثبيت المؤمنين على إيمانهم،

= بمعنى العذاب الذي قدره الله وقضى به على الأمم الغابرة؛ كالذي سلف ضمن آيات هود في تعريف ضميمة «أمر الله»، وهذا الاتساق يجعل أمر الله وسنته مرتبطين برباط وثيق، يتجلى في أن الأقدار التي تجري في الكون والإنسان إنما تجري وفق سنة الله الثابتة، المرعية في أفعاله الحكيمة، ومنها معاملة عباده الكافرين؛ حيث قدر الله في سابق علمه، وفق سنة ربابية حكيمة، أن يدمر عليهم بعد العتو عن أمر الله ورسله. ومن هنا، نلحظ في كل من أمر الله وسنته اطراد ترتُّب المسببات على الأسباب في إهلاك المكذبين، وسوى ذلك من أفعاله سبحانه.

(١) بصريح آيات غافر: ٨٢ ـ ٨٥ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ومعها آيات الحجر: ١٠ ـ ١٣.

(٢) بنص قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾: الإسراء/٧٦، ٧٧. وفي الآية إيماء إلى أن الرسول ﷺ سيخرج من مكة، وأن مخرجيه لا يلبثون بمكة إلا قليلاً، وذلك لأن عادة الله جرت في كل رسول أخرجه قومه أن لا يبقوا بعده، وقد خرج هود من ديار عاد، وخرج صالح من ديار ثمود، وخرج إبراهيم ولوط، وهلكت أقوامهم.

(٣) وهذه السنة جرى بها أمر الله التكويني لأسباب نصر المؤمنين وقهر المشركين ببدر بالقتل والأسر؛ كالذي مر في آيتي الأنفال: ٤٢ ـ ٤٥، ضمن ركن التعريف (ص ٧٦) ومن ثم فهذه السنة هي مظهر عناية الله بالمؤمنين.

وتأنيسهم بأن الله ناصر رسوله والمؤمنين في الدنيا(١).

ثانيهما: طريقة الله التي يجري بها أمره الشرعي في عباده(٢) وتتمثل في فروع الشرائع المختلفة الصور، والمتحدة القصد، والهادفة إلى تطهير النفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره(٣)، ومن هذه الشرائع التي مضت بها سنة الله في الأنبياء السابقين، رفع الحرج عن النبي ﷺ فيما فرضه الله له من زواجه بحليلة ابنه بالتبني في آية الأحزاب. فهل في موضعها من السياق، وفي نسقها في التركيب والتعبير ما يشي بوجود علاقة بين سنة الله وأمره.

١. ٣. ٢. ٢ ـ العلاقة بين «سنة الله» و«أمر الله» من خلال آية الأحزاب

لقد وردت آيات الأحزاب(٤) في سياق تشريع نكاح الرسول ﷺ مطلقة دعيه زيد(٥)، وهو أول تشريع أبطل قاعدة التبني التي اعتادها الناس في

(١) كالذي في آيات الفتح: ٢٢، ٢٣ ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ ومعها آيات الأحزاب: ٦٠، ٦٢.

(٢) ومن سننه تعالى التي لا تتخلف في أمره الشرعي، قوله تعالى آمراً محمداً ﷺ في سياق تصحيح تصورات الجاهلية: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾... من آية الأعراف/٢٧، فإن عادته تعالى جرت على الأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الخصال، وهو اللائق بالحكمة المقتضية أن لا يتخلف، وعليه فإن أمر الله الشرعي يوافق سنته الحكيمة في عباده.

(٣) وهو المعنى الذي تنبه إليه الراغب في المفردات/سن. ويشهد له ما شرعه الله موافقاً لسنته في حفظ النوع البشري، من إتيان النساء من المأتى الذي جُبلت النفوس على الميل إليه، بصريح آية البقرة/٢٢٢ ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

(٤) من الآية/ ٣٦ إلى الآية/ ٣٩. وتدبر هذه الآيات جميعاً يفيد في تبين العلاقة بين الضميمتين في الآية/٣٨.

(٥) تبنى النبي ﷺ زيد بن حارثة قبل البعثة، وكان هبة من خديجة له، فأعتقه ثم قدم أبوه=

جاهليتهم، وهذا السياق يتكامل مع قضية تحريم عادة التبني الواردة في صدر السورة[١]، بما يؤكد أنها من أهم مقاصدها.

وتدبر سياق الآيات التي بين أيدينا يفيد أن زواج النبي ﷺ من زينب هي قضية أمر الله وقدره وقضائه[٢]، الذي جرى وفق سنته العامة المقدرة بحكمة. ولعل استجلاء أجواء التقدير والتدبير، وأسرار الحكم التشريعية الإلهية في هذه الآيات يشهد لهذه الحقيقة بجلاء.

وهكذا تستهل الآيات بمقوم من مقومات العقيدة، استيقنته نفوس المسلمين الأول، وهو الإذعان لقضاء الله واختياره، لأنه ليس لهم من أمرهم شيء، وليس لهم في أنفسهم شيء؛ إنما هم وما ملكت أيديهم لله، يصرفهم كيف يشاء، ويختار لهم ما يريد: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآية/٣٦. والآية حفت بها روايات كثيرة ـ إن صحت ـ تفيد أنها نزلت في شأن زينب بنت جحش لما خطبها رسول الله ﷺ لمولاه وعتيقه زيد بن حارثة ولم تستجب له أولا[٣]،

= يطلب فداءه، فخيره النبي ﷺ بين الذهاب مع أبيه ـ وبدون فداء ـ وبين البقاء مع النبي ﷺ، فاختار النبي ﷺ: (انظر سيرة ابن هشام: ١/ ١٦٤).

(١) وتقررها آيتان، تُعرفان عند المفسرين بآيتي التبني، لإبطالهما إياه، وهما آيتا الأحزاب/ ٤-٥ من قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ...﴾ فالآيتان حرَّمتا نسبة الأدعياء إلى من ادعوهم، وأمرتا برد نسبتهم إلى آباءهم من الأصلاب، ثم لما استقر ذلك في نفوس المسلمين وخضع لهذا التشريع المجتمع الإسلامي، وحصلت نفرة في النفوس من تلك العادة؛ عزز الله سبحانه إبطالها بتشريع أبلغ في القضاء عليها وأوقع في النفوس وأعم. وهو تزوج المتبني حليلة متبناه، واختار الله لهذا التطبيق العملي أن يكون وقوعه من إمام المسلمين، النبي المشرع، ليكون ذلك أدعى للقبول والإذعان. وبهذا يتضح أن هذا التكامل بين صدر السورة والآيات التي نحن بصددها، يجري وفق سنن القرآن في إبطال العادات المستحكمة في المجتمع على التدريج.

(٢) وحول هذه القضية صيغت الروايات والمفتريات، التي تجعل منها قضية شهوة وغرام، وهو ما ينافي عصمة الأنبياء.

(٣) رُوي هذا النزول عن ابن عباس رضي الله عنه فقال به مجاهد وقتادة، وهو قول جمهور المفسرين: (انظر تفسير ابن كثير: ٣/٤٧٠ والبحر المحيط: ٧/٢٣٧).

أو في شأن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط حين زوجها النبي ﷺ من زيد، فسخطت هي وأخوها[١]، ومن ثم كان هذا الزواج من ذلك المتبنى من قضاء الله ورسوله ﷺ لحكمة هي إلغاء الفوارق الطبقية التي كان يقوم عليها المجتمع العربي الجاهلي.

وفي سياق تقدير الأسباب وإجرائها لتحقيق مراده تعالى، شاء الله تعالى أن تسوء العشرة بين زينب وزيد، حتى عزم زيد على طلاقها، وأخبر النبي ﷺ بذلك، شاكياً إليه تعاليها عليه واعتزازها بنسبها وشرفها، فأمره الرسول ﷺ بإمساكها على وجه الأدب والنصيحة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ . . . وكان النبي ﷺ قد علم من طريق الوحي بأن الله سيزوجه زينب بعد طلاقها من زيد[٢] لحكمة التشريع، وهذا هو الذي أخفى في نفسه خشية قول الناس؛ أي: إرجاف المنافقين[٣] بأنه «**تزوج امرأة ابنه**»[٤]، كما قال: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[٥]

---

(١) عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وفي رواية ثالثة رواها الإمام أحمد، عن ابن عباس: أن الآية نزلت عندما خطب النبي ﷺ لمولى جُلَيْبيب امرأة من الأنصار، فلم يستجب أبوها أولاً: (ينظر: تفسير ابن كثير: ٣/٤٧٠ ـ ٤٧١) وهذه الروايات وغيرها، وإن كانت مناسبة لأن تكون توطئة لذكر زواج الرسول ﷺ من زينب، وإحلال مطلقات الأدعياء؛ فإن نزول الآية أعم من أي حادث خاص: (ويدل لهذا العموم أن (مومن) و(مومنة) نكرتان وقعتا في سياق النفي، فتعمان كل مؤمن ومؤمنة)؛ إذ المراد منه هو تقرير كلية أساسة في منهج الإسلام، هي الانقياد لقضاء الله ورسوله ـ كما تقدم ـ.

(٢) ويؤكد ذلك ما رواه ابن كثير ـ بإسناده ـ في قوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ قال: «أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكو إليه، قال: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك**»: (ينظر: تفسير ابن كثير: ٣/٤٧٢ وجامع البيان: ١٢/٢٢/١٤).

(٣) وهو قول جمهور المفسرين: التحرير: ١١/٢٢/٣٣.

(٤) فتح الباري: ٩/٤٧٩.

(٥) حمل كثير من المفسرين جملة (وتخشى الناس) على معنى العتاب للنبي ﷺ، وليس في سياق الكلام ما يقتضيه، ولكنه تشجيع له وتحقير لأعداء الدين، وتعليم له بأن=

وقد تولى الله تعالى هذا الزواج، وبيَّن الغاية التي شُرع من أجلها: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾؛ أي: وكان تزوج النبي ﷺ زينب من أمر الله، بمعنى: مما قدر أسباب كونه، فكان واقعا «بكن»، أو مما أمر به وشرعه من إباحة تزوج مَنْ كُن حلائل الأدعياء، فكان ممتثلا، لا يتنزه أحد عنه، ولا يتحرج أحد منه. وأمر الله بالمعنيين يتضمن الحكمة التي أرادها الله منه في إقامة الشريعة، وهي إبطال الحرج الذي كان يتحرجه أهل الجاهلية من أن يتزوج الرجل زوجة دعيه. ولما تم أمر الله، قوبل بالدهشة والاستنكار، وانطلقت ألسنة المنافقين بالأذى للرسول الكريم، وبالفتنة لضعفاء الإيمان. لهذا أكده الله تعالى وأزال عنه عنصر الغرابة، ونفى عن المأمور به الغضاضة والإثم، ببيان أن النبي ﷺ مُتَّبع ما أذن الله له اتباعه من سنة الأنبياء قبله، وهي انتفاء الحرج عنهم في تناول المباحات، من نكاح وغيره، كما قال: ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ ثم قال عقيب ذلك: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ والحكمة من هذا الترابط بين شقي الآية، هي أن الله تعالى لما أمر رسوله بتزوج زينب التي طلقها زيد كان عالما بأن ذلك لائق برسوله، كما قُدر لأسلافه من الأنبياء، وعالماً بالغاية التي يريدها منه، وهو إبطال التبني عملياً، فلم يكن ـ إذن ـ بد من نفاذ هذا الأمر وتمامه وفقا لتلك الغاية، وعلى الرسول أن ينظر إليه بعين الحقيقة والواقع، لا بعين الناس، وهم المنافقون، فلا يخشى أقوالهم وإرجافهم؛ بل عليه أن يسير على نهج الأنبياء وسنتهم في خشية الله وحده، وتبليغ رسالاته، والدعوة إلى الحق، والنهي عن الباطل، كما قال في وصفهم ومدحهم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾... الآية/٣٩.

ومن هنا، يتضح أن سياق آيات الأحزاب هو سياق تدبير وتكليف

= يمضي في سبيله ويتناول ما أباح الله له ولرسله من تناول ما هو مباح من مرغوباتهم: (يراجع التحرير: ١١/٢٢/٣٤ ـ بتصرف ـ).

من الله عز وجل، تتجلى فيه حِكَمَه البالغة وإرادته النافذة؛ إذ تبين أن زواج النبي ﷺ من زينب كان أمراً شرعياً إجبارياً من الله تعالى، مقدراً على حكمة أرادها الله تعالى منه، وقد استجاب ﷺ لهذا الأمر فور صدوره، من غير تردد، وبعد استشعار في النفس وتقدير لما سيرجفه المنافقون لفتنة الأمة.

كذلك تبين أن نفس ذلك الأمر المقدور والمفروض على نبيه، من جملة المباحات التي تناولها أسلافه من الأنبياء، سنة من الله سنها لهم، بها ينتفي الحرج عنهم، لإرادته تعالى منهم أن يبلغوا رسالات ربهم، ولا يخشوا أحداً إلا الله، ولا يحسبون حسابا للناس وعاداتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وعليه، فإن أمر الله وسنته في آية الأحزاب **يتوافقان** من وجه، **ويتغايران** من وجه آخر. أما وجه التوافق، فيتجلى في أمرين:

الأول: في دلالتهما التشريعية على معنى انتفاء الحرج فيما فرضه الله لأنبيائه عامة وللرسول ﷺ خاصة بنص الآية؛ ذلك بأن الشرع الذي أباحه الله لنبيه ﷺ ونفى عنه الحرج، ينتسب إلى شرع الأنبياء بأعرق نسب؛ فالنبي إذن مساو لجميع الأنبياء في انتفاء الحرج عنه، فيما أحله الله له من زواج زينب.

الثاني: في تقديرهما معاً على الحكمة الإلهية، إلا أن الحكمة فيهما تختلف بالعموم والخصوص، فالحكمة التي أرادها الله تعالى من أمره، وهو زواج النبي ﷺ بزينب حكمة تشريعية خاصة[١] تنسجم مع زمان النبي ﷺ

---

(١) وهي تشريع حكم إبطال عادة التبني ـ كما تقدم ـ ولقد صار هذا التشريع الذي اقتفى فيه النبي ﷺ أثر أسلافه في تناولهم للمباح، شرعاً عاماً، وسنة تتبعها الأمة من بعده، بما يؤكد أنه لم يكن تشريعاً للمسارعة في هواه ﷺ أو قضاء شهوته، بقدر ما كان بياناً للشريعة بفعله وسنته؛ لأن ذلك أجدى وأنفع في استئصال عادة مستحكمة في العرب.

وظروف بيئته وعادات قومه. أما الحكمة التي أرادها الله من سنته في الأنبياء ـ ومنهم محمد ﷺ ـ وهي رفع الحرج عنهم فيما فرضه لهم من المباحات، فحكمة تشريعية عامة؛ إذ الأليق بمنزلتهم ومهمتهم أن يتناولوا ما أباحه الله لهم، لأجل أن يستَبْقوا عزائمهم ومجاهداتهم لتبليغ رسالات ربهم، ودفع ما أُمروا بتجنبه.

وأما وجه التغاير، فيتجلى في مظهرين:

الأول: أن المعنى في أمر الله هنا يقوم على أساس من وجوب النفاذ والتحقق؛ إذ قدر الله في علمه أن زينب ستصير من أزواج النبي ﷺ، ولم يكن بد من نفاذ ما قدره الله في أوانه، ويقوي ذلك دلالة (كان) على الكون في الأزل، ودلالة المصدرية في (أمر الله) على تحقق معنى الأمر، وإيحاءُ التعبير بوصف «**المفعول**» و«**المقدور**» بوقوع القضاء[1].

أما المعنى في سنة الله فيقوم على أساس من الثبات والاطراد، منظورا فيه إلى كل ما شرعه الله للأنبياء من المباحات في تاريخ الرسالات، ويعضد ذلك دلالة لفظ «**السنة**» باعتباره «**اسما جامداً**» أو «**اسم مصدر**»[2] على الحالة التي تكون عليها طريقة طاعة الله تعالى، وهو المعنى الجاري في استعمال القرآن الكريم لسنة الله، كما تقدم؛ لكن حينما ننظر في سياق الآية، نجد أن ذلك الثبات والاطراد اللذين يرتبطان بسنة الله في الاستعمال القرآني، يتخلفان بالنسبة لهذه السنة الشرعية في الآية؛ لأنه لا نبي بعد محمد يُقتفى أثره في تناول المباح.

الثاني: أن أمر الله وُصف بالمفعول وبالمقدور، ولم توصف سنة الله بشيء، فأفاد ذلك أن أمر الله أخص من سنته.

---

(١) كما تبين من تحليل الوصفين ضمن دراسة ضميمة أمر الله. فليراجع.

(٢) وعلى كلا الوجهين فالفعل مقدر دل على المصدر أو نائبه. فالتقدير: سن الله سنته في الذين خلوا من قبل: (يراجع: التحرير: ٤١/٢٢/١١ ـ طبع سحنون ـ).

وفي ضوء أوجه الائتلاف والاختلاف في التعبير بهما في الآية الكريمة، يتبين الفرق بينهما:

فأمر الله وسنته يجتمعان في مقام واحد هو مقام التشريع والتقدير، ويلتقيان في دلالتهما على انتفاء الحرج فيما أمر الله به أنبياءه أو أحله لهم، إلا أن تلك الدلالة خاصة في أمر الله لرسوله ﷺ وعامة في سنة الله في أنبيائه السابقين.

كذلك فإن سنة الله توافق أمر الله بوصفها طريقة عامة يجري فيها ذلك الأمر[١]، فما أباحه الله لأنبيائه عامة من أمر النكاح وغيره من المباحات، نافيا عنهم الحرج لحكمة تشريعية عامة هو عين ما أباحه لنبيه ﷺ خاصة من الزواج بزينب لحكمة تشريعية خاصة؛ فتميل العلاقة بينهما إلى العموم والخصوص، فسنة الله عامة[٢] وأمره خاص.



(١) واعتباراً بهذا التوافق، قال الفيروزآبادي عن سنة الله: «وقد تقال لحكمه وأمره ونهيه»: (القاموس/سن).

(٢) ويدل لهذا العموم صفة الشمولية التي تنطبق على جميع السنن التي بثها الله في هذا الوجود وحكم بها في الخلق، شرعية كانت أم كونية: (يراجع تفصيل ذلك في: أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله ص ٥٥، ٧٨، ٧٩).

المطلب الثاني: (الأمر بالمعروف)

٢. ١ ـ موارد الضميمة

جاء (الأمر بالمعروف) في القرآن الكريم[١] مسنداً إلى رسول الله ﷺ،

---

(١) أما في الحديث الشريف، فقد ورد مصدراً معرفاً بأل، وتزاوج بواو العطف مع غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والصدقة، والصلاة، في سياق بيان حق الطريق وآداب الجلوس فيها، وكفارة الرجل في أهله وماله...، وذلك نحو ما رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «... **فإذَا أبيتُم إلا المجلِس** ـ أي: في الطرقات ـ **فأعْطُوا الطريقَ حَقَّه**» قالوا: وما حقه؟ قال: «**غَض البَصر، وكَف الأذى، ورَد السَّلام، والأمرُ بِالمعرُوف والنَّهي عَن المنكَر**» (صحيح مسلم: كتاب اللباس والزينة رقم الحديث: ٢١٢١، ورواه البخاري بلفظ (أمر) منكراً في كتاب المظالم رقم: ٢٤٦٥)، وروى البخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**فتنَة الرَّجل في أهلِه ومالِه وولَدِه وجارِه، تُكفرُها الصَّلاة، والصَّدقة، والأمْرُ بالمعرُوف والنَّهي عَن المنكَر**»: (صحيح البخاري: كتاب الفتن. رقم الحديث ٧٠٩٦). وورد «الأمر» بصيغة الفعل الماضي متعلقاً بالمعروف منكراً، واقترن بتكبير الله... وعزل الأذى عن طريق الناس، كالذي في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه خُلِقَ كُل إنسَان مِن بني آدمَ عَلى سِتين وثلاثمائة مَفْصِل، فمَن كبَّر الله، وحمدَ الله، وهلَّل الله وسَبح الله، واستغفر الله، وعَزل حَجرا عَن طريقِ الناس، أو شوْكَة أو عَظما عن طَريق النَّاس، وأمرَ بمعروفٍ ونَهى عَن مُنكر، عدَد تِلك الستين والثلاثمائة السُّلامى** ـ أي: المفصِل ـ **فإنه يمشي يَومئذٍ، وقد زَحزَح نفسَه عَن النار**»: (صحيح مسلم، كتاب الزكاة. رقم الحديث ١٠٠٧).
وورد (الأمر) فعلاً مضارعاً، وتعلق بالمعروف أو الخير في موضع، واتصل في موضع آخر بلام القسم واسم الجلالة، «وكلا»، دلالة على استعظامه، وتأكيداً على تعينه ولزومه، ولا سيما عند شيوع الظلم والفساد. ومن ذلك قوله ﷺ: «**على كُل مُسلِم صَدقَة**». قيل: أرَأيْتَ إن لم يجد؟ قال: «**يَعتَمِل بيدِيه فَينفَع نفسَه ويَتصَدق**» قال قيل: أرَأيْت إن لم يَسْتطِع؟ قال: «**يُعين ذا الحاجَة الملهُوف**» قال قيل له: أرَأيت إن لم يَستَطِع؟ قال: «**يأمُر بالمعْروفِ أوِ الخيرِ...**»: (صحيح مسلم، رقم ١٠٠٨، والبخاري، رقم: ١٤٤٥، كلاهما في الزكاة). وأسند أبو داود عن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «**...كَلا والله لتَأمُرُنَّ بالمعْروف ولتَنهَوُنَّ عنِ المنكَر، ولتَأخُذُنَّ على يدي الظَّالم ولتَأطُرُنَّه عَلى الحقِّ أطرا**»: (سنن أبي داود، كتاب الملاحم: ٢/٤٣٦).
كذلك ورد (الأمر) فعل أمر في سياق التحريض على القيام بالأمر بالمعروف...؛ كالذي=

وصالحي المؤمنين من أمته، ومن أمة أهل الكتاب، في سياق مدحهم ببيان خيريتهم وفضلهم، ووصف سيرتهم وأحوالهم، باستقراء مواضع الضميمة وهي سبعة مواضع، خمسة منها ورد فيها «الأمر» فعلاً مضارعاً، وفي المضارعة معنى الاستمرار والديمومة، وكثرة التلبس بالفعل والثبات عليه، بصريح الآيات التالية:

الأعراف: ١٥٧ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1].

= عن عائشة (رضي الله عنها)، قالت: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم»: (صحيح سنن ابن ماجة (٣/ ٣١٢)، رقم ٣٢٥١).

ومن تدَبر (الأمْر بالمعروف) بمختلف صيغه ومواقعه ضمن الكلام النبوي الشريف، مقارَناً بما ورد منه في القرآن الكريم، نخلص إلى أمرين:

الأول: إن معظم مجيء (الأمر بالمعروف) في الحديث بصيغة المصدر، دلالة على ثبوته وتحققه في كل جيل من أمة الإسلام، في حين أن كل وروده في القرآن الكريم بالصيغ الفعلية؛ لأن الأمر بالمعروف فعل المؤمنين، وبه يتلبسون، وعليه يداومون، ومنه يستمدون الخيرية.

الثاني: يأتي (الأمر بالمعروف) في الحديث ـ غالباً ـ مقترناً بالنوافل، في سياق الحض على مكارم الأخلاق، كما تقدم، مما يظهر مزيته وفضله؛ لأنه فرض كفاية، وقد يَتعَين، ولا يُتصَور وقوعه نفلاً، والتسبيح والتحميد والتهليل نوافل. أما في القرآن الكريم، فلم يأت «الأمر بالمعروف» قريناً للنوافل، كما هو الشأن في الحديث، وإنما ورد قريناً للإيمان وتكاليفه، ولعل السر في الاختلاف يرجع إلى اختلاف منهج القرآن والسنة في البيان؛ حيث ركز القرآن الكريم، على المألوف من آياته، على أصول الإسلام وفرائضه، لتقرير مسؤولية الفرد الاجتماعية أصلاً من أصول الدين، في حين اهتم الحديث، على عادته في البيان، بتكميل وتفصيل ما أصله القرآن من أصول وأحكام. والاستئناس به يزيدنا تمثيلاً للمجتمع الإسلامي المتعاون المتراحم، الذي يهدي إليه القرآن ويحض عليه.

(١) باستثناء آية الأعراف المكية، ورد (الأمر) فعلاً مضارعاً في أربع آيات مدنية، ودلالة ذلك أنه لا بدَّ من طائفة مؤمنة تأمر وتنهى بعد التمكين في الأرض لتحقيق شريعة الله: راجع: (في ظلال القرآن: ٢٧/٢، تفسير آية آل عمران: ١٠٤).

آل عمران: ١٠٤ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

آل عمران: ١١٠ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

آل عمران: ١١٤ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾[1].

التوبة: ٧١ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

وجاء الأمر فعلاً ماضياً في سياق الإخبار عن سيرة المهاجرين المأذون لهم في القتال إن مُكن لهم، بآية الحج المدنية: ٤١ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

وجاء فعل أمر في مقام موعظة حكيم لولده، بآية لقمان المكية: ١٧ ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

وانسجاماً مع هذا الورود الغزير لضميمة (الأمر بالمعروف) في القرآن الكريم، نحدد مفهوم هذه الضميمة لغةً، وعرفاً، واصطلاحاً قرآنياً، لاستيعاب عمق اتساعها الدلالي، ثم نقفي على ذلك بتحديد ملامحها الخاصة وموقعها المتميز، بتمييزها عن سواها من المصطلحات التي تلتقي معها بضرب من العلاقات.

---

(١) باستثناء هذه الآية التي وردت ثناء شاملاً لصالحي اليهود والنصارى، يأتي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ـ في الغالب ـ صفة للمؤمنين من أمة محمد ﷺ، ترفع مقامها وتُفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه جماعة أخرى: (راجع في ذلك: التحرير والتنوير: ٥٨/٤. وفي ظلال القرآن: ٣٢/٢، وأضواء البيان: ٢٥/١).

٢. ٢ ـ مفهوم الضميمة

٢. ٢. ١ ـ في اللغة

«الأمر» هو الأمر بالمعنى اللغوي الأول[(١)] و«المعروف» ـ «كالعُرف» و«العَارِفَة» ـ ينتمي إلى مادة (عرف)، ومداره في اللغة على معنى **«السكون والطمأنينة»**[(٢)]. قال ابن منظور: «والعرف» و«العارفة» و«المعروف» واحد: ضد المنكر، وهو «كل ما **تعرفه** النفس من الخير... **وتطمئن** إليه»[(٣)] ولعل **مأخذه الحسي** من **«العَرف»**، وهي الرائحة الطيبة... «لأن النفس **تسكن** إليها»[(٤)]، أو من **«العُرف»**، وهو «الرمل والمكان **المرتفعان**»، و«الأعراف من الرياح **أعاليها**»[(٥)]. ومن هذا الارتفاع المميَّز في «العُرف» و«الأعراف»، استُعمل «المعروف» فيما يُعرف معرفة واضحة قوية.

٢. ٢. ٢ ـ في الاصطلاح العام

وامتداداً لأصل استعمال الكلمتين في التكليف بما عَرَف الناس حسنه من الأمور معرفة واضحة، واطمأنوا إليه، ولم ينكروه؛ دلت ضميمة الأمر بالمعروف في الاصطلاح على **إرشاد الناس إلى كلِّ ما عُرف في الكتاب والسنة من طاعة الله في الأقوال والأفعال**. وبعبارة الجرجاني: «الأمر بالمعروف هو الإرشاد إلى المراشد المنجية...، وقيل: (الأمر بالمعروف): الدلالة على الخير...، وقيل:... أمر بما يوافق الكتاب والسنة...، وقيل:... إشارة إلى ما يرضي الله تعالى من أفعال العبد وأقواله[(٦)]...».

---

(١) انظر ص ٥٣.

(٢) ذكره ابن فارس في المقاييس أصلاً ثانياً، ومعه: تتابع الشيء متصلاً بعضه ببعض، أصلاً أولاً لمادة (عرف).

(٣) لسان العرب/عرف.

(٤) المقاييس/عرف.

(٥) تاج العروس/عرف.

(٦) التعريفات / ٣٦ ـ ٣٧ وكذلك: كشاف الاصطلاحات/أمر.

٢. ٢. ٣ ـ في اصطلاح القرآن الكريم

يأتي (الأمر بالمعروف) في مختلف مقامات الكلام في الآيات المتقدمة، بملحظ من السكون والوضوح في الاستعمالات الحسية لمادته، بمعنى: **دعوة المسلمين[(١)] الناس بالقول إلى كل أمر معروف ومحمود في الشرع والعقل**، ويعم هنا جميع الخيرات والطاعات التي يعرفها أهل الإيمان، والتي أمر الله بها عباده أو رسوله[(٢)]، ومن ثم فهو لا يختص «بدعاء الناس من الشرك إلى الإسلام»[(٣)] أو «بالإقرار بنبوة محمد ﷺ»[(٤)]،

---

(١) كل واحد بحسب قدرته، كما سيتبين ضمن تحليل قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفصل الثالث من باب التفسير الموضوعي. والجدير بالذكر هنا، أن أمة الإسلام يتصدرها رأس الدعاة، الأنبياء. وقد خَص القرآن الكريم سيد المرسلين محمد ﷺ بهذه الفضيلة في آية الأعراف بمناسبة الكلام على أعلام نبوته وصفاته وصفة من تُكتب له الرحمة من بني إسرائيل، وذلك لأن رسالته الخاتمة اتسعت لتشمل العالم بأسره؛ فلا عجب أن يخص القرآن الكريم أتباعه وأمته بخصيصة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تُثبت خيريتها على سائر الأمم، وقد عينت رواية النزول تلكم الطائفة المؤمنة الأولى التي حملت بذور الرحمة إلى العالمين، ومن ذلك ما رواه الطبري ـ بإسناده ـ عن ابن عباس وغيره أن قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الآية في «الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وخاصة أصحاب رسول الله ﷺ»: (جامع البيان: ٣/٤/٤٤)، وظاهر الخطاب كذلك في آية آل عمران/١٠٤ مع «أهل العصر الأول من المسلمين»، في قول الطاهر بن عاشور، وفي آية الحج/٣٩ مع: «المهاجرين» أو «أصحاب رسول الله»، وهو ما يوحي به وصف المأذون لهم بالقتال، في قول أبي حيان والرازي: (انظر: التحرير والتنوير: ٣٨/٤. والبحر المحيط: ٥١٨/٧ ومفاتيح الغيب: ٢٢/١١ / ٤٢)، غير أن هذا الخطاب وإن كان مع الحاضرين بحسب اللفظ، فإنه عام في كل الأمة، كما تبين، لئلا يتعطل الهدى.

(٢) اهتم المفسرون بتفسير لفظ «المعروف» نظراً لدلالاته الغزيرة التي يتيحها التعميم المستفاد من «ال» للتعريف، في حين لم يهتموا بتفسير لفظ «الأمر» في الغالب، باستثناء ما توحي به عبارة الرازي في تفسير آية آل عمران/١١٤: «بإرشادهم إلى ما ينبغي، وهو الأمر بالمعروف»: (مفاتيح الغيب: ٢٨٠/٧/٤)، وكذلك عبارة سيد قطب في تفسير آية الحج/٣٩: «. . . فَدعَوا إلى الخير والصلاح، ودَفعُوا إليه الناس»: (في ظلال القرآن: ٦٠٦/٥).

(٣) جامع البيان: ٣٩/١١/٧، تفسير آية التوبة/١١٣. وعلى هذا المعنى مدار تأويل الطبري لكلمة «المعروف» في جميع الآيات التي تعلقت فيها بالأمر.

(٤) مجمع البيان: ٤٨٩/٢، تفسير آل عمران/١١٤ ومثله في الكشاف: ٢٠٣/٨، تفسير آية التوبة/٧٢.

كما لا يختص بمكارم الأخلاق وصلة الأرحام»[١]، ولا بالسنة التي تقابل البدعة[٢]؛ وذلك لأن لفظ «المعروف» هنا مطلق[٣] ـ كلفظ «المنكر» ـ «فلم يجز تخصيصه بغير دليل، فهو يتناول كل معروف»[٤] ويدخل في المعروف كل خير[٥] وحق وصلاح، مما يعود بالنفع على المسلمين في معاشهم ومعادهم.

ومن نصوص المعنى يُستفاد:

---

(١) مجمع البيان: ٤/٤٨٧، تفسير آية الأعراف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٨/٢٧١، تفسير آية التوبة/١١٣.

(٣) بخلاف وروده العام في القرآن الكريم، حيث جاء ـ في الغالب ـ مقيداً للأفعال والأقوال، وبدلالات خاصة يرجحها السياق؛ إذ جاء للرد بالجميل على السائل المحتاج واليتيم؛ نحو آية البقرة: ٢٦٣ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾... ومعها آيتا النساء/٥ ـ ٨، وجاء للاقتصاد في الجود؛ كالذي في آية النساء: ٦ ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ومعها آيات البقرة ٢٣٤ ـ ٢٣٩، وجاء للإحسان إلى الزوجات في معاشرتهن وعند فراقهن، وذلك في مثل آية النساء ١٩ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾... ومعها آيتا الطلاق/٢ والبقرة/٢٢٩، وجاء لصلة الأبوين والبر بهما، وإن كانا كافرين، في آية لقمان: ١٥ ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾....

والمتأمل في هذه المعاني يخرج بخلاصتين واضحتين:

الأولى: أن هذه المعاني تُجسد مجتمعة المستحسنات في العقل والعادة والشرع، ويحتملها لفظ المعروف في حالة تعلقه بالأمر، وذلك لأن الأمر بالمعروف يقتضي توجيه الكلام إلى الناس بكل خير وصلاح حسب مقتضيات الأحوال.

الثانية: أن معظم ما قيده المعروف من الأفعال والأقوال هو ما كان فيه أذى للغير، أو سبباً للخلاف بين الأفراد؛ كالمتعة للمطلقة، والنفقة للمرضعة واليتيم، وغير ذلك، وبعبارة أوضح: هو كل ما يترتب عليه انفصام عرى الأسر، وفقدان المودة والتراحم بين بني البشر. ومن ثم، كان المعروف هو الميزان الصحيح الذي يضبط تصرفات الأفراد على هدى من الشرع والعرف.

(٤) مفاتيح الغيب: ٤/٧/٢٠٨. وقد قُيد المعروف فاقترن بما هو **أخص**؛ «**كالصدقة**»، و«**الإصلاح بين الناس**»، في آية النساء: ١١٤: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾: (انظر فتاوى ابن تيمية: ٤/٧/١٠٥).

(٥) فتاوى ابن تيمية: ٤/٧/١٠٤.

أن مصطلح (الأمر) تتسع دلالته تبعا لمتعلقه (المعروف)، فلا يُفهم منه استدعاء فعل معين بالقول فحسب، بل يفهم منه أيضاً ائتمار الآمر وانتهاؤه في نفسه، بفعله للمعروف واجتنابه للمنكر، وذلك ليكون أمره نافذا على غيره، بالغاً غايته.

كذلك يفهم منه الأمر بمطلق الطاعات وفضائل الأعمال التي تستلزمها تكاليف هذا الدين وأعباؤه، وأعظمها الإيمان بالله ورسوله وطاعتهما، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصدقة، والإصلاح بين الناس، وأدناها غض البصر، ورد السلام، وكف الأذى عن الناس وإماطته عن طريقهم[1].

٢. ٣ ـ علاقات الضميمة

٢. ٣. ١ ـ (الأمر بالمعروف) و(الإيمان بالله)

تزاوج (الإيمان بالله) مع (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) بواو العطف في آيتي آل عمران/١١٠ ـ ١١٤، على وجه **التقابل**؛ وذلك لأن الإيمان بالله فعل القلب واللسان والجوارح، وهو بهذا المعنى ليس مجرد نطق باللسان وتوجيه للكلام، كما يُفهم من الأمر بالمعروف، وإنما هو عقيدة تملأ القلب وتصدر عنها آثارها من الأقوال والتصرفات. ومن ثم، كان الإيمان أصلاً تتفرع منه «جميع الطاعات من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فرضها ونفلها»[2]، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا هو الترتيب الطبيعي في النسق المفهومي العام الذي يربطهما بالإيمان بالله؛ إذ أن الأصل يتقدم الفرع، والمقدمة تسبق النتيجة، غير أن هذا

---

(١) وهو ما تبين من استخلاص دلالة «الأمر بالمعروف» في القرآن الكريم، ومن استقراء صيغه في الحديث بالهامش.

(٢) ورد هذا المعنى ضمن معاني: «الإيمان» التي هدى إليها استقراء النصوص القرآنية والحديثية المتضمنة للمصطلح: (راجع بحث: مفهوم الإيمان في القرآن والحديث للباحث خايف الله: ص ١٩).

الترتيب خولف في نظم الآية الأولى ـ ١١٠ ـ، فعُطف الإيمان بالله على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وصار الأصل متأخراً عن الفرع، والفرع متقدما على الأصل. وإنما كان ورود المتعاطفين على هذا النسق من التقديم والتأخير؛ لأن المعطوف هو الأهم في هذا السياق، الهادف إلى التنويه بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان خيرية أمة الإسلام وأفضليتها على أهل الكتاب الذين تخلوا عن هذه الفضيلة بينهم، بصريح قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[1]؛ وإنما ذُكر الإيمان بالله ضمن الصفات التي استحقوا بها التفضيل على الأمم؛ لأن المقصود به: «التفضيل على المشركين الذين كانوا يفتخرون بأنهم أهل حرم الله وسدنة بيته»[2]، وقد رد الله تعالى هذا الزعم بقوله: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾[3].

وهكذا، يحتل «الأمر بالمعروف» بهذه الآية الكريمة موقعاً متميزاً ومتناسقاً مع دلالة السياق والواقع، فيكون الترتيب بين الأصل وفرعه ترتيباً محكماً، بشكل يجعل من ترتيبهما على نحو منطقي إخلالاً ببلاغة القرآن الكريم ونسقه المعجز.

وبخلاف هذا الترتيب في الآية الأولى، قدم (الإيمان بالله واليوم الآخر) على (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في الآية الثانية، ليكون وفق دلالة مقامه، إذ أن الكلام مع الذين أسلموا من أهل الكتاب، وانضموا إلى أمة الإسلام، ونهضوا بتكاليف الإيمان، فناسب ذلك مدحهم بإظهار إيمانهم الصادق الذي يمتازون به على أهل الكفر منهم، المشار إليهم بأحوالهم المذمومة في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

---

(١) المائدة/٧٩.

(٢) التحرير والتنوير: ٥١/٤.

(٣) التوبة/١٩.

كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾[١] فهؤلاء ـ وهم اليهود خاصة ـ: «كان إيمانهم بالله كلا إيمان، لإشراكهم به عزيراً، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض، ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته»[٢].

٢. ٣. ٢ ـ (الأمر بالمعروف) و(إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله)

عُطفت (إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله) على (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، في آية التوبة/٧١[٣]، وفي هذا العطف إيذان صريح بأن هذه الطاعات قرينة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما قُدما عليها في هذا السياق؛ لأنهما من أخص صفات المؤمنين التي يمتازون بها على المنافقين خاصة[٤]، وقد بين الله تعالى من خلال المقابلة بين الفئتين أن المنافقين أفراد ضعاف: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾[٥]، وليسوا جماعة قوية قادرة على المواجهة والمجاهدة والبذل والإيثار، لذلك فهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾[٦]، على المألوف من طبيعتهم. أما المؤمنون، فهم أفراد أقوياء: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ والولاية تقتضي التعاون

---

(١) آل عمران/١١٢.

(٢) الكشاف: ١ / ٤٥٦.

(٣) وقد عُطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليها في آية الحج/٣٩؛ لأن الكلام هناك مسوق للتنبيه على الشكر على نعمة النصر بأن يأتوا بما أمر الله من أصول الإسلام، ورأسها الصلاة ثم الزكاة...، كما عُطف على إقامة الصلاة فقط، في آية لقمان/١٦، دلالة على أن الصلاة هي زاد الدعوة إلى الله، كما سيأتي بيان ذلك في باب التفسير الموضوعي.

(٤) هذه الآية والتي تليها معطوفتان على الآيتين اللتين قبلهما لبيان المقابلة بين المؤمنين والمنافقين، وما بينهما من التضاد في الأقوال والأفعال التي يقتضيها الإيمان.

(٥) التوبة من الآية: ٦٧.

(٦) نفس الآية.

والتكافل في اتجاه تحقيق الخير ودفع الشر؛ لذلك فهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وبذلك يمتازون.

٢. ٣. ٣ ـ (الأمر بالمعروف) و(الصبر)

عُطف (الصبر) على (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في آية لقمان/١٦، فأفاد هذا العطف أن الصبر لازم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الداعية لله قد يتعرض لالتواء النفوس وعنادها وانحراف القلوب وإعراضها، وقد يصيبه أذى الألسنة وعدوان الأيدي، وقد يُبتلى في نفسه وفي ماله عند الاقتضاء، فسبيله أن يصبر لله من أجل خير الناس، ويتلقى الأذى بالاحتمال وكظم النفس عليه ومقاومة ما يحدثه من الجزع.

٢. ٣. ٤ ـ (الدعاء إلى الخير) و(الأمر بالمعروف)

دل التجاور بالعطف بين (الدعاء إلى الخير) و(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في آية آل عمران/١٠٤ على مغايرة بين هذه التكاليف، وهو أصل العطف، وتتمثل هذه المغايرة في كون الدعوة إلى الخير «جنس تحته نوعان: الترغيب[1] في فعل ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف، والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر، فذكر الجنس أولا ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان»[2] والاهتمام، فيكون العطف بينهما ـ إذن ـ من

---

(١) وهذا المعنى يُتصور في أصل الدعاء في اللغة؛ إذ هو **الحث على قصد الشيء وإمالته إليك بصوت وكلام يكون منك**: (انظر: المفردات/١٧٢ والمقاييس: ٢/٢٧٩)، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾: يوسف/٣٣، ويفيد الدعاء ـ أيضا ـ **معنى السؤال والضراعة**؛ نحو قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ البقرة/٦٨: (انظر المفردات/دعا). والدعاء بهذه المعاني **يرادف** الأمر الترادف الذي لا مطابقة فيه، وذلك لأنهما يشتركان في جنس الكلام، ويتفرد كل منهما بمعناه الخاص ودلالاته الفارقة، فيميل الأمر إلى دلالة الإلزام في استدعاء الآمر للفعل من المأمور، على وجه الاستعلاء، في حين يتمحض الدعاء للترغيب الذي لا إلزام فيه من جهة الداعي.

(٢) مفاتيح الغيب: ٤ / ٨ / ١٨٤ وكذلك الكشاف: ١ / ٤٥٣.

عطف الخاص على العام إيذاناً بفضله؛ إذ «الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يتناول الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر»[١].

٢. ٣. ٥ - (الأمر بالمعروف) و(النهي عن المنكر)

ورد (النهي عن المنكر) مضموماً إلى (الأمر بالمعروف)، معطوفاً عليه أبداً بواو العطف، المفيدة للربط بدون تفاوت أو تراخ، في مختلف السياقات، وهذا الضم والعطف بينهما يؤذن بأن ثمة أوجها فارقة وواصلة في العلاقة بينهما[٢]، وهي:

* **وجه الاختلاف**: ويجلي هذا الوجه ويؤكده استعمال الضميمتين في اللغة؛ إذ ورد النهي في المعاجم «خلافاً للأمر»[٣]، كما ورد الأمر «نقيضاً للنهي»[٤]، وبنفس الدلالة الفارقة استَعملت العربية «المعروف ضد المنكر»[٥]. وللفرق بين الضميمتين، قال العرب في صفة الفرد والجماعة من الناس: «إنه لأمور بالمعروف نهو عن المنكر»[٦] أو «هو نهو عن المنكر أمور بالمعروف»[٧] «وهم أمرة بالمعروف نهاة عن المنكر»[٨]، وهذا التمايز في استعمالهما لا نخطئه في المعاجم الاصطلاحية؛ إذ يأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمعنى «الإرشاد إلى المراشد المنجية» الذي يقابل معنى: «الزجر عما لا يلائم في الشريعة»[٩].

---

(١) التفسير الكبير: ١٠٧/٥.
(٢) على غرار ما تقدم ضمن دراسة علاقة الأمر والنهي في مبحث العلاقات في الفصل الثاني.
(٣) العين، والصحاح، وتهذيب اللغة/نهي.
(٤) يُنظر هامش ٢، ص ٥٣.
(٥) نفس الموضع.
(٦) أساس البلاغة/أمر.
(٧) القاموس المحيط/نهى.
(٨) أساس البلاغة/نهى.
(٩) التعريفات/٣٦.

وفي القرآن الكريم نقف على هذا التقابل بوضوح في جميع الآيات التي وردا بها، فنتبين أن (الأمر بالمعروف) هو دعوة الناس إلى ما يُعرف حسنه في العقل أو الشرع، وهو الخير والصلاح. أما النهي عن المنكر، فهو زجرهم عما تجهله العقول وتستقبحه الشرائع[١]، وهو الشر والفساد.

*** وجه الاتفاق**

ومع هذا التقابل الصريح بين المفهومين، نلحظ اشتراك مقامات ورودهما في إبراز صفة المؤمنين الصالحين، ذلك فوق اشتراكهما في الدلالة على معنى التكليف والطلب؛ إذ دعوة الناس إلى المعروف تدل على التكليف به وطلبه، وزجر الناس عن المنكر يدل على التكليف بالكف عنه وطلبه؛ ولا غرو في ذلك فكلاهما ينتميان إلى جنس الكلام.

*** وجه التلازم**

وهو ملحوظ في جميع مواردهما، بشكل يجعل منهما ضميمة مستقلة، قوية الاصطلاحية، ويعضد هذا التلازم بينهما قول الأصوليين المشهور: «الأمر بالشيء نهي عن ضده، وبالعكس»[٢]، وعليه فإن فائدته ـ فيما ألمح ـ أن الأمر بالمعروف متى توجه إلى الناس فإنه يصحبه ويقترن به النهي عن المنكر، وإنما جمعت الآيات المتقدمة بينهما لتكون معرفة المعروف دليلا على إنكار المنكر وبالعكس؛ إذ بضدها تتميز الأشياء.

*** وجه التقابل[٣]**

والقصد من ذلك أن الأمر بالمعروف أصل عام وعمله إيجابي، والنهي عن المنكر فرع خاص وعمله سلبي؛ ذلك بأن دعوة الناس إلى الإسلام، والنصح للمسلمين وتعليمهم وإصلاحهم وإرشادهم إلى مهمات الدين، ومساعدتهم في المآزق، من الأمر بالمعروف. أما النهي عن المنكر، فهو

---

(١) ولهذه الدلالة الاصطلاحية القرآنية أصل في اللغة؛ إذ **الجهل والقبح** أصل في مادة (نكر)، تقول: «أنكر الشيء: **جهله**، واستنكر الأمر: **استقبحه**»: (انظر: الصحاح وكذا المفردات/نكر).

(٢) مضى بيان ذلك مفصلاً ضمن دراسة علاقة الأمر والنهي في مبحث العلاقات.

(٣) مضى تحليل هذا الوجه بتفصيل ضمن دراسة علاقة الأمر والنهي: (ص ١٤٩، ١٥٢).

السعي لتجنيب المسلمين مما يضرهم في الدنيا والآخرة من العقائد والأعمال، وسيأتي بيان طبيعة عملهما الدافع والرادع في باب التفسير الموضوعي، بشكل يؤكد هذه العلاقة الواصلة بينهما ويوضحها.

٢. ٣. ٦ - (الأمر بالمعروف) و(إحلال الطيبات)

عُطف (إحلال الطيبات) على (الأمر بالمعروف) في آية الأعراف/١٥٧، فدل هذا العطف على وجود علاقة تربطهما من جهة فعليهما: (الأمر) و(الإحلال) ومتعلقيهما: (المعروف) و(الطيبات)، فـ(الأمر)، كما مضى، دعوة فيها إلزام وإرشاد، و(الإحلال) فيه معنى **التوسعة والإباحة للشيء**، كما جاء في اللغة[١]، وليس فيه معنى الإلزام والإيجاب الذي في الأمر، ومن ثم فإن الأمر يتناول الإحلال؛ لما فيه من معنى الإلزام بالتكاليف، والإرشاد إلى ما فيه توسعة على العباد في الحال والمآل.

وعلى وزان هذه العلاقة، يشمل المعروف الطيبات؛ لأن الطيب يُستعمل حسياً **فيما تستلذه الحواس، وما تستلذه النفس من متاع الحياة الدنيا**؛ كالطعام، والنكاح، والمساكن، والولد الصالح[٢]؛ ومعنوياً في «**العلم والإيمان ومحاسن الأعمال**»[٣]، وكل هذه المعاني يتناولها لفظ المعروف، كما تقدم؛ إذ يشمل كل طيب رضيته الحواس والعقول السليمة.

فخلصت العلاقة بينهما إذن، **إلى العموم والخصوص**؛ فإحلال الطيبات يندرج في الأمر بالمعروف؛ لأن إحلال الطيبات مما أمر الله به ورسوله من المعروف، كما أن تحريم الخبائث مما نهى الله عنه ورسوله من المنكر، ومن ثم فما نوع العلاقة بين (الأمر بالمعروف) و(تحريم الخبائث)؟ وما وجه العلاقة بين هذه المصطلحات مجتمعة؟

---

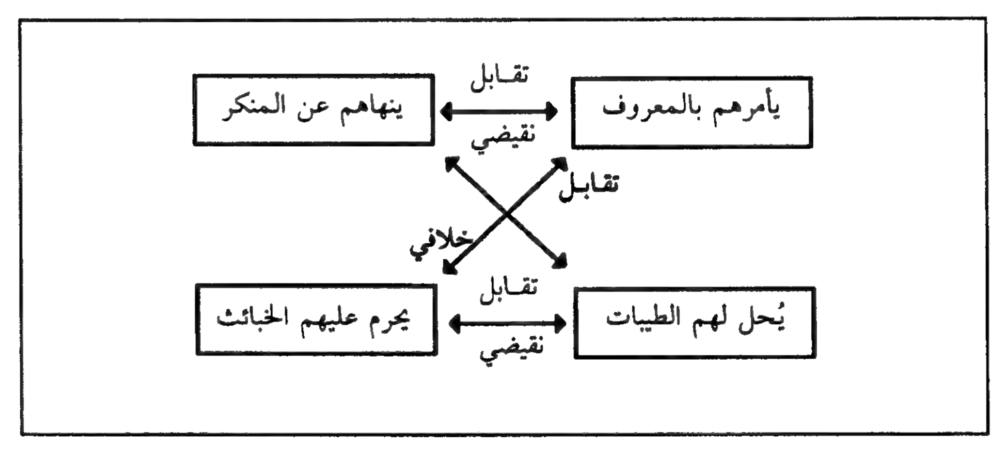
(١) وذلك قول ابن فارس في الحلال: «كأنه من حللت الشيء، إذا **أبحْتَه وأوْسعْته**. . .»: (المقاييس/حل) وأصله من «حلِّ العقدة»: (المفردات/حل).

(٢) المفردات/طيب - بتصرف -.

(٣) المصدر نفسه.

٢. ٣. ٧ - (الأمر بالمعروف) و(تحريم الخبائث)

تعاطف (تحريم الخبائث) (وتحليل الطيبات) في آية الأعراف تعاطف ضدين، وهو نظير التعاطف بين (الأمر بالمعروف) و(النهي عن المنكر)، فصارت الجملتان متقابلتان تقابل شطري القصيد، على النحو التالي:



يؤذن التقابل بين الجملتين بوجود علاقة **تقابل خلافي** بين (تحريم الخبائث) و(الأمر بالمعروف)، حيث قابل (التحريم) (الأمر)، وهما فعلا الرسول ﷺ، في مقام بيان أعلام نبوته، والتقابل بينهما خلافي؛ لأن التحريم ضد التحليل[1]، والأمر نقيض النهي. وفي التحريم معنى «**المنع الشديد**»[2]، وهو يقابل معنى **الطلب** في الأمر. وهذا التقابل الخلافي نلمسه أيضاً بين متعلقاتهما؛ حيث قابل (المعروف) (الخبائث)، وهما خلافيان، وضد المعروف المنكر و«خلاف الخبيث الطيب»[3]؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾[4]، والخبائث وردت في هذا الموضع بمعنى: «**ما لا يوافق**

---

(١) وإلى هذا التناقض بينهما أشار ابن فارس في قوله: «... فالحرامُ ضِد الحَلال»: (انظر المقاييس/حرم وكذلك القاموس المحيط/حل).

(٢) وعلى هذا الأصل مدار التحريم في اللغة، ومنه «حريم البئر، وهو ما حَولَها، يُحرَّم على غير صاحبها أن يَحفِر فيه»: المقاييس/حرم.

(٣) وهو أصل في المادة: (انظر المقاييس/خبث).

(٤) النساء/٢.

النفس من المحظورات»[١]. ومن تأمل هذا المعنى وجد فيه مفارقة واضحة لما في المعروف من معنى رضى النفس به وسكونها إليه لصلاحه ونفعه.

وفي ضوء ما تقدم من علاقات الضميمة، يتبين:

أن الأمر بالمعروف انتظم في شبكة كبيرة من المصطلحات التي شكلت لُحمة الدين وسداه، مما أفاد أنه يحتل المقام الأسمى من بين مصطلحات هذا الدين، ويجسد المزية العظمى التي تليق بمهمة خلافة المؤمنين، الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويصبرون على أذى الناس، ويُرشدونهم إلى كل خير وصلاح، ويزجرونهم عن كل شر وفساد. ولنا فيما سيأتي من قضايا التفسير الموضوعي مزيد بيان لمقام هذا المصطلح العظيم.

المطلب الثالث: «أولو الأمر»

ورد الأمر معرفاً، مطلقاً، مضافاً إلى أولي من (الأوْلِ)، في آيتي النساء المدنيتين:

٥٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾[٢]، ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٞ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٣﴾.

---

(١) المفردات/خبث. وأصل الخبيث والمُخبث عند الراغب: «الرديء الدُّخْلة الجاري مَجرى خبثِ الحديد... وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبيح في الفعال».

(٢) وهذا ما يقرره بيان رسول الله ﷺ بين يدي الآية؛ إذ قال تعالى: «**مَن أطاعَني فَقد أطَاعَ الله، ومَن عَصاني فَقد عَصَى الله، ومَن أطاعَ أميري فَقد أطاعَني، ومَن عَصى أمِيري فقَد عَصَاني**»: (البخاري في التفسير والأحكام (٧١٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه).

وبتدبر الآيتين في سياقهما، نسبر أغوار الضميمة ونغوص على دررها؛ تعريفا، وعلاقات!

٣. ١ ـ بين يدي السياق

وردت الآية الأولى في سياق بيان القاعدة الكلية في منهج تشريع الأمة المسلمة وأصوله؛ حيث أمر الله هذه الأمة بطاعته وطاعة رسوله، وأولي الأمر منهم، ثم أرشدهم عند حدوث الخلاف بينهم في شيء من الأمور[(١)] إلى طريقة فصله بالرد إلى كتابه وسنة نبيه ﷺ.

«ومناسبة هذه الآية لما قبلها أن الله لما أمر الولاة بأداء الأمانات إلى

(١) ذكر المفسرون ضمن روايات النزول بعض وقائع الخلاف التي جرت بين بعض أمراء السرايا والمؤمنين؛ كخالد بن الوليد ـ أمير السرية ـ وعمار ابن ياسر، فيما يرويه ابن جرير ـ بإسناده ـ عن السدي: (جامع البيان: ١٤٨/٥/٤ وكذلك تفسير ابن كثير: ٤٩١/١) وهذه الروايات تفيد في توجيه المعنى إلى أن أولي الأمر هم أمراء السرايا، وأن طاعتهم واجبة في ظروف الحرب، غير أن تدبر مناسبة الآية لما قبلها، ومراعاة قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ يبين أن «أولو الأمر» ليسوا مجرد أمراء الحرب فقط، وأن طاعتهم ليست واجبة في ظروف القتال فحسب! وأن حوادث الخلاف الخاصة التي كانت سبب نزول الآية، لا يجوز أن تعتبر مخصِّصة لدلالتها العامة، بل هي ونظائرها داخلة في عموم الحكم الذي جاء في الآية دخولاً أولياً. ومن هنا، لم يقيد بعض المفسرين (أولي الأمر) بأمراء السرايا، بل حملوه على العموم في كل أولي الأمر من الأمراء، والعلماء، والحكام... الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة: (يراجع: التحرير: ٩٨/٥ وتفسير ابن كثير: ٤٩١/١ وتفسير المراغي: ٢٤٣/٥/٢...).

كذلك لم يقيدوا تفسيرهم للتنازع بالخلاف في شؤون الحرب بين الأمراء والأمة، بل ذهبوا إلى شمول التنازع كل من يمكن بينهم التنازع ـ عدا الرسول ﷺ ـ في كل شيء من أصول الدين وفروعه؛ كالتنازع بين الرعية، وبينهم وبين ولاة أمورهم، وتنازع العلماء بعضهم مع بعض في أمور الدين... وأحسن عباراتهم في ذلك قول الطبري: «... فإذا اختلفتم أيها المؤمنون في شيء من أمر دينكم أنتم في ما بينكم، أو أنتم وولاة أمركم...»، وعن مجاهد: «... فإن تنازع العلماء ردوه إلى الله»: (جامع البيان: ١٥٠/٥/٤ وكذلك التحرير: ٩٨/٥ وأضواء البيان: ٢٩١/١).

أهلها، وأن يحكموا بالعدل، أمر الأمة بطاعتهم والنزول على قضاياهم»[١]؛ لأن الطاعة لهم هي مظهر نفوذ العدل الذي يحكم به حكامهم[٢].

أما الآية الثانية[٣] فوردت في سياق توبيخ المنافقين على إذاعة الأخبار المظنونة عن سرايا المسلمين الغازية، ولوم من يقبل تلك الإذاعة من ضعفة المسلمين الأغرار[٤] الذين لم تكن لهم خبرة بأمور الحرب ومكايدها، وكان الأولى بهؤلاء ـ بصريح السياق ـ أن يردوا تلك الأخبار إلى رسول الله ﷺ، وإلى أمرائهم لتمحيصها.

٣. ٢ ـ التعريف

٣. ٢. ١ ـ مفهوم الضميمة في اللغة

يأتي (أولو) في اللغة بمعنى: **ذوو**[٥] من آل إليه أوْلاً ومآلاً: **رجع**[٦]. ولذلك يقال: «أوَّلَ الحكم إلى أهله»؛ أي: **أرجعه** ورده إليهم... وسُميت السياسة إيَّالَة «لأن **مرجع** الرعية إلى راعيها»[٧]. ولفظ (أولو) لم يرد في المعاجم إلا مضافاً[٨]، وأشهر ما أضيف إليه الأمر؛

---

(١) الكشاف: ٥٣٦/١ ومثله ما في الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٩/٥.

(٢) التحرير: ٩٦/٥.

(٣) مضى الحديث عنها مفصلاً في دراسة صفتي الأمن والخوف ضمن مبحث الصفات.

(٤) والظاهر أن ضمير الجمع يحتملهما معا، كما يُفهم من كلام سيد قطب والطاهر ابن عاشور: (في الظلال: ٤٤٩/٢ والتحرير: ١٣٩/٥).

(٥) القاموس/أولو. والظاهر أن لفظ «ذو» يأتي في الاستعمال العربي للدلالة على النسب الملازمة والصفات الثابتة؛ تقول: أولو الأمر، فيدل على أن النسبة فيهم لا تنفك، والصفة لا تفارق، فهم ذوو أمر، على معنى **التلازم والدوام**.

(٦) القاموس/آل وفي المفردات/أول: «... الأول: الرجوع إلى الأصل؛ ومنه الموئل للموضع الذي يُرجع إليه».

(٧) المقاييس/أول.

(٨) راجع مثلاً: القاموس/أولو. والظاهر أن إضافته لا تكون إلا للتابع والأشرف، تقول: أولو الأمر؛ فيفيد ذلك **تفخيمهم وتعظيمهم**؛ وتقول في مرادفه «ذوو»: ذو المال، وذو العرش، وذو النورين... وهذا كله تفخيم للشيء.

بالمعنى الثاني[١]، واستُعمل بهذه الإضافة في المعاجم؛ بمعنى: «الرؤساء والعلماء»[٢]، وأعم منه: «أصحاب رسول الله ﷺ، ومن اتبعهم من أهل العلم، ومن الأمراء، إذا كانوا أولي علم ودين»[٣].

٣. ٢. ٢ ـ مفهوم الضميمة في اصطلاح القرآن الكريم

وبملحظ لغوي من دلالة (أولو) على الرجوع والمآل[٤]، ومن دلالة الأمر على الشأن، استعمل القرآن الكريم «أولو الأمر» بمعنى:

جماعة من المؤمنين بعد رسول الله ﷺ، إليهم يرجع الناس في شؤونهم ومصالحهم في الحرب والسلم، وهم هنا[٥]: أمراء السرايا وقواد

(١) ينظر ص ٥٦.
(٢) اللسان والقاموس والتاج/أمر.
(٣) القاموس والكليات/أمر.
(٤) ولتصور هذه الدلالة جاء التعبير في الآيتين بـ«أولو» بدلاً من «ذوو» أو «أصحاب»؛ إذ المقام فيهما يهدف إلى إبراز معنى رجوع الناس إلى ولاتهم في شؤونهم ومصالحهم.
(٥) ذهب المفسرون في تعيين «أولي الأمر» في الآيتين طرائق قدداً؛ فمنهم من خصص مفهومه، ومنهم من أطلقه، فاختار الطبري من معانيه: **«الأمراء و الولاة»**: (جامع البيان: ٤/٥/١٥٠) واختار القرطبي ـ نقلاً عن ابن العربي ـ: **«أهل القرآن والعلم»**: (الجامع للأحكام: ٥/٢٥٩) وجمع ابن كثير بين القولين «**بأنها عامة** في كل أولي الأمر من **الأمراء والعلماء**»: (تفسير ابن كثير: ١/٤٩١). ولعله أخذ هذا المعنى من شيخه ابن تيمية في قوله: «وأولو الأمر صنفان: الأمراء والعلماء، وهم الذين إذا صلُحوا صلُح الناس...»: مجموعة الفتاوى: ١٤/٢٨/٢١٤). وغلب على الزمخشري مذهبه في العدل، فرجح «**أمراء الحق دون أمراء الجور**»: (الكشاف: ١/٥٣٦) وغلب على الطبرسي تشيعه فعين **«الأئمة المعصومين»**: (مجمع البيان: ٣/٦٤ و٣/٨٢) وقال القشيري على لسان العلم ـ : **«السلطان»**: (لطائف الإشارات: ١/٣٤١). وذهب سيد إلى «أن النص ـ الآية/٥٨ ـ يُعَيِّن من هم: (وأولو الأمر منكم)؛ أي: من **المؤمنين**...»: (في الظلال: ٢/٤١٧) وهم ـ في قول البخاري ـ : **«الأئمة والسلاطين والقضاة وأمراء الحق وولاة العدل**؛ كالخلفاء الراشدين، ومن يقتدي بهم من المهتدين، وكل من كانت له ولاية شرعية، لا ولاية طاغوتية»: (فتح البيان: ٣/١٥٥). وقريب من هذا الإطلاق قول المراغي في تفسير الآيتين: «...وهم **الأمراء**،=

الجيوش، وفقهاء الصحابة والمجتهدين من أهل العلم والقرآن والرأي، وهم الخلفاء الراشدون، ومن تبعهم بإحسان من ولاة أمور المسلمين، وهم أهل الحل والعقد في الأزمنة المتأخرة.

٣. ٣ ـ العلاقات

عطفت هذه الضميمة مجردة عن فعل «**أطيعوا**» على اسم الجلالة والرسول ﷺ في آية النساء: ٥٨[(١)]، وهذا العطف يفيد أن طاعة الرسول مساوية لطاعة الله؛ لأن الرسول ﷺ هو مبلغ الشريعة عن الله ومنفذها، فطاعته طاعة تلق وامتثال. ومن ثم، كانت أعلى مرتبة من طاعة أولي الأمر؛ لأنهم منفذون لما بلَّغه الرسول ﷺ، فطاعتهم طاعة امتثال خاصة، وهي مستمدة من طاعة الله ورسوله.

كذلك عُطِفت الضميمة على الاسم الشريف في آية النساء/٨٣، ولم يرد معطوفاً عليها بشيء في الآيتين.

٣. ٤ ـ استفادتنا من دراسة هذه الضميمة

ومن مجموع ما تقدم، يستفاد:

* أن إضافة (أولو) إلى الأمر أفاد أن الأمر صفة ثابتة لهم، وملازمة

= **والحكام، والعلماء، ورؤساء الجند، وسائر الرؤساء والزعماء** الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة... وهم **أهل الحل والعقد ورجال الشورى**»: (تفسير المراغي: ٢٤٣/٥/٢ وكذلك ص: ٢٧١ ـ بتصرف ـ) وأعم من هذه الأقوال وأدق، قول الطاهر ابن عاشور: «...هم من عدا الرسول، من الخليفة إلى والي الحسبة، ومن قواد الجيوش، ومن فقهاء الصحابة والمجتهدين، وأهل الرأي إلى أهل العلم في الأزمنة المتأخرة. وأولو الأمر هم الذين يُطلق عليهم أيضاً أهل الحل والعقد»: (التحرير: ٩٦/٥ ـ ١٤٠).

(١) ومجيء (أولو الأمر) متأخرا في الرتبة عن اسم الجلالة والاسم الشريف، شبيه بالترتيب الذي جاء في قوله ﷺ: «**الدِّينُ النَّصيحَة**». قلنا: لمن؟ قال: «**للهِ، ولِكتَابه، ولِرسُوله، وَلأئِمَّة المسْلِمين وعَامَّتِهم**»:.(مسلم في الإيمان برقم: ٥٥، عن تميم الداري).

لوظيفتهم، بها تُجرى أحوال الأمة، وتُساس شؤونها، وتُنَفذ الأحكام المُشرَّعة لها.

* أن ضميمة **«أولو الأمر»** في القرآن الكريم تأتي مقيدة بشرط الإيمان في قوله (منكم)، وهذا يدل على أن ولاية أمر المسلمين لا تخرج عن دائرة الشرع التي تحوط الولاة ـ أمراء وعلماء ـ بسياجها الحكيم، فتمنعهم من الظلم عند الحكم في الخصومات، وتنأى بهم عن شطط الرأي عند اختلاف الآراء في شيء من أصول الدين وفروعه. ومن هنا، وجب على الأمة أن تمتثل أوامرهم فيما يُسند إليهم من الشؤون والمصالح، وذلك بشرط طاعتهم لله، وطاعتهم لرسوله، واتباعهم لكتابه؛ وهذا الشرط هو الذي عناه البيان الشريف بقوله: **«إنَّما الطاعَة فِي المَعرُوف»**[1]، وقوله: **«السَّمعُ وَالطاعَة عَلى المَرء المُسلِم فيمَا أَحبَّ وَكرِه ما لَم يُؤمر بِمعصِية، فَإذا أُمِرَ بِمَعصِية فَلا سَمع ولا طَاعَة»**[2].

* * *

المطلب الرابع: «عزم الأمور»

وردت «الأمور» جمعاً من الأمر، مضافة إلى العزم، وهو مصدر بمعنى المفعول أو الفاعل، ثلاث مرات، في آيات:

لقمان: ١٧ ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

الشورى: ٤٢ ـ ٤٣ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ

---

(١) البخاري في الأحكام. رقم: ٧١٤٥، عن علي رضي الله عنه.

(٢) البخاري في الأحكام. رقم: ٧١٤٤، ومسلم في الإمارة: ١٨٣٩ ـ يراجع كلاهما عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

آل عمران: ١٨٦ ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

وفي ضوئها، نخضع هذه الضميمة لمبضع التحليل اللغوي والاصطلاحي القرآني، وفق ما يستدعيه منهج الدراسة المصطلحية في ركنه الأصيل؛ التعريف.

٤. ١ ـ مفهوم «عزم الأمور» في اللغة

أصل العزم في اللغة: **الصريمة والقطع والجد والعقد**، قال ابن فارس: «العين والزاي والميم أصل واحد صحيح يدل على **الصريمة والقطع**» ومنه قيل: «. . . اعتزم السائر، إذا سلك القصد **قاطعاً** له. والرجل يعتزم الطريق: يمضي فيه لا ينثني. . .»[(١)].

ومن دلالة القطع والجد في السير، استُعمل العزم في كل ما عُقد عليه القلب من الأمور، يقال: «عزم على الأمر: أراد فعله **وقَطع** عليه، أو **جد** في الأمر، وعزم الأمر نفسُه: عُزم عليه. . .»[(٢)] وتنبه الراغب إلى أن العزم للقلب، فقال: «العزم والعزيمة **عقد القلب** على إمضاء الأمر. . .»[(٣)]. أما

---

(١) المقاييس/عزم.

(٢) القاموس المحيط/عزم، وقد أسند إلى الأمر في سياق وصف موقف المنافقين من الجهاد، وما يعتمل في نفوسهم من جبن وهلع عند مواجهة هذا التكليف، بصريح آية محمد: ٢١: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ فمعنى عزم الأمر في هذا الموضع: **جد الأمر**. والعزم والجد لأصحاب الأمر، أو **وجب ولزم** فرض القتال، وجاء أمر الله بفرض ذلك: (انظر: تفسير الطبري: ٥٥/٢٦/١٣ والكشاف للزمخشري: ٥٣٦/٣. وتاج العروس، ولسان العرب/عزم).

(٣) المفردات/أمر. ومن هذه الدلالة جاء «العزم في لغة هذيل بمعنى **الصبر**، يقولون: ما لي عنك عزم، أي: صبر»: (تاج العروس واللسان/عزم).

الأمور فهي جمع أمر بالمعنى اللغوي[١].

٤. ٢ ـ مفهوم «عزم الأمور» في اصطلاح القرآن الكريم

ويملحظ لغوي من دلالة العزم على القطع والعقد وقصد الإمضاء، ومن دلالة الأمور على العموم والشمول للأقوال والأفعال والصفات. . .

وردت ضميمة «عزم الأمور» في اصطلاح القرآن الكريم بمعنى: **الطاعات أو الصفات المعزوم عليها أو العازم أصحابها عليها**؛ أي: التي يجب أن تُعقد عليها العزيمة، ويُمضى فيها الرأي، وتصح فيها النية، وهي المشار إليها في الآيات: التقوى، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من الطاعات الواجبة، والصبر على الابتلاء في الأموال والأنفس، وعلى الأذى كالطعن في الدين[٢]، وغفران ذنب

---

(١) ينظر في ص ٥٦.

(٢) أما الصبر على الابتلاء في الأموال والأنفس، فيشمل الجهاد، وأما الصبر على الأذى، ففي وقتي الحرب والسلم، ولا يعارض ذلك ما نقله الرازي عن الواحدي في التفسير الكبير: ١٣٣/٩/٥ «أن هذا ـ أي: الأمر بالصبر على الأذى في آية آل عمران ـ كان قبل نزول آية السيف»؛ لأن الظاهر أن الآية نزلت بعد غزوة أحد، وهي بعد الأمر بالقتال، ويعضد ذلك أن سياق الآيات المتقدمة على هذه الآية في الكلام على غزوة أحد، فلا ينافي الأمرُ بالقتال الأمرَ بالصبر على تحمل أذى الألسن، وقد روى المفسرون من روايات النزول قصصا ترسم صورا من هذا الأذى البليغ، ومن ذلك ما رواه القرطبي عن عكرمة، أن الآية نزلت بسبب أن أبا بكر رضي الله عنه سمع فنحاصا اليهودي يقول: إن الله فقير ونحن أغنياء . . . فلطمه، فشكاه إلى النبي ﷺ فنزلت: (الجامع لأحكام القرآن: ٣٠٤/٤). ومثل هذا الافتراء على الله نسبه الطبري إلى مطلق اليهود في: جامع البيان: ٢٠٠/٤/٣. وأسند البخاري عن أسامة بن زيد، عند تفسير هذه الآية أن عبدالله بن أبي قال لرسول الله ﷺ، وقد قرأ عليهم الرسول ﷺ القرآن: «**إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا** . . .» فرد عليه عبدالله بن رواحة رضي الله عنه: بلى يا رسول الله فاغْشَنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود . . . الحديث: (راجع صحيح البخاري: كتاب التفسير. رقم الحديث ٤٥٦٦ وتفسير ابن كثير: ٤١٢/١) ومَن تَدبَّر هذه الروايات وغيرها علم أن الأذى هو الضرر بالقول، ويشمل أقوالهم في الله تعالى ووحيه، وفي رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد أخبر الله المسلمين بهذا الأذى، وبما سيحل بهم من البلاء في الأموال والأنفس، إعدادا لهم لتلقي كل ذلك، فيكونوا أحمل لما يرد عليهم منه.

المسيء[١]، وهي من الصفات التي ندب الله إليها المسلمين الذين كانوا يتعرضون لأذى المشركين واليهود؛ لنيل الثواب والأجر، وتحقيق النصر.

ويُرجح هذا المعنى أن العزم ورد في القرآن الكريم تسع مرات[٢]، مسنداً إلى الإنسان[٣]، بمعنى: **تصميم الرأي، وتوطين النفس، وعقد القلب على الأمر**، ولم يأت العزم قط مضافاً أو مسنداً إلى الله تعالى، ولا وُصف سبحانه بأنه ذو عزم؛ وإنما العزم لعباده، وهو من مزايا المؤمنين البالغين أرقى درجات الإيمان بتوفيق منه تعالى؛ لأن شأن الفضائل أن يكون عملها عسيرا على النفوس لمعاكستها الشهوات، ومن ثم وُصف أفضل الرسل بأولي العزم في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٤]،

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره: ٤٤/١٦ أن المراد بمن «صبر وغفر» من آية الشورى: «أهل بدر ـ رضوان الله عليهم ـ حيث قبلوا الفداء وصبروا على الأذى» ونقل عن ابن زيد أن هذه الآيات ـ ويعني: آية الشورى وثلاث آيات قبلها ـ في المشركين، وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آية القتال». والظاهر أن جملة: «لمن صبر وغفر» معطوفة على جملة: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾: (الشورى/٤١)، وهي تفيد بيان مزية المؤمنين الذين تحملوا الأذى من المشركين، وصبروا عليه، ولم يُؤاخِذوا به من آمن ممن آذوهم؛ مثل أخت عمر بن الخطاب قبل إسلامه، ومثل صهره سعيد بن زيد الذي كان في صبره خيرٌ دخل به عمر في الإسلام: (انظر: التحرير والتنوير: ١٢٢/٢٥ وكذلك: في ظلال القرآن: ٣٠٣/٧).

(٢) ووروده في المواضع التسعة بمختلف الصيغ: **الفعل الماضي**، ثلاث مرات. ويسند إلى الرسول ﷺ والأمر، والذين يولون من نسائهم، كما في آية آل عمران: ١٥٩ ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ ومعها آية محمد/٢١ والبقرة/٢٢٧، **والفعل المضارع المقرون بلا الناهية**، في النهي عن النكاح في العدة، في آية البقرة: ٢٣٥ ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾، والمصدر، خمس مرات، مضموما إلى «الأمور» ـ كما تقدم ـ و«أولي»، في آية الأحقاف: ٣٥ ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وفي سياق نفيه عن آدم قبل هبوطه إلى دار الابتلاء، بآية طه ١١٥ ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ۝١١٥﴾.

(٣) ويؤيد هذا قول أبي هلال العسكري في الفروق: ١١٩: «العزم يكون في فعل يختص به الإنسان».

(٤) الأحقاف من الآية: ٣٥.

ووصفت الأمور بالعزم هنا، والمراد: الأمور التي ينبغي أن يعزم عليها أهل العزم[١]، وفي وصفها بالمصدر تنويه بمضمونها، ومبالغة في تحقق المعنى فيها، وزيدت تنويها بشرفها، وتأكيداً على مزيتها باسم الإشارة و«إن» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، ولام الابتداء في قوله: ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ من آية الشورى[٢].

---

(١) وقد ذكر بعض المفسرين وجها آخر في تفسير «عزم الأمور»، فاختار الطبري: «أن ذلك مما أمر الله به من الأمور عزما منه» (جامع البيان: ١١/٢٠/٧٣، تفسير آية لقمان، ومثله ما في تفسير آية آل عمران: «فإن ذلك الصبر والتقوى مما عزم الله عليه وأمركم به»: ٣/٤/٢٠٠، وقال في تفسير آية الشورى: «إن صبره ذلك وغفرانه ذنب المسيء، لمن عزم الأمور التي ندب الله إليها عباده، وعزم عليهم العمل بها...»: (١٣/٢٥/٤٠) وفي البحر المحيط، عن ابن جريج ـ ورجحه القرطبي ـ: (الجامع لأحكام القرآن: ١٤/٦٩، تفسير آية لقمان): «مما عزمه الله وأمر به» (البحر المحيط: ٨/٤١٦، تفسير آية لقمان) أو «مما عزمه الله تعالى وأوجبه على عباده» في قول ثان للآلوسي (روح المعاني: ٣/٤/٢٣١) أي: «قطعه قطع إيجاب وإلزام» في قول الزمخشري: (الكشاف: ٣/٢٣٤، تفسير آية لقمان. ومثله ما في تفسير آية آل عمران: ١/٤٨٦، وحكاه الزمخشري وجها ثانيا للمعنى، ونظيره يُطالع في مفاتيح الغيب: ٥/٩/١٣٤).

والذي يظهر، والله أعلم، من تفسير المفسرين لعزم الأمور بهذا الوجه، الميل إلى اعتبار نسبة العزم إليه سبحانه، أخذا مما يوحي به اللفظ في بعض موارده في الحديث، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ في زكاة السائمة: **«في كل سائِمَة إبِلٍ في أربعين بنت لَبون، لا يُفرق إبِل عن حِسابِها، من أعطاها مُؤتجرا؛ فله أجرُها، ومَن مَنعَها فإنا آخِذوها وشَطْر مالِه، عَزْمَة من عَزَمات ربِّنا عز وجل ليسَ لآل محمد منها شيء»** (صحيح سنن أبي داود: كتاب الزكاة: ٢/٤٣٦). وقد أورد الزمخشري هذا الحديث عند تفسير آية لقمان، واكتفى منه بجملة: «عزمة من عزمات ربنا» ونسبها إلى قول العرب، بعبارة: «قولهم»: (الكشاف: ٣/٢٣٤) والعزمة في اللغة: **«الجد في الأمر والقوة»** (تاج العروس/عزم) وفيه دليل على أن أخذ ذلك واجب مفروض من الأحكام. لهذا فإن معنى «عزمة من عزمات الله: **حق من حقوقه**؛ أي واجب مما أوجبه، وعزائم الله: **فرائضه التي أوجبها**» (القاموس المحيط/عزم) ومن هنا، لا يبعد أن يُحمل عزم الأمور على هذا المعنى، لاسيما إذا حملنا العزم من الله على معنى الإرادة التي تكون منه حكماً وقضاءً وإلزاماً، فالله عزم عليها، أي: أمر بها وأوجبها، وألزم عباده الأخذ بها، فلم يكن للمعزوم عليه بد من فعلها، ولا يجوز أن يترخص في تركها.

(٢) وتَفرُّد هذه الآية المكية بهذا المؤكَّد، مضافاً إلى اسم الاشارة و«إن» دليل قوي على=

٤. ٣ ـ استفادتنا من دراسة هذه الضميمة

وانسجاماً مع ما تقدم، يتبين:

* أن إضافة الصفة إلى الموصوف في (عزم الأمور) أفادت نوعاً من الأمور، وهي التي ينبغي العزم والتصميم عليها لوجوبها.

* أن تردد الصبر والغفران من الأمور العزم، المشار إليها في هذه الآيات، تأكيد منه تعالى على اتصاف المسلمين بهما، والتزود بزادهما الأصيل؛ لأنهما أقرب المسالك إلى دخول المخالف في الدين. وقد بين الله تعالى أن خصلة الصبر لا يُعطاها إلا صاحب حظ عظيم في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[1].

* أن اطراد مجيء العزم بالصيغة المصدرية، مضافاً إلى لفظ (الأمور)، معرفا، أفاد معنى الإطلاق والامتداد والثبات، فدل على أن الطاعات والخلال التي أمر الله بها في الآيات المتقدمة من الواجبات والفرائض الثابتة التي لا تتغير بتغير الإنسان والزمان والمكان؛ إذ كانت مأموراً بها في سائر الأمم، موصى بها في الأديان كلها. وناهيك بآية لقمان مؤذنة بقدمها!

* أن الأمور العزم التي تضمنتها الآيات المتقدمة شملت فرائض هذا الدين وتكاليفه، فدل ذلك على أن العزم المحمود هو ما عزم عليه أهل الحزم والعزم من أمور الدين في تصميم نافذ، لا تثنيه المصاعب والمشقات، ولا تضعفه المكابدة والمجاهدة للنفس والناس. وعليه، فالعزم الحق هو العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمة، وقوامه الصبر على المكروه وباعثه التقوى، وقوته شدة المراقبة، بأن لا يتهاون المؤمن عن

= أن المسلمين الأُول كانوا أشد الناس بلاء في دين الله، إذ عُذِّبوا، وقُتِّلوا، ومُثِّل بهم، ومن ثم احتاجوا إلى ترويضهم على الصبر، والربط على قلوبهم بالعزم، للثبات على الإسلام، والمضي على صراطه السوي دون تهاون أو تخاذل.

(١) فصلت/٣٥.

محاسبة نفسه. ولهذا، فإن من عزم على الكفر والمعاصي لا يمكن أن يدخل في زمرة أهل العزم السالكين طريق النجاة؛ لأنه عزم على أمر الشيطان فيما عهد إليه، ووافقه لسهولة ما دعاه إليه من الفساد في الأرض.

❋ ❋ ❋

المطلب الخامس: «عاقبة الأمور»

وردت العاقبة، وهي مصدر من عَقَبَ[1]، مضافة إلى الأمور[2]، في مقام وعد المهاجرين بنصر الله في الدنيا، ووعد المستسلم لله بلقاء الكرامة في الآخرة، بتذييل آيتي:

لقمان: ٢٢ ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

الحج: ٤١ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

وانطلاقا من هاتين الآيتين، نميط النقاب عن مفهوم الضميمة في اللغة، وفي اصطلاح القرآن الكريم.

٥. ١ ـ مفهوم الضميمة في اللغة

أصل العاقبة في اللغة يدل على **«تأخير شيء وإتيانه بعد غيره»**[3]

---

(١) وهو أحد المصادر التي جاءت على «فاعلة» كالآمرة، والعافية، والخاتمة: يراجع: تاج العروس/أمر (بتصرف).

(٢) أضيفت العاقبة في الحديث الشريف إلى الأمر بصيغة المفرد، فدلت تلك الإضافة على معنى: **آجل أمر الإنسان كله**، بصريح السياق في دعاء الاستخارة، من قوله ﷺ: «... **اللَّهُم إن كُنتَ تَعلَم أن هذا الأمرَ شَرٌّ لي في دِيني، ومَعَاشي، وعَاقِبَة أمْرِي**، أو قال: **في عَاجِل أمْرِي وآجله**، فاصْرِفه عَني واصْرِفْني عَنه...» (البخاري في التهجد: ١١٦٢ من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ).

(٣) المقاييس/عقب. ومعه: الارتفاع، والشدة، والصعوبة، أصلاً ثانياً.

ومنه: العَقِب في مُؤخَّر الرِّجْل[١]، ويقال: «رأيت عاقِبة من الطير، أي: طيرا يعقب بعضها بعضاً، تقع هذه مكان التي كانت طارت قبلها»[٢].

وهذا المعنى الحسي، استعملوه معنوياً في «...آخر كل شيء»[٣] ومنه قولهم: «ستجد عقب الأمر كخير أو كشر، وهو العاقبة»، ومنه «العقوبة»، وسميت بذلك لأنها تكون آخراً وثاني الذنب[٤]. أما الأمور، فهي جمع أَمْر بالمعنى اللغوي الثاني[٥].

٥. ٢ ـ مفهوم الضميمة في اصطلاح القرآن الكريم

وانسجاماً مع سياق الضميمة في الآيتين ومع أصل استعمالها في اللغة، وردت عاقبة[٦] الأمور بمعنى: **آخر شؤون الخلق**، وهي تحقيق النصر

---

(١) المفردات والقاموس/عقب.

(٢) حكاه ابن فارس، عن الأصمعي في المقاييس/عقب.

(٣) القاموس/عقب.

(٤) المقاييس/عقب.

(٥) انظر ص ٣٤.

(٦) والعاقبة وردت في القرآن الكريم مفردة مطلقة، فاختصت ـ في قول الراغب ـ بالثواب؛ نحو قوله تعالى من آية الأعراف: ١٢٧ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومعها آية القصص: ٨٣، وقد تستعمل مضافة في **العقوبة**؛ نحو: آية الروم: ١٠ ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: (يراجع: المفردات/عقب ـ بتصرف ـ).

والاستقراء القرآني للعاقبة يرجح ما ذهب إليه الراغب؛ إذ تأتي إحدى وثلاثين مرة، وأكثر ما تأتي مضافة إلى المكذبين، والمجرمين، والمفسدين، والظالمين، والمنذَرين...، في مقام العظة والاعتبار بمآلات الأمم السابقة؛ كالذي في آيات: الأعراف/٨٦، والنمل/١٤، والقصص/٤٠، والأنعام/١١، والصافات/٧٣، وسياق هذه الآيات وغيرها يشهد على أن العاقبة استُعملت في معنى **آخر الكفر والعصيان**، وهو **مجازاة الله للكافرين بعذاب الاستئصال**. ولعل هذا المعنى يلحظ فيه ـ بوضوح ـ أصلاً المادة؛ إذ العاقبة هي آخر الشيء، والعاقبة تكون آخر الذنب، و«سميت بذلك لشدتها وقوتها»: (ينظر: المقاييس/عقب)، وهذا المعنى ينسجم ـ تماماً ـ مع موقع العاقبة داخل الآيات؛ إذ يكاد يطرد ورودها في أعقابها وذيولها.

والتمكين للمسلمين في الدنيا[١] والثواب والعقاب على أعمالهم في الآخرة[٢] وتقديم الجار والمجرور: «لله» و«إلى الله» على العاقبة، أفاد أن المصير والعاقبة إلى الله لا إلى غيره[٣]، فلا يكون لأحد أمر أو نهي، ولا عقاب أو ثواب.

---

(١) وهذا المعنى يتعين في آية الحج، وقريب منه قول الرازي: «...**السلطنة والحكم**»، (مفاتيح الغيب: ٤٢/٢٨/١١ ـ بتصرف ـ) ومثله قول الزمخشري: «... **إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم**»: (الكشاف: ١٦/٣) وذهب أبو حيان إلى أن ذلك وعد يتضمن وعيداً للمخالف ما ترتب على التمكين: (البحر: ٥١٨/٧ وكذلك تفسير المراغي: ٢٤٠/١٦/٦)، وهذا المعنى يحتمله لفظ العاقبة ولا يستبعده؛ لأنه يتسق مع عادة القرآن الكريم في استعمالها. ولعل هذه الأقوال يجمعها قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾. وقد خصص الطبري (عاقبة الأمور) بمصير الأعمال في الثواب والعقاب عليها في الآخرة: (جامع البيان: ١٧٨/١٧/١٠) والسياق في النصر والتمكين في الدنيا للمسلمين، وهو يرجح ما ذهبنا إليه، وإن كان التذييل في الآية يفيد العموم.

(٢) ظاهر آية لقمان يومئ إلى وعد المسلمين خاصة بالجزاء الأوفى في الآخرة، إلا أن التعريف في (الأمور) للتعميم، وهو يفيد أن مرجع عاقبة كل أمر خيره وشره إلى الله، وهو المسائل أهله عنه، وقد يراد بهذا التعميم «أن أمور المسلمين التي هي من مشمولات عموم الأمور صائرة إلى الله، موكولة إليه»: (يراجع: التحرير: ١٧٧/٢١/١٠ ـ طبع سحنون ـ) وهذا يدل على أن العاقبة مضافة إلى الأمور يتسع معناها ليشمل الجزاء على كل أمر خيرا كان أو شرا، في الدنيا أو الآخرة.

(٣) تقدم استقراء نظائر الآية في مبحث التعريف القرآني للأمر، فهدى إلى أن القرآن الكريم لا يكاد يستعمل لفظ (الأمور) مسندا إلى فعلي (الرجوع) و(المصير) بصيغة القصر، إلا في **رجعة الشؤون إلى الله في الآخرة**؛ لأن هناك في دار الجزاء يظهر حكمه، فلا يبقى لأحد من ملوك الدنيا أمر على الناس ولا نهي، فمن هذه الجهة إذن، يكاد يتمحض معنى «عاقبة الأمور» للجزاء الأخروي على شؤون الخلق؛ غير أننا إذا نظرنا ـ من جهة أخرى ـ في استعمال العاقبة في القرآن الكريم، نجد أنه لا يكاد يحتمل صريح لفظها أي تفسير بغير الجزاء الدنيوي على أعمال الكفر، وقلما تأتي بدلالة الجزاء المحمود في الدنيا والآخرة، كالذي في الآيتين قيد الدرس. والظاهر ـ والله أعلم ـ أن عاقبة الأمور شاملة للجزاء في الدارين، بدلالة السياق ودلالة العموم في الأمور.

٥. ٣ ـ من ثمرات دراسة الضميمة

وامتدادا لما سبق، يستخلص:

* أن مجيء وصف العاقبة ملحوظاً فيه معنى الآخرية والجزاء، ومضافاً إلى لفظ «الأمور»، أفاد نمطاً من الأمور، وهي أعمال الخلق التي تؤول إليه سبحانه في الثواب والعقاب عليها في الدنيا عامة والآخرة خاصة.

* أن لشؤون الخلق نتائج دنيوية وأخروية؛ تتمثل في الإحسان أو التأديب الإلهيين، وإن استشعار الإنسان لتلك النتائج واستحضارها في كل أموره، يُضعف من سطوة النفس الأمارة، المقصرة من المحاسبة، ويُقَوي من عزيمة النفس اللوامة، الفطنة للمعصية، والصابرة على الطاعة.

* أن الفوز بالعاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة، إنما يكون بالإيمان بالله، والاستسلام لطاعته، وأداء فرائضه ليس إلا! فلننقذ إذن، بالإيمان، والاستسلام، والإحسان آخر أمورنا، وخواتيم أعمالنا، إزاء ما يحيط بنا في زماننا هذا من فتنة الإغراء، وجاذبية الهوى، وخداع اللهو!

❋ ❋ ❋

المطلب السادس: إضافات أخرى

ومما أضيف الأمر إليه، ولم يبلغ درجة ما تقدم:

٦. ١ ـ أمر المؤمنين:

وتحت هذا الصنف إضافات، وهي:

١.١.٦ ـ أمر (موسى)[١]

جاءت هذه الإضافة ثلاث مرات، دعاء على لسان موسى، في آيتي

(١) ورد هذا الاسم ظاهراً في آية طه: ٣٦ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾.

طه[١]/٢٥ ـ ٣١ واعتذاراً من موسى بالنسيان للخضر، في آية الكهف: ٧٣ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

* **التعريف**

يمكن التمييز في هذه الآيات بين معنيين لأمر (موسى):

* **أمري**: مر معناه في آيتي طه. وإضافة (أمر) إلى ضمير المتكلم لإفادة مزيد اختصاصه به.

* **أمري**: في آية الكهف هو شأني معك، من متابعتي وصحبتي إياك.

* **الصفات**

* **(اليسر)**: ورد صفة لأمر (موسى)، في صورة فعل الأمر، دلالة على طلب موسى السهولة والفرج في أداء ما كلفه الله به من الذهاب إلى فرعون؛ لأنه علم ما عليه فرعون من الطغيان، وما يصحب دعوته إلى الله من الشدائد، وهذا المعنى ملحوظ في استعمال العربية لليسر؛ إذ جاء قولهم: «تيسر الأمر إذا سهُل وتهيأ على راحة وبلا معاناة»[٢].

* **العسر**: ضد اليسر[٣]، ومعناه في آية الكهف: الضيق والعنت في المعاملة؛ أي: عدم تسامح الخضر مع موسى فيما فعله، وهو يسأله التيسير على متابعته إياه بالإغضاء وترك المناقشة.

٢.١.٦ ـ أمر (سليمان)

وردت هذه الإضافة في سياق بيان إنعام الله تعالى على نبيه سليمان، بتسخير الريح له، بصريح آيتي: الأنبياء: ٨١ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، وص: ٣٦ ...﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ

---

(١) تقدم ذكرهما ضمن المعنى الاسمي الثاني في التعريف، ص٨١.

(٢) التفسير البياني: ٧٢/١، وجاء في القاموس/يسر: «يسرهُ: سهله، يكون في الخير والشر».

(٣) المفردات/عسر.

رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾[١].

* **التعريف**

أمره: وهو الأمر المقابل للنهي، واستُعير للإرادة والرغبة بإضافته إلى ضمير سليمان، والمعنى: أن الريح تجري «بإرادة سليمان ورغبته»[٢]، أو تطيعه حسب ما يريد ويأمر[٣] وإضافتها إليه بلام التمليك يعضد هذا المعنى، فكان إذا أراد الإسراع في السير، سارت عاصفة قوية إلى مملكته في الشام، وكان إذا أراد اللين، سارت رخاء إلى حيث قصد من أقطار الأرض[٤].

وبالجملة، فإن إضافة الأمر إلى ضمير سليمان إضافة غير حقيقية؛ لأن الأمر كله لله، يصرفه وفق مشيئته وإرادته. ولا يملك نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا أحد من مخلوقاته أن يصرف الريح إلى الجهات التي يريدها إلا بأمر الله وإذنه.

٣.١.٦ ـ أمر (ذو القرنين)

أضيف الأمر إلى الضمير العائد على «**ذي القرنين**» في سياق الاعتبار بأحواله في شؤون الصلاح والعدل، في آية الكهف[٥]: ٨٨ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

---

(١) وفي الآية: ٣٤ ذُكر اسمه صراحة في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾.

(٢) التحرير: ٢٦٥/٢٣ ومفاتيح الغيب: ٢١١/٢٦/١٣، تفسير آية ص.

(٣) البحر: ٤٥٧/٧ وأضواء البيان: ٧٣٧/٤، تفسير آية الأنبياء. وجوز الطاهر في التحرير: ٢٦٥/٢٣ «أن يعبر «**بأمره**» عن دعائه الله أن تكون الريح متجهة إلى صوب كذا، حسب خطة أسفار سفنه».

(٤) ذكر المفسرون في الجمع بين صفتي العصف والرخاوة، وجهين: (**أولهما**) : أن الريح كانت رخاء في نفسها وعاصفة في عملها، مع طاعتها لسليمان وهبوبها على حسب ما يريد: (ذكره الزمخشري في الكشاف: ٥٨٠/٢، تفسير آية الأنبياء)، و(**ثانيهما**): أنها كانت لينة مرة، وعاصفة أخرى: (مفاتيح الغيب: ٢١١/٢٦/١٣، تفسير آية ص) والمقام قرينة على أن المراد: المواتاة لإرادة سليمان في رخاوتها وعصفها.

(٥) وفي الآية قبلها، ذُكر اسم ذي القرنين صراحة: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾: الكهف/٨٦.

* **التعريف**

أمرنا: هو الأمر بالمعنى المصدري الأول[١]، مضافا إلى ضمير ذي القرنين.

٤.١.٦ ـ أمر (ملكة سبأ)[٢]

أضيف الأمر إلى الضمير العائد على ملكة سبأ في مقام مشاورتها لأشراف قومها في أمر الكتاب الذي أرسله إليها سليمان، ابتداء من آية النمل: ٢٩ ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ إلى الآية: ٣٢ ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾.

* **التعريف**

أمري: تقدم معناه.

ويُستفاد من إضافة «الأمر» إلى ضميرها أنها «المخاطبة بكتاب سليمان وأنها المضطلعة بما يجب إجراؤه من شؤون المملكة، وعليها تبعة الخطأ في المنهج الذي تسلكه من السياسة...»[٣].

٥.١.٦ ـ أمر (الفتية)

ورد ضمير الفتية مضافاً إلى الأمر بمعنى الحال والشأن، في سياق بيان صفتهم، وذكر أقوالهم الدالة على ثباتهم، في آيتي الكهف: ١٠ ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ و١٦ ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) ينظر ص ٨٧ من التعريف وقد خصص بعض المفسرين متعلق أمره بالزكاة والخراج، وغيرهما: (انظر: الكشاف: ٤٩٨/٢ ومفاتيح الغيب: ١٦٩/٢١/١١) وأطلقه البعض الآخر على «كل ما يقربه إلى الله»: (انظر: جامع البيان: ١٣/١٦/٩).

(٢) وهو ما يفهم من قول الهدهد لسليمان، في آيتي النمل: ٢٢، ٢٣ ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾.

(٣) انظر التحرير: ٢٦٢/١٩ ـ ٢٦٣.

* **التعريف**

الفتية: جمع فتى، وهو «الطري من الشباب»[١]، وأُطلق في القرآن الكريم على أهل الكهف، الشباب المؤمنين الصالحين الذين اعتزلوا قومهم الكفار، وفروا بدينهم إلى سكنى الكهف.

أما أمر (الفتية) في القرآن الكريم، فيراد به معنيان متقاربان:

أولهما: حالهم الذي يكونون فيه من مفارقة أهل الشرك والتمسك بالإيمان، وإلى هذا المعنى تشير الآية الأولى.

ثانيهما: حال عيشهم الصعب، وما هم فيه من الكرب خوفاً منهم على أنفسهم ودينهم، وإلى هذا المعنى تشير الآية الثانية.

* **الصفات**

ـ **الرَّشَد**: «**الهداية**»[٢] و«الاستقامة على الحق مع تصلب فيه»، أخذا من «الرَّشادَة، أي: الصخرة»[٣]. والرَّشَد ـ بفتحتين ـ أخص من الرُّشْد في القرآن الكريم؛ فإن الرُّشْد غلب في حسن تدبير المال[٤]، والرَّشَد غلب مجيئه في الدين؛ ومنه آية الكهف؛ إذ ورد صفة لبعض أمر الفتية أو كله[٥]؛ بمعنى: اجعل لنا بعض أمرنا وهو الذي نحن عليه من مفارقة دين أهلنا وتوحيد الله رَشَدا؛ أي: «سبباً للاهتداء إلى الدين الحق والثبات عليه،

---

(١) المفردات/فتى.

(٢) المصدر نفسه/رشد.

(٣) القاموس/رشد، ومثله ما في المقاييس: «الراء والشين والدال أصل واحد يدل على استقامة الطريق».

(٤) ومنه في آيات الأحكام: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾. . .: النساء/٦.

(٥) ويتخرج هذا المعنى على وجهين في «من»، أحدهما: «أنها هنا للتجريد، وعليه فالمعنى: اجعل لنا أمرنا رشدا كله. . . والثاني أنها للتبعيض، وعليه فالمعنى: واجعل لنا بعض أمرنا. . .»: (انظر: أضواء البيان: ٤/٢٣).

والسداد إلى العمل بالذي تحب»[١]، أو اجعل أمرنا رَشَداً كله[٢].

ـ **المَرْفِق**: ـ بفتح الميم وكسر الفاء، أو بكسر الميم وفتح الفاء ـ[٣]: مصدر كالرفق، من «رَفِق به رِفقاً ومِرفقاً»[٤] واستُعمل حسياً في الجارحة[٥]، ومعنوياً في الأمر الذي يُرتفق به ويُنتفع[٦]، وجاء في آية الكهف صفة لما ارتفق به الفتية في أمر عيشهم من رفق الله ولطفه وتيسيره.

٦.١.٦ ـ أمر (الربيين)

ورد الأمر مضافا إلى الضمير العائد على «الربيين»[٧] في سياق العبرة بثباتهم على الدين وصبرهم على القتال، مع موت أنبيائهم ودعاتهم، بصريح دعاء آية آل عمران: ١٤٧ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

* **التعريف**

أمرنا: شأن ديننا وتكليفنا[٨].

---

(١) البحر المحيط: ١٤٤/٧، والتحرير: ٢٦٧/١٥، وجامع البيان: ٢٠٠/١٥/٩.

(٢) الكشاف: ٤٧٣/٢، وأضواء البيان: ٢٣/٤ وزاد هذه الصفة تفصيلاً قول الطاهر في التحرير: ٢٦٧/١٥: «وقد أعد الله لهم من الأحوال ما به رشدهم، فمن ذلك صرف أعدائهم عن تتبعهم، وأن ألهمهم موضع الكهف، وأن كان وضعه على جهة صالحة ببقاء أجسامهم سليمة... وجعل رشدهم إذ ثبتوا على الدين الحق وشاهدوه منصوراً متبعاً، وجعلهم آية للناس على صدق البعث».

(٣) ذكر ابن جرير أنهما لغتان، واختار أشهرهما في العربية: (مِرْفَقاً) وهي قراءة حفص، عن عاصم: (جامع البيان: ٢٠٩/١٥/٩).

(٤) القاموس/رفق.

(٥) وجاء في المصدر السابق: «المِرفَق: موصل الذراع في العضد».

(٦) البحر المحيط: ١٥١/٧ والتحرير: ٢٧٧/٨.

(٧) ذكر «الربيون» في آية آل عمران: ١٤٦ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ و«الربيون» جمع ربي، وهو **المتبع لشريعة الرب**؛ مثل: الرباني، والمراد بهم هنا **أتباع الرسل وتلامذة الأنبياء**: (انظر: التحرير: ١١٨/٣).

(٨) ولعل ذلك ما يفيده تفسير ابن عباس وجماعة للإسراف في الأمر، وهو **الخطايا وكبائر الذنوب**: (انظر: جامع البيان: ١٢٠/٤/٣ ـ ١٢١) واختار الطاهر ابن عاشور معنى شأن=

* **العلاقات**

عُطف (**الإسراف في الأمر**) على (**غفران الذنب**)، فدل على أن في أحدهما خلاف للآخر، وذلك أن الذنوب عام في الصغائر والكبائر، والإسراف في الأمر يختص بالكبائر(١). ومن ثم، فإن عطف الذنوب جميعها على بعض الذنوب، عطف خاص على عام، فتكون العلاقة بينهما ـ اعتباراً بهذا التفسير ـ **علاقة عموم وخصوص**(٢).

٧.١.٦ ـ أمر (الذين آمنوا)(٣)

ورد هذا المركب الإضافي في مقام وصف أعمال الأنصار بالمدينة قبل الهجرة(٤)، ابتداء من قوله تعالى في آية الشورى: ٣٦ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إلى قوله

= **قتالهم الأعداء** في تفسير الأمر؛ حيث قال: «ويجوز ـ عندي ـ أن يكون المراد بالإسراف في الأمر: التقصير في **شأنهم ونظامهم** فيما يرجع إلى أهبة القتال، والاستعداد له، أو الحذر من العدو، وهذا الظاهر من كلمة (أمر)، بأن يكونوا شكوا أن يكون ما أصابهم من هزيمتهم في الحرب مع عدوهم ناشئاً عن سببين: باطن وظاهر، فالباطن هو غضب الله عليهم من جهة الذنوب، والظاهر هو تقصيرهم في الاستعداد والحذر...»: (التحرير: ٣/١٢٠).

(١) ذكره أبو حيان عن الضحاك، وذهب إلى أن المتعاطفين يرجعان إلى شيء واحد، حيث قال: «وذنوبنا وإسرافنا متقاربان من حيث المعنى، فجاء ذلك على سبيل التأكيد»: (البحر: ٣/٣٧٤) وهذا القول بعيد؛ لأن أصل العطف المغايرة.

(٢) وهو اختيار صديق في فتح البيان: ٢/٣٥٠، يقول: «والظاهر أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبا، من صغيرة أو كبيرة، والإسراف ما فيه مجاوزة للحد، فهو من عطف الخاص على العام».

(٣) ما بين القوسين يفيد أن المضاف إليه ورد مضمراً ولم يذكر صراحة إلا في سباق الآية أو لحاقها.

(٤) روى معظم المفسرين ـ عن عبدالرحمن ابن زيد ـ أن آية الشورى التي نحن بصددها، نزلت في الأنصار: (ينظر: جامع البيان: ١٣/٢٥/٣٧ والكشاف: ٣/٤٧٢ والبحر: ٩/٣٤٣، والجامع للأحكام: ١٦/٣٦، ٣٧ والتحرير: ٢٥/١١١).

في الآيـة: ٣٨ ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾[(١)].

* التعريف

أمرهم: هو الأمر بالمعنى الاسمي[(٢)]، وإضافته هنا إلى ضمير الذين آمنوا قد تفيد العموم بمعونة المقام[(٣)].

* الصفات

ـ **الشورى**: مصدر شاورته[(٤)] كالفتيا، بمعنى التشاور[(٥)] وُصف به (أمرهم) للمبالغة، على حذف مضاف؛ أي: وأمرهم ذو شورى بينهم»[(٦)] و«الإسناد مجاز عقلي؛ لأن الشورى تسند للمتشاورين. وأما الأمر فهو ظرف مجازي للشورى. . .»[(٧)] والمعنى: يتشاورون في الأمور، ولا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه[(٨)].

قال تعالى في سياق بيان إحاطة علمه سبحانه وتقرير كمال قدرته على البعث: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل: ٧٧].

---

(١) ومعها في وصفهم الآية/٣٦.

(٢) تقدم في مجال السياسة والحرب، ص ٨١.

(٣) انظر: التحرير: ١١٢/٢٥ ويعزز ذلك قول سيد قطب في الظلال: ٢٩٨/٧: «والتعبير يجعل أمرهم كله شورى، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة».

(٤) جاء في المقاييس/شور: «الشين، والواو، والراء أصلان مطردان: الأول منهما: **إبداء شيء وإظهاره وعرضه**، والآخر: **أخذ شيء**. . .» ومن الأصل الثاني قولهم: «شاورت فلانا في أمري»، ولعل مأخذه الحسي من «**شَوْر العسل** ـ أي: **أخذه** ـ فكأن المستشير **يأخذ** الرأي من غيره. . .».

(٥) طالع: الكشاف: ٤٧٢/٣ والبحر: ٣٤٣/٩.

(٦) البحر: ٣٤٣/٩.

(٧) التحرير: ١١٢/٢٥.

(٨) انظر: الجامع للأحكام: ٣٦/١٦ والكشاف: ٤٧٢/٣.

٨.١.٦ ـ أمر (من يتق الله)

ورد الأمر مضافاً إلى ضمير (من يتق الله) في سياق موعظة الرجال والنساء بأخذ ما في أحكام عدة النساء، على اختلاف حالتهن، بصريح آية الطلاق: ٤ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

*** التعريف**

أمره: شأنه العسير في طلاق امرأته، بقرينة جعل اليسر لأمره[١].

*** الصفات**

ـ اليسر: نُعت أمره باليسر، وهو «أن يسهل عليه إن أراد الرخصة لاتباع نفسه إياها الرجعة ما دامت في عدتها، وإن انقضت عدتها، ثم دعته نفسه إليها قدر على خطبتها»[٢].

٦. ٢ ـ أمر الكفار والمنافقين:

وضمنه إضافات، وهي:

٦. ٢. ١ ـ أمر المسرفين

قال تعالى في سياق وعظ نبي الله صالح قومه ثمود بعبادة الله وشكر نعمه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥١].

---

(١) وإلى هذا المعنى أشار الطبري في قوله: «ومن يخف الله فرهبه، فاجتنب معاصيه، وأدى فرائضه، ولم يخالف إذنه في طلاق امرأته، فإنه يجعل الله من طلاقه ذلك يسرا»: (جامع البيان: ١٤/٢٨/١٤٤ ومثله ما في مجمع البيان: ١٠/٣٠٧ والجامع للأحكام: ١٨/١٦٥).

(٢) جامع البيان: ١٤/٢٨/١٤٤.

* التعريف

المسرفون: جمع مسرف. ومدار مادته في المعاجم على: «تجاوز الحد والإغفال»(١)، قال الراغب: «السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر. . .ويقال تارة اعتباراً بالقدر وتارة بالكيفية. . .»(٢) ولعل مأخذه الحسي من قولهم: «سَرَفت السُّرْفَة(٣) الشجرة: أكَلَت وَرَقَها»(٤)، ثم استُعمل معنوياً في قولهم: «**مررت بكم فسرفتكم**»؛ أي: «**أغفلتكم**»(٥) وقيل: «**جهلتكم**»(٦).

أما في آية الشعراء، فورد لفظ (المسرفين) مختصاً بالرهط التسعة، من كبراء ثمود، الذين وصفهم الله تعالى بصريح آية النمل: ٤٨ ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ومعناه بالآية: المتجاوزين الحد في إنفاق المال في الشهوات(٧)، وفي الكفر والعصيان، وأضيف إلى الأمر، بالمعنى المصدري، فأفاد معنى(٨): تزيين الأفعال المذمومة في الشرع والعقل؛ إذ كانوا يُغْرون قومهم بعبادة الأصنام، ويزينون لهم الضلالة؛ لاستغلالهم وتسخيرهم لفائدتهم.

---

(١) انظر: المقاييس، والمفردات، والقاموس/سرف.

(٢) المفردات/سرف.

(٣) جاء في المصدر نفسه: «والسُّرفة: دُويبة تأكل الورق، وسمي بذلك لتصور معنى الإسراف منه. . .».

(٤) القاموس/سرف.

(٥) المقاييس/سرف.

(٦) المفردات/سرف. ولتصور هذا المعنى، فرق الكفوي بين الإسراف والتبذير، في قوله: «والإسراف تجاوز في الكمية، **فهو جهل** بمقادير الحقوق. والتبذير: تجاوز في موضع الحق، فهو جهل بمواقعها»: (الكليات/سرف).

(٧) وظاهر الآيات التي وردت في ثمود يدل على أن الغالب على قوم صالح اللذات الحسية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة: (يطالع: مفاتيح الغيب: ١٢/٢٤/١٦٠).

(٨) ويتسق هذا المعنى مع مفهوم أمر الشيطان وأوليائه؛ فليراجع للمقارنة في مطلب المعاني المصدرية في مبحث التعريف الاصطلاحي القرآني.

٢. ٢. ٦ ـ أمر فرعون

وقد ذكره الله تعالى مرتين، في سياق ذمه وتجهيل متبعيه؛ وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ هود/٩٦ ـ ٩٧.

*** التعريف**

ـ في اللغة

جاء في المفردات: «...وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فعام في أقواله وأفعاله»[١]، وفي المصباح: «الأمر بمعنى الحال... وعليه: «وما أمر فرعون برشيد»[٢].

* في اصطلاح الأصوليين

وانطلاقاً من شروح اللغة[٣]، فسر الأصوليون «أمر فرعون» بمعان ثلاثة:

أولها: قوله، وهو الأصل في «الأمر» عند جمهور الأصوليين[٤]، وإرادة القول ظاهرة في الآية ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، يدل عليها قوله: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾[٥].

ثانيها: فعله، وهو مذهب القائلين باشتراك لفظ الأمر بين القول المخصوص والفعل[٦]، واستدلوا على كونه حقيقة في الفعل بحجج لغوية

---

(١) المفردات/أمر.

(٢) المصباح/أمر.

(٣) كثيرا ما يتكئ الأصوليون على هذه الشروح في نصرة مذاهبهم والرد على خصومهم: (يراجع ـ مثلا ـ استدلال الجمهور على كون الأمر مجازا في الفعل، في المحصول: ١/١٨٤...).

(٤) الإحكام للآمدي: ٢/٣.

(٥) الإبهاج: ٢/٨، والمعتمد: ١/٤٧، والمحصول: ١/١٨٧.

(٦) الإحكام: ٢/٨، والمحصول: ١/١٨٤.

وقرآنية[١]، من بينها آية هود؛ حيث جاء في الإبهاج: «... وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾؛ أي: فعله»[٢].

ثالثها: شأنه وصفته، وذلك قول الآمدي في رد حجج القائلين بالاشتراك: «وقولهم: «أمر فلان مستقيم»[٣] ليس مسماه الفعل، بل شأنه وصفته، وهو المراد... من قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾»[٤].

ـ في اصطلاح القرآن الكريم

ورد «أمر فرعون» في آية هود، بمعنى: دعوته أتباعه بالقول إلى تكذيب رسالة موسى. ويرجح هذا المعنى «أن اتباعهم أمر فرعون حصل بأثر الإرسال، ففُهم منه أن فرعون أمرهم بتكذيب تلك الرسالة»[٥]، ولا يُمتنع أن يكون آمرا متبعيه بشأنه الشامل للقول والفعل، ووجه دلالته أن هؤلاء الأتباع اتبعوا فرعون في كل ما قاله من الكفر بموسى، وهو ادعاؤه الألوهية، وردُّه ما جاء به موسى من عند الله، واتبعوه كذلك في ظلمه لبني إسرائيل، بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، ونحو ذلك من سيئ أعماله.

*** الصفات**

ذُكر (أمر فرعون) مقترناً بما يُعاب به، وهو انتفاء الرشد عنه، وذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾. والرشيد مبالغة[٦] من «رَشِدَ ـ بالكسر ـ... إذا أصاب وجه الأمر والطريق»[٧]، والرشيد يقال في الأمور الدنيوية والأخروية[٨]، واستعمله القرآن الكريم في المواضع الثلاثة التي جاء

---

(١) يراجع تفصيلها في المحصول: ١/١٨٧ ـ ١٨٨.
(٢) الإبهاج: ٢/٨. واختاره الطبرسي في مجمع البيان: ٥/١٩١.
(٣) انظر: اللسان/أمر.
(٤) الإحكام: ٢/٨.
(٥) التحرير: ١٢/١٥٥.
(٦) الفروق في اللغة/٢٠٣.
(٧) لسان العرب/رشد.
(٨) المفردات/رشد ـ بتصرف ـ.

فيها وصفاً للعقل في الدين؛ نحو قوله تعالى على لسان لوط: ... ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[١] وأجري وصف «رشيد» في هذه الآية على الأمر، مجازاً عقلياً، وإنما الرشيد الآمر، مبالغة في اشتمال الأمر على ما يقتضي انتفاء الرشد، فكأن الأمر هو الموصوف بعدم الرشد[٢] والمقصود أن أمر فرعون غي وضلال[٣]، ولكن عدل عن هذا الوصف إلى نفي الرشد عن أمره تجهيلاً لمتبعيه[٤]؛ لأن شأن العقلاء أن يتطلبوا الاقتداء بما فيه صلاح، وأنهم اتبعوا ما ليس فيه أمارة على سداده وصوابه[٥].

وانسجاماً مع ما تقدم، فإن أمر فرعون يجسد دعوة كل طاغية لأمته بالقول والعمل إلى الكفر والمعاصي في كل زمان، ومن ثم فإن من استخف عقول الناس، لتعبيدهم لأمره وشرعه؛ فقد نازع الله سبحانه أخص خصائص ألوهيته، وهو الآمرية المطلقة، فحق عليه أن يقدُم أتباعه يوم القيامة، ليرد وإياهم النار، وبئس الورد المورود!

٦. ٢. ٣ ـ أمر (القرية)

جاء لفظ (القرية) مفرداً منكراً[٦]، ومضافاً في صورته المضمرة، إلى الأمر، مرتين، في مقام العظة والاعتبار، بصريح آيتي الطلاق: ٨ ـ ٩ ﴿وَكَأَيِّن

---

(١) هود: ٧٨.

(٢) التحرير: ١٥٥/١٢.

(٣) تفسير المراغي: ٣٥١/١٢/٤. ويعضده ما في اللسان/رشد: «**الرُّشد والرَّشد نقيض الغي والضلال**».

(٤) الكشاف: ٢٩١/٢ ـ بتصرف ـ.

(٥) التحرير: ١٥٦/١٢ ـ بتصرف ـ.

(٦) استُعمل لفظ «القرية» بهذه الصيغة ثلاثاً وعشرين مرة، بدلالة خاصة على **الجماعة والقوم والمملكة**، وتتسع هذه الدلالة فتفيد **الشعب والأمة والقرن من الناس**، ويغلب هذا الاستعمال للفظ في مضرب المثل للاعتبار بمصائر الأمم والشعوب، في نظائر آية الطلاق؛ كآية محمد: ١٣ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ ومعها الإسراء/١٦، ومريم/٧٤، والحج/٤٥.

مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾.

*** التعريف**

المراد **بالقرية** هنا: سائر القرى الكافرة[1] بقرينة (كأين)، وهو اسم للعدد الكثير، ويجيء بمعنى (كم) الخبرية، في مثل قوله تعالى من آية الأعراف: ٤ ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾. . . والإخبار عنها إخبار عن أهلها، على طريقة المجاز العقلي[2].

أما أمرها، فقد مر معناه في مبحث التعريف الاصطلاحي القرآني[3].

*** الضمائم**

الوبال: أصله: «الشدة والثقل»، ومنه «الوابل للمطر الشديد، الضخم القطر». و«الوَبيل، لطعام يثقل المعدة»[4]. ولتصور معنى الثقل: «قيل للأمر الذي يُخاف ضرره: وبال»[5]. وإضافة الوبال إلى الأمر هنا، من إضافة المسبب إلى السبب؛ أي: ذاقوا الضرر الذي تسبب لهم فيه كفرهم.

العاقبة: عاقبة أمرها: «آخره وأثره، وهو يشمل العاقبة في الدنيا والآخرة»[6]. ووُصفت بالخسر، وهو فيها هلاك ما حق، عن ضلال وعتو، والعبرة فيها لأولي الألباب.

٦. ٢. ٤ ـ أمر (الذين كفروا)

ورد هذان المتضايفان، تخصيصا للخطاب بالفريق الكافر، في مقام

---

(١) كثر في القرآن الكريم ذكر أهل القرى في التذكير بعذاب الله؛ في نحو الآيات المتقدمة.

(٢) لأن القرية لا تعتو ولا تعذَّب، وإنما يعتو أهلها، ويعذبون.

(٣) في مجال الجزاء الدنيوي على أعمال الكفر والعصيان ص ٨٣.

(٤) القاموس/وبل وروح المعاني: ٤١/٧/٥.

(٥) المفردات/وبل.

(٦) التحرير: ٣٣٥/٢٨.

تحذير كفار مكة من أن يحل بهم مثل ما حل بالأمم المصرة على الكفر، بصريح آية التغابن: ٥ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾[1].

*** التعريف**

أمرهم: مر معناه في مبحث التعريف.

*** الضمائم**

الوبال: تقدم معناه في أمر (القرية).

وفي ضوء ما تقدم في دراسة أمر (القرية) وأمر (الذين كفروا)، يستفاد:

* أن التعبير عن كفرهم وعصيانهم بالأمر إيذان صريح بأنه جناية عظيمة.

* أن اطراد اقتران الذوق[2] والوبال بالأمر يفيد: أن العذاب الذي ذاقه الكفار في الدنيا نتيجة لازمة لكفرهم وسوء أعمالهم. والعبرة فيها لكل ذي حِجْر.

٦. ٢. ٥ ـ أمر (المنافقين)

أضيف الأمر بمعنى الشأن إلى الضمير العائد على المنافقين[3]، في

---

(١) لم أورد معها نظيرتها آية الحشر/١٥؛ لأن الضمير المتصل بالأمر في هذه الآية لم يذكر صراحة في السياق، وإنما ذكره المفسرون، على اختلاف بينهم في تحديد معنى الصلة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾: (انظر تفصيل الخلاف في: جامع البيان: ١٤/٢٨/٤٨ ـ ٤٩، والجامع للأحكام: ١٨/٣٧ والتحرير: ٢٨/١٠٨...).

(٢) والذوق مستعار للإحساس بالكدر؛ حيث شُبه ما حل بهم من العذاب بشيء ذي طعم كريه يذوقه من حل به ويبتلعه؛ لأن الذوق باللسان أشد من اللمس باليد أو بالجلد: (انظر التحرير: ٢٨/٢٦٨، تفسير آية التغابن ـ بتصرف ـ).

(٣) جرى ذكرهم ضمناً في آية التوبة: ٤٥ ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾.

سياق الإخبار عن خبث نواياهم وسوء أفعالهم. وعظم عدوانهم لرسول الله ﷺ، بآية التوبة: ٥٠ ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾[١].

* **التعريف**

أمرنا: حالنا الذي نكون فيه من الحذر والحزم، وهذه الإضافة تفيد اختصاص أحوال المنافقين وسلوكهم بالحيطة والحذر، مما يدل على أنهم مرتابون وخائفون من الهزيمة إن هم خرجوا مع المسلمين للقتال. وزاد هذه الإضافة قوة ووضوحاً إسنادها إلى (الأخذ)، بمعنى «**حوز الشيء وتحصيله**»[٢]، وذلك تمثيل لحالهم في تخلصهم من المصيبة، التي قد كانت تحل بهم لو خرجوا للقتال، بحال من أشرفوا على خطر ثم سلِموا منه ورجعوا فرحين بسلامتهم وبإصابة أعدائهم[٣].

٦. ٢. ٦ ـ أمر (أمم الأنبياء)[٤]

وردت هذه الإضافة مرتين، في مقام الإخبار عن اختلاف أتباع

---

(١) تظاهرت الأخبار عن أهل التفسير، أن الآية: ٤٩ والتي تليها نزلت في الجد بن قيس وأشكاله من المنافقين: (انظر: ابن كثير: ٣٤٥/٢ وفي الظلال: ٢٣٥/٤ وفتح البيان: ٣١٧/٥) وقال الطبري ـ بإسناده ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال: «**اغزُوا تبوك تَغنَموا بَناتِ الأصْفَر ونساء الروم**» فقال الجد: «ائذن لنا ولا تفتنا بالنساء...»: (جامع البيان: ١٤٨/١٠/٦).

(٢) المفردات والمقاييس/أخذ.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٢٢/١٠/٦ ـ بتصرف ـ.

(٤) ذكر معظم المفسرين أن ضمير الغيبة المضاف إلى الأمر في آيتي: الأنبياء والمؤمنون، عائد إلى أتباع الأنبياء وأممهم المختلفين من بعدهم: (راجع: جامع البيان: ٨٥/١٧/١٠ و٢٩/١٨/١٠ ومفاتيح الغيب: ١٠٦/٢٣/١٢ وفي الظلال: ٥٦٢/٥ وأضواء البيان: ٧٥٣/٤) وذكر ابن عاشور في التحرير: ١٤١/١٧ «أن ضمائر الغيبة في «تقطعوا أمرهم» من آية الأنبياء عائدة إلى مفهوم من المقام، وهم الذين من الشأن التحدث عنهم في القرآن المكي بمثل هذه المذام، وهم المشركون» فيكون الكلام ـ على حد تعبير الزمخشري وأبي حيان ـ انتقالاً من الخطاب إلى الغيبة التفاتا، وكأنه يخبر غيرهم ما صدر من قبيح فعلهم: (انظر: الكشاف: ٥٨٣/٢ والبحر: ٤٦٥/٧).

الرسل، وعقيب ذكر مظاهر الإنعام واللطف في قصص الأنبياء، والحديث عن هلاك طوائف كثيرين من قوم نوح والأمم الذين من بعدهم، في آيتي:

الأنبياء: ٩٣ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣﴾.

المؤمنون: ٥٣ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾.

* **التعريف**

أمرهم: هو الأمر بالمعنى الاسمي، مضافا إلى ضمير أمم الأنبياء وأتباعهم، والمراد به:

شأن دينهم[١]، وزيادة «بينهم لإفادة أنهم تعاونوا وتظاهروا على تقطع أمرهم...»[٢].

* **الضمائم**

* تقطعوا: أصله مطاوع قطع، واستُعمل فعلاً متعدياً، مسنداً إلى (أمرهم) بمعنى: قطع، بقصد إفادة شدة حصول التوزع والاختلاف في أمور دينهم، أو ما يتصل بدينهم.

ومن أمور الآخرة التي أضيف الأمر إليها:

أمر الساعة

قال تعالى في سياق بيان إحاطة علمه سبحانه وتقرير كمال قدرته على البعث: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ

---

(١) يعضد ذلك ما في التحرير: ٧٣/١٨، والبحر: ٤٦٤/٧، وأضواء البيان: ٧٥٣/٤ والكشاف: ٥٨٣/٢، ويجوز أن يكون الأمر بمعنى: دينهم الذي أمرهم به على لسان أنبيائهم، وهذا المعنى عليه أكثر المفسرين: (ينظر: جامع البيان: ٨٥/١٧/١٠ والكشاف: ٥٨٣/٢ ومفاتيح الغيب: ١٠٦/٢٣/١٢) وعلى كلا الوجهين، فالمآل واحد؛ لأن الأمر يُطلق على المأمور به، وعلى الشأن، كما تبين ضمن تعريفه اللغوي.

(٢) التحرير: ١٤٣/١٧.

أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾: النحل/٧٧.

* التعريف

استعمل القرآن الكريم لفظ «**الساعة**» معرفا بأل في ساعة الآخرة، باستقراء مواضعها، وهي أربعون موضعا، وذكره[١] هنا مضافا إلى الأمر، بمعنى: شأن ساعة الآخرة.

* الصفات

شُبه «**أمر الساعة**» في القرب وسرعة المجيء والحصول، عند إرادة الله سبحانه، بـ«**لمح البصر**»[٢]، وزيد قرباً وسرعة وصفه باسم التفضيل «**أقرب**»[٣]، المفيد للإطلاق إلى أقصى المدى، بغير حد أو قيد مفاضلة.

وفي ضوء ما سبق، يتبين:

* أن إضافة الساعة إلى الأمر أفادت أن هذا الأمر عظيم والخطب فيه جسيم، بسبب تغير نظام الزمن وسير الكون. ومن ثم، فتدبيره لا يكون إلا بأمر الله تعالى؛ لأنه هو القادر على بعث الخلائق وحشرها وحسابها.

* أن في وصف سرعة هذا الأمر بالأقرب، إيماء إلى هوانه على القدرة الإلهية التي تقول للشيء: كن فيكون، وإشارة إلى القطع بظهوره المفاجئ في آن واحد، بلا زمان، وفي ذلك إعداد للأذهان وتحضير للقلوب للإيمان بإمكان وقوعه، وعدم الاغترار بتأخيره.

---

(١) وذكر الساعة لإحضاره بعينه في ذهن السامع باسم يخصه.

(٢) أي: «نظرة من البصر»: (جامع البيان: ١٥١/١٤/٨ وكذلك مفاتيح الغيب: ٩١/٢٠/١٠).

(٣) وهذا القرب ليس إيهاماً على المخاطب، كما وهِم بعض المفسرين: (وهو ما ذكره القرطبي بصيغة التمريض، في الجامع للأحكام: ١٥٠/١٠)؛ وإنما هو قرب حقيقي، لكن في حساب غير حساب البشر المعلوم؛ في حساب واجب الوجود، الموجد لكل موجود، الذي لا يحتاج في إيجاد الأشياء إلى المادة والزمن والانتظار، فما ينشأ هنا من الأشياء في يوم واحد وفي سنة واحدة، ينشأ في لمحة واحدة كلمح البصر في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾: المعارج/٦ ـ ٧.

ومما أضيف إلى الأمر، عدا ما تقدم:

بعض الأمر[(١)]:

قال جل ثناؤه، مخبراً عن كيد المنافقين واتباعهم للإسلام ونبيه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ محمد/٢٥ ـ ٢٦.

ـ النزول

أكثر المفسرين على أن «**الذين ارتدوا على أدبارهم**» هم أهل النفاق[(٢)]؛ لأن سياق الآيات في الكلام عليهم، وخصص بعضهم الصلة بقوم من المنافقين، لم يقاتلوا مع المسلمين يوم أحد بعد أن علموا أن القتال حق[(٣)].

أما الذين كرهوا ما أنزل الله، فهم الذين كرهوا القرآن وكفروا، وهم: إما «**المشركون من أهل مكة**»[(٤)]، لقوله تعالى فيهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾[(٥)] وإما اليهود من قريظة والنضير»[(٦)] لحكاية الله

---

(١) ونظير هذه الإضافة في الحديث الشريف، ما جاء في جواب جابر رضي الله عنه عن الصلاة في الثوب الواحد، حيث قال: «خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فجئت ليلة لبعض أمري، فوجدتُه يصلي، وعلي ثوب واحد، فاشتملت به، وصليت إلى جانبه...»: (البخاري في الصلاة، رقم ٣٦، عن جابر بن عبدالله، وفي مواقيت الصلاة رقم ٥٦٧، عن أبي موسى الأشعري).

(٢) حكاه الزمخشري قولاً لأهل التفسير في الكشاف: ٥٣٧/٣، واختاره الطبري، وعلله، مستبعدا أن تكون الصلة في صفة أهل الكتاب، بقوله: «ولو كانت من صفة أهل الكتاب، لكان في وصفهم بتكذيب محمد ﷺ الكفاية من الخبر عنهم بأنهم ارتدوا، من أجل قيلهم ما قالوا»: (جامع البيان: ٥٨/٢٦/١٣، وكذلك: التحرير: ١١٤/٢٦، وفي الظلال: ٤٦٥/٧).

(٣) نقله الطاهر ابن عاشور، عن ابن عباس، والضحاك، والسدي: (التحرير: ١١٥/٢٦).

(٤) يطالع: الجامع للأحكام: ٢٥٠/١٦ والتحرير: ١١٦/٢٥.

(٥) محمد/٩.

(٦) اختاره سيد في الظلال: ٤٦٥/٧ وذكره الطاهر ابن عاشور قولا ثانيا في نزول الآية: التحرير: ١١٥/٢٦.

عنهم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾. . .[١].

- **التعريف**

جاء في المفردات: «بعض الشيء جزء منه. . . ويقابَل به كل»[٢].

والأمر: هو الأمر بالمعنى اللغوي الثاني، أو هو مصدر بمعنى المفعول.

أما **«بعض الأمر»** في آية محمد، فورد بمعنى:

بعض الشأن، وهو التظافر على عداوة رسول الله ﷺ في السر، والقعود عن الجهاد معه، وليس جميع الشؤون؛ كالصلاة معه، وسماع القرآن، وغير ذلك. ولا شك أن هذا الجزء من الكفر يهم أهل النفاق ويناسبهم؛ لأنهم يظهرون خلاف ما يبطنون، وللقتال يكرهون.

وقد يكون المعنى: بعض ما تأمروننا به، من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، والمعنيان متقاربان، يفيدان أن المنافقين قالوا ذلك الأمر للمشركين أو اليهود، على محمل الكيد والتآمر على الإسلام ورسوله ﷺ.



(١) الحشر من الآية: ١١.

(٢) المفردات/بعض.



المبحث الثاني:

مشتقاته

إذا كان نمو المصطلح الداخلي قد تمثل في ضمائم متنوعة، انضمت إلى المصطلح فصار بها ذا مفهوم جديد، فإن نموه الخارجي لم يتمثل إلا في مشتقين تولدا من جذره اللغوي والمفهومي، وهما: (الأمارة)، و(الآمرون). ولعل التعريف بهما في اللغة وفي القرآن الكريم، وتحليل مقوماتهما وعناصرهما المفهومية، إن وجدت، أن يكشف لنا عن الروابط المفهومية بينهما وبين المصطلح الأم، ويبين أثرهما في تقوية دلالته وإثراء مفهومه ورسم تشعبه خارج نصوصه.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول: الأمارة

١. ١ ـ وروده

ورد هذا المشتق مرة واحدة في القرآن الكريم وصفا للنفس، وذلك في سياق اعتذار امرأة العزيز لنفسها من ذنب المراودة، بصريح آية يوسف: ٥٣ ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾.

١. ٢ ـ مفهومه

١. ٢. ١ ـ في اللغة

و«**أمارة**» صيغة مبالغة، على وزن «**فعالة**» ـ بتشديد العين ـ، محولة عن صيغة اسم الفاعل: «**آمرة**»، ومشتقة من «**الأمر**» المقابل للنهي، المستعمل في معنى الطلب، كما تقدم. وهذه الصيغة تفيد في الاستعمال اللغوي كثرة وقوع الفعل والمبالغة فيه، والخروج عن الحد المألوف[(١)]. ومن هنا، فإن «**الأمارة**» يشترك مع «**الأمر**» في إفادة معنى طلب الفعل، بيد أنه يضيف إليه دلالة **كثرة الطلب والمبالغة فيه، مما يقوي معنى الطلب في «الأمر» وينميه.**

وإذا كانت تلك هي خيوط الترابط اللغوي بين «**أمارة**» و«**الأمر**»، فما هي إذن خيوط الترابط المفهومي التي تؤلف بينهما؟ هذا ما سنعرضه من خلال بيان مفهوم «**أمارة**» في آية يوسف.

١. ٢. ٢ ـ في القرآن الكريم

الظاهر أن الآية وردت على لسان امرأة العزيز[(٢)] كما مضى؛ حيث

---

(١) يعضد ذلك ما في كتاب: شذا العَرف في فن الصرف/٧٨.

(٢) وقد ذكر بعض المفسرين أن قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ من كلام يوسف: (يراجع: مجمع البيان: ٥/٢٤١ والكشاف: ٢/٣٢٨) وهو قول مردود، يمجه السياق، ولا يليق بعصمة الأنبياء؛ لأن قولها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ فيه اعتراف بالذنب، وقولها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ يطابق قولها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾؛ أي: أنا مقرة بالذنب، ما أنا مبرئة لنفسي، فضلا على أن نفس يوسف كانت من أزكى الأنفس وليست أمارة بالسوء. والهم الذي وقع لا ينقص من فضله، بل كان زيادة في زكاء نفسه وتقواها، وبحصوله مع تركه لله لتَثَبُّت له به حسنة من أعظم الحسنات التي تزكي نفسه. وقد أخبر القرآن الكريم عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره: (انظر: التفسير الكبير: ٥/٨٤، ٨٩، ٩٢ ـ بتصرف ـ وكذلك: البحر: ٦/٢٨٩). ومن هنا، فإن ما ذكر من قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ إنما يناسب حال امرأة العزيز، ولا يناسب حال يوسف وعصمته، فإن الله تعالى لم يجعل للشيطان على عباده المخلصين=

صرحت أن نفسها غير بريئة من مراودة يوسف عن نفسه، تصديقا له في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[(١)]، وتأكيداً لقولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾[(٢)]، ثم قالت: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: كل النفوس كثيرة الأمر بالسوء والشهوة، تدعو الإنسان إلى كل المعاصي[(٣)]، مرة بعد مرة[(٤)]، ونفس امرأة العزيز من جنس النفوس البشرية؛ حيث بالغت في دعوة يوسف إلى فاحشة الزنا، بدلالة مقال الآية ومقام السورة. أما مقال الآية، فإن لفظ «**أمارة**» لبس صيغة المبالغة، الدالة في اللغة على كثرة وقوع الفعل، كما تقدم، واقترن بلام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة[(٥)].

وأما مقام السورة، فإن الآيات قبلُ تحكي عشق امرأة العزيز المفرط ليوسف: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[(٦)]. ومن هنا، كان إصرارها المتكرر وعزمها المتجدد على دعوته إلى الفاحشة، كما يوحي بذلك تكرر لفظ المراودة في السورة؛ إذ جاء على لسانها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾، ولسانه عليه السلام: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، ولسان النسوة: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾[(٧)]. والمراودة: الطلب مرة بعد مرة[(٨)]. ولقد كانت هي المراودة الطالبة في بيتها، كما قال سبحانه: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾[(٩)] ثم اشتد حرصها على المراودة بعد امتناع يوسف وافترائها عليه، فراودته كرة أخرى،

= سلطاناً، ولم يكلهم إلى أنفسهم وهواهم؛ كما قال عن يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ يوسف/٢٤.

(١) يوسف من الآية: ٢٦.

(٢) يوسف من الآية: ٥١.

(٣) وهو ما تدل عليه كلمة السوء في الآية، كما سيأتي: (انظر: متعلقات الأمر الشيطاني في الفصل الثاني من باب التفسير الموضوعي).

(٤) ينظر: مجمع البيان: ٢٤١/٥، وجامع البيان: ١/١٣/٨.

(٥) يشهد لذلك ما في مغني اللبيب: ٢٢٨/١.

(٦) يوسف من الآية: ٣٠.

(٧) نفس الآية.

(٨) إغاثة اللهفان: ١١٦/٢.

(٩) يوسف من الآية: ٢٣.

مستعينة بالنسوة اللواتي استقبحن فعلتها وأذعن فاحشتها، كما حكى تعالى عنها: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[١]، فدلت هذه الآيات جميعا أن الأمر بالفاحشة قد تكرر في أوقات مختلفة وبأساليب متباينة.

وفي ضوء ما تقدم، يتبين: أن «**أمارة**» في الآية استُعملت على العموم في معنى: دعاء النفس الإنسانية المتكرر إلى كل معصية، وعلى الخصوص في دعاء نفس امرأة العزيز المتكرر إلى فاحشة الزنا. ومن البيِّن أن معنى «**أمارة**»، على عمومه وخصوصه، يلتقي مع معنى الأمر، في حال إسناده إلى الشيطان، كما تقدم؛ من حيث إن كليهما وسوسة وإغراء بالشر والمعصية، وإن كان ثمة من فرق بينهما، فهو الفرق بين الكثرة في أمر الشيطان، والكثرة الكاثرة في أمر النفس، مما يدل على أن النفس أكثر حرصاً من الشيطان على الدعاء إلى المعاصي؛ ولاغرو فإنها ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ وكونها أمارة يفيد المبالغة، والشيطان إنما ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٢]، كما هو شائع في استعمال القرآن.

ولعل في هذه العلاقة الواصلة بين المفهومين إشارة واضحة إلى أن النفس التي بين جنبي الإنسان دائمة الإنصات إلى وسوسة الشيطان، وأن قوتها الشهوانية بمثابة جهاز توصيل لمكايده، وأنها كلما استجابت لوسوسته صارت أقوى منه حرصاً على الشهوات، وأكثر منه إفراطاً في طلب اللذات. ومن هنا، كان لوصفها الدقيق «**أمارة**» أثر كبير في تقوية مفهوم «**الأمر**» الشيطاني وتكثيف دلالته.

* * *

(١) يوسف/٣٢.

(٢) النور/٢١.

المطلب الثاني: الآمرون

٢. ١ - وروده

ورد هذا المشتق معرفا في مقام مدح المؤمنين، بصريح آية التوبة: ١١٢ ﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾.

٢. ٢ - مفهومه

٢. ٢. ١ - في اللغة

«الآمرون» اسم فاعل مشتق من **«الأمر»** بمعنى الطلب، وصيغة اسم الفاعل تدل في اللغة على وقوع الفعل من الفاعل، وتعلقه به، واتصافه بكل معانيه. وبذلك يكون الجامع بين **«الآمرون»** و**«الأمر»** اشتقاقاً: هو الجذر اللغوي (أمر)، ولغة: هو معنى طلب فعل ما. وأما الفارق بينهما، فهو أن **«الآمرون»** يدل على تعلق الطلب بالذات، مع ملاحظة الصفة في الطلب، في حين أن **«الأمر»** يدل على فِعل الطلب، مع ملاحظة الزمن في الطلب.

وبهذه العلاقة تتأكد دلالة الطلب في الأمر، وتتخصص بدلالة مشتقه على وقوع الطلب من الذات واتصافها بمعناه، على وجه واللزوم.

وإذ تبين مفهوم **«الآمرون»** وعلاقته بـ**«الأمر»** في اللغة، وجب التعريج على القرآن الكريم، لعرض نفس العناصر وتحليلها من خلال آية التوبة.

٢. ٢. ٢ - في القرآن الكريم

تأتي هذه الآية أوصافا في صورة أسماء فاعلين للمؤمنين المذكورين في الآية التي قبلها[١]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ

---

(١) يشهد لهذا الوجه قول الزمخشري: «(التائِبُون) رفع على المدح؛ أي: هم التائبون، يعني: المؤمنين المذكورين، ويدل عليه قراءة عبدالله، وأبي - رضي الله عنهما -=

﴿لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية وقيل: لا يختص الوعد بالجنة هنا بالمجاهدين المتصفين بتلك الأوصاف، بل يشمل جميع المؤمنين[(١)]. وعلى التقديرين، فإن الآية تنتظم أوصافاً يتصف بها المؤمنون الذين قاتلوا في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، على ما قررته الآية الأولى، وأيضاً الذين لم يقاتلوا، من الذين سبقوا بالإيمان وصدقوا فيه، وهاجروا وصبروا على اتباع الدين، ولم يكن منهم عناد وقصد إلى ترك القتال، وذلك ما تؤكده صيغة العموم المحلاة بالألف واللام، في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ الآية، وأيضاً ذيل الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وسياق الآيات قبلها في تمييز أحوال المؤمنين الخالصين، من قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾...[(٢)].

ومن بين تلك الأوصاف التي ذكرتها الآية، يأتي مشتق **«الآمرون»** مضموما إلى لفظ **«المعروف»**، بمعنى: **الداعون الناس بالقول إلى الأمور المحمودة والمعروفة في الشرع والعقل**، وعلى هذا المعنى مدار **«الأمر بالمعروف»** في القرآن الكريم، كما بيناه قبل بشواهده[(٣)]، بيد أن مجيء **«الآمرون بالمعروف»** بصيغة اسم الفاعل أفاد اتصاف الكملة من المؤمنين بكل معاني الأمر بالمعروف، وكونها مقصودة لهم وملتصقة بهم ومميزة لهم بين الناس، فيكون الجامع بين المصطلحين إذن، هو معنى: **الدعاء إلى كل**

= التائبين ـ بالياء ـ إلى والحافظين، نصبا على المدح، ويجوز أن يكون جرا صفة للمؤمنين»: (الكشاف: ٢١٦/٢. وكذلك مفاتيح الغيب: ٢٠٧/١٦/٨ ـ ٢٠٨).

(١) واختار هذا القول القشيري: (الجامع للأحكام: ٢٧١/٨)، وحسنه الرازي: (مفاتيح الغيب: ٢٠٧/١٦/٨)، ويدل عليه قول الزجاج: «الذي عندي أن قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمر؛ أي: التائبون العابدون ـ إلى آخر الآية ـ لهم الجنة أيضا وإن لم يجاهدوا، كقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾»: (الكشاف: ٢١٦/٢، والجامع للأحكام: ٢٧١/٨، وروح المعاني: ٤٣/١١/٧ ـ ٤٤).

(٢) الآية/١٠٠. وتمييز الجماعة المؤمنة بكل الأوصاف الإيمانية الحميدة عن سائر الطوائف الأخرى الموجودة في المدينة، هو المحور الذي تدور عليه سورة التوبة. ولعل في ذكر هذه الأوصاف رسما للملامح النهائية للشخصية الإيمانية التي صيغت على مدى سنوات، وذلك ينسجم مع آخرية هذه السورة في ترتيب النزول.

(٣) انظر ص ٢٤٦.

معروف في الشرع والعقل، مع ملاحظة امتداد هذا المعنى تبعا لمتعلقهما «**المعروف**»، كما قد تبين[١].

أما الفارق بينهما، فهو الفرق بين الاسم والفعل من حيث المبنى والمعنى؛ إذ يختص اسم الفاعل (الآمرون) بقبول «**ال**» المفيدة للإطلاق والتعميم، والدالة على اتصاف المؤمنين بالأمر، حتى صار هذا الوصف خلقة لهم، بصرف النظر عن الزمان والمكان والحال، في حين يختص الفعل: «**أمروا**»، «**يأمرون**»، «**أمر**»[٢] بالدلالة على معنى الأمر، مقيداً بزمن ماض، أو حاضر، أو آت.

وبالجملة، فقد تعاونت دلالة المشتق الاسمية ودلالة المصطلح الأم الفعلية على تقرير حصول فضيلة الأمر بالمعروف لجميع المؤمنين وثبوتها واستمرارها في كل جيل منهم، على مر العصور، الأمر الذي يؤكد ما عُلم من وجوبها على كل أفراد الأمة، ويستجيش قلوب المؤمنين إلى الاتصاف بها، واستمداد الخيرية منها حتى يأتي أمر الله.

وإذا كان لفظ «**الآمرون**» يدل على ذات تتحلى بصفة الأمر بالمعروف، فما هي علاقة هذه الصفة بباقي الأوصاف المذكورة إزاءها في الآية؟

٢. ٣ ـ علاقاته

تزاوج مشتق ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ مع أوصاف تقدمت عليه، بلا حرف عطف بينهما، وهي ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وأوصاف تأخرت عنه، وعطفت عليه بواو العطف، وهي: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾. ولعل البحث عن سر العطف في البعض وتركه في الآخر، أن يمهد لنا السبيل إلى بيان نوع العلاقات بين (الآمرون) وتلك الأوصاف.

---

(١) انظر ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٢) وهي أفعال واردة في مثل آيات: الحج/٤١ والتوبة/٧١ ولقمان/١٧.

إن تدبر أوصاف المؤمنين من قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ ثم من قوله: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ يفيد، أن هناك صنفين من الصفات، أولهما: صفات محمودة للشخص في نفسه، وثانيهما: صفات تتجاوز صلاح نفسه إلى إصلاح غيره. فلذا تغاير التعبير بين الصنفين، فتُرك العاطف في الأول وعُطف في الثاني، ولما كان لا بدَّ من اجتماع الأول في شيء واحد، تُرك فيها العطف لشدة الاتصال، بخلاف الثاني، فإنه يجوز اختلاف فاعلها ومن تعلقت به[1]. وقُدم الأول على الثاني؛ لأن المصلح لا يكون مصلحاً حتى يكون صالحاً في نفسه[2]، ثم عطف على الصنفين بصنف ثالث جامع بينهما، أي: بين ما يخص الشخص في نفسه وما يتعدى إلى غيره، وهو قوله: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾[3]، فتبين أن التغاير بين هذه الأوصاف هو الذي دعا إلى نظمها على هذا الوجه المعجز.

ويجوز أن يكون العطف بين ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ لئلا يُتوهم اعتبار الجمع بينهما كالوصفين اللذين قبلهما، وهما: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ والمراد: المصلون، الجامعون بين الركوع والسجود[4] ـ كما سيأتي ـ ، ويجوز أن يكون العطف لما بينهما من التقابل[5]، أو يكون العطف وتركه في هذه الأوصاف للتسوية[6].

ومهما اختلف النظر في الكشف عن سر ذكر العطف وتركه، فإنه ليس من ريب أن المصطلحات الواردة إزاء (الآمرون) في الآية قد تضمنت

---

(١) ولهذا قيل في إعراب (التائبون): مبتدأ موصوف بما بعده، والآمرون خبره، فكأنه قيل: الكاملون في أنفسهم، المكملون لغيرهم: (انظر: روح المعاني: ٤٦/١١/٧).

(٢) يراجع هذا الوجه في روح المعاني: ٤٦/١١/٧ ومفاتيح الغيب: ١٠/١٦/٨ والكنز الأكبر/٥٥.

(٣) انظر: البحر: ٥١٢/٥ ـ بتصرف ـ.

(٤) التحرير: ٤١/١١/٦ ـ بتصرف ـ (طبع سحنون).

(٥) روح المعاني: ٤٦/١١/٧.

(٦) مفاتيح الغيب: ٢١٠/١٦/٨، والتحرير: ٤١/١١/٦.

دلالات متمايزة ومغايرة لدلالته. ولعل تحديد هذه الدلالات أن يبين لنا أوجه العلاقة بينه وبين تلك المصطلحات.

٢. ٣. ١ ـ «التائبون» و«الآمرون بالمعروف»

التائبون اسم فاعل من التَّوْب. ومداره في اللغة على **الرجوع**[١] ومن هذا الأصل جاء **«التائبون»** في الآية بمعنى: **الراجعون عن معصية الله إلى طاعته**. وأول التوبة: الإيمان؛ لأنه **رجوع عن «الشرك والنفاق»**[٢]، ثم يدخل في التائبين: من كان له ذنب مع الإيمان وتركه بتحري صالحات الأعمال، ولذا فإن **«الآمرون بالمعروف»** تائبون إلى الله بالإيمان ـ رأس المعروف ـ وترك الذنوب، وفعل الطاعات. وليس من ريب أن الأمر بالمعروف من أوجب الواجبات على أفراد الأمة؛ إذ يسوق الناس إلى الإيمان والعمل بما يحبه الله ويرضاه، ويدفعهم إلى الندم على الذنب والإقلاع عما يسخط الله ويغضبه.

ومن هنا، فإن التائبين لا تصح منهم توبة ولا يمضي منهم عزم على الإقلاع عن الذنب، إلا إذا كانوا آمرين بالمعروف، داعين إلى الهدى والرشاد، وبالعكس، فإن الآمرين لا يتحقق فيهم وصف الأمر، ولا يجنون الأجر، إلا إذا كانوا تائبين إلى ربهم، مظهرين توبتهم بفعل ما تستلزمه من ترك القبيح وتحري الجميل في أنفسهم أولاً، ثم في غيرهم ثانياً، وهذا الأخير هو التوبة الكاملة، واقتران الوصفين خير دليل.

ومن هنا **يتلازم الوصفان ويتكاملان**، فكل تائب يلزم منه أن يكون آمراً، وكل آمر يلزم منه أن يكون تائباً. وبذلك تتكامل الشخصية الإيمانية الخالصة، التائبة إلى ربها، المكملة لنفسها بالتخلي عن المعصية والتحلي بالطاعة، المكملة لغيرها بالدعاء إلى طريق التوبة والطهارة والصلاح.

---

(١) المقاييس/توب.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢١٠/١٦/٨، عن الحسن.

٢. ٣. ٢ ـ «العابدون» و«الآمرون بالمعروف»

العابدون اسم فاعل من العبادة، وأصلها: **الخضوع والذل**[١] ومن هذا الأصل استُعمل هذا المشتق هنا في معنى: **الخاضعون لأوامر الله سبحانه، المبتغون لمرضاته في كل عمل من أعمال القلب أو الجوارح**. والنظر في هذا المعنى يفيد أن (الآمرون) عابدون لله؛ إذ هم منقادون لما أمرهم تعالى به من الأمر بالمعروف، كما قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٢]، والأمر بالمعروف ـ كما هو معلوم ـ عبادة تقع باللسان ولا تتعدى إلى الجوارح[٣]، كما هو الشأن في العبادة الكلية، وإن كان لفظ المعروف شاملاً لها، بوصفه متضمناً لجميع الطاعات التي تَعَبَّد الله بها العباد، كما قد علمنا.

ولهذا، فإن (العابدون) لفظ مطلق[٤] يتناول (الآمرون) من حيث إنهم يتحققون بـ(إياك نعبد)[٥]، فيمتثلون أوامر الله ويؤثرون مرضاته في كل أمر وكل وقت وحال. أما (الآمرون)، فهم عابدون لله في امتثالهم لأمر جزئي من أوامر معبوديته الكلية، وهو دعوة الخلق إلى العبادة ـ غاية الخلق ـ ، فيكون بين دلالتيهما اختلاف من وجه وائتلاف من وجه آخر. أما وجه الاختلاف، فإن (العابدون) أعم من (الآمرون)، من جهة المورد؛ إذ العبادة ترد بالقلب واللسان والجوارح، والأمر يرد فقط باللسان، وأما وجه الائتلاف، فإن (العابدون) يرادف (الآمرون)، من جهة متعلقه **«المعروف»**؛ ذلك بأن (الآمرون) إنما يأمرون الناس بأن يكونوا عابدين لله مخلصين له الدين؛ أي متبعين لأوامره وحده في كل تصور، وكل قول، وكل عمل. وبتعبير أوجز: متبعين للمعروف الذي يأمر به الآمرون.

---

(١) الصحاح/عبد.

(٢) آل عمران/١٠٤.

(٣) لذا فرق النظم الكريم في الآية بينهما وبين سائر العبادات، كما هو نهج القرآن الحكيم.

(٤) يعزز ذلك دلالة الصفة الكلية على العبادة وصيغة العموم في «ال».

(٥) الفاتحة/٤.

٢. ٣. ٣ ـ «الحامدون» و«الآمرون بالمعروف»

الحامدون اسم فاعل من الحمد، بمعنى: **الثناء بالفضيلة على المحمود**(١) واستُعمل هنا بمعنى: **المثنون على الله سبحانه بصفاته، والشاكرون له على نعمه، والراضون بقضائه، خيره وشره**(٢). وبتشريح السمات الدلالية لهذا المعنى ومقارنتها بدلالة «**الآمرون بالمعروف**»، نتبين أوجها واصلة وفارقة في العلاقة بين المصطلحين.

أما الأوجه الواصلة، فإن (الحامدون) و(الآمرون) **يتفقان** من حيث موردهما؛ حيث إن (الحامدون) تلهج ألسنتهم بحمد الله في كل حال، ومن ثم فإن الحمد يرد باللسان، ثناء واعترافا للمحمود. وكذلك (الآمرون)، فإنهم يدعون الناس بالقول الذي يجري على ألسنتهم في كل حال؛ ولا غرو فإن الأمر من جنس الكلام الذي ينطق به اللسان.

وأيضاً يتفق المصطلحان من حيث عموم متعلقاتهما؛ ذلك بأن (الآمرون) يتعلق أمرهم بالمعروف، وهو لفظ يعم كل الأمور المحمودة في الشرع والعقل، كما تقدم. وكذلك يتعلق حمد (الحامدين) بكل صفات الله الجليلة ونعمه المحمودة في كل حال.

وأما الأوجه الفارقة، فإن (الحامدون) و(الآمرون) **يختلفان** من حيث المحمود والمأمور، فإن المحمود الذي يحمده الحامدون في كل حال هو الله عز وجل بخلاف المأمور الذي يأمره الآمرون، فلا يكون سوى عباد الله. ومن ثم عُلم أن الحامدون أشرف من الآمرون؛ بيد أن الآمرون أكمل من الحامدون من حيث النفع؛ لأن في (الآمرون) نفعا للغير، وفي

---

(١) المفردات/١٣٠ ـ ببعض تصرف ـ.

(٢) يُصَدِّق هذا المعنى بترتيب عناصره، قول ابن فارس: «رجل محمود . . . ، إذا كثرت **خصاله** المحمودة. . .»: (المقاييس/حمد)، وقول الرازي: «قوله: (الحامدون) وهم الذين يقومون بحق **شكر الله تعالى على نعمه**»: (مفاتيح الغيب: ٢٠٨/١٦/٨، وكذلك التحرير: ٤١/١١/٦)، وقول القرطبي: «(الحامدون) أي: **الراضون بقضائه**. . .، الذين يحمدون الله على كل حال»: (الجامع للأحكام: ٢٦٩/٨).

(الحامدون) نفعا للنفس، وليس من شك أن ما كان فيه نفع متعد إلى الغير أفضل من النفع القاصر على النفس.

وثمة فرق آخر، وهو: أن (الحامدون) يحمدون الله على المحبوب والمكروه، بينما (الآمرون) يأمرون الناس بالمحبوب دون المكروه، فتمحضت العلاقة بينهما للعموم والخصوص؛ فالحامدون أعم من الآمرون. ومما يزيد الفرق بينهما جلاء، اعتبار كل منهما بضده، فبضدها تتميز الأشياء وتتضح الفروق. فالحامدون من الحمد وهو خلاف الذم[١]، والآمرون من الأمر وهو نقيض النهي، كما قد تبين.

٢. ٣. ٤ ـ (السائحون) و(الآمرون بالمعروف)

والسائحون اسم فاعل من السَّيْح، وأصله: **الاستمرار على الذهاب في الأرض**[٢] من ساح الماء: جرى على وجه الأرض[٣]. وبملحظ من هذا الجريان في الماء، استعمل السائحون في الآية في معنى: **الصائمون**[٤] ووجه ذلك أن الصائم يستمر على فعل الطاعة وترك المشتهى، كالماء الذي يسيح[٥]، وأقرب منه إلى أصل المادة معنى **السائرون في الأرض** لطلب العلم، والهجرة، والحج، والجهاد؛ سموا بذلك تشبيهاً لسيرهم بسيح الماء الجاري. ولعل السفر للجهاد أنسب بالمقام وأشمل للمؤمنين المأمورين بالجهاد[٦]، ويجوز أن يكون السائحون بمعنى: **المتدبرون في**

---

(١) وبهذا اللفظ أورده ابن فارس أصلاً لمادة «حمد» في المقاييس.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٠٩/١٦/٨، والقاموس المحيط: ٣١٥/١.

(٣) القاموس/سيح.

(٤) وإليه ذهب ثلة من الصحابة والتابعين، كابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وغيرهم: (انظر: جامع البيان: ٣٧/١١/٧، والجامع للأحكام: ٢٦٩/٨، ومفاتيح الغيب: ٢٠٩/١٦/٨، والكنز الأكبر/٥٤، وروح المعاني: ٤٥/١١/٧).

(٥) مفاتيح الغيب: ٢٠٩/١٦/٨ ـ بتصرف ـ وجاء في وجه تسمية الصائم بالسائح كذلك: «. . .لأن الذي يسيح في الأرض متعبدا لا زاد معه، كان ممسكا عن الأكل، والصائم يمسك عن الأكل. . .»: (المصدر نفسه، عن الأزهري).

(٦) وهو اختيار الطاهر ابن عاشور في التحرير: ٤١/١١/٦ (طبع سحنون).

ملكوت الله[١] والتدبر سياحة في الأرض بالنظر والفكر، وهو «أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد»[٢].

ومن هذه الأوجه المختلفة اختلاف تنوع، يكون معنى السائحون متضمنا لمعنى: الاستمرار على العبادة، سواء كانت صياماً أو جهاداً، أو هجرةً، أو حجاً، أو تفكراً أو علماً. . .، أم كانت بالجسد أو الروح، أو بهما معاً.

وفي ضوء هذا المعنى الكلي، يتبين: أن للسياحة أثرا عظيما في تكميل النفس؛ لأن السائح يلقاه ألوان من الأذى والضر، فلا بد من الصبر على مشاق السير في الأرض وانقطاع الزاد. ولا بد من احتمال الاستمرار على فعل الطاعة وترك المعصية، كي يسد على نفسه أبواب الرذائل، وتنفتح عليه أبواب الفضائل، وأعظمها فضيلة الأمر بالمعروف، إذ هي عنوان لتكميل الغير.

ومن هنا، فإن اقتران السائحون بالآمرون بالمعروف في الآية يبيح لنا أن نفهم: أن السياحة **لازمة** للأمر بالمعروف؛ إذ بدونها لن تتزكي نفس بالمداومة على فعل الطاعة؛ كي تأمر، ولن تتقوى إرادة بالامتناع عن الشهوات، واحتمال وعثاء السفر وانقطاع الزاد، والإقدام في نصرة الحق. . .؛ كي تقوى على احتمال أذى الناس في الدعوة والإرشاد، ولن تتفتح بصيرة بالتأمل في خلق الله وحكمته، فتتحفز للقيام بواجبها اتجاه الخالق واتجاه الناس.

٢. ٣. ٥ ـ (الراكعون الساجدون والآمرون بالمعروف)

والراكعون الساجدون اسمين من الركوع والسجود، وهما يدلان على غاية التواضع والعبودية، لذا جُعلا من أعظم أركان الصلاة، وعني بهما في

---

(١) وهو اختيار سيد قطب في الظلال: ٣١٩/٤، وحكاه النقاش، كما في الجامع للأحكام: ٢٧٠/٨.

(٢) في الظلال: ٣١٩/٤.

الآية: **المصلون الجامعون بين صفتي الركوع والسجود في صلاتهم المكتوبة وغيرها.** ومجيء هذين الوصفين إزاء الآمرون بالمعروف، من غير فاصل بينهما من عطف ونحوه؛ يفيد أن الصلاة من أخص الأوصاف اللازمة للآمرين، كما قد تبين[١]، ووجه لزومها لهم: أن الصلاة من أوثق الصلات التي تصل المؤمنين بالله، وتفضي إلى تكميل أنفسهم؛ إذ بإقامتها تلهج ألسنتهم بذكر الله وتخضع جوانحهم لعظمته، وتمتلئ قلوبهم من مراقبته، وتتزود نفوسهم للعمل بطاعته وترك معصيته. ومن ثم كانت هي الزاد الروحي الذي يُفَعِّل القلب ويُكَمِّل النفس ويسوقها للقيام بتكميل الغير؛ أي: بالأمر بالمعروف بوصفه من أعظم الطاعات التي تنشأ عن ذلك الزاد ويُتقرب بها إلى الله.

يقترن إذن (الراكعون الساجدون) بـ(الآمرون بالمعروف)، كما تقترن الأسباب بالنتائج على جهة التلازم. وسيأتي بيان ذلك بمزيد تفصيل عند الحديث عن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في باب التفسير الموضوعي.

٢. ٣. ٦ ـ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر

ذُكرا متعاطفين بحرف الواو، على مهيع الاستعمال القرآني، والتعاطف دليل التغاير. وقد مضى بيان وجه هذا التغاير، بما أغنى عن إعادته هنا[٢].

٢. ٣. ٧ ـ الآمرون بالمعروف والحافظون لحدود الله

والحافظون اسم فاعل من الحِفظ، بمعنى: **مراعاة الشيء**[٣]. والحدود جمع حد، وهو **الحاجز** بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر[٤].

---

(١) عند دراسة علاقة «إقامة الصلاة» وضميمة (الأمر بالمعروف).

(٢) انظر ص ٢٥٢ في هذا البحث.

(٣) مقاييس اللغة/حفظ.

(٤) المفردات/حد.

ولتصور الرعاية والمنع، استعملت صفة **«الحافظون لحدود الله»** هنا، في معنى: **العاملون القائمون بتكاليف الله وأحكامه**، وهي تشمل **«العبادات والمعاملات»**[(١)]؛ أي: ما يخص الإنسان في نفسه، وما يخصه لغيره، كما تقدم. ولذلك خُتمت بها هذه الأوصاف، فتبين إذن أن هذا الوصف من ذِكر عام شامل لما قبله وغيره. ومن ثم فهو مغاير للآمرين والناهين، مغايرة العام للخاص؛ فكل حافظ لحدود الله آمر ناه، وليس كل آمر ناه حافظ لحدود الله، لأن من لم يصدق فعله قوله لا يجدي أمره نفعا ولا يفيد نهيه منعا.

وهكذا تنسج علاقات (الآمرون بالمعروف) بباقي الأوصاف في الآية خيوط التكامل والتلازم بين صلاح الذات وإصلاح الغير؛ بين المشاعر والشعائر والأخلاق والأعمال، بشكل يجعل من هذه الخيوط مجتمعة خيطا رفيعا تنتظم فيه صفات المؤمنين الذين بايعهم الله على الجنة واشترى منهم الأنفس والأموال.

حاصل الكلام

وفي ضوء دراسة مشتقات **«الأمر»** في القرآن الكريم، يتبين:

* أن هذين المشتقين يلتقيان مع الأمر في ملحظ مشترك من الدلالة اللغوية للمادة على نقيض النهي، ثم ينفرد كل مشتق منهما بملحظ خاص يميزه عن الآخر في البيان القرآني، وكل ملحظ دلالي ينسج خيطاً للترابط المفهومي بينه وبين المصطلح الأم، ويسهم في تكثيف دلالته الاصطلاحية القرآنية وتثبيتها وتوسيعها؛ فمعنى: دعاء النفس المتكرر إلى الشر هو المتعين لمشتق (أمارة)، وهو يتفق مع مفهوم الأمر الشيطاني ويسهم في تكثيف طاقته. ومعنى الدعاء إلى كل معروف في الشرع والعقل هو المراد من مشتق (الآمرون) وهو عين مفهوم الأمر بالمعروف، ويضيف إليه الآمرون ملحظاً خاصاً من دلالته على اختصاص المؤمنين بصفة الأمر.

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٢١١/١٦/٨، والتحرير: ٤٢/١١/٦ (طبع سحنون).

* أن ملحظ التدبر في الورود القليل لمشتقات الأمر في القرآن الكريم يشير إلى أن القرآن الكريم لا يكاد يلتفت إلى الأمر باعتباره وصفا يُطلَق على الذوات ويختص بالأسماء، وذلك لأنه لا يكاد يعرفه ـ في الغالب ـ إلا طلبا يتم به التكليف وشأنا، كما قد تبين من إحصاء أشكال وروده في القرآن الكريم، الأمر الذي يثبت بيقين: أن الأمر ـ المصدر والفعل ـ في القرآن الكريم له معنى إرادي قولي؛ إذ يدل عموماً على اتجاه الإرادة ووقوع التكليف بالقول الصادر من الله تعالى أو الشيطان أو الإنسان، وله معنى واقعي عملي من جهة كونه مرتبطاً بشؤون الله عز وجل التدبيرية والتكليفية، ووساوس الشيطان وأوليائه الإبليسية، وأمور الإنسان الدنيوية والدينية.

وعلى هدى من هذه المعاني المصدرية والاسمية، وما يستفاد منها؛ تتشكل وحدة موضوعية متكاملة، تسير في اتجاه رسم الأبعاد الموضوعية لمصطلح الأمر، وما يتعلق به...

ومن هنا، نفتح باب التفسير الموضوعي على مصراعيه لعرض تلكم الأبعاد أو القضايا أو المسائل التي أثارتها نصوص المصطلح منطوقة أو مفهومة.





الباب الثاني:
التفسير الموضوعي





بين يدي التفسير

والمقصود به في هذه الدراسة تركيب المعلومات المصطلحية والمستفادات العلمية، المستلهمة من جميع نصوص المصطلح المدروسة، ضمن الأركان المفهومية المعروضة سلفاً، وتجميعها في وحدات موضوعية مترابطة، تكتسي صوراً مختلفة؛ كالأسباب والنتائج، والشروط والمراتب، والقيم والحقائق، والمظاهر والوظائف، والمقاصد والوسائل، وغيرها، ثم دراستها دراسة علمية تنبني على تفصيل ما أجمل من مستفادات، وتحليل ما لم يمكن تحليله سابقاً من دلالات وعلاقات وصفات. . . ، وتفسير آية أو آيات، واستصحاب ما صح من إرشادات الرسول عليه السلام وآراء العلماء، ومناقشة أقوال، وانتخاب نظرات، وحل إشكالات، وإجابة عن استفسارات، وإبراز هدايات، وإيضاح إعجاز في عبارات، وتقويم تشوه في تصورات، وإصلاح فساد في تدين الأفراد والجماعات. . . ومن خلال هذه الإجراءات التحليلية التي تختلف وجودا وعدما، وقوة وضعفاً بحسب طبيعة المصطلح ورتبته وحجمه؛ تتطلع تلكم الدراسة الموضوعية إلى رسم أبعاد المفهوم الواسعة التي تثيرها نصوصه، منطوقة ومفهومة على السواء. . . ومن ثم إلى كشف نظرية قرآنية متكاملة لهذا المفهوم في مختلف مجالات الحياة الكونية والإنسانية، الدنيوية والأخروية. . .

ومن هنا، فإن موقع هذا التفسير ـ بمعناه المقصود في هذه الدراسة ـ من الدراسة المتقدمة هو موقع النتيجة المُفصَّلة العامة من المقدمة المُجملَة الخاصة؛ ذلك بأن نقطة التخلق لهذا التفسير، كما تبين، هي عصارة النص المقطر المدروس، وليست هي طرح الموضوع الجاهز ثم تفسير النصوص

التي تناولت هذا الموضوع، أو عرض الواقع البشري المشهود ثم العودة إلى النص المقروء، كما هو مشهور عند أرباب التفسير الموضوعي[١]. ولتقريب هذه الحقيقة نقول: إن مثل التفسير الموضوعي أو القضايا العلمية المرتبطة بالمصطلح عند منهج الدراسة المصطلحية كمثل شجرة ناضجة لبذرة ذات جذور في الأرض ضاربة...؛ شجرة متشابكة الأغصان، ممتدة الفروع والأفنان، تؤتي من كل الثمرات أكلاً متناسق الألوان والأحجام، متناغم الطعوم والأذواق، متاعاً للإنسان والأنعام.

والآن، وقد تناول هذا البحث مفهوما كبير الحجم كـ «**الأمر**»، ووفى التحقيق المصطلحي مهمته الوصفية الدقيقة للموارد، والتحليلية العميقة للعناصر، والتصنيفية الكلية للنتائج؛ فعُرِّف مصطلح الأمر وخص ووصف، ودُرست صور تعالقه وتضامه واشتقاقه...، يرنو التفسير الموضوعي إلى أوسع من ذلك وأعمق... إلى توحيد تلكم المعلومات والمتعلقات والمستفادات المستخلصة من سائر مراحل الدراسة السابقة، وتجميعها وتركيبها في إطار قضايا أو وحدات موضوعية متكاملة، حتى لتلتقي النصوص كلها في مصب واحد، ضمنه تحتل موقعها المناسب، لتفسح المجال إلى تدبر أعمق في دقائق المفهوم وحقائقه، وإحاطة أشمل بأسراره ولطائفه، ونظرة أبعد في شعابه وطرائقه.

وبلحاظ كل ما تقدم، فقد تجمعت على صعيد هذا الباب التفسيري الموضوعي قضايا ثلاث، لا تباين فيها ولا اختلاف، وهي: قضية الأمر الإلهي، وقضية الأمر الشيطاني، وقضية الأمر الإنساني، فلنعرض لكل قضية في فصل، ولنخضعها لمبضع الدرس، تكميلاً لما تقدم من عرض، وتوسيعاً للسمات الدلالية بالشرح، وتلوينا للأبعاد الموضوعية بكل ما أمكن من شكل، وذلك حسب طبيعة القضية وحجمها ورتبتها، وحسب ما تأذن به مادة نصوصها، وتقتضيه خصوصية هذه النصوص وقوة دلالتها.

---

(١) يراجع ذلك بتوسع في: مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم/٢٧، والتفسير الموضوعي لمحمد باقر الصدر/٣١.

الفصل الأول:
الأمر الإلهي



توطئة

ليس من ريب أن الخالق سبحانه لم يزل متكلماً ولا يزال بكلام قائم بذاته، لائق بكماله وجلاله، شاهد على وجوده وبقائه، وتحقيق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[٢]، فأخبر تعالى أنه متكلم أزلاً وأبداً بكلمة واحدة تؤثر في تكوين الأشياء، ووجود الذوات والصفات والأفعال، وهي كلمة «كن» الآتية من صفة «الإرادة» التي لا تنفك عن صفة العلم من حيث تعلقها بإظهار المعلوم المراد؛ كما أخبر تعالى أنه يلقي الكلام إلى صفوة البشر بواسطة ملك الوحي، أو بغير واسطة، ومن المعلوم أنه يعبر عن هذا الكلام الأزلي بالأمر، أو النهي، أو الإخبار، أو التبشير، أو الإنذار، وغير ذلك من الكلمات المنزلة على الرسل، أو المنتظمة في الكتب.

ومن هنا، يمكن التمييز في كلام الله بين الكلمات الكونيات؛ أي: كلمات الإلهام والأمر الإلهي الكوني، التي هي مناط القدر والقضاء، وبها يتم الإيجاد؛ والكلمات الدينية؛ أي: كلمات الأمر والنهي الدينيين التي هي مناط التكليف والجزاء. وذلك معنى قول ابن تيمية: «فالكلمات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، ليست هي أمره ونهيه الشرعيين، فإن الفجار عصوا

---

(١) النحل/٤٠.

(٢) الشورى/٥١.

أمره ونهيه؛ بل هي التي بها يكون الكائنات، وأما الكلمات الدينية المتضمنة لأمره ونهيه الشرعيين؛ فمثل الكتب الإلهية: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن...»(١).

فالكلمات الأولى هي: ـ كما قال أيضاً ـ: «الكونية التي هي مناط القضاء والقدر، وبها يتحقق وجود الفعل... والثانية: هي الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي والثواب والعقاب، وعليها يتكلم الفقهاء، وهي الغالبة في عرف الناس»(٢). وقد فرق الله سبحانه في كتابه الكريم بين من قام بكلماته الأمريات الكونيات، وبين من اتبع كلماته الأمريات الدينيات، فقال في الأمر الكوني القدري الذي يتعلق بربوبيته وخلقه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾(٣)، وقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾(٤)، وقال في الأمر الديني الشرعي الذي يتعلق بألوهيته وشرعه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٥)، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾(٦).

وقد يجمَعُ الأمرين مثلُ ما في قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾(٧).

فهذه الأوامر الدينية هي أساس الشريعة الدينية، التي تنظم أفعال الإنسان، والتي تأتي من صفة الكلام الرباني الذي أوحاه الله إلى الأنبياء، وتلك الأوامر الكونية هي منبع الشريعة الكبرى الفطرية أو السنة الكونية، التي تنظم حركات الكون والكائنات، والتي تأتي من صفة الإرادة الإلهية.

---

(١) الفتاوى: ٣٨/٨/٤.
(٢) المصدر نفسه: ٢٢٣/٨/٤.
(٣) يس/٨٢.
(٤) النحل/١.
(٥) النحل/٩٠.
(٦) النساء/٥٨.
(٧) البقرة/٢٢٢.

وكلتا الشريعتين تجل كلي لله سبحانه على خلقه، وبهذا التجلي نعرف ربنا ونألهه.

ومن هنا، يسوق البحث في قضية الأوامر الإلهية من خلال نصوصها المنطوقة والمفهومة في القرآن الكريم والحديث الشريف؛ إلى ضرورة الحديث عن أوامر الشريعتين: التكوينية والتكليفية، بقدر ما يهدي إليه الاستقراء والتحليل، وذلك من خلال مبحثين: أحدهما: في دراسة قضية الأمر الإلهي التكويني، دراسة ترنو إلى بيان تجلياته في الدنيا والآخرة، ووسائله، والثاني: في دراسة قضية الأمر الإلهي التكليفي، دراسة تقصد إلى استجلاء حقيقته على مدى واسع، وبسط مجالاته.



المبحث الأول:

الأمر الإلهي التكويني





مدخل

قال ابن تيمية في تعريف الله بصفتي الخلق والمشيئة: «فإن الله ـ سبحانه ـ خالق كل شيء، ورب كل شيء ومليكه، سواء في ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يخرج عن مشيئته شيء، ولا يكون شيء إلا بمشيئته»[(١)].

وقال في بيان أحكام الكلمات التكوينيات: «فالكلمات التي بها كون الله الكائنات لا يخرج عنها بر ولا فاجر، فما من ملك ولا سلطان، ولا مال ولا جمال، ولا علم ولا حال، ولا كشف ولا تصرف إلا وهو بمشيئته، وقدرته، وكلماته التامات. . .»[(٢)].

وإنه لقول فاذ جامع يلخص أعظم تعريف للربوبية المطلقة، ويرشد إلى أكمل دليل على وحدة الحاكمية الكلية، والقدرة القاهرة، والمشيئة النافذة. ومن ثم يفتح نافذة نورانية واسعة، يُتوجه منها إلى صاحب الخلق والأمر: الله جل جلاله، وإلى معرفته بذاته وصفاته المقدسة، التي هي غاية الخلق، ويُنظر منها إلى آياته التكوينية الخلقية في الأنفس والآفاق، وفي الأحوال والأقدار، وهي تُكتب أمام أعين الأنام في كتاب الكون العظيم، المنظور والمقروء، بسر كلماته الأمريات التكوينيات، النازلة من خزينة

---

(١) الفتاوى: ٢٤٧/٢/١، وكذلك: ٢٦٧/٨/٤.

(٢) الفتاوى: ٢٤٦/٢/١.

الكلام الأزلي الذي لا ينفذ، والمتضمنة للعلم الإلهي الذي عن الغيب لا يُحجب. فما هو يا ترى سر هذه الكلمات التكوينيات؟

إن هذه الكلمات التكوينيات هي التي تُكون بها أكوان، وتُنشأ بها عوالم، وتُخلق بها نواميس، وتُقدر بها أقدار. . . وبتعبير آخر: إنها الكلمات التي تنقاد إليها الموجودات، من الذرات إلى المجرات، انقياداً كاملاً، وبمنتهى اليسر والإنتظام، سواء في وجودها وفنائها، في ماهيتها وصفاتها، في حركاتها وأحوالها، في كل شأن من شؤونها، وذلك وفق دساتير سنة الله المسطورة في سجل العلم الإلهي الواسع والإرادة الإلهية المطلقة.

وليس من ريب أن كلمات هذا شأنها العظيم، وتأثيرها الخطير في كل شيء، تتقاصر دون معرفة كنهها، وإدراك كيفيتها أفهام البشر القاصرة؛ لأنها وأمثالها من صفات الله التي أثبتها القرآن وسكت عن كيفيتها؛ غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وعلم بحكمته أنه لا حاجة للإنسان بمعرفة ماهيته، فلم يهب له القدرة على إدراكه والإحاطة به، بالأداة التي منحه إياها لخلافة الأرض، وليس من مقتضيات الخلافة أن يطلع على هذا الغيب المحجوب، بل ربما كان مانعا منها لو كُشف للإنسان ستره، ولم يُترك لعلام الغيوب شأنه. ومن ثم لم يُتح للعقل البشري أن يخوض فيه؛ لأنه لا يملك الوصول إلى شيء من أمره، وكل جهد يُبذل في هذه المحاولة هو جهد ذاهب ضائع؛ لأنه صادر ـ قطعا ـ من جاهل بطبيعة عقله ومستلزمات وظيفته.

لقد قال الله لنا: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾[1] فأخبرنا أن من أمره وشأنه الخاص هذه الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول، مألوفاً للبشر أو غير مألوف. . .، ولم يكلفنا أن نعلم وراء ذلك شيئاً، بأن نسأل مثلاً: هل هي كلمات بالهواء تسمعها الموجودات؟ وكم أعدادها التي تدخل الأسماع،

(١) يس/٨٢.

وتنفذ في المخلوقات؟ وكيف تسري في غاية السرعة والانتظام في الأشياء، فتجري بها مهمات جليلة؟ وكيف يستلهمها جنود رب الأرض والسماوات؟ وكيف تغير الأحوال والأوضاع، وتحول الغيب إلى شهادة، وتقلب المعنويات إلى ماديات؟ ولماذا لا تردها كل الكلمات؟

إن الذين يقيسون كلام الخالق وأوامره النافذة المتضمنة للعلم الكامل، والقدرة المطلقة، والإرادة الكلية، إلى كلام البشر المعهود، وأوامرهم الواهية، المتضمنة للإرادة الجزئية والعلم المحدود؛ هم الذين يسألون هذه الأسئلة وأمثالها المتعلقة بصفات الخالق، ويرومون من ورائها العلم بالحقائق، وإن غيروا في سبيل ذلك حقائق القرآن ومفاهيمه الراسخة، وتطاولوا إلى شأن خاص من شؤون الربوبية اللامتناهية، وتناولوه من زاوية منطقهم وتجاربهم وتصوراتهم المتناهية.

ومن هنا يتبين أن ما أنفقه علماء الكلام في مسألة الكلمات التكوينيات، التي هي مناط «القضاء والقدر» أو «الجبر والاختيار»، على النحو الذي تكلموا بها وتجادلوا فيها[١]، جهد ضائع، لا طائل وراءه؛ لأنه في غير ميدانه، وبغير أداته؛ ذلك بأن المسألة ليست في ميدان السؤال، والتحليل، والتعليل، والاستنتاج بموازين البشر، وليست من طبيعة الأداة التي وُهبها البشر للتصور والتفكر، وكل منهج في تصور مثل هذه المسألة غير منهج الإحالة إلى علم الله الواسع، الذي تستند إليه حقائق القرآن الحقة، وبيانات السنة المطهرة، لا ضلالات الفلسفة الزائفة، وجدالات الكلام المضللة؛ منهج فاسد من أساسه، لأن مسائل الألوهية لا يدركها إلا من يملك علماً محيطاً بكل شيء، ولا يمكن أن يدركها من أوتي علماً قليلاً بإذن ربه وقوته!

وهكذا نمضي في التمهيد لهذه القضية ودراسة نصوصها المعجزة، على أساس الالتزام بنهج الإيمان، واجتناب نهوج الكلام المضللة، فنقول:

---

(١) تقدم طرف من هذا الجدل الضيق، ضمن دراسة علاقة «الأمر والإرادة»: (انظر ص١٦٨ ـ ١٦٩ في هذا البحث).

إننا لا نعلم أمر الله المغيب عنا ولا تتطاول إليه أعناقنا، ولكننا نعلم - بيقين قاطع - أن علينا أن ننفق طاقتنا في أداء ما كلفنا الله به، لنستحق ثوابه وفضله، ألا وهو الإيمان به، إيمانا يهبنا الاطمئنان، وأن نفتح بصائرنا وأنظارنا على آثاره المسطورة في كتاب الكون الكبير والمنظورة في تعبير القرآن الكريم، وأن نتدبرها بعمق في التأمل، بوصفها أختام وحدانية على صفحة الوجود، تدل على الصانع الجليل سبحانه، وتظهر صفاته وكمالاته. . .

أجل، إن علينا أن نرى بالقلب الواعي والحس اليقظ آثار الأوامر التكوينية متجلية في السهولة المطلقة في خلق الأشياء، وفي الوفرة المتناهية في الموجودات، وفي جلال الأعمال التي تؤديها المخلوقات، وفي كثرة تسبيحاتها التي تنم عن عبوديتها لله وتدل على أسمائه الحسنى، وفي غاية التسخير للكائنات، وإحكام التدبير لأمورها كافة، وفي اطراد القوانين الجارية في الكون والإنسان، والمتعلقة بالأرض والسماء، بالدنيا والآخرة، وفي خرق تلك القوانين بالمعجزات، وفي تمام التقدير لما فيه كمال الإنسان، والتيسير لأعمال سعادته وشقاوته، والتدبير لمبارزاته، ولأدق شؤون حياته. . .، وفي سرعة القضاء العادل بالأحكام الجزائية، الدنيوية والأخروية، بناء على كسبه واختياره.

ثم إن علينا أن ننظر ببصر إيماني نافذ إلى جنود الله: الأسباب الظاهرة والغيبية، لا على أساس أن لهم الخلق والأمر، فهو سبحانه الخالق الآمر، بل على أساس أنهم خدمة يدبرون أمور الربوبية باستلهام تلكم الأوامر التكوينية الإلهية، وامتثالها امتثالا كاملا، وتمثيلها في صورة قوانين جارية في الكون والخلق، وفي عالمي الشهادة والغيب.

ذلك فقط ما أملك بيانه - في حدود الإمكان - من أمر الكلمات الأمريات التكوينيات، وذلك بما تبينت من معاني آياتها الكريمة، وأحاديثها الشريفة، التي تقرب الحقائق المغيبة عن الإنسان إلى الأذهان، وتحضر القلوب للإيمان، وبما سأبسط من كلام باستمداد تلكم المعاني السامية، في

تجليات الأوامر التكوينية، المتعلقة بالدنيا والآخرة، والمهيمنة على أمور المخلوقات كافة، وفي وسائل امتثالها وتمثيلها.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول: تجلياته في الدنيا

وأظهر هذه التجليات تنبسط في ثلاثة مجالات، وهي: التكوين، والتدبير، والقضاء.

١.١ ـ في مجال التكوين

وتظهر في هذا المجال ثلاث جلوات من تجليات أمر «**كن فيكون**»، تعرفنا بـ«**الخالق**» العظيم، و«**المحيي**» و«**المميت**»: الله جل جلاله...

١.١.١ ـ الخلق

١ ـ أصل الخلق في اللغة: «**التقدير**»[١] ومنه: «خلقت الأديم للسِّقاء: إذا **قدَّرته**»[٢] و«الخَلْقاء: الصخرة الملساء لاستواء أجزائها في **التقدير**»[٣] ومن الخلق في التقدير، استعمل معظم ما في القرآن من الخلق[٤] **في إيجاد الشيء وإبداعه على غير مثال سبق**[٥]، **وفي إنشائه على**

---

(١) انظر: الفروق/١٢٩، والمقاييس/خلق، ومعه: «ملاسة الشيء» أصلاً ثانياً. وفي المفردات، ميز الراغب هذا الأصل بوصف «المستقيم».

(٢) االمقاييس/خلق.

(٣) الفروق/١٢٩، وبملحظ من هذا المعنى الحسي، استُعمل الخلق معنوياً، في «**العادة التي اعتادها الإنسان، ويأخذ نفسه بها على مقدار بعينه. فإن زال عنه إلى غيره، قيل: تخلق بغير خلقه**»: (نفس المصدر).

(٤) جاء في الخلق نحو مائتين وخمسين مرة، بصيغ: المصدر، والفعل الثلاثي واسم فاعله، وخلاق (مرتين)، ومخلقة (مرتين): (انظر الشواهد على ذلك في مادة: «خلق» بالمعجم المفهرس).

(٥) كقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: البقرة من الآية ١١٦.

مثال **يُبدع ويُقدر**[١] و«ليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى»[٢]. ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين خلقه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾[٣]، وقال في عموم خلقه للأشياء: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٤]، وأضاف إلى الشمول في الخلق لفظ «**التقدير**»، في مثل قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٥]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[٦]. والتقدير لازم لجميع المخلوقات؛ إذ هو عبارة عن تحديد الباري أشكالها وألوانها وأرزاقها، والإحاطة بأحوالها وأعمالها[٧]...، كما هو ثابت في الحديث الشريف، عن عبدالله بن عمرو، عنه ﷺ قال: **«كَتب اللَّهُ مَقادِير الخَلائِق، قَبلَ أَن يَخْلُق السَّماوَات وَالأَرض بِخَمسِين أَلف سَنة»**[٨].

ولما كان سبحانه وتعالى أبدع جميع الأشياء من العدم، وجعل لكل شيء قدراً، حساً ومعنى؛ صح أن يكون الخلق ـ بمعنى الإبداع والتقدير ـ أعظم دليل على ربوبيته وألوهيته[٩]؛ إذ خلْق شيء من كل شيء، وخلق كل شيء من شيء، وتخصيصه بقدر دون قدر؛ إنما هو خاصية تعود إلى

---

(١) كقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: النساء من الآية ١.

(٢) المفردات/خلق. وجاء فيه: «والخلق لا يستعمل في كافة الناس إلا على وجهين: أحدهما في معنى التقدير... والثاني في الكذب، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: العنكبوت من الآية: ١٧».

(٣) النحل/١٧.

(٤) الرعد من الآية ١٦.

(٥) الفرقان من الآية ٢.

(٦) القمر/٤٩.

(٧) مضى بيان معنى القدر في اللغة وفي اصطلاح القرآن، عند تحليل صفة «القدر المقدور»: (ص٢٢١).

(٨) مسلم في القدر (١٦/٢٦٥٣).

(٩) ولهذا بدأ الله تعالى نبيه المصطفى، في أول قطرة من آيات «اقرأ»، بذكر نعمة الخلق؛ إذ قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾: العلق/١. وكان أول نداء في المصحف يوجه إلى الناس جميعا بعبادة الله كان لاستحقاقه عبادته وحده، لأنه متصف بصفة الخلق، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾: البقرة من الآية ٢١.

القدير ذي الجلال الذي لا يثقل عليه شيء، فما من شيء في دائرة الإمكان إلا وهو قادر على أن يلبسه الوجود بمنتهى اليسر. وقد بين سبحانه كيف يبدع الأشياء والكائنات، في سياق تقرير إرادته المطلقة في التكوين، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾[1]، وقال ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾[2]، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾[3]. فالخلق ـ بنص القرآن الكريم ـ يتم بالأمر، وخزائن الإيجاد الإلهي كامنة بين الكاف والنون[4]، ونابعة من زاوية الإرادة الإلهية الطليقة التي لا يقيدها شيء، والعلم الإلهي الكامل الذي لا يعزب عنه شيء؛ فهو سبحانه يخلق كل شيء في لمح البصر بأمر واحد، وبمجرد توجه مشيئته إلى خلقه. ومن ثم فالمخلوقات إزاء قدرته سيالة بإرادته، وسيارة بأمره، ومنقادة إليه انقياداً تاماً[5] في رحلتها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. وسيان عند القدير ذي الجلال خلق الكثير في كثرته والقليل في قلته؛ ذلك بأنه سبحانه يوجد الكليات بسهولة إيجاد الجزئيات، ويخلق الجزئيات بإتقان الكليات، حتى أن أعظم شيء كخلق السماوات والأرض سهل على قدرته الفاطرة كأصغر شيء، مثل خلق الإنسان.

وانسجاما مع فعالية القدرة الإلهية وسهولة الخلق الإلهي، يكشف لنا القرآن ـ بوضوح ـ عن هيمنة الإرادة الإلهية التكوينية على كل شيء، وعلى كل قانون. . .، بمناسبة تنزيه ذاته العلية عن اتخاذ الولد، فينبه ضمن عموم آيات (قضاء الأمر) المتقدمة[6] إلى أن إيجاد المعدوم من غير سبب هين

---

(١) القمر/٥٠.

(٢) يس/٨٢.

(٣) النحل/٤٠.

(٤) وإنما اختير (كن) المركب من حرفين متحرك وساكن؛ لأنه أخصر فعل يقرّب الأمر بالكون إلى الأذهان.

(٥) ويدل على هذا الانقياد والمطاوعة لأمر التكوين، قراءة الرفع في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾؛ أي: يقول له: (كن) فهو يطاوع (فيكون).

(٦) راجع المفهوم الذي لبسه الأمر حين استعمل في مجال الإرادة التكوينية، ضمن المعاني الاسمية في مبحث التعريف، ص٧٤.

بالنسبة إلى كمال قدرته؛ حيث يقول في آية مريم: ٣٥ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾، ويقول في آية البقرة: ١١٧ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾، ويقول في آية آل عمران: ٤٧ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

إن نظرة فاحصة في قضية الخلق، التي يدور عليها سياق هذه الآيات في عمومه، وكذا في العموم المستفاد صراحة من لفظ (أمراً)، تدلنا على أن أمر التكوين عام في عيسى وغيره، وأن الله يخلق ما يشاء، وكيف يشاء، ومتى يشاء. بيد أن بعض أرباب الوجوه اتجهوا بـ«**الأمر**» في آيتي «**مريم**» و«**البقرة**» إلى الخصوص دون العموم؛ فانساقوا وراء سبب النزول الخاص بالآيتين، وهو الرد على النصارى في مقالتهم: اتخذ الله ولداً، وشبهتهم أن المُكوَّن ابن الله، لتكوينه عن غير سبب معتاد[١]. ومن ثم فسروا «**الأمر**» بـ«**عيسى ابن مريم**»[٢] والظاهر ـ كما تقدم ـ أنه عام في كل ما قضاه الله وبرأه من أمور التكوين، وإيجاد عيسى من غير أب داخل في هذا العموم، كما هو واضح من مناسبة النزول؛ إذ هو يمثل جزئية في الخلق ضمن القاعدة العامة للخلق، وهي: الإبداع من العدم. ومن ثم لا يجوز أن يُخصَّص لفظ الأمر هنا بعيسى، لكونه نزل فيه؛ وإنما يجوز أن يتضمن هذا اللفظ العام تنبيها من الله تعالى للنصارى وغيرهم على أن الذي ابتدع السماوات والأرض وسائر الكائنات على غير مثال سبق؛ هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته المطلقة. وهذا يدل على أن أكبر شيء إزاء هذه القدرة كأصغره. وأن جميع الأشياء توجد بالآمرية الواحدة كإيجاد الشيء الواحد، كما يشير إلى ذلك التجاور في آيات البقرة[٣] بين

---

(١) يراجع في ذلك: جامع البيان: ١/٥٠٨ والتحرير: ١٦/١٠٣.

(٢) انظر الأشباه/١٩٣ والبصائر/٤٠ والأسماء والصفات/٢٩٥.

(٣) من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ إلى قوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾: ١١٥ ـ ١١٧.

إبداعه سبحانه وملكيته للسماوات والأرض، وتكوين عيسى بأمر التكوين، بدلالة النزول. وقد عبر تعالى عن هذا التكوين بفعل «**يخلق**» في آية مريم، دون (يصنع) أو (يفعل) لأنه خلق أُنُف مخالف لقانون التناسل؛ إذ هو إيجاد ولد من غير والد بمجرد كلمة كن الإلهية التي ألقاها إلى أمه، وهي نفس الكلمة التي كون الله بها آدم عليه السلام من قبل، كما نطقت بها الآية الكريمة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[1] ولعل هذه الكلمة الكونية التي لخصت سر الحياة هي التي كان بها النفخ من روح الله، في القالب القدري الطيني لآدم، كما قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[2]، وكان بها أيضاً نفس النفخ في فرج مريم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[3]. وبهذه النفخة العلوية كان عيسى عليه السلام آية للناس، ومحلاً لاصطفائه لرسالته، وطريقا إلى رحمته، كما قال: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[4]. وقد كان من آثار هذه النفخة الكريمة أن خص الله المسيح بآية النفخ في الطين، بعد تصويره بصورة الطير، فيكون طائرا بإذن الله، كما صرح به المسيح عن نفسه في قوله تعالى: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[5] ولم يذكر سبحانه عن المسيح خلقاً مطلقاً، كما ذكر عن نفسه تبارك وتعالى. وهذا صريح في أنه ليس هو الإله الخالق، وإنما هو عبدالله وكلمته وروح منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ

---

(١) آل عمران/٥٩. والجدير بالذكر، أن قانون التناسل لم يُخرق باعتبار المبدأ بآدم ﷺ أب البشر فقط، وإنما خُرق أيضاً بأوادم جميع المخلوقات الأرضية، الذين أعطي لهم الوجود خارج ذلك القانون...!.

(٢) الحجر من الآية: ٢٩.

(٣) الأنبياء من الآية: ٩١.

(٤) مريم/٢١.

(٥) آل عمران من الآية: ٤٩.

مِّنْهُ﴾[١] فعيسَى «روح مِن اللّهِ»؛ أي: «روح بكلمة الله خلقَها الله»[٢]، وليس معناه أن بعض الله صار في عيسى، بل «من» لابتداء الغاية[٣]، وأيضاً فإن عيسى «كلمة الله» والمراد به: أنه خلق بكلمة قوله (كن) من غير الحبل المعتاد، وليس عيسى هو الكلمة؛ إذ الكلمة قديمة، وليست «مخلوقة»[٤]، ولا «من ذات الله»[٥]، وعيسى مخلوق ومُسمى بها، ولا يلزم من قدم الكلمة قدم متعلَّقها عيسى، كما يدعي آباء الكنيسة[٦] حين دعوا للرحمن ولدا: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾[٧]. وقد أعلن المسيح عبوديته لله، حين أذن له ربه بالكلام في المهد، فقال: . . .﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾[٨]، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، فقال عقب بيان كيفية

---

(١) النساء من الآية: ١٧١. وروى البخاري حديثاً عن رسول الله ﷺ يتساوق متنه مع ما في الآية من أوصاف المسيح عليه السلام، جاء فيه: **«من شهد أن لاَ إلهَ إلا الله وَحْدَه لاَ شَرِيك لَه، وأن مُحَمَّدا عَبدُه ورَسولُه، وأَن عِيسَى عبدُ اللّهِ ورَسُوله، وكَلِمَته أَلقاهَا إِلى مَريم وروح منه. . .أَدْخَلَه الله الجنَّة عَلى مَا كَان مِن العَمَل»**: (البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٥)، عن عبادة رضي الله عنه).

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٤٩/٨/٤.

(٣) التفسير الكبير: ٣٧١/٧.

(٤) والقول بحدوث الكلمة يُحكى عن الجهمية نفاة الصفات: (انظر: مجموعة الفتاوى: ٢٤٩/٨/٤).

(٥) كما يقول النصارى.

(٦) وحول هذه الكلمة تفرع الجدل بين المسلمين والمسيحيين. فزعم هؤلاء أن المسيح يشارك الله في الألوهية؛ لأن كلمة الله قديمة في دلالتها على عيسى، وأنكر أولئك قدم «كلمة الله» في دلالتها على المسيح لتأكيد إنسانيته، ثم انتقل البحث إلى كلام الله بوجه عام: هل كلام الله جديد؟ كيف ذلك، والكلام يدل على العلم، بل هو مظهر له، وإذا كان القرآن كلام الله. فهل هو مخلوق حديث أم غير مخلوق، فهو قديم؟ وتأسيساً على هذا الخلاف، تبنى المعتزلة القول بخلق القرآن وحدوثه في عهد المتوكل، وأنكر الحنابلة وصف القرآن بأنه مخلوق، وكانت فتنة بين المسلمين، ومحنة للحنابلة.

(٧) مريم/٩٢ ـ ٩٣.

(٨) مريم/٣٠.

إبداعه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، وقال متبرءاً إلى ربه من كبيرة تأليهه التي افتروها عليه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾. . .[(١)].

ذلكم عيسى ابن مريم، قول الحق الذي فيه يمترون، وبه يكذبون، ولو استقاموا على الطريق المستقيم، لعلموا أن أمر إيجاده سهل إدراكه، ووقوعه لا يثير الشبهات العقدية، ولا يستدعي أدلة عقلية، كما لا يثير الإشكالات اللفظية والمفهومية بالنسبة إلى غيرهم من المسلمين ـ مفسرين ومتكلمين ـ، الذين شغلتهم مواهي الألفاظ وأبعاد الزمان والمكان وصرفتهم عن صراحة القرآن، التي لا تحتمل التأويل[(٢)] ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾. فكما أن يداً بشرية عاجزة ـ ولله المثل الأعلى ـ ما أن تكاد تمس زر المصباح إلا ويظهر نور الكهرباء، كذلك الأشياء إزاء قدرة القدير ذي الجلال، تُرسل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، بمجرد قول الله «**كن**»، الذي يسري إليها سريان الكهرباء من دون إعاقة!

وأشبه بمثل عيسى في الخلق من غير سبب، وإن كان دونه وضوحاً وأدخل منه في دائرة الإمكان الذي يُتعارف، مثل امرأة إبراهيم (سارة)، التي بُشرت بالولد بعد الإياس، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[(٣)]، وزوجها قد بلغ من الكبر عتيا، كما قال، على ما حكاه الله

---

(١) المائدة من الآية: ١١٧.

(٢) ومن هذه الإشكالات التي ضلت فيها أفهام المتفلسفة والمتكلمين، وأسالت أقلامهم، وأهدرت أوقاتهم: هل الكلمة (كن) هي النفخة؟ وهل هي حقيقة أم كناية عن توجه الإرادة، أم علامة يفعلها الله تعالى للملائكة إذا أحدثت أمراً؟ وهل حال المأمور الوجود أو العدم زمن الأمر؟ وهل يقول له ـ تعالى ـ «كن» قبل حدوثه أو حال حدوثه؟ وهل المعدوم شيء؟ وهل يوجد المُكون في زمان الأمر، أم يتراخى عنه، أم يقارنه؟. . .: (يراجع الخلاف مبسوطا في: مفاتيح الغيب: ٣١/٤/٢، ٣٢ وكذلك ٢١٩/٢١/١١ ـ ٢٢٠ و١١٢/٢٦/١٣ ـ ١١٣ وجامع البيان: ٥٠٩/١ ـ ٥١٠، والتفسير الكبير: ٣٧٢/٦، ومجموعة الفتاوى: ٩٨/٢/١ ـ ٩٩، و٧/٨/٤ ـ ٨).

(٣) هود من الآية: ٧١.

عنه: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾[١]، واستغربت سارة البشارة من حيث العادة، لا إنكارا لقدرة الله تعالى، كما قال إخباراً عنها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[٢]، وقالت في موضع آخر: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[٣]. وأنكر عليها الملائكة تعجبها ودهشتها، فـ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[٤]، فكل شيء ممكن بالنسبة إلى

(١) الحجر/٥٤.

(٢) هود/٧٢.

(٣) الذاريات من الآية: ٢٩.

(٤) يكاد يُجمع المفسرون على أن أمر الله هو: قدرته وحكمته، أو قضاؤه وقدره: (البحر: ١٨٤/٦، والكشاف: ٢٨١/٢، ومفاتيح الغيب: ٢٩/١٨/٩، والجامع للأحكام: ٧٠/٩، وجامع البيان: ٧٧/١٢/٧ والتحرير: ١١٧/١٢) وفي روح المعاني: ١٥٠/١٢/٧ ـ في قول ثان للآلوسي ـ : «تكوينه أو شأنه سبحانه» والمعاني متقاربة؛ إذ أن المولود الموعود على الكبر، هو أمر أمَرَ الله به أنِ يكون بأمر التكوين (كن). وتكوينه وتخليقه في رحم «سارة» إنما حصل بقدرة الله، التي تدبر كل أمر بحكمة وعلم، كما قال تعالى على لسان الملائكة في آية الذاريات: ٣٠ ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾. وقد انساق فريق من الأصوليين وراء مذهبهم في اشتراك الأمر بين القول والفعل، ففسروا ـ في ضوئه ـ الأمر في الآية بالفعل حقيقة: (يراجع: المحصول: ١٨٥/١ ـ ١٨٦) وهذا تحكم لا نسلمه؛ إذ أن الضابط الصحيح في إطلاق الألفاظ على مفاهيمها ليس خصوص كونها حقيقة أو مجازاً فيها، أو نحو ذلك؛ وإنما هو السياق، والتركيب، والاستعمال. فلا يجوز إذن القطع في هذه الآية بأن الأمر يطلق على الفعل من حيث هو فعل إلا بقرينة مقالية أو مقامية. ومن الواضح أن الآية سيقت في مقام العجب من معجزة ربانية، وهي تكوين إسحاق بعد الإياس. وهذا التكوين إنما حصل بأمره وقدرته، لا بفعله. ثم إن سلمنا أن الأمر هو الفعل حقيقة، فلم لا يجوز أن يكون المراد: شأنه، لشمول هذا اللفظ لأقوال الباري وأفعاله؟! (جرت عادة الأصوليين أن يؤسسوا مذاهبهم على نزر يسير من الآيات المكرورة ـ ومنها هذه الآية ـ التي تنتصب حججا قوية، في نظرهم، على دلالة الألفاظ ـ ومنها الأمر ـ الوضعية، أو المجازية، أو المشتركة، أو نحوها. والحقيقة أن تعيين دلالة دون أخرى، والجزم بمعنى دون آخر في مفاهيم الألفاظ، أمر لا يعلم من نصوص متفرقة شذر ـ مذر؛ وإنما يعلم بالاستقراء الشامل لجميع نصوص اللفظ، وباعتبار معنى المساق في دلالته.

وعلى هدي هذه الحقيقة الأصيلة، يمكن الحسم في كثير من الخلاف، الذي أثاره الاستدلال بالنصوص الشرعية على حد الأمر وحقيقته، وموجب صيغته ومقتضاها، وغير ذلك. . .).

قدرة الله تعالى، وهو سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ونظير هذه العجيبة التكوينية من عجائب الله وقدرته، إيجاد يحيى، وقد اشتعل رأس زكرياء عليه السلام شيباً وامرأته عاقر. ومن ثم انقطعت به علل الإنجاب التي سنها الله بين البشر، كما قال، مستفهما على طريق التعجب: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فأجابه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1].

وكذلك هو قانون الألوهية في الخلق، وفي كل أمر. . .، لا يرد عليه قيد، ولا تعيقه سنة؛ ذلك بأنه تجل كلي للأمر الإلهي، ومظهر كامل للإرادة الإلهية، بحيث إذا أراد الإله الخالق شيئاً ما أراد يقول له (كن) فيكون ما شاء، ومما يشاء، وكيف شاء.

١. ١. ٢ ـ الإماتة

تدل مادة «موت» في اللغة على «**ذهاب القوة من الشيء**، ومنه الموت: خلاف الحياة»[2]. ومن المادة جاءت «**الإماتة**» في القرآن، مراداً بها: **إزالة «القوة النامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنبات»**[3] وهذا المعنى لم يرد إلا مختصاً بمالك السماوات والأرض: الله جل جلاله اختصاص قضاء وقدر وكتابة. قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾[4]، وقال مخبراً عن سبق

(١) آل عمران/٤٠. وقد عبر تعالى في هذه الآية عن تكوينه لإسحاق، بفعل (يفعل)، دون فعل (يخلق) في نظيرتها المتقدمة، في قصة مريم؛ لأن لفعل (يفعل) هنا موقع متعين، فإن أمر زكرياء حدث منه الولد بين رجل وامرأة، وهو فعل داخل في الإمكان العادي، وإن قل. أما في قصة مريم فإن خلق عيسى حدث من غير والد، كما تقدم بسطه.

(٢) المقاييس وكذلك القاموس/موت.

(٣) المفردات/موت.

(٤) الحديد/٢، وانظر معها: التوبة/١١٦.

إمضاء إرادته بموت الأنفس: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾...[١]. فالموت هو قدر الله، الذي قضاه على كل حي، ومن ثم لا يفلت منه أحد، ولا يسبقه فيفوته أحد، كما قال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾[٢]. ومقادير آجال الأحياء في الحياة الدنيا قد سجلها الله سبحانه وأحصاها في كتاب مبين، كما تضمنه عموم قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[٣] فلن تموت نفس حتى تستوفي أجلها المكتوب المرسوم، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[٤] والمراد «**بإذن الله**»: تقديره وقت الموت، ووضعه العلامات الدالة على بلوغ ذلك الوقت المقدر، وهو ما عبر عنه مرة بـ«كن»، ومرة «**بقدر مقدور**»، ومرة «**بالقلم**»، ومرة بـ«**الكتاب**»[٥]. ومن ثم، فإن الله سبحانه إذا أبرم بإرادته التكوينية إماتة حي من الأحياء، يقول له عند تنفيذ مراده فيه (كن)، وبأمر التكوين هذا يكون المكون الموجود فاقد الحياة. وقد صرح بيان القرآن الكريم بأثر هذا الأمر التكويني، بما يؤكد حقيقة الموت القدرية الكونية، وذلك فيما حكاه الله تعالى عن خطاب المؤمنين للمنافقين، في مقام التوبيخ يوم القيامة، حيث قال: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾[٦]. فمجيء أمر الله هو الموت على

---

(١) الزمر من الآية: ٤٢.

(٢) الواقعة من الآية: ٦٠.

(٣) الرعد من الآية: ٣٨.

(٤) آل عمران من الآية: ١٤٥.

(٥) التحرير: ١١٤/٤/٣. ولعل الجهل بحقيقة الموت القدرية الكتابية، هي التي دفعت المنافقين إلى أن يطلقوا مقالات النقد والتلويم والتحسر على من قُتل من المسلمين يوم أحد، وأن يزعموا فيها أنه لو لم يخرج المسلمون إلى أحد، لما قُتل من قتل منهم، ولبقي حياً، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾. وقال تعالى لرسوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾...: آل عمران من الآية: ١٥٤.

(٦) الحديد/١٤.

النفاق بإجماع معظم المفسرين[١]. وإنما عبر الله عن الموت بالأمر؛ لأنه بأمره الكوني كُون[٢]، بخلاف رغبة الإنسان واختياره[٣]. وقد وكل تعالى بإزهاق أرواحهم ملك الموت، وعبر عن ذلك «بالتوفي»[٤] في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[٥]، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾...[٦]، فملك الموت يباشر إماتة الإنسان بأمر الله ومشيئته؛ لأن الله عز وجل هو الذي يحيي ويميت. وإذا بت بإرادته أمراً وأتم قرار إيجاده أو إعدامه، فإنما يقول له عند تنفيذ مراده فيه (كن) فيكون.

---

(١) يراجع: الكشاف: ٦٤/٤، وروح المعاني: ٢٧٢/٢٧/١٥، والوجوه/٦٤، والجامع للأحكام: ٢٤٧/١٧، ومجمع البيان: ٢٣٦/٩، والبحر: ١٠٧/١٠، ومفاتيح الغيب: ٢٢٧/٢٩/١٥، والتحرير: ٣٨٧/٢٧/١٣) وقريب من هذا المعنى، ما جاء في جامع البيان (٢٢٦/٢٧/١٣): «﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: حتى جاء قضاء الله بمناياكم، فاجتاحتكم».

(٢) وهذا الملحظ التعبيري جاء على مقتضى مذهب العرب في إقامة سبب الشيء مقام الشيء، وإليه أشار الرازي في كلامه المتقدم عن مفهوم «أمر الله» في اللغة: (انظر ص٢٠١).

(٣) ويعضد ذلك اطراد تقديم الفاعل «الموت» على المفعول به «الميت» في البيان القرآني، في حالات إسناده إلى «الحضور» و«الإتيان» و«المجيء»، في مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾...: البقرة من الآية: ١٣٣. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾...: المؤمنون من الآية: ٩٩ وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾...: المنافقون من الآية: ١٠. فتأخير الموت في هذه الآيات القرآنية يشعرنا بأن الموت مؤخر عن شعور الإنسان وتفكيره، وأنه هو الذي يأتي صاحبه الذي انتهى أجله، وليس صاحبه هو الذي يسير إليه، ولذلك ناسب أن يكون هو الفاعل، وأن يسند الحضور والمجيء والإتيان إليه، دون الميت. وإلا فمن ذا الذي يموت بإرادته، ليكون هو الفاعل في عملية الموت؟!.

(٤) وعُبر بالتوفي ـ أيضاً ـ عن النوم، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾... الأنعام من الآية: ٦٠. مما يدل على أن التوفي شيء غير الموت، يحدث عند النوم، ويحدث عند الموت: (انظر: المفردات/وفى، وقواعد التدبر الأمثل/٣٦٦).

(٥) الأنعام من الآية: ٦١.

(٦) السجدة من الآية: ١١.

ومن هنا، تكثر الإشارة في القرآن الكريم إلى آيتي الخلق والإماتة مجتمعتين في مقام الاستدلال على إمكان وقوع النشأة الآخرة. ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾...[1]، وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾[2]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾[3].

فالحياة والموت يتكرران في كل ما يقع عليه حس الإنسان في عوالم الأحياء، وصورهما تتراءى على مدار الأزمان، فكم من أنواع الأحياء ماتت، وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة ودب فيها سرها من حيث لا تعلم بأمر (كن)، وكم من ميتات وقعت عند أجلها المسمى. فإذا هي ذاتها بواعث حياة! والله تعالى حين يلفت نظر الإنسان باستمرار إلى نعمة ابتداء خلقه وتدرجه في أطوار الحياة، حتى بلوغه أجل الممات، يشير إلى أن الموت والحياة مخلوقان ومقدوران له؛ إذ هو الذي يخلق الحياة والموت، لتعيد الأحياء أنواعها، وتتكامل مسيرة الإنسان الابتلائية في الحياة الدنيا، وتكتمل بمجيء الأجل المضروب للحياة الأخرى، كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾...[4]؛ فلا جرم أن تمضي مشيئته سبحانه حرة طليقة بين إيجاد المعدوم وإعدام الموجود، بغير حد ولا قيد، وتتعلق بما شاء أن تتعلق به، كما تشاء، وكيف تشاء؛ ذلك بأن القادر على خلق حي مما ليس فيه حياة قادر على إماتته بعد الحياة. فكيف تدب هذه الحياة في الأموات بعد الممات؟

(١) الجاثية من الآية: ٢٦.
(٢) عبس/١٧ ـ ٢١.
(٣) غافر/٦٧ ـ ٦٨.
(٤) الملك من الآية: ٢.

١. ١. ٣ ـ الإحياء

جاء الإحياء في اللغة من مادة (حيي)، **خلاف الإماتة**[١] ومنه قيل للمطر: حيا؛ لأنه يحيي الأرض بعد موتها[٢]، وإياه قصد تعالى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾[٣] وليس الإحياء الذي تكون به حياة كافة الأحياء إلا للحي جل جلاله. ولهذا ذكر عن نفسه في مقام التعظيم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾[٤]، ولم يجعل هذه الصفة لغيره إلا ما أنعم به على عيسى من خارقة الإحياء بإذن الله، كما قال تعالى: . . .﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٥]. وقد بين تعالى كيفية إحياء الموات بتجارب واقعة في عالم الشهادة[٦]، تجلي فعالية القدرة الإلهية ونفاذ الأمر الكوني، وتدل دلالة قاطعة على إمكان البعث في الآخرة. ذلك ما تريه عين اليقين أظهر تجارب الإحياء المباشرة، وأدقها تصويراً في القرآن الكريم. إنها ـ أولاً ـ تجربة الإماتة والإحياء التي مرت بالرجل الذي مر على قرية، وهي كما جاءت في قصته: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾[٧]. فهذه الآية الكريمة بينت معجزة من معجزات الإحياء، من خلال التجربة الذاتية لعبد من عباد الله، عاين مشهد الموت والبلى والخواء،

---

(١) وإلى هذا المعنى أشار ابن فارس ـ ضمنا ـ في قوله: «الحاء، والياء، والحرف المعتل أصلان: **أحدهما خلاف الموت. . .**» (المقاييس/حيي).

(٢) المفردات/حيي.

(٣) الأنبياء من الآية: ٣٠.

(٤) الحجر/٢٣.

(٥) آل عمران/٤٩.

(٦) وسيجيء بعد، الحديث عن كيفية الإحياء في الآخرة.

(٧) البقرة/٢٥٩.

وتساءل عن كيفية دبيب الحياة في الأموات، فأماته الله مائة عام ثم بعثه، ليريه من آيات قدرته وخوارق مشيئته؛ حيث أحيى جسده الذي لم يمسه البلى بنفخ الروح ـ عن غير إعادة ـ، وأحيى طعامه وشرابه الذي لم يتعفن بحفظه من التغير، وأحيى حماره الذي تعرت عظامه بالإعادة. فأدرك الرجل ـ حينئذ ـ كيف تستجيب ذرات الأموات لأمر «**البعث بعد الموت**»، وكيف تنقاد العظام النخرة للمشيئة الإلهية انقياداً كاملاً.

ثم تجيء في نفس السياق التجربة الثانية للإحياء، تجربة إبراهيم الخليل أب الأنبياء؛ إذ سأل ربه عن كيفية إحياء الموتى، سؤال شوق وتشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، كما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1] فأراه الله إحياء الموتى بالمحسوس: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

لقد أمر مالك أمر «**كن**» أقرب مقربيه أن يختار أربعة طيور فارقتها الحياة، فيدنيهن منه، حتى يتأكد من صفاتهن، وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن، ويفرق مُزَقهن في أماكن متباعدة، ثم يدعوهن فتتجمع أشلاؤهن مرة أخرى، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعيات.

ورأى إبراهيم عين اليقين كيف تُجمع مُزق الأموات وتُنظم ذراتها، وكيف تقدر بدقة وإتقان، وفق مقادير وقوالب خاصة، وكيف تُمنح الحياة بدعوة واحدة، وفي لمحة خاطفة، وكيف تُخرج إخراجاً جديداً، بلا مصاريف ولا تكاليف، من معمل القدرة الفاطرة «**ك. ن**» الموجود في أمر «**كن**» المنتسب بالأزلية إلى الكلام الإلهي، بصريح الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[3].

---

(١) البقرة/٢٦٠.

(٢) من نفس السورة والآية.

(٣) النحل/٤٠.

ولقد رأى الناس، من بعد إبراهيم، هذه العجيبة من أمر الله، وهي تتحقق بنفخة عيسى في الموتى من الناس، لكن بإذن الله له أن يفعل ذلك، كما قال في الآية الأخرى: . . . ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾[(١)]. وقد يعجب الإنسان العادي، الذي ألف الأسباب الظاهرة، مما رآه بعض أصفياء الله من سر الإحياء، وقد يتصور خياله هذا السر الذي وقع، وهو بعيد عن رؤيته بعينه، فيلتبس عليه أمره، ويطلب البرهانَ حسه. لكن حينما يفتح عينه وقلبه على ما ينشئه الله سبحانه من عجائب صنعته في كل ربيع بإحياء الأرض بعد موتها؛ يذهب عجبه، وتزول حيرته، ويطمئن قلبه، ويعود على نفسه يسألها في عجب: كيف عجبت من أمر الإحياء وهو أمر فطري واضح؟!

ومن هنا، يلفت القرآن الكريم الأبصار والبصائر، على اختلاف مستوياتها في الرؤية والإدراك، إلى الحقائق الكلية والدساتير الغامضة العامة؛ كدستور الإحياء، وذلك من خلال المشاهدات المحسوسة، والصور الجزئية المألوفة، التي تطالعنا كل مرة في حشر كل ربيع، وفي إمداد آلاف الأنواع من الأحياء بأسباب الحياة. وإن هذه المشاهد الإحيائية لنتمثلها ـ وكأنها حاضرة شاخصة ـ فيما يعرضه القرآن الكريم من آيات الكون الدالة على إحسانه، وعلى حقيقة الحشر وإمكانه؛ فنقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[(٣)].

إن هذه الآيات توجه الأنظار والقلوب إلى سطح الأرض الميتة ـ أمهم التي تقوتهم ـ الأرض التي منها خرجوا وإليها يعودون. . . هذه الأرض تقف خاشعة ساكنة بين يدي الله، في جو العبادة والسجود، وهي تتلقى من يدي

(١) المائدة/١١١.

(٢) الروم/٥٠، وانظر معها: الآية/١٨.

(٣) فصلت/٣٩.

خالقها الحياة، فيمدها بأسبابها من رياح، وسحاب، وماء؛ فتهتز، وتربو، وتنبعث منها الحياة، في كل ربيع، وتنبض - في ستة أيام أو ستة أسابيع - من بين الأشجار والبساتين والأزهار، التي ماتت في الشتاء وأصبحت شبيهة بالعظام، فتنشأ كائنات جديدة على صحيفة الأرض، مزينة بنقوش الرحمة وأختام الوحدة.

إن هذه الآيات تبين رمزاً أن إحياء موات الأرض، وتحولها إلى خلق جديد يتم بأمر كوني وسنة ثابتة؛ بحيث تصبح ذرات موجودات الربيع وبذورها جنودا مطيعين لأمر الله سبحانه، يسيرون بانتظام على وفق قدرته ودساتير علمه، الذي يتعين فيه خطة كل شيء! إن مالك أمر (كن) يأمر هذه الذرات والبذور أن تدب فيها الحياة إذا أُنزل عليها الماء، وهُيأت لها الأسباب الملائمة لنشأة الحياة.

إنه يأمرها أن تنمو، وتهتز، وتربو، وتشارك العابدين المتحركين في الكون حركة العبادة؛ لتصبح شجرة بثمار مقدرة، أو زهرة بألوان منسقة، أو نخلة بعُسب مفهرسة، دون خطأ أو قصور.





محصلات... ومستفادات

وفي ضوء ما سبق، نحصل ونستفيد:

* **أولاً**: أن المخلوقات المنتظِمة في الكون تُخلق وتظهر إلى الوجود بطرازين(١):

الأول: الخلق من العدم، أو ما يعبر عنه بـ«**الإبداع**» و«**الاختراع**»؛ أي: أنه سبحانه يبدع الوجود من العدم إبداعاً من غير شيء ولا مثال، وفي منتهى السهولة واليسر. ولهذا عبر القرآن الكريم في الآيات المتقدمة أنه سبحانه يفعل ما يريد بمجرد الأمر، تقريباً للأذهان وإزالة للاستبعاد؛ فإيجاد المعدوم وفق تصاميمه الغيبية المقدرة في علمه المحيط، إنما يصدر بحقيقته الحياتية اللطيفة عن إرادته الطليقة، بكلمة «**كن**» الأزلية الواحدة.

ومن هنا، فإن ما أظهره الله سبحانه من آيات الخلق المخالفة لسننه في الخلق، وأجراها على يدي أنبيائه وأصفيائه لبعض الحكم؛ كخلق عيسى وإسحاق، وإحياء الموتى بإذن الله... هي آيات ناطقة بكمال القدرة وطلاقة المشيئة ونفاذ الأمر، مما يدل دلالة قاطعة على أن ما أودعه الله في الكون من سننه الكونية؛ إنما هي ـ في جوهرها ـ استثناءات من قانون خلقه الأساس، الذي يتساوق مع طلاقة إرادته وهيمنة أمره وقدرته، وهو الخلق

---

(١) وحول هذين الطرازين تحدث الإمام النورسي في كلياته (انظر: ١/٢١٤ ـ ٢١٦، و٣/٢٩٧ ـ ٥٤٦). ومن بعض حديثه استلهمت هذا الكلام.

بكلمة «كن» الإلهية، التي عبرت عنها الآية الكريمة إجمالاً: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾. وقد جعل الله قانونه الدائم في الخلق غيبا عن الإنسان، وحجبه خلف ستار العلل والمعلولات الطبيعية للابتلاء، حتى أصبحت خوارق الإبداع في هذه الحياة الدنيا هي الاستثناءات، التي تعد عجيبة كبرى في عرف الناس، والواقع أن الإيمان بالله خالقا لكل شيء، ومهيمناً على كل شيء، وآمراً لكل شيء، يجعل إيجاد الأجساد والأشياء، من غير الأسباب العادية، أموراً ممكنة إزاء القدرة الإلهية؛ مثلها مثل إنشاء آيات الصنعة المألوفة في الكون سواء؛ ذلك بأن هذه القدرة العظمى لا توزن بموازيننا الضعيفة، ولا تقاس بتصورنا البشري المحدود، الذي قد يستبعد من هذه القدرة إيجاد شيء ما من لا شيء، وشذوذ فرد واحد أو أفراد من قانون.

الثاني: الإيجاد بالإنشاء والصنعة وإعادة المثال؛ أي: أنه سبحانه ينشئ تدريجياً قسماً من الموجودات من عناصر الكون نفسه، ضمن سخاء مطلق، وسهولة مطلقة، إظهارا لكمال حكمته وعظيم قدرته، كما دل عليه قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[(١)] وقوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[(٢)].

وهكذا يظهر لنا سبحانه من خلال هذين الطرازين من الخلق، المستفادين صراحة من القرآن، والمتظاهِرين بأشكال شتى من الموجودات؛ السهولة المطلقة في إيجاد كل شيء، والصنعة المتقنة لكل شيء، بحيث يُفهم أنه يأمر في بداية الخلق، مجرد الأمر، والأشياء توجد بسرعة مطلقة، كما يُفهم أنه يكرر إيجاد الأشياء، ويعيد نماذجها بمنتهى اليسر، «وكأنه يأمر والعمل يُنجز، وذلك لأنه اكتسب انتظاماً واطراداً دقيقاً كالساعة»[(٣)] ضمن سنن الخالق الكونية.

وفي كل من هذين الطرازين تنبيه مقنع لقلوب اليقظين الراشدين من

---

(١) النمل/٨٨.

(٢) السجدة/٧.

(٣) كليات رسائل النور: ٢١٥/١.

أصفياء الناس إلى أن الذي سهل عليه إيجاد الأجساد من عدم، يسهل عليه إحياؤها بأمر «**البعث بعد الموت**»، وأن الذي سهل عليه إيجاد الربيع بمنتهى الحسن في الصنعة، يسهل عليه خلق الجنة وإيجاد السعادة الباقية.

* **ثانياً**(١): أن السرعة المطلقة في إيجاد الأشياء بالكلمة الإلهية (كن) دليل قاطع على وحدة الخالق سبحانه وكمال قدرته؛ ذلك بأن إسناد الخلق إلى الفرد الواحد بالأمر الواحد، يجعل خلق جميع الأشياء سهلاً كالشيء الواحد، وخلق أعظم جرم كأصغر شيء، على حد سواء، وبعكسه إذا أسند الخلق إلى الأسباب والطبيعة، فخلق الشيء الواحد يكون ممتنعا كخلق جميع الأشياء، وخلق ذبابة واحدة يكون عسيرا كخلق السماوات. فلولا الوحدانية في الخلق والأمر، للزم أن يكون في كل ذرة بالكون إما علم محيط وقدرة مطلقة، وإما تصاميم قدرية غير محدودة لجميع الموجودات، أو ماهية ليست من جنس الكون بلا شك، وهذا محال ضمن المحالات؛ بينما لو أصبحت الذرات مأمورات لدى خالقها، للزم أن تكون مظهراً لتلك الأمور العظيمة، فتستند إلى علمه وقدرته، كي تنجز من الوظائف ما يفوق قوتها الذاتية ألوف المرات.

وهكذا، لوفُوض الخلق إلى خالق واحد، يسوق الذرات بقانون أمري واحد، من مركز واحد، فسيكون إيجاد الأشياء سهلاً إلى حد البداهة، بينما لوفوض إلى الطبيعة والأسباب، فسيكون الأمر صعباً إلى حد الاستحالة.

* **ثالثاً**: أن هذه الموجودات السيارة بالأمر الرباني، كما تدل بأنواع حياتها على وجوب وجود الخالق سبحانه وعلى أحديته، فإنها تدل أيضاً بأنواع موتها الجارية بإذنه على بقائه وأحديته؛ وذلك لأن الموجودات بعد زوالها تأتي عقبها أمثالها، فتنال الحياة مثلها وتحل محلها، مما يدل على أن حياً دائماً موجود، لا يحول ولا يزول، وهو الذي يجدد باستمرار تجلي الحياة، ويستبدل مكاناً بمكان، وجسماً بجسم، وأسباباً بأسباب... وإن

---

(١) ولكليات رسائل النور كبير الفضل في تحصيل هذه الفائدة وتجليتها: (انظر ـ على سبيل المثال ـ : ٣١٨/٢، ٥٤٤/٣ ـ ٥٤٧، ٢٨/٤).

موت تلك الموجودات وزوالها بأسبابها الظاهرة المتجددة ليبين بوضوح تفاهة تلك الأسباب، وعجزها عن إفاضة الحياة، وكونها ستارا ليس إلا. مما يشهد شهادة قاطعة أن كل الموجودات الجارية في الكون مخلوقات متجددة للخالق سبحانه، ومربوطة ـ بحكمته ـ بأسبابها الظاهرة؛ لإظهار قدرته وبقائه.

١. ٢ ـ في مجال التدبير

تمهيدا للبيان والتفصيل في مجال التدبير المجلي للأمر التكويني، يجمل بنا أن نكشف عن مفهوم «**التدبير**» في اللغة، وفي اصطلاح القرآن الكريم، اعتباراً بسعته، حتى ليشمل جميع الأحياء في الكون وشؤونها كافة، وبدلالته على الربوبية العظيمة، والرحمة الواسعة، والتنسيق المحكم.

١. ٢. ١ ـ مفهوم التدبير

تدور مادة «د. ب. ر» في اللغة حول **أواخر الأمور وعواقبها**. قال ابن فارس: الدال والباء والراء. أصل هذا الباب أن جُله في قياس واحد، وهو **آخر الشيء وخلْفُه خِلاف قُبُله**...»[١] وقال العسكري: «...وأدبار الأمور **عواقبها**، وآخر كل شيء دُبُرُه...»[٢]، ولعل أصل استعماله الحسي في **الدُبُر، وهو خلاف القُبُل**[٣]، ثم أطلق على «**تقويم الأمر على ما فيه صلاح عاقبته وآخره**»[٤]، دون أن تنقطع صلته بالأصل اللغوي.

وبملحظ من هذا الأصل، استُعمل التدبير في القرآن الكريم مقترناً بالأمر، ومضافاً إلى الله سبحانه غالبا، كما تبين من استقرائه[٥]، وإلى

---

(١) المقاييس/دبر.

(٢) الفروق/١٨٥.

(٣) المفردات والمقاييس/دبر.

(٤) الفروق/١٨٥ وقريب من هذا المعنى، ما في القاموس/دبر: «والتدبير: النظر في عاقبة الأمر كالتدبر» وفي المفردات: «التدبير: التفكير في دبر الأمور».

(٥) انظر ص٧٨ من هذا البحث.

الملائكة تارة[١]، في معنى: قضاء الأمور وتقديرها وفق السنن الكونية، وعلى مقتضى العلم و الحكمة[٢] وتدبيره تعالى للأمور بهذا المعنى الكوني الضخم، ليس على المفهوم من التدبير الكسبي الذي يكون من البشر. ولهذا نظمه البيان المعجز ضمن أفعال الباري الحكيمة، بوصفه شاهدا ناطقا بربوبيته وألوهيته، في مثل هذه الآية الجامعة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[٣]. ومجال التدبير منظور واسع شامل، يرسمه التعبير بحرفي الابتداء والانتهاء «**من**» و«**إلى**»، في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[٤]، ويصوره تنزل أمره بين السماوات والأرض، في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾...[٥]. ومن هنا، فإن قيام الخالق بتدبير ما خلق وفق علمه وإرادته وحكمته، هو قيام الملك المهيمن والسيد المتصرف بالأمر والنهي في كل أمر من أمور الكون وأمور الخلق سواء. أما تدبيره لأمور الكون، فبتكوين وتقدير نظام سببي محكم في الكون يحفظ له بقاءه واستمراره، ويعطيه ما به قوامه وصلاحه، ويهديه إلى وظائفه، ويغير في أحواله، وينسق بين عناصره، ضمن الانقياد التام لكلمات الله الكونيات التي لا تنفد.

وأما تدبيره لأمور الخلق، فبقضاء أمورهم الاضطرارية، من إيجاد وإحياء وإعدام وإغناء وإفقار وصحة ومرض...، وتسخير للكون وطاقاته

---

(١) في آية النازعات: ٥، وإضافة التدبير إلى الملائكة، لكونهم المباشرين للتدبير بأمر الله وإذنه، كما سيأتي بيانه تفصيلاً في المطلب الثالث من هذا المبحث.

(٢) وبهذا اللفيف من المعاني المتقاربة فُسر التدبير في جامع البيان: ٨٤/١١/٧ و٩٥/١٣/٨، ومفاتيح الغيب: ١٦/٩/١٧، وفتح البيان: ١١/٧، وفي الظلال: ٧٢/٥، وتفسير غريب القرآن/٣٠٥.

(٣) يونس/٣.

(٤) السجدة من الآية: ٥.

(٥) الطلاق من الآية: ١٢.

لمصالحهم، وتقدير لما ينزل بهم من وقائع وأحداث، وأيضاً بتقدير أمورهم الاختيارية؛ كأمر الوحي، والهداية والضلال، والحرب والسلم، وسائر معاملات الحياة. . .، وكل ذلك يتم بقدر أزلي سابق وعلم محيط شامل، يضم كل ما كان وما يكون، ويحيط به.

وانطلاقاً من هذا التقسيم، نبسط مجاري الكلام بحسب الإدراك والتحصيل في تجليات الأمر التكويني القدري في مجال تدبير أمور الكون والعباد، كما طوتها آيات الأمر وأشارت إليها مفاهيمه المتقدمة في مبحث التعريف[١].

١. ٢. ٢ ـ تدبير أمور الكون

كشف القرآن الكريم ضمن بياناته الكونية عن تلبية السماء والأرض لأمر رب العالمين؛ حيث قال في مقام التشنيع على شرك المشركين: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾[٢]. فبين تعالى أنه أخرج السماء والأرض من ظلمات العدم، وأخضعهما مجبورين لأمره المتبدي في السنن الكونية، التي أجراها في ملكوته ضمن تدبيره وإدارته.

ومن هنا، تطابقت آيات الأمر على إفراد الله ـ سبحانه ـ بالربوبية والخلق والأمر، مع بيان استوائه على عرشه، وعلوه على خلقه، ونفي شبهة وجود الشفعاء، الذين يشاركونه في تدبيره وأمره؛ فقال تعالى في آية الأعراف: ٥٤ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ فذكر سبحانه أنه خلق

---

(١) انظر: ص٧٨ ـ ٧٩.

(٢) فصلت/٩ ـ ١١.

السماوات والأرض ثم اعتلى على عرشه وأدار أمر مخلوقاته، وبين أن هذه المخلوقات وأفعالها إنما تسير بأمره، وتخضع له بجريانها وفق ناموسه الكوني، المستتر تحت ستار الأسباب، ثم ذكر الاثنين وغاير بينهما بواو العطف، وأضافهما إلى نفسه بقوله، منبها الإنسان إلى وجوب الخضوع إلى سلطان الخالق وأمره: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالخلق هو الإيجاد من عدم، كما تبين، والأمر[١] هو ما به يدبر الله سبحانه أمور المخلوقات كلها، بما يفيد استمرارها في الوجود، وتماسكها وبقاءها، وسيرها نحو غاياتها. ومن ثم فالخلق إبداع ومرحلة أولى في الإنشاء. وبالأمر يتم خلق أشياء من أشياء موجودة، وتقديرها، وتحريكها، وتحويلها، وتكريرها وفق سنن كونية، فهو يدل على مرحلة في الظهور لاحقة لمرحلة في الخلق سابقة، وعلى طور في الوجود يتجدد حالا بعد حال. وهذا الأمر التدبيري التكويني هو الذي أشارت إليه آيات تدبير الأمر، ضمن عمومها، وطوته في مشاهد الكون الدالة على قدرة الخالق، وحكمته، وتدبيره. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[٢]، وقوله، ضمن استفهامات تقرير للكفار: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ

---

(١) ذُكر الأمر في هذه الآية معرفاً بأل، فأفاد من العموم والإطلاق ما لم يفده المصطلح نفسه مقيدا بمضاف إليه، لا يتجاوزه ولا يعدوه. ومن ثم اختلف المفسرون في معناه؛ ففسره الراغب بـ«الإبداع» في المفردات/أمر، وفسره الدامغاني وابن الجوزي بـ«القضاء»: (إصلاح الوجوه/٤٠ وقرة العيون/٦٣)، وفسره الرازي بـ«الدين» في الزينة: ١٢٩/٢، وفسره عبدالكريم الخطيب بـ«التدبير والتسخير وإجراء كل مخلوق على التقدير الذي قدره الله له»: (تفسير القرآن بالقرآن: ٤١٥/٨) والحق أن الأمر هنا، بسبب إطلاقه، يتناول جميع هذه المعاني لصدق اسم الأمر عليها. ولعل أوفى عباراتهم في تفسير معناه هي قول رشيد رضا: «وله فيها الأمر، وهو التشريع والتكوين والتدبير...»: (المنار: ٤٥٤/٨، ٤٥٥).

(٢) الرعد/٢ ـ ٣.

وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[١].

نعم، إن الله جل جلاله هو الذي يمسك الكون كله في قبضة ربوبيته، ويدير جميع أحواله بكمال الانتظام ومنتهى التدبير بأمره؛ إذ هو الذي رفع السماوات بغير عمد، وأدام رفعها، وأجرى ما فيها من أجرام لأجل لا تتعداه، ووفق ناموس مقدر، كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾...[٣]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[٤]، وقال عن آيات السماء، وما يحكم أجرامها من تقدير وتدبير ناشئ عن نظامها الدقيق: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[٥]. والله الذي قدر في السماوات نظاماً من خلقه وأمره، يحرسها من التصادم والتصدع؛ هو الذي مد الأرض وأرساها بالجبال، وأظهر على أديمها المخلوقات في صور تتكرر وتتعاقب، بما يحفظ وجودها، كما قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[٦]. فما من شيء مأمور أمر تكوين إلا وقد جعل له الله قدرا محددا معلوما، وفق ما تقتضيه حكمته ومشيئته وأمره، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[٧].

---

(١) يونس/٣١.
(٢) الحج من الآية: ٦٥.
(٣) فاطر من الآية: ٤١.
(٤) الروم من الآية: ٢٥.
(٥) يس/٣٨ ـ ٤٠.
(٦) الحجر/١٩ ـ ٢١.
(٧) الطلاق/٣.

وهذا يدل على أن من لوازم تدبير العالم الكوني ومخلوقاته التقدير، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[١]؛ أي: قدر مقادير كل شيء خلقه، فجعل لكل شيء قدرا في أعداد ذراته، ونسب عناصره، وخصائص صفاته، وغير ذلك...، وهدى كل مخلوق[٢] ببصيرة إلى ما يطلب منه من وظائف، ويسره لما خُلق له. وإلى هذه الهداية الإشارة في قول موسى عليه السلام عند التعريف التام لله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[٣]، وإياها قصد تعالى ضمن أمره الصادر إلى السماء، في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[٤]. فإسناد الوحي إليه تعالى وتعديته إلى السماء بـ(في) الظرفية[٥] التي تدل على التمكين، أفاد أن الله تعالى بث فيها وقدر وأودع ما به أمرها؛ بمعنى: شأنها ونظامها، الذي ستسير وفقه تحقيقا لوظيفتها، وهو «يصدق بكل ما من ملابساتها من سكانها وكواكبها، وتماسك أجرامها، والجاذبية بينها وبين ما يجاورها...»[٦].

وهكذا يسير كل شيء في الوجود على هدى من الله وتوجيه، فيجري

---

(١) الأعلى/٢ ـ ٣.

(٢) فمثلاً قدر في السماء مقادير الأمور، وهدى الملائكة لتنفيذها، وقدر مسير الأفلاك، وهداها إلى ما قدر لها، كل في فلك يسبحون. وفي الأشجار والنباتات قدر لها أزمنة معينة في إيتائها وهدايتها إلى ما قُدر لها، فالجذر ينزل إلى أسفل، والنبتة تنمو إلى أعلى، وهكذا الحيوانات في تلقيحها ونتاجها وإرضاعها، كل قد هداه إلى ما قُدر له، وهكذا الإنسان....

(٣) طه/٥٠.

(٤) فصلت من الآية: ١٢.

(٥) شهد استقراء بنت الشاطئ لاستعمالات الوحي في القرآن الكريم، بين يدي تفسير آية الزلزلة: ٥، أن الفعل «أوحى» تعدى مرة واحدة بحرف (في) بآية فصلت؛ لأن السماء من الجماد، والوحي إليه تسخير: (راجع التفسير البياني: ١/٩٠ ـ ٩١ وكذا مفردات الراغب/وحى).

(٦) التحرير: ٢٥١/٢٤. وهذا المعنى يقابل قوله ـ قبلُ ـ في تهيئة الأرض، وإصلاحها للحياة: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾.

على قانون القدر الإلهي، ويظهر إلى الوجود بالأمر التكويني النازل من الله إلى الملائكة. وبمقتضاه تنتج مصالح ووظائف تقوم بها كل الموجودات على وجه من الإتقان التام، ومن التعاون الوثيق[١]، وكأنها تعقل ما تفعل، وتدرك نتائج ما تعمل. وفي ضوء هذا التعاون يتجلى ارتباط الأسباب بمسبباتها، وسير المبادئ نحو غاياتها؛ لتكشف عن غاية الغايات: الله جل جلاله.

ومن هنا يعرض القرآن الكريم ببياناته المعجزة أفعال الصانع الجليل، ويفرش آثار أمره وقدرته أمام البصر والبصائر، ويذكرها متعاقبة تترى في الزمان بتناسق وإحكام، بشكل ترتبط فيه ـ غالباً ـ الأسباب بالمسببات، وذلك ليدل أولي الألباب على أنها تجري بقوة مرب واحد، كريم مطلق الكرم، وبأمر مدبر واحد، حكيم مطلق الحكمة. ولعل آيات الربوبية والتدبير، التي نسوق بعد ـ بقدر البلاغ ـ تجسد هذه الحقيقة صراحة أو إشارة، وتظهرها بجلاء في مجال الكون الفسيح ومخلوقاته المتنوعة من نبات وحيوان:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[٢] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ

---

(١) وشواهد هذا التعاون بين الموجودات في العالم الكوني، بأنواعها المختلفة، في سبيل خدمة نفسها وتحقيق أغراض الإنسان، لا يستقصيها إنسان في عمره المحدود، بله أن يصفها بقلمه المكدود...! ومن ذلك ما نجده من تجاوب وتعانق بين النبات والحيوان. حيث يستخدم النبات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار. وقس على هذا ما نجده من تكامل بين الليل والنهار، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والأعضاء المذكرة والأعضاء المؤنثة في النوع الواحد... وهلم جرا.
ومن الواضح أن هذا التعاون الذي ينطق بوحدة الخلق والخالق لا يتم إلا باتباع الأوامر التكوينية المقدسة في كل لحظة من لحظات الوجود، والظاهرة في ذلكم الدستور العظيم المسمى بـ«سنة الله»....

(٢) البقرة/١٦٤.

ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾[1] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾[3] ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾[4] ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[5] ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ . . .[6].

لقد عبر الرب الخالق عن تصرفات ربوبيته في هذه الآيات بألفاظ تدل على تجدد المخلوقات واستمرارها حالاً بعد حال، وترتب بعضها على بعض، وجريانها بانتظام في اتجاه أداء وظائفها بإحكام؛ مثل «**التصريف**»[7]

---

(١) النور/٤٣.

(٢) الأعراف/٥٧.

(٣) الإسراء/١٢.

(٤) الأنبياء/٣١.

(٥) عبس/٢٤ ـ ٣٢.

(٦) النحل من الآيتين: ٦٨ ـ ٦٩.

(٧) و«التصريف» لفظ يعبر بدقة عن كثرة الأوامر التكوينية، التي تستسلم بموجبها المخلوقات وتنقاد لبارئها؛ لأن التصريف أكثر ما يقال في «رد الشيء من حالة إلى حالة ومن أمر إلى أمر، والكلمة بصيغتها تفيد التكثير»: (المفردات/صرف) والمتأمل في الكون كله، يجد أن مادته الأصلية واحدة ثم تتنوع وتتغير أشكاله وأطواره، ووظائفه، دون خلل في السنن العام، بل كل في فلك يسبح، وكل ميسر لما خلق له، كما تقدم. ولعل أبدع مثال في التصريف، وأعجبه في القدرة، هو ما نشاهده من=

و«الجعل»[١] و«التقدير». . .

وفي تضاعيف هذه التصرفات الجليلة تتجلى الأوامر التكوينية، التي تمتثلها المخلوقات بإظهار ثمراتها التي هي عين وظائفها، وتعبر عنها بالتسبيحات المخصوصة والعبادات المكرورة[٢]، التي تظهر الأسماء الإلهية الحسنى[٣]، الدالة على وجود الله ووحدانيته.

فالأرض مثلاً، مأمورة وموظفة من لدن «الواحد» سبحانه، وهي كالجندي المطيع ضمن تدبيره وتصريفه، فحينما تستلم الأمر من آمرها،

= ظواهر التغيير المستترة تحت ستار الأسباب والعادات، فيما سخره الله لعباده من عظيم مخلوقاته؛ كاختلاف الليل والنهار، وحركة الشمس والقمر والنجوم، وتصريف الرياح لجريان الفلك، والسحاب لإرسال الماء، وغير ذلك مما نطقت به هذه الآيات، وكذا نصوص المعنى المصدري الثاني في مبحث التعريف.

(١) و«الجعل» يفيد التضمين والتصيير والتحول والانتقال، ولهذا فهو فعل يباشر مفعوله حالاً بعد حال، فيتعدد فيه المفعول، وتتدرج فيه الأطوار. ولهذا كثر استعماله في القرآن الكريم في إيجاد الشيء من الشيء وتكوينه، كما هو الشأن في توالد الناس وتكاثرهم، وفي تصيير الشيء على حالة دون حالة، كما في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما: (يراجع ذلك بشواهده في المفردات/جعل، وأسرار الترادف في القرآن الكريم/٦٥). والجعل بهذا المعنى يطرد إسناده إلى الله جل جلاله، كما تبين من هذه الآيات وغيرها. وهذا يفيد أنه ـ سبحانه ـ هو الذي أوجد الأشياء بأسبابها الكونية، وهو الذي ينتقل بها من حال إلى حال. فدل ذلك على أن الأسباب ليست ذاتية مؤثرة، وإنما هي مجعولة جعلا؛ أي: هي أمور جعلها الله بمحض المقارنة أسباباً. «ولهذا أطلق عليها العلماء اسم «الأسباب الجعلية»»: (انظر: كبرى اليقينيات الكونية/٢٩٠).

(٢) ويدل على هذه الحقيقة الكونية آيات كثيرة، مثل قوله في آية الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ وانظر معها: فصلت/٣٧.

(٣) نطالعها في كثير من آيات «الأمر»؛ مثل: آية فصلت: ١٢ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وآية الحج: ٦٥ ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وآية الأعراف: ٥٤ ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وآية الطلاق: ١٢ ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. . . . وورود هذه الأسماء الحسنى في أواخر الآيات، كما هي عادات القرآن، يشير إلى أن الكون كله، وما يقوم به من أعمال، مشدود بتلك الأسماء، مظهر لمعانيها!.

تهب منفذة له، فتدور دورة يومية وأخرى سنوية، فتكون وسيلة لاختلاف الليل والنهار، وحصول المواسم المختلفة، وظهور الحركات العظيمة. فثبت أن هذه الآثار الجليلة التي تنجم عن الحركة والدوران؛ إنما هي في حقيقتها آثار الأمر الرباني.

والشمس يديرها الخالق بأمره وإذنه، كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر، قال: «دَخلْت المسْجد حين غَابت الشمس؛ والنبي ﷺ جالس، فقال: **«يا أبَا ذَر أتَدرِي أين تَذهَب هَذه؟»**، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنَّها تَذهب تَستأذِن في السُّجود؛ فيأذَن لَها، وكَأنَّها قَد قِيل لَها: اطلعي مِن حَيثُ جِئت، فتَطلَع مِن مَغرِبها»»**[1].

وبهذا الإذن التكويني تطلع الشمس في كل شروق لمنافع عظيمة، كإضاءة نهار الإنسان وضبط مواقيته ومواعيده ـ بنص القرآن ـ وبنفس الإذن ستطلع من كل غروب في آخر الزمان ـ بنص الحديث ـ لتكون أمارة على قرب مجيء الساعة.

وكذلك القمر وسائر الأجرام في السماوات، تجري بأمر خالقها، بمنتهى النظام والدقة؛ لبلوغ غايات سامية بشهادة علم الفلك نفسه، والجبال الراسيات تستلم الأمر من لدن خالقها بحفظ الأرض من الميد، بتقرير الجغرافية.

وبين السماء والأرض، تجتمع أجزاء السحاب بأمر الله سبحانه، بعد أن كانت منتشرة ومختفية في جو السماء، فترسل من أجزائها الثقال قطرات الرحمة إلى الأحياء كافة، فينتج عن تلك القطرات المرسلة عن قصد واختيار من لدن العليم بحال الأحياء، منافع جليلة، أعظمها إحياء الأرض الميتة مع طوائفها، التي تزيد على مئات الآلاف، بما فيها من حياة كامنة واستعداد، وجعلها في صورة معرض للأرزاق والثمرات غير المتناهية، متاعا للإنسان

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٤٦٩/٢، كتاب الفتن، رقم: ٢١٨٦.

والحيوان، وتزيينها بحلل قشيبة من حلل الجمال[١].

وكذا الرياح، مأمورات بوظائف جليلة؛ كالتأليف بين قطع السحاب المتناثرة، وتلقيح النباتات وتنفسها، وتزويد أنفاس الأحياء بدورانها من جهة إلى جهة...، فهذه الوظائف التي أُمرت بها الريح في جانب النعمة، أو تلك التي أُمرت بها في جانب النقمة سواء، تؤكدها بوضوح الحقيقة السامية، التي بينها رسول الله ﷺ في نهيه عن سب الرياح؛ حيث قال: «**لا تَسبُوا الرِيح، فَإذا رَأيتُم ما تَكرهُون؛ فقُولوا: اللَّهم إنا نَسألُك مِن خَير هَذه الريح، وخَير مَا فِيها، وخَير ما أُمرَت بِه، ونَعوذ بِك من شَر هَذه الريح، وشَر مَا فيها، وشَر ما أُمرَت به**»[٢].

وفي النحلة من الحيوان ـ التي هي معجزة من معجزات القدرة ـ أودع الله منهاج أوامره التكوينية، وفهرس في دماغها ما تقوم به من وظائف، ومن ثم فهي حالماً تقرأ منهاج عملها، وتدرك وظيفتها، حتى تسعى وتجد في سبيل تحقيقها، وتبرز ثمرة خضوعها لأوامر الخالق عسلاً حلواً لذيذاً، فيه شفاء للناس.

وإن نظرة إلى قوة وعلو هذه الأوامر الحقيقية النافذة، التي تتضمن القوة والإرادة والرحمة والتدبير: اتخذي، ثم كلي، فاسلكي، لكافية لاستغراق حياة في التأمل والارتعاش! وإلا فمن ذا الذي كان يلهمها كيف تنظم مملكتها، وتبني خلاياها، وكيف تقسم العمل بينها، وتفرز عسلها المصفى...، ومن ذا الذي كان يسوقها سوقا لتتخذ بيوتها في الجبال، والشجر، ومما يعرشون...، ومن ذا الذي هيأ لها أرزاقاً في منتهى النفاسة والجودة، وجعل لها سبل الحياة ذُللا لتسلكها آمنة مطمئنة...؟!

فهل يا ترى يمكن ـ بأي مقياس عقلي ـ أن يُتَصور صُدور هذه العجائب من نحلة دؤوبة، بدون آمر متصف بالآمرية الحقة؛ يأمر وهو

(١) مضى بيان كيف تثمر النباتات والأشجار، بامتثال بذورها ونواها لقانون الله وأمره.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٥٠٠/٢، كتاب الفتن، عن أبي بن كعب، رقم: ٢٢٥٢.

مهيمن على عمله، وبدون مدبر يدبر أمر سلطنته، وهو مستو على عرشه، وبدون مسخر يسخر أعظم شيء في الوجود كأصغره...؟ اللّٰهم إنا لا نملك إزاء كل ما نراه من صنعتك ـ وما هو إلا شذرات يسيرة من محيطات آياتك ـ إلا أن نقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

**** من إيحاءات هذا التدبير:**

وفي ضوء ما تقدم من آيات «**تدبير الأمر**» في مجال الكون، يستفاد:

أن تدبير الأمر وإنفاذه من فوق العرش يظهر شأن الربوبية العظيم، ويبين أن الأمور تسير بغاية الحكمة والنظام، وبمنتهى العدالة والميزان، وذلك يوحي بأنه لا بد من أوبة إلى الخالق المدبر بعد هذه الحياة الدنيا[1]، ولا بد من دار جزاء يعامل فيها بالإحسان من استظلوا بتلك الربوبية وانقادوا لها بالإيمان، ويجازى فيها بالنيران من عصوا تلك الحكمة والعدالة بالكفر والطغيان، جريا بدستور السنن المحيطة بالكون والإنسان.

١. ٢. ٣ ـ تدبير أمور الإنسان

١. ٢. ٣. ١ ـ تدبير الأمور الاضطرارية

والأمر فيها متوجه إلى نفسه وإلى ما به تكون مصالحه.

**** تدبير خلقته ومقدرات حياته:**

لما كان الإنسان هو ثمرة الكون اللطيفة وفهرسته المصغرة، شاءت إرادة الله المطلقة وتدبيره المحكم لشؤونه، أن يقيمه في الوجود، على ما هو عليه من تقويم ظاهري وباطني، وأن يخلق له ويختار عن طريق الأسباب، جميع المقضيات والمقدرات، التي تجلب له اللذة أو الألم في

---

(١) بدلالة مثل قوله في آية الرعد: ٢ ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، وقوله في آية الروم: ٢٥ ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، وقوله في آية السجدة: ٥ ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾....

دار خلافته، وتجلي واقعه الاضطراري المنسجم مع عبوديته لله، كسائر الكائنات، وتجسد خضوعه التام للأمر الإلهي، وفقا لدستور «**سنة الله**».
ولعل هذه الأمور الكونية النافذة في الإنسان بقدر الله وأمره، هي التي يتضمنها الإجمال الذي في مثل قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾...[١]، وإليها أشار الرازي في تفسير هذه الآية: «فهو يدبرهم بالإيجاد والإعدام، وبالإحياء وبالإماتة، والإغناء والإفقار...»[٢]. و إلى قريب من هذا، ألمع الطبرسي في قوله عند تفسير الآية الكريمة: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[٣]: «... يتنزل الأمر من فوق بين السماوات والأرضين من الله سبحانه، بحياة بعض وموت آخر، وسلامة حي وهلاك آخر، وغنى إنسان وفقر آخر، وتصريف الأمور على الحكمة»[٤]. وقد ذكر تعالى بعض هذه الأمور الحكيمة صراحة، في قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾...[٥]، وبين أن هذه الأمور وسواها تُفصل وتُقضى من أم الكتاب إلى الكتبة[٦] ليلة القدر من كل سنة، وذلك في قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾[٧].

---

(١) الرعد من الآية: ٣.
(٢) مفاتيح الغيب: ٧/١٩/١٠ ومثله ما في: فتح البيان: ١١/٧، والبحر: ٣٤٥/٦.
(٣) الطلاق من الآية: ١٢.
(٤) مجمع البيان: ١٣٣/١٠، وكذلك روح المعاني: ١٥/٢٨/١٢.
(٥) يونس من الآية: ٣١.
(٦) وأم الكتاب هو علم الله عز وجل وقضاؤه، وهو يحوي المثبت من علم الله والخاضع منه للمحو والتبديل، بخلاف اللوح المحفوظ، الذي سُطرت فيه وقائع الكون، والكثير منها عرضة للمحو والإثبات؛ إذ هي معلقة في علم الله على أمور وأسباب لم يكشف اللوح المحفوظ عن وقوعها أو عدم وقوعها، ولله في تركها معلقة ـ مع علمه بما سينتهي إليه الأمر ـ حكمة وأي حكمة: (يراجع ذلك ـ بتوسع ـ في كتاب: الإنسان مسير أم مخير/ص٢١٣ ـ ٢١٩ ـ ٢٢٠). ومن حكمة تدوين مقادير العباد ونسخها من أم الكتاب، تلقّي الملائكة لها ـ وهي لا تعلم منها شيئاً ـ كأوامر مسلمة إليها لتنفيذها وإتمامها بإذن الله.
(٧) الدخان/٤ ـ ٥.

فهذه الأمور الكونية وسواها يخلقها الله سبحانه مقرونة بأسبابها بأمره، ووفق إرادته وعلمه. وعلى هذه الحقيقة الكونية المشتركة بين الكائنات يجري أمر الإنسان؛ البر والفاجر سواء، في خلقه وتقويمه، ونموه وموته، وفي نعيمه ورزقه، وفي مصائبه وأضراره، وفي سائر تصرفاته وأحواله، التي لا يتعلق بها ثواب أو عقاب؛ لكونها خارجة عن طوقه واختياره.

وهكذا، اقتضت حكمة الله ومشيئته أن تدب الحياة في الإنسان، وأن يعيد نوعه ويحفظ نسله، حينما يودع الرجل ما يُمنى رحم امرأة، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[(١)] وثبت في الصحيح أن نفخ الروح في الإنسان يكون بأمر الله المسَلَّم إلى الملك ـ وهو علة غيبية ـ في الزمان والمكان المحدودين بالقلم، وذلك فيما رواه عبدالله بن مسعود، قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ: «**إنَّ أحدَكم يُجمع خلقُه فِي بَطن أمه أربَعين يومًا نُطفة، ثم يكون عَلقة مثل ذلك، ثم يكُون مُضغة مثلَ ذلِك، ثم يُرسل إليهِ المَلك فينفخُ فِيه الروح، ويُؤمر بِأربعِ كَلمات: بكَتْب رِزقه وأَجله، وعَملِه، وشَقِي أو سَعِيد...**»[(٢)]. وفي رواية أخرى، عن حذيفة بن أسَيد، أن الملك ينفذ قضاء الله ومشيئته بتصوير النطفة وتخطيطها وتشكيلها[(٣)]، وكتابة رزقها وأجلها، وأنه لا يزيد على ما أُمر بتنفيذه ولا ينقص، ولفظها: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إذا مَرَّ بالنُطفة ثِنْتان وأَربَعون لَيلة، بَعث اللّهُ إِليها مَلكا، فَصورَها، وخلَق سَمعَها، وبَصرَها، وجِلْدها ولَحمَها وعِظامَها. ثم**

(١) النجم/٤٥ ـ ٤٦.

(٢) البخاري في القدر (٦٥٩٤)، ومسلم في القدر (١/٢٦٤٣ ـ ٣).

(٣) وقد أخبرنا القرآن الكريم أن تصوير الإنسان وتخليقه في بطن أمه يتم عبر مراحل وأطوار، طبقا لسنة الله التي فطر عليها الكون والإنسان، كما في قوله: ﴿...ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾...﴾: المؤمنون/١٣ ـ ١٤. ولعل هذه المراحل المذكورة في القرآن، والمشهودة في علم الأجنة، تكشف بوضوح عن أمر الله التكويني القدري الذي به يكون إنشاء الشيء من الشيء، والتدرج به في مراحل وأطوار، حتى بلوغه النضج المقدر له في علم الله. وهذا الأمر عام في كل مخلوق لله بأسباب.

يقول: يَا رَب، أَذَكر أمْ أُنثى؟ فيقضي رَبُّك مَا شَاء، ويكُتب المَلك، ثُم يقُول: يا رَب، رِزقُه؟ فيقضي ربُّك ما شَاء، ويَكتُب المَلك، ثُم يقُول: يَا رب أَجَلُه؟ فيَقضي رَبك مَا شَاء ويَكتُب المَلك، ثُم يَخرُج المَلك بِالصحِيفة في يَده: فَلا يَزيد عَلى مَا أُمرَ بِه ولا يَنقُص»[١].

فتبين أن في هذه الفترة التكوينية يتخلق الإنسان بأمر الله النازل إلى الملك، وفق ما خُط في أم الكتاب. وبهذا الأمر يُزَين الإنسان بجميع أجهزته وجوارحه، ويُجهز بجميع حواسه ومشاعره واستعداداته. وفي هذه الفترة أيضاً يؤمر الملك بأربع كلمات ـ هي من جنس الكلمات التي كُونت بها الكائنات والأشياء ـ بكتابة رزقه وأجله[٢]، وشقاوته وسعادته[٣].

وبجلوة من جلوات أمر «كن»، يغادر الإنسان ظلمات الرحم إلى نور الحياة، وليس له من سيماء وجهه الشخصية، واستعداداته المعنوية كسب أو مشيئة، وينشأ في أسرة معينة وبيئة محددة، ويتدرج في أطوار النمو، من ضعف إلى قوة، ومن قوة إلى ضعف وشيبة[٤]، وتبقى ذرات جسمه على نظامها المتقن دون أن تتبعثر، وتستمر في الوجود دون أن تتعثر. وما ذاك إلا بسر انقيادها التام لأمر القيوم الأزلي، والمتجلي فيما تقوم به قهرا من وظائف مختلفة، وفق الناموس الكوني. فإذا جاء أجل تفرقها، وآذن ملك الموت الإنسان بالرحيل، خلق الله مقدمات موته وأسبابه في ميقات محدد من حياته، بإذنه وأمره[٥]، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[٦].

---

(١) مسلم في القدر (٣/٢٦٤٥).

(٢) وكتابة الرزق والأجل؛ هي كتابة لعلم مسبوق بقرار إرادي رباني، والإنسان يجلب بالأسباب الظاهرة المقدر المكتوب بأمر الله وقدره.

(٣) سيأتي بيان ذلك في موضعه المناسب من البحث.

(٤) كما في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾... الروم من الآية: ٥٤.

(٥) تقدم بيان ذلك بتفصيل في بحث الإماتة ضمن مجال التكوين.

(٦) آل عمران من الآية: ١٤٥.

وبين قدري الولادة والموت، تتنزل أمور وأقدار على الإنسان بأمر الله وحكمته، وتختلط وتتناثر، في تناقض صارخ، خلال أيام حياته؛ فتمتزج فيها لذائذ الدنيا ومُتَعها بغُصَص المصائب والآلام؛ لتحقيق الحقيقة الكونية السامية، التي أشار إليها البيان الجامع في قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1]. وهذا المزيج من اللذائذ والمصائب يخلقه الله بالأسباب المقدورة في علمه، طبقاً لقانونه الماضي في خليقته. ومن ثم، فالإنسان يتلذذ بما يقدره الله عليه من مبهجات الحياة الدنيا؛ كالصحة، والسلامة، والنجاح، والنصر، والرفاهية. . . ؛ وهو يسعى دائباً إلى اتخاذ الأسباب لتحصيل هذه الأمور النافعة. وكل ذلك مخلوق بأمر الله، كما هو ثابت في الحديث الشريف. والإنسان يتألم حينما تقرعه تقلبات الزمان بالمصائب والأهوال؛ كالأمراض، والكوارث، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وغيرها من المصائب التي يخلقها الله سبحانه مقرونة بأسبابها بإذنه، كما قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3]. وهذه المصائب المخلوقة بأمر الله عرضة للمحو والتبديل[4]؛ لموجب أسباب قد يتخذها الإنسان بفعله الاختياري الذي علِمه الله في سابق غيبه؛ كالدعاء الضارع إلى الله بدفع البلاء[5]، والدواء الشافي من المرض. . .[6].

---

(١) الأنبياء من الآية: ٣٥.

(٢) التغابن من الآية: ١١.

(٣) آل عمران من الآية: ١٦٦.

(٤) ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾: الرعد/٣٩ وهذا القضاء المعلق، غير المبرم مسطور في اللوح المحفوظ، ويعتريه المحو بسبب من الأسباب التي يتخذها الإنسان. وهذا المحو موافق لعلم الله الغيبي الذي استأثر الله به، وسماه: أم الكتاب.

(٥) يشهد لذلك ما ثبت في الصحيح، عن سلمان، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يرُد القَضاء إلا الدُّعاء، ولا يَزيد في العُمر إلاّ البِر»**: (صحيح سنن الترمذي: ٢/٤٤٣، في القدر (٢١٣٩)).

(٦) ويؤيد ذلك اقتران الداء بالدواء، والشفاء، في مثل حديث عبدالله، عن النبي ﷺ=

وهذه الحلقات المترابطة بإحكام في سلسلة النتائج والأسباب مخلوقة بأمر الله، وداخلة في قضائه السابق وقدره الواقع؛ إذ المرض الذي يصيب الإنسان ـ مثلاً ـ مخلوق بأمر الله، ومقدر في علمه تعالى مقروناً بسببه المتمثل في الجراثيم والسموم وغيرها من الأسباب التي علم الله سبحانه أن المرض يكون بها. والأدوية التي علم الله أن الشفاء يكون بها مخلوقة بأمر الله، ومقدورة بقدر من الله. ومثل ذلك سائر ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات... وذلك هو النظام الإلهي الذي يهيمن على كل ما جرى ويجري في عوالم الأكوان والأنفس، فيمنع الاضطراب في الكون، والجهل والتواكل من الناس[1].

وإذا كانت كل الأمور التي تنزل جبراً من السماء على الإنسان، من اللذائذ والمصائب؛ إنما تنزل بأمر الله، طبقا لسنته في ترتيب النتائج على الأسباب، فما هي الحكمة من تعلق الأمر بها، والقضاء بها في العباد؟.

إن حكمة الأمر بها في تدبير الله، تتشقق إلى الحكم التالية:

= قال: «**مَا أنزَل الله دَاء إلا أنزَل لَه دَواء**» وكذا حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أنزَل الله دَاء إلاّ أنزَل لهُ شِفاء**»: صحيح سنن ابن ماجة: ١٥٩/٣، في الطب (٢٧٩٠ ـ ٢٧٩١).

(١) والقصد من ذلك: أن من يحلم من الجهلة المتواكلين بالنتائج، ويعرض عن الأسباب، اتكالا على الكتاب السابق، متمرد على أمر الله وقدره، ومخاصم لسننه في ملكه، الذي لا يقع فيه إلا ما شاء، سواء في جانب الرضا أو السخط. وما أحسن ما عاب ابن تيمية تواكلهم وجهلهم؛ فقال: «فمن ظن أن الشيء إذا عُلم وكُتب أنه يكفي ذلك في وجوده، ولا يحتاج إلى ما به يكون من الفاعل الذي يفعله وسائر الأسباب، فهو جاهل ضال ضلالاً مبيناً» وقال: «فلو قال ـ إنسان ما ـ : إذا علم الله أنه يولد لي، فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق... ولو قال: إذا علم أن سيكون الزرع فلا حاجة إلى البذر، كان جاهلاً أحمق»: (انظر مجموع الفتاوى: ٤٣/٨/٤). وعليه، فالمؤمن حق الإيمان هو الذي يؤمن بقدر الله وأمره، خيره وشره، ويسعى إلى اتخاذ أي سبب من الأسباب في عمله الدنيوي والأخروي، ولا يتكل على الكتاب ويدع العمل؛ ذلك بأن ما قدره الله وعلمه وأمر به من أحوال العباد وعواقبهم؛ إنما قدره الله وأمر به بأسباب، والله الخالق للأسباب والمسببات!.

الأولى: أن الله سبحانه أقام الإنسان على وظيفة التكليف، الذي هو اختبار من أجل أن يتسابق الإنسان، ويتميز بعضه عن بعض في حلبة السباق، وشاءت حكمته لتهيئ ظروف الامتحان إيجاد الموت والحياة، والصحة والمرض، والملاذ والآلام، والرغائب والمصائب، وسائر الأضداد التي كان لا بدَّ من اجتماعها ليظهر التكليف ويصح معناه، وتكتمل الحياة وتترقى، وتبلغ هدفها المراد لها. ولو خلت هذه الحياة من الأضداد ومضت على نسق واحد، لكانت حياة أقرب إلى العدم الذي هو شر محض منه إلى الوجود الذي هو خير محض، ولما ارتقى إنسان بمجاهدة الرغائب والرضا بالمصائب إلى مراتب الرقي وتدنى آخر بالركون إلى الأهواء والتبرم بالقضاء إلى دركات التدني، ولما خاطب الله هذا الصنف أو ذاك من الناس بقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾[1]. فحكمة الابتلاء إذن، هي التي كانت في قضاء الله بنعم الدنيا ومصائبها.

الثانية: أن الله سبحانه بين للإنسان أن الحياة الدنيا دار ضيافة فانية أُنشئت بحكمة لتكون معبرا قصيرا إلى الحياة المعنوية الباقية، كما قال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ۝٢٠﴾[2] فعليه إذن أن لا يفرح ويغتر بما يتحقق له فيها من الشهوات، كما أن عليه أن لا يُفاجأ بما قد يصيبه فيها من المنغصات، وأن لا يأسى على ما مضى فيها من الآلام وولى من الآمال. ومن هنا، نعلم مدى سداد الحكمة السامية، المكنونة فيما قضاه الله من النعم والشرور في اللوح المسطور، والتي تعبر عنها الآية الكريمة: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ

---

(١) العنكبوت/٢.

(٢) الحديد/٢٠.

وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[١]. فهذه الحكمة تبث في نفس الإنسان المؤمن السكون والرضا، وتحمله على الخضوع قهرا تحت سلطان القضاء. ومن ثم تهون عليه الحياة بضرائها وسرائها، فلا يضجر مما نابه فيها من المصائب، ولا يفرح بما ناله فيها من الرغائب؛ لاعتقاده أنها جميعا مخطوطة في لوح القدر الإلهي، مأمور بها في سجل القضاء الرباني، وأنها مظهر ساطع لإرادته وحكمته، وشاهد ناطق بسلطان ربوبيته.

الثالثة: أن الله سبحانه اختار بدقيق حكمته وبالغ رحمته، أن يودع في فطرة الإنسان ـ أكرم عبد لربوبيته ـ أجهزة مادية ولطائف معنوية، تجعله يتلذذ بما لا يُحصى من آلائه، ويتألم بما لا يُعد من أضرار ابتلاءاته، وذلك يسوقه سوقاً إلى العلم به سبحانه والافتقار إليه والقيام بعبادته، انسجاماً مع ما رُكب في فطرته من رغبة في الحياة المعنوية وشوق إلى السعادة الأبدية...

ومن هنا، فإن النعم التي يذوقها الإنسان بأمر الله وبمحض إحسانه، خارج حدود الاختيار[٢]، تدفعه إلى الشكر وهو وظيفة فطرته، وتمنعه من السكر بلذاته، والركون إلى شيطانه ونزواته، وكذلك المصائب الظاهرة التي

---

(١) الحديد/٢٣.

(٢) والمقصود بها هنا، تلك النعم التي تكون بخلق مباشر من الله، ولا تكون بسائق من اختيار الإنسان، كخلق الإنسان على ما هو عليه من معان ظاهرة وباطنة ـ وكفى بالعقل له نعمة ـ والمنافع الناجمة عن تسخير ما في الكون لمصالحه... فهذه النعم وسواها جبر مطلق ينفذ في الإنسان بأمر الله ومشيئته. وهناك نعم أخرى يخلقها الله أو لا يخلقها بسبب اهتداء الإنسان وعدمه، واستغفاره وعدمه؛ كالمطر، والإنبات، والثراء، وكثرة الأولاد. وإلى هذه الحقيقة أشار البيان الإلهي، فيما يحكيه من قول نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾... نوح/١٠ ـ ١١ وكذا في قوله ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾: الأعراف/٥٥ ـ ٥٨.

تصيب الإنسان، ولا تكون ثمرة إفساده وسوء اختياره[1]؛ فإنها إحسان إلهي، بما تفجره من كنوز الفقر الكامنة في جبلته، والتي تدفعه إلى التضرع إلى ربه دون انقطاع. فيؤدي بهذا عبادة خالصة هي وظيفة فطرته السامية؛ فإذا ما تجمل المصاب بالصبر وسلم بالأمر، وفكر في جزيل الأجر على الضر، تحولت عندئذ كل ساعة من ساعات آلامه العارضة إلى عمر مديد من العبادة، فيرتقي إلى مرتبة الشكر لله والرضا بقدره في كل حال.

وأيضاً فإن كثيراً من المصائب التي تداهم الإنسان لطف رباني يطهره من أدران الخطايا؛ كما ورد في الحديث الصحيح: «**ما يَزال البلاءُ بالمُؤمن والمؤمِنة؛ في نفسِه وولدِه ومالِهِ، حتى يَلقى الله؛ ومَا علَيه خطِيئة**»[2]، ثم هي - علاوة على ذلك - تنبيه وإنذار إلهي يوقظ الإنسان من غفلته عن الله، ويبلغ هذا الإيقاظ مداه حين يأذن الله للطبيعة في بعض الأحيان أن تجمح بنكبات، بخلاف المألوف من خضوعها للإنسان، فتتزلزل الأرض - مثلاً - تحت قدميه، أو تقذف من جوفها الحمم وتلحق به الدمار، فحينئذ يتنبه - قهراً - كل مفتون بعلمه، مبهور بالطبيعة وبقانونها الذاتي؛ إلى أن الفعال والمدبر هو الله، وأن الذي ذلل الطبيعة للإنسان وسخرها لمصالحه هو الله.

---

(١) كالموت، والأمراض، والأوجاع... وسائر المصائب التي تكون بخلق مباشر من الله. وهناك مصائب ونكبات يخلقها الله ويتعلق أمره بها، ويقضيها في العباد بسبب سوء تدبيرهم، وإفسادهم لقوانين الله الجارية في الكون والإنسان؛ كالأمراض المتنوعة الناجمة عن التلاعب بأغذية الحيوانات، وقوانين نمو النباتات، والتشوهات الجنينية الناجمة عن الشذوذات والمسكرات...، والكوارث البيئية والاجتماعية والاقتصادية... وغيرها، مما ألمع إليه البيان الإلهي بعبارة جامعة، هي قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾: الروم/٤١.

فهذا اللون من الفساد ظاهره كباطنه لأنه لم يُصنع إلا بيد الإنسان، ولم يأت إلا ثمرة إعراضه عن تعاليم الله، والعبث بقوانينه. وسيأتي الحديث في موضع لاحق عن بعض النكبات الطبيعية والبشرية، المخلوقة بأمر الله نتيجة كفر الإنسان أو عصيانه.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٥٦٥/٢. في الزهد (٢٣٩٩)، عن أبي هريرة.

***** تسخير الكون والكائنات له ولمصالحه**

أرادت المشيئة العليا أن تخلق هذا الإنسان ليكون خليفة مكرما في أرض الله، وموظفاً سامياً في وظائف العبودية لله...، وكان من لوازم هذه المهمة العظيمة أن آتاه الله استعداداً فطرياً لمعرفته ـ جل وعلا ـ والإيمان به، ووهبه القدرة على الترقي بكسب المعرفة، التي يعالج بها تلك الخلافة، ويجسد من خلالها واقع عبوديته الفعلية لله...

وكان من لوازم ذلك ـ أيضاً ـ أن حشد سبحانه الكون والكائنات من كل صوب وحدب، وساقها نحوه، وسخرها له، وجعلها تهرع لإمداده بضرورات حياته، تحقيقاً لخلافته وسيادته، وإظهاراً لوظيفة إنسانيته... وقد كان أساس هذا التسخير هو ما جعله الله سبحانه من توافق تام بين نواميس الكائنات وحركاتها ومنافعها، وفطرة هذا الإنسان وطاقاته وحاجاته، وكان أس هذا الأساس هو أمر الله التكويني التسخيري، المنتسب بالأزلية إلى الله جل جلاله. وبهذا الأمر الإلهي جُعلت كل الكائنات، عدا الإنسان والجن، موظفات للآمر الواحد، على نحو ما بيناه[١]، ومسخرات للمسخر الأحد؛ لأجل القيام بخدمات جليلة، وثيقة الصلة بالأرض والأحياء، من خلال حركة وتجوال أو ثبات ظاهري أو نمو خارجي. وبفضل هذا التسخير الرباني، الذي يدل بمبناه ومعناه على الانقياد التام لأمر الله جل جلاله[٢]، انقادت كل المخلوقات للإنسان، وأتت بأعمال في منتهى الحكمة، فلبت حاجاته ونفذت رغباته.

وانسجاماً مع ما سبق، نجد القرآن الكريم يستعرض عبودية الوجود لله وتسخيره بأمره لخدمة خليفته؛ في حشد هائل من آيات الله في الخلق، وإجراءاته في التدبير، وأياديه في النعمة. ويرسم في هذا الاستعراض الحاشد

---

(١) يراجع هذا البيان في بحث: تدبير أمور الكون.

(٢) يدل لفظ التسخير على التقييض للفعل والإلجاء إليه قهراً، وهذا المعنى ينسجم مع دلالة الجبرية في خطاب التكوين: (يراجع: المفردات/سخر ـ بتصرف ـ والتحرير: ٢٦٤/٢٣، ومفاتيح الغيب: ١٠/٢٠/٥).

مشاهد مهيبة للمخلوقات العابدة، وفي ثناياها جمال واتساق؛ لتسرح فيها أنظار المشاهدين من الناس، لعلهم فيها يتفكرون، وبالآخرة يوقنون، وبربهم المدبر يومنون، وله يسلمون، ولخالقهم المسخِّر يشكرون!

ولعل الآيات التي نسوق بعد، تثبت ذلك وتفصله بوضوح في تصريحها وتلويحها، ونحن نعرضها فوجا فوجا، بشكل تسير فيه خطوط الريشة القرآنية المبدعة وفق اتجاه الآلاء والتسخيرات بالقياس إلى الإنسان: خط السماوات وما فيها من أجرام سابحة ومخلوقات متعاقبة، يتبعه خط الماء النازل من السماء والثمرات الخارجة من الأرض بهذا الماء، ثم خطوط في لوحة الأرض تلون جبالها وبحارها، وفجاجها وأنهارها، وظلالها وأكنانها، ونبتها وثمارها، وحيواناتها وأنعامها، ومعادنها وحديدها.

فمن الفوج الأول من آيات الآلاء والتسخيرات في خط السماوات، قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾[3]، وقوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾[4]، وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾[5]. وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ

---

(١) الرعد/٢.
(٢) الأعراف/٥٤.
(٣) النحل/١٢.
(٤) إبراهيم/٣٣.
(٥) فاطر/١٣.

ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾[١].

إن الشمس والقمر والنجوم مخلوقات كونية هائلة تجري وفق نظام بديع وميزان دقيق[٢]، وتُسخر بأمر رباني ـ كما تم بيانه ـ للإنسان، بموافقة نواميسها ونتائجها لحياة البشر وحوائجهم؛ فالشمس مسخرة بالناموس الكوني لترسل أشعتها بالقدر الذي يفيد الإنسان وغير الإنسان في حياته ومعاشه، بل وفي تركيب خلاياه وتجديدها. . .

والقمر مسخر للإنسان، ومرتبط مع الأرض بقانون إلهي[٣]، ليدله على الزمن والأوقات[٤]، ويلبي حاسة الجمال المركوزة في فطرته بجذبه ونوره وجماله. . .! والنجوم مسخرات بأمر الله تهدي السالكين في البر والبحر سواء، كما قال: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[٥].

وكذلك الليل والنهار يتعاقبان مُسخرين بأمر الله، وفق حاجة الإنسان وتركيبه، وما يناسب نشاطه وراحته، ولو كان نهار دائم أو ليل دائم لفسد جهاز هذا الإنسان؛ فضلاً عن فساد ما حوله كله، وتعذر عيشه وإنتاجه. وإلى هذا الافتراض يوجه القرآن السمع والأبصار، ويسوقها إلى التفكر والاعتبار، وذلك في قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[٦].

---

(١) العنكبوت/٦١.

(٢) ولو تحدثنا عن هذا النظام العجيب الذي قدره الله في المنظومة الشمسية فقط، من حيث مسافاتها، وحركاتها، وأحجامها. . . لنفدت الكلمات، وما نفدت كلمات الله الأزلية.

(٣) يطلق عليه علماء الفلك اسم «الجاذبية» وهذا القانون تنقاد إليه كل السيارات الجارية في منظومتنا الشمسية؛ انقيادا تاما، بمشيئة الله وأمره.

(٤) راجع في ذلك آية يونس/٥ المتقدمة.

(٥) النحل من الآية: ١٦.

(٦) القصص/٧١ ـ ٧٢.

وهكذا يفتح خط التسخير في السماوات نافذة واسعة تبين مدى الانسجام التام بين نواميس الأجرام والظواهر وآثارهما، وفطرة هذا الإنسان ومقتضيات حياته، مما يدل على أن هناك ذاتاً مربية مدبرة واحدة، هي التي رتبت هذا الانسجام بينه وبين نواميس هذه المخلوقات العظيمة. وبه تيسرت تلك المنافع الجليلة لحياته. ذلكم الله رب العالمين، فأنى يوفكون؟

ومن الفوج الثاني من آيات الرحمة والنعمة، في خط السماء المتصل بالأرض قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾[1]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾[2]، وقوله: ... ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

فالله أرسل ماء الحياة من السماء إلى الأرض، فجعل السماء والأرض مسخرتين لأوامره تعالى، كأنهما عاملان على إيصال الرزق إلى الناس والأحياء كافة. وهذا التسخير ما كان ليكون لولا تلك الموافقات المتناسقة، التي توفرها نواميس الرزاق الكونية، بمقادير موزونة، بين وظائف الرياح، والسحاب، والماء، والأشعة، والهواء، والتربة[4]... والتي تنشئ بنتائجها شراباً، وشجراً، وزروعاً، وثماراً؛ متاعاً للإنسان والأحياء.

ومن الفوج الثالث من آيات التسخير والتدبير في خطوط لوحة الأرض:

---

(١) الروم/٤٦.

(٢) طه/٥٣ ـ ٥٤.

(٣) البقرة من الآية: ١٦٤.

(٤) راجع البيان القرآني والتفسير العلمي لرزق الله المسخر للإنسان من السماء إلى الأرض، في: من علوم الأرض القرآنية/من ص ٨٣ ـ ٩٣.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾(١)، وقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾(٢)، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾(٣)، وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾(٤)، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾(٥)، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾(٦)، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾(٧)، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾(٨)، وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾(٩)، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم

---

(١) الملك/١٥.
(٢) النحل/١٥.
(٣) النحل/٨١.
(٤) النحل/١٣.
(٥) النحل/١٤.
(٦) الجاثية/١٢.
(٧) إبراهيم/٣٢، وينظر معها: الحج/٦٣، والروم/٤٥.
(٨) يس/٧١ ـ ٧٣.
(٩) النحل/٦٦ ـ ٦٩.

مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾[١]. فهذه الآيات الكريمة تبين كيف أن الله سخر الأرض للإنسان وأخضعها لمصالحه؛ فهيأها وذللها في بداية الخليقة بالتنسيق بين عناصرها وعناصر السماء وظواهر الأجرام، بما منحها وضعاً ملائماً لحياة الإنسان ومعاشه وحاجاته. ولو كانت الأرض باقية على حالتها الأولى من ميوعة سطحها وسيولة قشرتها، لتعذرت الحياة عليها، ولتعذر اتخاذها مسكناً صالحاً لأي نوع من الأحياء. وقد جعل الله على وجه هذه الأرض الجبال الشامخات، وسخرها لتسندها أثناء دورانها، ولتشكل بارتفاعات سفوحها سدوداً أمام طغيان البحار على ترابها، وعلامات تهدي السالكين في تعاريجها، ولتجمع شتات الماء من كل مكان وتدخره للإنسان ولما يستخدمه من طير، وحيوان، ونبات. . .

وفجر الله من الأرض والجبال الينابيع والأنهار، وسخرها وفق حاجة الإنسان إلى الماء والمتعة والغذاء والطاقة. . .، ولو اختلف تركيبه الجسدي عن خصائص مياهها، لما استطاع الارتواء بماء والتغذي بطعام والانتفاع بطاقة. . .

وسخر الله سبحانه البحر والفلك للإنسان[٢]، فهداه إلى طرف من نواميسهما وتكوينهما، بما وهبه من الطاقات المذخورة. وبهذا الاهتداء عرف الإنسان البحر والفلك الجارية في ثبج أمواجه، ولا شيء يسندها إلا أمر الله وقانون الكون الذي جعله الله[٣]؛ فأمكنه ما عرف وخبر من ذلك أن يتغذى

(١) النحل/٨٠.

(٢) يراجع معنى هذا التسخير بتفصيل ضمن تحليل علاقة أمر الله وإذنه، في مبحث العلاقات.

(٣) كثيراً ما يلفت القرآن الكريم إلى تيسير جريان الفلك بأمر الله، ضمن آيات القدرة والنعمة؛ كهذه الآيات المتقدمة، ولعل الملحظ البياني في هذا اللفت المطرد، هو ما يتضمنه هذا التيسير من معان كثيرة وجليلة، يجمعها ـ على سبيل العد لا الحصر ـ إلهام الله البشر إلى صنع الفلك، ومعرفة تكوينها وخصائصها، وهدايته إلى تعرف نظام البحر والرياح، وجاذبية الأرض. . .، وسائر الأنظمة الكونية الأخرى التي تذلل جريانها، ولولا هذا التذليل لما أطاقها الإنسان. =

بطعام البحر وحيتانه، وأن يتحلى بجواهره وأصدافه، وأن يتجمل ويتداوى بطحالبه وأعشابه[١]، وأن يركب الفلك التي تمخر عبابه ليتبادل ثمار سعيه وأعماله، ويستمتع بجمال الرؤية وفرح النزهة. وهذه الفوائد والمصالح ما كانت لتحصل وتترتب لولا أمر الله ومشيئته.

وسخر الله سبحانه لهذا الإنسان ما أودع في الأرض من طاقات ومعادن وخامات، ظاهرة وكامنة، بما وهبه من إدراكات صالحة للكشف عن هذه الثروات في وقت الحاجة إليها، ثم استغلالها في صناعاته وقوته المادية[٢]. وإن المتأمل في صفاتها وأشكالها وأنواعها، يجد أن ما يترتب عليها من منافع شتى ينسجم انسجاما تاما مع مقتضيات الحياة ومتطلبات الإنسان.

وسخر الله تعالى للإنسان مئات الألوف من أجناس النباتات، التي تفرش الأرض والبساتين والجنات، بما هداه إلى شيء من نواميس نبتها ونموها وغذائها، وبما أودع فيها من منافع مختلفة، مواتية لغذائه وعافيته، وسخر الله سبحانه الحيوانات للإنسان، فجعل بهيمة الأنعام، من الخيل والحمير والبغال، والإبل، والبقر، والضأن. . . ذلولة لبني الإنسان؛ عليها يُحملون ويَحملون، وبمنظرها يستمتعون، ومن لحمها يأكلون، ومن ألبانها يشربون، ومن جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها يستدفئون وينتفعون.

= وعلاوة على ذلك، فإن الفلك من أعظم وسائل النقل المسخرة للإنسان لينتفع بها في سائر ما يبتغيه من فضل الله في البحار. ولعل ذلك ما يفسر ورودها المطرد، في مقام امتنان الله تعالى على خلقه، بما يسر لهم من الحمل عليها وعلى سفائن البر الفطرية، وهي الإبل. وكثيرا ما يقرن القرآن الكريم بينهما في آياته، كقوله في آية الزخرف ١٢: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝﴾، وينظر معها: المؤمنون/٢٢.

(١) ينظر بسط هذه الفوائد المترتبة على تسخير البحر في: من علوم الأرض القرآنية/١١٢ - ١١٥.

(٢) يدل لذلك قوله تعالى عن فوائد إنزال الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾: الحديد من الآية: ٢٥.

وكل ذلك المتاع من قدرة الله وأمره وتدبيره، ومن إيداعه ما أودع من الخصائص في الإنسان وفي الأنعام؛ إذ جعله قادرا على تذليلها واستخدامها لمصالحه، وجعلها تطيعه، وسلبها التمرد على إرادته، ولو فوض إليه أمر تذليل هذه المخلوقات، وسواها من الحيوانات والحشرات، الأليفة والشرسة سواء، لعجز عن إخضاع ذبابة، كما عجز عن خلقها؛ يدل لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[١].

وهكذا تبين هذه الآيات جميعاً، أن الله سخر لهذا الإنسان ما في السماوات والأرض[٢] من طاقات وخيرات، بموافقة نواميسها ووظائفها لفطرته، وحياته وحوائجه، مما يصلح له ويدخل في دائرة خلافته. وكل هذه التسخيرات تحث الإنسان على التفكر في المصنوعات الحكيمة وقراءتها قراءة فطنة[٣]؛ لتسخيرها وتعمير الكون بها، وتسوقه إلى شكر صانعها ومسخرها سبحانه، وإظهار معرفته له بالإيمان به ودعائه وتعظيم أوامره. وبتحقيق هذه الغاية السامية، يصير الإنسان ـ بحق ـ سيد الموجودات، قابضاً زمامها بدستور «**سنة الله**»؛ ليثبت جدارته أمامها لتسنم الأمانة العظمى، وليستفيد من وظائفها في ارتقائه العلمي والحضاري، وليفتح من خلال منافعها نافذة واسعة، يرى منها تجليات التدبير، والعناية، والحكمة، والرحمة، والتسخير، لأسماء الله الحسنى؛ مثل «**المدبر**» و«**الحكيم**» و«**الرحيم**» و«**المسخر**»...

---

(١) الحج من الآية: ٧٣.

(٢) يجمع هذه التسخيرات عموم قوله تعالى في آية الجاثية: ١٣ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

(٣) وهذه القراءة الكونية تضمنها الأمر الكوني الصادر إلى نبي الهدى في أول نزول، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾: العلق/١ وهذه القراءة تجعل من الإنسان مشرفاً متفكراً في الموجودات الحكيمة، ومشاهداً نبيها لها؛ يطالع نواميسها واستعداداتها، ليستثمرها في تحقيق الخلافة في الأرض، كما أرادها الله.

نعم، إن الإنسان إذا ما أدى وظيفة إنسانيته الفطرية؛ فسخر نفسه لأوامر الله، وصير نفسه سلطانا في عبديته لله، ونظر إلى الموجودات المسخرة نظرة احترام، وقام بالخلافة في الأرض وفق السنن الإلهية، وترك جشع نفسه الحيوانية؛ سخر الله له موجودات كثيرة لم يُمط عنها اللثام، وكشف له عن قوانين سيرها، وعلَّمه لغة قابلياتها، وهداه إلى سبل استثمارها في دقائق العلوم وخوارق الكمالات والفنون، التي ترسي دعائم خلافته في الأرض. ويشهد لهذه الحقيقة الجليلة، ما سخره الله سبحانه على صورة معجزات، من مخلوقات عظيمة لأنبيائه الصالحين، على نحو يلائم رسالتهم وملكهم؛ فسخر لنبيه داود الجبال، يسبحن معه بحمد الله تعالى، كما قال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾[1]، وسخر سبحانه لنبيه عليه السلام الحديد وألانه له؛ كما قال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[2]. فاستمد عليه السلام من هذه النعمة الإلهية قوة عظيمة لإرساء أركان دولته. وسخر سبحانه بأمره لخليفته سليمان عليه السلام الريح تحمله فوق متون الهواء إلى حيث يريد من أقطار الأرض، وسخر له النحاس ـ القطر ـ بإذابته، وسخر له الجن والشياطين والأرواح الخبيثة، ونجاه من شرورهم وجعلهم خداما طائعين قهرا له؛ يعملون بين يديه بأمر ربه أمورا نافعة تخدم مملكته ورعيته، وتصون رسالته وخلافته. وإلى هذه التسخيرات المعجزة أشارت الآية الكريمة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[3][4].

---

(١) ص/١٨.

(٢) سبأ من الآيتين: ١٠ ـ ١١.

(٣) صرحت بهذا التسخير آية ص: ٣٥، ولوحت به آية الأنبياء: ٨٠.

(٤) سبأ/١٢ ـ ١٣.

وعلم الله سبحانه نبييه داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ منطق الطيور، وجعلها مسخرة لكل منهما، لتكون له ظهيراً على إجراء شؤون رسالته وتدبير أعمال دولته. يصرح بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾. . .[(٢)].

فهذه التسخيرات المعجزة وأمثالها من خوارق الأنبياء المادية[(٣)] خطت للعلوم والصناعات والمهارات المدى الأقصى[(٤)]، وأهدت إلى البشرية الكمال المادي وخوارقه لأول مرة مثلما أهدت إليها الكمال المعنوي. ومن ثم، فهي لوحت رمزاً، بل صرحت بأن الطريق ممهد أمام الإنسان ليقبض زمام المخلوقات باسم الخالق العظيم وبأمره، وأن يستثمر قابلياتها واستعداداتها، وأن يستخدمها مجاناً في أمور مهمة[(٥)] ترتقي بحياته المادية، وحضارته الإنسانية إلى أبعد الآفاق. وهذا المبتغى لن يصله الإنسان إلا إذا أطاع أوامر من بيده مقاليد المخلوقات، وأزمة العلوم، الله جل جلاله، وشكر نعمه وتسخيراته، وغذى بذور استعداداته بضياء الإيمان، وسقاها بماء الإسلام، وسار في حياته ورقيه وفق السنن الإلهية؛ هادفاً إلى الارتقاء بماهية الإنسان السامية، ومتجنبا الافتتان

---

(١) ص/١٩.

(٢) النمل من الآية: ١٦.

(٣) كسفينة نوح عليه السلام.

(٤) كعلم السلوك الحيواني، الذي يجد أساسه في علم داود وسليمان بمنطق الطير، وعلم تحضير الأرواح ومحادثة الجن، الذي يبلغ مداه وأقصاه بتسخير الأرواح والجن لسليمان، وصناعة الحديد والصلب، التي هي محور كل الصناعات العامة، تبلغ ذروتها وغايتها وكمالها بمعجزة «تليين الحديد» و«إذابة النحاس»، التي أوتيها داود وسليمان: (ينظر: كليات رسائل النور: ٢٧٩/١ ـ ٢٨٥).

(٥) فمثلاً إذا علم الإنسان لسان الاستعداد الفطري للطيور والحيوانات، وأدرك نواميسها وأي الأعمال تناسبها؛ أمكنه أن ينتفع منها ويستعملها في شؤونه وأعماله؛ كما استعمل الحمام الزاجل في اتصالاته، واستخدم النحل ودودة القز في شرابه ولباسه، وانتفع مما لديهم من إلهام إلهي. . . (كليات رسائل النور: ٢٨٧/١ ـ بتصرف ـ).

بخوارق الكشوف العلمية، والانجذاب بضلالات المادية الطبيعية إلى حضيض الهاوية... إلى نسيان معلم الأسماء كلها، الذي خلق الإنسان من علق، وعلمه ما لم يعلم؛ فتعلم وعرف، وتمكن، وسخر، وانتفع....: ... ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(١)].

١. ٢. ٣. ٢ ـ تدبير الأمور الاختيارية

*** تدبير الوحي والرسالة:

لقد كان من سابغ رحمة الله بالإنسان، ومن كمال تدبيره لأموره وتقديره لما فيه كماله وسعادته، في دنياه وأخراه؛ أن أرسل إليه أنبياءه عليهم السلام بالوحي الإلهي؛ ليقيموا حياته على مقتضى قوانين ثابتة، يميز بها الحلال والحرام، والحسنة والسيئة، والطيب والخبيث...، ويوجهوا استعداداته الفطرية إلى عبادة الله وحده، وينذرونه يوم التلاق للمجازاة على أعماله...

وبناء على هذه الأهمية العظمى للوحي والرسالة، يشير القرآن الكريم ضمن عموم **«الأمر»**، الذي في آيات **«تدبير الأمر»**، المعروضة في مجال الكون الفسيح؛ إلى أن من التدبير المحكم لأمر الإنسان، تدبير حياته المعنوية بإنزال الوحي، وبعثة الرسل، والتكليف، وإليه ألمع صاحب البحر في قوله عند تفسير الآية الكريمة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[(٢)]: «والأمر: أمر ملكوته وربوبيته، وهو عام في جميع الأمور من إيجاد وإعدام، وإحياء وإماتة، وإنزال وحي وبعث رسل وتكليف...»[(٣)]. وهذا المعنى هو الذي شرحه صاحب المنار شرحاً ضافياً، وبين دلالته على كمال الربوبية والتدبير، فقال بين يدي تفسير الآية الكريمة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا

(١) البقرة/٣٢.
(٢) الرعد من الآية: ٢.
(٣) البحر/: ٣٤٥/٦. وكذلك المفاتيح: ٧/١٩/١٠.

مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١):
«ووجه دلالة هذه الجملة ـ أي: يدبر الأمر ـ على ما ذُكر، أن الرب الخالق المدبر لجميع أمور الخلق، لا يستنكر من تربيته لعباده وتدبيره لأمورهم، أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه ما يهديهم به لما فيه كمالهم وسعادتهم من عبادته وشكره وصلاح أنفسهم، بل يجب على العاقل العالم بهذا التدبير والتقدير الذي تشهد به آياته تعالى في السماوات والأرض أن يؤمن بأن هذا الوحي منه عز وجل؛ إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه غيره»(٢) ويعضد هذا البيان، قوله تعالى في سباق الآية مخاطبا الكفار، الذين عجبوا أن يوحى إلى رجل منهم ما فيه هدايتهم: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾...(٣). وإلى معنى الوحي وجه مقاتل وغيره قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾...(٤) والأمر الذي هو الوحي، جعله الله تعالى روحاً يتنزل من علو على من يشاء من عباده، كما يشاء، للإنذار؛ حيث قال معرفاً بصفة نفسه، ومبيناً حقيقة وحيه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾(٥).

فالوحي روح من أمر الله ومشيئته، يسري مسرى الروح التي تُنفخ في جسد الإنسان بأمر الله وإذنه(٦). ومن أجل ماهية الوحي السامية، تنزل به

---

(١) يونس من الآية: ٣.
(٢) المنار: ٢٩٥/١١.
(٣) يونس من الآية: ٢.
(٤) الطلاق من الآية: ١٢، وانظر في ذلك: الجامع للأحكام: ١٥٣/٧، وكذلك روح المعاني: ٢١٥/٢٨/١٢. وهذا المعنى، وإن كان يشير إليه رمزاً سياق الأحكام لسورة الطلاق، غير أنه لا يجوز تخصيص الأمر به؛ لأن الأمر هنا ورد معرفاً مطلقاً، والتعريف فيه للجنس، فهو يعم أمر التكليف وأمر التكوين، المستفاد صراحة من لفظ «الخلق» بالآية.
(٥) غافر/١٥.
(٦) سيأتي بيان ذلك بمزيد تفصيل عند تناولنا لحقيقة الأمر الإلهي الديني، ضمن المبحث الثاني من هذا الفصل.

الملائكة، أطهر خلق الله، على المختارين من عباده الأنبياء، كما يصرح به قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾[1]. وتنزُّل الملائكة بالوحي لا يتم إلا بأمر الله الكوني المكتوب إليهم، وفق مشيئته وعلمه، كما جاء في قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾[2]. وبهذا الوحي المنزل بأمر الله، أرسل الله الرسل والأنبياء، وأمرهم أن يبلغوه ويبينوه للناس، ليتميز أصحاب الهدى والسعادة من أصحاب الضلال والشقاوة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾[3]... يضل سبحانه من يختار الكفر ومتاع الدنيا الفانية، ويهدي من يختار الإيمان والحياة الآخرة الباقية، جريا بدستور سننه الثابتة في معاملة العباد. ومرجع ذلك كله إلى قدرة الله وأمره ومشيئته، بإشارة الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[4].

***** تقدير الهداية والضلال:**

أراد الله سبحانه بإرادة نافذة، وقضى قضاء مبرماً، وأمر أمراً كونياً سابقاً على الأوامر الدينية في الزمان، أن يخلق الإنسان مستعدا للهدى والضلال، وأن يمتعه بملكة الإرادة والاختيار، ويجعله بها مريداً حراً، يختار طريق الهدى أو الضلال[5]؛ فكان منهم من يسلك السبيل القاصد، ومنهم من يسلك السبيل الجائر، وكلاهما لا يخرج على أمر الله الكوني ومشيئته المطلقة، كما صرح بذلك القرآن الكريم في مثل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ

(١) النحل/٢.

(٢) مريم/٦٤.

(٣) إبراهيم/٤.

(٤) التكوير/٢٩.

(٥) ويشهد لهذه الحرية والقدرة على الاختيار حقيقة الخلافة، وعرض الأمانة، وحقيقة الابتلاء والتكليف.

فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾[١]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[٢]، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾[٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[٤] ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾[٥].

فالله سبحانه خلق الخلق، وقدر مقاديرهم في كتابه السابق، وعلِم أن قوماً صائرون إلى السعادة بالإيمان والطاعة، وقوما صائرون إلى الشقاوة بالكفر والمعصية، يصرح بهذا القرآن الكريم في كثير من آياته؛ مثل: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾[٦]، ويصدق هذا الحكم القرآني حديث رسول الله عليه السلام المتقدم، عند تخليق الإنسان في الرحم. وفيه: «**ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، فيقال: اكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد...**»[٧].

وفي الصحيحين، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقَد... فقال رسول الله: «**ما منكم من أحد إلا قد كُتب مقعده من النار أو من الجنة**» قال: فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نمكث

---

(١) التغابن من الآية: ٢.

(٢) يونس/١٠٠.

(٣) البقرة من الآية: ٢١٣.

(٤) النحل/٩٣.

(٥) الرعد/٣١. والإضراب في الآية متوجه إلى ما يؤدي إليه كون الأمر لله سبحانه ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى بعد: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. وإذن، فالأمر كله إليه وبيده؛ يهدي من يشاء إلى الإيمان، فيوفقه له، ويضل من يشاء؛ فيخذله: (يراجع في ذلك فتح البيان: ٥٩/٧، ومحاسن التأويل: ٣٦٤/٩، وجامع البيان: ١٥٥/١٣/٨).

(٦) الحج من الآية: ٦٨.

(٧) البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨) ومسلم في القدر (١/٢٦٤٣) وكتابة العمل هي كتابة لعلم كاشف لما يختار العبد بإرادته. وكتابة الشقاء أو السعادة هي كتابة لعلم بقضاء جزائي، مرتب على ما يختار العبد بإرادته.

على كتابنا وندع العمل؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فيُيَسرون لعمل أهل السعادة. وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾»[١].

فبين عليه السلام أن الله سبحانه علم أعمال العباد الاختيارية وعواقبهم، وأنه كتب ذلك وقدره عنده أو عند ملائكته، ونهى الناس أن يتكلوا على هذا الكتاب، ويدعوا العمل ويتهموا القدر، كما يفعل الملحدون والمشركون[٢]، وقال: «**كل ميسر لما خُلق له**». والقصد من ذلك أن من العبد التوجه بإرادته الحرة إلى ما يشاء، ومن الله عز وجل التيسير لتنفيذ مراده الذي ويرغب فيه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فمن تعرض لألطاف الله بأن حرر نفسه من هواها، واستعان بالله، واطمأن إليه؛ وجه الله قلبه نحو الهداية، وحبب إليه الإيمان وزينه فيه، ومن أبى إلا أن يتعرض لسخط الله فواجه أوامر الله بالكبر والعناد، وآثر طاعة نفسه وهواه على طاعة خالقه ومولاه؛ وجه الله قلبه نحو مزيد من الضلال، وصرفه عن آياته، وختم عليه، وغلفه بالران... ومن ثم، فإن أفعال الله النفسية في الكفار، والتي عبر عنها في كتابه بالطبع[٣]، والختم[٤]، والصرف عن الحق[٥]،

---

(١) مسلم في القدر (٦/٢٦٤٩) والبخاري - بألفاظ مقاربة - في القدر (٦٦٠٥).

(٢) وهؤلاء هم الذين عاب الحق احتجاجهم بالقدر والمشيئة على شركهم وكفرهم في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾: الأنعام: ١٤٨.

(٣) كقوله في بني إسرائيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥﴾: النساء/١٥٥.

(٤) كقوله في الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾....: البقرة من الآية: ٦ - ٧.

(٥) كقوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾: الأعراف من الآية: ١٤٦.

والحيلولة بين المرء وقلبه[١]، ليست سوى الإمداد الإلهي بما يختارون، وكذلك أفعاله القلبية، سبحانه، في المؤمنين، والتي عبر عنها بالهداية[٢]، والتوفيق[٣]، والتزيين والتحبيب[٤]. . .، فهي تيسير من الله لما يطلبون من الإيمان والطاعة. وذلك يعني أن التصريف الفعلي من الله لقلوب عباده يتم بأمره ووفق قانونه في معاملة عباده، والمتسق مع سننه الجارية في نظام الكون وحياة الكائنات، على نحو ما بيناه. وفي هذا القانون ترتبط الأسباب بالمسببات، كما سُطرت في علم الله وكتابه، فما قدره الله وأمد به العباد من الهداية والسعادة أو الضلال والشقاوة؛ فإنما قدره بأسباب، فإنه قال في سنة الهداية: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[٥]، كما قال في دستور الإحياء: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. . .[٦]، وقال في سنة الإضلال: . . .﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[٧]، وقال في تيسير اختيار الفريقين: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ

---

(١) في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾. . .: الأنفال من الآية: ٢٤.

(٢) كقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾. . .: التغابن من الآية: ١١.

(٣) في قوله عن شعيب ﷺ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. . .: هود من الآية: ٨٨.

(٤) في قوله، في المؤمنين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾. . .: الحجرات من الآية: ٨.

(٥) المائدة/١٥ ـ ١٦.

(٦) البقرة من الآية: ١٦٤.

(٧) البقرة/٢٦.

مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[(١)].

فالهداية والإضلال ـ فيما تنطق به هذه الآيات ـ من الله عز وجل، وكذلك الدنيا والآخرة، والرحمة والعذاب... يختار لهما من يشاء من عباده، وذلك لا يستلزم جبراً، ولا يخدش شيئاً من حقيقة اختيار الإنسان ومسؤوليته، ولا يتهم العدل الإلهي؛ إذ الهداية والإضلال من الله نتائج لمقدمات، كما سبق بيانه ضمن دراسة علاقة الإرادة والأمر[(٢)]، فحيث اختار الإنسان لنفسه سبيل الهداية وسلك طريقها المستقيم، بسائق من فطرته المؤمنة؛ فاتبع رضا الله بالإيمان به، وطرح موجبات عناده؛ هداه الله إلى مزيد من الهداية والتوفيق، فنمى دوافع الخير في فطرته، وأخمد مهيجات الشر بين جوانحه، وجعله من الفائزين بجنته، وحيث اختار الإنسان لنفسه سبيل الغواية، وأصر على سلوك شعابها، بسائق من نفسه الغوية، ومن عصبيته وعناده؛ أضله الله، وقطع عنه روافد هدايته، وداخله في قلبه، وشل فاعلية اختياره، وجعل صدره ضيقا حرجا كلما أصغى إلى نصيحة ناصح، ثم جعل له جهنم يصلاها مع إبليس وأتباعه.

وهكذا يتبين، أن الهداية والضلال بأمر الله ومشيئته؛ ذلك بأن الله جعل الهدى لمن يريد الهدى من الناس، وجعل الضلال لمن يختار منهم الضلال، طبقا لسنته التي أوجبها على ذاته العلية. ومن ثم فإن الهدى والضلال مع كونه نابعا من إرادة الإنسان الجزئية الضعيفة، فهو صائر إلى مشيئة الله وقدره، بمضمون قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[(٣)]. فالله شاء أمرا ليمضي به أمره وتدبيره وقدره، وشاء أمرا يرضاه من عباده في طاعته، فما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، فإن الأمر أمره وإليه يرجع كله، وليس لغيره أمر إلا ما كان بأمره وإذنه، كما قال لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ

(١) الإسراء/١٨ ـ ٢٠.

(٢) ينظر: ص١٧٧ ـ ١٧٨.

(٣) الإنسان من الآية: ٣٠.

ﭐلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[١].

*** تدبير النصر والهزيمة

قضت سنة الله وإرادته وحكمته أن يتبارز أهل الهداية مع أهل الضلالة، وأن تسفر هذه المبارزة عن نصر أو هزيمة، وعز أو خذلان، فينتصر أهل الحق تارة، ليتميزوا عن أهل الباطل، ويحققوا قدر الله في دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح في الحياة؛ وينهزموا تارة أخرى، لتتمحص قلوبهم، وتتربى نفوسهم، وتتطهر صفوفهم، وتظهر استعداداتهم للنصر الموعود... ومن وراء النصر والخذلان، تمتد اليد الحكيمة المدبرة؛ يد الله عز وجل بالتدبير الخفي لمعركة الحق والباطل، فتُجري الأسباب وترتب عليها النتائج، وفق سنة الله، وتقود المبارزة إلى الخير والصلاح، على مقتضى مشيئة الله وأمره وقدرته. ولعل هذه الحقيقة السامية تتجلى بوضوح في ظلال غزوة بدر وما حققه المسلمون فيها من غلبة ونصر، وفي ظلال غزوة أحد وما نالهم فيها من هزيمة وقرح. ومن ثم فنحن نتفيأ هذه الظلال، ونستعرض أحداث كل غزوة ومواقفها ونذكر تعقيباتها، كما نطقت بها آيات آل عمران والأنفال، وذلك لنبين دقة التدبير الإلهي في معركة الحق والباطل، وحكمة التقدير الرباني لأسباب النصر والهزيمة...، ومن وراء ذلك نبين جلوة من تجليات الأمر الإلهي النافذ والمشيئة الإلهية المطلقة.

*** في غزوة بدر

لقد أديرت وقعة بدر الكبرى، وهي المعركة الأولى بين القلة المؤمنة والكثرة المشركة، بقيادة رب العالمين، وبأمره؛ أديرت من بدايتها إلى نهايتها لتكون، كما أرادها الله، معركة فارقة بين الحق والباطل؛ حيث قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾[٢]. وقد كان هذا التلاقي بين الجمعين على غير ميعاد من تدبير الله وتقديره؛ ذلك بأن المسلمين الذين

---

(١) آل عمران/١٢٨.

(٢) الأنفال من الآية: ٤١.

خرجوا من المدينة للمعركة، إنما خرجوا يريدون اغتنام عير أبي سفيان القادمة من الشام، فأراد الله لهم غير ما أرادوا؛ أراد لهم أن تفلت منهم عير أبي سفيان «**غير ذات الشوكة**»، وأن يلاقوا نفير أبي جهل «**ذات الشوكة**»، وأن تكون معركة لا غنيمة ورحلة مريحة، وأن تكون مبارزة عظيمة بين الحق والباطل؛ ليغلب جند الحق وينهزم جند الباطل. وإلى هذه الإرادة العليا النافذة يشير قوله تعالى، مخاطباً المسلمين: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[(١)].

ويكشف السياق في آيات الأنفال عن تدبير الله للقاء الفريقين على غير موعد، ولا رغبة في القتال: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾[(٢)].

لقد نزل المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ، فيما يرويه المفسرون، بضفة الوادي القريبة من المدينة، وهم في قلة من العدد، وضعف في الزاد والراحلة، وفي قلوب بعضهم كراهة شديدة للقتال[(٣)]. ونزل جيش المشركين بقيادة أبي جهل بالضفة الأخرى البعيدة من المدينة، وهم مدججون بالسلاح ومزودون بكل زاد؛ ومعظمهم راغبون في إنقاذ العير دون القتال، وكانت العير أسفل من الجيشين وبعيدة عن مكان اللقاء، وكانت بين الفريقين ربوة تفصلهما، وتحول دون علم أحدهما بموقع صاحبه[(٤)].

---

(١) الآيتان/٧ ـ ٨ من السورة.

(٢) الآية/٤٢ من السورة.

(٣) كما يصرح بذلك قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾: الأنفال/٥ ـ ٦.

(٤) انظر في ذلك: في الظلال: ٢٠/٤ وتفسير المنار: ١٨/١٠، ومفاتيح الغيب: ١٧٣/١٥/٨.

وهكذا دبر سبحانه وقدر لقاءهما على جانبي الربوة بدقة وإحكام. وقد كان وراء هذا اللقاء أمرا مقررا فِعْلُه في خطة مقاديره سبحانه، كما قال: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ وهو: نصر أوليائه المؤمنين وهلاك أعدائه المشركين بالقتل والأسر، كما يشعر بذلك قوله بعد: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(١).

ثم يكشف السياق عن تدبير آخر في رؤيا الرسول الصادقة، وفي تقليل كل فريق في عين الآخر، وفي إغراء كل منهما بالآخر: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾(٢).

لقد أراد الله أن تطمئن قلوب القلة المؤمنة، التي خرجت على غير أهبة لقتال، وأن يذهب عنها الفزع من ملاقاة أعداء الله، وأن تسلم صفوفها من التنازع على الالتحام أو الإحجام؛ فأرى نبيه عليه السلام الكافرين في منامه قليلاً، لا قوة لهم ولا وزن، وكانت هذه الرؤيا بشارة مُطَمئنة صادقة، استبشر بها الأصحاب الكرام خيراً، وتشجعوا على خوض المعركة.

وحينما التقى الجمعان وجهاً لوجه، أول الله سبحانه رؤيا نبيه عليه السلام في صورة محققة من الجانبين، فرأى المؤمنون أعداءهم قليلاً؛ لأنهم يرونهم بعين الواقع، ورأى المشركون المسلمين قليلاً؛ لأنهم يرونهم بعين الظاهر الخادع، ومن وراء الحقيقتين اللتين رأى كل فريق منهما صاحبه بها،

---

(١) الأنفال من الآية: ٤٢.

(٢) الأنفال/٤٣ ـ ٤٤ اختلف المفسرون في حقيقة هذه الرؤيا، على قولين (الأول) قيل: أراه إياهم في نومه عليه السلام بوصف القلة، وأخبر أصحابه بذلك فازدادوا جسارة عليهم، و(الثاني) قيل: أراه في منامه، أي: في عينيه، ومعناه: قلله في عينيه. والجمهور على أنه عليه السلام أُري ما أُري في النوم، وهو الظاهر المتبادر: (انظر: لطائف الإشارات: ٦٢٨/١ وروح المعاني: ١٣/١٠/٦).

تحققت غاية التدبير الإلهي، ووقع الأمر الذي جرى به قضاؤه وأمره.

وقبيل نشوب المعركة، أنبأ الله أولياءه بأنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين، إجابة لدعواتهم وتثبيتا لقلوبهم في مواجهة الأعداء، كما قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[1].

وقبيل المعركة أيضاً تجيء الإمدادات الرحمٰنية، الروحية والمادية للعصبة المسلمة، بأمر الله ومشيئته، كما حكاها قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[2]، وتأمن النفوس

بعد الصحوة من النعاس، وتسكن القلوب بوجود الماء[3]، وتطمئن الأرواح بالطهارة، وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال.

وفي خضم المعركة أنجز الله وعده الحق، فأوحى إلى ملائكته أني معكم، وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا، وأن يضربوا فوق الأعناق، وأن يضربوا من المشركين كل بنان، ووعد سبحانه أن يلقي الرعب في قلوب الذين كفروا، كما صرح بذلك قوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ

---

(١) الأنفال/٩ ـ ١٠.

(٢) الأنفال/١١.

(٣) إن الماء الذي أنزله الله على المسلمين، وأنزل به السكينة في قلوبهم، لأمر هائل عظيم في تدبير الله لمعركة الحق والباطل هذه؛ ذلك بأن الماء مادة الحياة في الصحراء، فضلاً على كونه أداة النصر. والمسلمون كانوا قد نزلوا بعيدين عنه، وغُلبوا عليه من قبل المشركين، فلم يجدوا منه ما به يرتوون ويسقون دوابهم، ويتطهرون لأداء صلواتهم. وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضاً رملية تغوص فيها أرجلهم ودوابهم. فلما أنزل الله الماء، شربوا وتطهروا، وثبتت أقدامهم على الرمال المتماسكة: (انظر في ذلك ما رواه الرازي في المفاتيح: ١٧٣/١٥/٨، وكذلك سيد في الظلال: ٨١٨/٣).

فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾[١].

ونفذ جند الله المدبرون هذه الأوامر التكوينية ـ لأنهم يفعلون ما يؤمرون ـ وشاركوا في المعركة مع المؤمنين المستغيثين بالله، المتوكلين عليه، حتى جاء النصر من عند الله العزيز الحكيم. وفي نهاية استعراض أجواء المعركة ومشاهدها وتدبيرها؛ تقرر التعقيبات القرآنية أسباب النصر والهزيمة... الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[٢].

فهذه هي أسباب النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله بالذكر، والطاعة لله والرسول، وتجنب النزاع والشقاق، والصبر على تكاليف المعركة، والحذر من البطر والرئاء والبغي... وهذه الأسباب الموصولة بصاحب الأمر والتدبير والتقدير: الله جل جلاله هي التي يجب أن يأخذ بها المسلمون المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل وإن كانوا أذلة وقلة، وهي التي حكى القرآن الكريم طرفا منها في تاريخ الأمة المسلمة، وفي موكبها الإيماني الطويل؛ كقوله عن الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، وهي تواجه جالوت وجنوده بالدعاء الخاشع إلى الله، وتستمد قوتها من إذن الله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ...﴾[٣]، وقوله عن الربيين أتباع الأنبياء، وهم يواجهون البلاء والمصائب بالثبات على الحق، والرضا

---

(١) الأنفال/١٢.

(٢) الأنفال/٤٥ ـ ٤٧.

(٣) البقرة/٢٥٠ ـ ٢٥١.

بأمر الله، وطلب العفو والمغفرة: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾...[1].

وأما أسباب الهزيمة الحقيقية فهي: الظلم بالكفر وبالصد عن سبيل الله، ومشاقة الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[2]؛ يعذبهم بنصر المسلمين عليهم، أو بأسرهم، أو بموتهم على الكفر الذي يفضي بهم إلى العذاب، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾[3].

وفي ضوء ما تقدم، يتبين: أن النصر والهزيمة في معارك الحق والباطل موكولان إلى إرادة فوق إرادة الناس، وإلى أسباب غير الأسباب الظاهرة، التي يراها الناس... إنهما موكولان لرب الناس، مالك الناس؛ يصرفهما بسلطانه ويدبرهما بحكمته، كما يدبر الأمر كله، وفق سنته التي أجراها في خلقه؛ ذلك بأن الله قدر وأمر بأن يثبت الفئة المؤمنة وينصرها متى توكلت على الله، واستغاثت به، وأطاعت نواميسه الربانية كطاعتها لأوامره الإلهية؛ وبأن يهزم الفئة الكافرة، ويلقي الرعب في قلوبها، ويقتلها بأيدي المؤمنين[4]، ويذيقها العذاب الأليم، ما دامت تشاق الله ورسوله ﷺ، وتخالف شريعته الكونية والدينية، وغاية ذلك التدبير تحقيق حكمته السامية: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾...﴾[5]، ﴿... لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾[6].

---

(١) آل عمران/١٤٧ ـ ١٤٨.
(٢) آل عمران من الآية: ١٢٨.
(٣) الأنفال/١٣.
(٤) يدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾: الأنفال من الآية: ١٧.
(٥) آل عمران/١٢٧.
(٦) الأنفال/٧ ـ ٨.

في غزوة أحد:

لقد تداول النصرُ والهزيمة معركة أحد، وهي المعركة التي مُني فيها المسلمون بأول هزيمة مريرة بعد انتصارهم الأبلج ببدر وهم قلة، ومن ثم فقد أدار القرآن الكلام عنها كثيراً، يأخذ المسلمين بالتسلية تارة، وبالاستنكار تارة، وبالتقرير تارة، وبالمثل تارة[١]، تربية لنفوسهم وتصحيحا لتصوراتهم، وتنبيها لهم إلى ما يحيط بهم من كيد أعداءهم، وإعدادا لهم بالصبر على مرارة الهزيمة ونشوة النصر، ليصبحوا ـ بإذن الله ـ سادة العالم وقادته.

ونحن إذ نطالع مشاهد المعركة وأحداثها، التي عرضها القرآن الكريم مرتبة على أسبابها، مدبرة بحسابها، كأنها حية شاخصة؛ نجدها قد تقطرت عبراً ودروساً وحقائق في الحياة الإنسانية، وفي السنن الكونية، وفي أمر الله وقدره في آجال العباد، ومن وراء أفعالهم، وفي حكمة الله وتدبيره وراء الأحداث الواقعة بأسبابها الظاهرة. . .

وأول هذه المشاهد والأحداث، مشهد النصر الذي حققه الله للمسلمين في بداية المعركة، حسب وعده لهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾[٢]، وكان ذلك في بدايات المعركة، حيث صدقهم الله وعده، كما قال لهم: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾. . .[٣]. وقال لهم نبيُّه عليه السلام تصديقاً لهذا الوعد: «**لكم النصر ما صبرتم**»[٤]. وبهذا الوعد الصادق، بدأ المسلمون يحسون المشركين؛ أي: «**يقتلونهم ويستأصلونهم**»[٥]، حتى لاذوا بالفرار، وتركوا وراءهم الغنائم. وكان هذا النصر المؤزر «**بإذن الله**»؛ أي: «بتيسيره

---

(١) يدل لذلك آيات آل عمران المتقدمة على مشاهد النصر والهزيمة وتعقيباتها، التي ستتناولها بعد: (انظر من الآية: ١٣٨ إلى الآية: ١٥٠).

(٢) آل عمران من الآية: ١٥٢.

(٣) آل عمران من الآية: ١٥١.

(٤) في الظلال: ١٠٦/٢.

(٥) الجامع للأحكام: ٢٣٥/٤.

وتوفيقه، وبقضائه وأمره»[١].

ثم انقلب النصر إلى هزيمة، في مشهد ثان، يرسم علل الهزيمة، ومواقف المسلمين، ونتائج أعمالهم، ومن وراء ذلك يكشف عن تدبير اللطيف الخبير وحكمته: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وهذا بيان لحال الرماة، وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة، وتنازعوا[٣] بينهم في أمر الحرب[٤]، أو فيما أمرهم الرسول ﷺ به من ملازمة مركزهم من فم الشعب بأحد، لحماية ظهور المسلمين[٥]. وانتهى النزاع إلى العصيان، بعدما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذي يحبونه، فكانوا فريقين: فريقاً يريد غنيمة الدنيا، ويقول: نلحق الغنائم، وفريقا يريد ثواب الآخرة، ويقول: بل نثبت في مكاننا، ولا نخالف أمر رسول الله[٦].

وبسبب هذا الموقف المضطرب، وذلك الطمع المُكدر لجلاء

---

(١) يراجع: روح المعاني: ١٤٠/٤/٣ والجامع للأحكام: ٢٣٥/٤.

(٢) آل عمران من الآية: ١٥٢.

(٣) و«التنازع» والمنازعة: المجاذبة، ويعبر بهما عن المخاصمة والمجادلة: (انظر: المفردات/نزع، وكذلك: البحر: ٣٧٩/٣، تفسير آية آل عمران/١٥٢، والتحرير ٢٨٩/٥، تفسير آية الكهف/٢١) واستعمل في هذه الآية، وآية الأنفال/٤٤ المتقدمة، تمثيلا في اختلاف الرأي، ومحاولة كل صاحب رأي أن يقنع المخالف له بأن رأيه هو الصواب.

(٤) راجع: التحرير: ١٢٨/٤، وروح المعاني: ١٤٠/٤/٣، ومفاتيح الغيب: ٣٩/٩/٥، والجامع للأحكام: ٢٣٦/٤.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ٣٩/٩/٥، وروح المعاني: ١٤٠/٤/٣، وجامع البيان: ١٢٨/٤/٣، وفيه: يروي ابن جرير ـ بإسناده ـ عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ، بعث ناساً من الناس، يعني: يوم أحد، فكانوا من ورائهم، فقال رسول الله ﷺ: **«كُونوا هَهنا فردوا وجه من قدمنا، وكونوا حرسا لنا مِن قبل ظُهورنا»»**.

(٦) راجع: في الظلال: ١٠٦/٢، والجامع للأحكام: ٢٣٦/٤.

الإخلاص، وتلك المخالفة عن أمر رسول الله عليه السلام، نفذ أمر الله في المسلمين يوم أحد بصرف قدرتهم وإرادتهم عن المشركين، وصرف الرماة عن مصافهم من الجبل، وصرف المقاتلين عن الميدان، فلاذوا بالفرار منهزمين، وكر المشركون على الرماة الذين ثبتوا مكانهم، وقتلوا قائدهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه، وأقبلوا على المسلمين يحسونهم بإذن الله، وشُج وجه رسول الله، وكُسرت رباعيته، ونزفت جراحه... نفذ كل هذا ووقع مرتباً على ما صدر منهم من ضعف وتنازع وعصيان، ولكن مُدبراً من الله العزيز الحكيم؛ ليبتلي ما في صدورهم بالشدة والخوف والجرح، وليمحص ما في قلوبهم بالهزيمة والقتل والقرح. ولقد تلقاهم، بعد الابتلاء والتمحيص، عفو الله على ما وقع منهم، ولولا فضل الله ما عُفي عنهم، ولولا فضل الله ما تابوا إلى ربهم.

ويستحضر السياق، في مشهد ثالث، صور الهزيمة وهولها، وحال المؤمنين الحسية والنفسية يومذاك: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾...[1].

فهذه الآية ترسم صعود المسلمين إلى الجبل هاربين، لا يلتفت أحد منهم إلى أحد من الدهش والرعب، بعدما استحر القتل فيهم، «وصاحَ صائح: ألا إن محمدا قد قتل»[2]؛ فطفق الرسول عليه السلام يناديهم ليطمئنهم على حياته، ويدعوهم إلى العودة والكرة. فجزاهم الله تعالى على الغم الذي تركوه في نفس رسولهم غما يملأ نفوسهم على ما كان منهم، وندما يساور قلوبهم على ما أصاب نبيهم وأصابهم؛ ذلك كي لا يحزنوا على ما فاتهم من الغنيمة والظفر بعدوهم، ولا ما أصابهم من الجراح والقتل.

---

(١) آل عمران/١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/٣٩٠.

وفي أعقاب الهزيمة والهم، أنزل الله عليهم النعاس أمنة منه وطمأنينة، انسكبت في قلوبهم المستسلمة لمشيئته، كما وقع للقلة المؤمنة يوم بدر. وقد ثبت في الصحيح، عن أنس بن أبي طلحة؛ قال: «غشينا النعاس، ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه»[١]. وما كانت هذه الحالة النفسية العجيبة لتكون إلا بأمر الله وتدبيره.

ثم يمضي السياق مع طائفة أخرى من المقاتلين المنافقين، الذين شغلهم حبهم لأنفسهم وأموالهم، ولم يفوضوا أمرهم إلى الله سبحانه، ولم يستسلموا بكليتهم لقدره، ولم تطمئن قلوبهم إلى أن ما أصابهم إنما هو بإذن الله للابتلاء، وليس تخلياً من الله عن أوليائه لأعدائه: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ ومن ثم، فهم يتساءلون ويتحسرون: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ . . .[٢].

إن مقالتهم هذه[٣] تبرز الاحتجاجات على خطة القيادة والمعركة، وتتضمن الوساوس التي ملأت نفوسهم الملتوية، والحسرات التي أذابت قلوبهم المريضة؛ لما نالهم في المعركة من القتل والجرح، ولعلهم ممن كان رأيهم عدم الخروج من المدينة؛ ممن لم يرجعوا مع عبدالله بن أُبي ـ رأس النفاق ـ حين انعزل بثلث الجيش بين المدينة وأحد، مغضباً أن

---

(١) صحيح البخاري، في التفسير: (٤٥٦٢).

(٢) آل عمران من الآية: ١٥٤.

(٣) روى الطبري، عن ابن جريج، أن قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ قاله عبدالله بن أبي ابن سلول لما أخبروه بمن استشهد من الخزرج، وذكر عنه أيضاً، أنه ممن قال: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ معتب بن قشير، وأسندت مقالته هذه إلى جميعهم؛ لأنهم سمعوها ورضوها: (جامع البيان: ١٤٣/٤/٣، وكذلك: التحرير: ١٣٥/٤ ـ ١٣٧، والجامع للأحكام: ٢٤٢/٤).

الرسول لم يأخذ برأيه واستمع إلى شباب أهل المدينة[١]. ومن ثم فقولهم ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ﴾ يخفي وراءه شعورهم القلق بأنهم كانوا ضحية سوء تصرف القيادة وتدبيرها، وأنهم ليس لهم شيء من الرأي والتدبير، وأنهم لو كانوا هم الذين يديرون المعركة تحت تدبيرهم، لم يخرجوا، ولم يموتوا ويجرحوا. وأجيبوا عن قولهم بتقرير الحقيقة المطلقة، التي حُجبوا عنها بسبب إيمانهم المزعزع: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ فما كانوا في نجوة من الهزيمة والقرح لو كان لهم من الأمر من شيء؛ لأن أمر هذا الدين، والجهاد لإقامته، وإرساء دعائمه، وشرح القلوب به... كلها من أمر الله، وليس للبشر فيها من شيء إلا أن ينهضوا بالتكاليف، ويطيعوا الأوامر، ثم يحيلوا النتائج والعواقب إلى أمر الله ومشيئته وقدره.

واستنادا إلى هذه الحقيقة القدرية، يكشف الله سبحانه المخبوء في مكنونات ضمائرهم؛ ليشعرهم بحضور جلاله معهم، وسمعه وعلمه بكل ما كان وما دار بينهم: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ﴾ يخفون من ظنونهم ووساوسهم قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ﴾؛ أي: لو كان الشأن إلينا وتدبير المعركة موكول إلى تقديرنا، لم نخرج ولم يقتل أحد منا. وبهذا القول الجاهلي أسندوا ما أصابهم من قتل وجرح إلى الأسباب الزائفة التافهة، ظنا منهم أنهم مالكون لأنفسهم، مدبرون لأمرهم، مقدرون لمصيرهم؛ ولا عجب في هذا الغبش في التصور، فهم لم يروا بقلوبهم المريضة أن أمر الله وراء القتل والجراح، وأن الحكمة منه التمحيص والابتلاء، وأن ما كتب بقلم القدر لا محيد عنه ولا مناص. وأن الإيمان بكل ذلك أهدى من وساوسهم وأروح لقلوبهم.

ومن أجل تصحيح تصورهم الخاطئ، يقول الله لهم، مبينا حقيقة أمر الله في أجل العباد، والحكمة الكامنة وراء الابتلاء: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ

---

(١) يراجع تفصيل ذلك، ضمن وقائع المعركة قبيل نشوبها، في تفسير الظلال: ٢/٥٣ - ٥٤.

وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[(١)].

فالقتل الذي عليه يتحسرون ويتلاومون مأمور به بأمر الله، ومقضي بقضائه[(٢)]؛ فلا يرده تدبير، ولا يمنعه تصرف، ولا يعيقه خروج أو قعود، فهو قدر الله وتتراءى منه حكمته.

وفي ضوء ما تقدم يتبين:

أن الهزيمة التي نُكب بها المسلمون يوم أحد مرادة لله تعالى، ومدبرة بأمره؛ كالنصر سواء، وذلك طبقا لسنته في معاملة خلقه بناء على اختيارهم، فحيث وُجدت في قلوب المؤمنين حقيقة الإيمان والإخلاص والتوكل، واليقين بنصر الله، والعزم على طاعته؛ كان لهم النصر الساحق في أوائل المعركة، تحقيقاً لوعد الله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[(٣)]، وإظهارا لحكمته: ليميز الخبيث من الطيب في خلقه، وليقرر ألوهيته في أرضه.

وحيث وُجدت غريزة الطمع في نفوس المسلمين، وطغت على الرغبة في الطاعة، والثبات على الحق؛ وحيث تنازع المسلمون أمرهم بينهم بسبب ذلك الطمع، وعصوا أمر رسولهم، ولم ينصتوا إلى قول الله عز وجل وهو يتوعد الذين يخالفون عن أمره أشد وعيد: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(٤)]؛ نزع الله رهبتهم من قلوب أعدائهم، وأغرى بهم هؤلاء الأعداء، يسومونهم سوء القتل والجراح بإذنه، جزاء وفاقا على اختلافهم ومخالفتهم، فخارت قواهم، وولوا الأدبار، وهُزموا شر هزيمة... وقع بهم ما وقع وهم المسلمون، تحقيقا لسنة الله التي لا تتخلف، والتي قررتها مشيئة الله المطلقة، كما قال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم

---

(١) آل عمران/١٥٤.
(٢) كما تم إيضاحه في بحث الإماتة: ص٣٣٠.
(٣) المجادلة من الآية: ٢١.
(٤) النور/٦٣.

مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ . . .﴾[1]. فلا يستغرب المسلمون بعد هذا البيان الإلهي أن يهزموا يومذاك وهم المنصورون ببدر، وبأحد في أول الأمر، والمؤيدون بالمعجزات؛ ذلك بأن ما أصابهم من الهزيمة والخذلان إنما هو ثمرة مريرة لكسبهم، والله سبحانه أوقعه بأمره وأجرى أسبابه على مقتضى إرادته؛ ليربيهم - وهم في مطالع خطواتهم لقيادة البشرية - بالابتلاء؛ الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب، كما قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾[2]؛ أي: ليُظهر في واقع الناس، من وراء القتل والجراح، تلك الأصناف السامية من الهداة بأمره، وليستشهدهم بشهادتهم في سبيله على الحق الذي بعث به للناس، وقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾[3]، وقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾[4]، ليمحص الصف المسلم الناشئ هذا التمحيص الذي يتكشف عن مؤمنين ثابتين صابرين؛ إذ يقولون: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ و﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[5]، وعن منافقين ضانين بالله غير الحق، وجاهلين بحقيقة قدره وأمره؛ إذ يقولون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ ويقولون إن أصابت المسلمين مصيبة: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾...[6] يقولون ذلك وهم يحسبون أن ربهم أراد بهم شرا، ولم يرد بهم رشدا.

وبهذا التمحيص، علم المسلمون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه، وعرفوا من أين جاءتهم الهزيمة، وتقوموا، وخلصت صفوفهم من الدخل،

---

(١) آل عمران/١٦٥ ـ ١٦٦.
(٢) آل عمران من الآية: ١٤٠.
(٣) آل عمران من الآية: ١٦٦ ـ ١٦٧.
(٤) آل عمران/١٤١.
(٥) التوبة من الآية: ٥١.
(٦) التوبة من الآية: ٥٠.

واستخلصوا لقيادة البشرية تلك النوعية السامية من المؤمنين، الذين انقادوا للأوامر الإلهية وراعوا السنن الربانية، ووازنوا بينها وبين طلاقة المشيئة الإلهية، ونظروا إلى القدر في النصر والنعم الصادرة عنه؛ فشكروا ربهم بدل الغرور، ودعوه بلسان الفقر بدل الفخر، ورأوا القدر في الهزيمة والمصائب النازلة بهم؛ فصبروا على البلاء، وحمَّلوا النفس الأمارة بالسوء مسؤولية السيئات، وطلبوا العفو من رب الناس، قبل طلب الثبات والنصر على الأعداء، كما فعل أتباع الأنبياء، وأعادوا سبيكة أنفسهم كلما أصابهم القرح، وربوا ضمائرهم، وصححوا تصوراتهم، واستعلوا على ضعفهم؛ ليؤدوا دورهم المقدر لهم في هذه الأرض، وهو دفع الباطل بالحق، ولينالوا الفوز والثواب الأبدي الذي ينتظرهم في بشرى القرآن الكريم: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

* تدبير الأمور الشخصية:

يسطر القدر الإلهي على جبين الإنسان أوامره التكوينية لتيسير أموره كلها، حتى أخصها به، وأدقها وأخفاها، مما يملك فيه زمام الاختيار في ظاهر الحال؛ كالمباشرة والزواج والطلاق والرجعة... ومن الحتمي أن هذه الأمور الشخصية لا تتيسر بحكم تلكم الأوامر القدرية، ولا يتقدر إمداد الإنسان بأسبابها، ولا تترتب الحكم والمصالح على إجرائها وفقا لسنة الله؛ إلا إذا صحت من الإنسان النية، وصدق منه العزم على امتثال أوامرالله التكليفية والتكوينية على حد سواء. ولبيان هذه الحقيقة بوضوح، أسوق الآيات التالية:

يقول جل شأنه في سياق الكلام على حكم مباشرة النساء في المحيض: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾[٢]؛ أي: من

(١) الأعراف من الآية: ١٢٨.

(٢) البقرة/٢٢٢.

المأتى الذي جُبلت النفوس على الميل إليه، ومضت سنة الله بحفظ النوع به، وهو موضع النسل[١]. فالمباشرة المشروعة وإتيان المرأة في منبت الإخصاب، وفي حالة الطهر، ابتغاء النسل من أعظم القرَب والطاعات، وذلك يناسب ما شرعه الله من أفعال جبلية، بدساتير قدره التي أجراها في خلق الإنسان وحفظ نوعه؛ بل وفي خلق الأشياء كلها في الكون[٢]. ومن ثم، فإن إطاعة الإنسان لهذا الأمر في الآية إطاعة لأمر شرعي وتكويني مجتمعين، وعصيانه مع القدرة على إطاعته، وعدم المانع، مخالفة لشريعة الله وناموس الفطرة البشرية. وبهذه الطاعة وعدم العصيان فقط، تتيسر مباشرة الزوج لزوجته، وتنضبط علاقته الغريزية بها، بحدود تنأى بها عن الأذى، وترفعها عن مستوى الحيوان؛ فيترتب عن هذه المباشرة طهارة وإنسال ونماء.

ويقول سبحانه في سياق تشريع نكاح الرسول من مطلقة دعيه زيد: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾[٣]. فقررت الآية أن هذا النكاح مباح وجار على سنة الأنبياء، من غير حرج ومشقة، وأنه معقود بأمر الله، مدبر بتدبيره، محقق الوقوع في علمه ـ كما بينت بالتفصيل مراراً ـ ومن ثم لم يكن بد من نفاذه بتقدير أسبابه[٤]، وإجرائها وفق الحكمة الشرعية التي

---

(١) تفسير المراغي: ٣١٨/١، وكذلك في ظلال القرآن: ٣٥٣/١، وتفسير القرآن بالقرآن: ٢٥٣/١. وهذا المعنى اللطيف للآية لا تجده وارداً عند المفسرين الأوائل؛ إذ لا يتعدى المتناقل عنهم في الآية: إتيان المرأة في منبت الإخصاب، وفي حالة الطهر: (يراجع مثلاً: قول الطبري في الجامع: ٣٨٩/٢/٢: «فأتوهن من قبل طهرهن» وكذلك قول أبي حيان في البحر: ٤٢٥/٢: «حيث: ظرف مكان، فالمعنى: من الجهة التي أمر الله تعالى، وهو القبل، لأنه هو المنهي عنه في حالة الحيض».

(٢) سيأتي الحديث عن هذه المناسبة ضمن الكلام على علاقة الدين والفطرة في المبحث التالي.

(٣) الأحزاب/٣٨.

(٤) تراجع ضمن الكلام في علاقة أمر الله وسنته في مبحث الضمائم.

أرادها الله، وهي تحريم عادة التبني الجاهلية، كما قال في التي قبلها: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾[1]. وقد انقاد الرسول لهذا الأمر الشرعي القدري مضطرا، وما كان ذلك برغبة من نفسه. وأثمر هذا الانقياد من النبي - ﷺ - مصلحة شرعية شاملة للمسلمين جميعاً، شكلت برهاناً ساطعاً على عناية الله بالإنسان، وتدبيره لأموره، وتقويمه لتصوراته وتقاليده!

ويقول تعالى بمناسبة أحكام الطلاق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾[2]، فهذه الآية تأمر بتأقيت الطلاق، وبإحصاء العدة، وببقاء المطلقات في بيوتهن، وتقرر أن وراء امتثال هذه الأوامر، وتقوى الله ومراقبته فيها، أمر الله المحيط بكل شيء، ومشيئته الفاعلة في نفس الإنسان، المغيرة لأوضاعه، الميسرة لأحواله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾؛ ذلك أن أمر الله قد ينشئ بعد الطلاق رجعة بين الزوجين، بما يخلقه الله من الأسباب والملابسات التي تفتح باب الرجاء على مصراعيه أمام الزوجين لينعما بظلال الأمن والاستقرار بعد هم الفراق، ومن تلك الأسباب ما ذكره المفسرون من تقليب القلوب من بغض إلى محبة، ومن غضب إلى رضى، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه، ومن الرغبة عن الرجعة إلى الرغبة فيها[3].

ولعل هذا التيسير الرباني في أمر الطلاق، هو الذي تضمنه الإجمال في قوله تعالى، عقب تحديد مدة العدة لغير ذوات الحيض والحمل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[4] فتقوى الله، والتسليم لأمره، وعدم

---

(١) الأحزاب/٣٧.

(٢) الطلاق/١.

(٣) انظر التحرير: ٣٠٦/٢٨ والكشاف: ١١٩/٤ والجامع للأحكام: ١٥٧/١٨.

(٤) الطلاق من الآية: ٤.

الانشغال بما يخصه من تقدير وتدبير لشؤون الطلاق، وكل شؤون الحياة سبب مكين لتسهيل أمور العبد، ومن ذلك «أن يسهل عليه فراق أهله، ويزيل الهموم عن قلبه، أو يسهل عليه مراجعتها ما دامت في عدتها، وإن انقضت عدتها ثم دعته نفسه إليها قدر على خطبتها»[1].

ومما يبين أن أحكام الطلاق من أمر الله وقدره، قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾. جعل الله من سننه الثابتة وقدره المحيط بكل شيء، في تناسق وتوازن، أن يقدر كل شيء بمقداره وزمانه ومكانه ونتائجه وأسبابه، ومن ذلك تقدير الطلاق وميقاته، والعدة وفترتها، والشهادة وإقامتها، ووراء هذا التقدير تتحقق حكمة الله المدبرة التي يجري كل شيء في نطاقها...

وهذا التصور الإيماني لحقيقة قدر الله ينشئ في الضمير التوكل على الله تعالى، الفعال لما يريد، البالغ ما يشاء، والتسليم لأمره وحده، والرعاية لتقديره وحده. وبغير التحقق بذلك، لن يجد العبد مخرجاً من ضيق، ولا يسراً بعد عسر، ولا رغبة في ارتجاع بعد فراق!

من دلالات هذا التدبير:

وانسجاما مع ما تقدم، فإن تدبير أمور الإنسان ـ ابتداء من إيجاده، وإيجاد الكون لأجله، إلى تصريف أدق أمور حياته ـ يدل دلالة قاطعة على أمرين:

أولهما: منزلة الإنسان لدى ربوبيته سبحانه؛ بحيث يُفهم أنه في أعلى مرتبة من مراتب الكائنات، حتى أنه يمثل عموداً سانداً لها جميعاً، ويجسد بهذا مظهراً كاملاً من مظاهر تَجلي اسم «**القيوم**». وذلك لأنه يمكن أن يدرك

---

(١) مجمع البيان: ٣٠٧/١٠ وجامع البيان: ١٤٤/٢٨/١٤.

جميع الأسماء الإلهية الحسنى، ويتذوقها، ويقدم آلاء الشكر والحمد إزاءها، بما أودع الله فيه من مزايا وخصائص جامعة...

ثانيهما: أن أمور الإنسان جميعاً تجري تحت نظر رحمته سبحانه، وضمن دائرة تدبيره وقدره وإرادته، فليس شيء منها خارجاً على أمره وقدره، أو مخالفاً لنواميسه ومناهضاً لسننه السارية في كل شيء، كما يتصور أهل الغفلة من علماء الكلام الذين يقطعون الصلة النابضة القائمة بين أمر الله وإرادته المطلقة، وإرادة الإنسان الجزئية وفاعليته المحدودة... كلا. ليس الأمر هكذا في التصور الإيماني الصحيح، «فالإنسان ليس نداً لله، ولا عدواً له كذلك. والله ـ سبحانه ـ حين وهب الإنسان كينونته وفكره وإرادته وتقديره وتدبيره وفاعليته في الأرض، لم يجعل شيئاً من هذا كله متعارضاً مع سنته ـ سبحانه ـ، ولا مناهضاً لمشيئته، ولا مخالفاً لأمره، ولا خارجاً كذلك عن الحكمة الأخيرة وراء قدره في هذا الكون الكبير... ولكن جعل من سنته وأمره وقدره أن يقدر الإنسان ويدبر؛ وأن يتحرك ويؤثر؛ وأن يتعرض لسنة الله فتنطبق عليه؛ وأن يلقى جزاء هذا التعرض كاملاً من لذة وألم، وراحة وتعب، وهدى وضلال، وهزيمة ونصر، ويسر وعسر، وسعادة وشقاوة...؛ وأن يتحقق من وراء هذا التعرض ونتيجته قدر الله المحيط بكل شيء في تناسق وتوازن»[1].

وعلى أساس هذا التصور الشامل للأمر الإلهي النافذ، والإرادة الجزئية الإنسانية؛ يتحمل الإنسان مسؤولية الحسنات والسيئات، مستنداً إلى إيمانه واختياره الجزئي. ومن ثم يتعرض لقضاء الله العادل بالنجاة والإهلاك في الدنيا، والثواب والعقاب في الآخرة، وفقا لأمر الله ومشيئته المتجلية في سننه الثابتة والمتعلقة باستعداد الإنسان واختياره. وهذا التجلي للإرادة والأمر التكويني ستعكسه الدراسة في الصحائف الآتية.

---

(١) في الظلال: ٢/١٤٠.

١. ٣ ـ في مجال القضاء

تكميلا لما سبق من كلام على لفظ القضاء في مواضع بهذا البحث[١]، نسلط على هذا اللفظ ما يليق به ههنا من أضواء كاشفة لمفاهيمه اللغوية والاصطلاحية القرآنية، بوصفه مصطلحاً اقترن بالأمر، على إطلاقه، وألقى عليه ظلاله الحاسمة القاطعة، وبوصفه مفهوماً ارتبط مع أمر الله بوشائج قربى معنوية قوية، مما يجسد نقطة استناد نرتب عليها الكلام في تجليات الأمر الإلهي التكويني، في مجال القضاء بالأحكام الجزائية الدنيوية، بناء على كسب الناس واختياراتهم الابتلائية.

١. ٣. ١ ـ مفهوم القضاء

تدور مادة (قضى) في المعاجم ـ كما مضى[٢] ـ حول معاني «**الإتمام**» و«**الإحكام**» و«**الفصل**»، ومن هذه المعاني اللغوية، التي يتناهى بعضها إلى بعض، استُعمل القضاء في القرآن الكريم[٣] بثلاثة معان:

* **أولها: الفصل بين الخصوم بالحق في الدنيا والآخرة**؛ وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٨﴾[٤] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٥].

---

(١) راجعه في مبحثي: التعريف، ٧٣ ـ ٧٤ والصفات، ص ١٢٦.

(٢) انظر ص ١٢٧ ـ ١٢٨ من هذا البحث.

(٣) جاء القضاء في القرآن الكريم ثلاثا وستين مرة، كلها بلا استثناء بصيغة الفعل، الماضي أو المضارع أو الأمر؛ كقوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾: البقرة من الآية ١١٦، وقوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾: عبس/٢٣، وقوله: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾: طه من الآية ٧١ ولعل سر هذا الورود الفعلي يعود إلى أن البيان القرآني لا يعرف القضاء إلا فعلاً يُنفذ وعملاً يُبرم. ومن ثم نجد فعل القضاء مسندا إلى الخالق والمخلوق، دلالة على أنه لا يصدر إلا من ذي إرادة وقدرة يتجه إلى إنفاذ المراد وإمضائه.

(٤) الأنعام/٥٨.

(٥) يونس من الآية ٩٣.

* ثانيها: **الحكم التكليفي**، والقضاء بهذا المعنى يرادف الأمر التكليفي والإرادة الشرعية؛ وذلك لما فيه من معنى الإبلاغ والإيحاء، كما في قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[(١)] وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[(٢)] وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾...[(٣)].

ثالثها: الحكم التكويني، وهذا المفهوم للقضاء مرادف لمعنى الأمر التكويني، الذي لا مرد له؛ فما قضى الله أو أمر بشيء إلا وقع وتحقق، ودليله قوله تعالى قوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[(٤)]، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾[(٥)]، وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[(٦)].

فهذا القضاء[(٧)] يُظهر بجلاء العلم المطلق، والحكمة العظيمة، والإرادة

---

(١) الحجر/٦٦.

(٢) القصص من الآية ٤٤.

(٣) الأحزاب/٣٦.

(٤) هود/٤٤.

(٥) البقرة من الآية: ١١٧.

(٦) مريم/٢١.

(٧) وهو الذي تمخض النزاع فيه بين المتكلمين عن مشكلة «القضاء والقدر»، أو «الجبر والاختيار»؛ فقالت «القدرية» بالجبر المطلق، وأن ليس للإنسان من الأمر شيء، وإنما هو مسير بقضاء الله وقدره وساقوا أدلتهم، من مثل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: المدثر من الآية: ٣١، وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾: الأنفال من الآية: ١٧. ورفضت «المعتزلة» هذه الجبرية؛ لأنها تلغي الكسب، وتنفي حكمة التكليف والمسؤولية، وتتهم العدالة الإلهية، وذهبوا إلى القول بالاختيار المطلق. وتلوا من الآيات الشاهدة على هذا القول، آية المؤمنون: ٦٢: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾، وكذا آية الجاثية: ٢٢ ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وبين الطرفين المتقابلين، وقفت الأشعرية موقفاً وسطاً، فقالت: إن للإنسان كسباً يثاب عليه ويعاقب عليه، والإنسان وكسبه مخلوقان لله تعالى. ولا وجه عندهم للكلام في عدل الله؛ لأنه سبحانه يفعل ما=

المطلقة في الوجود الجبري، الكوني والإنساني؛ ذلك بأن الله تعالى قضى ما أراد، وأمر بما أراد، وقدر ما شاء وما يكون، من حركات الأجرام، وماهيات الكائنات، وخصائص الأشياء، ومن خلق العباد، على ما هم عليه من صفات وحاجات، وخلق ما يصدر منهم من أفعال، ويقع بهم من أقدار، وما هم صائرون إليه من سعادة أو شقاء.

وبملحظ من معاني القضاء التكوينية، وما تستصحبه من دلالات الحكم والفصل والإنهاء، وبجلوة من تجليات الإرادة الإلهية النافذة المرتبطة بقضاء الله وقدره وأمره، والمتعلقة بالخلق والجزاء، كما تبين من مفهومها المتقدم في مبحث العلاقات[1]، نعرض أحكام الرب الخالق الآمر وآثار كلماته الكونية في مجال القضاء بالأحكام الجزائية؛ أي قضاء الله سبحانه عن حكمة وتدبير بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين.

١. ٣. ٢ ـ القضاء بهلاك الكافرين

صرح القرآن الكريم في «**تكرار بليغ**»، أن هلاك الظالمين من السالفين

= يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون... والواقع أن هذا النزاع بين الأطراف المتقابلة ما كان ليكون، لو لم يتسرب إلى عقول المسلمين منطق اليونان والرومان، عبر منافذ الترجمة، ولو لم يبحث كل فريق من علماء الكلام مفهوم القضاء والقدر على أساس مفهومه الدخيل، ولم يلبسوه غير لباسه الديني، ولم يعبروا عنه بغير معانيه الأصيلة الكامنة في نصوص اللغة والوحي...، جرياً وراء الاستدلالات المتمحلة والآراء المتكلفة.

ولعل مقطع الحق في هذه القضية أن المؤمنين مأمورون بالإيمان بقضاء الله وقدره، على مراد ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله عليه السلام، من غير تكلف أو تمحل. فالقضاء هو علم الله بما سيجرى في كونه من أحداث مختلفة، والعلم صفة كاشفة وليست مؤثرة. فهي لا تجبر الإنسان على شيء، ولا تسلبه إرادته التي خلقها الله في كيانه تبعاً لمشيئته. والقدر هو وقوع الأشياء والأفعال والذوات والصفات، في الزمان والمكان، مطابقة لعلمه، وحسب مشيئته... فالله خالق كل شيء، وهو على كل شيء قدير... فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذا هو طريق المؤمنين.

(١) انظر مطلب: علاقة الإرادة والأمر.

تحقق بأمر الله، ونفذ بقضائه، في مثل خبره سبحانه عن حادث الطوفان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[١]، وأوضح سبحانه أنه يخلق كل شيء بقدر محدد وبأمر واحد، في لمح البصر؛حيث قال في آيتي القمر: ٤٩ ـ ٥٠، في سياق بيان القدرة الكاملة على الخلق: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾، ثم قال في الآية التالية، مذكرا التالين بمصير السالفين: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾[٢]، فهذا الاقتران بين الخلق والأمر والإهلاك يشير إلى أن عذاب الله الذي أصاب الأقوام في الأزمنة الغابرة كلام حق تحقق بمجرد توجه مشيئته الطليقة إلى خلقه، بدليل شمول لفظ «شيء» للعذاب الوارد في السياق، وفي عموم قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[٣].

وتأسيساً على هذه الحقيقة الأمرية الكونية للهلاك، نعرض قصص هلاك الماضين من أهل القرى الكافرة، متبعين خط سير التاريخ في سياق آيات هود، المثقل بالتهديد والوعيد، والباعث على الطمأنينة والتسليم[٤]؛ نعرض هذه القصص في مرآة القرآن، عالماً عجيباً حياً من الكائنات والأرض والسماء والعناصر، التي تتلقى الأوامر وتستجيب للأحكام، وتتميز من الغيظ

---

(١) هود من الآيتين: ٤٠، ٤٤.

(٢) القمر/٥١.

(٣) النحل/٤٠.

(٤) وهذا التهديد وذلك التطمين يناسبان جو الفترة العصيبة التي نزلت فيها سورة هود، وهي من أشق الفترات في تاريخ الدعوة بمكة؛ فقد سبقتها وفاة أبي طالب، وخديجة، وحادث الإسراء، وجرأة المشركين على رسول الله ﷺ، وتوقف حركة الدعوة تقريبا، وعناد الأكثرية الغالبة في مكة وما حولها من القبائل: (يراجع ما جاء عن هذه الفترة في تهذيب سيرة ابن هشام، من ص: ٨١ إلى ص: ٩٦، وسيرة ابن إسحاق/٢٢٣ ـ ٢٢٧). وأمام تتابع هذه الأحداث الجسام على فؤاد النبي ﷺ، وفقدانه ﷺ من كان له عضدا في أمره، وناصرا على قومه؛ نزلت سورة هود ويونس قبلها، تواسي النبي وتثبت قلبه بركب الأنبياء المألوف، وتوجهه ليتحرك في موكب الدعوة الكريم، ويواجه قريش مواجهة واقعية بهذا القصص القرآني الهادف إلى كسر شوكتها وعنادها.

على أهل الطغيان؛ كما نعرضها صحيفة حية مشهودة، تطفح عبراً ودروساً؛ يوقع فيها سبحانه سطور حكمته ومعجزات قدرته، وينزل بأعداء الرسالات صفعات ربوبيته.

وهكذا نبدأ بأول قصص الهلاك في التاريخ؛ قصة إغراق قوم نوح بالطوفان، ويتصدر مشاهد القصة مشهد تحدي نوح الصريح لقومه، وتوكله على ربه، وثقته بإنجاز وعده بهلاك قومه، بعد أن أكثروا جداله، واستهانوا بإنذاره، وأصروا على الكفر؛ حيث يقول عليه السلام، على ما حكاه الله عنه، في آية يونس: ٧١ ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾[1].

ويتلقى نوح وحي ربه، كما جاء في آيتي هود: ٣٦ - ٣٧ ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ ويصنع نوح السفينة، استعداداً لأمر الله؛ حتى إذا جاء وقت الوعد الموعود،

---

(١) ورد الأمر الأول في هذه الآية، بمعنى: وجوه كيدهم ومكرهم أو شأنهم من قصد إهلاك نوح وأذاه، وترددهم في وسائله: (انظر مفاتيح الغيب: ١٤٤/١٧/٩، والبحر: ٨٨/٦ وروح المعاني: ٢٣١/١١/٧، والكشاف: ٢٤٥/٢ والتحرير: ٢٣٨/١١) وأظهر الأمر الثاني في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ مع أنه عين الذي في الأمر الأول؛ لزيادة التقرير، ولكون هذا التركيب مما جرى مجرى المثل، فيقتضي أن لا تُغير ألفاظه: (راجع: روح المعاني، والتحرير، والكشاف: بنفس الأجزاء والصفحات) وقيل: أُظهر؛ لأن المراد به مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم، المكروهة لديهم، لا الأمر الأول: (روح المعاني، والكشاف، والبحر: نفس الأجزاء والصفحات). والظاهر أنه أريد بالأمر الأول ما أريد بالثاني، وإنما ذكر بعده، وعطف عليه «بثم» الدالة على تأخره عنه في الرتبة للمبالغة والتأكيد، فإن المبالغة في أمر التعجيز بإجماع الأمر، المفيد لقلة مبالاته عليه السلام بما يهيؤونه له من الأذى؛ اقتضت أن يؤكد بنهي أمرهم عن أن يكون مستوراً عليهم، لقطع ترددهم في تبين الوصول إلى قصدهم، حتى أن شأنهم هو المنهي عن أن يكون التباساً عليهم؛ أي: اجتهدوا أن لا يكون ذلك: (انظر: تفسير المنار: ٤٦١/١١، والتحرير: ٢٣٩/١١).

صدر الأمر الإلهي بنزول العذاب، كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾(١)، فار منه الماء أمارة لنوح على مجيء الأمر وبدء نفاذه، كي يسارع إلى حمل بذور الحياة والصلاح من الحيوان والطيور والنبات والإنسان في السفينة، كما أمره الله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾...(٢).

وفي مشهد رهيب يبرز الطبيعة حية هائجة، يجتمع الماء المتفجر من الأرض، والماء المنهمر من السماء، امتثالا لأمر العزيز القهار، ثم يهجم في ضراوة على قوم نوح، بمقادير حكيمة دقيقة، لإغراق كل من سبق عليه القول منهم، جزاء على تكذيبهم بآيات الله؛ كما قال تعالى، معرفا بأفعال قدره وقدرته: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾(٣).

وفي مشهد آخر مريع، يرسم السفينة الجارية في ثبج الأمواج الطاغية، ما يمسكها إلا الرحمن بمشيئته وأمره وقدرته: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾(٤)؛ يجري الحوار بين الأب الملهوف والابن المغرور: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾(٥)، فذهل الإبن العاق عن حقيقة الأمر بشرك عبادة الأسباب والأوثان؛ إذ رأى أن الهلاك من الماء وكان من الله، ورأى النجاة والعصمة من الجبل، وهما من الله، فقال له نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾(٦)، أي: لا مانع اليوم من الهلاك إلا من قدّر الله له النجاة برحمته؛ فإن أمر الله لا يغالَب، وبأسه لا يُرد؛ كما قال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ

(١) هود من الآية: ٤٠. وانظر معها: المؤمنون من الآية: ٢٧.
(٢) هود من الآية: ٤٠.
(٣) القمر/١١ ـ ١٢.
(٤) هود من الآية: ٤٢.
(٥) هود من الآيتين: ٤٢ ـ ٤٣.
(٦) هود/٤٣.

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[١]. وغرق الإبن العاق مع الغارقين، فلا قرابة أبيه الرسول نفعته، ولا نصيحته نجته.

وفي مشهد آخر مستقر، يصور هدوء العاصفة بعد الفراغ من أمر إهلاكهم؛ يتوجه الأمر العلوي إلى الأرض والسماء بصيغة البناء للمفعول: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾[٢].

إن هذه الأوامر التكوينية النافذة لا يمكن مقايستها ـ قطعا ـ بالأوامر الناشئة من فضول الإنسان العاجز، والنابعة من رغباته وأمانيه؛ إذ هي أوامر حقيقية تتضمن القوة والإرادة والعظمة والكبرياء. ومن ثم لا يمكن أن تصدر إلا من ذي تقرير حاسم لا يدافع، ومن ذي قدرة لا يكتنه، قهار لا يغالب، فلا مجال ـ إذن ـ إلى ذهاب الوهم إلى أن يكون غيره، جلت قدرته، قائلا: (يا أرض) و(يا سماء)، ومهيمنا على عملهما.

وإن هذه الأوامر الحقيقية لم تصدر لتحاسب هذه المخلوقات الضخمة على تبعة ما أتلفت وأهلكت، بما أرسلت أو فجرت من ماء؛ وإنما صدرت لتجعل من هذه المخلوقات المسخرة أداة لمشيئة الله في إنهاء قضائه العادل بهلاك الكافرين، وإنجاز وعده الصادق بنجاة المؤمنين واستخلافهم في الأرض.

ولقد استجابت الأرض والسماء لأمر خالقها، فبلعت الأرض الماء، وأقلعت السماء عن إرساله، ونفذ القضاء؛ كما قال: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[٣] واستقرت السفينة على الجودي، وتحقق وعد الله ووعيده، وتأولت بشراه ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤].

ودارت عجلة الزمن، وجاءت من ذرية نوح أقوام انحرفوا عن ملة

---

(١) يوسف من الآية: ١١٠.
(٢) هود من الآية: ٤٤.
(٣) هود من الآية: ٤٤.
(٤) هود من الآية: ٤٩.

الإسلام، واعتنقوا دين الشرك، وكانت منهم عاد، قوم هود[١]، البطاشون، المتكبرون[٢]، الذين: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[٣] فحقت عليهم كلمة العذاب، وجاءهم أمر الله؛ كما نطقت به آية هود: ٥٨ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، وأوضحته آية فصلت ١٦: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾. وقد وصف تعالى هذه الريح، وحدد مدة عصفها، في آيتي الحاقة: ٦ ـ ٧: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ وبين تعالى أنه أرسلها بقدرها، وسخرها بأمر ربها في التدمير، كما قال في آية الأحقاف: ٢٥ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ وأطاعت هذه الريح أمر ربها، فعصفت بقوم عاد وصرعتهم كأصول نخل نخرة، كما قال: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾[٤].

وجاء من بعد عاد ثمود قوم صالح[٥]، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويتخذون من السهول قصورا[٦]، وكانت لهم ناقة جعلها الله لهم آية، وأمرهم أن لا يمسوها بسوء، كما قال على لسان صالح: ... ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٧]. فكفروا بآلاء الله وآياته، وأطاعوا أمر المسرفين، وخالفوا نهي رسول الله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾[٨]. فعقروا الناقة وعتوا عن أمر

---

(١) وكانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت.

(٢) كما أخبر الله عنهم في آية الشعراء: ١٣٠ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾، وفي آية القصص: ١٥ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

(٣) هود/٥٩.

(٤) الحاقة من الآية: ٧ ـ ٨.

(٥) وكانت منازلهم في طريق أهل مكة إلى الشام في رحلتهم، فهم يرونها: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾: النمل من الآية: ٥٤.

(٦) بصريح آية الأعراف: ٧٣ ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾....

(٧) الأعراف من الآية: ٧٣ ومعها هود/٦٣.

(٨) الشعراء/١٥١.

ربهم؛ كما قال: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾[1] فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾[2]، ولم يتأخر العذاب عن أيام المتاع الأخيرة، وتكرر الأمر الواحد، في الجملة الواحدة، وفي القصة الواحدة: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾[3]، وبين سبحانه هذا الأمر الذي جاء بقوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾[4]. والصيحة هي صاعقة عظيمة خارقة للعادة؛ إذ أتت على قبيلة كاملة وهم أصحاب الحجر[5]. ولذلك بين تعالى أنه أوجدها بسرعة مطلقة، بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾[6]، وعبر عنها بالطاغية[7]، وبالرجفة[8]، وهي أوصاف توحي بقوة العذاب وسرعته، وتتسق مع وصفه تعالى «**بالقوي العزيز**»[9].

وجاء من بعد ثمود قوم لوط[10]، وكانوا ـ مع الشرك ـ يأتون الرجال ويذرون النساء[11]، فأرسل الله ملائكته إلى خليله إبراهيم، يزفون إليه البشرى بإسحاق بعد الإياس، وينهون إليه قضاء الله بهلاك قوم لوط،

---

(١) الأعراف/٧٧ وانظر معها الذاريات/٤٤.

(٢) هود/٦٥.

(٣) هود من الآية: ٦٦.

(٤) هود/٦٧.

(٥) التحرير: ١٣/٢٧/٢٠٢.

(٦) القمر/٣١.

(٧) الحاقة/٥.

(٨) الأعراف/٧٧.

(٩) هود من الآية: ٦٦.

(١٠) وكانوا في مدن الأردن: عمورية وسدوم. وكان العرب يمرون عليهم في طريقهم إلى الشام، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾: الصافات/١٣٧ ـ ١٣٨.

(١١) كما أخبر الله عنهم بلسان لوط، في آية الأعراف: ٨٠ ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾، وانظر معها: الشعراء/١٦٥ ـ ١٦٦.

ويقطعون مجادلته لهم في مصيرهم بقولهم ـ على ما حكاه الله عنهم ـ: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾[1]، وجاءهم العذاب متناسقاً مع أمره النافذ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾[2]. فبين تعالى أنه أمر الأرض والسماء باستئصال شأفة القوم المسرفين؛ فتحركت الأرض بخسف عظيم يشبه فطرة قوم لوط المنكوسة، وألقت بهم إلى أسفل سافلين، وأطلقت السماء عليهم من قبتها المهيبة وابلا من الحجارة المسومة عند رب العالمين.

وجاء من بعد قوم لوط أهل مدين[3]، قوم شعيب، وكانوا ـ مع الشرك ـ يبخسون المكيال والميزان، ويعيثون في الأرض الفساد[4]، ويعرضون عن نصح شعيب، ويسخرون من دعوته[5]. فجاءهم أمر الله بإنزال العذاب الفاصل بينهم وبينه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾[6] فكان هلاكهم سريعا كهلاك قوم عاد؛ إذ أصبحوا جاثمين على ركبهم، وصرعى بأفنيتهم، بمجرد توجه الأمر الإلهي الواحد إلى السماء بإرسال صواعقها المحرقة عليهم وعلى أموالهم، التي اكتسبوها بالظلم والعدوان.

---

(١) هود/٧٦.

(٢) هود من الآية: ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) وكانت بلادهم تقع في الطريق بين الحجاز والشام. وبسبب هذا الموقع التجاري الممتاز كانوا يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها، ويتحكموا في طرق القوافل، ويفرضوا ما يشاؤون من المعاملات المالية الجائرة، التي وصفها القرآن في أكثر من موضع.

(٤) يدل لذلك قوله تعالى، على لسان شعيب: ... ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾...: الأعراف من الآية: ٨٥.

(٥) كالذي جاء في قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾: هود/٨٧.

(٦) هود/٩٤. وعبر عن الصيحة بالرجفة في آية الأعراف/٩١ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾.

وجاء من بعدهم قوم فرعون، يعلون في الأرض بغير الحق، ويشيعون فيها الفساد، ويكذبون بآيات الله الواضحات، التي بُعث بها موسى، ويتبعون أمر فرعون، ويعصون أمر الله[١]، فحقت عليهم كلمة العذاب من رب العزة والكبرياء؛ إذ أمر سبحانه البحر بالإطباق على فرعون وجنوده، وإغراقهم في قاعه السحيق، كما قال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[٢].

وهكذا تتراءى للأنظار في آيات القرآن آثار الأوامر التكوينية النافذة، وهي شاخصة في المشاهد المخيفة لمصارع الأقوام البائدة، وفي غضب الكائنات المجندة في كتائب الاستئصال الرباني. ومن خلال هذه التجليات للكلمات الأمريات، تتطلع سنة الله الكلية إلى الانطلاق واستقطاب الأنظار للاعتبار. وذلك في مثل هذا التعقيب المباشر على قصص هود: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[٣]، وفي مثل آية الإسراء: ١٦ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾. وآيتي الطلاق: ٨ ـ ٩ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾...

فهذه الآيات وسواها تكشف لأعداء الرسالات وأوليائها سواء سنة ثابتة من سنن الله في الأمم؛ ترتبط فيها الأسباب بالمسببات، وهي أن الله يأخذ القرى حين يأخذها وهي ظالمة... ظالمة بكفرها وتكذيبها وسيئات أعمالها، يأخذها أخذا أليما شديدا لا مرد له، بعد الإمهال والإمتاع والابتلاء، وبعد الإعذار بالرسل والبينات، وبعد الإصرار على الكفر والعناد،

---

(١) كما حكى الله عنهم، في آية القصص: ٣٩ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾...، وآيتي هود: ٩٦ ـ ٩٧ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾.

(٢) الأعراف/١٣٦.

(٣) هود/١٠١ ـ ١٠٢.

وبعد الفسق والعتو عن أمر الله... وهذه السنة الحكيمة، التي مضت بهلاك المكذبين من السالفين، تطل من نافذة واسعة على التالين، في كل زمان، وبخاصة على المخاطبين بالقرآن من كفار عصر المبعث، ومنافقيه، وأهل كتابه، وتشير إليهم بأصابع الزجر والتهديد: أنها يمكن أن تمضي بهلاكهم العاجل؛ لأن شأنهم كشأن الذين من قبلهم في الظلم. يصرح بهذا القرآن الكريم في كثير من آياته؛ أمثال قوله تعالى معجباً من تعنت مشركي مكة، وعدم إدراكهم لسنة الله الثابتة، وعدم اعتبارهم بمصير المكذبين قبلهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[١]. وقوله، رداً على اقتراحهم إنزال الملك على رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾[٢]، وقوله ملقنا نبيه ﷺ ما يقطع به جدالهم في الآيات، واستعجالهم للعذاب: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾[٣]، وقوله مهددا المنافقين والعصاة بهلاكهم، جزاء نكوصهم عن الجهاد في سبيله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٤]، وقوله منذرا اليهود من قضاء الله فيهم بالطمس واللعنة إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله:

---

(١) النحل/٣٣.

(٢) الأنعام/٨.

(٣) الأنعام/٥٨.

(٤) التوبة/٢٤. ومما يدل على أن المخاطبين بالوعيد في الآية هم المنافقون أساسا، قوله تعالى في نفس السورة من الآية: ٥٢ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ فالمنافقون هم الذين اشتهروا بكراهتهم للجهاد وحبهم لأنفسهم وأموالهم، ثم يليهم في الوعيد: المؤمنون الذين قصروا في بعض الواجب أو المتوقع منهم ذلك، كما يوحي به اقتران الشرط بحرف الشك (إن): (يراجع: تفسير المنار: ٢٣٥/١٠، والتحرير: ١٥٢/١٠، وتفسير المراغي: ٤/١٠/٦٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾[(١)].

فهذه الأقوال الجليلة، التي تضمنت التهديدات المريعة للظالمين في عصر المبعث، تبرز أن سنة الله جارية في القضاء بهلاك المكذبين، وعدم إمهالهم بعد ظهور الآيات ـ كإنزال الملك ـ واستعجال العذاب، والإصرار على الكفر والعصيان، وإن كان قد أُنظر عنهم وعن غيرهم عذاب الاستئصال الذي قضى الله به على المكذبين قبلهم[(٢)]، مع بلوغهم درجة استحقاق الإدانة وعدم الإنظار، فلأمر شاءه الله في إنظارهم، ولكلمة سبقت من ربوبيته الحكيمة، وهي كلمة تأجيل الجزاء إلى يوم القيامة، كما قال تعالى عن سبق قضائه في عباده: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾[(٣)]، وقال مخاطباً نبيه ومحذراً قومه، عقب ذكر مصائر الأقوام البائدة، في الدنيا والآخرة: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾[(٤)]، وقال معجباً من المشركين: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا

---

(١) النساء/٤٧.

(٢) ومع هذا الإنظار عن عذاب الاستئصال، فقد نزلت بالمشركين وحلفائهم من المنافقين واليهود ألوان من العقاب الإلهي على اقتراحاتهم وشبهاتهم واعتراضاتهم، التي سجلها البيان القرآني؛ فكانت لهم بياناً وتهديداً، وللمؤمنين تصديقاً وتثبيتاً؛ وذلك مثل: عقاب القتل والأسر لمشركي مكة ببدر، وحنين، والطائف، والأحزاب. . .؛ وعقاب الجرح والقتل والقرح للمنافقين يوم أحد؛ وعقاب القتل والسبي لبني قريظة والجلاء لبني النضير. . . .

(٣) يونس/١٩.

(٤) هود/١٠٩ ـ ١١١.

كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾[(١)].

ولحكمة ما، سبقت هذه الكلمة الأمرية من رب العالمين، ولم يحل عذاب الاستئصال بالجاحدين للوحي وبعثة الرسول ﷺ؛ لأن لهم كتاباً، والذين لهم كتاب من أمم الرسل كلهم مؤجلون إلى يوم الحساب الأكبر[(٢)]؛ ذلك بأن الكتاب دليل هداية مستمر، تملك الأجيال أن تتدبره كالجيل الذي أُنزل فيه. والأمر ليس كذلك في الخوارق المادية، التي لا يعاينها إلا جيل، فإما أن يؤمن بها وإما أن يكذب بها، فيأخذه العذاب... والقرآن الكريم هو كتاب الهداية الأخير للناس جميعاً، إليه يدعى الناس جميعاً، وعلى أساسه يحاسَبون، بما فيهم النصارى واليهود، أهل التوراة والإنجيل. وقد كان حال فريق منهم من الشك الحقيقي برسالة محمد ﷺ، كحال فريق من مشركي العرب في زمن نزول القرآن، فاحتاجوا جميعا، بمقتضى الحكمة الربانية، إلى مدة إمهال لعلهم يطرحون عن عقولهم وقلوبهم الشك، ويصلون إلى الاطمئنان بصدق الرسالة، فيومنوا إيماناً خالصاً، ويتوبوا إلى ربهم توبة نصوحاً، ويصبحوا بإذنه غراس عقيدته وحملة شريعته.

وإذا كان العذاب قد أُجل بكلمة الله الكونية، فإن جميع المكذبين الذين لم يروا العذاب الأليم في الدنيا سيوفون حسابهم الكامل على أعمالهم في الآخرة. ومن هنا، أخبر القرآن الكريم في كثير من آياته، ضمن مشاهد منظورة على طريقته المأثورة في وصل مرحلتي العذاب الدنيوي والأخروي بلا فاصل في السياق؛ أن الله سبحانه الذي أخذ القرى بظلمها في هذه الحياة الدنيا، سيأخذها بذنوبها أخذا أشد وأبقى في الآخرة، كما قال بعد ذكر قصة أهل البستان: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾[(٣)]، وقال عقب ذكر مصائر الأقوام:

---

(١) الشورى/٢١.

(٢) يدل لذلك، عدا ما تقدم، قوله تعالى مخبرا عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾: الجاثية/١٦ ـ ١٧.

(٣) القلم من الآية: ٣٣، وكذلك طه/١٢٥.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾﴾[(١)]، وقال: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ إلى قوله: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾﴾...[(٢)]، وقال: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾... ثم قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾﴾...[(٣)] إلى تمام ما ذكره من أمر الجنة والنار، وقال: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٥﴾﴾[(٤)]، وقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾[(٥)].

فهذه الإخبارات والإنذارات ترسخ في أذهان المشركين، وأمثالهم الذين أفلتوا من العقاب الإلهي في الدنيا؛ أن العذاب أمر واقع للكافرين، وإن أنظر عنهم فإلى ميقات يوم معلوم، ومن ثم فلا يشكن أحد من الجاحدين في الجزاء من جراء الإنظار، كما لا يشكن أحد من المؤمنين في أن ما عليه القوم هو الباطل الذي كان عليه آباؤهم، وأنهم بسببه سيأتيهم عذاب غير مردود.

وهكذا، يتبين أن سنة الله ماضية على استقامتها في عباده، وفي دينه، وفي وعيده، مهما طالت الأيام، ومن ثم فليس للمؤمنين - الذين يفيض عليهم ربهم بأخبار هلاك الغابرين نسمات الأنس والطمأنينة في وحشتهم -

---

(١) هود/١٠٣ - ١٠٤.
(٢) غافر/١٨ - ٢١. وانظر معها نظيراتها آيات الروم/٩ - ١٤.
(٣) الحاقة/٤ - ١٣.
(٤) التغابن/٥.
(٥) غافر/٥ - ٦.

إلا الاستقامة على الصراط المستقيم وعدم الركون إلى الظالمين، والصبر على الدعوة إلى رب العالمين، حتى تتحقق سنة الله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهم الناجون، وهم المستخلفون بكل يقين.

١. ٣. ٣ ـ القضاء بنجاة المؤمنين

اقترن مجيء الأمر بإهلاك الكافرين بإنجاز الوعد بتنجية المؤمنين، في كثير من آيات المفاصلة بين الرسل عليهم السلام وأقوامهم؛ أمثال قوله تعالى، مخبراً عن لحظة القضاء بين نوح وقومه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾[١]، وقوله مصرحاً بنجاة نوح ومن معه وإغراق قومه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾...[٢]، وقوله عن نجاة هود والذين آمنوا معه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾[٣]، وقوله تعالى، مخبراً عن إنهاء وحيه إلى لوط بنجاته وهلاك قومه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾[٤]، ونظير ذلك قوله: ... ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾... إلى قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾...[٥] وقوله، مخبراً عن نجاة شعيب والذين آمنوا معه وهلاك قومه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾[٦].

---

(١) هود من الآية: ٤٠.
(٢) يونس/من الاية: ٧٣.
(٣) هود/٥٨، وأشبه بها الآية: ٦٥، الواردة في نجاة صالح والذين آمنوا معه.
(٤) الحجر/٦٥ ـ ٦٦.
(٥) هود/٨١ ـ ٨٢.
(٦) هود/٩٤.

وبملحظ من تجاور الهلاك والنجاة في سياق هذه الآيات الكريمات، يتبين أن النجاة كالهلاك أثر باهر من آثار الكلمة الواحدة، الصادرة من لله عز وجل، وهو ـ عز ذكره ـ يلفها لفا في لفظ «**التنجية**» ويذكرها صراحة، في مثل قوله: (اصنع) و(احمل) و(اسر). وهذه الكلمات الأمريات يراها كل ذي بصر وبصيرة سارية في الحفنة المؤمنة بوعد الله، وفي الكائنات المسخرة لإنجائها؛ فيشاهد نوحاً عليه السلام مذعناً لهذه الكلمة الكونية في صنع السفينة، وفي حمل من حمل وما حمل، ويرقب في هيبة وإجلال السفينة الجارية في لجة الطوفان الطاغية، وهي مستسلمة للمشيئة الإلهية في جريانها ورسوها، وما يسندها إلا قوة الله وقدرته ووحيه، ثم يشاهد آل لوط، منقادين لأمر الله في مضيهم بسحر، دون أن يلتفت منهم أحد. . .

وإننا لنقف على هذه الكلمة الإلهية نافذة في القوى الكونية الهائلة، فيما نطالعه في بعض الآيات البينات من قصة نجاة خليل الرحمن وكليمه: إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ، فنقرأ ـ أولاً ـ ما ذكره الله عز وجل من سلامة أب الأنبياء من الحرق بالنار: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[1]. فهذه الآية الكريمة تبين صراحة أن النار التي هي سبب للإحراق ـ كباقي الأسباب ـ ليس أمرها بيدها، بل تقوم بوظيفتها وفق أمر علوي يُفرض عليها. ولذا لم تحرق سيدنا إبراهيم خلافاً لطبيعتها؛ لأنها أُمرت بعدم حرقه عليه السلام، فتحولت من الحرارة إلى البرودة بمجرد قول الله لها: ﴿كُونِى بَرْدًا﴾ على إبراهيم ثم تحولت برودتها إلى سلام على إبراهيم، بمجرد خطابه بلفظة ﴿سَلَٰمًا﴾[2].

---

(١) الأنبياء/٦٨ ـ ٧٠.

(٢) وبيان ذلك: أن النار ـ كما في علم الطبيعيات ـ لها درجات متفاوتة، منها درجة على صورة نار ذات لهب، تحرق بحرارتها، ومنها درجة على صورة نار بيضاء، تحرق ببرودتها؛ كالزمهرير. ولهذا ذكر ابن عباس رضي الله عنه أن الله عز وجل لو لم يقل: «سلاماً» لكانت أهلكته ببردها: (نقلاً عن التحرير: ١٠٦/١٧/٨).

وقد يعجب الإنسان العادي، الذي ألف من النار الإحراق ومن الأجسام الحية الاحتراق، من هذا الذي كان بمجرد الكلمة العليا الواحدة، وقد يسأل بعقل البشر المحدود: كيف لم تحرق النار إبراهيم؟ وكيف أمكن جسده وثيابه أن يقاوما لهيبها؟ لكنه حينما ينظر إلى هذه المعجزة الخارقة لطبيعة النار الحارقة، بنظر الإيمان والإجلال، يذهب عجبه، وينعقد لسانه عن السؤال، ويحيل الجواب إلى القدرة الإلهية المطلقة؛ فيوقن حينئذ بأن النار لم تحرق جسم إبراهيم، لأن خالقها أمرها أن تكون برداً وسلاماً، مثلما أمرها أن تكون حارقة في الأزل، وفق مألوف البشر، ثم يوقن أيضاً بأن النار لم تحرق ثياب إبراهيم مثلما لم تحرق جسده، لأن الله ألبسه، إكراماً وإنعاماً، حلة قشيبة نسجت في مصنع (حنيفاً مسلماً) لا تحرقها النار، ولا تخلق، ولا تتمزق.

ثم نقرأ أيضاً قصة نجاة موسى الوليد والكليم من الهلاك بوحي من الله وتدبير، في آيات القصص وطه والشعراء، ونبدأ بما قصه الله علينا من وحيه لأم موسى بتنجية ابنها من الذبح، وذلك في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾[1]. فالله تعالى ألهم في سرها أن تأخذ في رضاعته، حتى إذا خافت عليه، فعليها أن تلقيه في نهر النيل، كما قال في طه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾[2].

واتبعت أم موسى ناموس الكلمة الإلهية، فوضعت طفلها الرضيع في التابوت، وأرسلته في نهر النيل؛ فعرفه الماء، وعرف أنه مكلف من لدن الله جل جلاله بمهمة حمله وإلقائه بالساحل؛ كما يصرح بذلك الأمر الإلهي الصادر إلى اليم: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾[3]، فكان لا بدَّ أن يلقيه اليم

---

(١) القصص/٧.

(٢) طه/٣٨ ـ ٣٩.

(٣) طه من الآية: ٣٩.

بالساحل، ليأخذه آل فرعون «**ويكون لهم عدوا يتحداهم، وحزنا يدخل الهم على قلوبهم**»[١]؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾[٢]، فعاقبهم الله بأن حماه بمحبته، مصداقا لقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾[٣]؛ فلا عجب أن يقدر الله نجاة موسى بسبب الحب الحاني في قلب امرأة فرعون، حيث أشفقت عليه، وحببته إلى زوجها واستعطفته أن لا يقتله؛ فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٤] فوافقها الفرعون واستبقاه لها. وتوجه أمر الله إلى الطفل الرضيع بالامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها، وذلك ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يقبل ثديها: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[٥]. وإن هي إلا هذه الكلمة الواحدة، فإذا هي ترد الطفل الرضيع سالماً إلى أمه الملهوفة، فتقر عينها بلقائه، مرموقا في مكانته، يحميه فرعون، وترعاه امرأته: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[٦].

وهكذا تم تدبير الله، فنجا الوليد، ونشأ مصنوعاً على عين الله، تحت عين فرعون ـ عدو الله وعدوه ـ فلما جاء أمر الله بتحقيق بشارته، جعل الله موسى مبلغاً لرسالته إلى فرعون وملئه العالين، وهي إطلاق سراح بني إسرائيل، وأوحى إلى هارون بمشاركة أخيه في ذلك الأمر العظيم، وأيدهما على صدقهما في رسالتهما بآياته البينات، التي شهد منها موسى آية العصا وآية اليد.

وبعد الإبلاغ والإعذار والإنذار من رسولي الرحمن، وبعد الجدل

---

(١) في ظلال القرآن: ٣٢٦/٦.
(٢) القصص/٨.
(٣) طه/٣٩.
(٤) القصص/٩.
(٥) القصص/١٢.
(٦) القصص/١٣.

والتحدي والاستكبار من فرعون الطاغية، أوحى الله إلى موسى أن يسري بعباده المستضعفين، وأن يقودهم ليلاً إلى ساحل البحر: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

وعلم فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة، فأتبعهم جنوده في الصباح: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾[2]. ووقف الرسول الكريم وقومه أمام البحر، وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بهدايته. وفي المشهد الفاصل بين الحق والباطل، عرف البحر رسول الرحمن ـ كما عرفه وليداً من قبل ـ، وفتح له ولمن معه طريق النجاة بمجرد ضربة واحدة من عصاه، بأمر الله[3] ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾[4]. ووقف الماء بخلاف طبيعته، في منتهى العجلة[5] على جانبي الطريق المكشوف، يشيع ذلك الشخص الكريم، وحاشيته من بني إسرائيل تقفو أثره إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها ويرثوها. . .

---

(١) الشعراء/٥٢.

(٢) الشعراء/٦٠ ـ ٦٢.

(٣) وكان من الممكن أن ينفتح هذا الطريق دون أن يضرب موسى البحر بالعصا؛ أي بمجرد صدور أمر الله له بأن يفلق ـ كما توجه من قبل إلى النار في حادث الإحراق، ويتوجه باستمرار إلى الماء بالإحياء، وإلى التربة بالإنبات ـ ولكن الله سبحانه وقت انفلاق البحر بضرب موسى له بعصاه، ومن ثم أمره بذلك؛ لأن الله عز وجل أمر البحر بالانفلاق ليس بمجرد صدور الأمر له، ولكن بمجرد ضرب موسى له بالعصا، فلما ضربه موسى بعصاه انفلق. وعليه فالفاعل الحقيقي لحادث الانفلاق هو الله عز وجل وحده، وما فعل موسى بضربه البحر بعصاه شيئاً له من التأثير الحقيقي ما يجعل البحر في هذه الحال المخالفة لطبيعة الماء إجمالا!.

(٤) الشعراء/٦٣.

(٥) يدل عليها فاء التعقيب، في قوله: (فانفلق) وسكوت السياق عن ذكر ضرب موسى للبحر بالعصا، وليست هذه العجلة إلا أثراً للكلمة الإلهية النافذة في الأشياء والأحياء. . . !.

وتم تدبير الله وحقت كلمته، فنجا موسى وقومه مصداقا لوعده: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[(١)]، وغرق فرعون وجنده أجمعون بما كانوا يكذبون. . .

** إشارات ومستفادات

وانسجاما مع ما سبق من تجليات الأمر الإلهي الكوني في مجال القضاء، نتبين الأمور التالية:

أولاً: أن امتثال الموجودات للأوامر التكوينية بتدمير الأقوام الظالمة يشيرإلى أن الموجودات قاطبة تعادي أهل الضلالة والعصيان وتغضب عليهم وتتهيج من كفرهم. وذلك يفيد أن الكفر والضلالة جريمة شنعاء تتعلق بجميع الموجودات؛ ذلك لأن الكفار يرفضون الغاية السامية لخلق الكائنات وهي عبودية الإنسان، وتوجهه بالإيمان والانقياد للربوبية الإلهية، فإنكارهم هذه النتيجة العظمى للكون - التي هي سبب بقاء الموجودات - نوع من تعد على حقوق جميع المخلوقات.

وحيث إن الموجودات قاطبة تتجلى فيها الأسماء الحسنى، وكأن كل جزء منها مرآة تُظهر تجليات تلك الأسماء المقدسة، فيكتسب ذلك الجزء أهمية بها ويرتفع منزلة، فإن إنكار الكافر لتلك الأسماء الحسنى ولتلك المنزلة الرفيعة وأهميتها هو إهانة عظيمة لتلك الموجودات وتحريفاً لتلك الأسماء.

وكذلك فإن كل مخلوق في هذا الكون قد أسندت إليه مهام معينة، فهو إذن، بمثابة موظف رباني، فالكافر بكفره يسلبه تلك الوظيفة المهمة ويجعله جامداً لا معنى له، وفانياً لا غاية له، فيهينه بذلك ويحقره. ولما كانت الضلالة بأنواعها المختلفة - كل حسب درجتها - تنكر الحكمة الربانية في خلق الكائنات وبقاء الكون، وتعترض على عظمة الربوبية المطلقة، فإن الموجودات بدورها تغضب على الكفر وأهله. فتشهد بذلك شهادة قاطعة

---

(١) يونس/١٠٣.

على وجوده سبحانه وعلى انقيادها التام لربوبيته[١].

ومن هنا، ينبغي لكل إنسان راغب في النجاة من غضبة العالم وثورة المخلوقات، أن يستمسك بعروة الإيمان، ويدخل تحت قواعد الإسلام، ويقتدي بسنة فخر الكائنات، المصطفى عليه السلام.

ثانياً: أن انقياد الكائنات الفوري لأمر الله بإنجاء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يشير رمزا إلى أن الكائنات جميعا مرتبطة مع أهل الإيمان، وأنها لا تتحمل إذايتهم؛ وذلك «لأنهم يعرفون بالإيمان رب العالمين، فيحملون حبا للموجودات، ويقدرون قيمتها، وليسوا كأولئك الضالين الذين يضمرون العداء للموجودات ويحقرونها»[٢]. لذا فإن جميع المخلوقات تعرف سادتها الأنبياء، وتعلم يقيناً أنهم مرسلون بمهمة عظيمة من لدن رب العالمين، ومبلغون أمناء لأوامره الجليلة، فتراها تنقاد لهم وتحنو عليهم، وتقول لهم بلسان الحال: إن كل ما تنطقون به صدق وعدل وصواب. . . !

ثالثاً: أن القرآن الكريم بين في تكرار بليغ، أن هلاك الأقوام الظالمة جزاء عمل ووبال أمر، أما نجاة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومن معهم فرحمة إلهية، وفضل رباني محض. وهذا يفيد أن الإنسان يكون سببا للسيئات، ومستحقا للعذاب، ولأن نفسه وهواه يميلان دائماً إلى الشرور والسيئات، ولأن تلك السيئات عدمية، لا تتطلب قوة وقدرة[٣]، صار فاعلاً لها، ومسؤولاً مسؤولية كاملة عنها، ومستحقاً للعقوبة القصوى في الدنيا والآخرة؛ فلا عجب أن يذكر القرآن الكريم جناية الكفر وعقوبتها بأسلوب في غاية الزجر والإنذار للظالمين، إظهاراً لهول تجاوز الكفر وعظم ظلمه وقوة هدمه بذلك الكسب الجزئي الضعيف.

أما الحسنات، فما دامت وجودية أصيلة، لا يكون الإنسان فاعلاً

---

(١) انظر الكليات: ١٢٧/٣ ـ ١٢٨ ـ بتصرف ـ.

(٢) الكليات: ١٣٢/١.

(٣) سيأتي بيان ذلك بتفصيل، ضمن قضايا الأمر الشيطاني في الفصل الثاني من هذا الباب.

حقيقياً لها بكسبه الذاتي؛ لأن نفسه الأمارة بالسوء لا تميل إلى الحسنات، بل الرحمة الإلهية هي التي تريدها، وقدرته سبحانه هي التي تخلقها. إلا أن الإنسان يمكن أن يكون مالكاً لهذه الحسنات بالدعاء، وبالإيمان والنية. وأما بعد تملكها فإن تلك الحسنات هي بذاتها شكر للنعم الإلهية غير المحدودة، التي أسبغها سبحانه على الإنسان، وفي مقدمتها نعمتا الوجود والإيمان، لذا فإثابة الله سبحانه على حسنات عباده من الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة ليست سوى فضلاً رحمانياً خالصاً، وإن كانت ظاهراً مكافأة لهم على إحسان العمل[١].

إذن، فالنفس الإنسانية لكونها المسببة للسيئات، فهي التي تستحق الجزاء، وليس في الخلق الإلهي للسيئات وجزائها شر وقبح[٢]، بل يعود الشر إلى كسب الإنسان واستعداده. أما في الحسنات فلما كان سبب وجودها من الله سبحانه، وامتلكها الإنسان بالإيمان وحده، فلا يحق له أن يطالب بثوابها، بل يرجو الفضل منه سبحانه!

رابعاً: أن جميع الوقائع الكونية والجزاءات الإلهية على الأعمال الإنسانية، التي هي معجزات قدرته ومقدرات حكمته، لتشهد شهادة قاطعة على ما سيحدث، ضمن دائرة الممكنات، من انقلاب عظيم ودمار رهيب في هذا العالم، وما سيعقبه من بناء الآخرة الخالدة، وما يتصل بها من

---

(١) تراجع هذه الفائدة في الكليات: ١/١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) فمثلاً: إن الحوادث الكونية التي دمرت الأقوام الغابرة، وإن بدت قبيحة في ظاهر أمرها، إلا أنها تنطوي في أعماقها على أوجه جميلة، وحكم سامية؛ أهمها: تطهير الأرض من فساد المشركين وإصلاحها باستخلاف المؤمنين، كما يشعر بذلك قول نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾: نوح/٢٦، وقوله، عن بني إسرائيل: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾. . . : الأعراف من الآية: ١٣٧.

وهكذا، ما من شيء في الكون، وما من حادث يقع فيه إلا هو جميل بذاته، أو جميل بنتائجه التي يفضي إليها. . . يوضح هذا عموم الآية الكريمة: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾: السجدة/٧.

حشر الأجساد والجزاء على الأعمال... وفي هذا نذير مرعب لأهل الضلالة بأن لهم النار خالدة، وبشرى للمؤمنين المستضعفين بأن عاقبتهم الجنة خالصة.

وإذا ثبت لنا أنه لا بدَّ من إقامة الآخرة في الأزمنة الآتية، فكيف سيقيمها سبحانه؟ وكيف سيحشر الأجساد، ويوفي حسابها؟ هذا ما سنشرع في بيانه ضمن المطلب التالي.

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني: تجلياته في الآخرة

شاء الحكيم الأزلي أن يخلق هذا الكون البديع، ويجري فيه إجراءاته الحكيمة؛ ليكون ميداناً للاختبار، ومرآة لأسمائه الحسنى، وصحيفة لقلم قدرته وقدره، ومعرضاً متحولاً لعجائب مخلوقاته. حتى إذا انتهى وقت الاختبار، وأظهرت الأسماء الحسنى معانيها، وأتم قلم القدر كتابته، وأكملت القدرة نقوش إبداعها، وأنهت الكائنات وظائفها، وأهمل الإنسان العبادة وعطل الأمانة... عندئذ سيأذن الله جل جلاله ببناء عالم البقاء من عالم الفناء، وسيظهر حقائق نتائج ذلك الاختبار، وحقائق تجليات تلك الأسماء الحسنى، وحقائق كتابات قلم القدر تلك، وجزاء تلك الوظائف، وسيمزق ستار الأسباب الظاهرة والغيبية[١]، وسيبدل قوانين التغير والتكامل، بتبديل الأرض غير الأرض والسماوات بأمر **«كن فيكون»**... وحينئذ سيبعث الخالق الخلق، وسيفتح أبواب دار الثواب والعقاب، ليوفي بما أخبر به الأنبياء كافة، وصدق به الصديقون والأولياء كافة، وشهد به الكون بجميع آياته التكوينية وشؤونه الحكيمة، من حساب وجزاء، وليحقق ما أثبته القرآن من حشر الأجساد ونشر صحائف الأعمال، ومجازاة فاعليها من الأبرار والفجار بما يليق بهم من ثواب وعقاب.

---

(١) انظر ـ بتصرف ـ كليات رسائل النور: ٦٣١/١.

وانطلاقاً من قطعية مجيء الآخرة وذهاب الدنيا، واستناداً إلى حتمية وقوع البعث والحشر، وإلى حقيقة رجعة أمور العباد إلى مالك العباد للجزاء يوم القيامة كنتيجة حتمية للابتلاء في الدنيا، نبسط مجاري الكلام عن تجليات الإرادة الإلهية والأمر الإلهي **«كن»** في موقف البعث والحشر، وموقف الحساب والجزاء، وذلك بفيض بيانات القرآن المعجزة وحقائقه الثابتة، وباستمداد أغلب الأسماء الحسنى المقدسة، ولا سيما **«القدير»** و**«الرحيم»** و**«الملك»** و**«العليم»**...

٢. ١ - في موقف البعث والحشر

لما كانت الدنيا هي دار **«الحكمة»** و**«التدبير»**، والدار الآخرة هي دار **«القدرة»**؛ فإن إيجاد الأشياء في الدنيا جرى عادة ضمن السنن الإلهية الكونية؛ أي: «بشيء من التدريج ومع الزمن، بمقتضى المشيئة والحكمة، وبموجب أغلب الأسماء الحسنى؛ أمثال: **«الحكيم»**، و**«المدبر»**، و**«المربي»**... أما في الآخرة فإن **«القدرة»** و**«الرحمة»** تبرزان على إطلاقهما، وتتظاهران أكثر من **«الحكمة»**؛ إذ لا حاجة إلى المادة، والمدة، والزمن، ولا إلى الانتظار، فالأشياء تنشأ هناك نشأة آنية فورية»[١]، وتُخلق في منتهى السرعة، وتنقاد انقيادا تاما للأوامر التكوينية، حتى كأن الأمر ينفذ حكمه كالقدرة. ومن هنا يشير القرآن الحكيم ضمن تعبيراته المعجزة، التي تبين أثر القدرة كأنها صادرة من صفة الإرادة وصفة الكلام، إلى أن الحشر الأعظم، الذي هو قطب الإيمان، وأوجب حدث خارق في الكون[٢]، سيظهر فجأة إلى الوجود، في آن واحد بلا زمان، وأن ساعة الآخرة ستأتي من الغيب

---

(١) الكليات: ١٢٢/١.

(٢) ولهذا، فإن ثلث القرآن بأكمله، وأوائل أغلب السور القصار، التي تقارب أربعين سورة، آيات جليلة تظهر حقيقة الحشر بوضوح، وحجج دامغة تثبت ضرورة حدوثه. (انظر مثلاً سور: يس، والزمر، والصافات... ومطلع سور: التكوير، والزلزلة، والانفطار، وعم، والغاشية...). وهذا الاستقراء يصرح بأن قضية البعث والآخرة هي أس الأساس لحياة الإنسان، ولجميع كمالاته ومثله وسعادته.

المحجوب، في لمحة واحدة كلمح البصر، أو أقرب؛ لكن في حساب غير حساب البشر المعلوم، كما في قوله تعالى، محذراً منكري البعث من فجائية الساعة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾[1]. والقدير يتساوى أمام قدرته المطلقة على الخلق والبعث، القليل والكثير، والصغير والكبير، والفرد الواحد، وجميع الناس، بسر الطاعة للأمر الواحد، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ﴾[2]. فالخلق والبعث هين على تلك القدرة النورانية، التي تدير النجوم والسيارات إدارة حكيمة، وتمنح الأرض والسماوات قياماً مستمراً، وتدبر أمر المخلوقات تدبيراً منظماً، وتحيي الأرض بعد موتها، وتقول للجزئي والكلي من أي شيء: **«كن فيكون»**. يشهد لذلك قوله تعالى، مبيناً دلائل الحشر ومشيراً إلى فجائيته وفوريته: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[3]، وقوله عقب ذكر الساعة ومصير المجرمين: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[4]. وقوله مثبتا قدرته على البعث بذكر النشأة الأولى وعرض النعم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ

---

(١) النحل/٧٧.

(٢) لقمان/٢٨.

(٣) الروم/٢٥ ـ ٢٧، و«إذا» في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ هي إذا الفجائية، وذلك يفيد أن الحشر سيفاجأ الناس في لحظة واحدة، بالأمر الرباني الواحد: (انظر: دراسات لأسلوب القرآن: ٢١٣/١/١).

(٤) القمر/٥٠.

ﭐلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[١].

نعم، إن رب القدرة الذي ينشئ الأجساد البشرية من النطفة إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة، ومن المضغة إلى خلق الإنسان، والذي يملك مقاليد السماوات والأرض، وتخضع له الكائنات بأمر «**كن**»...، والذي يبدل المخلوقات، فيميتها ثم يحييها في غضون أيام، لن يعجزه مطلقا أن يميت الدنيا، ويدمر الكون، ويتوفى الأحياء والأشياء بنفخة واحدة من بوق إسرافيل؛ كما أنبأنا بها العليم القدير بأسلوب البناء للمجهول[٢]، في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ...﴾[٣]، وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾﴾[٤]. فبهذه النفخة الأولى، التي ستحدث في فجر القيامة عن أمر الله؛ سيصعق من يكون باقياً على ظهر الأرض من الأحياء، ومن في السماوات كذلك، وستُدك دكة واحدة، وتتطاير جبالها، وتُسجر بحارها...، وسيختل النظام العلوي المحكم، الذي يربط بين أجزاء الكون، فتنشق السماء عن طواعية عند تسلم أمر «**كن**» أو (انشقي)[٥]، وتُلف الشمس،

---

(١) يس/٧٧ ـ ٨٢. وهذه الأفعال الإلهية الدنيوية العجيبة التي نطقت بالقدرة والرحمة والعناية والحكمة...، وأخرست منكري البعث وجاحديه، وهيأت القلوب إلى الإيمان بالأفعال الإلهية المعجزة، التي ستحدث في الآخرة؛ تجد نظائرها مجاورة لأحداث الحشر والقيامة، في مثل سور: القيامة من الآية: ٣٦ إلى الآية: ٤٠، والنبأ من الآية: ١ إلى الآية: ٢٠، والصافات من الآية: ٥ إلى الآية: ١٩، ويس من الآية: ٢٩ إلى الآية: ٤٤.

(٢) وهو كثير في موقف القيامة، وسره البياني ـ فيما ألمح ـ هو تركيز الاهتمام على الحدث، بصرف النظر عن محدثه. وبذلك يسوق القرآن الحكيم ـ بهذا الأسلوب المعجز ـ القلب والعقل إلى الإيمان.

(٣) الزمر من الآية: ٦٨.

(٤) الحاقة/١٣. وعبر عن هذه النفخة الأولى بالصيحة، في آية يس: ٤٩ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

(٥) يدل لهذه الطواعية التي يتم بها الانشقاق وغيره من أحداث القيامة الهائلة أسلوب المطاوعة، كما في آيتي الانفطار: ١ ـ ٢ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾﴾، مما يؤكد بوضوح ما أثبتناه في غير موضع، بيقين قاطع، من طاعة=

وتتصادم النجوم، وتتلاطم الأجرام، وتنتثر الكواكب... وفي أثناء هذه التصرفات الربانية الهائلة، ستتحقق معاني الآيات القرآنية المحكمة، وستتبين أسرار تعابيرها، التي تقرب إلى الأذهان البشرية الهزيلة مشاهد الإعدام والاندثار، وصور الامتثال والاستسلام؛ أمثال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾... - إلى قوله - ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾[1] ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا﴾[2] ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾[3] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾[4].

ولسوف يأتي ذلك اليوم الذي تتحقق فيه هذه الأحداث الكونية المخيفة[5]، وعندئذ ستموت الدنيا وتتهدم، ثم تبعث من جديد بنفخة ثانية، هي نفخة إحياء صادر من أمر «كن»؛ فتتجدد وتُعمر بصورة «آخرة»، محققة حكمة الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾...[6].

وتبعث مع هذه الدنيا الجديدة الأجساد الميتة المتوارية في التراب بنفس تلك النفخة الواحدة، التي ذكرها القرآن الكريم بألفاظ متقاربة، في مثل قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[7]، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى

= المخلوقات جميعاً لأمر «كن» إلى درجة عظيمة، بحيث تفعل ما تؤمر به تلقائياً، وكأنها ليست في حاجة إلى فاعل...!.

(١) الزلزلة/١ ـ ٥.

(٢) الفجر/٢١.

(٣) التكوير/١ ـ ٦.

(٤) الانشقاق/١ ـ ٥.

(٥) بدلالة التعبير القرآني عنها بصيغة الماضي، الذي يفيد حتمية وقوعها: (وقد بُسط الكلام في نظائر هذا الاستعمال في ص ٢٠٥، هامش ١ بهذا البحث) وبشهادة افتتاح هذا التعبير بالظرف (إذا) المستعمل، على أصله، في قطع علام الغيوب بالأمور المرتقبة: (يراجع: دراسات لأسلوب القرآن: ١٤٧/١/١).

(٦) إبراهيم من الآية: ٤٨.

(٧) الزمر من الآية: ٦٨.

ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾[١]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾[٢]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾[٣].

إن هذه الزجرة الواحدة ستنبعث من بوق إسرافيل بأمر إلهي، لتستنفر الأرواح إلى العودة إلى الأجساد، والحياة إلى النفخ في الأجساد، والأجساد إلى إعادة البناء والإنشاء...!

وعند نشور جثث الأموات وامتثالها فورا لأمر «**البعث**» ستنتفض الأجساد البشرية العارية[٤] في دهش وذعر، وستنفض عنها غبار التراب وآثار الموت والبلى بسرعة مذهلة، كما يوحي بذلك التعبير بفاء التعقيب، وصيغة المضارع في الآيات المتقدمة، وكذلك مشهد القبور التي تتشقق فجأة، وتتكشف عن الأجساد والرفات والعظام، في تصوير الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾[٥]، فإسناد التشقق إلى الأرض في الآية على وجه المجاز، يصور الأرض كائنة حية، ويعطيها فاعلية محققة، هي ـ قطعاً ـ من أثر استسلامها لأمر الله ووحيه في التشقق.

وكذلك تلك الخلائق التي ستخرج من قبور لا تحصى، حائرة مذهولة، مسرعة نحو الداعي الذي يدعوها لأمر تجهله ولا تعرفه...؛ تلك الخلائق هي أيضاً تحت أمر الله ووحيه، وهذا الأمر يشمل المكذبين والمؤمنين على السواء، يفصح عن هذه الحقيقة الأمرية للبعث، الآية

---

(١) يس/٥١.

(٢) ق/٤٢.

(٣) النازعات/١٣ ـ ١٤.

(٤) كما يصورها لفظ مسلم في حديث رواه عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، قال: «**يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غُرلاً**»، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾: (الأنبياء من الآية: ١٠٤): صحيح مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها: (٥٨/٢٨٦٠).

(٥) ق من الآية: ٤٤.

الكريمة: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾. . .[(١)].

وفي أوج الإسراع والذهول، ستنبعث الصيحة الأخيرة من بوق إسرافيل، فتجمع الحشود المنتشرة، كما جمعت التي قبلها الذرات والأجزاء التائهة في مسارب الأرض تحت لواء فرقة الجسد. يشهد لهذه الصيحة الأخيرة الواحدة، ويوحي بطبيعتها لفظ **«الإحضار»**[(٢)] في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾[(٣)].

إنها صيحة الحشر والتجميع، تسوق بأمر إلهي الخلائق جميعا كأنها جيوش هائلة إلى المحشر، في مثل لمح البصر. . .؛ ليوَفى حسابُها عند ديوان الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه المنتهى والمصير، الله جل جلاله.

٢. ٢ ـ في موقف الحساب والجزاء

لقد قرر القرآن الكريم في كثير من آياته الكريمة ملكية الخالق لكل شيء في الوجود، وسيطرته القابضة على ما في السماء والأرض، وخبرته الواسعة بعباده وبأحوالهم وأسرارهم، ورقابته الدقيقة لأقوالهم وأعمالهم، وعلمه الكاشف بحركاتهم وسكناتهم، ولما بين أيديهم وما خلفهم.

ثم قرر في تكرار بليغ، حقيقة الرجوع إلى ربوبيته وحاكميته، في الآخرة للحساب والجزاء، وهذا الترتيب ملموح في مثل الآيات التالية:

هود: ١٢٣ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾.

آل عمران: ١٠٩ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝١٠٩﴾.

---

(١) القمر من الآيتين: ٧ ـ ٨.

(٢) ولفظ الإحضار في القرآن الكريم يوحي بعقاب أولئك الشاكين في يوم الدين.

(٣) يس/٥٣.

الحديد: ٥ ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥﴾.

الحج: ٧٦ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦﴾.

فهذا الترتيب المقصود يبين بوضوح أن وراء تلك الملكية المطلقة مصيراً وعاقبة، وأن وراء تلك الخبرة الواسعة وذلك العلم المحيط حساباً وجزاء، باعِثيْن على التدبر والتوجس، وعلى عمل الحساب ليوم الحساب. ومن ثم فإن إرجاع الأمور في هذه الآيات ونظائرها، يتجه أصالة إلى معنى: إرجاع القضاء في جزائها من ثواب وعقاب إلى الله وحده يوم القيامة، كما تم تحديده في مبحث التعريف[1]، فالأمور وإن كانت تُرجع إلى الله عز وجل في الدنيا والآخرة سواء، وتعود إلى تدبيره في كل وقت وفي كل حال، فإن لرجعتها يوم القيامة إلى الله وحده عاقبة وآثارا؛ رجعة وراءها حساب وجزاء، بهما تتحقق أهمية الأرض ومركزيتها، وأهمية الإنسانية ومكانتها. . .، وبهما تتقرر عدالة الرب وحكمته ورحمته وسلطانه. . . وهذا المعنى هو الذي يلوح به سياق الآيات، المتمثل في تهديد الكافرين بالعقاب، وتأنيس المؤمنين بالثواب، وإلى هذا المعنى نفسه التفت الطبري في قوله: «فإن قال قائل: أوليست أمورهم في الدنيا إليه؟ قيل: هي وإن كان إليه تدبير جميع ذلك، فإن لهم حكاما وولاة ينظرون بينهم، وليس لهم يوم القيامة حاكم ولا سلطان غيره، فلذلك قيل: إليه تصير الأمور هناك، وإن كانت الأمور كلها إليه وبيده قضاؤها وتدبيرها في كل حال. . .»[2]. ويعزز ما لحظه الطبري من دلالة «**إرجاع الأمور**» الأخروية، اطراد إسناد لفظ «**الأمر**» ـ جمعاً ومفرداً ـ إلى الفعل المضارع، المبني للنائب «**تُرجع**»[3]،

---

(١) انظر: ص٨٤ ـ ٨٥.

(٢) جامع البيان: ١٣/٢٥/٤٧.

(٣) من الرجع أو الرجوع، ومدار مادته في اللغة على «**العود**» و«الرد. . .»: (راجع المفردات/١٩٣ والمقاييس: ٢/٤٩٠): «تقول: رجع، يرجع، رجوعاً؛ إذا عاد»: (المقاييس/رجع) ومنه: «الرَّجْع للمطر، وسُمي بذلك لرد الهواء ما تناوله من=

وفي المضارعة معنى الديمومة والاستقبال[١]، وفي الاستغناء عن ذكر الفاعل قصد إلى الإيجاز في العبارة، بما يناسب العموم الذي يتضمنه ذيل الآيات، وإيماء إلى ظهور من هو فاعل الإرجاع؛ فإنه لا يليق إلا بالله تعالى، فهو يمهل الناس في الدنيا، وهو يرجع الأمور إليه في الآخرة[٢]. ويعضد هذا المعنى تقديم حرف (إلى)[٣] لإفادة الحصر الحقيقي؛ أي: ترجع إليه وحده لا إلى غيره، وفي إظهار اسم الجلالة دون أن يقول: «**وإليه تُرجع الأمور**» تربية للمهابة في نفوس العقلاء، وترشيح لأن تكون «الجملة مستقلة بما دلت

= الماء... وناقة رَاجع: ترد ماء الفحل، فلا تقبله... والرَّجيع من الكلام: المردود إلى صاحبه، أو المكرر»: (المفردات/رجع).

ومن هذا العود والرد الملحوظين في الاستعمالات الحسية للمادة، استُعمل الرجوع في القرآن بدلالة خاصة في معنى: **العودة إلى الله في الآخرة، وما تقتضيه من المؤاخذة والمحاسبة**. ويتعين هذا المعنى في الاستعمال القرآني حين يكون الرد والعود إلى الله بأسلوب القصر والحصر غالباً، في مثل آيات: الأنعام: ٣٦ ...﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، البقرة: ٢٤٥ ...﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، آل عمران: ٥٥ ...﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾...: (تراجع المواد التالية: «تُرجعون»، «يُرجعون»، «مرجِعكم»، «راجعون»، «الرُّجعى»، «يُرجع»، «تُرجع»، في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم).

وفي ضوء هذا نحصل: **أن** إرجاع الأمور استُعمل، على المألوف من آيات الرجوع، في معنى: **مصير جميع أعمال الإنسان إلى الله للحساب عليها في الآخرة.**

(١) والمستقبل هو الذي يمتد من الآن إلى يوم القيامة، وإلى الجنة والنار، وإلى الأبد. ولعل الاستعمال القرآني الخاص لفعل «الرجوع» في المعنى المتقدم يرشح أن يكون المستقبل هنا هو مستقبل الآخرة.

(٢) ويعضد هذه الدلالة، قول البلاغيين في حذف الفاعل: إنه يحذف لكونه «معلوما للمخاطب، حتى لا يحتاج إلى ذكره»: (انظر علم المعاني/١٣٨) وقد يعود سر هذا الحذف إلى تركيز الاهتمام على فعل «الإرجاع»، على المألوف من آيات القيامة والجزاء، كالذي مر بنا من آيات القيامة في موقف البعث والحشر، ومن آيات: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ بمعناها الأخروي، في مبحث التعريف.

(٣) ذكر الرازي أن كلمة (إلى) لا تدل على كونه تعالى في مكان وجهة؛ بل المراد أن رجوع الخلق إلى موضع لا ينفذ فيه حكم أحد إلا حكمه، ولا يجري فيه قضاء أحد إلا قضاؤه: (مفاتيح الغيب: ١٩٤/٧/٤، تفسير آية الحج: ٧٦).

عليه، فتكون كالمثل صالحة للتسيير»[١].

وبملحظ من هذه الدلالة الأخروية، وعلى وزان هذه الجملة المستقلة في الآيات المتقدمة، قرر سبحانه حقيقة النهاية إليه وحده يوم القيامة بإسناد الأمور إلى الفعل المضارع «**تصير**»[٢]، المتعدي ب(إليه) للحصر والمسبوق بأداة التنبيه «**ألا**» لإفادة توكيد مضمون الجملة[٣]، وذلك في ختام الشورى المذيل لحقيقة الوحي والرسالة وسبيل الهداية؛ بصريح الآية: **٥٣** ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

إذن، فالخلق راجعون إلى الله وحده، وهو مجازيهم وحده، وهذا هو الإيقاع الختامي الذي يتكرر في القرآن الكريم[٤] في صيغة الحصر والتنبيه، والتوكيد؛ لصرف الرسول الكريم عن هم الدعوة الثقيل بعد البيان والتبليغ، ولقطع شك المرتابين من المشركين في يوم الدين.

وانسجاماً مع هذه الحقيقة الضخمة، يتجلى صاحب الخلق والأمر، الله جل جلاله يوم القيامة، ويتولى القضاء في موقف الحساب، ويقف الملائكة صفا صفا، ويوضع الكتاب الحافظ لأعمال العباد، ثم يُجاء بالنبيين والشهداء؛ ليقولوا كلمة الحق، ثم يُجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى...

---

(١) التحرير: ٣٦٦/٢٧. والتشبيه بالمثل يفيد أن هذا التركيب خاص، استعمل في معنى خاص، وفي سياق خاص، ونظيره الأشبه بالمثل: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾.

(٢) من صار، يصير، صيراً، وصيرورة. وأصله في اللغة؛ «**المنتهى**»، و«**المرجع، والمآل**»: (المفردات/٢٩٩، والمقاييس: ٣٢٥/٣) ومنه: «صِيُر الباب لِمَصيره الذي يَنتهي إليه في تنقله وتحركه»: (المفردات/صير) و«الصَّير: رجوع المنتجعين إلى محاضرهم». و«المصير: الموضع تصير إليه المياه»: (القاموس/صير).

(٣) راجع: دراسات لأسلوب القرآن: ١٢٣/١/١.

(٤) نلاحظه، عدا ما تقدم، في خواتيم السور التالية: يس، والعاديات، والغاشية، والنازعات... وقد مضى استنباط دلالة هذا التكرار البليغ بتفصيل في ركن المستفادات بمبحث التعريف: (انظر: ص ٨٦).

ففي هذا الموقف المرهوب، موقف عرض الأعمال على العباد، ليواجهوها ويواجهوا جزاءها أمام الجمع الأكبر، وفي حضرة العظيم الجبار...؛ يعرض القرآن الكريم فريقين اثنين يجمعان كل الحشود الحاشدة في ساحة العرض: الذين آمنوا، والذين كفروا.

فأما الذين آمنوا فيُنهي القرآن الكريم أمر حسابهم في لمحة؛ لأن الغفور الرحيم لا يناقشهم، مصداقاً لقوله، مخبراً عن مصيرالسعيد الذي يؤتى كتابه بيمينه: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾[(١)]، وقوله عليه السلام، ضمن تفسير الآية الكريمة: «**من نُوقِش الحِساب هَلك**»[(٢)].

وأما الذين كفروا، فلا يطوي السياق موقف حسابهم، بل يعرضه بتفصيل، ويبرز فيه الإعذار والاحتجاج والتحقير بصيغ الأمر، كما في قوله تعالى، آمراً الكافر، الذي أوتي كتابه وراء ظهره بالقراءة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾[(٣)]، فالأمر في «**اقرأ**» أمر تكوين وتسخير، مُكنى به عن الإعذار للكافر والاحتجاج عليه، كما دل عليه قوله: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ولذلك فإن الكافر يوم القيامة سيستسلم جبراً لقدرة الله وعظمته؛ فيقرأ كتابه لأنه لا يملك إلا أن يقرأ ما سطر في هذا الكتاب، الذي لا يترك كبيرة ولا صغيرة من شر الأقوال والأعمال، وعند قراءته ستتكشف أسرار ذلك الكافر على رؤوس الأشهاد، فلا يملك أن يتفلت منها، ولا أن يحاور عنها. وفي مشهد آخر حي، نكاد نلمح فيه الخزي والذل على وجوه الكفار والمجرمين؛ نسمع صوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتحقير: ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾[(٤)].

---

(١) الانشقاق/٨.

(٢) رواه البخاري في التفسير، عن عائشة رضي الله عنها، برقم ٤٩٣٩، رواه مسلم ـ بلفظ مقارب ـ في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٨٩.

(٣) الإسراء/١٤.

(٤) يس/٥٩ ـ ٦١.

إن هؤلاء المجرمين خالفوا عهد الفطرة الذي أخذه الله على بني آدم في ظهور آبائهم، بأن قطعوا ما أمر الله به أن يوصل من عبادته وطاعته، ووصلوا ما نهى عنه من عبادة الشيطان وطاعته، فكان مصيرهم إعلان تحقيرهم على الملأ بهذا الأمر التكويني المهين: (امتازوا)، الذي وُجه إليهم بصيغة المطاوعة، مبالغة في الإسراع بحصول الميز عن المؤمنين.

وفي مشهد خارق عجيب، تظهر جوارح الكفار التي كانت منقادة لأمر الله مدة التكليف، عودتها إلى بارئها مفردة مستسلمة، وامتثالها لأوامره طائعة، وذلك بشهادتها الحسية عليهم بأعمالهم؛ فتنطق الأيدي، وتتكلم الأرجل، وتخرس الألسن، على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم، وعلى غير ما كانوا ينتظرون. يصرح بهذا قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1]، ويصرح بالأمر التكويني الذي تنطوي عليه الآية، ما ثبت في صحيح مسلم عن أنس قال؛ قال رسول الله ﷺ: «**يخاطب العبدُ ربَّه يقول: يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول الله: كَفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، فيُختم على فيه. فيقال لأركانه: انطِقي، فتنطق بأعماله، ثم يُخَلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدًا لكن وسُحقًا فعَنكن كنت أناضل**»[2]. فبين عليه السلام أن جوارح الإنسان جنود تفعل ما تؤمر به، وخالقها يستعملها فيما يريد وإن لم يرد الإنسان. فهذه الجوارح التي كان يستخدمها الإنسان الكافر في قضاء رغباته بأمر الله في الدنيا[3]؛ سيخذل بعضها بعضاً في الآخرة، وستفضح كفر الكافر وجرمه، وستظهر عبوديتها لله.

وفي نهاية موقف العرض والحساب، يعلن الحق سبحانه جزاء

---

(١) يس/٦٥. وقد يخيل تعارض بين هذه الآية وبين آية النور: ٢٤ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾. ولا تعارض، لأن آية يس في أحوال المشركين وآية سورة النور في أحوال المنافقين.

(٢) مسلم في الزهد والرقائق (١٧/٢٩٦٩)، عن أنس بن مالك.

(٣) وقد تبين فيما مضى أن جوارح الإنسان قائمة في الدنيا بأمر الله، سواء اختار الإنسان الكفر أو الإيمان؛ لأن مشيئته سبحانه اقتضت ذلك لتحقيق الابتلاء.

الفريقين ويصرح بمقرهما من المنزلتين في مقام الترهيب والتشويق؛ فيوجه أوامره بإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، بأسلوب الالتفات من الوصف إلى الخطاب، المفيد في استحضار صور النعيم والعذاب، إذ يقول سبحانه للكافرين: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾(١).

ويوجه سبحانه إلى المتكبرين الخطاب بأسلوب التمريض، دلالة على القهر والاستعلاء: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾(٢). وفي موضع آخر، يصدر سبحانه أمره إلى المكلفين بالقيام على جهنم: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾(٣).

وقبيل الدخول إلى الجحيم، يصدر الأمر الإلهي إلى الزبانية ليأخذوا الكافر المتكبر أخذاً عنيفاً مهيناً يليق بمقامه الكريم: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾(٤). وفي مشهد مماثل، يتوجه الخطاب إلى الكافر من غير لفظ يشعر بقائل، وذلك أقوى في التمثيل واستحضار صور العذاب الرهيبة: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾(٥). وبينما الأخذ والعتل والصب والخزي في جانب من جوانب الساحة، يمتد البصر بسرعة الخيال إلى الجانب المقابل، فإذا المتقون في (أعلى عليين)، يدعوهم ربهم الكريم إلى دخول دار السلام جزاء إسلامهم، كما جاء في قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾(٦). وبعد الإذن لهم بالدخول إلى الجنة سالمين،

---

(١) يس/٦٣ ـ ٦٤.
(٢) الزمر/٧٢. وانظر معها: غافر/٧٦.
(٣) الصافات/٢٢ ـ ٢٤.
(٤) الدخان/٤٧ ـ ٤٨.
(٥) الحاقة/ ٣٠ ـ ٣٢.
(٦) ق/٣٤.

تستقبلهم خزنة الجنة الاستقبال الطيب، وتكرمهم التكريم السامي، بصريح وصف ركبهم النوراني بقوله عز وجل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾[1] حتى إذا دخلوها بإذنه ونجوا من العذاب برحمته؛ أكرمهم سبحانه بنعم لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرت على قلب بشر. وإلى بعض تلك النعم الخالدة، يدعو الرب الكريم عباده المخلصين بقوله مخاطبا إياهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾[2].

وهكذا وقعت كلمة الله التي حقت على عباده، وقُضي الأمر بينهم بسوق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، كما صرح به القرآن الكريم، في مثل الآية الكريمة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩)﴾[3]، ومتى قضي الأمر وتم الجزاء، فلا حاجة إلى كلمة تُقال، ولا إلى جدال يعلو. ومن ثم فإن الكفار في موقف الجزاء مستسلمون لكلمة الله الكونية النافذة؛ لأن الموقف موقف إذعان لا موقف خصام واعتذار. يشير إلى هذا قوله تعالى ضمن حوار يجريه بين خزنة جهنم وأصحابها: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4]، وأيضاً قوله معقباً على صمتهم إزاء سؤاله التوبيخي: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)﴾: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾[5]. ثم قوله - في نفس السياق - مسجلاً خضوعهم تحت سلطان كلمة العذاب: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)﴾[6]، وكذلك قوله معلناً مصيرهم الأخير، الذي لا يرده

---

(١) الزمر/٧٣.

(٢) الحاقة/٢٤.

(٣) مريم/٣٩ ومعها: البقرة/٢١٠.

(٤) الزمر/٧١. وانظر معها: غافر/٦: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)﴾.

(٥) الصافات/٢٥ - ٢٦.

(٦) الصافات/٣١.

عتاب، ولا يعقبه تغيير: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[(١)].

وبعد إيصاد أبواب دار الثواب والعقاب، تنطلق أصوات التحميد والتسبيح مرددة أسماء الله الحسنى في خشوع واستسلام: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[(٢)]، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[(٣)].

**** مستفادات:**

وانسجاما مع ما تقدم يتبين:

* أن إماتة الدنيا وبعثها في صورة آخرة وحشر الخلائق وحسابها، كما تسلسلت وقائعها في آيات القرآن الكريم؛ يدل دلالة قاطعة على الحاكمية الواحدة، إذ أن هذا الكون وسائر ما فيه ومن فيه، يتحول في الآخرة بوحدة الحاكمية إلى جنود مستنفرين للواحد الأحد، ومسخرين بأمر القادر المقتدر، كما كانوا مسخرين له في الحياة الدنيا.

* أن العموم الملحوظ في لفظ «**الأمور**» يشير إلى أن لمالك الكون عناية بالغة بتسجيل كل شيء، وضبط كل ما يجري في ملكه؛ بحيث إنه يكتب ويستكتب في صحائف أهون عمل وأجل شأن، وهذه الحفيظية الواسعة الدقيقة تدل على أنه سبحانه سيفتح، بلا شك، سجلاً للقضاء في أعمال الإنسان، التي هي عظيمة لدى ربوبيته، وأنه سيجازي عاملها بما يليق به من ثواب وعقاب.

* أن في تقرير رجعة الأمور إليه سبحانه في الآيات المتقدمة دليل

---

(١) الجاثية من الآية: ٣٥.

(٢) الجاثية/٣٦ ـ ٣٧.

(٣) الزمر/٧٥.

واضح على الربوبية والسلطنة؛ لأن الذي أوجد كوناً بديعاً كهذا الكون، وأظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود، بغايات سامية، إظهاراً لصفاته المقدسة، لا يمكن أن لا يوجد عالماً باقياً، وأن لا يرجع فيه أمور الخلق إليه للجزاء.

* أن أفعال الربوبية العظيمة في الآخرة صادرة من تجليات الأسماء الحسنى؛ أمثال: «**الرب**» و«**الرحيم**»، و«**العزيز**»، و«**القدير**»، و«**الحكيم**»... ذلك أن هذه الأسماء القدسية تدل دلالة قاطعة على الدار الآخرة، وتظهرها لتستوفي حقيقتها وتستكمل تحققها[١]، بل وتقتضي جميعاً الآخرة وتلازمها، كما اقتضت تجلياتها هذا العالم الدنيوي ومصنوعاته، التي تدلنا على وجوده سبحانه وراء حجاب الأسباب الطبيعية والغيبية، التي أرادها سبحانه لابتلاء العباد، واقتضتها عزة ألوهيته لصيانة جلاله من جهة نظر العقل الظاهري.

فما هي إذن هذه الأستار الظاهرية والغيبية لأمور قدر الله؟ وما مدى تأثيرها في الكون والإنسان؟ وما هو سر الحكمة في جعلها أستاراً لكمال القدرة والعزة؟

جواب ذلك في المطلب التالي.

* * *

---

(١) فالرحمة ـ مثلاً ـ جعلها الله في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، منه يتراحم الناس والبهائم، كما ثبت في الصحيح، عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جعَل الله الرحمةَ في مِائة جزء، فأمسَك عندَه تسعَة وتِسعين جزءاً، وأنزَل في الأرض جُزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يَتراحَم الخلق، حتى تَرفعَ الفَرس حافِرها عن ولَدها خِشية أن تُصيبه**»: (رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٠).

فهذه الرحمة الدنيوية الواحدة تضاف الى الأجزاء التى ادخرها سبحانه لنفسه يوم القيامة، فتبلغ هذه الصفة الجليلة يومئذ مداها، وتستكمل وجوهها. وبمقتضاها يدخل الله المتقين إلى جنته، وينجيهم من العذاب، ويتجاوز عما يشاء لمن يشاء، ولا يناقش المؤمنين الحساب.

المطلب الثالث: وسائله

لقد جعل الله سبحانه في داري الابتلاء والجزاء جنودا مطيعين، ظاهرين وخفيين، ومنحهم القوة والتأثير بأمره سبحانه، وبموجب هذا الأمر صاروا في كل آن وحين يتشرفون بالخطابات الربانية، ويمتثلون الأوامر الإلهية، ويدبرون أمور الربوبية، من إيجاد، وإعدام، وتدوين، وحفظ، وإثابة، وإهلاك...؛ وذلك ليدلوا على وحدة آمرهم الله جل جلاله، ويشهروا عظمة قدرته وإتقان صنعته، ويظهروا عاداته المتبدية في سننه، ويحجبوا عن أنظار الإنس والجن كمال فاعليته وعزة سلطانه.

فأولئك الخدمة المطيعون الذين خلقهم الله سبحانه، وجعلهم شرائط ووسائل، يمضي بمجراها أمره في الكون والخلق، وفي عالمي الشهادة والغيب... هم جند الله: الأسباب الظاهرة، والأسباب الغيبية (الملائكة).

٣. ١ ـ الأسباب الظاهرة

شاء الله سبحانه، بمقتضى اسمه «**الحكيم**»، أن يجعل ما في الكون، ومن فيه من الأحياء والعناصر والأشياء والأحداث مرتبطاً بعضه ببعض ضرورة؛ كارتباط المطر بالسحاب، والإنسال بالاتصال بين الذكر والأنثى، والري والشبع بالشرب والأكل، والثواب بالهدى والإيمان، والتقوى والنصر بالصبر، والنبوة برحمة العباد...

وإذا كان الارتباط بين هذه الأسباب ومسبباتها ضرورياً في الكون المخلوق، الطبيعي منه والبشري؛ فكيف يستقيم ذلك مع الإيمان بأن الله سبحانه متفرد بالخلق والأمر، متصرف في كل شيء، قادر على كل شيء، ومع ما يقتضيه هذا الإيمان من إفراده بالاستعانة والتوكل دون الالتفات إلى هذه الأسباب الظاهرية؟ ثم كيف يستقيم ذلك مع الإيمان بالمعجزات التي أيد الله بها الأنبياء، ومع ما يقتضيه هذا الإيمان من حدوث المسببات بدون أسبابها، خلافاً لسنن الله الجارية على نظام السببية؟ وما هو سر الحكمة في ترتيب المسببات على أسبابها، وفي خرق هذا الترتيب بالمعجزات؟

ذلك ما سيكشف عنه بجلاء بيان حقيقة الأسباب الظاهرة المتعلقة بالكون والإنسان.

٣. ١. ١ ـ الأسباب المتعلقة بالكون

لقد كشف بحث «**الخلق**» وبحث «**تدبير أمور الكون**» من خلال بيان القرآن الحكيم عن التناسق البديع في جميع أرجاء الكون، وعن الروابط بين الأسباب والمسببات، وعن التزام هذه الأسباب بإظهار مسبباتها وفق علم الله وأمره، مما أفاد يقيناً أن الوظائف التي نيطت بالمسببات والغايات الناشئة منها تظهر جميعاً أن وراء حجاب الأسباب رباً كريماً حكيماً يرى تلك الغايات ويراعيها، وأن ما نراه من أشياء ليست إلا من إبداعه وصنعه سبحانه. وذلك لأن «**الأسباب**» التي هي «مواد جامدة خالية من الشعور، ومخلوقة مصنوعة»[١]، عاجزة عن الخلق[٢] وعن ملاحظة غاية لشيء مسبب، بينما أي مخلوق يرد الوجود لا تناط به حكمة واحدة، بل حكم عديدة؛ أي: أن الرب الحكيم هو الذي يوجد الأشياء ثم يرسلها إلى هذا العالم، ويجعل تلك الفوائد غاية وجودها[٣]. فمثلاً: إن الأسباب الظاهرة لتكوين المطر، كالرياح والسحاب، عاجزة عجزا مطلقاً، وبعيدة كل البعد عن أن تشفق على الحيوانات، أو تلاحظ أمورها وترحمها وتنزل لأجلها. ومن ثم فإن الذي تكفل برزقها هو الخالق الجليل الذي يرسل المطر ويغيثها رحمة بها. والتراب الذي لا شعور له، لأنه بعيد أن يهيء الأرزاق رأفة بالأحياء؛ لا ينشق بنفسه، بل هناك من يشقه ويفتح أبوابه.

---

(١) كليات رسائل النور: ٢٧٦/٣.

(٢) وقد أثبتنا ضمن مستفادات الخلق أنه عند إسناد خلق الأشياء إلى الواحد الأحد، يسهل خلق الجميع كخلق شيء واحد، وإذا أسند خلق شيء واحد إلى الأسباب المادية فيكون صعباً جداً ومعضلاً كخلق الجميع.

(٣) لهذا ذكر القرآن الكريم في الآيات المتقدمة في مجال تدبير أمور الكون، في ثنايا العلاقة التأثيرية بين الأسباب والمسببات، أفعال الرب العظيم ذكراً مهيباً، في مثل قوله: «سقناه» و«أنزلناه» و«صببنا» و«شققنا» و«أخرجنا»، و«يؤلف» و«يصرفه».

وهكذا سائر الأسباب المادية في الكون، قد أسندت إليها مسببات تتجلى عليها آثارالرحمة والحكمة، التي تشير إلى رحيم كريم، مسلمة الأسباب الجامدة إلى يد قدرته سبحانه، وسالبة إياها القدرة على الخلق؛ ولا غرو في ذلك فتلك الأسباب العاجزة ليست متصفة بصفات الألوهية من الهيمنة الكلية على الموجودات، والقدرة المطلقة على إدارة الكون، والعلم الواسع بتصاميم الكائنات، حتى تُستجدى على بابها الرحمة أو تهب الحياة، أو تسند إليها أعمال تشف عن الحكمة والاختيار؛ وإنما هي مأمورات تحت تصرفه سبحانه، وقائمات بقوامته، وقد أعطاها سبحانه خلقها التي تعمل به ووفقه، مصداقا لقوله على لسان موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]. أعطى لكل مخلوق خلقه، وعين بإرادته طبيعته، وجعل له غريزة لها تأثير وتأثر؛ فجعل في النار ـ مثلاً ـ الحرارة والإحراق، وأعطى للخشب خاصية الاحتراق، وللماء خاصية الإحياء والإغراق، وللسم خاصية الإزهاق، ثم جعل العلاقة بين طبائع هذه المخلوقات وأفعالها مطردة. وبسبب هذه العلاقة تظهر لنا بعض الأشياء بمظهر الأسباب المؤثرة الفاعلة، وتظهر لنا أخرى بمظهر المسببات المتأثرة المنفعلة. وبملاحظة الرابط السببي المحكم بين الأسباب ومسبباتها[2]، أمكن للإنسان ـ بالتجربة والمشاهدة ـ أن يلاحظ

---

(١) طه/٥٠.

(٢) وحول هذا الترابط السببي، الذي يحكم الوجود كله، تصارعت آراء الفرق الإسلامية قرونا طويلة، في خضم البحث في صفات الله وتعلقها بالكون والإنسان، وتمخض الصراع عن أربعة مواقف رئيسَة، نوجزها فيما يلي:

الموقف الأول: موقف المجبرة ومن تبعهم من الأشاعرة، وهو إنكار الأسباب، تنزيها لله في اعتقادهم «فالله ـ في قول الجهم ـ وحده هو الفاعل في الحقيقة، والناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز»: (مقالات الإسلاميين: ٣٣٨/٢). والعلاقة بين الأشياء ـ في قول الأشعري ـ ليست إلا علاقة اقتران في الحدوث بالتتابع، وليست علاقة ضرورية واجبة: (انظر بيان هذا المعتقد في تهافت الفلاسفة/٦٦، نقلا عن القدر عند ابن تيمية/٤٩).

وهذا الموقف الأشعري ناتج عن نظرة أصحابه الإجمالية للعالم، حيث رأوا أن في مقدور الله سبحانه أن يخلق العالم على النواميس التي هو عليها، أو على نواميس=

حدوث المسببات إذا شاهد حدوث الأسباب، وأن يعرف القوانين المعنوية

= أخرى مخالفة إذا شاء هو سبحانه ذلك. لذا كان مذهبهم هذا دفاعا عن حرية الإرادة الإلهية، وإبعادا لتصور تعدد الشركاء، وإفساحا للمجال أمام المعجزات، ودفعا للتعارض القائم بين القدرة الإلهية المطلقة، وبين وجوب حدوث المعلول عن العلة وثبات السنن الكونية.

الموقف الثاني: موقف الماديين والطبيعيين، الذين اعتبروا الأسباب قوى عاملة، عاقلة، خالقة، مستقلة: (انظر كليات رسائل النور: ٢٦٨/٣ و٥٧٦ ـ ٥٧٧ وما بعدها) وهؤلاء وقعوا في شرك عبادة الأسباب، الذي يتعارض أساساً مع عقيدة الإخلاص في الإسلام.

الموقف الثالث: موقف المعتزلة، وهو التأكيد على أن الارتباط بين العلة والمعلول ضروري، فالعلة مؤثرة بل موجدة للمعلول، وهي تسبقه بالضرورة؛ إذ من المحال أن يتقدم المسبب سببه (انظر القدر عند ابن تيمية/٤٨) وموقفهم هذا ناشئ عن نظرتهم الجزئية إلى الموجودات في هذا العالم؛ حيث تأملوا في أرجاء الكون، ووجدوا العناية الربانية قد شملت كل شيء، وسرت في كل شأن، وقرنت بين هذه الموجودات من خلال ترتيب وتنظيم، بحيث يتحقق لكل موجود غايته. وعلى هذه الغايات بنوا دليلهم على وجود واجب الوجود القائم على العناية الربانية لمصالح كل كائن. ومن هنا، كان واجباً على الله، في زعمهم، أن يخلق العالم على هذه الصورة الممكنة دون سواها، مصداقاً لشعارهم القائل: «ليس في الإمكان أبدع مما كان». ومن ثم، قالوا بعالم محكوم بأسباب مؤثرة تنتج مسبباتها بالضرورة، من حيث إن ذلك يحقق لكل موجود وجوده وماهيته. وإذن، فالعلاقة بين السبب والمسبب ليست مجرد علاقة اقتران وتتابع، بل علاقة إنتاج وتأثير، في الوجود والعدم. وهذا الموقف يتساوق مع مذهبهم في إثبات العدل الإلهي، وحرية الإنسان، وتقييد القدرة الإلهية المطلقة.

الموقف الرابع: موقف ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وهو موقف وسط، ينبني من جهة على إقرار فاعلية الأسباب وارتباطها المحكم بمسبباتها، والإلحاح في الدعوة إلى رعايتها والوقوف معها، خلافاً للأشاعرة، ومن سار على دربهم من المجبرة والمتصوفة الحلولية خاصة. ومن جهة أخرى، على ارتباط هذه الأسباب بإرادة الله وقدرته المطلقة، خلافاً للمعتزلة، مما يعني أن الاستغناء بالأسباب عن الله، وكأنها مستقلة عمن يمسك بيده أزمتها، ضرب من الشرك، وإنكارها والغيبة عنها نقص في العبودية وإهدار للعقل، ومصادمة للحس، ومخالفة للسلف الصالح: (يراجع في ذلك: مجموع الفتاوى: ١٠٤/٨/٤ ـ ١٠٩، ومدارج السالكين: ٤٠٧/٣ ـ ٤١٠ و٤٩٧ ـ ٥٠١).

ولعل مقطع الحق في قضية السببية تلك الكلمة البليغة التي نطق بها ابن القيم، تلميذ ابن تيمية وشارح أفكاره؛ حيث قال عن الأسباب: «ودر معها حيث دارت ناظراً إلى=

النابعة من الحكمة، التي تسير وفقها العناصر والأحياء والأشياء والأفلاك؛ وأن يتصرف في أغلب المخلوقات، مسخراً أكثرها له ولمصالحه.

وحيث إن رب العالمين يخلق كل شيء: الأسباب والمسببات، ويربط بينها من خلال النظام الذي تظهره قوانينه الكونية؛ فلا بد أنه يفعل سبحانه ما يشاء وكيف يشاء، فيغير قوانينه تلك لبعض الحكم، ويظهر أنه الفاعل المختار، وأن اختياره يهيمن على كل شيء، وعلى كل قانون واطراد. . .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكلية، يتوجه كل ما أجراه سبحانه على أيدي الأنبياء من معجزات خارقة لقوانين الطبيعة والمخلوقات؛ ومن ذلك ما أوضحناه في مجال القضاء من كون النار، وهي علة للإحراق، حسب القانون الطبيعي، لم تحرق إبراهيم عليه السلام لأن الله أمرها بعدم حرقه، بمجرد صدور قوله لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[1]. وبهذا الأمر سُلبت النار قوة الحرارة والبرودة والإحراق المودعة فيها، وصارت ـ في إطار المعجزة ـ علة للبرد والسلام بأمر الله وقدرته، وذلك تحقيقا لحكمة بالغة في خلقه، وهي: نجاة خليله عليه السلام.

وكما أن النار لم تحرق إبراهيم بأمر الله وقدرته، فإنها عندما تحرق أي شيء أو حي؛ فإنما يحدث الإحراق منها بأمر الله وقدرته ومشيئته وحده، وليس له سبحانه في هذا الفعل شريك طبيعي يتمثل في قوة إحراق

= من أزمتها بيديه، والتفت إليها التفات العبد المأمور بتنفيذ ما أُمر به، والتحديق نحوه، وارعها حق رعايتها، ولا تغب عنها ولا تغن عنها؛ بل انظر إليها في رتبتها التي أنزلها الله إياها، واعلم أن غيبتك بمسببها عنها نقص في عبوديتك، بل الكمال: أن تشهد المعبود، وتشهد قيامك بعبوديته، وتشهد قيامك به لا لك، ومنه لا منك، وبحوله وقوته لا بحولك وقوتك، ومتى خرجت عن ذلك وقعت في انحرافين، لا بد لك من أحدهما؛ إما أن تغيب بها عن المقصود لذاته، لضعف نظرك وغفلتك، وقصور علمك ومعرفتك، وإما أن تغيب بالمقصود عنها، بحيث لا تلتفت إليها، والكمال أن يسلمك الله من الانحرافين» (مدارج السالكين: ٣/٤٠٩ ـ ٤١٠).

(١) الأنبياء من الآية: ٦٩.

مستقلة للنار، فليس في النار قوة طبيعية محرقة بالضرورة ومستقلة عن المشيئة الإلهية.

وكذلك الأمر في حادث انفلاق البحر بضرب موسى له بعصاه، المخالف لطبيعة الماء المغرِقة، فكما أن البحر انفلق ولم يغرق موسى وقومه بأمر الله وقدرته وليس بعصا موسى، كما أثبتنا ذلك[(١)]، فإنه أيضاً يغرق ويقبض ويهدأ ويهيج، وغير ذلك من أحواله الطبيعية بأمر الله وقدرته وحده، وليس بقوة طبيعية خاصة به، مستمدة من قدرته ومستقلة عن الفاعلية الإلهية!

وهكذا تنبه هذه المعجزات إلى أن الله سبحانه بأحديته مالك لزمام كل شيء في قبضة ربوبيته، وأن كل شيء يُخلق بإرادته وفاعليته. ومن ثم فإن الأسباب الظاهرية الطبيعية، التي يعتقد عباد الأسباب بتأثيرها الحقيقي في الإيجاد، لا توجد في هذا الكون ولا تقوم إلا بقدرته المطلقة. وإذ هي مخلوقة، والمخلوق لا يخلُق، فهي لا تخلق المسببات ولا تؤثر فيها دائما وبالضرورة إلا بفاعليته سبحانه، ووفق أمره ومشيئته؛ ذلك بأن السبب الحقيقي لوجودالمخلوقات كلها هو «**القيوم الأزلي**» الله جل جلاله، وقدرته المطلقة، وكلمته الأزلية؛ لأن التوحيد والجلال يقتضيان الاستقلال بالخلق والأمر. ومن ثم فليست تلك الأسباب الظاهرية شريكة له سبحانه في ألوهيته، ولا معينة له في ربوبيته، لأنها سوى الوسائط والوسائل والظروف التي ستر بها سبحانه فاعليته المطلقة الجارية في الأصل بالكلمة الإلهية المباشرة، ومن دون أسباب أو ضرورة لوجود أسباب، بصريح بيان الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[(٢)].

٣. ١. ٢ ـ الأسباب المتعلقة بالإنسان

لما كان كل شيء في الكون مربوط بسبب، كان الإنسان بالبداهة ـ

---

(١) انظر ص٤١٤.

(٢) يس/٨٢.

وهو أشرف الموجودات وأكثرها تصرفا في الأمور ـ عبارة عن سلسلة عجيبة مترابطة من الأسباب والمسببات، التي تحكم خلقه، وأموره الاضطرارية؛ كالنوم، واليقظة، والمرض، والموت...، وأفعاله الاختيارية؛ كالأكل والكلام والفكر والإيمان والكفر والجهاد... وليس للإنسان في هذه السلسلة من الأمور والأفعال حصة في الربوبية الإلهية، وليس له ـ مع كونه أشرف الأسباب وأوسعها اختياراً ـ إلا الانقياد التام إلى ما قدره الله وقضاه من تصرفاته وأوضاعه البشرية، والقيام بخدمات العبودية، واكتساب ما يختاره لنفسه من أعمال عن طريق الأسباب الظاهرية المخلوقة لله.

فمثلاً: سلسلة الأمور التكوينية المترابطة، التي تبدأ من النطفة، فالمضغة، فالعلقة، حتى تبلغ تشكل الخلق الآخر؛ ليس للإنسان، ضمن هذه السلسلة الطويلة من أسباب تكوينه، إلا إنزال الماء في الفرج، علما أن هذا الإنزال لا يوجب إيجاد الولد؛ إذ أن الولد ـ كما يذكر ابن تيمية ـ لا يُوجد بمجرد إنزال الماء في الفرج، بل كم من أنزل ولم يولد له، بل لا بدَّ من أن الله شاء خلقه فتحمل المرأة وتربيه في الرحم وسائر ما يتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع. وكل ذلك بقضاء الله وقدره...[١] وليس ذلك القدر الإلهي شيئاً آخر غير قانون الإنسال الذي سنه الله بين البشر، والذي شاء أن يخرقه في ولادة عيسى من غير أب، وإسحاق بعد الأياس، كما علمنا. وهذا يؤكد يقينا أن مجرد الأسباب الظاهرية للإنجاب لا يوجب وجود الإنسان؛ لأن هذا الإنسان مغلول اليد عن الإيجاد الحقيقي، رغم ما وُهب من اختيار جزئي.

ومثلاً: الوظائف والحركات في سلسلة العلل والمعلولات، التي تمد الإنسان بمقومات البقاء، ليس للإنسان نصيب منها إلا اتخاذ الأوضاع الميسرة لهذه الوظائف والحركات؛ كالارتخاء، والأكل، وتحريك الأطراف... وكل ذلك من خلق الله وأمره.

(١) الفتاوى: ٤٤/٨/٤ ـ ببعض تصرف ـ.

ومثلاً: المصائب والأمراض التي تقرع الإنسان وتسبب له الآلام والأوجاع؛ ليس للإنسان حظ في دفعها إلا بتعاطي أسباب إذهابها المقدرة في علم الله عز وجل؛ كالدواء الشافي للداء، والدعاء الضارع إلى الله برفع البلاء. وهذه الأسباب لا توجب مسبباتها إلا بأمر الله ومشيئته. ومن ثم فليس للإنسان من الشفاء، في حقيقة الأمر، إلا جرعة من دواء، ومن زوال البلاء إلا القيام بوظيفة فطرته الأساس «الدعاء» بعد الإيمان.

وتحت وطأة بعض الأمراض والنكبات، قد يفقد الإنسان ماله وولده؛ بل ويفارق الحياة وهي حالات منافية ظاهراً لعزة القدرة الإلهية وكمالها، ولا يدرك كما يوضح الإمام النورسي، نَظَرُ أكثر الغافلين حكمتها، فيشتكي بغير حق ويعترض بغير علم، لهذا جعل الله من الأمراض والمصائب مرجعا لتلك الحلات ووسائل لها، واتخذ منها ستاراً ليد قدرته الحكيمة، وحجاباً لعظمته وكبريائه، لتتوجه إليها الشكاوى والاعتراضات الجائرة من ذوى العقول القاصرة؛ إذ العظمة والكبرياء يقتضيان الحجاب، إلا أن العادل المطلق جل وعلا لم يعط التأثير الحقيقي لتلك الوسائل، إذ وحدة الأحدية تقتضي الاستقلال(١).

وقس على هذه الأمور الاضطرارية في تصرفات الإنسان وأوضاعه، سلسلة الأفعال الاختيارية التي تبدأ من الأكل والشرب، التي يحصل بهما الري والشبع حتى تبلغ إلى الفكر والكلام؛ ليس للإنسان ضمن هذه السلسلة الطويلة إلا مضغة من طعام، وجرعة من ماء، وإدخال للهواء إلى قوالب مخارج الحروف وإخراجه منها.

وهكذا سائر تصرفات الإنسان الاختيارية من طاعة وعصيان، وهداية وضلال؛ ليس للإنسان نصيب في خلقها وخلق أسبابها إلا العزم الاختياري على الفعل، والانبعاث الإرادي إلى تنفيذه والتلبس به، ذلك بأن الله سبحانه هو خالق أفعال الإنسان، كما تضمنه الإجمال الذي في قوله سبحانه:

---

(١) ينظر كليات رسائل النور: ٢٢٦/١ ـ ٢٢٧ ـ بتصرف ـ .

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1]. والفعل من جملة الأشياء بلا شك، والله خالقه وخالق أسبابه، وليس للإنسان إلا اكتساب الأسباب المخلوقة لله، لاكتساب مسبباتها التي تفضي به في النهاية إلى ما اختاره من الأفعال؛ أي: أن الله سبحانه يمد الإنسان بالأسباب التي يحصل بها على المسببات. واليد القصيرة للاختيار تركب الأسباب والمسببات المخلوقة لله وترتبها بنسب محددة كما وكيفا، وفق غاية الفاعل المختار.

فمثلاً: أفعال الهدى والتقى، التي تبدأ من الإيمان بالله ومعرفة صفاته وآلائه، حتى تبلغ الجود بحشاشة النفس في سبيل إعلاء كلمته؛ ليس للإنسان من هذه الأعمال إلا صدق الاتجاه إليها، والانبعاث النفسي إلى اكتسابها باكتساب أسبابها. وهذه الأسباب مخلوقة لله، ومُيَسرة بأمره ومشيئته، وفق سننه الثابتة في معاملة عباده، وهي كما مضى: أن من عقد العزم على معرفة الحق منذ أول الطريق، ولم يعطل عقله الذي وهبه الله إياه، وآمن بالله، ودعاه أن يعينه في أمره، وأن يوفقه للتمسك بأحكامه؛ أدركته ألطاف الله ورعايته، فيزيد سبحانه إلى عقله عقلاً آخر من هدايته، ويضع في إرادته معنى العزيمة والإصرار، ويلقي في قلبه بواعث التقوى والإيمان. وعن هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾[2] ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾[3]، فعُلم أنه بسبب الاهتداء، يمد الله الذين آمنوا بأسباب الهداية، كأن يلقي في قلوبهم مزيدا من الإقبال على هدى القرآن الكريم، كما قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[4]، أو يضع بين جوانحهم مزيدا من الرحمة بالفقراء والمساكين، فيبسطون إليهم أيديهم بالبذل؛ فيكون ذلك سببا لنيل الأجر، وذلك هو معنى قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ

(١) الفرقان من الآية: ٢.
(٢) محمد/١٧.
(٣) يونس من الآية: ٩.
(٤) المائدة من الآية: ١٦.

وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾...[١] فبسبب هذا الإمداد الرباني للمؤمن بأسباب الهداية، ينال المؤمن السعادة في الدنيا والآخرة، لكن بفضله ورحمته؛ إذ ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب. ولهذا قال النبي عليه السلام: **«لن يُدْخل أحدا عملُه الجنة»** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة»**[٢]؛ أي: ليس العمل ثمنا كافيا في دخول الجنة، بل لا بد من عفو الله ورحمته، فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف البركات[٣]. ومن ثم فعلى العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله، لا على سبب من الأسباب، والله سبحانه ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، إذا صدقت نيته على التوجه بالإيمان والطاعة لربه. وهذه السنة الربانية هي التفسير التطبيقي لقوله تعالى: ...﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٤].

وكما أن الإيمان والعمل الصالح يحصل بأسباب يكتسبها الإنسان بمشيئة الله؛ كذلك نصر المؤمنين على الكافرين في معارك الحق والباطل، يوقعه الله بأمره ومشيئته، ويجريه بأسبابه. ومن هذه الأسباب التي يراعيها الناس في مطلق الأحوال: كثرة الرجال، وقوة السلاح، وخداع الأعداء... لذا كان الرسول عليه السلام في معظم حروبه يلبس الدرع، ويحمل السلاح، ويأمر الجنود بالتترس بالموانع ضد الأعداء، يفعل ذلك مع التوكل على الله، والصبر على تكاليف المعركة، وإطاعة أمر الله، وتجنب النزاع والشقاق، والحذر من البطر والرياء... وذلك ليبين مدى طاعته الكاملة لنواميس الشريعة التكوينية، وأوامر الشريعة التكليفية . .ومن المعلوم بداهة أنه

---

(١) الليل/٥ ـ ٧.

(٢) البخاري في المرضى (٥٦٧٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تم إيضاح ذلك ضمن مستفادات التدبير في مجال القضاء.

(٤) فاطر من الآية: ٨. مضى إيضاح هذا المعنى مقروناً بما يقابله من معنى إضلال الله للكافر وإمداده بأسباب الشقاء، جزاء على عناده واتجاه قصده إلى التلبس بالكفر واكتساب المعاصي: (يراجع في بحث تقدير الهداية والضلال، ضمن مجال التدبير في هذا المبحث).

ليس لتلك الأسباب الظاهرية التي أُمر بها النبي عليه السلام وأمته في جهاد الأعداء تأثير حقيقي في إيجاد النصر وإيقاع الهزيمة. يشهد لذلك المعجزات التي أكرم الله بها رسوله والمؤمنين في بعض الغزوات، تصديقا لدعوى النبوة، وكسرا لعناد المنكرين للدعوة؛ فقد أمده الله في بدر ـ كما سلف البيان ـ بملائكة مسومين، وربط على قلوب القلة المؤمنة، وثبت أقدامهم، وسلمهم من النزاع، وأوهن تدبير المشركين وقذف الرعب في قلوبهم، وشل إرادتهم عن القتال فجاء النصر من عند الله العزيز الحكيم، بخلاف دستور النصر وأسبابه المادية، لكن وفق أسبابه المعنوية، الموصولة بالله جل جلاله وهي[1] ـ كما علمنا ـ : الثبات عند لقاء العدو، والطاعة لله ورسوله، والصبر على الضراء.

وكما اقتضت حكمته سبحانه أن يتوجه هذا النصر المعجز دون حجاب الأسباب الظاهرية، إلى تدبير رب العالمين ومشيئته الخاصة، كذلك اقتضت قدرته الكاملة أن يسخر المؤمنين، وهم أشرف الأسباب وأقدرها تصرفا في أمر القتال، لقتل أعداء الله بأيديهم، وذلك بما يسر لهم من أسباب الغلبة الحقيقية. يصرح بهذا قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[2]،

---

(١) وحتى هذه الأسباب المعنوية الحقيقية لا توجد نصراً ولا هزيمة إلا بمشيئة الله وأمره، فهي ليست إلا مقدمات رتب عليها سبحانه الغايات الحكيمة بقدره ومشيئته. وإلا فمن ذا الذي ركب الإيمان في قلوب مؤمني بدر، وهداهم إلى نعمة الإسلام؟ ومن ذا الذي اصطفاهم لتنفيذ مشيئته وأمره؟ ومن ذا الذي ربط على قلوبهم وثبت أقدامهم، وسلمهم من النزاع، ومن البطر والرياء، في مواجهة الأعداء؟ ومن الذي أرهب هؤلاء الأعداء الأقوياء عددا وعدة، وشل عزائمهم، وأوهن تدبيرهم؟ ومن ذا الذي أمدهم بالملائكة، تسير في ركابهم، وتعينهم على ضرب الرقاب، وضرب كل بنان؟ أليس هو الله جل جلاله، صاحب العون والمدد، وصاحب القوة والسلطان، والمستند الرصين للموجودات، والفاعل المؤثر في الأحداث والكائنات؟ بلى ثم بلى! فأولى ـ إذن ـ أن يستند كل مؤمن بالله، مجاهد في سبيله، ماض في طاعة أمر الله، واثق بنصر الله إلى نقطة الاستناد النورانية، التي أفصحت عنها الآية الكريمة: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾: هود/١٢٣، وكذا قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾: الروم من الآية: ٤.

(٢) الأنفال من الآية: ١٧.

فهذه الآية تبين أن المؤمنين ليس لهم من أمر النصر شيء، وأن النصر: أسبابه ونتائجه من الله المتفرد بالخلق والأمر[١]، والمؤمنون ليسوا سوى ستارا لقدرته وإرادته؛ وهو سبحانه يريد أن يحققوا أمره النافذ، ليكرمهم بعد كرامة الاصطفاء بفضل الثواب... ثواب الجهاد والبلاء في قتل أعداء الله، بما يسره لهم من أسباب ذلك. وبهذه الآية وأمثالها[٢] يربي سبحانه أولياءه على أن ينسلخوا بأشخاصهم من هذا النصر الساحق، أسباباً ونتائج، كي تسلم نفوسهم من الغرور والزهو، ويشعروا أن ليس لهم من الأمر شيء، لا في نصر ولا في هزيمة، ويسلموا الأمور كلها بيد الله، كما سلمتها طوعاً سائر الكائنات في الوجود، طبقاً للقاعدة الأصيلة: قاعدة رد الأمر كله لله، وعزل الأسباب الظاهرة والخفية، وسلبها القدرة على التأثير والإيجاد.

وفي ضوء ما سبق، نحصل ونستفيد:

● أن الخالق الحكيم وضع الأسباب الظاهرة ستارا لتصرفات قدرته، لئلا تظهر مباشرة يد فاعليته على أمور القدر العظيمة، ولا سيما الأمور الجزئية التي تظهر للعقول القاصرة كأنها غير لائقة؛ إذ العظمة والعزة تقتضي ذلك. إلا أنه سبحانه لم يعط التأثير الحقيقي لتلك الأسباب الصورية؛ إذ وحدة الخلق والأمر تقتضي ذلك أيضاً. وعليه فإن التأثير الثابت الذي أعطاه الله للأسباب، بحيث تنتج المسببات عن أسبابها باستمرار لتحقيق حكمة الابتلاء، هو بأمر الله ومشيئته أولاً وأخيراً؛ ذلك بأن الله هو نفسه

---

(١) كما قررته الآية التي قبلها، ضمن ذكر الأسباب الموجبة للنصر، وهي: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾: الأنفال من الآية: ١٠.

(٢) كآية الأنفال: ١٧ ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾، فهذه الآية التي يتمسك بها الجبريون وأذنابهم من المتصوفة في تقرير مذهبهم القائل: إن الإنسان مسير في كل شؤونه وأعماله؛ تنبيه إلى تلك الحادثة الخارقة التي أجراها الله سبحانه على يد رسوله الأكرم عليه السلام؛ إذ هزم الكفار بقبضة من تراب رماها على أعينهم، فدخلت في عين كل كافر. فهذه المعجزة وأمثالها تؤكد أنه ليس للأسباب الظاهرة العادية تأثير حقيقي في الإيجاد؛ ذلك بأن الله عز وجل هو خالق هذه الأسباب، والقادر أن يفعل بها وفق دساتيره الربانية، وأن يفعل بخلافها، أو من دونها إذا شاء.

خالق الأسباب وخالق المسببات، وهو الذي ربط المسببات بالأسباب بتمام الحكمة، وجعل العلاقة بينهما علاقة فعالية وتأثير، وفق قوانين عاداته الخاصة بتنظيم شؤون الكون والإنسان، والتي خلقها، ويفعل إذا شاء بخلافها. فليست الأسباب إذن مستقلة بإيجاد المسببات، بل لا بد لها من مسبب الأسباب؛ الله جل جلاله الذي يمد الإنسان بها وييسر له اكتسابها؛ لتحصيل ما يخلقه له من مسبباتها وفق مبتغاه. ومن هنا، ينبغي للإنسان أن يلتفت إليها التفات العبد المأمور بها، بوصفها جنوداً مسخرة لإيجاد الموجودات وحفظها بأمر الله ومشيئته، لا بوصفها أرباباً من دون الله، مستقلة بالإيجاد؛ حتى إذا فعل هذه الأسباب، فعليه أن يكون قلبه معتمداً على الله، لا على سبب من الأسباب، وأن يكون متكلاً على الله، لا على حوله وقوته وعمله، وهذا هو الإخلاص.

● أن المعجزات التي أكرم الله بها الأنبياء أثبتت أن تأثير الأسباب في مسبباتها ليس تأثيرا ضروريا، وإنما هو بإرادة الله وأمره. وهذا يفتح أمام نظر الإنسان نافذة واسعة للتصديق بما سيحدث من الممكنات في الآخرة؛ يوم تبدل القوانين الدنيوية، وفي مقدمتها قانون السببية الذي يحكم الكون والإنسان، وعندئذ ستحل محلها قوانين مغايرة تحقق للإنسان السعادة أو الشقاوة في الآخرة[1].

٣. ٢ ـ الأسباب الغيبية (الملائكة)

لما اقتضت حكمة الله ورحمته أن يعيش الإنسان حياة ألف فيها نظام الوسائط والأسباب، وأصبح خياله لا يتمثل الأمور إلا بأسبابها؛ اقتضت حكمته

---

(١) فمثلاً: إن المنَعم في الجنة لا يبذر الحب ليجني الثمار، وإنما تأتيه بمجرد إرادته لها؛ كما قال سبحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾: ق/٣٥، وكذلك المعذب في النار لا يحترق ولا يموت، بل هو ـ كما قال تعالى ـ ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾: طه من الآية: ٧٣. وهذا مخالف لنواميس الدنيا التي تقوم على السببية؛ وذلك لأن هذه النواميس الدنيوية مخلوقة فانية كأي مخلوق. ولذلك صح أن يفعل بها في الدنيا وبغيرها، كما في المعجزات والكرامات الدنيوية... وهذا يؤكد أن مقارنة الأسباب بمسبباتها ليس أمراً ضرورياً، كما علمنا....

سبحانه أن يقيم الأحداث الغيبية على نظام الأسباب أيضاً ليوقن بها الإنسان، ويتمثلها كما ألف فكره وخياله، ويستدل بها على عظمة ملكه سبحانه؛ فأخبره تعالى عن سكنة من الأحياء، سماهم «**الملائكة**»[(١)]، يدبون في السماء، ويتغذون من النور، ويتلذذون من العبادة في العمل، ويطيعون أوامر الخالق طاعة كاملة؛ وأخبره أنهم يأخذون بزمام الشريعة التكوينية ويظهرونها، فيقومون بأنواع من العبودية الفطرية والعملية في سلطنة الربوبية، حسب أجناسهم، وحسب أنواع الموجودات في الكون؛ وبين له أن قسما منهم عُباد وُكلوا بالتقديس والتسبيح، وآخرون وكلوا بإحياء الكائنات والإشراف عليها وإلهام الأوامر الإلهية إليها بأمره تعالى، وآخرون وُكلوا بتنزيل التكاليف الإلهية إلى الإنس والجن، وآخرون وُكلوا بوظائف تتعلق بحياة الإنسان ومماته، والمحافظة عليه، وتدوين أفعاله، وتعذيبه بعد حشره وتوفية حسابه...

وهكذا، استخدم الله جل جلاله في هذا الكون ملائكته العابدين والمدبرين، لا على أساس أن لهم الخلق والأمر، فهو سبحانه الخالق الآمر، بل على أساس أن لهم الكسب دون الخلق، والتنفيذ دون الأمر؛ إذ ليس لهم غير جزء من الاختيار الجزئي الذي له الخدمة الفطرية والعبودية العملية فحسب. ومن ثم فهم ليسوا كموظفي السلطان البشري الذي لم يعينهم في ملكه إلا نتيجة عجزه، وإنما هم مستخدمون في أمور الخير

---

(١) ذكرهم سبحانه في كتابه الكريم بهذا اللفظ سبعاً وثمانين مرة، منها اثنتا عشرة بصيغة الإفراد، وثلاثا وسبعين بصيغة الجمع؛ ومرتان بصيغة التثنية؛ كالذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾...: الأنعام/٨، وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾...: البقرة من الآية: ١٠٢، وقوله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾... الزمر من الآية ٧٢. ولفظ الملك مخفف من الملأك، والمَلأكَة: الرسالة؛ وإنما سمي الملك بذلك؛ لأنه يبلغ عن الله تبارك وتعالى: (راجع: القاموس المحيط: ٤٣٢/٣، والصحاح: ١٦١١/٤، ومقاييس اللغة: ٣٥٢/٥). فلفظ الملك إذن يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهم ينفذون أمره التكويني الذي يدبر به السماوات والأرض، وأمره التكليفي الذي تنزل به الملائكة إلى رسله ـ عليهم السلام ـ : (ينظر: إغاثة اللهفان: ١٢٧/٢، ومجموعة الفتاوى: ٧٣/٤/٢).

والوجود كالأسباب الظاهرة، ومسوقون إلى العبادة لأجل إظهار عظمة الألوهية، وصيانة عزتها في الأمور التي لا تُرى فيها أوجه الجمال وأمثالها من الحكم...[١].

وانطلاقاً من هذه الحقائق، نبدأ الكلام في هذه الوسائط الغيبية بعرض صفاتهم التي تنم عن قابليتهم للطاعة والعبادة؛ ثم نقفي على ذلك بذكر أنواع وظائفهم التي وُكلت لهم لتنفيذ أمر الله التكويني وتنزيل أمره التكليفي، وذلك من خلال القرآن الكريم والحديث الشريف.

٣. ٢. ١ ـ صفاتهم

إن الملائكة، على اختلاف خلقهم[٢] وتفاوت درجاتهم في العبادة[٣]، خلق فريد من نور، لا يتصفون بشيء مما يتصف به البشر من الأحوال الجسمانية والنفسية؛ فهم منزهون عن الذكورة والأنوثة[٤]، ومطهرون من

---

(١) وإلى هذه الحكمة الجليلة الإشارة في كليات رسائل النور: ٤٠٤/١ و٣٢٤/٤.

(٢) وتفاوت الملائكة في الخلق لا يعلمه إلا الله، فإنه تعالى قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾: فاطر/١. وهذا التفاوت في الخلق مظهر جلي للتفاوت في الأقدار عند الله والقدرة على الانتقال. وليست كثرة الأجنحة إلا دليل القدرة على السرعة في تنفيذ أوامر الله التكوينية. ويؤيد هذا قوله عليه السلام: «**إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله: كأنه سلسلة على صفوان**»...: (البخاري في التوحيد (٧٤٨١)، عن أبي هريرة).

(٣) تتفاوت درجات الملائكة في العبادة والعمل، مع أنهم لا مراتب لهم في الرقي بالمجاهدة، إذ طاعتهم للخالق جبلية، فمنهم الأكابر الموكولون بالحياة، كجبريل الموكل بالوحي، وميكائيل الموكل بالقطر: (انظر مثلاً: آيتي: الشعراء/١٩٣، والبقرة/٩٨)؛ ومنهم الملائكة الحافون حول العرش المسبحون (كما في آية: الزمر/٧٥). ومنهم الملائكة المتصرفون في أمور بني آدم (كما في آيات: الطارق/٤، ق/١٧ ـ ١٨، والتحريم/٦).

(٤) يصرح بذلك قوله تعالى مستنكراً دعوى الكفار في الملائكة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾: الأنبياء/٢٦، وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾: الصافات/١٥٠.

الشهوات الحيوانية والميول النفسية[١]، ومبرءون من المعصية. ولعل أعظم صفاتهم الخِلقية والخُلقية هي:

**** القوة والشدة:**

أودع الخالق في ملائكته قوة خارقة تؤهلهم للقيام بما وُكل بهم من أعمال جسيمة بأمره تعالى. وقد أثنى سبحانه على عبده جبريل أحسن الثناء، ووصفه بجليل الصفات، فذكر ـ مثلاً ـ بأنه ذو قوة ومكانة عند ربه، وذلك في قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[٢]. ومن قوته عليه السلام: «**أنه رفع مدائن قوم لوط على جناحيه، ثم قلبها عليهم. فهو قوي على تنفيذ ما يؤمر به، غير عاجز عنه؛ إذ تطيعه أملاك السماوات فيما يأمرهم به عن الله تعالى**»[٣]. ووصف تعالى طبيعة ملائكة النار بقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ . . .[٤] في أجرامهم غلظة وشدة؛ أي: جفاء وقوة أو في أفعالهم جفاء وخشونة[٥].

**** القدرة على التشكل في صور مختلفة:**

إن الملائكة، مع كونهم مخلوقات نورانية لها أجنحة مثنى، وثلاث، ورباع[٦]؛ فإن الله جل جلاله قد منحهم القدرة على التشكل في صورة الأجسام الكثيفة المختلفة، بأمره وعلى مقتضى حكمته. ومما يدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[٧]. فقد

---

(١) فهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناسلون، ولا يتلذذون بالملاذ الأرضية؛ إذ يكفيهم النور والروائح الطيبة القريبة من النور غذاءً وشراباً، ويملؤهم التسبيح والحمد والتقديس لذة وسعادة (انظر العقائد الإسلامية/١١١ وكليات رسائل النور: ٤٠٤/١).

(٢) التكوير/٢٠.

(٣) إغاثة اللهفان: ١٢٨/٢.

(٤) التحريم من الآية: ٦.

(٥) مفاتيح الغيب: ٤٧/٣٠/١٥.

(٦) كما تبين آنفا في هامش ٢ ص٤٤٨.

(٧) الأنعام/٨ ـ ٩.

بين تعالى في هذا القول شبهات الجاحدين للوحي وبعثة الرسول؛ إذ اقترحوا أن ينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم، فرد عليهم سبحانه أنه لو أنزل ملكاً يصاحب الرسول البشري في تبليغ الدعوة، ويصدقه في الرسالة، أو أرسل في البشر ملكاً رسولاً؛ لكان على هيئة رجل **«لتُمْكِنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه»**[١]. فعلم أن من حكم نزول الملك على صفة رجل، تعليم البشر دين الله وتيسير مخاطبته والأنس به، وهذه الصفة البشرية هي التي عناها البيان الشريف بقوله، عن بعض حالات الوحي: **«أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه علي فيفصِم عني وقد وعَيت عنه ما قال، وأحيانا يَتمثل لي الملك رجلاً فيُكَلمني فأعي ما يَقُول»**[٢]. وقد يأتي جبريل النبي عليه السلام في صورته الملائكية الأصلية لإظهار عظمة الله وسلطانه، كما ثبت في الصحيح من حديث عائشة، قالت عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[٣]: **«ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق»**[٤]. ولم يكن جبريل وحده الذي يتمثل في هيئة رجل أنساً للرسول البشري، بل كان العدد الضخم من الملائكة الجنود ينزل من السماء في صورة مجاهدين للمشاركة في الغزوات، وتنفيذ ما قدره الله من نصر أوليائه وهزيمة أعدائه. يصرح بهذا القرآن، بمناسبة الكلام عن غزوتي بدر وحنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾[٥]، وقوله: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[٦]. فكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ويوم حنين عمائم حمر[٧].

---

(١) أضواء البيان: ١٦٥/٢.
(٢) البخاري في بدء الوحي (٢)، عن عائشة رضي الله عنها.
(٣) النجم/٨ ـ ٩.
(٤) البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٥).
(٥) الأنفال/٩.
(٦) آل عمران من الآية: ١٢٥.
(٧) تفسير ابن كثير: ٣٧٩/١.

**** العبودية**

إن الملائكة عباد من عبيد الله، فليسوا أولاداً ولا أنداداً له سبحانه، بل هم مذللون بإذنه، خاضعون لربوبيته. وقد صرح القرآن بهذه الحقيقة السامية في كثير من آياته؛ أمثال قوله تعالى، ردا على الذين جعلوا لله أولادا من الملائكة، وخرقوا له بنات بغير علم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾(٢)، وقوله تعالى نافياً أن تكون أرباباً له، أو أن تكون آلهة، ويكون لها غير ما للرسول الذي لا يفعل إلا بعد أمر مُرسله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾(٣)، وقوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾(٤). فأخبر سبحانه أنهم عباد مكرمون، لا يترفعون عن منزلة العبودية. ومن ثم، فهم لا يفترون عن العبادة والتسبيح والتقديس، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾(٥)، وقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(٦).

وإن هذه العبودية الدائمة التي تظهرها الملائكة لشهادة عظيمة لله بالوحدانية وكمال العبودية، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾(٧). وشهادة الملائكة أنه سبحانه إله وهم عبيد له، تتمثل في «**إظهارهم أفعالاً**

---

(١) الأنبياء/٢٦.
(٢) الزخرف/١٩.
(٣) آل عمران/٨٠.
(٤) النساء من الآية: ١٧٢.
(٥) الأنبياء/١٩ ـ ٢٠.
(٦) غافر من الآية: ٧.
(٧) آل عمران/١٨.

يؤمرون بها»[(١)]، ذلك بأن عبادتهم مندرجة في عين أعمالهم، وهم لا يعملون عملاً إلا بأمر معبودهم الجليل ووفق شريعته الفطرية.

**** الطاعة**

إن عبدية الملائكة، وعبوديتها لله عز وجل تتجسد في أسمى دلالتها، وهي الطاعة الكاملة لله، والانقياد التام لأوامره، «حتى جعلوا كل جرم من الأجرام السماوية العلوية بمثابة مسجد ومعبد لهم»[(٢)]. وهذه الطاعة جبلية فيهم لا تكلفهم أدنى مجاهدة؛ لأنه لا شهوة لهم. لذا نالوا شرف الاتصاف بعبديته وطاعته وترك عصيانه في تعبير الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[(٣)]؛ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله[(٤)]. ومثلها الآية الكريمة: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[(٥)]. فهم لا يخالفون الله في أمره بل يؤدون ما يؤمرون به، لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه[(٦)]. ويشهد لهذا الانقياد التام قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾[(٧)]. فأخبر سبحانه أنهم سجدوا من بعد أمره، فلم يؤخروا السجود ولم يقدموه، مما يدل يقينا على طاعتهم له سبحانه، ومبادرتهم إلى تنفيذ أوامره. ولهذا أضاف إليهم تدبير الإشراف والمباشرة والامتثال في قوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾[(٨)]؛ إذ هو المدبر للأمر كله أمراً وإذناً ومشيئة. ومن تدبيرهم لأمر الله بأمره سبحانه، نزولهم إلى

---

(١) تفسير مفردات ألفاظ القرآن/٤٨٠.

(٢) كليات رسائل النور: ٦٠٣/١.

(٣) الأنبياء/٢٦ ـ ٢٧.

(٤) تفسير ابن كثير: ١٧٢/٣.

(٥) التحريم من الآية: ٦.

(٦) جامع البيان: ١٦٦/٢٨/١٤، والكشاف: ٢٨/٤.

(٧) الإسراء من الآية: ٦١.

(٨) النازعات/٥.

الرسل بالوحي. روى ابن عباس أن النبي ﷺ قال لجبريل: «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا**» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾(٢)، وقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(٣). فنزول الملائكة بالوحي لا يتم إلا بأمر الله وإذنه ومشيئته. وإلى هذه الحاكمية المطلقة تستند مباشرة جميع الأعمال الجليلة والعبادات المخصوصة التي يؤديها الملائكة طاعة له سبحانه. ومن أجل هذه الطاعة الخالصة، استحقوا الثناء الرحمٰني عليهم، بصريح الآية الكريمة: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾(٤).

**** الخوف**

لا جرم أن مثابرة الملائكة على طاعة أوامره سبحانه يجللها الخوف من عذابه إن عصوا أمره، واستكبروا عن عبادته. ولهذا قرن الله عبادتهم وتسبيحهم بهذا الخوف تارة، فقال: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾(٥)، وتارة أخرى قرن هذه الخشية بالعبادة والطاعة، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾(٦). فالملائكة بنص الآيتين يسجدون لله خاضعين، خاشعين، مثلما تسجد جميع المخلوقات الخاضعة لدساتير سنة الله. وفي هذا الخضوع والخشوع تنبيه صريح إلى ما ينبغي أن يكون عليه حال الماكرين(٧) من الانقياد لأمر الله، وعدم الاستكبار عن

---

(١) البخاري في التفسير ـ تفسير آية مريم: ٦٤ ـ (٤٧٣١)، وانظر كذلك جامع البيان: ٩/ ١٦ /١٠٤، والتحرير: ١٣٩/١٦، وفي الظلال: ٤٤٤/٥ ـ ٤٤٥.

(٢) النحل من الآية: ٢.

(٣) البقرة من الآية: ٩٧.

(٤) عبس/١٥ ـ ١٦.

(٥) الرعد من الآية: ١٣.

(٦) النحل/٤٩ ـ ٥٠.

(٧) وهم المذكورون صراحة في سباق الآيتين: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ الآية: النحل/٤٥.

عبادته. ومما يوضح خضوع الملائكة وإشفاقهم من خشية الله صريح بيان رسول الله ﷺ: «**إذا قَضى الله الأمرَ في السَّماء، ضَرَبت الملائكة بأجنحتِها خُضعَانا**[١] **لقوله، كأنه سِلسلة على صَفوان**[٢]. **فإذا فُزِّع**[٣] **عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهُو العَلي الكَبير**[٤]. **فهذا الحديث يصور الملائكة خاضعة خائفة، وهي تستلم الأقدار النازلة من السماء إلى الأرض بأمر الله، استقبالا تقتضيه هيبة الربوبية وجلالها**». ومثل هذا المشهد المهيب يصوره حديث النواس بن سمعان: «**أخذت أهل السماوات منه رعدة خوفاً من الله وخروا سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله بما أراد فيمضي به على الملائكة من سماء إلى سماء**»[٥].

وهكذا تجتمع هذه الصفات في أطهر خلق الله وأعظمهم انقياداً لربوبيته، لتشكل الاستعدادات التي تنبسط في جلائل الوظائف الموكلة بهم في عالمي الشهادة والغيب.

٣. ٢. ٢ ـ وظائفهم

**** في عالم الشهادة:**

وكل الله تعالى بملائكته وظائف عظيمة في عالم الشهادة، تتجه إجمالاً إلى تمثيل شريعته سبحانه، وامتثالها، تحقيقاً لقدره المرسوم المقسوم في كونه وفي عباده. ولهذا تتنوع هذه الوظائف حسب درجاتهم وحسب أنواع الموجودات في الكون. وعليه، فإن حديثنا عن هذه الوظائف سينفسح في مجالين هما: مجال الكون ومجال الإنسان.

---

(١) جمع خاضع: فتح الباري: ٤٢٥/١٥.
(٢) أي: كوقع السلسلة على الصخرة: فتح الباري: ٤٢٦/١٥.
(٣) أي: انكشف الفزع.
(٤) البخاري في التوحيد (٧٤٨١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) فتح الباري: ٤٢٦/١٥.

**** في مجال الكون:**

وتتلخص وظائف عبودية الملائكة في هذا المجال في تدبير أمور الكون، من إرسال الرياح والهواء، ومن سوق السحب وإنزال المطر، ومن إنبات النبات، وسائر الأمور الكونية المندرجة ضمن عموم قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾[١]، وقوله: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾[٢]، وقد وكل سبحانه بهذه الأسباب المادية المتعلقة بالحياة والرزق، اللذين هما أساس الوجود، ملكين عظيمين من رؤساء الملائكة المقربين هما: جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ، بصريح قول رسول الله ﷺ لجبريل: «**على أيِّ شيءٍ أنت؟ قال: على الرِّيح والجُنود، قال: وعَلى أي شيء مِيكائيل؟ قال: على النَّبات والقَطْر**»[٣]. فسيدنا جبريل عليه السلام هو المشرف الأعظم على إرسال الرياح في كل جزء من أجزاء الكون، وهناك ملك مشرف أصغر على إرسال نوع من أنواع الرياح إلى الجهة المنوطة به، بأمر جبريل، وباسم رب العالمين وبإذنه، وسيدنا ميكائيل عليه السلام هو الذي يمثل جميع الإحسانات الإلهية في الرزق، فضلاً عن إشرافه العام على جميع المخلوقات المزروعة في الأرض، بوصفه رئيساً للملائكة الموكلين برعاية خاصة لكل نوع من أنواع النباتات، وبإظهار نواميسها الجارية في عالم النبات، وإعلان تسبيحاتها المعنوية المنسجمة مع الأوامر التكوينية، وعرضها على الخالق سبحانه[٤].

ومن أجل هذه الوظيفة السامية، نال جبريل وميكائيل حظوة عظمى بدعاء رسول الله ﷺ: «**اللَّهم! ربَّ جِبريل وميكائيل وإسرَافيل فاطِر السماوات والأرض، عالِم الغَيب والشهادة، أنتَ تَحكُم بين عِبادك فيما كانوا فِيه يَختلِفون، اهدِني لما اختُلف فيه من الحَق بإذنِك، إنك تَهدي مَن تشاء إلى صراط مُستقيم**»[٥].

---

(١) النازعات/٥.
(٢) الذاريات/٤.
(٣) فتح الباري: ٤٥٢/٦ من حديث رواه الطبراني عن ابن عباس.
(٤) يراجع ذلك ـ بتصرف ـ في كليات رسائل النور: ٤٠٥/١ ـ ٦٠٥ و٣٢٧/٤.
(٥) مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١/٧٧١)، عن عائشة رضي الله عنها.

**** في مجال الإنسان**

إن للملائكة في هذا المجال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، ووصفهم بالقرآن والحديث بتدبير أمور الإنسان أكثر من أن يذكر. وتدبر نصوصهما يفيد أن الوظائف الموكلة بالملائكة لتدبير أمور العباد بالأوامر النازلة إليهم من فوق سبع سماوات، تتعلق بنمطين من أحوال بني آدم؛ أولهما: الأحوال الاضطرارية، وثانيهما: الأحوال الاختيارية.

فبالنسبة للأول، نجد أن صنفا من الملائكة كلفوا ببني آدم من الميلاد إلى الممات، فكان من وظائفهم التي يزاولونها بأمر الله:

تخليق الإنسان وكتابة أقداره في الرحم

إن خلق الإنسان مثلما يُربط بسبب ظاهري هو مباشرة رجل لامرأة، فإنه يربط أيضاً بسبب غيبي يعقب السبب الأول؛ حيث يقول رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله عز وجَل قد وَكَل بالرحم مَلَكا يقول: أي ربِّ! نُطفَة، أي رب! عَلَقة، أي رب! مُضغَة، فإذا أراد الله أن يَقضي خَلقه قال الملك: أي ربِّ! ذَكر أو أُنثى؟ شَقي أو سَعيد؟، فما الرِّزق؟ فما الأجَل؟ فيُكتب كذلك في بَطن أمِّه»**[1] ويقول عليه السلام: **«إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً. ثم يكون علقة مثل ذلك. ثم يكون مضغة مثل ذلك. ثم يبعث إليه ملكاً بأربع كلمات فيَكتُب عملَه، وأجلَه، ورِزقَه، وشَقي أو سَعيد، ثم يُنفخ فيه الرُّوح»**[2]، وفي رواية أخرى: **«ثم يُرسل إليهِ الملك فينفُخ فيه الرُّوحَ، ويؤمر بأربَع كَلمات: بكَتْب رِزقه وأَجله وعَمله، وشَقي أو سعيد»**[3]. قال العلماء: طريق الجمع بين هذه الروايات أن للملك ملازمة ومراعاة لحال النطفة وأنه يقول: يا رب هذه علقة، هذه مضغة في أوقاتها، فكل وقت يقول فيه ما صارت إليه بأمر الله تعالى[4]، وهو أعلم سبحانه. ولكلام الملك وتصرفه أوقات:

(١) مسلم في القدر (٥/٢٦٤٦)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) مر تخريجه.

(٤) شرح النووي: ١٦/١٩٠.

أحدها: حين يخلقها الله تعالى نطفة، ثم ينقلها علقة وهو علم الملك بأنه ولد؛ لأنه ليس كل نطفة تصير ولدا، وذلك عقب الأربعين الأولى، وحينئذ يُكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته أو سعادته.

ثانيها: هو تصوير الملك الجنين وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظمه وكونه ذكراً أم أنثى. ونفخ الروح فيه لا يكون إلا بعد تمام صورته[١].

وهكذا، فإن ملكا من الأملاك وكله الله تعالى بالرحم، وكلفه بملازمة النطفة ومراعاة أحوالها بأمره وإذنه، فهو لا يفعل ما وُكل به من أعمال إلا من بعد أمره النازل من السماء، ولا يعلم من الأحوال إلا من بعد علمه المسطور في أم الكتاب[٢]. ومن ثم، فهو يمثل الإجراءات الإلهية الخاصة للخالق سبحانه؛ إذ يقوم بإلهام الأوامر الإلهية إلى الجنين بتخليقه وتكوينه في أطباق الظلمات الثلاث، وبتصويره وتخطيطه وتشكيله[٣]، ثم ينفخ الروح

---

(١) شرح النووي: ١٦/١٩١ ـ ببعض تصرف ـ.

(٢) إن جميع الملائكة لا يعلمون شيئاً من الغيب، ولا يعلمون مقادير السماوات والأرض جميعاً ومنذ بدء الخلق حتى الساعة؛ إذ هم مكلفون بوظائف ـ كما تبين ـ وعلى ذلك يلزم بداهة أن تكون هناك أوامر مدونة نازلة من الله تعالى إلى الملائكة، ومسلمة إليهم للتنفيذ، وهذه الأوامر قد سجلت أكثر من مرة؛ فهناك التسجيل الأول الكلي العام لكل شيء قبل بدء الخلق ومنه تنسخ الملائكة التسجيلات الجزئية الخاصة بالبشر: أرزاقهم وآجالهم وأفعالهم ومصائرهم في الآخرة، حتى تبلغ أخص التسجيلات للإنسان الفرد، كما يفهم من الأوامر المتوجهة إلى الملك الموكل بالرحم، ثم نسخ الملائكة لأحوال اليوم وأحداثه، المتعلقة بأفراد البشر وسائر المخلوقات. ودليل هذا النسخ قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾: الرحمن/٢٩. وهذا التدوين الأخير للأوامر والمقادير يستند إلى سجلات أحوال السنة، المنسوخة هي الأخرى من أم الكتاب ليلة القدر. وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿مُرْسِلِينَ﴾: الدخان/٣ ـ ٥، ويقول: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾: القدر/٤.

(٣) دل على هذا التصوير صراحة حديث حذيفة بن أسيد المتقدم: انظر ص ٣٥٣، هامش ٣.

فيه، ويكتب[١] بأمر الله رزقه وأجله وعمله، وسعادته وشقاوته؛ أي: يدون تجارب الابتلاء التي سيجتازها الإنسان خلال مراحل حياته، ونتائج اختياراته، وكذلك يدون مآله وفق هذه النتائج شقيا كان أم سعيدا.

حفظه في حياته

كما أن للإنسان أسباباً طبيعية يجد بها بقاءه واستمراره بعد ميلاده، تتمثل فيما تقوم به أجهزته من وظائف؛ فإن له أسباباً غيبية تحافظ على كيانه وحياته. ومن هنا، سمى الله الملائكة الذين وكل إليهم هذا الأمر بالمعقبة والحفظة، فقال: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾[٢]. فهؤلاء الملائكة الموكولون بحفظ الإنسان، على أشهر الأقوال[٣]، من جند الله وأمره، يعقب بعضهم بعضاً بالليل والنهار، يحفظون[٤] كل إنسان في جميع الأحوال بأمر الله وإذنه. فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه. وهذا الحفظ هو الذي صرح به تعالى في قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾[٥]؛ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان ويرعونه[٦]. وفصل مجاهد هذا الحفظ الملائكي بقوله: «**ما من عبد إلا وملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه يؤذيه إلا قال له**

---

(١) وهذه الكتابة أخص مما هو ثابت في الحديث الصحيح عن تقدير مقادير الخلائق وكتابتها قبل خلق السماوات والأرض ـ كما بينا قبل ـ؛ إذ هي تتعلق بتدوين أخص التقديرات للإنسان الفرد، وهو بعد جنين في بطن أمه، وذلك في زمانها ومكانها.

(٢) الرعد من الآية: ١١.

(٣) ينظر: الجامع للأحكام: ٢٩٣/٩، وأضواء البيان: ١٧٩/٢، ولطائف الإشارات: ٢١٨/٢، وفي الظلال: ٧٨/٥ والتحرير: ١٠١/١٣. واختار الطبري في معنى المعقبات: «الحرس الذي يتعاقب على الأمير»، عن ابن عباس وعكرمة، والضحاك، وسعيد بن جبير: (جامع البيان: ١١٦/١٣/٨).

(٤) يجوز أن يراد بالحفظ مراقبة الأعمال، فضلاً عن صيانة الأبدان: ينظر: التحرير: ١٠١/١٣، وفي الظلال: ٧٧/٥.

(٥) الأنعام من الآية: ٦١.

(٦) تفسير ابن كثير: ١٣١/٢.

الملك: وراءك، إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه. وقال كعب الأحبار لولا أن الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم، لتخطفتكم الجن...»[١]، فما من نفس منفوسة إلا وقد وكل بها ملك يحفظها ويقيها من الآفات والأضرار، كما قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾[٢]. وبهذا الحفظ يتجلى لطف الله بعباده، وتتحقق حكمته من ابتلائهم.

قبض روحه

وكما يشرف الملائكة على تخليق الإنسان وتكوينه، فإنهم يشرفون كذلك على قبض روحه عند وفاته. وإلى هذا الإشراف الملائكي الإشارة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[٣]. فالوفاة مثلما تحدث بأسباب طبيعية يكشف عنها الأطباء من مرض ونحوه، ويأذن سبحانه بتكوينها؛ فإنها تحدث أيضاً بأسباب غيبية حين يأذن سبحانه لملك الموت «إسرافيل» بقبض الروح وإخراجها من الجسد. وليست المصائب والأمراض المزهقة للأرواح في الحقيقة إلا ستائر جعلها سبحانه لوظيفة عزرائيل لتتوجه شكاوى الناس إليها لا إليه، وليست وظيفة عزرائيل هي الأخرى إلا ستاراً من تلك الستائر كيلا تتوجه الشكاوى الجائرة إلى الله جل وعلا، وذلك لأن الجمال، والرحمة، والحكمة، الموجودة في قبض الأرواح قد لا يراها كل أحد؛ إذ ينظر إلى ظاهر الأمور ويبدأ بالاعتراض والشكوى. فلأجل هذه الحكمة، أصبح عزرائيل مرجعاً لحالات تبدو ظاهراً أنها غير ذات رحمة وحكمة، ولا تليق بكمال القدرة وعزتها[٤]. وقد جعل الله تحت رئاسة عزرائيل أعواناً من الملائكة يُخرجون الروح من الجسد، فيقبضها المشرف الأعظم إذا انتهت إلى الحلقوم، وهم لا يفرطون في حفظ روح المتوفى،

---

(١) تفسير الخازن: ٨/٤.

(٢) الطارق/٤.

(٣) السجدة من الآية: ١١.

(٤) تراجع هذه الحكمة لوظيفة عزرائيل في الكليات: ٣٢٧/١ و٣٢٣/٤ ـ ٣٢٤.

وينزلونه حيث شاء الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[١]. فهذه الآية أفادت، بإيحاء من دلالة فعل «المجيء» ولفظ «الإرسال»، أن هؤلاء الملائكة الموكلون بقبض الأرواح لا يفعلون شيئاً إلا بعد أمر مرسلهم الخالق سبحانه، ولا يستطيعون شيئاً إلا بعد مجيء إذنه وحلول أجله.

وأما بالنسبة للنمط الثاني، فنجد أن قسماً من الملائكة وُكلوا بالإشراف على حياة الإنسان المعنوية تبليغاً وتثبيتاً، وبالمحافظة الدقيقة على تصرفاته الاختيارية قولاً وفعلاً. ومن ذلك:

إبلاغ الوحي إلى رسل الله

وملك الوحي هو جبريل عليه السلام[٢]؛ حيث قال سبحانه ردا على معاداة اليهود له: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾[٣]. فبين تعالى أن جبريل ينزل بالوحي بأمر الله لا من أمر نفسه، كما صرح بذلك في آية أخرى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[٤]، وأشار إليه في الآية الجامعة لأضرب الوحي: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[٥]، وتفصيل صفات هذا الرسول وكيفيات إرساله سيأتي لاحقا ضمن بيان وسائل الوحي في المبحث الثاني.

تثبيت الرسول والمؤمنين

ويتجلى هذا التثبيت في عصمة الملائكة لرسول الله ﷺ من أذى المشركين، وحمايتهم له من شرار الخلق؛ فعن أبي هريرة قال: قال أبو

---

(١) الأنعام من الآية: ٦١.
(٢) ذكر اسمه صراحة مرتين في القرآن الكريم، في آيتي البقرة/٩٧ ـ ٩٨.
(٣) البقرة/٩٧.
(٤) مريم من الآية: ٦٤.
(٥) الشورى من الآية: ٥١.

جهل: هل يعَفر محمد وجهه بين أظهُركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى! لئن رأيتُه يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأُعفرن وجهه في التراب. قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي. زعم ليَطأ على رقبته. قال: فما فجِئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه قال: فقيل له: ما لك! فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهوْلا وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: **لودنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا**، فنزل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۝١٩﴾[1].

وفي الصحيح، عن عائشة، قالت: «يا رَسول الله هَل أتى عَليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُد؟ قال: «**لقد لقيتُ من قومِك ما لَقيت، وكان أشدُّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عَرَضت نفسي على ابن عبدِ كُلال، فلم يُجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مَهموم على وَجهي، فلم أستَفِق إلا وأنا بقَرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومِك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث اللّهُ إليك ملك الجِبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلَّم عَلي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطبِق عليهم الأَخْشَبين؟**» فقال رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يَعبد الله وحده، ولا يُشرك به شيئاً**»[2]. فعُلم من هذا الحديث أن الملك الموكل بالجبال بعثه الله إلى رسوله الكريم، ليأمره عليه السلام بما شاء في قومه، وعرض عليه هذا الملك، باسم رب العالمين وبأمره، أن يطبق على المشركين الأخشبين جزاء على إذايتهم لشخصه الكريم.

ومن تثبيت الملائكة لأولياء الله بإذن الله، ما أظهره الله عز وجل بدعائه عليه السلام من معجزات باهرة؛ حيث ورد عن عمر بن الخطاب

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، رقم (٣٨/٢٧٩٧).

(٢) البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد والسير (١١١/١٧٩٥).

رضي الله عنه «أنه لما كان يوم بدر. . . استقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يده فجعل يهتف بربه: اللَّهم! أنجز لي ما وعدتني. اللَّهم! آت ما وعدتني فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝﴾[١]، فأمده الله بالملائكة»[٢]، ليشاركوا في المعركة، ويثبتوا الذين آمنوا، ويضربوا المشركين فوق الأعناق، ويضربوا منهم كل بنان، تنفيذا لما أوحاه الله لهم من أمره النافذ، الذي أفصحت عنه الآية الكريمة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝﴾[٣]. ومثل هذا الإمداد الملائكي لرسول الله ﷺ تشهد به وقائع غزوة أحد، حيث روى سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن سعد قال: «رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله، يوم أحد، رجلين عليهما ثياب بيض، ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام»[٤].

وهكذا يجد الرسول ﷺ، والمؤمنون، بانتسابهم إلى ربهم بالإيمان، مرتكزا قويا يستندون إليه عن طريق عباد الله الملائكة، في تلبية استغاثاتهم ودفع أعدائهم.

تدوين أعمال المكلفين

لما كانت أفعال الإنسان تمس الربوبية، ولها ثمار مهمة في الآخرة، وكل الله تعالى للإشراف عليها بالرقابة والتدوين ملكين كريمين أطلق عليهما سبحانه صفتي: رقيب وعتيد، أحدهما يكون عن يمين الإنسان، وهو يحصي ما عمله من حسنات، والثاني عن شماله، وهو يحصي ما اكتسبه من سيئات. يصرح بهذا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ

(١) الأنفال/٩.
(٢) صحيح مسلم في الجهاد والسير (٥٨/١٧٦٣) ـ بتصرف ـ.
(٣) الأنفال/١٢.
(٤) صحيح مسلم في الفضائل، رقم (٤٦/٢٣٠٦).

وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[١]. فما يلفظ ابن آدم من قول إلا وله من يرقبه ويسجله وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[٢]. فلا يجاوزون أهون عمل إلا كتبوه، ولا يغادرون صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها وأودعوها في كتاب مبين يُنشر يوم الحساب، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[٣]، فيقال لكل إنسان يوم تنشر صحائف الأعمال: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[٤]. فيجمع الملكان له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً[٥].

وتدوين الملائكة لأعمال العباد وجمعها في سجلات إنما يتم وفق الوحي الإلهي، بصريح بيان رسول الله؛ حيث قال: «**قال تعالى: إذا هَمَّ عبدي بسَيئة فلا تكتبوها عَليه، فإن عَملها فاكتُبوها سَيئة. وإذا هَم بحَسنة فلم يَعمَلها فاكتُبوها حَسنة، فإن عمِلها فاكتُبوها عَشرًا**»[٦]. فتبين أن الملائكة لا يكتبون شيئاً من أعمال الإنسان وأقواله إلا بأمر الله تعالى، الأمر الذي يؤكد يقيناً الرقابة الإلهية لهذه الأعمال، وأنه سبحانه سيفتح بلا شك صحائفها يوم القيامة ليفرزها بالمحاسبة ويزنها بميزان العدالة.

**** في عالم الغيب:**

للملائكة في عالم الغيب والآخرة وظائف فطرية وعملية نجملها فيما يلي:

---

(١) ق/١٧ ـ ١٨.
(٢) الانفطار/١٠ ـ ١٢.
(٣) الكهف/٤٩.
(٤) الإسراء/١٤.
(٥) تفسير ابن كثير: ٢٧/٣.
(٦) صحيح مسلم في الإيمان، رقم: ١٢٨/٥٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التسبيح والتقديس لله جل جلاله

لقد ثبت فيما مضى من آيات أن الموجودات كلها ـ عدا الإنس والجن ـ في وضع تسبيح لله وامتثال دائم، وسجود خاص، وعبادة خاصة، لائقة بكمال الله وجلاله، ومنسجمة مع أوامره التكوينية[١]. والملائكة، بوصفهم رسل الله في خلقه وأمره، هم الآخرون يحيون السماوات ويزينونها بالتسبيح بحمد الخالق جل جلاله، والتهليل لرحمته، والتقديس لعظمته وعزة قدرته.

ولهذا وُصفوا ـ عليهم السلام ـ في القرآن أكثر ما وُصفوا بالتسبيح والعبادة. ومن ذلك ما جاء على لسانهم بعدما أخبرهم العليم الحكيم باستخلافه لآدم في الأرض؛ إذ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[٢]، وقالوا ردا على عبدتهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾[٣]. فهم عباد من خلق الله يصفون للصلاة ويسبحون بحمد الله[٤]، وهم دائبون في هذا التسبيح لا يفترون، وعاكفون على العبادة لا يستكبرون، وساجدون للجلال والجمال لا يقصرون؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾[٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾[٦].

حمل العرش

وقد ذكر الله سبحانه الملائكة الموكلين بهذه الوظيفة الجليلة مقترنين بالملائكة الحافين من حول العرش المجيد، في مقام التسبيح والتقديس لله

---

(١) راجع في ذلك تجليات الأمر الكوني في مجال تدبير أمور الكون، فإنها تدور حول قطب هذه الحقيقة الكلية. . .

(٢) البقرة من الآية: ٣٠.

(٣) الصافات/١٦٤ ـ ١٦٦.

(٤) في الظلال: ٧/٧٢.

(٥) فصلت/٣٨.

(٦) الأعراف/٢٠٦.

تعالى والاستغفار والدعاء للتائبين من عباده؛ حيث قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾[١]. ونص تعالى في سياق بيان مشاهد القيامة أن عدد الذين يحملون العرش يوم القيامة بأمر الله وقوته ثمانية من الملائكة، تقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[٢]. ولا شك أن إظهار جلال الربوبية الذي يقتضيه حمل العرش يومئذ، يتطلب ملكا موكلا له ماهية عجيبة، أذن لرسول الله ﷺ أن يتحدث عنها في قوله عليه السلام: **«أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله، من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام»**[٣].

النفخ في الصور

وقد وكل سبحانه بهذا الأمر العظيم إسرافيل عليه السلام المذكور صراحة في دعاء الرسول ﷺ المتقدم، وهو يمثل ـ مجرد تمثيل ـ الشؤون الأخروية الخاصة بالخالق سبحانه، ويشرف بعبودية خالصة على أعظم شيء في عالم الأحياء، وهو إماتة الخلق وبعثهم يوم القيامة. ونظراً لإشرافه على هذا الشأن العظيم، سماه المخبر الصادق عليه السلام بصاحب القرن، حيث قال: **«كيفَ أنعمُ وصاحبُ القَرن قد التقَم القَرن وحَنى بجبهَته ينتَظِر متى يُؤمر فينفُخ»**[٤]. وقد بينا فيما سلف[٥]، أن إسرافيل سيؤمر بنفخة الصعق التي تتوفى بها الأحياء والكائنات، وإياها قصد سبحانه بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾...[٦]، ثم

---

(١) غافر/٧.

(٢) الحاقة من الآية: ١٧.

(٣) صحيح سنن أبي داود: ١٥٦/٣، كتاب السنة، من حديث جابر بن عبدالله، رقم ٤٧٢٧.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤٢٢/٤.

(٥) ينظر: تجليات الأمر الكوني في الآخرة.

(٦) الزمر من الآية: ٦٨.

يؤمر بنفخة البعث والنشور للقيام من القبور، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾[1]، ثم يؤمر بنفخة الحشر والتجميع، التي تُحضر الخلائق إلى المحشر للحساب والجزاء. ولعلها المرادة في تعبير الآية الكريمة: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

رعاية الجنة وأهلها

وقد أطلق القرآن الكريم على الملائكة الذين يقومون بهذه الوظيفة اسم (الخزنة). قال تعالى، عقب نشر الصحف ووضع الميزان وعرض نتائج الحساب على العباد: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[3]، حتى إذا دخلوها بإذنه سبحانه، دخل عليهم الخزنة من كل باب، يهدون إليهم التحية والسلام، ويهنئونهم بما حصل لهم من الله من الإنعام في دار السلام. يصرح بهذا القرآن في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[4].

الإشراف على النار وتعذيب أهلها

وقد سمى القرآن الكريم الملائكة الموكلين بهذا الإشراف باسم (الزبانية)؛ حيث قال تعالى في سياق التهديد: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾[5]، وذكر سبحانه أن عددهم تسعة عشر ملكاً، بصريح قوله:

---

(١) ق/٤١ ـ ٤٢.

(٢) يس/٥٣.

(٣) الزمر/٧٣.

(٤) الرعد/٢٣ ـ ٢٤.

(٥) العلق/١٧ ـ ١٨.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾[1]، ووصفهم سبحانه بأنهم ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾[2]. ومما يؤمرون به في موقف الجزاء، سوق الكفار إلى جهنم سوقاً عنيفاً مهيناً، كما بينا ذلك بصراحة القرآن[3].

ومما يؤمرون به، بعد ولوج الكافرين أبواب الجحيم، استقبالهم استقبال اللائمين للملومين، كما يصرح بذلك سؤالهم الذي ينضح بالتوبيخ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[4].

ومما يؤمرون به تعذيب المقيمين في الجحيم، بمنتهى القسوة والشدة، لأنهم ﴿غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ «خلقوا من الغضب وحُبب إليهم عذاب الخلق، كما حبب لبني آدم الطعام والشراب»[5].

وتأسيساً على ما سبق، يتبين:

* أن الملائكة ـ عليهم السلام ـ كالأسباب الظاهرة، جند من جنود الخالق سبحانه، وقوة عظيمة جارية في نواميس فطرته، وتجل لطيف من تجليات عظمته، يعمرون السماوات البديعة، ويزاولون وظائف العبودية في سلطنة الربوبية، استلهاماً من الوحي الإلهي وإرشاده، فهم ليس لهم إلا العبودية الخالصة التي يؤدونها بتسبيحات يعلنها كل مخلوق بلسان حاله، وبحركات منسجمة مع أوامره سبحانه، وليس لهم أي خلق كان، ولا دخل لهم في أمور الخير والوجود دون أمر، ولا تكون لهم الشفاعة دون إذن؛ لأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ولعل في

(١) المدثر/٢٧ ـ ٣١.
(٢) التحريم/٦.
(٣) ينظر ص ٤٣٠.
(٤) الزمر من الآية: ٧١.
(٥) حاشية الصاوي: ٤/٢٢٢.

هذه العبودية الملائكية الخالصة للحق سبحانه، تحفيزاً لهمة المؤمن واستجاشة لقلبه إلى الإخلاص في عبادته والإحسان في طاعته، والاشفاق من عذابه، في سبيل الارتقاء بإنسانيته الكريمة على خالقه إلى مرتبة **«أحسن تقويم»**، والانضواء في سلك العبودية له طوعاً مع سائر المخلوقات القائمة بأمره.

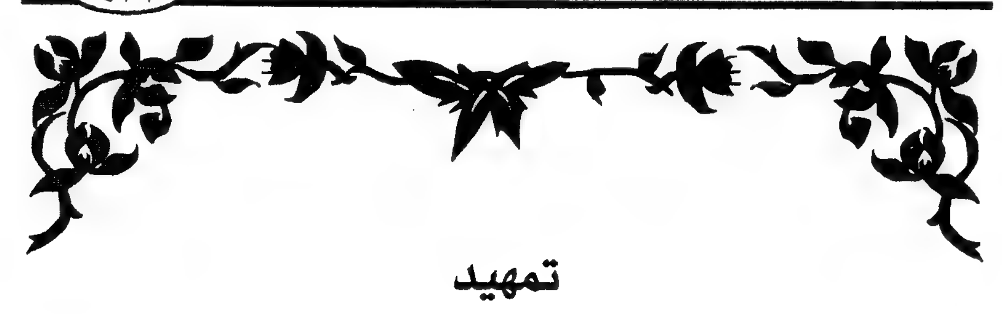
* أن الإيمان بوجود الملائكة وبوظائفهم الفطرية، يحول الكون المظلم البارد، كما تصوره مادية العلم والفلسفة، إلى كون حي ومأنوس، في أرجائه يعلن كل ملك ساجد عابد وحدانية الخالق سبحانه، ويقدس لعظمته ويسبح بحمده ويهلل لإحسانه.

* أن الإشراف الواسع الذي أنيط بالملائكة الموكلين بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أجله وعاقبة أمره، يدلنا دلالة قاطعة على لطف الله وكرمه وعنايته ورحمته بالإنسان، وعلى أهمية هذا الإنسان وعظمة مهمته وأمانته، وعلى عجزه وضعف فطرته؛ إذ لولا مباشرة الملائكة لأموره وامتثالهم لأوامر الربوبية الجارية فيه، لما نقل من طور إلى طور وحُفظ في حياته، ولا ظفر بآماله في البقاء بمماته، ولا أثيب وعذب في دار الجزاء وفق ما سجل في كتابه، ولا وعد بالخير ودعي إليه، ونهي عن الشر وحذر منه، ولا استُغفر له إذا أذنب، وثُبت إذا جزع ما دام في طاعة ربه، ولا أُنزل عليه وحي من وراء الغيب المحجوب، يدل على ذلك المتكلم الحي ذي الجلال، الذي يأمر وينهى بكلماته الدينية التي هي كالعقل والشعور والحياة للكون والكائنات. . .

ولعمري لو لم يكن للملائكة في الإشراف على أمور الإنسان من فضل إلا أن تتنزل بالروح من أمر الله على عباد الله الأنبياء لكفاهم؛ ذلك بأن هذا الروح حياة لحياة الإنسان المادية والمعنوية، وغايته عبادة الله، التي هي النتيجة العظمى للخلق، وغاية العبادة امتثال أمر الله. . .

فما هي إذن حقيقة هذا الأمر الإلهي الذي تنزل به الملائكة على الأنبياء؟ وما هي مجالاته؟ وما هي فوائده وثمراته؟ جواب ذلك في المبحث التالي.

المبحث الثاني:
الأمر الإلهي التكليفي



تمهيد

الآن، وقد عرف القلب بشعور تام صفات الربوبية المطلقة من خلال تجلياتها في الخلق والتدبير، وتأمل الحس بوعي يقظ خصائص الحاكمية الواحدة من خلال تجلياتها في انقياد الكائنات لأمر الله، وأدائها لوظائف عبوديته، وفي خضوع الإنسان مجبوراً تحت سلطان ربوبيته سبحانه في أحواله الاضطرارية، وجريانه مختاراً وفق مشيئته في أعماله الاختيارية، ثم في تفرده تعالى بالقضاء بين أهل الكفر والإيمان، وبالمجازاة على أعمالهم، بما يليق بهم من ثواب وعقاب..

أجل، الآن وقد علمنا الصفات التي يتصف بها هذا الرب العظيم. هل يسعنا أن نتساءل عن وظيفتنا في هذا الوجود المستسلم لأمر الله؟ وإذا تساءلنا عنها، فهل يسعنا أن نتصور أن ليس لنا أي وظيفة، ولا ترتبط بنا أية مسؤولية اتجاه تجلي الربوبية؟ وهل يصدق العقل والوجدان، بعد هذه السياحة في أغوار الأنفس والآفاق، ومجريات الأحوال أن ليس للخلق والتدبير والتسخير من مغزى، وأن ليس للإنسان شأن في هذه الدنيا إلا العبث الخالي من المعنى ثم العبور مع تيار الزمن إلى شاطئ العدم؟ وهل كان ما يمتاز به الإنسان عن سائر الكائنات من لطائف إنسانية سامية (كالعقل، والإرادة...)؛ مجرد ظاهرة ناشئة من لعبة المصادفة العمياء، أو عبث الطبيعة الصماء؟

إن أي عاقل عارف لا يمكن، بعد أن اهتدى إلى معرفة الخالق، أن يتصور شيئاً من هذه الفرضيات، فضلا عن أن يعتقدها ويقنع الآخرين بها،

فقد علم هذا العاقل أن من أجَلِّ صفات الله عز وجل أنه حكيم في خلقه، وفي عموم أفعاله؛ وأنه لا يتصور في حقه العبث، وأي عبث أعبث من أن يكون هذا الكون المخلوق في منتهى الإبداع، والمدبر بكمال الانتظام، والمسخر للإنسان بمنتهى العناية؛ مخلوقا بغير نتيجة، ومدبرا عن غير قصد، ومسخرا لغير حكمة، ومتصدعا إلى غير غاية؟
ألا إن من أهم غايات الربوبية تعريف الإنسان بها، وتوجيهه إلى استجلاء مظاهر كمالها وجمالها، وسوقه إلى الإقرار بوجوب وجودها ووحدانية ألوهيتها، ومقابلة تلك الألوهية بالشكر والعبادة والدعاء؛ لأجل نيل السعادة في الدنيا والآخرة.

ولأجل هداية الإنسان إلى معرفة وظيفته هذه وحثه على تنفيذها، كان من تمام تدبير الله عز وجل، وعظيم رحمته، أن يتكلم من وراء الغيب كلاماً أزلياً يليق بجلال ذاته، ويدل على وجوده ووحدانيته، وأن ينزل هذا الكلام بواسطة ملائكته الأطهار على رسله وأنبيائه الأخيار، وأن يظهره في كتبه القيمة التي بعثوا بها إلى الأقوام والجماعات ثم إلى كافة الناس، وأن يضمنها أحكامه وأوامره ونواهيه، التي ميز بها بين الحلال والحرام، والحسنة والسيئة، والمؤمن والكافر، والناجي والهالك...

وليس من ريب أن الأوامر الإلهية الدينية تتبوأ أعلى مقام ضمن هذا الكلام الذي دل الإنسان على مهمة عبوديته؛ ذلك بأنها أساس العبادة والدين، وبحسب الانقياد لها يكون المرء عابدا لله وفي دين الله، وبحسب الفسق عنها يكون عابدا لشيطانه وهواه.

ولأجل مرتبتها السامية، غلبت على شرائع الرسل، وامتلأت منها الكتب، ودعا إليها بأمر الله الأنبياء والأولياء، ورغبوا في فعلها، وحذروا من تركها؛ ولا غرو فقد تعلقت بها أصول الإيمان وشرائع الإسلام، وتحققت بها حسنات الأعمال، التي تعرج بالإنسان إلى ذرى الكمال، وتقررت على طاعتها أو عصيانها المسؤولية والجزاء، طبقا لإرادة الله في ابتلاء الإنسان بتبعة التكليف ومسؤولية الاختيار.

وإذا كانت هذه الأوامر الإلهية بهذه المرتبة والأهمية، فأجدر بي أن

أوجه الكلام من خلال نصوصها في القرآن، الذي منح أعلى مقام من بين جميع الكلمات الإلهية والكتب السماوية؛ إلى اكتناه حقيقتها، ومقوماتها، وأبعادها، وذلك بتحديد المفاهيم المرتبطة ببيانها وتحليلها، ثم استجماع ألفاظها، وصيغها، وأساليبها، بما يحتمله الجهد والمقام، وتصنيفها وفقاً لمجالات الحياة الإنسانية؛ الفكرية والخلقية والعملية، وذلك كله بوصفها المظهر الأعظم لوحدانية الألوهية أولاً، وبوصف إطاعتها الحق الأوجب للربوبية على العبودية ثانياً.

❊ ❊ ❊

المطلب الأول: حقيقته

بينا بالإجمال ضمن التحقيق المصطلحي لضميمة أمر الله، أن الأمر الإلهي الديني هو طلب يتم به تكليف العباد بالدين، وذلك بكلام ذي الجلال، الموحى إلى الأنبياء. وبملحظ من هذا التعريف المجمل، نبسط الكلام على حقيقة الأمر الإلهي التكليفي بكشف النقاب عن مفاهيم: **«التكليف»** و**«الدين»** و**«الوحي»** في استعمال اللغة والقرآن الكريم، مع اللفت إلى بعض مقوماتها وأبعادها، وذلك اعتباراً بكونها مسطورة في التعريف، ومستعملة في معان ضخمة، بينها عرى محكمة ونسب وثيق، الأمر الذي سيهدينا ـ بإذن الله ـ إلى اكتناه أسرار هذه القضية المؤسسة للدين، وتعرف امتداداتها الدلالية، وتبين رقعتها المفهومية، وجمع سماتها، وإيضاح مميزاتها.

❊ ❊ ❊

١. ١ ـ مفهوم التكليف

١. ١. ١ ـ ما التكليف؟

أصل التكليف في اللغة عبارة عن «**إيلاع بالشيء وتعلق به**»[١]؛ يقال: «كلِف به: **أُولِع**»[٢]، ومنه سُمي الشيء يعلو الوجه فيغير بشرته كَلَفا لتصور كلفة به[٣] «وتَكلَّف الشيء: ما يفعله الإنسان بإظهار كَلَف مع مشقة تناله في تعاطيه»[٤]. واعتبارا بهذه المشقة وبذلك الأصل، استعمل التَّكلُّف في **كل ما يفعله الإنسان بمشقة إلى أن يصير الفعل سهلا عليه، ويصير كَلِفا به ومحبا له**[٥]. ولتصور هذا المعنى المحمود، قيل: «التكليف: **الأمر بما يشق عليك**»[٦]. واستعمل في تكلف العبادات[٧]، ولا يبعد عما في المعاجم قول الأصوليين: «التكليف **إلزام ما فيه كلفة**»[٨]. ولا يكون ذلك إلا بالأفعال الاختيارية، على قصد الطاعة والامتثال من العباد[٩]، وذلك ظاهر في الأمر؛ لأنه مقتض للفعل، وفي النهي؛ لأنه يستلزم الترك وهو فعل الضد[١٠] وليس التكليف الذي يجب به شيء أو يحرم به شيء إلا أمر الله ونهيه[١١].

وبملحظ من هذه المعاني اللغوية والاصطلاحية العامة، جاء التكليف في القرآن الكريم سبع مرات، موزعة بين ثلاث سور مكية وأربع مدنية[١٢].

---

(١) المقاييس/كلف، وكذا المفردات.
(٢) القاموس/كلف.
(٣) المقاييس والمفردات/كلف.
(٤) ومعه: ما يفعل بتصنع أو تشبع، كما في المفردات/كلف.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) القاموس/كلف.
(٧) المفردات/كلف.
(٨) حاشية بناني: ٦٩/١ والتعريفات/٦٥. وجاء في المستصفى: ١٦٥/١: «التكليف: طلب ما فيه كلفة».
(٩) المستصفى: ١٦٢/١ وحاشية بناني: ٦٩/١.
(١٠) الآيات البينات: ٣٧٣/١ وحاشية بناني: ٢١٥/١.
(١١) أصول الدين/٢٠٧.
(١٢) في آيات: الأنعام/١٥٣ و الأعراف/٤١ والمؤمنون/٦٣ والبقرة/٢٣١، ٢٨٥ والنساء/٨٣=

وفي هذه المرات السبع، اطرد إسناده فعلاً مضارعاً، مبنياً للمعلوم والمجهول إلى الله سبحانه[١]، دلالة على أن التكليف ليس إلا لله وحده دون سواه، كما اطرد اختصاصه بالنفس، دلالة على أنه خطاب يتجه إلى كل نفس منفوسة من الإنس والجن[٢]، واقترن خمس مرات بلفظ «**الوُسع**» المستثنى بـ«**إلا**»، والمستعمل في معنى «**الطاقة**»[٣]، وتزاوج في عمومه مع جمل بينت، تصريحاً وتلويحاً، الوصايا والأوامر الإلهية[٤] والأحكام الجزائية[٥]، في سياق تشريع الأحكام[٦] ....

= والطلاق/٧، ومعها «المتكلفين»، اسم مفعول من «تكلف» في آية: ص/٨٦. وهو في هذه الآية استعمل على جهة الذم، وصفاً منفياً عن الرسول الكريم، وعيباً واصفاً لكل إنسان يتصنع في عمله مراءاة للناس.

(١) كقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾: البقرة من الآية ٢٣٣. وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾: الطلاق من الآية: ٧.

(٢) بشرط صحة العقل، والفهم، واليقظة، وعدم الغفلة... على ما قرره الأصوليون: (ينظر: المستصفى: ١/١٥٨ ـ ١٥٩). فإن التكليف مع غياب هذه الشروط موقع في الإلجاء، ومسقط للاختيار، الذي هو لازم التكليف كما سيأتي.

(٣) خصائص التعبير القرآني: ٢/٣٦٣.

(٤) دل على ذلك: صريح كلام الله عن الحلال والحرام في سباق ولحاق آية الأنعام: ١٥١: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، وكذا الخبر الذي أورده تعالى في معنى الأمر، في صدر آية البقرة: ٢٣٣: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾... وأيضاً الأوامر الصريحة بالإنفاق والقتال، في آية الطلاق: ٧: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾... وآية النساء: ٨٣: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.... وعلى مثل هذا التزاوج، جرت خاتمة البقرة؛ إذ وردت عقب إرشادات آية الدين وأصول الإيمان: (انظر الآيتين: ٢٨٥ ـ ٢٨٦ من السورة).

(٥) شهد لذلك قوله تعالى عقب الإيمان والعمل الصالح، اللذين هما زبدة تكاليف هذا الدين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾: الأعراف/٤٢. وقوله ـ على وزان هذه الآية ـ: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾: المؤمنون/٦٢ ـ ٦٣. وقوله، مقرراً فردية التبعة والجزاء، عقب إعلان حقيقة التكاليف والواجبات: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾...: البقرة/٢٨٦.

(٦) كما تبين من سياق آيات المصطلح المدنية، على مألوف القرآن المدني في بيان=

وتقرير الجزاء[١] وبيان رحمة الله بالعباد[٢].

وتدبر هذا السياق يفيد أن التكليف ورد بمعنى: **إلزام العباد بفعل االفرائض الواجبة والمندوبة[٣] وبترك أضدادها.**

كما أن تدبر الألفاظ والتراكيب المذكورة إزاء المصطلح يهدي إلى أمرين:

أولهما: أن التكاليف التي فرضها الله على العباد، لا مشقة فيها ولا إعنات[٤] في حقيقتها؛ لأنها تحرر من الشهوات وسعة في المآل، وداخلة

= الشرائع والأحكام، فضلاً عن سياق آية الأنعام المكية، الذي يرشد إلى أصول الحلال والحرام، بمناسبة عرض قضية المعبودية التي تقترن بقضية الربوبية الشاملة في هذه السورة، جريا بدستور القرآن العام في ربط العقيدة بالشريعة.

(١) كما تبين خصوصا من سياق آيتي: «المؤمنون» و«الأعراف» المكيتين، على عادة القرآن المكي في تقرير مسؤولية الإنسان، وجزائه على أعماله، التي ليست إلا ثمرة لإطاعة التكاليف الإلهية أو عصيانها.

(٢) وهذا السياق تشترك فيه جميع الآيات المكية والمدنية. لأن هذه الشريعة السمحة التي جاء بها القرآن، في العقائد والمعاملات هي عين الرحمة، وبها تمت النعمة، فهي لا تفرض على الإنسان من التكاليف إلا ما يطيق، كما تبين من منطوق الآيات.

(٣) نفهم وقوعهما في حيز التكليف بذكر الأوامر الإلهية الواجبة إزاء التكليف، في مثل آيات النساء/ ٨٤ والطلاق/٧ والأنعام/١٥٢، وبذكر الأوامر الإلهية الإرشادية مقترنة به صراحة في آية البقرة/٢٣٣، أو إشارة في الإجمال الذي تضمنته لفظتا: (الخيرات) و(الصالحات) من آيتي: المؤمنون/ ٦٢ والأعراف/٤٢، فإن معناهما شامل، يعم وجوه الخيرات والصالحات الممتثلة بأمره سبحانه، واجبه وندبه وإرشاده. غير أن النظر الفاحص في عموم الآيات يرشح أن يكون التكليف بالفرائض الواجبة ألصق، لأنها دائرة على معاني الإلزام وتستلزم الامتثال، وهو مقتضى التكليف والأمر، كما أنها تقترن بالثواب والعقاب إذا فعلها أو تركها الإنسان، خلافا للتكاليف المندوبة؛ فإنها رغم قربها من الإلزام، فإن وجوب فعلها غير ناجز، وعقاب تركها غير مرتقب.

(٤) يؤيد ذلك ما في القرآن من رفع الحرج عن هذا الدين، والتوسعة على المكلفين في الواجبات لعذر أو عجز، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾: المائدة من الآية: ٦، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾. . . : الفتح من الآية: ١٧، وقوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾: الأحزاب من الآية: ٣٨. =

في طوق الإنسان بصريح الآيات المتقدمة. ومن شأن هذه الحقيقة السامية أن تسكب في النفس الطمأنينة، وتستجيش عزيمة المؤمن للنهوض بتكاليفه، وهو يشعر أنها منوطة بقدرته، ولو لم تكن كذلك ما حمله الله إياها. فإذا ناله التعب في الوفاء بها، أدرك أنه الضعف عن المكابدة المغروز في فطرته إزاء قوة إرادته، لا عبء التكاليف، فلا يتبرم بها ولا يستثقلها، بل يستمد من الإيمان قوة قاهرة للضعف في نفسه، ويستنهض همة جديدة للالتزام بأوامر الله على خير وجه، مسيقنا إرادة الله به اليسر في كل أمر!

ثانيهما: أن الأوامر الإلهية داخلة في حيز التكليف(١)، بدلالة تجاورها معه في الآيات المتقدمة، وهذا يفيد أن الإنسان متى ائتمر بها في مسيرة حياته، وجد فيها مشقة ناجمة عن ضعفه، كما بيناً آنفاً، غير أن هذه المشقة هي نفسها التي ترتقي بالإنسان العابد لله إلى شرف الاصطباغ بالتكاليف الإلهية إلى أن يصير كلفا بها ومحبا لها(٢)، ومستشعراً السهولة والطمأنينة في الالتزام بها ورعايتها؛ لأنها صادرة من جهة الرب الخالق الآمر، الذي يراعي التنسيق بينها وبين طاقته...

وإن هذه المشقة الحاصلة بالمجاهدة لهي التي تنقل الإنسان الملتزم

= وإن هذه الإرادة الإلهية الشرعية بالعباد التيسير ورفع الحرج في التكاليف لتشهد شهادة قاطعة على كمال هذا الدين وتمام النعمة به على الأمة المسلمة، ذلك أنه حط عنها من الإصر والأغلال التي وجبت على من قبلها في الملل المنسوخة (كقتل النفس في التوبة، وإحراق الغنائم) بتعبير الآية الجامعة لأوصاف نبي الهدى والرحمة، المصطفى عليه السلام، والتي منها: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾: الأعراف من الآية: ١٥٧.

(١) وكذا النواهي، كما هو واضح من تزاوجها مع التكليف في آية الأنعام المتقدمة. وإن نظرة سريعة في سياق الآيات المتقدمة لتكشف بوضوح عن طغيان الأوامر على النواهي، حتى أن المحرمات لم يرد لها ذكر إلا في آية الأنعام. وهذا يؤكد يقينا ما أثبتناه سابقاً ـ ضمن دراسة العلاقة بين الأمر والنهي ـ من كون الأمر هو أصل هذا الدين، أما النهي فهو فرع تابع.

(٢) كما هو ملموح في اللغة، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾....: الحجرات من الآية: ٧.

بأوامر الله إلى مرتبة خليفة الأرض، والشاهد على أنواع المخلوقات، بل وتجعله أعلى درجة من الملائكة، كما هو مقرر في أصول العقيدة، حيث يصبح أهلاً للفوز بالجنة.

وإذا تبين أن التكليف أوامر إلهية تصطبغ بالرحمة واليسر في حقيقتها، وترتبط بالثواب والعقاب في مآلها، فما هي حكمته؟ وما هي مقتضياته؟

١. ١. ٢ ـ حكمة التكليف

وتتلخص في أن الحكيم الأزلي خلق هذا العالم الفسيح، وجعله مضيفاً كريماً للإنسان ليكون محلا للابتلاء، كما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾[١] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾...[٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[٣].

ومن أجل تحقيق هذه الحكمة السامية، أوجد الله سبحانه العالم بصورته هذه، فمزج الأضداد بحكمة بعضها ببعض، وقابل بينها بمنتهى الميزان؛ فالمضار ممزوجة بالمنافع، والشرور متداخلة بالخيرات، والقبائح مجتمعة مع المحاسن، والكمالات مقترنة بالنقائص... ووفق قانون التخالف هذا جرى شأن الإنسان[٤]، حيث خلقه الله باستعدادات فطرية متضادة، تمتزج فيها القوة بالضعف، والطاعة بالمعصية، والإيمان بالكفر، ثم أجرى

---

(١) الكهف/٧.

(٢) الإنسان من الآية: ٢.

(٣) العنكبوت/١ ـ ٣.

(٤) وكذا الجان، غير أننا سنتحدث في الغالب عن الإنسان؛ لأنه هو المخلوق الذي أدار عليه القرآن الكلام، وارتبطت به وبمصالحه أواصر النعم، وأنيطت به وظائف مهمة؛ أهمها: العبادة الكلية، وشمول الإشراف على المخلوقات، وإظهار شؤون الحي القيوم وصفاته الجليلة بحياته ولطائفه....

عليه في حياته أموراً وأحداثاً تمتزج فيها أيضاً الملاذ بالمصائب، والمتع بالآلام، وحجب على مداركه عالم الغيب، وجعله محوراً للتكليف الإلهي، بما يبرز واقع عبوديته لله بفعله الاختياري، كما قد أبرز هذه العبودية بواقعة الاضطراري؛ وإنما يبرز الفعل الاختياري هوية الإنسان عبداً لله، عندما يتلقى الإنسان من الله التكاليف التي يحَمِّله إياها فيعمل بها، ولا تدخل الأوامر الإلهية تحت معنى التكاليف إلا إن كان في تنفيذها كلفة في ظاهر الأمر، ولا يحس الإنسان بهذه المشقة إلا إذا كانت التكاليف مخالفة لطبيعته المجبولة على الراحة بدل التعب، والأخذ بدل العطاء، والحرص على الحياة بدل المخاطرة بها، والجزع بدل الصبر...

فمثلاً: كلف الله الإنسان بالعطاء والإيثار، بصريح أمره عز وجل: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾...[1]، وكانت المشقة التي لا بدَّ منها لتحقيق حكمة هذا التكليف، أن يخالف الإنسان ما في جبلته من الأثرة والشح، بصريح بيان الآية الكريمة: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[2]، وينقاد إلى هاتف فطرته الخيرة.

وكلف الله الإنسان بالقتال في سبيل الله، كما قال لنبيه: ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾...[3]، وكانت المحنة التي لا بدَّ منها لحصول معنى التكليف فيه، أن يجاهد الإنسان ما في فطرته من الرغبة في الحياة والكراهية للقتال، ويمتثل أمر الله له بنصرة دينه، كما قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾...[4].

وكلف الله الإنسان بالصبر على المصائب والشكر على الرغائب، وكانت المحنة التي تحقق لهذا التكليف معناه أن يجاهد الإنسان ما في نفسه

---

(١) الروم من الآية: ٣٨.
(٢) النساء من الآية: ١٢٨.
(٣) النساء من الآية: ٨٤.
(٤) البقرة من الآية: ٢١٦.

من الجزع والهلع وكفران النعم ـ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾[١]، وقال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾[٢] ـ، وإلا لم تزكو نفسه، وترقى إلى شرف الاصطباغ بهذا التكليف.

وكلفه بأن يكف نفسه عن التمتع بكثير من الأهواء، كما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٣]، وكان الابتلاء بهذا الكف الذي يجلب الألم للإنسان، ويحقق معنى التكليف فيه، مشروطا بخضوع الإنسان لسلطان هواه، وباستشعاره للكلفة في التحرر من قيوده.

فهذا التخالف الذي كان لا بدَّ منه بين التكاليف الإلهية وطبيعة الإنسان وتجاربه الابتلائية القدرية المؤلمة والمفرحة، من شأنه أن يوقع الإنسان السائر في طريق الالتزام بأوامر الله وتكاليفه تحت مطارق الابتلاء، ومشقة الاستعلاء، ومرارة التجربة، وألم المجاهدة.

ولكن هل كان من الممكن أن تظهر استعدادات الخير الكامنة في فطرة الإنسان، وترقى به في سلم الكمال إلى مستوى النيابة عن الله في الأرض، لو لم يتحمل في سبيل ذلك الترقي الجهد والعناء، ولم يواجه التكاليف الإلهية بالانقياد؟ إذن لظلت مرتبة الإنسان ثابتة كالملائكة، واختلت حكمة التكليف، فما كانت ثمة مسابقة ولا تمييز، فحينئذ تتساوى تلك النوعية الإنسانية النفيسة، التي تستعلي بإرادتها على الشهوات وتجاهد نفسها في سبيل مرضاة الله، مع تلك النوعية الشيطانية الخسيسة، التي تستسلم لسلطان أهوائها وتتبع خطوات شياطينها.

إذن، فمن تمام حكمة التكليف الابتلاء؛ بل إن التكليف الذي هو إلزام بالأمر والنهي تجربة وامتحان من أجل أن تتسابق الأرواح العالية والأرواح الدانية، ويتميز بعضها عن بعض في حلبة السباق، وترقى في

---

(١) المعارج/١٩ ـ ٢٠.
(٢) عبس/١٧.
(٣) ص من الآية: ٢٦.

الدرجات أو تتدنى في الدركات، وتُخاطب في نهاية المطاف بـ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾[(١)]، أو بـ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[(٢)].

١. ١. ٣ ـ مقتضيات التكليف

إن النظر في مقتضيات التكليف في عمومها يسفر عن: مقتضى الاختيار ومقتضى الامتثال.

مقتضى الاختيار

إن حكمة التكليف وسر الامتحان يقتضيان معاً فتح مجال الاختيار أمام العقل دون سلب الإرادة منه، وإلا فكيف نتصور أن يحتمل الإنسان العاقل تبعة التكليف إذا فقد الاختيار الذي هو شرطه ومقتضاه؟

لقد خلق الله الإنسان حراً مريداً، يتصرف كما يشاء، ويفعل ما يريد، وجعل تلك الحرية وما يصاحبها من إرادة وإدراك، ويعقبها من احتمال عاقبة الاختبار؛ ميزة هذا الإنسان التي امتاز بها على سائر المخلوقات، بمقتضى تسنمه للأمانة الكبرى التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها، بصريح بيان القرآن: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[(٣)].

إن الأمانة ـ بنص الآية ـ عرضت على السماوات والأرض والجبال والإنسان في الوجود الغيبي، فأبت المخلوقات الضخمة حملها، وآثرت السلامة على احتمال العبء الجسيم، وانبرى الإنسان، هذا المخلوق الفريد بازدواجية طبيعته وضعفه، واضطلع بحملها، ولما يدرك جسامة أمرها، جهلاً منه وظلماً، فما هي يا ترى هذه الأمانة؟ أفلا تكون هي أمانة الإرادة التي هي مناط التكليف والجزاء، وأمانة العقل التي تحصل به المعرفة الذاتية

---

(١) ق/٣٤.

(٢) يس/٥٩.

(٣) الأحزاب/٧٢.

بالله، وأمانة الاهتداء بمخاطر الابتلاء وعثرات الجهل إلى اختيار إطاعة أمر الله دون سواه...؟ أو ليست هي الابتلاء بتبعة التكليف وحرية الإرادة ومسؤولية الاختيار؟

بلى[١]، إنها الأمانة الصعبة التي تعني الاختيار الحر الواعي للطريق وتبعته. والكائنات، سائر الكائنات، اختارت طوعا ـ كما تقدم ـ أن تطيع ربها طاعة كاملة، غير حرة، ولا مريدة، وأن تسخر لمشيئته، فأعفاها التسخير من المسؤولية والحساب، فما عادت بحيث توصف بجهل وظلم أو تمتحن بخير وشر أو تتعرض لثواب وعقاب...!

أما الإنسان فقد أخذ على عاتقه هذه الأمانة الثقيلة، فآثر أن يعرف ربه بنفسه، ويطيع أوامره بإرادته، وبمجاهدة شهواته... وهو في كل خطوة من خطوات النهوض بتكاليف أمانته مريد، مدرك، يختار طريقه وهو عارف بتبعته، فإذا ما اختار طريق المعرفة، والطاعة، والمجاهدة؛ ارتقى إلى مستوى الطاعة الكاملة التي تسير وفقها السماوات والأرض والجبال، وأصبح ـ بحق ـ سلطاناً في عبديته لله، مؤهلاً للنيابة والتكليف، لائقاً بالثواب الأبدي...

ولا شك أن هذه الأمانة التي حملها الإنسان، وتحددت بها ماهيته وميزته، نعمة إلهية أسداها إليه خالقه، ووديعة استودعها لديه، وخاطبه بالتكليف لأجل المحافظة عليها من الضياع والفساد حتى يرجع إلى ربه يوم الحساب.

ولا جرم فإن هذه النعمة الإلهية آتية من تلك النفخة العلوية التي امتزجت بالطين، أصل الإنسان؛ فوهبت هذا الإنسان طاقات وإمكانات

---

(١) يؤيد هذه المعاني ما لوحظ في أصل الأمانة اللغوي من «**أمن الخوف وحذر الخيانة**»: جاء في المقاييس: «الأمانة ضد الخيانة ومعناها سكون القلب» وفي المفردات: «أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف»: (المقاييس وكذا المفردات/أمن).

ومدارك وإشراقات[١]، أسجدت له الملائكة[٢]، وصيرته ذا هيمنة على ما دونه من المخلوقات؛ وهبته الإرادة والعقل والعلم والقدرة... وغيرها من الصفات المميزة، التي أظهرت للإنسان والكائنات صفات الله المطلقة، وجعلت الإنسانية مخلوقة للمعرفة والعبادة، وحائزة لشرف الخلافة، ومؤهلة للتكليف، ومعرضة لاستحقاق السعادة أو الشقاوة.

وبهذا يتبين، أن الإنسان يملك الاختيار الذي هو مناط التكليف والجزاء، بمقتضى حمله الأمانة وقيامه بالخلافة. وبهذا الاختيار الحر أمكن للإنسان أن يتجه بكسبه إلى الطاعة أو المعصية، طبقا لإرادة الله التي اقتضت أن يكون الإنسان ذا حرية واختيار في أفعاله الكسبية.

وإذا ظهرت هذه الحقيقة بوضوح، فمن البديهي جدا أن تكون الأوامر الإلهية التكليفية المتجهة إلى الإنسان الحر المختار أوامر ابتلائية تخييرية؛ يملك الإنسان حيالها أن ينقاد أو لا ينقاد لها على أن يحتمل تبعة انقياده أو عصيانه؛ فإن من حق الله تعالى أن يقضي في شأنه بالجزاء المناسب لاختياره: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[٣].

مقتضى الامتثال

وإذا كان شرط التكليف اختيار المكلف للفعل المطلوب، فإن لازم التوجه إلى المطلوب بالاختيار أن يكون بقصد الامتثال؛ إذ لا يتصور تكليف عاقل مريد بفعل أو ترك إلا أن يكون مع الإنجاز. وعلى هذا المعنى دلت عبارة الغزالي: «... التكليف مقتضاه الطاعة والامتثال»[٤]؛ فلا تكليف ولا

---

(١) وإن ورود لفظ الأمانة معرفا بـ«ال» لعموم جنسه يفيد أن دلالتها تتسع لهذه المواهب العالية التي ملكها الإنسان بنفخة من روح الله.

(٢) سيأتي بيان ذلك بتفصيل ضمن قضية الأمر الشيطاني في الفصل الثاني.

(٣) النازعات/٣٧ ـ ٤٠.

(٤) المستصفى: ١٥٨/١ ومثله ما في حاشية البناني: ٦٩/١ ونصه: «...مقتضى التكليف بالشيء الإتيان به امتثالا».

دين من دون طاعة أمر الله وامتثال تكاليفه وتنفيذ دينه في الحياة، كما تنفذ الكائنات شريعته في الوجود، ولا طاعة ولا امتثال لأمر الله ودينه من دون التحرر من أسر الكبر والأهواء، والاستسلام لفطرة الإسلام، والإصغاء بشهود إلى وحي الأنبياء، والانضواء في سلك العبودية المؤمنة بخطاب ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[١].

١. ٢ ـ مفهوم الدين

١. ٢. ١ ـ ما الدين؟

يدور الدين في اللغة على معاني: «**الانقياد والذل**»[٢] و«**القهر والغلبة**»[٣] و«**الحال والعادة**»[٤] و«**الجزاء والحساب**»[٥] ومنه «**المدين**» و«**المدينة**»: العبد والأمة؛ لأن العمل أذلهما[٦] قوم دين: مطيعون **منقادون**[٧] ودان الناس: **قهرهم** على الطاعة، **ودِنْت** القوم: **أذللتهم** واستعبدتهم، **والدين من الأمطار**: ما يعاهد موضعاً، فصار له ذلك **عادة**[٨]. وما زال ذلك **دينه**؛ أي: **دأبه وعادته**[٩] **ودِنْتُه**: إذا **جازيته** بطاعته[١٠].

---

(١) البقرة من الآية: ٢٨٥.

(٢) قال ابن فارس: «الدال والياء والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها، وهو جنس من **الانقياد والذل**»: (المقاييس/دين).

(٣) قال الفيروزآبادي: «الدِّين ـ بالكسر ـ «... **القهر والغلبة**»: (القاموس/دين).

(٤) جاء في الجمهرة/دين: «الدين: **الدأب والعادة**» وفي المقاييس: «الدين: **الحال والأمر الذي تعهده**».

(٥) كما في القاموس/دين: «الدين: **الجزاء**... **والحساب**...».

(٦) القاموس والمفردات والمقاييس/دين.

(٧) القاموس/دين.

(٨) القاموس/دين.

(٩) الجمهرة/دين.

(١٠) المفردات/دين.

وكل هذه الاستعمالات المختلفة لصيغ المادة مردها عند التأمل إلى معنى **الخضوع**؛ ذلك بأن العبدية في المدين تعني **الخضوع** تحت قهر ذي سلطة. والقهر والغلبة في الديان تعني إذلال المدين وجعله عبداً **خاضعاً** لحكمه، ويقال للعادة دين؛ لأن النفس إذا اعتادت شيئاً، داومت على السير معه ولازمته **وخضعت** له، ويقال للجزاء دين؛ لأنه جزاء على **الخضوع**، فضلاً عن كونه أمراً **ينقاد** له، سواء كان ثواباً أم عقاباً.

وهذه الدلالة اللغوية الأصيلة أبقى عليها القرآن الكريم في استعماله لكلمة «**الدين**»، وألبسها من تصوراته الواضحة الملائمة لأغراضه السامية دلالات قرآنية مخصوصة، صار بها مصطلح «**الدين**» من المصطلحات الجوهرية التي شكلت واسطة عقد مصطلحات القرآن الفخمة، حيث يعطي سبر آياته واستقراء استعماله القرآني: أنه جاء في القرآن، في نحو **٩٤** موضعاً، معظمها بصيغة المصدر[(١)]، دلالة على ثبات هذا الدين ودوامه، وتحدد المراد منه في القرآن، تبعا لسياقات وأشكال وروده، في أربعة معان أساسية[(٢)] تتضلع من المعاني اللغوية المتقدمة، وتضيف إليها معان جديدة، وهي:

المعنى الأول: الحاكمية. وذلك لا يكون حقيقة إلا لله جل جلاله؛ لأنه ما من أحد دونه يملك الخلق والأمر، ويختص بالغلبة والقهر. ولهذا ذكر مضافاً إليه أو مقصوراً عليه سبحانه، وضم إلى الإخلاص؛ فأفاد أن لا يسلم المرء بالسلطة والحكم والأمر لأحد من دون الله، وأن لا يشوب تسليمه ذاك شائبة شرك في ناحية من نواحي سلطته وحاكميته. ومما يشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى

---

(١) كقوله سبحانه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾...: البقرة من الآية: **٢٥٦**، وكذلك جاء بصيغة الفعل المضارع، في موضع واحد: (آية التوبة: **٢٩**). وبصيغة اسم المفعول، في موضعين: (آيتا: الصافات/**٥٣**، والواقعة/**٨٦**).

(٢) هدى إليها الاستئناس بالتحقيق المصطلحي للفظ الدين، الذي حرره الإمام المودودي في كتاب: المصطلحات الأربعة: (من ص: **١١٧** إلى ص: **١٢٧**).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[١]، وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾[٢]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾[٣].

وقد يراد بالدين ـ عدا المعنى الأول ـ في هذه الآيات وغيرها، ممن جاءت على نظمها: المعنى الثاني، وهو:

المعنى الثاني: الطاعة. وينسجم هذا المعنى مع ما ذكر إزاء «**الدين**» من الأمر بالعبادة، والدعاء، والإخلاص، والإسلام...، وهي أمور تفيد أن جوهر الدين هو عبادة الله، والعبادة هي «إطاعة الأمر واجتناب النهي في كل أمر»[٤]، وروح العبادة ومخها هو دعاء المضطر ذي السلطان[٥]. وإحراز الإخلاص لا ينفك عن المفهوم الحق لهذا الدين، ويكون بإخلاص الطاعة والعبدية لله تعالى؛ إخلاصا لا يقبل بعده إطاعة غير الله إلا إن كانت بأمر من الله، ووفقا لشريعته. والإسلام هو دين الله، ومداره على الاستسلام لحكم الله...ولعل هذه الحقائق السامية يجسدها بوضوح مثل قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾[٦] ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[٧] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[٨].

---

(١) آل عمران/٨٣.

(٢) النحل/٥٢.

(٣) الزمر/٢ ـ ٣.

(٤) مصطلحات القرآن الأربعة في فكر المودودي/١٩٣.

(٥) الوحي المحمدي/٢٣٩.

(٦) الزمر/١٢.

(٧) البينة/٥.

(٨) غافر/٦٤ ـ ٦٥.

المعنى الثالث: النظام الكامل لحياة الإنسان[١]. وعليه، فالإنسان بدين من يتَّبع في النظام والحكم يَدين، فإذا استند الإنسان إلى سلطة الله المطلقة فهو في دين الله تعالى، وإذا اتبع سلطة ملك فهو في دينه... وهلم جرا. ولهذا أطلق الدين تارة على ملة الأنبياء التي شرعها الله منذ بدء الرسالات حتى رسالة محمد ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾[٢]. وخص تارة بالإسلام، وأضيف إلى الله لصدوره منه، وإلى العباد لتدينهم؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ﴾[٣] وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾[٤].

وأضيف تارة إلى الملك، **فأفاد شرعه وقانونه**، بصريح قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾[٥]، وإلى المشركين؛ فعنى النظام الذي يتقيد به هؤلاء في عبادتهم وتقاليدهم وشرائعهم بالاستناد إلى سلطة المشايخ والكهان[٦] وهذا المعنى هو المراد من قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾[٧].

المعنى الرابع: الجزاء على طاعة ذلك النظام أو عصيانه. والقرآن يستخدم الدين بهذا المعنى مطلقاً معرفاً بأل أو مقيداً بمضاف إليه هو «**اليوم**»، ويذكره بإزاء الوعد الصادق، والحاكمية الربانية، دلالة على أن الجزاء حق واقع، وأنه يخص المالك القهار الذي يرجع إليه الأمر كله، الله

---

(١) وهذا المعنى ملحوظ في الاستعمال اللغوي للدين في معنى: الطريقة والعادة، التي يلازمها الإنسان ويتقيد بها في شؤونه.

(٢) الشورى/١٣.

(٣) آل عمران من الآية: ١٩.

(٤) المائدة من الآية: ٣.

(٥) يوسف من الآية: ٧٦.

(٦) سيأتي بيان ذلك ضمن قضية الأمر الشيطاني في الفصل الثاني بهذا الباب.

(٧) الكافرون/٦.

جل جلاله، يصرح بهذا القرآن في مثل قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾[(٢)].

ومن مجموع هذه المعاني، يتحصل: أن الدين هو الخضوع لله تعالى حكماً وشرعاً وجزاء. وبيان ذلك أن الحاكمية المطلقة في السماوات والأرض لا تكون إلا لله تعالى، ومن ثم فإن الإنسان ـ بمقتضى فطرته ـ لا يملك إلا أن يخضع لسلطانه، ويتجه إلى عبادته وطاعته، ويتقيد في حياته بشرعته وقوانينه، وينقاد بعد مماته لثوابه وعقابه.

ومن هذا المعنى وشواهده، تنبثق الحقيقة السامية التالية:

● كما أن الدين وجوهره العبادة شهادة على توحيد الله في الألوهية والعبادة كذلك الأمر الإلهي بالعبادة، الذي هو كلامه الأزلي وأصل دينه[(٣)]، شهادة على وجوده، وعلى توحيده في الحاكمية والآمرية، الأمر الذي يجعل الإنسان يتجه إلى مولاه الحق بالعبادة، ويتفكر دائما في أن الداعي إلى تلك العبادة هو الأمر الإلهي لا غير، ونتيجته كسب رضاه وحده، وذلك مدار الإخلاص في الدين ومحور النجاة في الآخرة.

وتأسيساً على هذه المفاهيم والحقائق التي عبر عنها مصطلح الدين في القرآن الكريم، ندرس بعض السمات التي نُعت بها المصطلح، والعلاقات التي مُيز بها عن سواه، وذلك بالقدر الذي يزيد دلالته ظهوراً، ومقوماته الذاتية شخوصاً، ويسهم في كشف طبيعة قضيتنا، وتحديد موقعها داخل النسق المفاهيمي لهذا الدين.

---

(١) الذاريات/٥ ـ ٦.

(٢) الانفطار/١٧ ـ ١٩.

(٣) مضى بيان ذلك ضمن تحليل علاقة الأمر والنهي، وسنزيده بيانا فيما يستقبل من تحليل للدين والأمر.

١. ٢. ٢ ـ سمات الدين

ومن أبرزها: «القيم» و«الحق».

القيم

وهذه الصفة هي أغلب ما وصف به الدين في القرآن، حيث وردت خمس مرات، معظمها في سياق الأمر بإقامة الوجه لهذا الدين، وتقرير طبيعته الثابتة المتناسقة مع فطرة الخلق، بتعبير الآية الجامعة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[1]، والآية الكريمة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾[2]. والآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾[3].

وقد أريد بالدين القيم في هذه الآيات، ونظائرها[4] **الشرع الثابت الباقي، المقوم لأمور الناس في المعاش والمعاد**[5] ولا دين يوحي بهذه

(١) الروم من الآية: ٣٠، وانظر معها: الآية/٤٢.

(٢) التوبة من الآية: ٣٦.

(٣) الأنعام/١٦١.

(٤) مثل، آية يوسف: ٤٠، وقد جاءت في سياق تقرير انفراد الله بالحاكمية تحقيقاً لانفراده بالمعبودية. وقريب من نسقها ونظمها آية البينة: ٥ وفيها ورد الدين مضموما إلى «القيمة» ومعناها إلى معنى القيم أقرب؛ إذ هي اسم للأمة القائمة بالقسط: (كما في المفردات/قوم) وهو مأخوذ من القيام؛ أي: «الثبات» و«العزم» (المقاييس: ٤٣/٥، والمفردات/٤٣٢) والعزم يقتضي الثبات والاستقامة.

(٥) يشهد على هذا المعنى استعمال العربية للقيم، فيمن «قام قياماً. . .**إذا انتصب**»: (المقاييس/قوم) وللدين القيم في معنى: **الدائم الباقي**: (أساس البلاغة/قوم) أو **الثابت المقوم لأمور المعاش والمعاد**، مأخوذا من القوام: اسم لما يقوم به الشيء أو يثبت كالعماد والسناد لما يعمد ويسند به: (المفردات/قوم ـ بتصرف ـ) ويعزز هذه الدلالة اللغوية ما نفهمه من الألفاظ والجمل المنتظمة في الآيات بإزاء الدين القيم، من=

المعاني السامية سوى دين إبراهيم الحنيف، دين الإخلاص. ولعل هذه المعاني تلهم حقائق كلية تكشف عن طبيعة قضيتنا، وهي:

* أن الثبات والاستقامة والاستقرار خاصة هذا الدين الأساسة، وهي توحي بأن ختم الوحدانية مضروب على الدين، كما هو مضروب على الكون والكائنات، مما يجعل فرائض هذا الدين وأحكامه مستقيمة ثابتة[١]، متعاونة[٢]، تستعصي على التجزئة ـ من حيث الألوهية ـ مثل عموم الكائنات

= معاني: **الثبات، والاستقامة**؛ أمثال ﴿فَأَقِمْ﴾ و﴿حَنِيفًا﴾ و﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾: من آيتي الروم، و﴿صراط مستقيم﴾ من آية الأنعام، و﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله﴾/من آية التوبة. وهذه العدة ثابتة، وفق الشريعة الفطرية الثابتة، وقد عبر سبحانه عن ثبات هذا الدين ودوامه بوصف الواصب؛ أي: الذي لا يتبدل ولا يتغير، وذلك في قوله: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾: النحل/٥٢. ودوام هذا الدين موقوت بقيام الساعة، كما قال ﷺ: **«لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة»**: مسلم في الإمارة، رقم ١٨٢٢/١٠، عن جابر بن سمرة.

(١) فالصلاة ـ مثلاً ـ عماد الدين، ومن شروط إقامتها أن يقف المسلمون في أثنائها في صفوف مستقيمة، لا تجد فيها انعراجاً ولا اعوجاجاً. واستقامتها تفضي إلى اتحاد قلوبهم وصفوفهم، وتشيع في نفوسهم الاتحاد في جميع نواحي الحياة. ومثل ذلك استقامة صفوف المسلمين في القتال، كما يحب الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝﴾: (الصف/٤). وتوحيد الصفوف في القتال مفض إلى النصر على أعداء الله... وهلم جرا.

(٢) ودستور التعاون الساري في الأكوان ـ كما مضى بيانه ـ يتجسد بوضوح في أركان الإسلام، إذ يمد ركن الصلاة ـ مثلاً ـ ركن الصيام في رمضان بثلاث هدايا نفيسة، هي: صلاة التراويح، وصلاة عيد الفطر، والاعتكاف في المسجد، في حين يستلم ركن الصلاة هدية من الصيام، وهي أن المصلي يجب أن يمتنع عن الطعام والشراب أثناء صلاته، وبغير هذا الامتناع تبطل الصلاة. وكذا يلتقي ركن الصلاة وركن الحج في الكعبة بيت الله الحرام، فالمصلي لا بد له من أن يستقبل الكعبة، كما أن الحاج لا بد له من أن يطوف حول الكعبة، وعلاوة على ذلك يتلقى ركن الحج من ركن الصلاة هدية مباركة، هي صلاة عيد الأضحى، ومن ركن الزكاة التضحية بالمال في أمرين: أولهما حينما يدفع ثمن الأضحية، وثانيهما حينما يدفع نفقات الحج. وكذا تشترك أركان الحج، والصيام، والزكاة في أنها جميعها عبادات سنوية... إلخ.

وكل ذلك التساند يدل على أن هذا الدين ثابت على اتجاه واحد نحو هدفه الأكبر=

الثابتة على نظامها الفطري، غير القابل للانقسام ـ من حيث الربوبية ـ والمندمجة فيما بينها اندماج تفاهم وتعاون في الوظائف.

* مثلما أن الموجودات قائمة من حيث الربوبية بأوامر الشريعة التكوينية التي لا تزول، كذلك كل ذي عقل وشعور، ولاسيما الإنسان المؤهل لإدراك الخطاب الرباني؛ تقوم أفعاله وأحواله الاختيارية وحياته الأخروية بالأوامر التكليفية الثابتة، التي هي كالعماد لفرائض هذا الدين، ومندوباته، ومنهياته. ومن ثم، فلو انقطع انتساب الموجودات للقيومية الأزلية، وانمحى انقيادها للأوامر التكوينية، لفقدت سندها المعنوي، ولهوت إلى سحيق العدم بأقل من طرفة عين.

وكذلك لو انقطع الإنسان عن الانتساب الإيماني للقيومية الإلهية، ولم يخضع في شؤونه ومصالحه في معاشه ومعاده للأوامر التكليفية، لتدحرج إلى مهاوي الفساد في حاله، وجنى الخسر في مآله.

إذن، فمثلما يعلن ثبات الموجودات ودوامها في الكون سر القيومية والآمرية، يعلنه الإنسان أيضاً بثباته على معرفة الله ومحبته، والاستقامة على اتباع أمره واجتناب نهيه، وهو الأمر الذي يجعله لائقا لنيل حياة خالدة.

الحق:

ذكر وصف «**الحق**» مضموماً إلى الدين، أربع مرات في القرآن، فألفا مجتمعين تعبيراً مسكوكاً في سياق الأمر بقتال أهل الكتاب، والوعد بإظهار دين الحق على الدين كله، بصريح قوله تعالى في آية التوبة: **٢٩** ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾، وقوله في الآية: **٣٣** في نفس السورة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ

= الواحد، هو عبادة الواحد الأحد المشرع للناس وللكون سواء، عبادة تسكن بها النفس المؤمنة، وتستقر على الطريق المستقيم، الذي يمنع عنها خطر التمزق والانجذاب برغباتها الجامحة؛ يمينا ويسارا، نحو شعاب الشرك المتفرقة...!.

رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ وعلى وزانها آيتا: الفتح/٢٨ والصف/٩.

ودين الحق هنا استعمل في معنى **الدين المحكم الصحيح والثابت المطابق للفطرة والواقع**[(١)] وهو هذا الدين الذي أرسل الله به رسوله الأخير محمداً ﷺ؛ دين الإسلام[(٢)]، فإنه دين الحق الذي أحق الحق وأزهق الباطل؛ فثبتت له الغلبة على سائر الديانات المحرفة المشوبة بالوثنيات[(٣)]، وجاء تشريعه - بمقتضى الحكمة - موافقاً لفطرة البشر ومصالحهم وأوضاعهم، واشتملت أحكامه على أصول العقيدة والشريعة، الثابتة على العدل والمساواة بين الناس في الحقوق والشهادات والأحكام، وحظر الظلم، وترك الأهواء، ومراعاة الأقرباء... وغير ذلك مما سيأتي بيانه بشواهده في مطلب المجالات.

ومن هذا الاستعمال لصفة الحق، نستفيد:

أن الحق من الخصائص الأصيلة في هذا الدين، بل هو أصل هذا الدين وغايته. وهذا يشعر المؤمن الذي يسلك طريق الحق؛ طريق الاستقامة والعدل، بأن الباطل ليست له جذور في بنية هذا الدين؛ إذ هو كشجرة

---

(١) وهذه المعاني ظاهرة في الاستعمالات اللغوية لمادة «حق»، حيث قال ابن فارس: «**الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته**... ومنه ثوب محقق، إن كان محكم النسج...»: (المقاييس/حق) وقال الراغب: «أصل الحق **المطابقة والموافقة** كمطابقة رِجل الباب في حَقِّه لدورانه على استقامة»: (المفردات/حق). ولا يكون ذلك إلا **لإحكامه**. وقال الجرجاني: «**هو الثابت** الذي لا يسوغ إنكاره»: (التعريفات/حق، وكذلك فتح الباري: ٣٢٣/١٥ و٤٣٥) يقال: أحققت كذا؛ أي: **أثبته حقاً وحكمت** بكونه حقاً»: (المفردات/حق).

(٢) كما أوضحه إشارة، قوله في المواضع الأربعة: (رسوله)؛ أي: محمد ﷺ، على مألوف استعمال القرآن للفظ الرسول مضافاً إلى ضمير الجلالة، وذكره صراحة لحاق آية الصف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾...: الآية/٧.

(٣) يشير إلى هذه الديانات مقال الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾....

خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فهي تتأرجح يميناً ويساراً مع أعاصير الأهواء والشبهات.

وما دام دين الإسلام هو دين الحق، وليس بعد الحق إلا الباطل؛ فلا شك أن الأوامر الإلهية التكليفية المؤسسة لهذا الدين الحق هي أيضاً حق، لا يجوز عليها الباطل ولا تلتبس بها الأهواء؛ ذلك بأنها نزلت بالحق على نبي الهدى والرحمة محمد ﷺ، ووقعت على مقتضى الحكمة بحسب فطرة البشر، وبحسب ما يصلحهم في المعاش والمعاد، فظهر بها دين الإسلام وغلب سائر الأديان، وأنار دنيا الناس بنور الإيمان، وعمرها بالخير والبركات.

١. ٢. ٣ ـ علاقات الدين

ولعل أهم المصطلحات التي ارتبطت مع الدين بضرب من العلاقات: **«فطرة الله»** و**«الأمر»**.

- **«فطرة الله» و«الدين»**

ذكرا متجاورين تجاور تطابق وتوافق في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[١]. وبيان ذلك أن الفطرة هي الجبلة التي ابتدأ الله بها الخلق أول الأمر[٢]، أو النظام الذي خلقه الله في كل كائن بأمره؛ فتحددت به طبيعته ووظيفته، كما مضى بيانه، والفطرة التي تخص الإنسانية هنا هي الجبلة الإنسانية السوية، الروحية والجسدية، الجامعة بين نفخة من روح الله وقبضة من طين الأرض. والدين هو أيضاً النظام الذي خُلقت به النفس الإنسانية، بما ركز الله فيها من استعدادات

---

(١) الروم/٣٠.

(٢) وهذ المعنى ملحوظ فيه أصل استعمال الفطرة، وهو «فتح شيء وإبرازه»: (المقاييس/فطر ومثله ما في المفردات: «الشق طولاً») ومنه قيل «للكَمْأة فُطر، من حيث إنها تفطر الأرض فتخرُج منها»: (المفردات/فطر).

سامية تمكنها من معرفته سبحانه والقيام بعبادته. ومن ثم، فهي لا تملك أن تنحرف عن خلقتها وفطرتها، وإن هي فعلت تاهت في بيداء من الفساد والضلال. مثلها في هذا كمثل الكون، لا يملك أن يخرج قيد أنملة عن النظام الفطري الذي خلقه الله متناسقا مع طبيعته ووظائفه.

ومن هنا، فإن الفطرة والدين متطابقين بمقتضى الخلق؛ إذ قال تعالى في جانب الدين: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وقال في جانب الفطرة: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فالدين من الفطرة، وكلاهما خلق الله[1] صادران عن صاحب الخلق ومنشئ الوجود في فطرته، ومنزل الدين وشارع شرعته؛ الله رب العالمين، القائل عز من قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[2].

والفطرة والدين متفقان من جهة استقامتهما معاً على الطريق الواحد، طريق الإخلاص لله الواحد؛ إذ قال سبحانه في جانب الدين: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ فوجه نبيه والمؤمنين إلى إقامة الوجه لهذا الدين والاستقامة على نهجه دون سواه، ثم قال: ﴿حَنِيفًا﴾ والحنيف صفة من «**الحنف**»، وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة، وعن الباطل إلى الحق[3]، وقال بإزاء «**فطرة الله**» و«**الدين القيم**»: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، فبين أن فطرة الله ثابتة على نظام يمنع عنها الاضطراب والفساد، كما اتضح، وأن دين الله ثابت، ليس فيه تبديل لخلق الله، خلاف دين الشرك؛ دين الشيطان المغير لدين الله عقيدة وشريعة وللمخلوقات، والقائم على الظنون والأهواء وتفريق الأديان، كما قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[4]، وقال في سياق الآية، مقرراً صفة المشركين: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ

---

(١) بشهادة الآيات المتقدمة على هذه الآية (انظر: الروم/٧ ـ ٢٦) فقد مزجت بين مشاهد الكون في السماء والأرض وما بينهما وبين أغوار النفس وفطرتها والأمم وأحوالها... الأمر الذي هيأ القلوب المستقيمة فطرة للإقبال على الدين والاستقامة على نهجه القويم.

(٢) الأعراف/٥٤.

(٣) الوحي المحمدي/٢٣٨، وكذلك مفاتيح الغيب: ١٢٠/٢٥/١٣.

(٤) النساء من الآية: ١١٩، وسيأتي بيانها على التفصيل في الفصل الثاني من هذا الباب.

عِلْمٍ﴾... [١] وقال في لحاقها، مفصلاً إقامة الوجه للدين: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [٢].

فالأصل في الفطرة الاستقامة، وإنما تنحرف ويصيبها المرض حين تتحول عن دين الله الواحد، الذي لا تبديل فيه ولا تفريق، إلى دين الشياطين الذي يغير خلق الله ويفرق دينه أديانا، ويشوه الفطرة التي فطر الناس عليها. يصرح بهذا قول رسول الله؛ الجامع بين تغيير فطرة الدين وتغيير خلق الصورة: «**ما مِن مولود إلا يولَد على الفِطرة، فأبواه يُهَودانه أو يُنَصرانه أو يُمَجسانه...**» إلى قوله: «**كما تُنتَج البهيمةُ بهيمة جمعاء، هل تحِسون فيها من جدعاء**»[٣] وقوله عليه السلام، فيما يرويه عن ربه: «**...وإني خَلَقت عِبادي حُنفاء كلهم، وإنهم أَتتهم الشياطين، فاجتالَتهُم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحلَلْت لهم وأَمَرتهم أن يُشركوا بي ما لَم أنزل به سُلطانا...**»[٤]. فالدين خلقة سوية بنص الحديث، لاتجد فيها عوجا ولا تشويها، والدين على استوائه يلتقي التقاء كاملا مع الفطرة المزدوجة في الإنسان. وإن دين الإسلام الذي أمر الله نبيه والمؤمنين بالتوجه إليه مستقيمين بنص الآية، لهو دين الفطرة، الذي يلتقي مع الفطرة على صورتها الصحيحة التي خلقها الله بها، ويقومها ويصونها أثناء تطورها من الانحرافات التي تجعلها معوجة لا تصبر على الاستواء، ويتجه بها روحا وجسدا إلى دار البقاء. ولعل هذا الالتقاء يظهر بجلاء في الأمور التالية:

فمثلاً: الإيمان بالله تعالى ودعاؤه، كلاهما يتسقان مع ما غُرز في نفس الإنسان من إحساس فطري بقدرة السلطان الغيبي، وبالضعف إزاء

---

(١) الروم من الآية: ٢٩.
(٢) الروم/٣١ ـ ٣٢.
(٣) البخاري في الجنائز (١٣٥٩)، عن أبي هريرة.
(٤) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، من حديث عياض بن حمار المجاشعي، رقم: ٢٨٦٥.

قدرته، وبالرغبة في التوجه إلى معرفته، والتضرع إليه. ومن ثم، فإن الإنسان لا يعرف له إلها إلا الله، معرفة معلومة من فطرته السوية بالضرورة والإشهاد، بصريح الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾(١)، ولا يتضرع بالدعاء لأحد سواه، ضراعة نابعة من صميم فطرته، وهو حتى حين ينحرف، فيتعبدالطبيعة، والجن، والوثن، وسائر المعبودات من دون الله؛ تظل بقية من الفطرة المؤمنة تتجه إلى خالقها الواحد، كما تتجه العين الكليلة إلى الضوء، لا تراه كله، ولكنها لا تعمى عنه. ولهذا قال تعالى عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(٢). ومن ثم كان الإيمان بالله عز وجل يضبط الاستعداد الفطري في الإنسان لمعرفة الخالق، والترقي في العلم بكمالاته، ويوجهه إلى عبادته دون سواه، العبادة التي ترضي جانبي الروح والجسد في كيانه الإنساني الموحد، وتسوقه إلى القيام بوظيفته الفطرية في الدنيا، وإلى نيل السعادة الأبدية في الآخرة.

ومثلاً: الصلاة، عماد الدين، من الشعائر التي تلائم ما أودع الله في الإنسان من شعور تعبدي فطري، يحرك روحه إلى الاتصال الخالص بالخالق؛ اتصالاً يبعث الطمأنينة في قلبه وعقله وروحه جميعاً، ويمنح جسده طهارة وحيوية ونشاطاً، ويتجه بجميع كيانه المزدوج المتحد إلى ذكر الله وعبادته ونيل رضاه في الدنيا والآخرة. ومن أجل ملاءمة الصلاة لخلقة الإنسان وخلوصها لله، وجه سبحانه نبيه والمؤمنين إلى إقامتها مبيناً معنى إقامة الوجه لدين الفطرة؛ حيث قال: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾(٣).

ومثلاً: مباشرة الزوج لزوجته في الطهر وفي موضع الحرث، تلتقي مع النظام الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني، بل من أصل تكوين

(١) الأعراف من الآية: ١٧٢.

(٢) الزمر من الآية: ٣٨.

(٣) الروم/٣١.

الأشياء كلها في الكون، إذ هي تصريف لطاقة الجنس في الإنسان، والإسلام يراعي هذه الطاقة، وينظمها، ويضبطها بحدود ترفعها إلى الله، فيأمر المؤمنين أمر تكليف باعتزال النساء في المحيض ومباشرتهن في الطهر، من حيث أمر الله، بصريح الآية الكريمة: ... ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]. فتوجيهات القرآن هنا تلتقي مع الفطرة السليمة، التي تنصرف بخلقها، وفق النظام الذي يحكم الحياة، عن المباشرة في حالة قد تحقق اللذة الحيوانية ولكن يتعذر معها الإخصاب، فضلا عما ينشأ عنها من أضرار صحية للرجل والمرأة سواء؛ والتي تقبل بخلقها أيضاً ـ وفق نفس النظام ـ على المباشرة في الطهر؛ لأنها تحقق اللذة الطبيعية في منبت الإخصاب، كما أمر الله العباد، فليست الغاية هي مطلق الشهوة؛ إنما الغاية الفطرية هي السمو بلذة الجسد إلى ابتغاء ما كتب الله للإنسان من الطهارة والارتفاع عن مستوى الحيوان، ومن الإخصاب والنماء.

وهكذا يحقق الإنسان الملتزم بدستور الله المبين في القرآن والسنة، الموافق لفطرته السوية التوازن بين مطالب جسده، ومطالب روحه الموصولة بالله؛ فيعيش نصيبه من دنياه، بشكل يطلق استعداداته للبناء، ويرنو إلى آخرته من جهة ما ناله من نظافة واستقامة في دنياه. وبذلك يكون الدين فطرة في الإنسان الملتزم بما جاء به الإسلام.

وفي ضوء هذه العلاقة، نستفيد:

أن موافقة دين الإسلام للفطرة البشرية تقتضي أن يكون هذا الدين سمحاً، لا عنت فيه ولا إرهاق[2]؛ لأن السماحة واليسر مبتغى الفطرة، ولهذا قال النبي عليه السلام: «**إن الدِّين يُسر، ولن يُشادَّ هذا الدين أحدٌ إلا**

---

(١) البقرة من الآية: ٢٢٢.

(٢) كما تبين من تحليل مصطلح «التكليف» آنفاً، وإنما خص الله هذا الدين بالسماحة واليسر، لأنه أراده للناس كافة والأزمان قاطبة.

غلبه، **فَسَدِّدوا، وقارِبوا**»...[١] وإذا كان دين الفطرة يسرا، فمن البَدَهي أن تكون أوامر هذا الدين يسيرة؛ لكونها موافقة لفطرته الجسدية والروحية. ودليل يسرها انتظام حياة الإنسان الفكرية والعملية، مثلها في هذا كمثل أوامر الدين الفطري السارية في الكائنات بمنتهى اليسر؛ لكونها موافقة لفطرتها ووظائفها، كما مضى. وشاهد سهولتها جريان الانتظام الأكمل، والوفرة المطلقة، والسعة الكلية في الموجودات.

«الأمر»... و«الدين»

ذُكر الأمر بعبادة الله وإخلاص الطاعة له بإزاء «**الدين القيم**» و«**دين القيمة**»، في آيتي يوسف: ٤٠ ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾...، البينة: ٥ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[٢].

والنظم فيهما أن يتقدم الأمر على الدين، مما يدل على أن الأمر بالعبادة والإخلاص هو قاعدة هذا الدين على الإطلاق. ولبيان ذلك نخضع الآيتين لمبضع التحليل المقامي والمقالي.

أما الآية الأولى، فسيقت في مقام الدعوة والرسالة، كما بيناه ضمن تحديد علاقة الحكم والأمر؛ ذلك بأن يوسف عليه السلام سلك مسلك التدرج في إثبات انفراد الله بالحكم، وبيان ما حكم به من الأمر بعبادته وحده، وتقرير قيومية هذا الدين على غيره. ومن الواضح أن هذا التدرج الحكيم يفصح عن ترابط وثيق بين الجمل الثلاثة في الآية؛ لأن انفراد الله بالحاكمية ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يقتضي انفراده بتعبيد الناس لأمره وشرعه ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ولا دين قيما يحقق ذلك سوى هذا الدين الثابت

---

(١) البخاري في الإيمان (٣٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ونظير هذه الآية قوله تعالى آمراً نبيه الكريم: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾...: الزمر/١١ ـ ١٢.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ ذلك أنه اتباع لأمر الله سبحانه، بل هو أساساً أمر الله أنزله إلى العباد، وأسسه على الإخلاص له وحده لا شريك له.

وأما الآية الثانية، فوردت في مقام الطعن في تنصل أهل الكتاب من متابعة الإسلام بعلة انتظارهم البينة، والحال أن البينة قد أتتهم قبل مجيء محمد ﷺ وبعد مجيئه بدين الإسلام المصدق لما بين يديهم من الكتاب، ومن البيان على لسان الأنبياء[1]؛ إذ ما أمروا في كتبهم بشيء إلا بما جاء به هذا الدين من الأمر بعبادة الله مخلصين له الدين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة[2]. وهذه الأوامر الواردة في كتبهم السابقة وفي القرآن لا تقتضي التفرق، بل تستوجب التوحد؛ لأنها أصول دين الإسلام، دين القيمة. وهذا يعني أن الدين الذي توالت به كل الرسالات دين واحد في أصله، لا اعوجاج فيه ولا تفرق؛ لأنه أسس على قاعدة الأمر بعبادة الله وحده، وإخلاص الطاعة له. فتبين أن الأمر بعبادة الله هو عين ما جاء به الإسلام، بل هو جوهره الأساس، فلا معذرة لأهل الكتاب في الإعراض عن الإسلام، لاسيما وأن إعراضهم ذلك هو أصل تفرقهم واختلافهم على أنبيائهم، ولو أنهم التزموا بما أُمِروا به من عبادة الله، أصل ما خلقوا له، لما فرقوا دينهم طرائق قددا.

إذن، فالمقام في الآيتين معاً يدل على أن الأمر بعبادة الله وإفراد

---

(١) وهذا ما تظاهرت على بيانه الآيات؛ كقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: الشورى من الآية: ١٤، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾: البقرة/٨٩.

(٢) كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: النحل من الآية: ٣٦، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾: الشورى من الآية: ١٣. وإقامة الدين وعدم التفرقة فيه هو عين عبادة الله مخلصين له الدين، المأمور بها: (انظر: أضواء البيان: ٤١١/٩). وكذلك قول الطاهر في التحرير: ٤٨١/٣٠/١٥ (طبع سحنون): «وإقامة الصلاة من أصول شريعة التوراة كل صباح ومساء وإيتاء الزكاة مفروض في التوراة فرضاً مؤكداً».

الطاعة له هو أساس الدين القيم، الذي تثبت به أصوله وفرائضه، فهل يدل مقال الآيتين على هذه العلاقة المخصوصة بين التركيبين؟

مما يدل على ما ذكرنا من طبيعة هذه العلاقة أمور:

* **أولها**: اشتراك العبادة المأمور بها والدين في إفادة معنى الخضوع، فدين الله ـ كما حُدد ـ؛ عبادته والخضوع له. ودين الله هنا: شرعه الذي يذعن فيه المرء لسلطة الله العليا. وأصل العبادة: «**الخضوع والذل أيضاً**»(١). والعبادة المأمور بها هنا، هي العبادة الكلية التي تتضمن غاية الذل والخضوع من العبد لله سبحانه(٢)؛ أي: الاستسلام المطلق لله تعالى دون غيره، كما أخبر تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾(٣).

ومن هذه الدلالة اللغوية والقرآنية المشتركة بين العبادة والدين، ندرك أن العبادة المأمور بها لا بد فيها من الطاعة والخضوع لله سبحانه، ولا يتحقق ذلك في واقع الأمر إلا باتباع أمر الله وحده؛ سواء تعلق هذا الأمر بالعقائد أو بالعبادات أو بالمعاملات... فالعبودية لله وحده تظهر بجلاء في امتثال أمره في هذا كله.

كذلك ندرك أن المرء لا يكون في دين الله إلا إذا خضع لله وحده، واتبع شرعه وحده. فليس إذن عبدا ولا عابداً لله من فسق عن أمر ربه، وليس حنيفاً مسلماً من رفض الاستسلام لحكمه، وإن أقر بربوبيته، كما فعل مشركوا العرب. فالدينونة لله والعبودية له سبحانه لا بد فيها من الانقياد لأمر الله، الذي هو حق ألوهيته سبحانه.

---

(١) الصحاح/عبد وفي الظلال: ٤/٧٢٥. وهذا الأصل مأخوذ من قولهم: «طريق معبد: أي مذلل بالوطء»: المفردات/عبد.

(٢) وإلى هذا المعنى أشار الراغب في قوله: «والعبادة: غاية التذلل، لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»: المفردات/عبد.

(٣) الزمر من الآية: ١٢.

وفي ضوء هذه الدلالة المشتركة بين المفهومين يتحصل: أن الأمر الإلهي هو داعي العبادة وأساس الدين؛ إذ بغير اتباعه لا تتحقق عبادة ولا يكون دين، فالخضوع لله تعالى واتباعه في كل أمر هو العبادة المشروعة، أصل الدين؛ فإن الدين كله انقياد لأمر الله، أي: عبادة مأمور بها، يتحقق بها دخول العباد كافة في عبودية الحق سبحانه، مخلصين له الطاعة والانقياد، حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله، ولا يكون لحياتهم شرع إلا ما أنزل الله تعالى وجاء به الرسول الكريم، ولا يحرز عبد إخلاص العبادة لله، إلا إذا تفكر دوما في أن الدافع إلى العبادة هو الأمر الإلهي لا غير. وهذا ما أفاده حتما تعلق الأمر بالعبادة والإخلاص، وتقدمه على الدين في الآيتين.

إذن، فداعي العبادة الأمر وأساس قبولها الإخلاص. وذلك أس أساس الإسلام، دين القيمة.

* **ثانيها**: ورود فعل «**الأمر**» في الآيتين بصيغة الماضي: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا﴾... ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾... وفي الفعلية والمضي معنى التقرير والإخبار والأصالة والامتداد، مما يفيد أن الأمر بالعبادة، والإخلاص، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة هي أصول دين الإسلام؛ دين أهل الحق من الأنبياء وصالحي الأمم، منذ فجر الرسالات إلى متمها. ولعل أصالتها تنسجم مع العهد القديم الذي أخذه الله على بني الإنسان وسجله بقلم القدرة في فطرتهم البشرية[1]، العهد الذي بمقتضاه حكم الله على العباد أن يفردوه بالعبادة ويخلصوا له الطاعة. وكان ذلك هو المقصود الأعظم من بعثة الرسل وإنزال الكتب...

وليست دعوة يوسف السجينين إلا تذكيراً لهما بذلك العهد القديم، وإزالة لما تراكم على معدن فطرتهما من غبار الغفلة والوثنية والتقليد. وما دين الإسلام الذي جاء به الرسول الأخير عليه السلام إلا تذكرة وموعظة

---

(١) وهو الذي صورته آية الأعراف/١٧٢ آنفاً.

لأهل الكتاب وللناس أجمعين، فيها إخبار وتقرير لأصالة هذا الدين، واتصال جذوره بدين إبراهيم الحنيف الذي ملئت كتب أهل الكتاب بتمجيده واتباع هديه. وهذا لا يستوجب تفرقا في دينه عليه السلام، إنما يستوجب اتفاقا بمقتضى بيان الله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾.

ثالثها: اقتران الدين في الآيتين باسم الإشارة للبعيد «**ذلك**»، وهو متوجه إلى الأمر والمأمور به المذكور بعد حرف الاستثناء (إلا)، أي: إلا بعبادة الله في آية يوسف، وبالإخلاص وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة في آية البينة، وهي أمور عطفت على عبادة الله، من باب عطف الخاص على العام لأهميته.

والمذكور المأمور به، الجامع بين العلم والإخلاص والعمل هو عين «**الدين القيم**» أو «**دين القيمة**»، بل لا دينا قيما سوى ذلك المذكور. ومن ثم فاسم الإشارة يفيد إظهار رفعة شأن هذا الدين وأحقيته وصحته، في مقام الدعوة إلى إقامته وعدم التفرقة فيه، كما يفيد قصر «**الدين القيم**» بكل معانيه المتقدمة[1] على المشار إليه المذكور، دون سواه، لأهميته ورفعة منزلته؛ فلا جرم أن صار ذلك المذكور ملاك الأمر في الدين، وأس الأساس في اعتداله وإشرافه.

وإذا كان ذلك المذكور المجموع هو الدين المستقيم، المهيمن، المنسجم مع فطرة الناس، الضابط لتعبدهم، المصلح لأنفسهم، المنظم لحياتهم، وإذا كان أساس هذا الدين هو أمر ذي الجلال الصادر من كلامه الأزلي الموحى إلى الرسل والأنبياء، فما هي حقيقة الوحي الإلهي؟ وما هي طبيعته؟ وما هي وسائله؟

---

(١) كما يفيدها التعريف باللام للجنس ﴿ٱلدِّينِ﴾ وبالإضافة: ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

١. ٣ ـ مفهوم الوحي

١. ٣. ١ ـ ما الوحي؟

تدل مادة «وحى» في اللغة على **إلقاء علم في سرعة وخفاء**[١]. ولتضمنه معنى السرعة، قيل **للسريع**: الوَحِي[٢]، وقيل «**أمر وَحْي**»: وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة»[٣] والرسالة[٤]. ولتصور معنى الخفاء فيه، قيل: «وحيت إليه، وأوحيت: إذا كلمته بما **تخفيه** عن غيره».

ومن السرعة والخفاء الملحوظين في المادة، جاء الوحي في الاصطلاح بمعنى: «**إعلام الله لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه**، وجاء مشتملا على كيفياته المنسجمة مع أضربه في اللغة، بصريح تعريف الشيخ محمد عبده: «بأنه عِرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت...»[٥].

وفُسر الوحي للأرض على وجه التسخير، بمعنى: «الأمر الإلهي الخاص، قال لها: كوني خرابا، كما قال لها عند إيجادها: كوني أرضا. فهذا أمر من الأوامر التكوينية التي هي تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها»[٦].

---

(١) وقال ابن فارس: «الواو والحاء والحرف المعتل: أصل يدل على **إلقاء** علم في **إخفاء** أو غيره إلى غيرك»: (المقاييس/وحى). وقال الراغب: أصل الوحي: **الإشارة السريعة**: (المفردات/وحى).

(٢) المقاييس/وحى.

(٣) المفردات/وحى.

(٤) المقاييس/وحى. وفيه: «فالوحي: **الإشارة** والوحي: **الكتاب والرسالة**».

(٥) الوحي المحمدي/٤٤ ـ ٤٥.

(٦) التفسير البياني: ٨٩/١، وانظر معه: قرة العيون النواظر/٢٣٧. وتعقبت بنت الشاطئ هذا التفسير بقولها: «وفي آية الزلزلة، **ليس الوحي بمعنى الأمر**، لأن الأمر يقتضي توجيه الحديث، ويعوزه ما للوحي من دلالة السرعة والخفاء، وإنما الوحي يكفي منه إيداع القوة فيها، مما هو أنسب لجو التسخير والمطاوعة المسيطر على الموقف: (التفسير البياني: ٩٠/١).

وجاء الوحي في القرآن الكريم ثماني وسبعين مرة، معظمها للأنبياء والأولياء، وكثر مجيئه في صيغة «**أوحى**» المتعدي إلى الموحى إليه بحرف الجر «**إلى**»[(١)]، دلالة على إيصال الإيحاء في سرعة وخفاء إلى الموحى إليه من الأحياء. وبملحظ من هذه الدلالة كثر استعماله في معنيين: مصدري واسمي، وهما:

* الوحي: **هو الكلام الإلهي الذي يلقى إلى أنبيائه وأوليائه ومخلوقاته**[(٢)]، وذلك إما تسخير وإلهام؛ كتسخير الحيوان والجماد، وإلهام الملائكة والإنسان. وإياهما قصد تعالى بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[(٣)]، وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾[(٤)]، وقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(٥)] وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[(٦)].

وإما من وراء حجاب، كالكلام الذي سمعه موسى من وراء الشجرة، وإليه أشار سبحانه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾[(٧)].

وإما بواسطة رسول مشاهد أو خفي، كالذي يلقيه جبريل للنبي ﷺ؛

---

(١) انظر: المعجم المفهرس/٩١٤ ـ ٩١٥.

(٢) وهذا الذي يقابل وسوسة الشيطان، في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾: الأنعام من الآية: ١٢٢. وحول هذا الوحي الشيطاني سيدور الكلام في الفصل الثاني.

وقد يسند الوحي إلى غير الله والشيطان، فيجيء على أصل معناه، في الإشارة ببعض الجوارح، وذلك قوله تعالى، مخبرا عن زكرياء، في آية مريم/١٠: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

(٣) النحل من الآية: ٦٨.

(٤) الزلزلة/٥.

(٥) الأنفال من الآية: ١٢.

(٦) القصص من الآية: ٦.

(٧) الشورى/٥١.

فينفث في روعه من غير معاينته، أو يكلمه متمثلاً له في بشريته، كما صرح بذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[1].

* الوحي: **هو ما وقع به الوحي**، أي: ما أنزله الله تعالى على أنبيائه وأعلمهم به من الإخبارات الغيبية وشؤون العقيدة وأحكام التشريع. وهذا الذي عناه البيان الإلهي في مقام الإنذار بالقرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾...[2]. وهذا الذي أُمر عليه السلام بتلاوته[3] واتباعه[4].

ومن تدبر مفهوم الوحي وأنواعه، ومن استقراء آياته، نهتدي إلى الملاحظ والفوائد التالية:

* يختلف المراد من الوحي الإلهي، وتتفاوت مراتبه بين الخاص والكلي تبعا لقابلية الموحى إليه وقيمة الموحى به. فإن كان الوحي لخواص البشر من الأنبياء، وبه حياة الأرواح، وهذا أكثر استعمال الوحي في القرآن، كما تقدم؛ فهو مكالمة سامية خاصة باسم الألوهية المطلقة مع سادتنا الأنبياء، المؤهلين لإدراك الخطاب الرباني، وتبليغه للأمم أو للناس كافة، وسوقهم نحو سعادة الدارين. وإن كان للملائكة، والأولياء، وعوام الناس، والحيوانات، وسائر الموجودات... وبه تلهم - غالبا - الوظائف المتعلقة بالربوبية؛ فهو مكالمة محيطة، يجريها خالق الكون مع كل نوع من المخلوقات، حسب استعدادهم الفطري، وحاجاتهم الخاصة ووظائفهم الجزئية. الأمر الذي يبين أن الإلهامات الربانية هي أنواع مختلفة من تلك المكالمة الشاملة، كما يبين مدى سعة الكلمات الربانية وكثرتها، ويكشف وجها من تفسير الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾...[5].

---

(١) نفس الآية.

(٢) الأنبياء من الآية: ٤٥.

(٣) كالذي في آية الكهف: ٢٧ ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

(٤) كما جاء في الأنعام: ١٠٦ ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾....

(٥) الكهف من الآية: ١٠٩.

ومن هنا، نستفيد: أن الوحي الذي يكلم الله به أنبيائه ورسله أسمى من سائر الكلمات الإلهية الإلهامية والتسخيرية الصادرة إلى كافة المخلوقات[١]. ومما يؤكد سموه، أن معظمه ينزل بواسطة الملائكة أطهر خلق الله، بينما أغلب الإلهام يُلقى بلا واسطة؛ أي بهاتف القلب السليم في الإنسان أو باستعداد فطري في الملك والحيوان، وسواهما.

إذن، فكما أن كلام الله بالوحي النازل إلى الأنبياء يسمو على سائر أنواع الكلام المتجلية في أعمال الكائنات، كذلك الأوامر الإلهية التكليفية النابعة من الوحي الإلهي، والآتية من صفة الكلام، والصادرة إلى الإنسان لتلبية أشواقه الروحية، تسمو على الأوامر التكوينية، النابعة من الإلهام الإلهي، والآتية من صفة الإرادة، والصادرة إلى المخلوقات لتلبية حاجاتهم الفطرية.

* يقترن وحي الله إلى أنبيائه وملائكته وأوليائه ومخلوقاته في كثير من موارده ابتداء بأوامر تكليفية وتكوينية جازمة[٢] تنسجم مع سرعة الوحي وحتمية نفاذه وعلو مقامه.

ومما يُسجَّل على الأولى أنها أوامر تكليف وإلزام للأنبياء والأولياء بأصول الدين وفرائضه؛ كالإيمان[٣] والعبادة[٤] ....

---

(١) ولأجل هذه المرتبة السامية، أُطلق على القرآن الكريم والتوراة اسم ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، بوصفه رب العالمين وإله الموجودات، وذلك في مثل آيتي: التوبة: ٦ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ والبقرة: ٧٥ ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾.

(٢) فضلا عن اقترانه ـ في درجة تالية للأمر ـ ، بالنواهي والأخبار. . . ، في مثل هذه الآية الجامعة لتعلقات الكلام الإلهي: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾: القصص/٧.

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾: المائدة من الآية: ١١٣.

(٤) بصريح آية الأنبياء: ٢٥ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

والنذارة[١] والصلاة[٢]، مما يفيد الإعلام بأمور عظيمة في ميزان دين الله. ومما يسجل على الثانية أنها أوامر تعليم وإرشاد للأنبياء، بمقتضى الرحمة الإلهية؛ كالأمر بصنع الفلك لتهيئة نجاة نوح[٣]... وكذا أوامر تسخير وإلهام غريزي للحيوان؛ كالنحل[٤]، وفطري للملائكة[٥] وللإنسان؛ كأم موسى[٦].

* أن الأمر الإلهي التكليفي صادر على أساس العلم واليقين، لا على أساس الظن والهوى[٧] وذلك لأنه كلمة الحق، التي لا يلتبس بها الباطل، كما مضى. ومن ثم فإن دعوة الأنبياء الناس إلى امتثال أوامر الله دعوة صادرة عن وحي الله الصادق، لا عن وحي الشياطين الخادع. فهي إذن، دعوة واجبة التنفيذ، وإلا وجب الوعيد.

* أن الحسن في الأحوال والأفعال، المتعلقة بالكون والإنسان، إنما يتأسس بالأمر الإلهي ابتداء. وهذا يؤكد ما أثبتناه مرارا من وظيفة الأمر التأسيسية التأصيلية لكل حسن وجميل.

* أن الأمور الموحى بها، دينية كانت أم كونية هي غاية الوحي الإلهي السامية، حتى لكأن الغاية الوحيدة من كلام الله هو نشره أوامره السلطانية العظيمة التي تهم جميع المخلوقات في الآفاق، ليتعرفوا من خلالها عظمة حاكميته، ويتخذوها دستور حياتهم، وأساس وجودهم، وقوام مصالحهم.

---

(١) في آية يونس: ٢ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾.
(٢) في آية العنكبوت: ٤٥ ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.
(٣) كقوله في آية المؤمنون: ٢٧ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ وانظر معها هود/٣٧.
(٤) وشاهده المتقدم: آية النحل/٦٨.
(٥) كما هو مبين آنفا، في آية الأنفال/١٢.
(٦) في آية القصص: ٦.
(٧) لهذا تظاهرت الآيات على الأمر باتباع الوحي، وطرح الأهواء، والتشنيع على أدعياء الوحي: (انظر مثلاً: آيات: الأنعام/٩٣، ١٠٦، والنجم/٤، والجاثية/١٨).

١. ٣. ٢ ـ طبيعته

انسجاما مع علو الوحي المُلْقى إلى الأنبياء وهيمنته على سائر الكلمات الإلهية، وتفصيلاً لما أُجمل من كلام في مفهوم أمر الله[١]، وفي تدبير أمر الوحي[٢]؛ نكشف هنا عن طبيعة الوحي وخصائصه في القرآن الكريم، وذلك قصد بيان طبيعة الأمر الإلهي الديني، بوصفه كلاماً فائضاً من وحي الله، ومتبوئاً لأعلى مقام من بين مراتب الكلام[٣].

إن القرآن الكريم يقول، مبيناً خاصية الوحي ووظيفته لدى رب العالمين:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾[٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾. . .[٥].

لقد عبر سبحانه عن الوحي الملقى إلى الأنبياء عامة، والوحي القرآني المنزل على المصطفى عليه السلام خاصة بالروح، وهو ـ كما عرفه النورسي ـ قانون أمري نوراني، وناموس مثالي باق، لا يتأثر بقاؤه، ولا تتغير ماهيته رغم التقلبات والتغيرات الظاهرية[٦]. ومن ثم فهو سر من الأسرار القدسية، التي تخص الله تعالى، وتثبت وحدانيته، وتعكس حياته الأزلية؛ فإنه سبحانه قال في الروح: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[٧] وقال ها هنا، بنفس التعبير: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ و﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ فالوحي روح من أمر الله، والروح هي من أمر الله، والوحي صنو هذه

---

(١) بالمعنى الاسمي الأول: انظر ص٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٢) انظر ص ٣٧٠.

(٣) كالنهي، والخبر، والوعد، والوعيد. . . .

(٤) غافر/١٥.

(٥) الشورى من الآية: ٥٢.

(٦) كليات رسائل النور ٦١١/١ ـ ٦١٢ ـ بتصرف ـ.

(٧) الإسراء من الآية: ٨٥.

الروح، لأنه روح يحيا به القلب كما يحيى الجسد بالروح. ومن أجل عظمة ماهية الحياة لدى رب العالمين، جعل سبحانه الروح، الجوهر الخالص للحياة، من أمره: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾: آتية من عالم الأمر وصفة الإرادة، مشدودة بالأبدية، مجردة عن الأحوال المادية، معدة لاكتساب ماهية شاملة، وإحداث خصائص جامعة...

أجل، إن الوحي، ولا سيما الوحي القرآني، بالنسبة للإنسان بمثابة الروح من الجسد، إذا نفخت فيه صار خلقا آخر، يتدفق بالحيوية والحياة، وإذا فارقته؛ فهو جثة هامدة، وكيان طيني، لا حياة فيه، ولا حركة ولا حراك، أو هو بمثابة الماء من الأرض، إذا سرى فيها اهتزت وربت، وصارت معرضاً للأرزاق والثمرات، وإذا غادرها همدت وماتت، أو هو بمثابة أيونات الكهرباء تسري في أسلاكها من دون إعاقة، فتصير قوة لها حسابها وتأثيرها... أما إذا أعيقت هذه الأيونات عن السريان في الأسلاك... صارت الأسلاك حبلاً من المعدن لا حول فيه ولا طول.

وهكذا، فالإنسان ـ الفرد والمجتمع معاً ـ حين يُنفخ في روحه روح القرآن، يصير خلقاً آخر من حيث ماهيته وتصوراته، من حيث طاقته وقدراته، من حيث أعماله وتصرفاته؛ لأنه بالقرآن والإيمان ينتسب إلى مولاه الحق جل جلاله، ويجد فيه مدار استمداد؛ فيصبح مرآة عاكسة لتجليات أسمائه المقدسة، وتنطلق طاقاته للعمل والبناء، ويفيض منها الخير والصلاح، ويجني الإنسان ثواب ذلك حياة طيبة في دنياه وأخراه.

أما قبل أن يُنفخ روح القرآن في الإنسان أو عندما تفارقه هذه الروح بسبب الكفر، فإنه يكون ميتاً بنص القرآن: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]؛ ميتا مهما ترددت أنفاسه، وكثرت حركاته، ودوت كلماته؛ لأن قلبه الميت الغارق في الظلمات سبب لانطفاء جذوة روحه وشقائه في حياته

(١) الأنعام من الآية: ١٢٣.

الدنيوية والأخروية، وذلك لما يحصل بذلك الموت المعنوي من التصورات والتصرفات التخريبية؛ كإنكار الأسماء الحسنى، وتحقير المخلوقات، والسعي في الأرض للإفساد. . .

وإذا كانت تلك هي ماهية الوحي ووظيفته السامية، فإن الأوامر الإلهية النابعة من هذا الوحي هي أيضاً روح، ذو حياة وحيوية خارقة، بل هي سويداء الروح؛ ولا غرو فهي المدار الذي تدور عليه آيات القرآن الكريم؛ لأنها في حقيقة أمرها جالبة للنفع، باعثة على الخير، داعية إلى طريق مستقيم مفض إلى النور والحياة.

ومن هنا، فإن أوامر القرآن حينما تصدر إلى الإنسان العارف بالله، فإنه لا محالة يصير حياً بها، ويكتسب بامتثالها خلقة أحسن تقويم، فيكون مهتدياً راشداً، وهادياً مرشداً، يؤمن بالله، ويعمل الصالحات، ويتواصى بالحق، ويتواصى بالصبر، يفعل الخير في نفسه، ويدفع الخير إلى غيره، يشع بالنور، ويشكل نقطة استناد نورانية تضيء للسالكين الطريق.

أما قبل أن تصدر أوامر القرآن إلى الإنسان، وقبل أن يهتدي بها إلى تفاصيل الأحكام، فإنه لا محالة يكون ضالاً مضلاً، جاهلاً مقلداً باتباع عقله ومشاعره، أو باتباع دين آبائه، وينتج عن ضلاله حيرة تلم بقلبه، وعن جهله إفساد فطرته بعبادة غير الله، وبتقليد غيره في التقاليد الدينية والنظم الموروثة. . . وكل ذلك مفض إلى فوضى لا يستقيم معها أمر، وإلى موت لا نشور بعده ولا بعث. . .!

ولنأخذ مثلاً: النموذج الأكمل، المصطفى عليه السلام ماذا كان قبيل أن تصدر إليه أوامر القرآن، وقبل أن يسري ماؤها في روحه الطاهرة الشريفة؟ كان أمياً نشأ بين الأميين، وضالاً حائراً، يختلي بحيرته، ويتحنث من وحشته من سوء حال الناس، وهرباً إلى الأنس بالله والرجاء في هدايته، ولم يكن يدري ما الكتاب؟ ولا يخطه بيمينه، ولا يعلم ما الإيمان، وما تفاصيل الأحكام؟. . . لكن حالما استلم الأمر التكويني من ربه في بدء

الوحي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[١]، حتى صار قارئاً متكلماً باسم رب العالمين. ثم لما صدر إليه الأمر بالإنذار في أول المدثر: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ صار به: ... ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧﴾[٢]، ثم لما تلقى ـ قبيل هذا الأمر بالتبليغ ـ الأمر بالصلاة وتلاوة القرآن والصبر، في سورة المزمل: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ ... ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ و﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[٣]، صار بهذه التكاليف مصليا ذاكرا، ومحتسبا صابرا، واستمد من روح صلاته ومدد صبره زاد الدعوة إلى الله.

ثم لما حمى الوحي وتتابع، انهمرت الأوامر القرآنية على قلبه في أم القرى، تدعوه إلى إعلان أوليته في الإسلام إزاء مجادلة الجاهلين في عقائد الدين، وترشده إلى الأخلاق السامية: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾[٤] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾[٥]، ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢﴾[٦] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ﴾[٧] ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾[٨] ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾ ...[٩].

فبهذه الأوامر وأمثالها، صار محمد ﷺ أول المسلمين والعابدين،

---

(١) العلق من الآية: ١.
(٢) الأحزاب/٤٦ ـ ٤٧.
(٣) المزمل/١ ـ ٣.
(٤) الأنعام من الآية: ١٤.
(٥) الأنعام/١٦٢ ـ ١٦٣.
(٦) الزمر/١١ ـ ١٢.
(٧) الشورى من الآية: ١٣.
(٨) الأعراف/١٩٩.
(٩) الروم من الآية: ٣٨.

وأصبح ـ فوق ما يملك في ذاته من سلامة الفطرة وكمال الاستعداد ـ مثال الكمالات الفائقة وممثلها، وقدوة الأخلاق الفاضلة ومعلمها، وأظهر عظيم الإخلاص في الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بأسمى الأخلاق، والنهي عن أرذل العادات: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1].

ثم لما صدرت الأوامر النورانية إليه عليه السلام، وهو في سدة حكمه بمدينته المنورة، داعية له إلى امتثال شرائع الدين وتعليمها، وتنظيم أحوال الأمة الإسلامية؛ من أمثال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[2] ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾[3] ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾...[4] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ﴾...[5]، صار أخضع الناس لأوامره سبحانه، وأتقاهم عن نواهيه، وأعلمهم بتفاصيل شرائعه؛ ينفذ ما أمر به من الأحكام على نفسه أولاً ثم يعلمه الآخرين بأقواله، وأفعاله، وتقريراته، ويجيب السائلين على أسئلتهم المتعلقة بشؤون حياتهم، كما في: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾[6] و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾...[7].

ولما استلم عليه السلام الأوامر الجهادية من أمثال: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ

(١) الأعراف من الآية: ١٥٧.
(٢) الأحزاب من الآية: ١.
(٣) البقرة من الآية: ١٤٤.
(٤) التوبة من الآية: ١٠٣.
(٥) الأحزاب من الآية: ٥٩.
(٦) البقرة من الآية: ٢٢٢.
(٧) البقرة من الآية: ١٨٩.

ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. . .(٢)، أصبح بها قائداً رسولاً، ومقاتلاً جسوراً، يلبس لامة الحرب، ويحمل السلاح، ويأمر أتباعه بالتترس بالموانع ضد الأعداء، ذلك فوق التوكل على الله، والصبر على تكاليف دينه وإطاعة أمره.

فهل يا ترى كان من الممكن أن يصير عليه السلام معلماً بارعاً، وقائداً رائداً، من دون أن تصدر إلى صدره الأوامر القرآنية النافذة؟! وهل كان ﷺ يستطيع أن يحدث في نفوس الناس وقلوبهم انقلابا، ويمنح أرواحهم وعقولهم صفاء، ويملأ حياتهم حياة؟ من دون سريان الوحي في روحه، وهيمنة الأوامر الإلهية على كيانه؟. كلا، وإن القرآن الكريم على ذلك لشهيد: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾(٣) ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾(٤).

ولنأخذ مثلاً آخر: الجيل الراشد، أتباع رسول الله ﷺ، ماذا كانوا قبل أن يُنفخ فيهم روح القرآن، وأن تصدر إليهم أوامر القرآن؟ كانوا أقواماً أشتاتاً، غارقين في أشد أمية، وأعرق بداوة، وأفسد عبادة، وأرذل عادة، ليس لهم هدى ولا كتاب منير، وكانوا مغمورين في ظلمة عصر الفترة، ومستميتين في الدفاع عن شرفهم، ومتحمسين لموروثاتهم، ومتهورين في سفك دمائهم. . .، لكن بمجرد أن سرت فيهم روح القرآن، وأُمِروا بأوامر القرآن، صاروا في زمن يسير أمة متحدين، وأساتذة مرشدين، وحكاماً عادلين لأرقى الأمم حضارة وعلماً واجتماعاً وسياسة؛ فحكموا العالم شرقاً وغرباً، ورفرفت رايات عدالتهم براً وبحراً.

أجل، لقد حولهم القرآن الكريم إلى أساتذة العالم وسادته بمجرد الأمر؛ أمرهم بالإيمان: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا

---

(١) النساء من الآية: ٨٣.

(٢) التوبة من الآية: ٧٣.

(٣) هود من الآية: ١١٢.

(٤) الحجر من الآية: ٩٤.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾[1]؛ فآمنوا بالله ورسوله، وصاروا بالإيمان أحياء بعد أن كانوا بالشرك أمواتاً، ثم أمرهم بالعبادات الخالصة: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[2]؛ فصاروا من المصلين، ومن المنفقين المحسنين. وأمرهم بالأخلاق الفاضلة، فقال لهم: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾؛ فصاروا بالقسط قائمين وعلى الناس شاهدين، وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[3] و﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾؛ فأصبحوا للأمانة مؤدين، وبالعهد موفين، وبالعدل ناطقين، وقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾...[4] فصبروا وصابروا على الأذى عند تكميل النفس وتكميل الغير، وقال لهم في نهاية تدرجه بهم في تحريم الخمر، وكانوا أصحاب خمر: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[5]، فانتهوا عن شربها، وأهرقوا البقية الباقية منها في طرقات المدينة، وأمرهم بالجهاد في سبيل الله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾...[6]؛ فجاهدوا بأرواحهم وأموالهم وآبائهم وعشيرتهم لنشر الحق، ومحو الباطل، وأمرهم بإحياء حياتهم بالقصاص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾[7] ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾...؛ فأقاموا الحدود على القتلة، والزناة، والسارقين، والمارقين من تكاليف الدين...؛ وصاروا بفضل من الله ونعمة آمنين على حرماتهم، مطمئنين على حقوقهم...

---

(١) الأعراف من الآية: ١٥٨.
(٢) المزمل من الآية: ٢٠.
(٣) النساء من الآيتين: ٥٨، ١٣٤.
(٤) آل عمران من الآية: ٢٠٠.
(٥) البقرة من الآية: ٩١.
(٦) التوبة من الآية: ٤١.
(٧) البقرة من الآية: ١٧٨.

وأمرهم أن يكونوا ورثة نبيهم في الأمر والنهي: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. . .[(١)]؛ فأصبحوا جميعا يسارعون في الدعوة إلى الخير، ويتواصون فيما بينهم بالمعروف، ويتناهون عن المنكر، وصاروا بفضل ذلك أمة قوية متحدة، أقامت للدين صرحاً شامخاً، وأسست للإنسانية مستقبلاً راشداً، ونفخت في حياتها روحاً نابضاً.

فأين نحن من هؤلاء الذين مسهم روح القرآن؛ فاستناروا وأناروا، وأحدثوا ما أحدثوا، وسرت فيهم أوامر القرآن؛ فسمعوا وأطاعوا، وفعلوا ما فعلوا؟. . . ؛ أين نحن منهم وأكثرية المسلمين اليوم قد غادرهم روح القرآن، وفسقوا عن أوامر القرآن، وتقاعسوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فصاروا أشبه بالأموات، مضطربين في الموازين والتصورات، وغارقين في المعاصي والمنكرات، وممزقين فاقدين للإحساس؟

ألا إن من أعظم ما يحيينا ويمدنا بالشعور والحياة، وينجينا من الموت والهلاك، أن نعمل ـ بقدر طاقتنا ـ على أن نحل فينا روح القرآن، وأن نخضع لأوامره، ونتوقى نواهيه؛ لنحيا، لننتقل من حالة الموت إلى حالة الحياة، ولنخرج من مهوى الهلاك إلى مرفأ النجاة.

١. ٣. ٣ ـ وسائله

لتنزيل الوحي الديني على الرسل، ولتبليغ الأمر التكليفي إلى الإنس والجن، ودعوتهم إلى امتثاله وسائل ووسائط، صرح الله بها سبحانه في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[(٢)].

الملائكة

نطق القرآن بأن الملائكة تنزل بالروح من أمر الله على رسل الله، في آية النحل: ٢ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾. . . .

---

(١) آل عمران من الآية: ١٠٤.

(٢) الحج من الآية: ٧٥.

ومن أجل شرف الوحي، وأهميته العظمى في هداية الناس وإسعادهم، منح جبريل عليه السلام أعلى مقام من بين الملائكة جميعاً، فوُكل بإنزاله من خزينة الرحمة على المختارين من العباد. ولهذا أطلق عليه بما هو أهله ولائق به اسم (الروح الأمين)، وذلك في مثل آيات الشعراء: **١٩٢ ـ ١٩٤** ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ ووُصف الروح هنا بالأمانة، دلالة على أنه لا يكتم ما أمر بتنزيله من أمر ربه، ولا يزيد عليه ولا ينقص، كما وُصف بأنه رسوله، منفذ لأمره، وأنه كريم، وذو قوة ومكانة عند ربه، وأنه مطاع في السماوات، وأنه أمين على الوحي، وذلك في آيات التكوير: **١٩ ـ ٢١** ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ فهو عليه السلام أمين على الوحي إلى رسول الله ﷺ، وإلى من سبقه من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، يُشعر بذلك قول ورقة بن نوفل في بدايات الوحي، مطلقا اسم **«الناموس»** على جبريل عليه السلام: **«هذا الناموس الذي نزل الله على موسى»**[(١)] . وقد كان جبريل يأتي إلى رسول الله ﷺ في صورة بشر، وأحياناً في مثل صلصلة الجرس، كما صرح بذلك حديث عائشة المتقدم في بيان صفة الوحي[(٢)]. وقد ثبت في الصحيح أنه عليه السلام بماهية روحانية عجيبة شوهدت آثارها في تفصد جبين رسول الله ﷺ عرقاً في اليوم الشديد البرد، كما هو مبين في حديث عائشة[(٣)].

الأنبياء

كرم الله الإنسان بجعل أمر الشرائع يعود إليه وحده، ويخصه وحده، بتعبير الآية الكريمة: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[(٤)]. ومن ثم أرسل سبحانه إليه،

---

(١) البخاري في بدء الوحي (٣)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر ص ٤٥٠ من البحث، وصحيح مسلم في الفضائل، رقم ٨٧/٢٣٣٣.

(٣) البخاري في بدء الوحي (٢) ولفظه: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً».

(٤) الأعراف من الآية: ٥٤.

فضلاً منه ونعمة، رسلاً من أكمل نوع الإنسان فطرة، وأصدقهم حديثاً، وأنورهم عقلاً، وأسماهم خلقاً. . .؛ يبلغونه أوامر الله ونواهيه وأحكامه؛ لإصلاح حاله، ويبشرون من آمن منه وأصلح بحسن الثواب، وينذرون من كفر وأفسد بسوء العقاب؛ ليستعد لمآله. وحكمة ذلك أن لا يكون للناس على الله حجة بجهلهم ما يجب عليهم من أصول الإيمان، وما تتهذب به الأنفس من صالح الأعمال، فتستعد لسعادة الدنيا بقدرها، وسعادة الآخرة من بعدها، كما قال سبحانه: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾. . .[١]، وقال مبيناً وظيفة الأنبياء، في مقام الدعوة إلى الإنذار بوحدانية الله، والتقوى عن عذابه: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾[٢]، وقال: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[٣]، وقال عن خاتمهم ومكمل هدايتهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾[٤]. فعلم أن الأنبياء ليس لهم من أمر التشريع شيء إلا التبليغ والتعليم، والإنذار والتبشير[٥]؛ إذ هم أنفسهم مأمورون بالعبودية الخالصة، والاستسلام المطلق لله، كما أعلن ذلك نوح عليه السلام عن نفسه، ومحمد ﷺ من بعده: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٦] ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

---

(١) النساء من الآية: ١٦٥.

(٢) النحل/٢.

(٣) غافر من الآية: ١٥.

(٤) الأحزاب/٤٥ ـ ٤٦.

(٥) ومن هنا، فإن ما أسند من الأمر إلى الأنبياء في القرآن (كما في قوله، مخبراً عن دعوة إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾. . .: مريم/٥٥، ودعوة محمد ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: من الأعراف/١٥٧) إنما هو إسناد مجازي ظاهري، وليس حقيقيا؛ لأنهم وسائط وأسباب ظاهرة لبلوغ أمر الله ووحيه إلى عباده؛ إذ هو جل ثناؤه الذي اجتباهم، وأضفى عليهم من النزاهة والقداسة، ما يجعل منهم داعين للناس بأمره إلى عبادته وحده.

(٦) يونس من الآية: ٧٢.

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾. . .[١]. وبفضل إخلاصهم لله واهتمامهم بأدق شؤون عبوديته، جُعِلوا سفراء بين الله وعباده، يبلغون عنه عز وجل بواسطة الملائكة أو بغير وساطة، كما مضى، أمره ونهيه ووعده ووعيده. . .، كما جُعلوا أئمة في الدين يهدون الناس بأمر الله، كما أخبر تعالى في سورتهم، بعد ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾[٢]، وقال فيهم بعد ذكر أشهرهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٣]؛ فبين سبحانه أن أولئك الأئمة الهداة الأعلام وسائط تطاع ويقتدى بها في البر والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٤]؛ وقال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٥]. فجعل طاعة الرسول ﷺ طاعة تلق وامتثال؛ لأنه هو المبلغ للدين عن رب العالمين، والمترجم الفعلي له، وغيره يطاع إذا أمر بطاعة الله ورسوله. وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٦]. وما نال أتباعه ما نالوه من الكمالات والكرامات، وما حازوا من الفلاح والنصر على الأعداء إلا بالتصديق بهذا النبي الكريم، والاقتداء بهديه، واتباع سيرته.

وإذا تبين أن الأنبياء ليسوا إلا مخبرين عن الله، ومبلغين لشرعه إلى الناس، وأن ليس لهم على الناس إلا التصديق والاتباع؛ وجب أن نؤمن إيمانا راسخا أنهم ليسوا جبارين على العباد، ولا مسيطرين على الأقوام، كما نطق بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[٧]، ....

(١) الزمر/١١ ـ ١٢.
(٢) الأنبياء من الآية: ٧٢.
(٣) الأنعام من الآية: ٩٠.
(٤) النساء من الآية: ٦٤.
(٥) النساء من الآية: ٥٩.
(٦) الأعراف من الآية: ١٥٧.
(٧) ق من الآية: ٤٥.

وقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾[١]، وأنهم ليسوا أربابا يُعبدون من دون الله، كما وضحه قوله تعالى، نافيا عن نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالكفر: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[٢]، وقوله على لسان عيسى، وهو يتبرأ إلى ربه في موقف الجزاء من كبيرة تأليه النصارى له ولأمه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ﴾...[٣]، فنفى سبحانه عن ملائكته وأنبيائه أن يكونوا أربابا، أو أن يكونوا آلهة، وأن يستحقوا ما يستحقه الله تعالى من خصائص؛ كإعطائهم حق الحكم والأمر والتصرف والتدبير من دون الله، والشفاعة عندهم بلا إذن من الله، والتوسل بذواتهم في قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وغفران السيئات... والتوكل عليهم في رزق العباد، ونصرهم، وهداهم...

وقد قال تعالى لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[٤]، وقال له أيضاً: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ﴾[٥]، وقال ردا على أقوام كانوا يدعون المسيح والعزير والملائكة: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾[٦]، فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

وعليه، فمن جعل الملائكة وسائط يدعوهم بذواتهم، ويتوكل عليهم،

---

(١) الغاشية/٢٢ ـ ٢٣.

(٢) آل عمران/٨٠.

(٣) المائدة من الآية: ١١٧.

(٤) آل عمران/١٢٨.

(٥) القصص من الآية: ٥٦.

(٦) الإسراء/٥٦ ـ ٥٧.

ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، ويتخذهم من دون الله أولياء وشفعاء، وهو جل جلاله المالك الحاكم الذي بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر، ولا شفاعة عنده إلا بإذنه... فهو كافر بصريح القرآن، وإجماع المسلمين. وأما من جعلهم وسائط يتوسل «بالإيمان بهم، وبمحبتهم، وموالاتهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم، ومعاداة من عاداهم، واستغفارهم، وشفاعتهم، وطاعتهم فيما أمروا، وتصديقهم فيما أخبروا، وتحليل ما حللوه، وتحريم ما حرموه»[(١)]؛ فهو مؤمن مفلح، قد اتخذ من الإيمان بهم واتباعهم مصدر قوة عظيمة لإيمانه، وسبباً نافعاً لفلاحه.

ومن كلامنا على هذه الوسائط الغيبية والبشرية، يتبين:

أن الأمر الإلهي التكليفي وحي منزل من عند الله بواسطة جبريل، أقرب ملائكته، على الأنبياء، أكمل عباده، وهم الآخرون يظهرون أسمى مراتب العبودية بامتثال ذلك الأمر العظيم، وتبليغه بأمانة إلى الناس ودعوتهم إلى إطاعته. ولعل في هذه الوساطة الثنائية السامية دلالة قاطعة على عظم شأن وحي الله وأمره وعلو مقامه، وعلى صدقه؛ ذلك بأن الكلام إذا تكرر الأمر بالإعلام به، وتعددت وسائط تنزيله وتبليغه، كان أدل على أهميته وعظمته، وأدعى إلى الثقة به وتصديقه. وهو الأمر الذي يورث المؤمن اطمئناناً ويزيده توكلاً وإيماناً، ويثمر في حياته اعتدالاً وامتثالاً.

تلكم كانت أهم المفاهيم المفاتيح التي ذللت لنا السبيل إلى ارتياد شعاب النسق المفهومي للأمر الإلهي الديني، والكشف عن خصائصه ومصدره ووسائله إلى درجة يمكن معها القول:

* إن الأمر الإلهي التكليفي ينتمي إلى صفة الكلام الإلهي، بل له أعلى مقام من بين سائر الكلام؛ إذ هو خطابه الأزلي السامي إلى الإنسان، سلطان الموجودات، ومن ثم فهو يستمد حقيقته وقوته وعلوه من المتكلم الأزلي والآمر الحقيقي؛ الله جل جلاله. ويتبوأ مكانه العالي ضمن مفاهيم

---

(١) الفتاوى: ٢١٦/١.

الأسماء الحسنى، والصفات العليا؛ كالعلم، والإرادة، والقدرة... وهي المفاهيم التي تسوق الإنسان إلى المعرفة بالله.

* إن للأمر الإلهي الديني تعلقاً بالثواب والعقاب، من حيث نتائجه الأخروية؛ إذ هو الذي يترتب على امتثاله أو عدم امتثاله سعادة الإنسان أو شقاوته في الآخرة. وبذلك يأخذ مفهومه موقعا عقديا عظيما ضمن المفاهيم المتعلقة باليوم الآخر، كما قد تبين في مطلب الخصائص[(١)].

* إن للأمر الإلهي موقعاً محورياً داخل أصول الدين ومقاصده؛ كالعبادة، والإخلاص...؛ إذ هو باعث أساسي قوي للعبادة - جوهر الدين والمقصد الأسمى من الخلق -، والتفكر في هذا الباعث لا غير هو الذي يجعل الإنسان سلطاناً في عبديته لله، محرزا للإخلاص، أساس قبول العبادة ومحور السعادة.

* إن للأمر الإلهي الديني موقعاً جوهرياً داخل شرعة هذا الدين ومنهاجه؛ إذ هو الذي يؤسس بوروده متعلقا بعقائد الدين وشرائعه، كما سيأتي، النظام الشامل الذي ارتضاه رب العباد لحياة العباد الفكرية والخلقية والعملية. ومن ثم فإنه يتبوأ مكانة علية ضمن المفاهيم التي ينبني عليها هذا الدين، عقيدة وشريعة، كما حُددت في مطلب الخصائص[(٢)].

وتأسيساً على هذا الموقع الأساس للأمر الديني، نذير دفة الكلام للإبحار في خضم مجالاته التي تنبسط فيها مأمورات الدين ومتعلقاته، مما يزيد مفهومه انبساطاً وموقعه ارتفاعاً وقيمته وثراء.

* * *

---

(١) ينظر ص ١١٤.

(٢) ينظر ص ١١٣ - ١١٤.

المطلب الثاني: مجالاته

تتعلق أوامر القرآن بقواعد العقائد وفرائض العبادات ومكارم الأخلاق وطرائق المعاملات، الضابطة لعلاقة الإنسان بخالقه سبحانه، والمنظمة لعلاقاته بعضه ببعض، في حياته، ومعايشه، ومنافعه، ومبادلاته. . .

وليس من ريب أن هذه الأوامر القرآنية ومتعلقاتها تتداخل فيما بينها وتترابط، كما تتداخل الأعضاء في جسم الإنسان، وتترابط أعمال الحياة الإنسانية في جميع المجالات؛ ذلك بأن دين الإسلام، وهو دين الفطرة الذي ارتضاه الله تعالى لسعادة الإنسان في دنياه وأخراه؛ نظام واحد متكامل، لا تنفصل فيه أحكام العقائد والشرائع التعبدية عن أحكام المكارم الخلقية، وعن أحكام العلاقات السياسية، والاجتماعية، والدولية، ولا يستقيم هذا الدين إلا بأن يُشرف على الحياة الإنسانية كلها، ويستوعب مجالاتها كلها، ولا يستقيم الإيمان بعقيدته والعمل بشريعته إلا بأن تُمتثل أوامره وتُراعى أحكامه كلها.

وإذا كان هذا الدين وحدة متسقة مشرفة على حياة الإنسان المتكاملة، وأوامره مترابطة؛ فإن ما أجريته من تصنيف لهذه الأوامر وفقا لمجالات الحياة الإنسانية، الفكرية والخلقية والعملية؛ إنما هو من باب ما يقتضيه التصنيف الموضوعي والتأليف العلمي، لا ما يقتضيه واقع التكليف والعبادة والدين؛ فإن هذه المجالات هي في واقع الأمر مجالات العبادة الشمولية، التي هي غاية خلق الإنسان والكون.

ومما يسجل ولم يبلغ درجة ما تقدم، أن الحديث عن هذه الأوامر في مجالاتها المتعددة المترابطة لا يتغيا التفصيل وتتبع الجزئيات، فهذا يحتاج إلى دراسات ومجلدات؛ وإنما يتغيا الإلمام بها بإجمال، مُعَبَّراً عنها ليس فقط بمادتها، بل أيضاً بصيغها وأساليبها[1] . . . .

---

(١) كالتعبير بصيغة فعل الأمر، في مثل قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾: البقرة/٢٣٨. وأيضاً استعمال الخبر في معنى الأمر، في مثل قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾: البقرة من الآية: ٢٣٣.

ومفاهيمها[١]، ذلك فوق تتبع ترتيب نزولها وتبين منهج القرآن الحكيم في تقريرها، كلما دعا إلى ذلك مقام النصوص وموجبات الدراسة.

٢. ١ ـ مجال العقائد

غني عن البيان أن أساس التكليف بالأمر هو أصول الإيمان، وأصل هذه الأصول وأفضلها هو الإيمان بالله جل وعلا، ومنه يلزم الإيمان بملائكته وكتبه ورسله، واليقين بلقائه وجزائه، والتسليم بقضائه وقدره... ولما كان الإيمان بالله أول تكليف يدخل به العبد حرم الإسلام، وأول دعوة الرسل والأنبياء، كما سيأتي، كان تقريره بمختلف الأساليب والطرائق[٢]، وإثباته بالحجج العقلية والفطرية الناصعة[٣]؛ المبتغى الأساس للقرآن الكريم في أكثر سوره المكية وبعض المدنية[٤]، حتى أضحى القرآن كله مصدراً أولا للعلم بالله، ودعوة إلى الإيمان به.

---

(١) كمفاهيم «القضاء»، و«الوصية»، و«الكتب»، و«الفرض»، والشواهد عليها مبسوطة في هذا المطلب.

(٢) كالاستفهام التقريري في مثل قوله عن المشركين: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الآية يونس/٣١.

(٣) كدليل الخلق والعناية على توحيد الله، كما دل عليه ما مضى من آيات التكوين والتدبير في المبحث الأول، ودليل التمانع على استحالة تعدد الآلهة، كما شهد له قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾...: الأنبياء من الآية: ٢٢، ودليل الفطرة المركوز في فطرة الإنسان، التي تشده إلى تعظيم الخالق سبحانه والالتجاء إليه، في حالات الاضطرار، أو السؤال عن خالق هذا الكون، كالذي جاء في قوله تعالى، عقب الأمر بإقامة الوجه لدين الفطرة: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾: الروم/٣٣. فهذه الأدلة وسواها، مما يضيق المقام عن تفصيلها، ترشد إلى منهج القرآن في دعوة الناس إلى الإيمان: (راجعها بتوسع في: مباحث في التفسير الموضوعي/ من ص ١٢١ إلى ص ١٦١، وفي: منهج القرآن في تقرير الأحكام/ من ص ٧٧ إلى ص ٩١).

(٤) لقد ابتدأ القرآن الكريم الناس في مكة بدعوتهم إلى أصول الإيمان من عبادة الله وحده، ثم إثبات الوحي والرسالة، وذكر قصص الأنبياء كأسلوب مقرر للرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وما يؤكد ذلك من ذكر أوصاف الجنة والنار ومشاهد القيامة.=

وقد قامت الأدلة، كما أسلفنا[(١)]، على وحدانية الربوبية، فاستقطبت الأنظار إلى رؤية آيات الله في الأنفس والآفاق، وتملي آثار صفاته الحسنى، وحركت العقول إلى النظر فيما يوجب وحدة المعبود الحق وحدة كاملة، وجذبت القلوب إلى الإقرار بوجود الله، والإيمان بأنه لا خالق ولا مدبر ولا حاكم سواه. ومن ثم مهدت السبيل إلى إلزام المشركين بالإقرار بوحدانية الألوهية[(٢)]؛ أي: الاعتقاد بعبادة الله وتقديسه وحده، وإخلاص الدين له وحده، والاتجاه إليه بالتوسل والتوكل، دون ما سواه من الأولياء والشفعاء. وهذا الإخلاص لله في الربوبية والألوهية هو الذي دعا سبحانه إليه العباد، وكلفهم به على مدار الرسالات، ودعاهم إلى لازمه من الإيمان بملائكته على أنهم سفراء لله مدبرون، كما مضى، وبكتبه المنزلة على أنبيائه هدى وموعظة وتفصيلا لكل شيء، وبرسله جميعاً، على أنهم مبشرون ومنذرون، لا فرق بين أحد منهم، وباليوم الآخر، على أنه يوم الوفاء، وبالقدر خيره وشره، على أنه نظام الله في تصريف أمور العباد[(٣)].

ومن هنا، أمر سبحانه الناس في أوج عبادتهم للأصنام وأول عهدهم

= ومع ذلك فالأساس الأول لدعوة القرآن هو عبادة الله وحده وإخلاص الدين له وحده. ولذا عنيت السور المكية جميعا ببيانها بالدرجة الأولى، وهي أكثر من نصف القرآن بقليل، وتعرضت لها السور المدنية كذلك، بوصفها تفصيلاً لأحكام الشريعة التي تنبني على أصل العقيدة، كما في آية البقرة/٢١، التي تنادي الناس جميعاً: ... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾.

(١) ضمن بيان تجليات الأمر التكويني ووسائله في دائرة الربوبية.

(٢) ينطق بهذا التلازم بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية في دعوة القرآن، آيات التدبير والتسخير المتقدمة، مثل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: يونس/٣، ٣١ وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾: الرعد/٢، وقوله: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾: الجاثية/١٢.

(٣) وكل ذلك أثبتناه بيقين قاطع فيما مضى من الصحائف.

بالإسلام بعبادة الله والإيمان به دون سواه؛ حيث قال: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾[(١)]، وقال: ...﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾[(٢)]، ودعاهم في آخر العهد المكي إلى عبادة الله، ورجاء رحمته يوم لقائه، حيث قال على لسان شعيب عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾...[(٣)].

ثم أمرهم في أول عهدهم بالتشريع وتفاصيل الأحكام، وأول اتصالهم بأهل الكتاب بأن يعلنوا إيمانهم بالله وكتبه ورسله وإسلامهم له دون غيره: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾[(٤)].

وانطلاقاً من أهمية قواعد الإيمان في إرساء دين الإسلام، والاتجاه بالإنسان إلى عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له وحده، وإسلام النفس له دون سواه...، واعتباراً بكونها أول ما أمر به الأنبياء وأَمَروا به الناس؛ ورد مصطلح **«الأمر»** أكثر ما ورد في القرآن الكريم، مقترناً بلفظ القول في صيغته الأمرية، ومقيدا في صورته الفعلية الماضية بالمصطلحات الأصول ذات الفروع والجذوع، من **«الإيمان»** و**«الإسلام»** و**«العبادة»** و**«إخلاص الدين لله»**، واتجه أول ما اتجه إلى رسل الله، على امتداد شعاب التاريخ، بوصفهم حملة وحيه إلى العباد. قال الله تعالى، مخبراً عن دعوة نوح قومَه إلى الإسلام في مرحلة التحدي الأخير: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾[(٥)]، وقال عن عيسى أنه أجاب في أدب العبودية، متبرئا من فرية تأليه النصارى له ولأمه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ الآية[(٦)].

---

(١) النجم/٦٢.
(٢) الأحقاف من الآية: ٣١.
(٣) العنكبوت من الآية: ٣٦.
(٤) البقرة/١٣٦.
(٥) يونس/٧٢.
(٦) المائدة/١١٧.

وأمر الرسول الخاتم عليه السلام بالإعلان على رؤوس المشركين المعاندين بأن الله أمره أن يكون من المؤمنين والمسلمين، وأول المسلمين، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾[1]، وقال له في كلمة أخيرة حاسمة تلخص قوام دعوته: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[2]، وقال له مقرراً توحيد الولاية والاستسلام لله، القائم على توحيد الربوبية والملك: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾[3].

وأمره أن يقول في ختام بيان أصول الإيمان وأدلة التوحيد، وتوضيح الحلال والحرام من المطاعم، والتنديد بالشرك والمشركين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[4].

وأمره أن يعلن للمشركين بأنه نُهي أن يعبد غير الله من الأوثان، وأُمر أن يسلم لرب العالمين ويعبده مخلصاً له الدين: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾[5] ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ . . .[6].

وجمع له بين الأمر بعبادته والتوكل عليه، بعد تقرير الرجعة الأخيرة

---

(١) النمل/٩١.

(٢) يونس/١٠٤.

(٣) الأنعام/١٤.

(٤) الأنعام/١٦٢ ـ ١٦٣.

(٥) غافر/٦٦.

(٦) الزمر/١١، ١٢.

إليه للجزاء؛ فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[1]، وأمره بدعوة الذين تفرقوا من أهل الكتاب إلى إقامة دين الإسلام الذي عليه جميع الأنبياء وبالاستقامة في دعوته، وبإعلان الإيمان بما أنزل الله من كتاب؛ حيث قال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾...[2]، كما أمره أن يقول للأحزاب من أهل الكتاب والمشركين: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾[3]. والأمر بعبادة الله وحده، لا شريك له، وإخلاص الدين له، ينتظم الأمر بشهادة لا إله إلا الله، رأس الإسلام، كما صرح به قوله ﷺ بنفس تعبير القرآن: «**أُمرت أن أُقاتِل الناسَ حتَّى يَشهدُوا أن لا إلَه إلا الله وأنَّ محمَّداً رسولُ الله...**»[4].

والمتأمل في هذه الآيات التي اتجه فيها الأمر بصريح مادته إلى رسل الله، ولا سيما خاتمهم عليه السلام، وتعلق بأصول الإيمان، يهتدي إلى اللطائف البيانية والحقائق الإيمانية التالية:

أولاً: إن الملحظ الاستقرائي البياني لنظم «**الأمر**» وما يتصل به، هو ورود معظم الأوامر بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول: «**أمرت**» ولعل الحكمة من ذلك الورود هي الإخبار عن عبودية الأنبياء الكاملة لله، وتقريرها في نفوس المكذبين بالدين، كما أن الفعل الماضي يدل على ثبات رسل الله على ملة الإسلام، واستقرار التوحيد الخالص في قلوبهم. ولعل الفائدة من حذف الفاعل، وبناء الفعل للمجهول هي: العلم به[5] أو تركيز

---

(١) هود/١٢٣.

(٢) الشورى من الآية: ١٥.

(٣) الرعد من الآية: ٣٦.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٢٥) ومسلم برقم (٢١)، عن أبي هريرة، كلاهما في الإيمان.

(٥) يعضد ذلك قول الطاهر بن عاشور: «إذ من المعلوم من سياق الكلام أن الذي أمر هو الله تعالى»: (التحرير: ١١/٢٤١، تفسير آية يونس/٧٢. وينظر مثله في: علم المعاني/١٣٨).

الاهتمام على فعل الأمر، لما فيه من إيحاء مقصود إلى مقام التبليغ والرسالة، الذي يقتضي أن ليس للمأمور من الأمر شيء سوى الامتثال للمتصرف بالأمر والنهي في كل شيء.

ونضيف إلى هذا الملحظ الهام في البيان المعجز ما تقرره هذه الأوامر في إيقاع متكرر، في ذيل الآيات وخواتيم سور النمل ويونس والأنعام، من اتصاف الرسل بالإسلام وسبقهم إليه، ولكل من ذلك دلالة!

فتتويج الآيات والسور بتلك الأوامر فيه إشارة إلى حسم مطاعن الكفار في الرسالة ومجادلاتهم للرسول، وفي هذا الحسم تأييس للكفار بأن إجماعهم على الكفر لا يصد الرسول عن مخالفة ضلالهم وكفرهم، ولا يمنعه من استمرار الدعوة، كما فيه تثبيت للرسول على ملة الإسلام، وتطمين له بأنه أرضى ربه بأداء أمانة التبليغ!

وإلحاح القرآن الكريم على رسل الله بإعلان أمرهم بالإسلام واتصافهم به وأسبقيتهم في الإيمان، فيه إيماء إلى أن الرسل دائما هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله، وبما ينزله عليهم من كلماته. وربهم يأمرهم باستمرار أن يعلنوا هذا الإيمان على رؤوس الأشهاد[1] ليحملوا الناس على امتثال الشرائع. وهذا الإعلان المكرور من النبي عليه السلام خاصة بأنه مأمور أن يستسلم لله وحده، ويعبده وحده، ويخلص له الدين كله، ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة الإخلاص، كما جاء بها الإسلام؛ إذ «النبي ﷺ في مقام العبودية هو عبد خاضع لله. وفي هذا المقام يقف العباد كلهم صفا خاضعين ككل شيء في الوجود، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العبيد، وهذا هو مراد القرآن»[2].

---

(١) كما قال عن خليله إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾: البقرة/١٣١، وقال عن موسى: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: الأعراف من الآية: ١٤٣، وقال في خبر المسيح: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾: المائدة/١١١.

(٢) في الظلال: ١٣١/٧.

ثانياً: إن دعوة القرآن إلى دين الإسلام تتعلق أساساً بإقرار معاني الاستسلام لله وحده، والخضوع له وحده، وإخلاص الطاعة له دون سواه؛ إذ الإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده، وإخلاص الانقياد له وحده، وعبادة الله تتضمن منتهى الخضوع لله بمنتهى المحبة له، كما مر. وتنتظم الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما تنتظم صالحات الأعمال من الشعائر والشرائع سواء...

ولعل هذه المعاني السامية التي لبستها متعلقات الأمر، في تكرار بليغ، تتيح لنا القول: إن دعوة القرآن أسست على قاعدة الأمر بالاستسلام لله، وعبادته وحده، وإخلاص الطاعة له وحده؛ ذلك بأن الاستسلام هو الذي يجسد معنى الإيمان الحقيقي، ويعطيه مذاقه، والعبودية هي التي تحقق معنى الإسلام وتمده بالحياة، والإخلاص هو الذي يجعل العبادة دافقة من بين حنايا الروح، حائزة لشرف القبول... وكل هذا وذاك يؤلف القاعدة التي لا بد أن تستقر في الضمير قبل التكليف بكل حركة في الجوارح، وقبل الأمر بكل عمل في الحياة. ومن ثم كانت هي بالذات مفتتح دعوة الأنبياء[1]، وباكورة منهج القرآن، والركن الأساس من تعليم النبي عليه السلام[2].

---

(١) ويعزز هذه الحقيقة المعلومة من الدين بالضرورة، فضلاً عما تقدم، ما جاء في القرآن من آيات تستعرض موكب الرسالات عبر التاريخ، كآية الأعراف: ٥٩ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ومعها الآيات: ٦٤، ٧٢، ٨٤، وآيات هود: ٥٠، ٦٠، ٧٣؛ وأيضاً ما جاء فيه من آيات تذكر ما أمر به أهل الكتاب على لسان الأنبياء؛ كآية البينة: ٥ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ وآية التوبة: ٣١ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، والأنعام: ٧١ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٢) يؤيد ذلك ـ عدا ما تقدم ـ حديث وفد عبد قيس، وفيه افتتح عليه السلام دعوته إلى الإسلام بالإيمان بالله، حيث قال: «**آمركم بأربَع وأنهاكُم عَن أربَع، الإيمان بالله...**»: البخاري في المغازي، رقم: ٤٣٦٨، عن ابن عباس رضي الله عنه، وجاء في حديث أبي سفيان: «قال ـ أي: هرقل ـ ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: «**اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً...**»: البخاري في بدء الوحي (٧)، عن ابن عباس رضي الله عنه.

ثالثاً: ذُيلت كثير من آيات «**الأمر**» بنتيجة عظمى تضمنت الإيمان باليوم الآخر، واليقين بالجزاء[١]. . . وذلك يفيد أن هذا العنصر الإيماني ركن من أركان الإيمان الأساسة، بل هو العنصر الهام الذي يلي الإيمان بالله مباشرة، كما دل على ذلك القرآن[٢] وتضمنه الإجمال الذي في لفظي العبادة والإسلام المأمور بهما في الآيات المتقدمة؛ وذلك لأن الإيمان بالله يحقق العلم بالله، والإيمان باليوم الآخر يحقق العلم بالمصير الذي ينتهي إليه الوجود والإنسان.

ولا شك أن العلم بالله يجعل الإنسان عابداً لله، مستسلماً لأمره، والعلم بالمصير يورثه اليقين بأن المصير إلى الخبير العليم، في كل أمر وكل عمل، ويبلغ به غايته المنشودة في الحياة، وهي سلوك طريق الطاعة؛ لأن جزاءه هناك في الدار الآخرة بعد اجتيازه للامتحان، وثمرة عبوديته لله ستتجه في نهاية المطاف إلى الله الخبير بشؤون العباد.

رابعاً: أمر الله سبحانه نبيه مع العبادة بالتوكل في ختام آية هود، تقوية له على مواجهة عناد قومه، والمضي في طريق دعوته. وذلك يفيد أن طريق المؤمنين المخلصين هو النظر إلى جانب العبادة والطاعة، والنظر كذلك إلى جانب التوكل والاستعانة؛ فمن شهد أن الله إلاهه الذي لا يجوز أن يعبد إلا إياه؛ فجمع همه في القيام بما أنيط به من واجبات عبوديته، وشهد أنه ربه وخالقه الذي ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾[٣]، وأنه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[٤]؛ فتوكل عليه واستند إلى قدرته ووثق بحكمته ولم يتدخل في تدبيره، صار بفضل الله من

---

(١) نقرأ ذلك في ختام آية هود/١٢٣: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وآية الزمر/ ١٥: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾، وآية الشورى/١٥: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، وآية الرعد/٣٦: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾، وآية الأنعام/٧٢: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

(٢) في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: البقرة من الآية: ١٧٧.

(٣) الرعد من الآية: ٢.

(٤) يونس/١٠٧.

الذين حققوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾[١]، ونال ـ حسب درجته ـ حظوة عظمى بخطاب: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

وإذا كان أساس عبادة الله الإيمان بوحدانية الله والرسالة والبعث، فإن من تحقيق العبادة: أن يُعبد الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله في كل عمل صالح لازم للإيمان، وينتظم في الدرجة الأولى العبادات التي أمر الله بها العباد، ليتقربوا بها إليه، ويستحضروا بها عظمته، ويستعينوا بها على مراقبته، ويتخذوها باعثاً على امتثال شرائعه.

٢. ٢ ـ مجال العبادات

وينفسح هذا المجال للكلام في الأركان الكبرى المفروضة على العباد، التي اتخذها الإسلام شعائر مميزة له، وعين لها مواقيت ومقادير وكيفيات، لا مجال فيها لتغيير أو تحوير، من الصلاة والزكاة والصيام والحج، كما ينفسح للكلام في ما زاد على هذه الفرائض من أشكال التعبد التطوعي كالتلاوة والدعاء... وإنما قصرنا الحديث عليهما هنا؛ لأن التلاوة من أعظم الأذكار، والدعاء سر أسرار العبودية، ذلك فوق ورودهما في نصوص القضية.

٢. ٢. ١ ـ الصلاة

وهي عبادة بدنية مشتركة بين الأديان، معروفة على شكل من الأشكال؛ ولا غرو فإنها عمود دين الإسلام[٢]، وأول برهان على الوفاء بعقد الإيمان[٣]، وأول العبادات وجوباً وأشدها خلوصاً لله وأبلغها أثراً في

---

(١) الفاتحة/٥.

(٢) كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال في قوم: «**العهدُ الذي بَيننا وبَينهُم الصَّلاة فمَن تَركها فقَد كفَر**»: الترمذي في الإيمان (٢٦٢١)، عن عبدالله بن بُريدة، عن أبيه: (الصحيح: ٣/٤٤).

(٣) كما صرح بذلك قوله عليه السلام: «**رأسُ الأمرِ الإسلام، وعَمودُه الصلاة، وذِروة سِنامه الجهادُ في سَبيل الله**»: الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: (الصحيح: ٣/٤٤).

تغذية الأرواح وتهذيب الأخلاق، وأعظمها خطراً في تقوية رقابة الله، واستحضار عظمته والحث على امتثال أمره واجتناب نهيه...

ولأجل هذه المرتبة العليا ووظيفتها الفطرية المثلى، كانت الصلاة أول ما أمر الله به من العبادات في القرآن الكريم، واتجه أمر الله بها أول ما اتجه إلى الرسل والأنبياء، وأجرى سبحانه ذكرها على ألسنتهم في مفتتح أدعيتهم، وأمرهم أن يأمروا بها أقوامهم وأهليهم. قال تعالى، فيما يحكيه من دعاء خليله إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾[1]، وقال مادحاً بها الذبيح إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾[2] وجعل سبحانه إبراهيم وآل إبراهيم أئمة هادين، ولربهم عابدين بما أوحى إليهم من فعل الخيرات وإقام الصلاة... ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[3]، وأمر كليمه موسى بإقامتها بعد الإيمان بالتوحيد، في أول الوحي: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾[4]، وأنطق عيسى في مهده بالهتاف بأنها وصية الله: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[5]، وأخبر سبحانه أن الأولين والآخرين من أهل الكتاب إنما أمروا بعبادة الله مخلصين له الدين، وإقام الصلاة...: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾...[6]. وأمر الله خاتم الأنبياء عليه السلام أن يقول في دعاء الاستفتاح: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[7]، وأمره وبالتبعية المسلمين أن

---

(١) إبراهيم/٤٠.
(٢) مريم/٥٥.
(٣) الأنبياء/٧٢.
(٤) طه/١٣ ـ ١٤.
(٥) مريم من الآية: ٣١.
(٦) البينة/٥.
(٧) الأنعام/١٦٢ ـ ١٦٣. وقد ثبت هذا الدعاء في صلاة المسافرين من صحيح مسلم برقم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب.

يعلنوا بأن الله أمرهم مع الاستسلام لرب العالمين بإقامة الصلاة وبتقواه: ... ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ...[(١)].
وأمره بأن يأمر بها أهله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾[(٢)].

تلك هي مكانة الصلاة في جميع الرسالات وعلى ألسنة جميع الرسل، وتلك هي مرتبتها من بين أصول الإيمان وشعائر الإسلام، وقد ازدادت مكانتها سموا بمجيء الإسلام، الرسالة الخاتمة، وظهرت أسرارها واكتملت أشكالها بنزول آيات القرآن، التي كلفت المسلمين بإقامتها على مر أدوار التنزيل، وبورود سنة الرسول الكريم، التي بينت لهم ما نزل إليهم من أحكامها بالقول والفعل والإقرار...

وهكذا، كانت الصلاة بعد عبادة الله وحده أول ما فرضه الله على الناس في عهد مكة من أركان الإسلام، حيث أمر سبحانه نبيه في أول سورة أنزلها عليه بالإصرار على السجود، فقال في آخرها: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾[(٣)]. والسجود المأمور به من أعظم أفعال الصلاة؛ لأنه إقرار من النفس بأعمق الذل والخضوع، وهما سر العبودية وأقرب طريق للتحليق إلى مقام القربى من الله.

وأمره في ثالث سورة أُنزلت عليه بالتهجد في الليل، وترتيل القرآن فيه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[(٤)]، وأمره ـ بعد ذلك بقليل ـ بالصلاة وذبح النسك خالصاً لله، رداً على كيد أعدائه، وشكراً لربه على نعمائه، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ ...[(٥)].

---

(١) الأنعام/٧١.
(٢) طه/١٣٢.
(٣) العلق/١٩.
(٤) المزمل/١ ـ ٤.
(٥) الكوثر/١ ـ ٢.

وقبل الهجرة بنحو سنة ونصف سنة، تولى الله تعالى فرضها بعددها في السماء ليلة الإسراء والمعراج، وبلغ الرسول الكريم من تعظيم أمرها أن جعلها أول عبادة بعد الإيمان بالتوحيد والرسالة، كما القرآن؛ حيث قال لوفد عبد قيس: «**آمُركم بأربَع وأنهاكُم عَن أربَع الإيمان بالله ثم فسرها لَهم شَهادة أن لا إلهَ إلا الله وأنّي رسولُ الله وإقام الصَّلاة وإيتاء الزكاة...**»[١]، وأمر الآباء أن يأمروا أولادهم بها، كما أمره ربه أن يأمر أهله بها، فقال: «**مُرُوا أولادَكم بالصلاة وهم أبناءُ سبع سِنين، واضرِبوهم عَليها وهُم أبناء عَشر...**»[٢].

وعقب فرض الصلاة، أمر الله نبيه بإقامتها بعددها في اليوم والليلة، في سورة الإسراء: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾[٣] وتخصيص الصلاة بلفظ «**الإقامة**» هنا، كما هو شأن القرآن[٤]، فيه إيذان بفرضيتها[٥]، وإيعاز بالمواظبة عليها بجد، والإتيان بها في أوقاتها بشروطها وأركانها...، ذلك فوق تحقيق حقيقتها وتحصيل أسرارها، وهي التوجه الكلي بالقلب إلى رب العالمين، من أجل استحضار عظمته واستشعار رحمته...[٦].

(١) البخاري في الإيمان (٥٢٣)، عن ابن عباس.

(٢) أبو داود في الصلاة (٤٩٥)، عن عبدالله بن عمرو بن العاص: (الصحيح: ١/١٤٥)، وفي صحيح البخاري، عن ابن عباس، قال: حدثني أبو سفيان في حديث هرقل، قال: ماذا يأمركم، قلت ـ يعني أبا سفيان ـ يقول ـ أي النبي ﷺ ـ: «**اعبُدوا الله وحدَه... ويأمُرنا بالصَّلاة والزكَاة والصِّدق والعَفاف**»: البخاري في بدء الوحي (٧).

(٣) الإسراء/٧٨.

(٤) فإنه جرى على هذا التركيب المخصوص في كل موضع مدح الله فيه الصلاة، أو حث عليها، نحو قوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: الأعراف من الآية: ١٧٠، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: البقرة/١١٠. (انظر المعجم المفهرس: ٥٢٤ ـ ٥٢٥).

(٥) يشهد لذلك قول الطاهر ابن عاشور: «والأمر بالإقامة يؤذن بأنه عمل واجب؛ لأن الإقامة إيقاع العمل على ما يستحقه...: (التحرير: ٦/١٢/١٧٩).

(٦) ولأجل هذا السر كانت إقامة الصلاة أول فرض تتناوله إقامة الوجه للدين، كما نطقت بذلك آيتا الروم: ٢٩ ـ ٣٠ المتقدمتين: (راجعهما للمقارنة، ضمن دراسة علاقة الدين والفطرة).

وقد أشار تعالى في هذه الآية بإجمال إلى أوقات الصلوات الخمس، وذكر ـ بعد الأمر بإقامتها ـ ما يناسبها من أوقات النهار والليل، مبيناً أثرها في تكفير الخطايا، فقال في سورة هود: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ . . .[١]. وقد تكلفت السنة القولية والعملية المتواترة عن رسول الله ﷺ ببيان ما أجمل في القرآن من أوقاتها وكيفيتها[٢] وعدد ركعاتها. . .

وعندما شارف العهد المكي على الانتهاء، أمر الله رسوله أن يأمرهم بالصلاة والإنفاق، في سورة إبراهيم: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ . . .[٣]. فعُلم أن إقامتها عنوان على صدقهم في الإيمان. وقبل الهجرة بقليل أمر الله نبيه بإقامتها، وبين له غايتها الفطرية والخلقية، وهي ذكر الله والانتهاء عن الفحشاء؛ حيث قال في آخر العنكبوت: ﴿وَأَقِمِ

---

(١) هود/١١٤.

(٢) كالذي رواه سليمان بن بريدة، عن أبيه؛» أن رجلاً أتى النبي ﷺ. فسأله عن مواقيت الصلاة؟ فقال: «**اشهَد معَنا الصَّلاة**» فأمر بلالاً فأذن بغلس؛ فصلى الصبح حين طلع الفجر، ثم أمره بالظهر. حين زالت الشمس عن بطن السماء، ثم أمره بالعصر، والشمس مرتفعة، ثم أمره بالمغرب حين وجبت الشمس، ثم أمره بالعشاء. حين وقع الشفق. . .»: مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦١٣). وجاء عن أبي هريرة أنه قال: «دخل رجل المسجد فصلى ثم جاء إلى النبي فسلم عليه فرد عليه النبي وقال: «**ارجِع فَصل فإنَّك لم تُصَل**»، فرجع ففعل ذلك ثلاث مرات فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني، ثم قال النبي: «**إذَا قُمت إلى الصَّلاة فكَبر ثم اقرأ مَا تَيسَّر معَك من القرآن، ثم اركَع حتى تَطمَئن راكِعاً، ثم ارفَع حَتى تعتَدِل قائِما، ثم اسجُد حَتى تَطمَئن ساجِداً، ثم ارفَع حتى تَطمَئن جَالِساً، ثم اسجُد حَتى تطمئن ساجِداً، ثم افعَل ذَلك في صلاتِك كلِّها**»: البخاري في الأذان (٧٩٣). وقال مصعب ابن سعد: «صليت إلى جنب أبي، فطَبَّقت بين كَفَّي ثم وضعتُهما بين فَخِذي، فنَهاني أبي وقال كُنا نَفعلُه، فنُهينا عنه وأمرنا أن نضع أيدينا على الركب»: البخاري في الأذان (٧٩٠). وورد عن رسول الله في كيفية السجود: «**أمِرت أن أسجُد على سَبعة أعظُم: الجبهَة** (وأشار بيده على أنفه) **واليَدَين، والرِّجلين، وأطْرافُ القَدمين**. . .»: مسلم في الصلاة (٤٩٠)، عن ابن عباس، والبخاري في الأذان (٨٠٩، ٨١٠).

(٣) من الآية: ٣١.

ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾. . .[(١)].

ولما هاجرت الجماعة المؤمنة بدينها، بعدما امتُحنت في عقيدتها بأذى المشركين، أَلفت في مستقر هجرتها ثلاث فئات من الناس: الأنصار المؤمنون، ثم اليهود، ثم المنافقون. واستمرت آيات القرآن تتنزل على رسولها الكريم، تجادل اليهود وتدعوهم إلى كلمة سواء، وتفضح المنافقين وتصف أحوالهم النفسية والعملية، وتحث المؤمنين على المضي في الصراط المستقيم، وتأذن لهم في القتال، وتُفصل لهم الأحكام بعد الإجمال، وتراعي التيسير عليهم في كل حال. . .

ولقد حظيت الصلاة، بوصفها أعظم العبادات، كما مر، بأوفى نصيب من البيان، بالقدر الذي يزكي النفس ويغذي الإيمان، على مألوف القرآن في البيان؛ حيث كرر الأمر بها بالقيام فيها لله، وحث على المحافظة عليها في جميع الأحوال، وقرنها بأصول الإيمان وفضائل الأعمال، وبيَّن بعض صفتها وشروطها وآثارها، وحدد بعض مواقيتها، وشرع التيسير في أمورها. . .

ولنلتمس الشواهد على هذا الكلام في بعض آيات العهد المدني، ابتداء ووسطا وختاما:

يقول القرآن في مفتتح أول سورة مدنية: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤﴾[(٢)]. فقرر هنا، كما قرر من قبل، أن إقامة الصلاة صفة جوهرية من صفات المتقين، تالية للإيمان بالغيب، ومقترنة بالإنفاق والإيمان بالرسالة والآخرة.

---

(١) العنكبوت من الآية: ٤٥.

(٢) البقرة/١ ـ ٥.

وبملحظ من هذا الترتيب الحكيم[١]، جعل الله تعالى إقامة الصلاة بعد الإيمان الركن الأساس الذي طُلب من بني إسرائيل الوفاء به، بعهد من الله وميثاق، في أول نداء لهم في هذه السورة: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[٢]، وجمع لهم وللمؤمنين بين الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة، دلالة على أثرهما في إمداد النفس بالقوة: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾[٣].

ولما كان استقبال القبلة في الصلاة أكبر باعث على وحدتهم وخشوعهم وإقبالهم على الله، أمرهم أن يُوَلوا وجوههم مع نبيهم إلى الكعبة: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[٤].

ثم أمرهم بالمحافظة عليها والقيام فيها لله، في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والسلم والحرب: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ...﴾[٥]. ويسر عليهم في أدائها مع حمل السلاح والحذر من الأعداء، بقوله سبحانه في ثاني سورة مدنية: ... ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ...﴾[٦].

وهذه الصلاة التي قاتل عليها رسول الله عليه السلام، ولم تسقط عن

---

(١) على طريقة القرآن في توزيع التكاليف وتنويعها بشكل يجعلها متكاملة، بصرف النظر عن انتساب آياته إلى المكي أو المدني.

(٢) البقرة/٤١ ـ ٤٣.

(٣) البقرة/٤٥.

(٤) البقرة من الآية: ١٤٤.

(٥) البقرة/٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٦) النساء/١٠٢.

المكلف بحال، اشترط الله قبل القيام لها النظافة والطهارة[١]؛ فأمر المؤمنين بالغسل والوضوء بقوله في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾[٢].

ثم أمرهم عند فقدان الماء وحصول حدث أو عذر من مرض ونحوه بالتيمم، رفعا للحرج: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ . . .[٣].

وقد خص الله بالذكر صلاتي الفجر والعشاء من بين الصلوات، إظهاراً لمزيتهما وترغيباً في حفظهما[٤]، في سياق تشريع آداب الاستئذان؛ حيث قال في سورة النور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ . . .[٥].

وكذا خص بالذكر صلاة الجمعة الأسبوعية الجامعة[٦]، وأوجبها

---

(١) كما اشترط لها من قبلُ في مكة أخذ الزينة، بقوله في سورة الأعراف/٢٩: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

(٢) الآية/٦ من السورة.

(٣) المائدة/٧ ومعها نظيرتها آية النساء/٤٣.

(٤) لذا كان رسول الله ﷺ ينذر بإحراق بيوت المتخلفين عنها في الجماعة، كما قال ﷺ: **«ليسَ صلاةٌ أثقل على المنافِقين مِن الفَجر والعِشاء، ولو يَعلمون ما فيهما لأتوهُما ولو حَبْوا، لقد هَممتُ أن آمر المؤذن فَيُقيم، ثم آمر رجلا يَؤُم الناس، ثم آخذ شُعَلا من نار، فأُحَرِّق على مَن لا يخرج إلى الصَّلاة بعد»**: (البخاري في الأذان (٦٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه).

(٥) الآية/٥٨ من السورة.

(٦) وأجمع منها صلاة العيدين، التي أمر رسول الله ﷺ بها الرجال والنساء حتى ذوات العذر منهن، كما قالت أم عطية: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نُخرجهن في الفِطر والأضحى: العَواتق، والحُيض، وذوات الخُدور، فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ويَشهدن الخير ودعوة المسلمين. قلت: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب؟ قال: =

على المؤمنين بقوله في سورتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾[1].

ولعل هذا التتبع لأطوار دعوة القرآن إلى إقامة الصلاة من خلال هذه الآيات الكريمة، أن يحصل لنا:

* أن دعوة القرآن إلى إقامة الصلاة دعوة أصيلة في جميع الأديان وعظيمة في دين الإسلام؛ إذ تنبني على قاعدة الإيمان النابع من قلب الإنسان، لذا اتجهت في أول الإسلام بالأساس إلى حث النبي والمؤمنين على إقامتها لا مجرد أدائها بالجوارح؛ أي إقامتها باعتدال الأركان، وبصفاء روح، وبتفكر عقل، وبخشوع قلب. ولأجل هذا السر، خصت دعوة القرآن الركوع والسجود بالذكر؛ لأنهما أعظم برهان على الخضوع لله سبحانه وتعظيمه وشكره والتذلل بين يديه؛ ولا جرم فإن مقصد الصلاة ابتداء هو تفعيل القلب بالذكر والتسبيح والشكر، كي يرتفع صاحبه من جواذب الهوى، ويتصل بربه الأعلى.

ويتبع ذلك قصد التطهير من أدران الذنوب، مما يدفع الإنسان إلى مجانبة الكبائر وامتثال الأوامر، ويقويه على مواجهة المصائب. وكل ذلك أثر ناجم عن تذكير النفس بالذكر لله...

ثم اتجهت دعوة القرآن في مستقر دعوة الإسلام، متكاملة مع سابقتها، إلى حث المؤمنين على القيام فيها لله، مع القنوت والخشوع، وفي كل الأحوال والظروف، كما اتجهت إلى تقرير مبدأ التيسير وإتمام النعمة على المؤمنين، في أوقاتها وكيفياتها، وبيان ما يلزم لصحة أدائها

= «**لِتُلبِسها أختها من جلبابها**»: مسلم في صلاة العيدين (١٢/٨٩٠)، والبخاري في العيدين (٩٨١).

(١) الآية/٩.

وإقامتها من تطهير مادي ومعنوي، وتعليم ما يقوي وحدة المؤمنين وأخوتهم من سعي إلى ذكر الله في يوم الجمعة...

وبناء على هذا التحصيل، نستفيد:

* أن المقدم والأهم في دعوة القرآن إلى الصلاة، سواء في مرحلة الإجمال أم في مرحلة البيان، هو بيان وظيفة الصلاة الفطرية وتأكيد قيمتها المعنوية، ألا وهي تغذية روح الإنسان المترشحة من روح الله، المفتقرة إلى معرفته والقيام بعبادته؛ تغذية تتألف عناصرها من التسبيح والتعظيم، والشكر والتحميد، والذل والخضوع، وتتجلى آثارها في قوة في الروح فياضة، تدفع الإنسان إلى فعل الخير وترك الشر، ومواجهة متاعب الحياة، والتآخي بين الإخوان...

ولعمري إن هذه الصلوات الخمس التي فرضت من لدن الله على الإنسان، وجُعلت وجبات غذاء يومية لروحه، لهي أهم وألزم من وجبات الغذاء اليومية التي جعلت غذاء لجسمه؛ ولا عجب فإن الأرواح تجوع أكثر من الأجسام، وزادها الضروري الذي يغذيها ويحييها هو معرفة الله وحسن الصلة به. وليست عبادة تقرب العبد من مولاه، وتجعله ضيفاً عزيزاً لديه، وجندياً مسخراً لأمره؛ أوجب وألذ من الصلاة المفروضة في دين الإسلام.

٢. ٢. ٢ ـ الزكاة

وهي عبادة مالية وشعيرة اجتماعية شُرعت في الأديان السماوية، بصريح بيان القرآن الكريم؛ حيث ذكرها سبحانه بعد الإيمان وإقامة الصلاة في أوامره إلى رسله، وفي أوامر رسله إلى أممهم؛ فقال عن الخليل إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[1]، وقال منوها بشأن إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾[2]، وقال

---

(١) الأنبياء/٧٢.

(٢) مريم/٥٥.

على لسان المسيح في المهد: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[(١)]، وقال عن ميثاقه لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ . . . ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ . . .[(٢)]، وقال في شأن أهل الكتاب عامة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ . . .[(٣)].

هذه هي الزكاة في ديانات السماء قبل الإسلام: إحسان عام بالفقراء والمساكين، وُكل إلى ضمائر الأغنياء وأريحيتهم، قياماً بحق الله، وحق الأخوة في الله، من دون تحديد للمال الذي فيه هذا الإحسان، ولا لشروطه، ولا لمقدار الواجب فيه، ولا لمستحقيه أو موزعيه. . .

ولما جاء الإسلام، جعل الزكاة عبادة فذة، لم يسبق لها نظير في ديانة سماوية ولا في شريعة وضعية، سواء من جهة الإيجاب والتوجيه، أو من جهة التشريع والتنفيذ. ولعل تتبع مراحل الدعوة وبيان القرآن الكريم وفقاً لحاجات المسلمين في مكة والمدينة، أن يبين لنا طرفاً من هذه الجوانب.

وهكذا، بزغ نور الإسلام في مكة، والمسلمون أفراد معدودون، فقراء مضطهدون؛ فلاءمهم يومئذ أن ينزل عليهم من القرآن ما يوجههم إلى الإنفاق على الفقراء، ويرغبهم في الإحسان إلى المحتاجين، وذلك بتعبير «**إطعام المسكين**» تارة، وباسم «**أداء حق السائل والمحروم، والقريب والمسكين وابن السبيل**» تارة، وطوراً بعنوان «**الإنفاق مما رزق الله**»، وطوراً بتعبير «**إيتاء الزكاة، والزرع عند الحصاد**» وغير ذلك من الأسماء. . .

ففي سورة «**المدثر**» - وهي من أوائل العهد المكي - يرتب القرآن العذاب الأليم على إهمال إطعام المسكين، بصريح اعتراف المجرمين في النار: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾[(٤)]، وفي

(١) مريم من الآية: ٣١.
(٢) البقرة من الآية: ١١٠.
(٣) البينة/٥.
(٤) الآيتان: ٤٣ - ٤٤ من السورة.

سورة «**الإسراء**» - وهي من أواسط العهد المكي - يأمر القرآن كل مسلم بأداء حق الله المحتوم في ماله للقريب والمحتاج: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾[١]. فليس هذا الحق صدقة تطوعية؛ وإنما هي حق للفقراء في أموال الأغنياء، أوجبه الله بدرجة إيجاب عبادته[٢]. وفي سورة «**الأنعام**»، - وهي بعد هذه بقليل - يأمر سبحانه عباده، في مقام تقرير ربوبيته بإيتاء حق الزرع يوم حصاده: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾[٣]. وهذا الحق المفروض في مكة[٤] مطلق غير محدود بعشر أو نصف عشر، بل هو متروك لإيمان صاحب الزرع، وحاجة المساكين من حوله، وعرف الناس في موطنه.

وفي أول «**لقمان**» يبين الله سبحانه أوصاف المحسنين المنتفعين بهداية القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾[٥].

وفي سورة «**فصلت**»، يتوعد الله المشركين، ويذكر أخص أوصافهم: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾[٦].

---

(١) الآية: ٢٦ من السورة.

(٢) كما يدل على ذلك مفتتح الأوامر والتكاليف في هذه السورة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: من الآية ٢٣. ومجيء الأمر بإيتاء حق المحتاج بعد هذا الأمر الوارد في صورة قضاء يوحي بأنه أمر في درجة عالية من الإلزام.

(٣) الآية: ١٤١ من السورة.

(٤) وهذا على القول بأن الآية مكية، كما هو مذهب بعض العلماء، ويرى آخرون أنها مدنية، معضدين ذلك بمضمون الآية. ولعل مقطع الحق في هذا الأمر هو قول سيد قطب: «إن الآية مكية؛ لأن السياق في الجزء المكي من السورة لا يتصور تتابعه بدون هذه الآية، فإن ما بعدها ينقطع عما قبلها لو كانت قد تأخرت حتى نزلت في المدينة...»: (في الظلال: ٣/١٢١١).

(٥) الآية: ٣ من السورة.

(٦) الآيتان/٦ - ٧ من السورة.

وفي سورة «**المعارج**» - وهي من أواخر العهد المكي - يذكر الله أوصاف المتقين، المصدقين بيوم الدين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وفي سورة «**إبراهيم**»، يأمر الله نبيه بأن يوجه المؤمنين إلى إقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾[2].

وفي سورة «**الروم**» - وهي قبيل العهد المدني بقليل - يكرر القرآن الأمر بإيتاء القريب والمسكين وابن السبيل حقه المفروض، ويضيف إليه غايته المعنوية الحقيقية ألا وهي: إرادة وجه الله، ومضاعفة الثواب: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾[3].

وانسجاماً مع هذه الآيات، يتبين:

* أن دعوة القرآن المكي إلى البر ورعاية المسكين، وأداء حق السائل والمحروم وردت في الصيغة الأمرية الدالة على الوجوب تصريحا، وفي الصورة الخبرية - وهي الغالب - الدالة على هذا الوجوب تلويحاً[4]، مما يدل على أن أسلوب الآيات المكية المتعلقة بالزكاة أسلوب حض أكثر منه أسلوب فرض.

---

(١) الآيتان/٢٣ - ٢٤ من المعارج.
(٢) الآية/٣١ من السورة.
(٣) الآيتان/٣٨ - ٣٩.
(٤) والقصد من ذلك أن الله أخبر أن إيتاء الزكاة من صفات المؤمنين، والمتقين، والمحسنين، الذين هم بالآخرة يوقنون، وللفردوس وارثون، كما أخبر أن تركها من الأوصاف اللازمة للمشركين والمجرمين الذين هم بالآخرة كافرون، وفي العذاب محضَرون. والتحلي بصفات المؤمنين، والتخلي عن خصائص الكافرين أمر حتم واجب.

* أن الزكاة في مكة، على وجوب أصلها، كانت مطلقة من القيود، كالزكاة التي شرعت في الديانات، وكانت معلومة بتعيين المنفق نفسه أو بتعيين العرف حسب الحاجة والمصلحة[١].

وبالجملة، فإن هذه الدعوة غرست في روح المسلم وضميره منذ أول عهده بالإسلام حقائق وتصورات، تقرر أن المال مال الله[٢]، وأن للفقراء حقا فيه مقسوما لهم من الأغنياء، وأن إيتاءه دليل الصدق في الإيمان والتصديق بالجزاء، وبالعكس، وأن إنفاقه مع إقامة الصلاة برهان على الصلة بالله، والطاعة للأمر، والاعتراف بالفضل، والخلاص من البخل...

وهكذا ظل القرآن يأمر بالإنفاق على وجه الإطلاق في مكة حتى إذا ما تركز الإسلام في المدينة، وصار المسلمون فيها جماعة متميزة لها كيان وسلطان؛ امتد بيان القرآن الكريم إلى فريضة الزكاة بتأكيد وجوبها، وتفصيل بعض أحكامها، وتولت السنة الشريفة تفصيل ما أجمله القرآن من تحديد؛ فأوضحت النصب والحدود والمقادير، وفصلت الشروط والمصارف والمستحقين، وجعلت للدولة سلطانا على المؤمنين في التحصيل والتوزيع...

ومن هنا، نجد القرآن المدني في سور مراحله جميعا يأمر المؤمنين بصيغة الأمر الصريح بـ«**إيتاء الزكاة**» أو «**الإنفاق**» أو «**الصدقة**» و«**الصدقات**»، ويبني ذلك على الإيمان، ويقرنه ـ على سنته ـ بإقامة الصلاة...؛ تقرأ ذلك في مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾[٣]. وقوله موجها المؤمنين إلى إنفاق أفضل

---

(١) راجع ذلك بمزيد بيان في: فقه الزكاة: ٦١/١.

(٢) ولهذا كان الحديث في بعض الآيات المتقدمة (كآيتي الروم والأنعام...) عن اختصاص الرزاقية الإلهية بالإيجاد والإمداد لتقرير اختصاصها بالحاكمية في حياة الناس؛ موصولاً بتوجيه الإنسان إلى الإنفاق مما رزقه الله على المحتاجين من إخوانه، قياماً لواجب الرزاق بحق الشكر. وهذا هو أساس التصور الإسلامي لنظام المال.

(٣) الآية/ ١١٠ من السورة.

أموالهم دون الرديء الخبيث: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾[1]، وقوله في سورة «الحديد»، مقرراً أن الإنسان مستخلف في مال الله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾...[2]، وقوله في سورة «النور»: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾[3].

واستنانا بهذه الأوامر القرآنية وأمثالها الموجبة للزكاة، أكد النبي عليه السلام في المدينة فرضيتها، وبين مكانها من الدين، وقرنها مع إقامة الصلاة وشهادة التوحيد والرسالة، وكانت ثلاثتها من الفرائض التي بها أوصى العباد، وعليها أُمر بالجهاد. ومما يشهد بذلك حديث ضمام بن ثعلبة حين جاء يسأل النبي ﷺ وينشده الله أن يصدقه الجواب في عدة أمور، كان منها: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: **«اللّهم نعم»**[4].

وكذا قوله عليه السلام لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: **«ادعُهم إلى: شَهادة أن لا إلَه إلا الله، وأنّي رسولُ الله، فإن هُم أطاعُوا لذلك، فأَعْلِمهُم أن الله افترَض عليهِم خمسَ صلَوات في كل يوم وليلة، فإن هُم أطاعُوك لذلك، فأعلِمهم أنَّ الله افترَضَ عليهِم صَدَقة في أموَالِهم، تؤخَذ من أغنيائهم وتُرَد على فقرائهم»**[5]. وقوله عليه السلام: **«أمرتُ أن أُقاتِل الناسَ حتَّى يَشهدوا أن لا إلَه إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، ويُقيموا الصَّلاة ويُؤتوا الزكَاة، فإن فَعَلوا ذلك عَصَموا مني دماءَهم إلا بحَق الإسلامِ**

---

(١) الآية/٢٦٧ من نفس السورة.

(٢) الآية/٧ من السورة.

(٣) الآية/٥٦ من السورة.

(٤) البخاري في العلم (٦٣)، ومسلم في الإيمان (١٠/١٢)، كلاهما عن أنس بن مالك.

(٥) البخاري في الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان (٢٩/١٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وحسابُهم عَلى الله[١].

وقد تطلعت جماعة من المنافقين إلى أموال الصدقات وطعنوا على رسول الله في قسمتها طمعاً في أخذها، فهتك الله سترهم بقوله في سورة التوبة، وهي من أواخر المدني: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾[٢].

ثم قطع أطماعهم في الحصول على شيء من الزكاة بتحديد مصارفها، وتعيين مستحقيها، بآية المصارف الثمانية: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾[٣]. فعلم أن هذه الصدقات ـ أي الزكاة ـ أمر الله وفريضته وقسمته، وما الرسول فيها إلا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين، كما قال: «**ما أعطيكم ولا أمنعُكم، إنما أنا قاسِم أَضَع حَيثُ أُمِرت**»[٤]. ومن ثم، فهذه الفريضة المالية ليست تفضلاً من الغني المعطي، ولا تسولاً من الفقير الآخذ؛ وإنما هي فريضة دورية معلومة المصارف والجهات، وليست موكولة إلى اختيار أحد، حتى ولا اختيار الرسول عليه السلام... إنها موكولة في نظام الإسلام المالي والاجتماعي إلى الدولة المسلمة، لتجمعها بالعدل وتوزعها بالقسط، بوساطة العاملين عليها ـ الذين لهم سهم فيها ـ، على الفقراء والمساكين من أهل الاحتياج، وعلى المؤلفة قلوبهم من ضعفاء الإيمان، وعلى تحرير رقاب الأرقاء، وعلى الغارمين من المدينين، في غير معصية، وعلى ابن السبيل، وعلى نصرة الإسلام والمصالح العامة لدعوته ودولته. وذلك هو سهم «**في سبيل الله**»[٥].

---

(١) مسلم في الإيمان (٢١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الآية/٥٨ من السورة.

(٣) الآية/٦٠ من نفس السورة.

(٤) البخاري في فرض الخمس (٣١١٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) انظر بيان ذلك في الإسلام عقيدة وشريعة/١١٢ ـ ١١٧ وفقه الزكاة: ٩٨/١.

وتأكيداً لفرضيتها وبيانا لأثرها، أمر الله نبيه عليه السلام في أواخر سورة التوبة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾...[١]. فهذه الآية قررت مبدأ الإنفاق الواجب وأشارت، ضمن الإجمال الذي في كلمة «**أموالهم**»، إلى كل ما يتملكه الإنسان من الأموال التي تجب فيها الزكاة. وقد بين النبي عليه السلام في التطبيق العملي أنواع هذه الأموال، من الذهب والفضة والمواشي والزرع والثمار...، كما بَيَّن المقادير والنصب التي تخرج منها[٢].

كذلك قرنت الآية الأمر الموجه إلى النبي ﷺ وإلى من يقوم بأمر الأمة من بعده بالتطهير والتزكية، وهذا الاقتران يكشف بوضوح عما يرنو إليه القرآن من وراء هذا الأمر الحتم... إنه يرنو إلى تحقيق أهداف روحية وأخلاقية واجتماعية واقتصادية زائدة على مجرد الأخذ والعطاء الماديين، فالزكاة تطهر النفس من الشح والحسد، وتطهر المجتمع من عوامل التفرقة والفتن[٣] وتنمي المال بصريح وعد الله بالإخلاف والإرباء.

٢. ٢. ٣ ـ الصيام

وهو عبادة دينية تتمثل في كف النفس عما تشتهيه من الأكل والشرب والجماع ـ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ـ بنية القربة إلى الله تعالى، واستشعار عظمته، والاستعداد لتقواه ومراقبته، وتقديم الشكر إزاء نعمه. وقد

---

(١) الآية/١٠٣ من السورة.

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ في زكاة السائمة: «**في كُل سائِمة إبل في أربعين بِنت لَبون، لا يفرق إبلٌ عن حِسابها، مَن أعطَاها مُؤتَجراً فله أجرُها. ومن منَعَها فإنَّا آخذُوها وشَطْر ماله عَزمةٌ من عَزمات ربنا عز وجل ليسَ لآل محمد مِنها شَيء**»: (صحيح سنن أبي داود في الزكاة: ٢/٤٣٦).

(٣) يؤيد ذلك قوله عليه السلام: «**فِتنة الرجُل في أهله وماله وولده وجاره، تُكَفرها الصلاة، والصدَقة، والأمرُ بالمعروف والنهي عَن المنكر**»: (البخاري في الفتن (٧٠٩٦)، عن حذيفة (رضي الله عنه)).

فرضه سبحانه في العهد المدني[(١)] على جميع القادرين في شهر رمضان من كل عام، وعبر عن فرضه بلفظ «**الكَتب**»، وهو **أوكد من الأمر**[(٢)] حيث قال في سورة البقرة - وهي من أوائل المدني -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[(٣)]. فقرر سبحانه هنا أن الصوم فريضة قديمة على المؤمنين في كل دين، وإن اختلفت صورها وأوقاتها[(٤)]. وفي ذلك تحريض للمسلمين على القيام بها وعدم التقصير في تنفيذها، فإن لهم في صيام من كان من قبلهم أسوة حسنة، وإن عليهم أن يجتهدوا في أداء هذه الفريضة أكمل من أدائهم. كما قرر تعالى أن حكمتها الكبرى المكنونة في مظهرها تتجه إلى إعداد قلوبهم للتقوى والمراقبة والخشية من الله؛ إذ «**ليس الصيام مجرد الإمساك عن الطعام والشراب فحسب، وإنما هو الإمساك عن كل ما ينافي الإيمان، ولا يتفق وفضيلة التقوى والمراقبة**»[(٥)].

---

(١) في السنة الثانية، قبيل فرض الجهاد: (في الظلال: ٢٤٤/١). وذلك يفيد أن من غايات الصوم تربية المسلم على احتمال المكاره، وأعظمها الجهاد في سبيل الله، وقد فرضه النبي ﷺ منذ العهد المكي، بصريح حديث أبي جعفر بن أبي طالب؛ حيث قال للنجاشي فيما قال له: «...وأمَرنا - أي: النبي ﷺ - بالصَّلاة والزكَاة والصِّيام»: (ابن خزيمة في الزكاة، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، رقم ٢٢٦٠: صحيح ابن خزيمة ١٣/٤). وفي الصحيح أن عائشة أخبرت عروة بن الزبير أن قريشاً كانت تصوم عاشوراء في الجاهلية، ثم أمر رسول الله ﷺ بصيامه حتى فرض رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «**مَن شاءَ فليَصُمه ومن شاءَ فليُفطِره**». (مسلم: (١١٦/١١٢٥)، والبخاري رقم (١٨٩٣)، كلاهما في الصيام).

(٢) يدل لذلك قول الراغب: «ويعبَّر عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة. ووجه ذلك أن الشيء يراد ثم يقال ثم يكتب...»: (المفردات/كتب). ولا شك أن «الأمر» قول نابع من الإرادة، والكتابة منتهى، وفي ذلك دلالة صريحة على أن الصيام قد بلغ المنتهى في الإيجاب، والإلزام، والعزم، ومن ثم هذا التأكيد لفرضيته بلفظ «الكتب»، عوضا عن لفظ «الأمر» أو صيغته.

(٣) الآية/١٨٣ من السورة.

(٤) ينظر ما في التحرير: ١٥٧/٢ عن صيام السابقين.

(٥) الإسلام عقيدة وشريعة/١٢٠.

ثم بين سبحانه بعد هذه الآية المجملة ظرف الصيام، والأعذار التي تبيح الفطر، وأشار إلى الحكمة في اختيار هذا الظرف المفروض بقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾[١].

فهذه الآيات قررت أن الصوم المفروض أيام معدودات[٢] تهويناً لأمره على المكلفين، ورخصت للمريض والمسافر الإفطار فيها تيسيراً، كما رخصته للأصحاء المقيمين الذين يشق عليهم، واكتفت منهم بإطعام مسكين «**وكان ذلك في أول الإسلام لما كان تكليف الصوم شاقاً على المسلمين**»[٣]. وقد رغبهم سبحانه في اختيار الصوم مع المشقة - في غير سفر ولا مرض - تمهيدا لرفع رخصة الإفطار والفدية عن الصحيح المقيم وإيجاب الصيام إطلاقاً[٤]، كما يستفاد من أمره تعالى بعد: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾، وقد بقيت هذه الرخصة للشيخ الفاني، والمرضع، والحامل، وغيرهم[٥].

ثم رغبهم ثانياً في أداء هذا الفرض بالإشارة إلى النعمة الكبرى التي ظهرت في زمانه، وهي نعمة البدء بإنزال القرآن على النبي عليه السلام، فلا أقل من شكر الله على هذه النعمة بترك الأكل والشرب، والقيام بتلاوة ذلك القرآن والإصغاء إليه بخشوع كامل.

---

(١) البقرة/١٨٤ - ١٨٥.

(٢) والمراد بها شهر رمضان عند جمهور المفسرين: (التحرير: ٢/١٦٧).

(٣) انظر في الظلال: ١/٢١٤، والتحرير: ٢/١٦٧.

(٤) على مألوف الشارع في تدرج تشريع الأحكام التي فيها مشقة على الناس: (انظر: التحرير: ٢/١٦٧).

(٥) راجع في الظلال: ١/٢٤٤، والتحرير: ٢/١٦٧.

ثم رغبهم ثالثاً في الصيام بعد إيجابه على كل من حضر شهر رمضان[١]، باستثناء من كان مريضا أو على سفر، وذلك ببيان رحمته في التكليف والرخصة سواء، ودعاهم في الختام إلى الإكمال، وتكبير الله على هدايته، وشكره على نعمته.

ومما تقدم، يتبين:

* أن الصيام الذي أمر الله به العباد نابع من أصل الإيمان، منبع كل خير، وذلك هو سر افتتاح هذا التكليف بالنداء بوصف الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

* أن بيان القرآن للصيام اتجه أساسا إلى تقرير حكمته السامية، ضمن خلاصات في ختام الآيات؛ حيث ذكر سبحانه في ختام الآية الأولى الغاية الكبيرة من تكليف المؤمنين بالصيام: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. والتقوى هي روح الإيمان وسر الفلاح، والصوم الذي يعد الصائم لتقوى الله، كما أمر القرآن، ليس هو مجرد الإمساك عن المفطرات فحسب، بل هو إيقاظ للروح، وتهذيب للنفس، وتقويم للسلوك.

ثم ذكر تعالى في ختام الآية الثانية ما في الصوم من خير، حتى في حال المشقة: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وذلك يفيد أن الصوم، وإن بدا شاقاً على الأبدان والنفوس، فإن فيه تقوية للإرادة، وتربية لمشاعر الرحمة[٢]، وترويضاً على الصبر، وتصحيحاً للجسد، حتى وإن أحس الصائم بالجهد... وذلك كله خير. ثم ذكر في ختام الآية الثالثة غاية من غايات الصيام الكبرى، وهي القيام بالشكر اتجاه النعم الإلهية:

---

(١) وقد بين أمر رسول الله ﷺ أن ثبوت شهر رمضان يتحقق برؤية الهلال ولو من واحد عدل، أو إكمال عدة شعبان ثلاثين يوما، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«صومُوا لِرؤيته، وأفطِروا لِرؤيته، فإن غمي عَليكُم، فأكمِلوا عِدة شَعبان ثَلاثين»**: البخاري في الصوم (١٩٠٩).

(٢) كما توحي بها فدية طعام مسكين بالنسبة لرخصة الإفطار.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وإن صيام رمضان لهو مفتاح شكر حقيقي خالص لله سبحانه.

وإذا كان الصائم يَحْصُل بعبادة الصيام والقيام في شهر رمضان على التصفية الجسدية والروحية ويتزود بزاد التقوى، ويترقى إلى مقام القرب من الله؛ فإنه بدخول شهر شوال ـ وهو أول شهر من أشهر الحج ـ يهفو قلبه إلى استدامة صفو جسده وروحه، والاستزادة من التقوى والقرب من الله، وتطير نفسه شعاعا إلى شد الرحال إلى بيت الله الحرام، ليشهد في شعائر الحج منافع جمة...

٢. ٢. ٤ ـ الحج

وهو عبادة دينية لها مناسك مرسومة، تنتظم من الإنسان روحه وبدنه وماله، ابتداء من الإحرام في الميقات، وانتهاء بالطواف حول بيت الله الحرام، ومروراً بذبح الهدي ورمي الجمار... وقد اكتملت بها أركان الإسلام؛ إذ فُرضت في السنة التاسعة من الهجرة[١] على كل مستطيع من المسلمين في زمن معلوم وأمكنة معلومة، إقامة لذكر الله وامتثالاً لأمره وابتغاء لقربه ومرضاته.

والحج «صورة قديمة من صور العبادات، اتخذتها الشعوب والقبائل رمزاً لإجلال معبوداتهم وتقديسها»[٢]، واستمر على هذا حالها حتى بعث الله إبراهيم الخليل، وأمره ببناء البيت الحرام ليطوف الناس به ويذكروا اسم الله فيه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[٣]، وقال: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ

---

(١) على أرجح الأقوال: (انظر: العبادة في الإسلام/٢٧٠).
(٢) الإسلام: عقيدة وشريعة/١٣٥.
(٣) البقرة/١٢٧.

ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾(١).

وقد أطاع إبراهيم الحنيف المسلم أمر ربه؛ فبنى بيته، وطهره، وأذن في الناس بحجه. ومنذ ذلك الحين اتجه العرب إلى البيت الذي بناه إبراهيم، يحجونه، ويعبدون الله فيه، بما رسم لهم وشرع. حتى إذا مضت بهم السنين، حرفوا الحج عما كان عليها زمن إبراهيم، وشرعوا ما لم يأذن به الله من الدين؛ فملأوا الكعبة بالأنصاب والأوثان، ونذروا لها النذور، وذبحوا باسمها الذبائح، وابتدعوا في الحج تقاليد من تزيين الشيطان، منها: استكبار فريق منهم عن الوقوف مع الناس بعرفات، وطوافهم بالبيت عراة، زاعمين أنهم يقلدون آباءهم ويفعلون ما شرعه الله لهم من رسوم العبادة، كما قال تعالى، على ما حكاه عنهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾(٢).

وجاء نبي الإسلام، محمد عليه السلام، مجددا دين إبراهيم، وباعثا لدعوته: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾(٣)، فوجد القوم على دين الآباء والمشايخ والكهان، يحجون إلى بيت الله الحرام، بما شرعوا ما لم يأذن به الله؛ فتركهم يحجون، كما ألفوا، وركز جهوده ﷺ أول الأمر على الدعوة إلى الإخلاص، وإبطال الشرك.

---

(١) الحج/٢٤ ـ ٢٥.

(٢) الأعراف/٢٨. قال ابن كثير عند تفسيرها: «كانت العرب ـ ما عدا قريشا ـ لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها! وكانت قريش ـ وهم الحمس ـ يطوفون في ثيابهم ومن أعاره أحمسي ثوبا طاف فيه؛ ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً، ولا أعاره أحمسي ثوبا طاف عرياناً، وربما كانت امرأة تطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر...»: (تفسير ابن كثير: ١٩٩/٢ وكذلك في الظلال: ٤٩٥/٣).

(٣) الأنعام/١٦١.

ومن هنا، أُمر النبي عليه السلام وبالتبعية المسلمون في أوائل العهد المكي ـ مع الصلاة ـ بذبح النسك خالصاً لله، بقوله سبحانه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾[1]. ثم أمرأن يُعلن للمشركين، مذكراً إياهم بنعمة حرمة مكة، أنه مأمور بالإخلاص في عبادة رب هذه البلدة والاستسلام لأمره، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾[2].

وأُمر أن يقول لهم في ختام الحديث عن شرائعهم الوثنية في الذبائح والنذور والثمار، التي يتقربون بها إلى الله وإلى شركائهم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾[3].

وأُمر أن ينكر عليهم دعواهم في أن الله أمرهم بفاحشة الطواف بقوله لهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]، كما أُمر أن يبين ما أمر الله به، مما يضاد ما هم عليه، بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾[5]. والقسط المأمور به هنا، هو العدل بمعناه الأعم[6] وأعظمه «**قول لا إله إلا الله**»[7]، ومنه العدل في اللباس[8]، الذي يضاد فاحشة التعري في الطواف، والعدل في إقامة الوجوه عند التوجه إلى الله في

(١) الكوثر/٢.

(٢) النمل/٩١.

(٣) الأنعام/١٦٢ ـ ١٦٣.

(٤) الأعراف/٢٨.

(٥) الأعراف من الآية: ٢٩.

(٦) التحرير: ٥/٩/ ٨٨، وجامع البيان: ٥/٨/١٥٥.

(٧) عن ابن عباس: (التحرير: ٥/٩/٨٨).

(٨) كما هو مفهوم من مواجهة الآيات السابقة واللاحقة لواقع الجاهلية في شؤون التشريع للعبادة والطواف واللباس.

الحج[١]، وهو يضاد الظلم في إشراك الله بغيره في العبادة. والأمر بإقامة الوجوه ترغيب في كمال الإقبال بالقلب على الله، واستشعار عظمته، وإخلاص الشعائر والعبادة له.

وهكذا، ظل رسول الإسلام يدعو الناس إلى ما أُمر به من الإخلاص لله في العبادة، وينقي شعائر الحج من أدران الوثنية وتقاليد الجاهلية، حتى أُخرج هو وصحبه من وطنه مكة، وفي قلبه الشوق إلى زيارة بيت الله الحرام، وأداء شعائر الحج، وقد دفعه هذا الشوق إلى تقليب وجهه في السماء لعل الوحي ينزل عليه بتحويل القِبلة قِبل البيت. وبعد قرابة عام ونصف عام[٢]، نزلت الآية الكريمة من سورة البقرة، تحقق له ما تمناه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[٣]، ثم نزلت آيات كثيرة بعد ذلك، تأمر بالحج، وتفصل أحكامه، وتبين مواقيته وآدابه وأهدافه، وتصلح ما أفسد الجاهليون فيه، وتقطع منازعتهم للنبي الكريم.

وهكذا نزلت آية آل عمران بفرض الحج إجمالاً على المستطيع من هذه الأمة، وجعلت تركه أو الاستخفاف به كفرا بالله ومروقا من الدين: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤]. قال العلماء: «ذكر الله تعالى الحج بأبلغ ألفاظ الوجوب؛ تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمته، وتقوية لفرضه»[٥].

---

(١) يعين ذلك ذكر المساجد في الآية، ولم يكن للعرب مساجد غير شعائر الحج: (انظر: التحرير: ٥/٩/٨٨).

(٢) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/٣٨.

(٣) البقرة من الآية: ١٤٤.

(٤) الآية/٩٧ من السورة.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي: ٣٧٤/١، وكذلك الجامع للأحكام: ١٤٢/٤، وجاء فيه ما يبين دلالة هذه الصيغة الخبرية على الوجوب: «فاللام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ للإيجاب والإلزام، ثم أكده بقوله تعالى: ﴿عَلَى﴾ التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب؛ فإذا قال العربي: «لفلان علي كذا؛ فقد وكده وأوجبه».

ونزلت آيات البقرة ببيان أحكام الحج والعمرة إجمالاً، وأحكام الحج تفصيلاً؛ فابتدأت بالأمر بإتمام مناسك الحج والعمرة، والإخلاص فيهما لله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾(١)، واستثنت من هذا الأمر العام حالة الإحصار، كما وقع في الحديبية، وطلبت من المحرم في هذه الحال أن ينحر الهدي متى يتيسر، ليحل من إحرامه: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾(٢)، وطلبت النحر في حالة الاعتداء على الإحرام بفعل محظور من محظوراته على وجه التخيير بينه وبين الفدية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾(٣)، كما طلبته في حالة التمتع بالتحلل من العمرة إلى الحج: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾(٤).

ثم مضت الآيات بالوصاية بالحج وبيان مواعيده وآدابه وأهم أركانه، بياناً يشد القلوب إلى الله وتقواه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾(٥). فهذه الآية أشارت إلى أشهر الحج الحرم، وطلبت ممن أوجب على نفسه إتمام الحج بالإحرام أن يطهر نفسه من الشهوات والآثام، ويحليها بمحاسن الأخلاق، وأمرته بالتزود لسفر الحج، ولا سيما بزاد التقوى.

ثم أمرت الآيات بذكر الله عند المشعر الحرام ـ أي: المزدلفة ـ بعد الوقوف بعرفات ـ وهو أهم فرائض الحج ـ والإفاضة منها: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم

---

(١) الآية/١٩٦ من السورة، وقد روى المفسرون أنها نزلت في الحديبية سنة ست من الهجرة، عندما صد المشركون ـ وهم سدنة الكعبة إذاك ـ النبي ومن معه من المسلمين عن البيت. وكان ذلك قبيل أن يفرض الحج بآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، على أحد الأقوال: (انظر: التحرير: ٢/٢١٦، وكذلك في الظلال: ١/٢٧٧ ـ ٢٧٩).

(٢) نفس الآية.

(٣) نفس الآية.

(٤) نفس الآية.

(٥) الآية/١٩٧ من السورة.

مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾(١) ونقت هذه الإفاضة من كِبْرَة الجاهلية، إذ أمرت القرشيين أن يقفوا مع الناس في عرفات، وأن يفيضوا من حيث أفاض الناس: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾(٢).

وبعد قضاء المناسك أمرتهم بذكر الله في أيام مِنى والاتجاه إليه بالدعاء، بدلا من ذكر الآباء، والتفاخر بالأنساب: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾...(٣). ثم أمرتهم بالتقوى، واستجاشت في قلوبهم مشاعر الخوف من العقبى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٤).

ثم نزلت آيات الحج تدعو الناس إلى الحج، وتصله بسيرة أبيهم إبراهيم، كما مضى، وترشد المؤمنين إلى بعض شعائره ومناسكه، وتلفت أنظارهم إلى بعض غاياته ومنافعه: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾(٥).

لقد أفصحت آيات الحج عن حكمة الله من دعوته التي أذن بها إبراهيم، إنها اجتماع الموحدين في زمن واحد ومكان واحد، تلبية

---

(١) الآية/١٩٨ من السورة.

(٢) الآية/١٩٩ من السورة. وعن عائشة، أنها قالت: «كانت قريش ومن دان دينها يقفون بيوم عرفة في المزدلفة وكانوا يسمون الحمس وكان سائر العرب يقفون بعرفة. فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾»: (انظر: التحرير: ٢/٢٤٢).

(٣) الآية/١٩٩ من السورة.

(٤) الآية/٢٠٣ من السورة.

(٥) الآيات: ٢٧ ـ ٢٩ من السورة.

لدعوة الله؛ ليشهدوا منافعهم، وليذكروا اسم الله عند نحر ذبائحهم، وليطهروا أبدنهم وأرواحهم، وليقضوا نذورهم من الذبائح التي نذروها غير الهدي.

ولما كانت الذبائح من أعظم الشعائر التي يتوجه بها إلى الله دون سواه، ابتغاء رقابته وتقواه، أمرت آيات الحج ـ عدا ما تقدم ـ بنحرها باسم الله ـ لا باسم الآلهة المدعاة ـ والأكل منها وإطعام الفقراء: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾...[1].

ثم أمرت النبي الكريم أن يعرض عن جدال المشركين، ويقطع منازعتهم له في شرائع الدين، ومنها النسائك والمذابح، فإن الله ما جعل لأهل كل أمة من أهل الأديان الحق إلا منسكاً واحدا يتقربون فيه بالنسك إلى الله؛ لأن المُتقرَّب إليه واحد: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾...[2].

وهكذا كانت دعوة القرآن إلى الحج في مكة والمدينة ترتبط بأسمى الغايات، وتتجه بقلوب الناس إلى الله دون سواه، وتستجيش فيها مشاعر التقوى، وتغرس فيها أسمى معاني الانقياد لأمر المولى، وتقتلع منها نزغات الهوى، وتصلها بالخليل إبراهيم في الذكرى.

ولم تزل هذه الدعوة محضورة التنفيذ، ولم يزل أصحابها المجاهدين محرومين من الطواف حول البيت العتيق، حتى أذن الله بتطهير بيته من العرايا والمشركين. وبشَّر المؤمنين في أوائل سورة التوبة بأنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، محلقين رؤوسهم ومقصرين. وقد تلا هذه البشارة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ نائباً عن الرسول ﷺ ـ حينما خرج المسلمون إلى الحج أول مرة في السنة التاسعة تحت إمرة أبي بكر،

---

(١) الآية/٣٦ من السورة.

(٢) الآية/٦٧ من السورة.

وأدوا مناسكهم، كما أخذوها عن رسول الله[1]. وحينما خرج إليه رسول الله ﷺ في السنة التالية العاشرة بعد أن كمُل الدين وتمت النعمة، سمع الحجيج من فمه الطاهر هذه الوصايا: «**إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، فلا ترجِعُن بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض، وإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعدي... كتاب الله**»[2]. فلا أقل من شكر الله على نعمة الأخوة والإيمان بتلاوة ذلك الكتاب، كما أمرهم الله.

٢. ٢. ٥ ـ تلاوة القرآن

ورد مصطلح «**الأمر**» متعلقا بتلاوة «**القرآن الكريم**»، في سياق تلقين الرسول الكريم ما يواجه به المشركين المكذبين بالقرآن وبالبعث والوعيد، بصريح آيتي النمل: **٩١ ـ ٩٢**: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾.

لقد أُمر رسول الله أن يقطع مطاعن المشركين، ويعلن في وجوههم بأنه مأمور أن يعبد رب هذه البلدة الحرام ورب كل شيء، دون الأوثان، وأن يكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام[3]؛ أي: «**أن أتلو القرآن**

---

(١) امتثالا لأمره لهم بقوله: «**خذوا مناسككم**»: (صحيح سنن النسائي: **٣٥٨/٢** في مناسك الحج، برقم (٣٠٦٢)، عن جابر بن عبدالله)، ومنها الإحرام، والفدية... حيث قال عليه السلام لرجل سأله: من أين تأمرنا أن نهل؟: «**يُهل أهل المدينة من ذي الحُليفة، ويُهل أهل الشام من الجُحفة ويهل أهل نجد من قرنٍ**»: (البخاري في العلم، رقم: **١٣٣**، عن عبدالله بن عمر). وعن كعب بن عجرة: أن رسول الله ﷺ رآه وقمله يسقط على وجهه، فقال: «**أيؤذيك هَوامك؟**» قال: نعم. فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق، وهو بالحديبية، لم يتبين لهم أنهم يحلون بها، وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفدية، فأمره رسول الله ﷺ: «أن يطعم فرقاً بين ستة مساكين، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام»: (البخاري في المغازي، رقم: **٤١٥٩**).

(٢) الإسلام: عقيدة وشريعة/١٤٩.

(٣) ينظر: في الظلال: **٣١٢/٦** وجامع البيان: **٢٥/٢٠/١١** والكشاف: **١٦٣/٣**.

على الناس»[١].

والقرآن بوصفه كلام رب العالمين، هو كتاب هذه الدعوة، ودستورها، ووسيلة تبليغها وإنذار الناس بها، وجهادهم عليها. ومن ثم أمر الله نبيه عليه السلام مع قيام الليل بترتيل القرآن من أول العهد بنزوله، إعداداً له للاتصال بالله وتلقي القول الثقيل واحتمال الجهاد الشاق الطويل. قال تعالى في أول سورة المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾[٢].

وقام رسول الله، كما أمره الله، وقام أصحابه اقتداء به حتى «**انتفخت أقدامهم**»[٣]، ثم لما جُعل قيام الليل لهم تطوعاً لا فريضة، رحمة من ربهم؛ أُمروا بقراءة ما تيسر من القرآن مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة... قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾[٤].

ثم أمر الله نبيه في سورة الفرقان ـ وهي من أواسط العهد المكي ـ أن يجاهد بالقرآن الكفار، فقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾[٥]، فكان عليه السلام يشرع سهام القرآن في صدور المشركين بالصلاة به في البيت الحرام، وتلاوته في المجامع والأسواق، وإنذارهم بقصصه ومواعظه، وأحكامه ومعارفه. وكان لجزالة نظمه وفصاحة لفظه وبلاغة معناه تأثيراً بالغاً في جذب كثير منهم إلى الإسلام، وهذا التأثير عينه هو الذي حمل رؤساءهم المتكبرين على اتهام النبي ﷺ بالسحر والكهانة والشعر[٦]،

---

(١) التحرير: ١٠/٢٠/٥٧.

(٢) المزمل/١ ـ ٤.

(٣) كما قالت عائشة، على أرجح أقوال النزول: (في الظلال: ٨/٣٤٥).

(٤) المزمل من الآية: ٢٠.

(٥) الآية/٥٢ من السورة.

(٦) على ما حكاه الله عنهم في مثل آيات: المدثر/٢٤، وسبأ/٤٣، والأحقاف/٦، والطور/٣٠، والصافات/٣٦، والأنبياء/٥.

وصده بالقوة عن تلاوة القرآن[١]، والحيلولة بينه وبين جماهير الناس، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له، وباضطهاده وإيذاء من اتبعه.

وثبت النبي عليه السلام على بث الدعوة بلسان القرآن المبين، امتثالاً لأمر ربه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ . . .[٢] ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٣]. حتى إذا ضاق المشركون به وبدعوته ذرعا، أجمعوا أمرهم على قتله لولا أن خرج من موطنه مهاجراً، ثم صاروا يقاتلونه في دار هجرته وما حولها، وينصره الله عليهم، ويكيدون له مع المنافقين والكتابيين، ويكيد الله لهم إلى أن ألجأوا إلى عقد الصلح معه في الحديبية سنة ستة من الهجرة «وكان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين، وهو الذي كان سبب سماعهم للقرآن، ودخولهم بتأثيره في دين الله أفواجا»[٤].

وإذا كان ذلك تأثير التلاوة في جذب الناس إلى الإيمان؛ فمن الثابت كذلك تأثيرها في قلب تصورات الصحابة، وتبديل طباعهم، وتغيير أوضاعهم، وتزكية أنفسهم، بشكل لم يعهد له مثيل في جميع آيات الأنبياء الأولين؛ ولا جرم فإن الصحابة كانوا يعبدون الله بتلاوته في صلواتهم بجوف الليل منذ بدء نزوله، كما تقدم، وكانوا يقرؤونه ويتدبرونه في كل حال حتى مستلقين ومضطجعين[٥]، وكانوا يستمعون إلى تلاوة النبي له بجد وشوق،

---

(١) كما يدل على ذلك قوله تعالى، مُعَجِّبا من منع أبي جهل النبي عن الصلاة في البيت الحرام. والصلاة لا تخلو عن قراءة القرآن: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾: العلق/٩ ـ ١٠.

(٢) الكهف من الآية: ٢٧.

(٣) العنكبوت من الآية: ٤٥. وتلاوة الكتاب هي اتباعه، واتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها، لكن خصها سبحانه بالذكر لمزيتها، فضلاً عن كون التلاوة روح الصلاة وقوامها: (ينظر: الفتاوى: ٥/١٠/١٠٦، وفي الظلال: ٥/٣٥٤).

(٤) الوحي المحمدي/١٦٢.

(٥) كما وصفهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾: آل عمران من الآية: ١٩١.

وكان رسول الله يحثهم على مدارسته واستظهاره، ويختار لهم من يُعلمهم ما يتنزل من آياته. عن عبادة بن الصامت قال: «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يُسمَع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا»[(١)].

ولعمري إن هذه التلاوة التي كانت تضج بها جنبات المسجد الشريف، وردهات البيوت كذلك[(٢)]، هي التي عرفتهم بالله وبصفاته الحسنى، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم... وهي التي حببت إليهم محاسن الأخلاق، وكرهت إليهم مفاسد الجاهلية؛ فصاروا أحسن الناس أخلاقاً، وأصفاهم أرواحاً، وأكملهم استعداداً لتكميل العالمين...! وهي التي بينت لهم المبدأ والمعاد، وجميع الدساتير النافعة للحياة الدنيوية والأخروية؛ فعرفوا أن منه المبدأ وإليه المنتهى سبحانه، وتبينوا سبيل سعادة الدارين، ومن ثم انتصبوا لإعلاء كلمة الله، وتنفيذ شرائع القرآن بقوة السلطان، ونشر حقائقه وكمالاته الثابتة بين الناس، حتى تبوؤوا سدة الخلافة في الأرض، وحازوا مرتبة الشهادة على الناس.

فما أحوج هذه الأمة التي هجرت القرآن في هذا الزمان الذي استدار كهيئته يوم نزل هذا القرآن، لينشئ الإسلام في الأرض إنشاء؛ أن تتلو القرآن، كما أمر الله، وتلاه رسول الله، ومن اتبعه بإحسان...، أن تتلوه ـ أفراداً وجماعات ـ التلاوة التي تزلزل الأرواح وتقلب القلوب وتجاهد النفوس، لا التلاوة التي تشنف الأسماع وتطرب الرؤوس...؛ التلاوة التي تفتح البصائر للاهتداء إلى التي هي أقوم... إلى احتمال كل فرد، وكل قطر، قد أخذ من حقائقه لتكاليف إنشاء الإسلام من جديد، في وجه طاغوت الغرب الذي يغمر بالشر الأرض.

---

(١) مناهل العرفان: ٢٤١/١.

(٢) يشهد لذلك ما ورد في صفة الصحابة: «أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلا يسمع منها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن»: (ينظر: الوحي المحمدي/١٦٢. وكذلك مباحث في علوم القرآن لمناع القطان/١٢٠).

فهل من سبيل إلى تلاوة للقرآن، تحفز همم الرجال لهذا الأمر العظيم؟

٢. ٢. ٦ ـ الدعاء

أمر الله بدعائه وحده، بمناسبة تقرير ما أمر الله به من الاستقامة في عبادته، ردا على مزاعم المشركين في شؤون التشريع للعبادة والطواف، بتعبير آية الأعراف/٢٩ المتقدمة: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾... والدعاء المأمور به في هذه الآية فُسر بمعنى العبادة[١]. وأساس العبادة ـ كما تقدم ـ هو الخضوع لأمر الله دون سواه، والقصد من الأمر بها في هذا السياق هو إبطال الشرك في عبادة الله باتباع ما لم يأذن به الله من الحلال والحرام، وبدعاء غيره من الأولياء والشفعاء لأجل التقرب إليه، كما كان حال المشركين[٢]. وفي إبطال هذا الشرك تحقيق لمعنى القسط المأمور به في قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾... وأعظم القسط قول لا إله إلا الله، كما بين آنفاً، وبحسب تحقيق العبد الإخلاص في قول لا إله إلا الله، يخلص توجه قلبه إلى الله، ويخلص دعاؤه ربه، وتكمل طاعته له. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، وقال: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. وهذا يناظر قوله سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٣].

ولا ريب أن الدعاء عبادة، بل هو روح العبادة ومخها[٤]؛ ذلك بأن الداعي في طلبه لجلب النفع ودفع الضر بامتثال الأمر عابد، وفي توسله لقضاء المطالب بلسان الفقر عابد؛ فإن أساس العبودية الفقر، ولم يُبعث

---

(١) ينظر: التحرير: ٥/٩/٨٨ ـ طبع سحنون ـ.

(٢) ومما يدل على ذلك قوله تعالى في نفس الآية، مبينا علة ضلالهم وشركهم: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

(٣) البينة من الآية: ٥.

(٤) الوحي المحمدي/١٧١.

مخلوق إلى الحياة أفقر ولا أعجز من الإنسان. لذا كانت وظيفته الفطرية الأساس «**الدعاء**». ولا يستحق الدعاء ـ سواء كان دعاء عبادة أو دعاء مسألة ـ إلا الخالق المنعم جل وعلا، القادر على تلبية جميع آمال العبد، وكشف جميع أضراره. أما من دون الله، فلا يستحقون أن يُدعون، لأنهم مخلوقون، لا ينفعون، ولا يضرون!

ومن هنا، أمر سبحانه بدعائه وحده ونهى عن دعاء غيره مطلقا في كثير من الآيات، أمثال قوله: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1]، وقوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾[2] وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾[3]، وقوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4]، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾[5]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[6].

ومما تقدم، نفهم:

أن العبادات التي أمر الله بها العباد، شأن كل التكاليف لا تُجدي ظواهرها وأشكالها ما لم تقم على تخلية النفس من أدران الهوى، وتزكية القلب بالرقابة والتقوى، والتحليق بالروح إلى الملأ الأعلى؛ للوصول إلى مقام مكارم الأخلاق، التي تعلي شأن الإنسان، وتصون حياته، وتعقد صلاته، وترشحه للفوز برضوان ربه والنعيم في آخرته...

---

(١) غافر من الآية: ١٤.
(٢) الأعراف/٥٥.
(٣) الإسراء من الآية: ١١٠.
(٤) غافر من الآية: ٦٠.
(٥) غافر من الآية: ٦٦.
(٦) القصص من الآية: ٨٨.

٢. ٣ ـ مجال الأخلاق

تمهيد

لا جرم أن مكارم الأخلاق تربي النفس، وتطهر القلب، وتعقد بالله الصلة، وتنسج بين الناس المودة، وتؤهل لنيل السعادة في الدنيا والأخرى. ومن هنا، كانت عناية الإسلام بها عناية فائقة ولا سيما في القرآن ـ كتاب الإسلام ـ، حيث جعلها الركن الأساس في بناء صرح دعوته، وتقويم نفوس أتباعه؛ فنظمها مع الإيمان وأركان الإسلام في سلك، كما سيتبين، إعلانا لقيمتها في ميزان الله. . .، وجعلها الرسول محمد عليه السلام ثمرة رسالته: **«إنما بُعثت لأتمم صَالح الأخلاَق»**(١).

وقد اشتملت أوامر القرآن ونواهيه في مختلف أدوار التنزيل على الدعوة الملحة إلى التحلي بمكارم الأخلاق والتخلي عن مذامها، وسلكت مسلك التدرج وفق مراحل الدعوة وأحوال المخاطبين، واقترنت بالوعد بالثواب لمن أطاع والوعيد بالعقاب لمن عصا، على مألوف القرآن في المزج بين الأحكام ومعاني الترغيب والترهيب؛ لتحريض المكلفين على الامتثال.

فهذه مثلاً، **«سورة القلم»** ـ من أوائل العهد المكي ـ تأمر النبي الكريم بالصبر على تكاليف الدعوة وأذى التكذيب: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾(٢)، وهذه سورة المدثر، تنزل عليه بعد، تأمره مع الإنذار والتبليغ بهجران رجز الشرك وسفساف الأخلاق، وتنهاه عن المن بما يبذله من الجهد أو استكثاره، وتثبته بالتوجيه إلى الصبر مرة أخرى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝﴾(٣)، وهذه **«سورة الأعراف»** ـ وهي من أواسط هذا العهد ـ

(١) مسند الإمام أحمد: ١٥٤/٣، من طريق ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً. قال الألباني: «وهذا إسناد حسن»: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٧٥/١، رقم (٤٥).

(٢) القلم من الآية: ٤٨.

(٣) المدثر/٥ ـ ٧.

توجهه عليه السلام إلى المسلك الحكيم في مواجهة أذى الجاهلين: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[(١)].

ثم هذه سورة «**فُصلت**» ترتقي بشخصه الكريم تربويا من مقام توجيهه للإعراض عن الجاهلين والصبر على السيئة، إلى مقام دفع السيئة بالتي هي أحسن: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[(٢)].

وفي سورة «**الإسراء**» تنهمر الأوامر والتكاليف في مقطعها الثاني، داعية الناس إلى التمسك بأصول الأخلاق والآداب الإجتماعية والمالية والتجارية، وطرح أضدادها...، وتربط ذلك بعروة التوحيد الوثقى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾...[(٣)].

---

(١) الآية/١٩٩ من السورة.
(٢) الآية/٣٤ من السورة.
(٣) الآيات/٢٣ ـ ٣٥.

وعلى وزان هذه الآيات، توصي سورة «**الأنعام**» الناس في سياق تقرير الحاكمية لله بمحاسن الخلال وتزجرهم عن مفاسدها، وتصل ذلك بالوصية الأولى؛ عبادة الله وحده: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾... إلى قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وتأمر سورة «**لقمان**»، ضمن وصايا حكيم لابنه، بأمهات الفضائل الخلقية، الفردية والاجتماعية، وتقرنها بالنهي عن الإشراك، والأمر بالصلاة: ...﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾... إلى قوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾...[2].

وهكذا توالت الأوامر والنواهي في سور العهد المكي، متعلقة بأصول الإيمان وأمهات المكارم، وتكاليف التبليغ، على وجه التفصيل، حتى إذا مُكن لدين الله في المدينة، واكتملت أركان الإسلام، وفصلت شرائعه؛ استمرت تلكم الأوامر والنواهي تحث على الفضائل وتنهى عن الرذائل مشكلة لحمة الدين وحماه، متعهدة بالتربية والتأديب أتباعه المؤمنين، ومناوئيه من اليهوذ والمنافقين...

ومن هنا، أمر الله بني إسرائيل في أول سورة مدنية بالإحسان والقول

---

(١) الآيات/١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) الآيات/١٣ ـ ١٩ من السورة.

الحسن، وقرنهما بقاعدة الإيمان وأركان الإسلام، على نحو ما تقدم، وجعل ذلك مقتضى الوفاء بالميثاق المأخوذ عليهم على عهد موسى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾...[1].

وأمر الله المؤمنين في سورة «النساء» بتقوية آصرة تكافلهم وتراحمهم، فقال لهم بعد الأمر بعبادة الله وحده: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾[2]، وأمرهم بحسن معاشرة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾...[3].

ثم أمرهم في سورة «النور» بالآداب النفسية الزكية، التي تفشي المودة، وتسد منافذ الفتنة والغواية؛ كآداب الاستئذان والسلام والاحتشام، فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾...[4]، وقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[5]، وأمر نبيه عليه السلام أن يقول لهم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾...[6]، وأمر تعالى بالعفة الذين لا يجدون قدرة على النكاح: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾...[7].

---

(١) الآية/٨٣ من السورة.
(٢) الآية/٣٦ من السورة.
(٣) الآية/١٩ من السورة.
(٤) الآية/٥٨ من السورة، وينظر معها التي بعدها.
(٥) الآية/٢٧ من السورة، وينظر في الحث على إفشاء السلام والتحية آية النساء/٨٦.
(٦) الآيتان/ ٣٠ ـ ٣١ من السورة.
(٧) الآية/٣٣ من السورة.

ثم أمر الله المؤمنين في سورة «**الحجرات**» بإصلاح ذات بينهم إذا شب نزاع بينهم أو قتال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾[(١)].

وإذ خَلُصَ لله إيمانهم، واكتمل عقد أخوتهم، وشارفت على الكمال أخلاقهم؛ أمرهم باجتناب كل ما يخدش كرامتهم، ويسبب فرقتهم؛ من السخرية والاستهزاء والتجسس والغيبة وظن السوء، وختم ذلك بالتهديد لمن عصى، والترغيب في التوبة لمن اتقى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[(٢)].

ثم أمرهم في سورة «**التوبة**» بالصدق في الأقوال والأحوال، وجعله أمارة المؤمنين، كما جعل الكذب أمارة المنافقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[(٣)]. وقبل هذا، أمرهم مع التقوى بالتزام السداد في القول؛ لينالوا الصلاح في الأعمال والمغفرة والرضوان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[(٤)].

ذلكم كان غيضاً من فيض آيات الأمر بمعالي الأخلاق، والنهي عن سفسافها. ولعله أن يبين لنا كيف عالج القرآن النفوس شيئاً فشيئاً؛ فاقتلع منها عقائد الأوثان ورذائل الأخلاق من الظلم، والكذب، وإخلاف الوعد،

---

(١) الآيتان/٩ ـ ١٠ من السورة.

(٢) الآيتان/١١ ـ ١٢ من نفس السورة.

(٣) الآية/١١٩ من السورة.

(٤) الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١.

والبغي، والخيلاء، والفخر، والغيبة، والنميمة، والتجسس، وسوء الظن...؛ وغرس فيها عقائد الإسلام ومكارم الأخلاق من البر بالوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والعدل، والصدق، والعفاف، والوفاء...، وجعل ذلك مظهراً لازماً لصحة العقيدة وحسن العبادة، وأساساً راسخاً يقوم عليه بناء الفرد ونماء فطرته، وتوثيق روابط المودة بين إخوته...

وقد كان رسول الله أكمل مثال لما أمر به القرآن من محاسن الأخلاق؛ ولا جرم فإنه خُلق بأشرف الطباع، وصيغ من أزكى المعادن، فكان تجلياً باهراً للوصف الصائب في تعبير عائشة ـ رضي الله عنها ـ: **«فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»**[1]. ومن ثم كان نموذج اقتداء للمؤمنين من أمته، بما كان يدعو إليه بأقواله وأفعاله وأحواله؛ من طيب الشمائل وعريق الخلال. ومن شواهد ذلك ما رواه أبو سفيان في أول الإسلام في صفته ﷺ: «قال ـ أي هرقل ـ ماذا يأمركم؟ قلت ـ أي: أبو سفيان ـ يقول: **«اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم»** ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة...»[2]، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «أمرنا النبي بسبع ونَهانا عن سَبع؛ أمرَنا بعيادة المريض، واتِّباع الجنازة، وتَشميت العَاطس، وإبرار القَسم، ونَصر المَظلوم، وإفشاء السلام، وإجابة الدَّاعي، ونَهانا عن خَواتيم الذهب، وعن آنِية الفضَّة، وعن المَياثر والقِسِّية، والإستَبرق والدِّيباج...»[3]، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: **«لا تَقاطعوا، ولا تدابَروا، ولا تباغَضوا، ولا تحاسَدوا، وكونوا إخوَاناً كما أمَرَكم الله»**[4].

ومهما استقرأت مفردات الأخلاق، التي أمر بها القرآن أو الرسول عليه

(١) مسلم في صلاة المسافرين (١٣٩/٧٤٦).

(٢) البخاري في بدء الوحي (٧).

(٣) البخاري في النكاح (٥١٧٥).

(٤) مسلم في البر والصلة، برقم: ٢٥٦٣.

السلام، فلن أبلغ في استقرائها الكمال. وأنّى لي ذلك، والأخلاق من صميم الرسالة، ولها بتكاليف الدين ارتباطات. ولو باعتبار من الاعتبارات، سواء على مستوى الحياة الفردية والاجتماعية، أو على مستوى الحياة الفكرية والعملية. . .[(١)]!

ومن هنا، أجتزئ من هذه الفضائل الخلقية أصولها الواردة في نصوص القضية، كي أدير الكلام حولها، بما يحتمله المقام من التفصيل، وهي: الاستقامة، وأداء الأمانة، والعدل، والإحسان، وصلة الأرحام. وهناك فضائل ربانية لها صلة بالعقيدة، تحدثت عنها في موضعها الملائم؛ كإخلاص الدين لله[(٢)] الصبر لحكمه[(٣)] والتوكل عليه[(٤)] وهناك أيضاً فضائل اجتماعية سيأتي بيانها بتفصيل عند الحديث عن قضية الأمر الإنساني، وهي الصبر على أذى الغير، والعفو عنه، وإصلاحه بالأمر والنهي. . .

فلتكن هذه الفضائل ضمائم إلى إخوتها في إيضاح دعوة القرآن إلى مكارم الأخلاق.

٢. ٣. ١ ـ الاستقامة

تعلق أمر الله بالاستقامة، في آيتي:

هود/١١٢: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾.

الشورى/١٥: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

(١) انظر بيان ذلك في الأخلاق الإسلامية: ١/٢٨ ـ ٣٢.
(٢) ضمن دراسة علاقة الأمر والدين: ص ٤٩٨.
(٣) ضمن الكلام عن صفات الآمر والناهي في الفصل الثالث.
(٤) ينظر ص ٥٣٠.

ففي آية هود، وُجه الأمر بالاستقامة إلى النبي عليه السلام ابتداء «تنويها بمقام رسالته»[١]، وإلى من تاب معه إعلاما بخطاب أمته بذلك[٢]. ولرهبة هذا الأمر وقوته، قال ابن عباس: «ما نزل على رسول الله آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه. ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب «**شيبتني هود وأخواتها**»، وسئل عما في هود فقال: قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[٣]؛ ولا جرم فإن المراد بالاستقامة المأمور بها هنا: الاعتدال والثبات على تعاليم الإسلام، دون انحراف إلى التقصير والإهمال، أو الانحياز إلى الغلو والطغيان[٤]. وهذا المعنى يؤيده، بل يقتضيه واقع الفترة المكية التي أُنزلت فيها الآية؛ حيث اشتدت وطأة الكفار على النبي عليه السلام والقلة المؤمنة معه، وتسللت الوحشة إلى بعض القلوب، بل وحتى القلوب الثابتة، واحتاجت في وحشتها إلى التسرية والتثبيت بمثل قصص الرسل وأقوامهم التي عُرضت سابقا[٥]، وبمثل التفريع على تلك القصص، الذي سيق قبل الآية، وتضمن نهي النبي عليه السلام عن الشك في فساد الشرك وبطلانه، وإخباره بمصير المشركين وحكمة الله في إمهالهم وإمهال الذين أوتوا الكتاب من قوم موسى، فاختلفوا فيه وزاغوا عن الصراط المستقيم[٦]؛ فلا غرو أن يؤمر النبي ومن تاب معه إلى الإيمان بالاستقامة على دين الله الواحد، وعدم الانحراف عن أوامره قيد شبر؛ لأن الانحراف عنه من دواعي الاختلاف.

وفي نسق مشابه لهذه الآية، أمر الله نبيه في آية الشورى أن يدعو إلى

---

(١) ينظر: التحرير: ١٧٦/١٢/٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الجامع للأحكام: ١٠٧/٩ والتحرير: ١٧٦/١٢/٦ ـ طبع سحنون ـ.

(٤) كما هو مفهوم من التحرير: ١٧٥/١٢/٦، وتفسير المنار: ١٦٦/١٢، وفي الظلال: ٦٣٠/٤.

(٥) انظر تجليات الأمر الكوني في مجال القضاء.

(٦) ويستفاد ذلك من قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾: هود/١٠٩ ـ ١١٠.

الدين الذي شرعه للأنبياء قبله ووصاهم به، قبل الاختلاف فيه الذي ابتُدع مِن بعدهم[١]، وأن يستقيم عليه كما أمره الله؛ أي: يقوم قلبه، ويثبته على التقوى ومكارم الأخلاق، ولا يزيغه ويتبع الأهواء المصطرعة حوله، وحول دعوته الواضحة المستقيمة[٢]، التي أمره الله باتباعها، كما قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾[٣]. وفي الأمر بالاستقامة إشارة «**إلى أن كمال الدعوة إلى الحق لا يحصل إلا إذا كان الداعي مستقيماً في نفسه**»[٤]. ومن مقتضى هذه الاستقامة أن يعدل عليه السلام بين أهل الكتاب فيما يتعلق بالدعوة إلى الدين، والحكم فيما شجر بين المتخاصمين، كما أمره الله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾....

ومن تفسير الاستقامة في الآيتين، نستفيد:

* أن الاستقامة المأمور بها توحي بالثبات والاستقرار. ولا شك أن الثبات من الأخلاق والخصائص التربوية الأصيلة في هذا الدين[٥]، التي تضع الداعي إلى الله على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

* أن الاستقامة، في دلالتها على الثبات والاعتدال، توحي بالدين القيم؛ أي: المستقيم، المتناسق مع فطرة البشر، كما أوضحناه في هذا

---

(١) كما نطقت بذلك الآيات المتقدمة على الآية: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾... ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾: الشورى/١٣ - ١٤.

(٢) انظر هذا المعنى في: التحرير: ٢٥/٦٠، ومكارم الأخلاق/٦٩، وفي الظلال: ٧/٢٧٧.

(٣) الجاثية/١٨.

(٤) التحرير: ٢٥/٦١. وسيأتي بيان ذلك ضمن الحديث عن صفات الآمر والناهي في الفصل الثالث.

(٥) يدل لذلك كثير من آيات القرآن، أمثال قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: إبراهيم/٢٧، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾: الأنفال/٤٥.

البحث. وهذا يفيد أن الاستقامة هي نهج الفطرة البشرية الأصيل، الذي ينأى بالبشرية عن الفساد والاختلال. ولنا في سيرة المصطفى عليه السلام أكمل مثال، وقد سارت حركاته وأقواله وأفعاله عليه السلام على وفق الاستقامة والاعتدال، مبرأة عما يفسدها من تفريط وإفراط، وذلك كله بفضل امتثاله الكامل لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

* أن الاستقامة على أمر الله توحي للمسلم بأن يفرز دائماً نفسه بالمحاسبة، ويزن أقواله وأفعاله بالقسطاط المستقيم[(١)]، وهو هدف تربوي عظيم يرنو إلى إلباس الإنسان لباس التقوى، وهو أسمى خصلة وأصفى عبودية.

* أن الاستقامة بدلالتها على عدم الانحراف ذات اليمين وذات الشمال تلهم أمرين:

أولهما: التوسط في الأمور، وترك الإفراط والتفريط فيها. وقد عرف الحكماء «**الفضيلة بأنها «وسط»** بين رذيلتين متطرفتين. فالشجاعة مثلاً وسط بين التهور والجبن»[(٢)]، والعفة وسط بين الخمود والفجور... وهلم جرا، وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[(٣)]. ولعل هذه الوسطية تظهر بجلاء في أحوال وأفعال رسول هذه الأمة، جامع مكارم الأخلاق؛ إذ أن قواه العقلية مثلاً سارت دائماً ضمن الحكمة التي هي محور الاستقامة والحد الوسط، منزهة عما يفسدها من إفراط وتفريط، أي: الغباء والخب، وأحواله الفطرية من كلام وأكل وشراب... اتخذت الاقتصاد لها دليلاً على التوسط والاعتدال، وتجنبت ما يفسدها من التبذير والإسراف...

---

(١) وهذا الإيحاء يتناسب مع جو الرقابة الإلهية على أعمال العباد، الذي يشعر به ذيل آية هود: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٢) نظرات جديدة في القرآن المعجز/٥١.

(٣) البقرة من الآية: ١٤٣.

وهكذا سائر سننه السامية، وعاداته الشريفة، وأحكام شريعته المطهرة، سارت على حد الوسطية والاستقامة، فنورت طريق المعتصمين بها، وارتقت بهم إلى أعلى المقامات.

ثانيهما: الالتزام بالحق والعدل، ولنا فيما سندرسه من آيات الأمر بالعدل النموذج الأوفى والأجمع.

٢. ٣. ٢ ـ أداء الأمانة[١]

أمر الله بأدائها في آية النساء المدنية: ٥٨ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

إن الأمانات التي يجب تأديتها إلى مستحقيها هنا، تعم جميع الحقوق المتعلقة بذمم الناس، سواء أكانت حقوقاً لله، أو حقوقاً لخلقه، وسواء أكانت حقوقاً اعتقادية أو قولية أو عملية[٢]؛ فهي تمتد بدلالة صيغة الجمع المعرف بأل على العموم، لتشمل نوعين:

أولهما: **أمانة العبد مع خالقه**، وهي ما عُهد إليه حفظه من الائتمار بما أمره به، والانتهاء عما نهاه عنه؛ بناء على ما ركبه الله في فطرته من أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله[٣]. ويدل لهذا المعنى ما ذكره الله في

---

(١) وهي مندرجة أيضا في مجال المعاملات، ولا سيما حفظ الودائع، والولاية على الناس كما هو شائع...؛ وإنما أدرجتها في هذا المجال بوصفها روح المعاملة التي تنبني عليها حسن الصلات بين الأفراد والجماعات، فضلاً عن اتساع دلالتها في استعمال القرآن الكريم، مما يؤهلها لأن تكون أساساً خُلُقياً تقوم عليه المحافظة على حقوق الله وحقوق العباد، كما سيتبين.

(٢) وهذا العموم اختارته طائفة كبيرة من المفسرين: (انظر: تفسير مفاتيح الغيب: ١٤٤/١٠/٥، والبحر المحيط: ٦٨٤/٣، وتفسير ابن كثير: ٤٨٨/١، وفتح البيان: ١٥٢/٣، وفي الظلال: ٤١٣/٢ ـ ٤١٤، وتفسير المراغي: ٢٤٢/٢...).

(٣) وهذه الأمانة هي التي أُمر برعايتها، بمضمون آية المعارج: ٣٢ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾. ونهى عن خيانتها، بصريح آية الأنفال: ٢٧ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا=

الآية السابقة[١] من عظيم الثواب للذين آمنوا وعملوا الصالحات. ولا شك أن أعظم الإيمان وأنفع الأعمال؛ أداء الأمانات.

وثانيهما: أمانة العبد مع الناس ـ أفرادا وجماعات ـ، ويندرج في ذلك أمانات؛ منها: تبليغ العلم وقول الحق، ذلك بأن «الذي يتعلم العلم قد أُودع أمانة، وأُخذ عليه العهد بالتعامل والعرف بأن يؤدي هذه الأمانة، ويفيد الناس ويرشدهم بهذا العلم»[٢]. ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٣]. وقد ذكر الله تعالى في الآيات المتقدمة[٤] أحوال أحبارهم في خيانتهم لأمانة الدين والعلم والحق، وذلك بتحريفهم الكلم عن مواضعه، وافترائهم على الله الكذب، وحسدهم الرسول والمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. . . ، فناسب هنا أن تندرج هذه الأمانة المعنوية ضمن عموم **«الأمانات»**. ومنها: إيصال أمانة العواري والودائع المادية. وهذا المعنى مفهوم من خبر النزول، كما عرفناه بمناسبة الكلام على علاقة الأمر والوعظ من خلال الآية[٥]. ومن هذا الصنف: رد الرهائن الضامنة للدين إلى أصحابها، كما أمر الله في آية الدين: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾[٦]. ومنها: أمانة قيام الأمراء على ضبط أمور المسلمين، وحسن إدارتها، وصيانة حقوقهم، وإقامة العدل بينهم. ويدل على ذلك ما رواه طائفة من المفسرين

= تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾. وهي التي تصدى الإنسان لحملها، وأشفقت منها السماوات والأرض والجبال، بصريح آية الأحزاب/٧٢ التي مضى عليها الكلام.

(١) وهي الآية: ٥٧ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

(٢) تفسير المنار: ٥/١٧٠.

(٣) آل عمران من الآية: ١٨٧.

(٤) من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾: ٤٨ ـ ٥٤.

(٥) ينظر: ص١٦٣ في هذا البحث.

(٦) الآية/٢٨٣ من سورة البقرة.

واختاره الطبري: أن الآية نزلت في الأمراء أن يؤدوا الأمانة فيما ائتمنهم الله من أمر رعيته[١]. ويشهد لهذا الوجه ما أمر الله به من الحكم بين الرعية بالحق في قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[٢]. وليس ذلك إلا للولاة والقضاة في البلاد، كما يشهد له أيضاً ما وعظ الله به الرعية من طاعة أولي الأمر، في الآية التالية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

ومن أعظم الأمانات التي أودعها الله الولاة، أن لا يولوا الأمور إلا خيار الناس الأكفياء لها، والأمناء عليها. وقد أنبأت البصيرة النبوية، على صاحبها الصلاة والسلام، بأن من مظاهر الفساد الذي سيقع في آخر الزمان، إسناد الولاة مصالح العباد إلى غير أهلها لهوى ومحاباة؛ حيث قال: «**إذا وُسد الأمرُ إلى غيرِ أهلِه فانتظِر الساعة**»[٣].

ومن فروع الأمانات الداخلة في ثنايا ما سبق: أمانة الأقربين، ومنها: أمانة القيام على تنشئة الأطفال، وأمانة الزوجية؛ ومنها: «أن لا يفشي أحد الزوجين سر الآخر، ولا سيما السر الذي يختص بهما، ولا يطلع عليه عادة سواهما»[٤] أمانة المجالس التي يؤتمن المشتركون فيها على الأسرار والأحاديث[٥]، وسائر ما يُحفظ ويُؤدى من الأمانات في جميع مجالات الحياة.

---

(١) وحكاه أبو حيان في البحر: ٣/٦٨٣ ـ ٦٨٤، عن ابن عباس، وزيد بن أسلم، ومكحول، وأبو سلمان الدمشقي. ورواه الطبري، عن ابن زيد في الجامع: ٤/٥/١٤٥.

(٢) وسر تأخير الأمر بالعدل عن الأمر بأداء الأمانات، يلفت إليه رشيد رضا في قوله: «... لأن العدل في الأحكام يُحتاج إليه عند الخيانة في الأمانات التي تتعلق بحقوق الناس والتخاصم إلى الحاكم. والأصل أن يكون الناس أمناء، يقومون بأداء الأمانات بوازع الفطرة والدين، والخيانة خلاف الأصل، ومن شأنها أنها لا تقع في الأمة المتدينة إلا شذوذاً، وقلما يُحتاج إلى العدل في الحكم إذا راعى الناس أماناتهم وأدوها إلى أهلها»: (تفسير المنار: ٥/١٧٦ ـ ١٧٧).

(٣) البخاري في العلم (٥٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) المنار: ٥/١٧٦، وتفسير المراغي: ٢/٢٤٢.

(٥) راجع الأخلاق الإسلامية: ١/٦٦٣.

وانسجاما مع ما تقدم، يتبين أن الأمانة هي المرتكز الخلقي المكين الذي تنبني عليه صلة الإنسان بربه وصلته بالناس، والمعتصم الأصيل الذي تصان به الحقوق والمصالح، وتحفظ به المودات والأواصر؛ ولا غرو فهي نابعة من شعور الإنسان الصادق بمسؤوليته أمام ربه في كل أمر يوكل إليه، ويُستحفظ عليه، على النحو الذي أجملته الآية الكريمة، وفصله الحديث الشريف بقوله عليه السلام: **«كلكم راع، وكلكُم مَسؤول عن رَعيته، الإمامُ راع ومَسؤول عن رعيته، والرجلُ راع في أهلِه وهو مسؤول عن رعِيته، والمَرأة راعِية في بَيت زوجِها ومسؤولة عن رعيتها، والخادِم راع في مال سيِّده ومسؤُول عن رعِيته»**[١].

أجل، إن الأمانة التي تدعو إلى رعاية الحقوق في كل مجالات الحياة، لا تكون بهذه المكانة والمثابة إلا إذا نزلت في شعاب القلوب، وغذت عواطفها وانفعالاتها. وذلك معنى حديث حذيفة بن اليمان، عن رسول الله ﷺ: **«إن الأمانَة نزلت في جَذْر قلوب الرجال، ثم علِموا من القرآن، ثم علِموا من السنة»**[٢].

لقد أودع الإنسان مع إيمانه ومعنويات إنسانيته خلة الأمانة، ثم نزلت أوامر الله وشرائعه في القرآن، وتناولتها السنة بالبيان، فكانت تنمية لهذه الخلة وسواها، تثبت أصولها، وتغذي فروعها، وذلك بتأكيد الأمر بأدائها ورعايتها، وتشنيع الخيانة والوعيد عليها. وما أشد وقع حكم الرسول ﷺ على من خان الأمانة؛ حيث قال: **«لا إيمَان لمَن لا أمانة له ولا دِين لمَن لا عهدَ له»**[٣].

---

(١) البخاري، في الجمعة (٨٩٣) ومسلم في الإمارة (١٨٢٩/٢٠)، كلاهما عن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما).

(٢) البخاري في الرقاق (٦٤٩٧).

(٣) مسند الإمام أحمد: ١٥٤/٣، عن أنس رضي الله عنه. والحديث رمز له السيوطي في جامعه بالصحة: (ينظر: المنار: ١٧٧/٥).

٢. ٣. ٣ ـ العدل(١)

لما كان العدل شعار الإيمان، وأساس الأحكام، وميزان التصورات والأقوال والأعمال؛ أمر الله به في السور المكية والمدنية أمراً صريحاً، وعظم شأنه، ووعد فاعله بنيل ثوابه، وأنذر تاركه بتوفية حسابه. قال تعالى في سورة الأعراف، آمراً النبي أن يعلن على رؤوس المشركين أن ربه قد أمر بالقسط، ردا على دعواهم في أن الله أمرهم بفاحشة التعري في الطواف: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾...(٢) والقسط: العدل والاستقامة في كل أمر، كما بُين سابقاً، وأعظمه في هذا السياق المكي: عبادة الله وحده لا شريك له، عبادة لا تجنح بالإنسان بالتفريط والإفراط إلى الظلم والفساد.

وقال في سورة الشورى، آمراً النبي أن يبلغه بعد إعلان الإيمان بما أنزل الله من كتاب: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾(٣)؛ أي: أسوي بين أكابركم وأصاغركم، فيما يتعلق بحكم الله(٤) أو في إيصال ما أمرت به إليكم، لا أخص شخصا بشيء دون شخص(٥).

ولعل هذا التأديب الرباني للنبي الكريم بخلق العدل في الأحكام والتبليغ، في وقت لم ينزل فيه التشريع بعد، والدعوة في مكة محصورة بين شعابها، مضطهدة هي وأصحابها؛ أن يؤكد لنا أن العدل أصل أخلاقي ثابت عام، وليس مجرد تشريع قانوني متغير. ومما يؤكد هذه الحقيقة بوضوح قوله تعالى في سورة النحل، وفي «**أجمع آية في القرآن لخير وشر**»(٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) وإنما أوردته هنا، وإن غلب استعماله في مجال المعاملات، لا سيما المعاملات القضائية والمالية؛ لأن العدل قاعدة من قواعد مراعاة الفضائل، سواء كانت أحكاماً اعتقادية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو مالية.

(٢) الآية/٢٩ من السورة.

(٣) الآية/١٥ من السورة.

(٤) مفاتيح الغيب: ١٥٩/٢٧/١٤، عن القفال، وكذلك الكشاف: ٦٤٦/٣.

(٥) البحر المحيط: ٣٣٠/٩.

(٦) اقتباس من كلام عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (مفاتيح الغيب: ١٠٤/٢٠/١٠).

يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[(١)]. فهذه الآية المبينة لبعض ما في الكتاب من التبيان، والهدى، والرحمة، والبشرى، كما أخبرت بذلك الآية التي قبلها، توجه الخلق إلى فعل مكارم الأخلاق وترك مذامها، وتسوقهم بالوعظ والتذكير إلى الامتثال. وأول هذه المكارم: العدل، وهو الإنصاف[(٢)] وجاء هنا على العموم في كل أمر، وعلى كل حال؛ فلا يختص بالواجب، كما قال الزمخشري[(٣)]، أو بشهادة لا إلٰه إلا الله، كما رُوي عن ابن عباس، أو باستواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا، كما نُقل عن سفيان بن عيينة[(٤)]، وذلك لأن عموم اللفظ يطلق مفهوم العدل، ويتناسب هذا العموم مع أسلوب القرآن المكي، الذي تنتسب إليه هذه الآية، ومع أحوال المسلمين في مكة؛ إذ كان يكفيهم الإجمال في مرحلة الدخول في السلام. أما بيان الجزئيات؛ فكان يُطوَى الكثير منها في هذا الإجمال إلى حين إماطة النقاب عنها في بيان القرآن المدني، وبيان الرسول عليه السلام.

وإذا تبين أن لفظ العدل مجمل جامع، وجب بيان تفاصيله ومراتبه، بما يحتمله المقام. ومردها عند التأمل إلى عدل الإنسان في نفسه، وفي معاملة خالقه، ومعاملة المخلوقات؛ فأقصى العدل، أن يقيم المسلم القسط في نفسه؛ فيؤدي حق الربوبية لخالقه بالإقرار بنعمه وردها إليه، ثم شكره عليها. وهذا هو الدخول في الإيمان والعمل بشرائعه، والخروج عن الكفر واطراح توابعه[(٥)]. ولعل هذه الحقيقة الضخمة هي التي التفت إليها ابن عباس حين وَجَّه «**العدل**» إلى معنى: «**شهادة أن لا إلٰه إلا الله**»، وهو وجه

---

(١) الآية/٩٠ من السورة.

(٢) جامع البيان: ١٦٣/١٤/٨، وأضواء البيان: ٣١٧/٣.

(٣) الكشاف: ٤٢٤/٢، وكذلك البحر: ٥٨٦/٦.

(٤) جامع البيان: ١٦٣/١٤/٨، وتفسير ابن كثير: ٥٦٣/٢، وأضواء البيان: ٣١٨/٣.

(٥) تراجع هذه المرتبة في: الموافقات: ١٤٢/٣، وجامع البيان: ١٦٢/١٤/٨، ولطائف الإشارات: ٥٢٩/١.

يتساوق مع دعوة القرآن المكي الناس إلى الدخول في الإيمان، والخروج عن الشرك بوصفه أنكر الظلم.

ومن العدل في معاملة الخلق: العدل في الكيل والقول؛ ومن الآيات الآمرة به قوله في سورة الأنعام المكية ـ وقد نزلت قبل النحل بمدة ـ : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[1]. فهذه الآية أمرت بالقسط في الكيل والميزان، دون وكس ولا نقص، وبالعدل في القول، ولو كان يدين بالحق ذا قربى. ونظير هذه الآية ما جاء قبلها في سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾[2]. فهذه الآية تضمنت توجيها خاصا إلى ضرورة ضبط المكاييل، وفقا لأعدل الموازين، وذلك معنى «القسطاط المستقيم».

ومن ذلك العدل أيضاً، ما جاء في أول سورة مدنية من الأمر بالعدل في كتابة عقود المداينات ونحوها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾. ولم تقتصر الآية على تكليف الكاتب أن يكتب بالعدل، بل كلفت الذي عليه الحق أن يملي أقواله على الكاتب، دون أن يبخس من الحق الذي عليه شيئاً: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾؛ فإن كان غير أهل لأن يملي فوليه هو الذي يملي عنه، وعلى الولي في إملائه أن يلتزم بفضيلة العدل أيضاً: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾[3].

ومن العدل بين الناس، العدل في القضاء والشهادة ـ وهي إحدى طرق القضاء ـ ، ومنه ما ورد في آية النساء المتقدمة: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾. والحكم بين الناس بالعدل الذي أمر به الولاة

---

(١) الآية/١٥٢ من السورة.

(٢) الآية/٣٥ من السورة.

(٣) الآية/٢٨٢ من السورة.

والقضاة[١] هو تحري المساواة بين الخصمين في مجلس القضاء، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإقامة الحدود والجزاءات والقصاص، بالقدر الذي يكافئ ذنب المذنب، ويكافئ حق الله على عباده، أو حق الناس على الناس[٢].

وبعد هذا، جاءت الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾[٣]. فالله تعالى أمر المؤمنين بأن يكون العدل خلقاً ثابتاً من أخلاقهم، بدلالة صيغة «**قوام**» على المبالغة في القيام بالعدل في كل الأحوال، وعدم التهاون والتقصير فيه، وبأن تكون شهادتهم في المحاكمات وغيرها لله عز وجل، لا لهوى، ولا لمصلحة أحد، ولو كانت على أنفسهم، أو والديهم، والأقربين منهم، وأن لا يحابوا غنياً تقرباً إليه، ولا فقيراً لفقره رحمة به. ونهاهم عن اتباع الهوى والإعراض عن العدل، وأنذرهم عقابه إن مالوا عن الحق[٤].

وإذ عالجت هذه الآية مشاعر الحب والشفقة والعصبية، التي تحول دون العدل، فقد عالجت آية المائدة التي جاءت بعدُ على نسقها، مكملة لها؛ دوافع البغض والعداوة التي تحول أيضاً دون العدل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[٥]. فههنا، أمر الله المؤمنين بأن يكونوا في أحكامهم وأقضيتهم

---

(١) دل على أنهم المقصودون بالخطاب خاصة أمر الرعية في الآية التالية بطاعة أولي الأمر فيما إليهم من تطبيق العدل في الأحكام والشهادات، وغير ذلك من المصالح العامة والخاصة.

(٢) يراجع: تفسير المنار: ٥/١٧٤ ـ ١٧٥، والأخلاق الإسلامية: ١/٦٣٠.

(٣) الآية/١٣٥ من سورة النساء.

(٤) ينظر في ذلك: الوحي المحمدي/٢٨٠، والأخلاق الإسلامية: ١/٦٢٨.

(٥) الآية/٨. وقد ذكر الطبري، في روايات بعضها قريب من بعض، أن هذه الآية نزلت في طائفتين من الأوس والخزرج اقتتلتا في بعض ما تنازعتا فيه: (جامع البيان: =

وشهاداتهم قوامين لله، شهداء بالعدل، ونهاهم أن يحملهم بغضهم لأعدائهم على مجانبة العدل فيهم، سواء كان سبب عداوتهم دينياً أو دنيويا، فالعدل أقرب للتقوى. وأمرهم بالتقوى في كل الشؤون والأحوال، وأنذرهم بأن الله خبير بما يعمل الناس في هذه الحال، وهو مجازيهم على ما يعلمه من أمرهم.

ومن العدل الذي تقتضيه حقوق المسلمين بعضهم على بعض: العدل في الإصلاح بين الفئات المتقاتلة من المسلمين. وقد ورد الأمر به في سورة الحجرات: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾[(١)]. فهذه الآية أوجبت على المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية التي أبت أن تخضع للإصلاح بالعدل حتى ترجع عن بغيها إلى حكم الله في كتابه، وهو الإصلاح بينها وبين خصيمتها بالعدل، ويكون العدل في هذا الإصلاح بالمحافظة على حق كل من الطائفتين، بلا جور على إحداهما انحيازاً للأخرى من غير حق[(٢)]. وإلحاحاً على التزام العدل في هذا الإصلاح، حث الله المؤمنين على القسط، ووعد المقسطين بمحبته، في قوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

ومن العدل الذي يضمن حقوق المسلم، ويضبط علاقاته داخل أسرته: العدل في معاملة الزوجات، بأن يعطي كلا منهن نصيبها من النفقة والسكن

= ١٢٨/٢٦/١٣ ـ ١٢٩). غير أن نزول الآية، وإن كان مناسباً لما وقع من خصومة بين طائفتين معينتين، فإنه أعم من أي حادث خاص؛ إذ المراد منه هو تقرير قاعدة تشريعية عامة محكمة لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك تحت النزوات والاندفاعات.

(١) من الآية/٩ ـ ١٠.

(٢) يراجع: جامع البيان: ١٢٧/٢٦/١٣، والجامع للأحكام: ٣١٦/١٦، وفي الظلال: ٥٨٠/٧، والأخلاق الإسلامية: ٦٤٤/١.

والمبيت بالعدل، والعدل في معاملة الأولاد بتحري التسوية بينهم في العطاء والتربية والبِشر، وغير ذلك[١] والعدل في الأنساب بأن يدعى الابن لأبيه الذي ولده، لا إلى دَعِيِّه الذي تبناه. ولهذا قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[٢].

وبعد، فهذه بعض تفاصيل العدل ومراتبه، التي هدى إليها تتبع آيات القرآن، ومنها يتبين:

أن القرآن الكريم حين قرر أحكامه وشرائعه المنظمة لعلاقات الناس المالية والتجارية والسياسية والاجتماعية...؛ راعى فيها أن يكون خلق العدل قاعدة ثابتة لتنفيذها والتعامل بها، قاعدة لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالبغض والود، والغنى والفقر، ولا تُهْمَل للجهل والضعف، ولا تزن بميزان الوكس والنقص. إنما تمضي في اتجاه واحد، وتزن تصورات الناس وأقوالهم وأعمالهم بميزان واحد، وتكيل حقوقهم ومصالحهم بمكيال واحد...

ومما يؤيد هذه القاعدة ويزيدها رسوخاً، ما ورد في تحريم الظلم بكل صوره ودرجاته، والوعيد الشديد عليه، والجزاء الأليم للظالمين[٣]؛ ولا غرو فإن الظلم ـ بخلاف العدل ـ : تجاوز للحق، وميل عن القصد، ووضع للشيء في غير موضعه، بزيادة أو نقص[٤]. فهل يستوي الظالم لنفسه هو ومن يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم؟ ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ

---

(١) الأخلاق الإسلامية: ١/٦٣٠ ـ ٦٣١ ـ ببعض تصرف ـ.
(٢) من الآية/٤ ـ ٥.
(٣) والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى: (راجع المعجم المفهرس/مادة ظلم، من ص ٥٥١ إلى ص ٥٥٧).
(٤) ينظر هذا المفهوم مبسوطا في بحث: مفهوم الظلم في القرآن: د. مصطفى فضيل: ندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإنسانية: ١/٣٨١ ـ ٤٠٢.

﴿بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: النحل/٧٦. كلا، فهما لا يستويان في ميزان العدل!

٢. ٣. ٤ ـ الإحسان

نظمته آية النحل المتقدمة مع العدل في سلك، لتدل على أنه مرتبة زائدة على العدل، يعرُج إليها من أراد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه؛ ليتمم ركناً، أو يصل رحماً، أو يرحم ضعفاً، أو يغلب على العقاب صبراً وصفحاً، أو يكسب ثواباً وفضلاً...

فالإحسان المأمور به هنا لفظ مطلق يعم كل عمل حسن من الفرائض والنوافل، ويقع في حق الله، وفي حق الخلق، فهو ـ من ثم ـ يدل على معان ثلاثة، تفصل ما ذكرناه من العموم، وتؤول إليها أقوال المفسرين[١]:

أولها: الإحسان بـ«**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢]؛ وهذا هو صريح بيان الرسول عليه السلام للإحسان في مجلس تعليمه.

ثانيها: **الإحسان في المعاملة**، وهو يدخل في جميع الأقوال والأفعال، ويكون مع سائر الأصناف إلا ما حُرم الإحسانَ بحكم الشرع[٣].

ثالثها: **إحسان العمل وإجادته**، من قولهم: «أحسن العامل عمله؛ أي: أجاده وجاء به حسناً»[٤]. وفي إهاب هذا المعنى اللغوي العام، تندرج أعمال العبادات والعادات والمعاملات؛ ذلك بأن عبادة الله عمل أحسن فيه صاحبه، والإحسان إلى خلق الله لوجه الله، عمل أحسن فيه صاحبه أيضاً. ومجموع هذه المعاني تدلنا على سمات المؤمن الصالح في نفسه وخلقه، الجيد في علاقاته بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بمجتمعه، وعلاقاته

---

(١) وسيأتي بسط هذه الأقوال كلما دعا إلى ذلك المقام.

(٢) جزء من حديث جبريل، المروي عن أبي هريرة: البخاري في التفسير (٤٧٧٧).

(٣) التحرير: ٢٥٥/١٤.

(٤) أضواء البيان: ٣١٧/٣.

بالمخلوقات المحيطة به. ولإيضاح هذه المعاني والعلاقات، لا بد من تفصيل القول فيها على مراتب:

فأعلى مراتب الإحسان ما وقع في حق الله تعالى، مما بينه الحديث الشريف آنفاً، وأعظم حقوقه تعالى «**أداء فرائضه**»، كما قال ابن عباس[١]. ومناسبة هذا القول لما تقدم، أن من أدى فرائض الله على الوجه الأكمل؛ فقد أجاد وأحسن، وهذا الإحسان من باب الواجب[٢]، ودون ذلك التقرب إلى الله بالنوافل، وهو من باب المندوب.

ثم تلي هذه، مرتبة الإحسان إلى الناس؛ كالوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل والجار، وسائر الخلق أجمعين. وهذه المرتبة من أبرز تجليات الرحمة، التي فطر الله عليها الخلق، ومن أظهر صور التراحم بين المسلمين. والإحسان تتفاوت درجاته من حيث الطلب، حتى يرقى إلى الوجوب أو يتدنى إلى الإرشاد، وذلك بحسب درجة القرابة، والصحبة، والحاجة، وتدفق مشاعر الرحمة في القلب. ومن ثم، نجد القرآن الكريم في جميع أدوار التنزيل يأمر بالإحسان إلى الوالدين ـ أقرب الرحم للإنسان ـ عقب الأمر بعبادة الله، والنهي عن الإشراك؛ كقوله في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية[٣] وفي هذا الاقتران إيذان صريح بوجوب هذا الإحسان وجوباً حتماً، يصير معه العقوق مقارباً لدركة الكفر. ومما يزيد وجوبه قوة في الإلزام، ورود التكليف به بتعبير «**قضى**»، الذي بينا دلالته القاطعة في مجال التكوين فيما مضى.

---

(١) جامع البيان: ١٦٢/٨ والبحر: ٥٧٦/٦.

(٢) ولهذا لا يصح أن نفسر الإحسان بالندب، على ما ذهب إليه الزمخشري في الكشاف: ٤٢٤/٢؛ فإن الإحسان ـ كما قال الشاطبي ـ ليس «مأموراً به أمراً جازماً في كل شيء، ولا غير جازم في كل شيء؛ بل ينقسم بحسب المناطات. ألا ترى أن إحسان العبادات بتمام أركانها من باب الواجب، وإحسانها بتمام آدابها من باب المندوب. . .؟»: (الموافقات: ١٣٩/٣).

(٣) الآية/٢٣ وكذا ٢٤ من السورة.

وكذلك قوله في سورة العنكبوت، موصيا به: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[١]، وقوله في سورة لقمان، مزاوجا بين الأمر بالشكر لله والشكر لهما، ومبيناً موجب هذا الأمر عقب الوصية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[٢]، وقوله في سورة النساء: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الآية[٣]. ففي هذه الآية، يأمر الله تعالى بعبادته، وينهى عن الإشراك به، ويقرن ذلك بالأمر بالإحسان للوالدين، ثم يأمر بوجوه الإحسان لأصناف من الناس؛ فيأمر أولاً بالإحسان إلى الأقربين رحماً، الذين لهم حق أخوة الإسلام، وحق قرابة الرحم، وسيأتي الكلام في ذلك بما يليق به في موضعه. ثم يأمر بالإحسان إلى اليتامى بوجه عام، ويكون هذا الإحسان «ببذل الحنان لهم، وإطعامهم، وإكرامهم، وحسن تربيتهم وتأديبهم، وإدارة أموالهم بأمانة تامة ورعاية حازمة، والقسم لهم من الفيء والغنائم، ومؤاخاتهم عند مخالطتهم، وعدم ظلمهم في أنفسهم وأموالهم»[٤] والقرآن الكريم مدده فياض بالشواهد على الأمر بذلك[٥]. ثم يأمر بالإحسان إلى المساكين، وهذا الإحسان يجيء في سياق يجمعه مع الإحسان إلى اليتامى في معظم آياته[٦]. ثم يوصي بالإحسان إلى الجار ذي القربى، وإلى الجار الجنب. ومن قوة حق الجار على جاره، أوشك أن يصل إلى منزلة الأقربين، الذين فرض الله لهم حقوقا في الميراث. وذلك ظن النبي ﷺ حيث قال: «**ما زَال جبريلُ يوصِيني بالجارِ حتى**

(١) من الآية/٨.
(٢) الآية/١٤.
(٣) الآية/٣٦.
(٤) الأخلاق الإسلامية: ٢/٤٤ ـ ٤٥.
(٥) ينظر مثلا: آيات: البقرة/٢١٥ والنساء/٢ ـ ٦ ـ ٨.
(٦) ينظر: آيات: الفجر/١٧ ـ ١٨ والبلد/١٥ ـ ١٦ والبقرة/١٧٧ ـ ٢١٥.

ظَنَنْت أنه سيُورثه»[١] وهذه الوصية تتناول أداء حقوقه وعدم إيذائه، مما بينته أحاديث الرسول الصحاح والحسان. ثم يوصي بالإحسان إلى ابن السبيل وما ملكت الأيمان من أرقاء، وفي تحقيق هذه الأوامر والوصايا ترابط اجتماعي عظيم، وتوثيق لوشائج المودة بين أعضاء الأسرة، وتعميق لخلق الرحمة بالضعفاء ومستحقي الإحسان في نفوس المؤمنين».

ولعل من تجليات خلق الرحمة، التي تعرج بالمسلم إلى ذرى الإحسان: العفو والصفح عن المسيئين، وستر سيئاتهم، وترك معارضتهم، ومقابلتهم باتساع الصدر والأناة والحلم. وقد أمر الله رسوله بهذه الأخلاق العظيمة، وأوصى المؤمنين بها. وذلك في مثل قوله تعالى، مخاطباً رسوله الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[٢] وقوله، مبينا مميزات المؤمنين، التي ترشحهم للثواب: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[٣]. فهذه الآية تؤذن للمؤمنين في الانتصار لأنفسهم إذا أصابهم البغي، وتقرر أن من حقهم مجازاة السيئة بالسيئة وفق مقتضى العدل، غير أن من الأحسن العفو والصفح، وتلك مرتبة أعلى من العدل.

ثم يعود السياق، فيعلن حق المظلومين في الانتصار ممن ظلمهم، ثم لا يدع مرتبة العدل تتجه إليها الأنظار اتجاهاً كلياً، بل يدفع مرة ثانية إلى مرتبة الإحسان والاعتدال بالصبر والمغفرة عند المقدُرة على الانتصار، معلنا

(١) البخاري في الأدب (٦٠١٤ ـ ٦٠١٥)، عن عائشة وعبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.
(٢) آل عمران من الآية: ١٥٩.
(٣) الشورى/٣٩ ـ ٤٣.

أن ذلك من عزم الأمور؛ أي: من الأمور التي أوتيها صاحب إرادة قوية، قادرة على اقتحام عقبة الغضب في النفس؛ وهذا مقام خلقي عظيم ارتقى إليه الجيل الراشد، ومن ذروته دعوا الناس إلى الإسلام، واحتموا من أذى الكافرين.

ومن أدنى مراتب الإحسان، ما جاء في الحديث: «**إن الله كَتب الإحْسَان على كُل شيء فَإذا قَتلتم فأحْسِنوا القتلة وإذا ذَبحتم فأحْسِنوا الذبْح ولْيُحد أحدُكم شَفرَته، وليرح ذبيحته**»[١] فهذا الحديث يرشد إلى الرفق بمخلوقات الله، والحرص على إبلاغ ما وُكل إلى المرء من الأعمال تمام الإحسان. ولعل من أعظم الإحسان وأجله، صلة الأرحام، فماذا عن دعوة القرآن إلى هذه الصلة؟

٢. ٣. ٥ ـ صلة الأرحام

اندرج «**إيتاء ذي القربى**» تحت العدل والإحسان في اية النحل[٢]، وخُص بالذكر اهتماما به وحضا على عدم التهاون بحقه أو بفضله[٣]. وفُسر بـ: «**إعطاء ذي القربى الحق الذي أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم**»[٤]، وقيل فيه أيضاً: «**صلة الأرحام**»[٥]، وتكون هذه الصلة بزيارتهم، وتفقد أحوالهم، وإكرامهم، والإهداء إليهم، والتصدق على فقيرهم، وعيادة مرضاهم، ومشاركتهم في مسراتهم، ومواساتهم في أحزانهم، وتقديمهم على الأبعدين في كل أمر يوصل الخير إليهم.

---

(١) مسلم في الصيد والذبائح، عن شداد بن أوس، رقم (١٩٥٥).

(٢) التحرير: ٢٥٦/١٤، وفتح البيان: ٣٠٣/٧، والفتاوى: ١٠٥/١٠/٥.

(٣) البحر: ٥٨٦/٦، والتحرير: ٢٥٦/١٤، وفيه أيضاً: «وقد كانوا في الجاهلية يصرفون إحسانهم إلى الأبعدين لاجتلاب المحمدة وحسن الذكر، ولم يزل هذا الخلق متفشياً في الناس حتى في الإسلام إلى الآن، ولا يكترثون بالأقربين»: (بتصرف يسير).

(٤) جامع البيان: ١٦٢/١٤/٨.

(٥) تفسير ابن كثير: ٥٦٣/٢، والبحر: ٥٨٦/٦.

أما قطيعتهم فتكون بهجرهم، والإعراض عن زيارتهم المستطاعة، وعدم مشاركتهم في مسراتهم، وعدم مواساتهم في أحزانهم، وتفضيل غيرهم عليهم في الصلات والعطاءات الخاصة، التي هم أحق بها من غيرهم(١).

والأمر بصلة الرحم من أوائل ما نزل من التشريع في الإسلام، دل على ذلك صريح بيان الرسول عليه السلام على لسان أبي سفيان، حيث قال لهرقل، لما سأله: فماذا يأمركم به؟: «**قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده ولا تُشركوا به شيئاً واتْرُكوا ما يقول آباؤكم»** ويَأمرنا بالصَّلاة والصِّدق، والعَفاف، والصِّلة»(٢). وقد حضت الآيات المكية على إطعام الضعفاء الطعام، وفي مقدمتهم: يتيم ذو قرابة، وأمرت بأداء الحق الواجب لذي القربى إليه، قال تعالى في سورة البلد: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾...(٣)، وقال في سورة الروم: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾(٤).

وتلت هذه الآيات، آيات مدنية تصف المؤمنين أولي الألباب، الذين لهم عقبى الدار، بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل فيه صلة الرحم، قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾(٥).

---

(١) الأخلاق الإسلامية: ٣٧/٢ ـ ببعض تصرف ـ.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) الآيات/١١ ـ ١٦.
(٤) الآية/٢٦ من السورة.
(٥) من الآية/٢١. وللمفسرين في الآية أقوال ترجع إلى تعميم وتخصيص، فمنهم من وجه تركيب: «ما أمر الله به أن يوصل» إلى العموم، فقال: «ظاهره شمول كل ما أمر بصلته ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده»: (فتح البيان: ٤٦/٥، والبحر: ٣٧٩/٦). ومن حقوق العباد «صلة الرحم»: (مفاتيح الغيب: ٤٨/١٩/١٠). ومنهم من وجه هذا التركيب إلى معنى صلة الرحم خاصة: (جامع البيان: ١٤٣/١٣/٨) أو إلى معنى: «صلة الرسول بالإيمان به»: (البحر: ٣٧٩/٦، عن الحسن). ولهذا المعنى صلة=

وفي مقابلة هذه الآية، وصف الله الخاسرين، ومن لهم اللعنة ولهم سوء الدار، بأنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويندرج في عموم ذلك «**قطيعة الرحم وحقوق القرابات**»[1]، قال تعالى في نفس السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾[2]، وقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[3].

وهكذا أمر تعالى بصلة الرحم، ووعد واصلها بالثواب الجزيل، ونهى عن قطيعتها، وتوعد قاطعها بالعقاب الأليم؛ ولا غرو فقد جعل سبحانه من هذه الرحم الماسة ملتقى تتشابك حوله الصلات وتتآلف حوله القلوب .....

تلكم كانت أهم أصول الأخلاق التي أمر بها القرآن في صريح آياته، وهي في جملتها تبين:

أن القرآن الكريم ركز في دعوته إلى مكارم الأخلاق على إقامة حياة الناس على طريق الإخلاص والاستقامة، وتوطيد دعائم الحكومات، التي تشد روابط المؤمنين، وتوحد صفوفهم، وتبث في أكناف مجتمعهم الأمن

= بسبب النزول، فقد ذكر المفسرون أن قوله (أفمن يعلم) نزلت في المؤمن والكافر، وذكروا أشخاصاً: (البحر: ٣٧٨/٦). والظاهر العموم في كل أمر؛ لأن من وَصَل الله ورسوله بالإيمان، وصل رحمه بأداء الحقوق الواجبة له، ووصل سائر خلق الله بالشفقة عليهم، وحصول هذه الصلة مرتبة على تلك، وجميع ذلك وصل لما أمر الله به أن يوصل.

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٦٤/١، وتفسير المنار: ٢٤٤/١، تفسير آية البقرة/٢٦، وكذلك جامع البيان: ١٤٣/١٣/٨، ومفاتيح الغيب: ٥٣/١٩/١٠، تفسير آية الرعد/٢٦. ومما يعضد أن مما أمر الله به أن يوصل: **الأرحام** قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾: محمد/٢٢.

(٢) الآية/٢٥.

(٣) الآية نفسها. ولا تكاد تخرج أقوال المفسرين في الآية عما قيل في آية الرعد/٢٥.

على حقوقهم وأقضيتهم وشهاداتهم، والثقة بمعاملاتهم ووعودهم وعهودهم...، وتنمية مشاعر الرحمة التي تمزج بين نفوسهم؛ فتجعل الفرد منهم يرحم كل مستحق للرحمة والإحسان، بإيصال الخيرات ودفع الآفات، بل ويعرج إلى ذرى الإحسان بالعفو عمن ظلمه، وإيتاء من حرمه، ووصل من قطعه؛ فيصبح أهلاً لأن يدخل في زمرة المؤمنين، الذين تحققوا بقول المصطفى عليه السلام: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**»[1].

نعم، إنها لأخلاق تدل على كمال الإيمان، وتمكن لشريعة الإسلام، وتوجه الإنسان إلى تفعيل نفسه، وتزكية ضميره، وإصلاح باطنه بتوثيق الصلة بخالقه والصلة بأخيه، وذلك يكون بأداء واجباته الدينية، وتطبيق الأحكام الشرعية المنظمة لمعاملاته الدنيوية؛ الاجتماعية والمالية والسياسية والدولية...

وبناء على تلكم الأصول، أبسط الكلام ـ بما يسمح به المقام ـ عن دعوة القرآن إلى الالتزام بشريعة الإسلام في مجال المعاملات.

٢. ٤ مجال المعاملات

٢. ٤. ١ ـ المعاملات السياسية

بينا في غير موضع ـ بيقين قاطع ـ أن الحاكمية الحقيقية ليست إلا لله، وأن الطاعة الكلية لا تكون إلا لأمره ونهيه. ومن ثم فإن كل حكم يزاوله الإنسان، بمقتضى خلافته وأمانته؛ إنما يزاوله في دائرة تشريعه سبحانه، وكل طاعة لمخلوق إنما تجب إذا كانت طاعته طاعة لله، وطاعة لرسل الله، الذين بلغوا عنه سبحانه شرعه للناس.

ومن هنا، جاء في بيان المصادر التي يجب على المؤمنين اتباع الأحكام والأوامر الصادرة عنها قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[2]. فهذه الآية بينت أصول

---

(١) أبو داود في السنة (٤٦٨٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه: (الصحيح: ٣/١٤١).

(٢) الآية/٥٩ من السورة.

التشريع والحكم في الإسلام؛ فأمرت بإطاعة الله، وهي «العمل بكتابه»[١]، وأمرت بإطاعة الرسول ﷺ؛ لأنه هو الذي يبين للناس ما نَزَل إليهم بأقواله وأفعاله وتقريراته. وهذا البيان بإرشاد من الله، واتباعه لا ينافي كون الشارع هو الله تعالى وحده؛ فإنه «من يطع الرسول فقد أطاع الله، فالحلال ما حلله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه»[٢]، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٣] وقوله عليه السلام: «**إذا أمرتُكم بشيءٍ من دينِكم فخُذوا به**»[٤].

ثم أمرت الآية بطاعة أولي الأمر، وهم أهل الرأي والحل والعقد، كما بُين سابقاً، وجعلت هذه الطاعة داخلة في طاعة الله وطاعة رسوله، تابعة لهما؛ لأنهما الأصل، فليس لأحد إذا أمره الله بأمر أن يجتهد فيه، ويتخير منه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٥]، وذلك بخلاف أولي الأمر، فإنهم لا يطاعون إلا بشرط أن يكونوا من المؤمنين، وأن لا يخالفوا أمر الله، ولا سنة رسوله في استنباط الأحكام أو تنفيذها، وأن يكون ما يتفقون عليه من المصالح العامة للأمة، وليس فيه نص من الكتاب والسنة.

فإذا اختلفوا وتنازعوا في شيء من أمر الدين عند تبدل الشأن ووجه المصلحة، فقد بين تعالى الواجب فيما تنازعوا بقوله في الآية نفسها: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وذلك بأن «يعرض على القواعد والأحكام العامة المعلومة في الكتاب والسنة»[٦].

وإن كان المتنازع فيه بين المسلمين أمرا من الأمور الدقيقة والسرية

---

(١) تفسير المنار: ٥/١٨٠ والإسلام عقيدة وشريعة/٤٥٤.

(٢) الفتاوى: ٣/١٠/١٥٦.

(٣) الحشر من الآية: ٧.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) الأحزاب من الآية: ٣٦.

(٦) مقاصد الشريعة/٢١٤، وتفسير المنار: ٥/١٨٢.

المهمة للأمة، من الأمن والخوف، وغيرهما؛ وجب رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر؛ ليستخرجوا باجتهادهم وخبرتهم الرأي الحصيف فيه، بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية من السورة نفسها: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ . . .[١].

وإذا كان من الواجب على المؤمنين إطاعة أولي الأمر ورد الأمور إليهم بالإضافة إلى الله ورسوله؛ فإن من الواجب كذلك على أولي الأمر أن يتحروا أسس الحكم الصالح التي أمر بها القرآن، وجعلها دعائم ثابتة تنبني عليها معرفة الآراء الحصيفة في المصالح العامة للأمة، وتقوم عليها المعاملات التي تشد المؤمنين بعضهم إلى بعض، في شتى مناحي الحياة، بشكل يحفظ كيانهم، ويضمن حقوقهم، ويحقق أمنهم.

ألا إن من أهم أصول الحكم في الإسلام، ومن ألزم الواجبات على أولي الأمر: أن تؤدى الأمانة في الولايات والأموال، وأن يقام العدل بين الناس، وأن تُلتزم الشورى في كل أمر وكل حال.

فأما أداء الأمانة، فقد أمرت به آية النساء المتقدمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ ويدخل في رد الأمانات: توسيد الأمة أمر الولاية العامة الكبرى إلى أهلها القادرين على القيام بأعبائها[٢] وهذا على القول: إن الآية نزلت في جمهور الأمة[٣]، ويدخل فيه أيضاً ـ كما أسلفنا ـ توسيد الحكام والولايات الصغرى إلى خيار الناس الصالحين لها، دون محاباة ولا اتباع هوى[٤]؛ وهذا على القول: إن الآية نزلت في الأمراء[٥] ومن ثم

(١) من الآية/٨٣.

(٢) تفسير المنار: ١٧٩/٥ والأخلاق الإسلامية: ٦٣٧/١.

(٣) المنار/نفس الجزء والصفحة، وفتح البيان: ١٥٢/٣ والتحرير: ٩١/٥/٣.

(٤) تفسير المنار: ١٧٣/٥ والأخلاق الإسلامية: ٦٣٧/١.

(٥) تقدمت الإحالة على ذلك. ويوجه إلى هذا القول سبب نزول الآية وسياقها الداخلي.

يجب على كل من ولي شيئاً من أمر المسلمين، من أصحاب الولاية الكبرى أو الولايات الصغرى سواء[(١)] «أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه، ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية، أو سبق في الطلب، بل يكون ذلك سببا للمنع، فإن في الصحيح، عن النبي ﷺ: «أن قوماً دخلوا عليه فسألوه ولاية، فقال: «**إنا لا نُولي هَذا من سَأله، ولا من حرص عَليه**»[(٢)] وقال لعبدالرحمن بن سمرة: «**يا عبدالرحمن، لا تَسأل الإمارة، فَإنك إن أعطيتَها عن مَسألة وُكِلْت إليها، وإن أعطيتها عَن غير مَسألة، أُعِنْت عليها**»[(٣)].

فإن عدل عن الأحق والأصلح إلى غيره؛ لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو مرافقة في بلد أو مذهب، أو طريقة أو جنس... أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه على الأحق، أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين...»[(٤)].

وإذ كان الولاة هم أصحاب السلطة العامة على إدارة شؤون الأمة، كان من الأمانات التي طُوقوها بأمر الله: أداء الأموال إلى أصحابها؛ مثل: الغصب، والسرقة، والخيانة، ونحو ذلك من المظالم، وكذلك رد الودائع، وأداء العواري، وأجور المنافع، وغير ذلك. قال ابن تيمية: «فعلى ذي السلطان ونوابه في العطاء، أن يتولوا كل ذي حق حقه، وعلى جباة الأموال... أن يؤدوا إلى ذي السلطان ما يجب إيتاؤه إليه... وليس للرعية

---

(١) أي؛ من ولي الأمر السلطان إلى نوابه ومساعديه، من الأمناء، وكبار الموظفين، والقضاة، وقادة الجيش والشرطة، وغير ذلك مما تحتاجه الأمة لإدارة شؤونها، وصيانة حقوقها، وحماية حماها.

(٢) البخاري في الأحكام (٧١٤٩)، ومسلم في الإمارة (١٤/١٧٣٣)، كلاهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) البخاري في الأحكام (٧١٤٦ ـ ٧١٤٧)، ومسلم في الإمارة (١٣/١٦٥٢).

(٤) الفتاوى: ١٣٩/٢٨/١٤.

أن يمنعوا السلطان ما يجب دفعه إليه من الحقوق، وإن كان ظالماً، كما أمر النبي ﷺ لما ذكر جور الولاة، فقال: **«أعطوهم حقَّهم، فإن الله سائِلهم عَما استرعاهُم»**[١]. . . وعن النبي ﷺ قال: **«إنكُم ستَرَوْن بعدي أثرة وأمُورا تُنكِرونها»** قالوا: فما تأمُرنا يا رسول الله؟ قال: **«أدُوا إليهم حَقَّهم، واسألوا الله حَقَّكم»**[٢].

وليس لولاة الأمور أن يقسموا بحسب أهوائهم، كما يقسم المالك ملكه، فإنما هم أمناء ونواب ووكلاء، ليسوا ملاكاً، كما قال رسول الله ﷺ: **«إني ـ والله ـ لا أعطي أحداً، ولا أمنع أحداً، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت»**[٣][٤].

ولا لهم أن يأخذوا منها شيئاً بغير حقه، فإن ذلك غلول، كما قال رسول الله ﷺ: **«من استعملناه مِنكم على عَمل، فَكتمنا مِخيَطا فما فَوْقه، كان غُلولا يأتي به يوم القيامة»** فقام إليه رجل أسود من الأنصار. . .فقال: يا رسول الله! اقْبل عني عملك، قال: **«ومَا لك؟»** قال: سمعتك تقول كذا وكذا، قال: **«وأنا أقُوله الآن: من استَعملناه مِنكم على عَمل فليجئ بِقليله وكَثيره، فما أُوتي منه أَخَذ وما نُهي عَنه انتهى»**[٥]. وهكذا ينبغي أن يُعرف ـ بتعبير ابن تيمية الجامع ـ أن: **«الذي على ولي الأمر أن يأخذ المال من حله، ويضعه في حقه، ولا يمنعه من مستحقه»**[٦].

وأما إقامة العدل، فقد أوجبته آية النساء المتقدمة على الولاة والقضاة، في مجال الحكم والقضاء للناس أو عليهم، كيفما كان دينهم، وكيفما كانت

---

(١) البخاري في الأنبياء (٣٤٥٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٢/٤٤)، كلاهما عن أبي حازم.

(٢) البخاري في الفتن (٧٠٥٢)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، ومسلم في الإمارة (١٨٤٣/٤٥).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الفتاوى: ١٥٠/٢٨/١٤.

(٥) مسلم في الإمارة (١٨٣٣/٣٠)، عن عدي بنِ عَمِيرة الكِنْدي.

(٦) الفتاوى: ١٥١/٢٨/١٤.

علاقتهم بولي الأمر أو القاضي أو الخصوم، على نحو ما بيناه في مجال الأخلاق. وعلاوة على ذلك، فإن الآية اعتبرت الحكم بالعدل نوعاً من أداء الأمانات، وذلك بوصفه أداء لأمانة إحقاق الحق وإبطال الباطل وحفظ الحقوق وحسم الخصومات. ولا شك أن أداء هذه الأمانة من أهم دعائم السعادة التي يسعى إليها البشر، وأن إهمالها من أقوى الأسباب الباعثة على «الفتن والشقاء، واغتيال الأقوياء لحقوق الضعفاء، وتهديد المجتمع بالأخطار، من آثار الخصومات والضغائن والأحقاد»[١].

وأما الشورى، فقد أمر بها القرآن، وجعلها من أهم أسس السياسة الحكيمة الصالحة، ومن أقوى السبل إلى الآراء السليمة الناضجة، ومن أبرز خصائص الشخصية الإيمانية الخالصة. قال تعالى، مخبرا عن تقيد ملكة سبأ العربية بالشورى في حكمها، وخاصة فيما يهدد أمن مملكتها: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾[٢] وقال على لسان أشراف قومها: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾[٣].

ولم يكن حكم الإسلام أدنى من حكم ملكة سبأ؛ بل إن الإسلام امتاز بجعل الشورى قاعدة ثابتة تقوم عليها الدولة الإسلامية، وعزيمة راسخة من عزائم الأحكام الإيمانية، حتى قررها في سورة مكية عُرفت باسمها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾[٤].

وتقرير الإسلام أن الشورى صفة لازمة من صفات المؤمنين في هذه

---

(١) الإسلام: عقيدة وشريعة/٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٢) النمل/٣٢.

(٣) النمل/٣٣.

(٤) الشورى/٣٦ ـ ٣٩.

الآية المكية، يفيد أن مفهوم الشورى أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم في حياة المسلمين، ذلك بأن هذه الآية نزلت قبل قيام الدولة الإسلامية، والتعبير: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يلهم أن أمرهم كله شورى في الحياة الفردية والجماعية على حد سواء، ويدخل ضمن ذلك الأمور المشتركة العامة، ولا سيما ما هو متصل بشؤون الدولة.

وبعد هذه الآية المكية التي لم تَعْدُ التقرير لمبدأ الشورى وشموله، اتجه أمر الله لنبيه بمشاورة أصحابه فيما يطرأ لهم من شؤون دينهم ودنياهم؛ تطييباً للنفوس، وربطاً للقلوب، وتقريراً لما يجب أن يكون بين المؤمنين من المشاركة في سياسة الأمور، وتشريعا لوجوب مشاورة أولي الأمر المسلمين في تدبير الشؤون، وذلك قوله تعالى في سورة آل عمران المدنية: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[1].

ومن اللافت أن الآيات التي جاءت قبل هذه الآية[2]، واتصلت بها سياقاً ونظماً وروحاً، تدل دلالة قاطعة على أن الأمر بالمشاورة قد عنى ذوي الزعامة والكلمة بصرف النظر عن علمهم وفقههم؛ بل وعن إخلاصهم التام في طاعة النبي عليه السلام. ومن الواضح أن الضمير في ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ عائد إلى الذين حكت الآيات تذمرهم من «مؤمنين ومنافقين»[3]. وجماع قولهم: إنه كان يجب أن يكون لهم من الأمر شيء. وفي الموقف رأي مسموع. وإن ما حل في المسلمين من الهزيمة والبلاء في واقعة أحد ـ لأن الآيات نزلت في هذه الواقعة، حيث كان فريق يرى عدم الخروج من المدينة ـ إنما حل بسبب عدم الأخذ برأيهم، وهؤلاء ليسوا خاصة رسول الله الذين أخلصوا في طاعته، ولا من مشاهير القراء وأهل العلم[4].

---

(١) الآية/١٥٩.
(٢) وتبتدئ من قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾.
(٣) التحرير: ١٤٤/٤.
(٤) الدستور القرآني: ١٠١/١ ـ بتصرف ـ.

ومن الثابت أن الرسول عليه السلام كان يشاور أصحابه في المصالح العامة، من سياسية وحربية ومالية واجتماعية. . .، مما لم ينزل عليه فيه الوحي. وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لم يكن أحد أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله[(١)]، وكان عليه السلام في بعض الأحيان يعدل عن رأيه ويعمل بالرأي الذي يرى فيه الخير، سواء أكان رأي الأغلبية أو رأي الأقلية؛ ومن ذلك أنه استشار جمهور المسلمين في غزوة أحد في أحد أمرين: الحصار في المدينة أو الخروج إلى أُحُد، وعمل برأي الجمهور، كما بيناه سابقاً، واستشار خواص أولي الأمر في قضية أسرى بدر، وعمل برأي أبي بكر إلى أن رده القرآن إلى الرأي الأصوب.

وبهذا المبدأ الأصيل؛ مبدأ الشورى، جرى عمل أصحاب رسول الله ﷺ بعده، «فكان أبو بكر يستشير الصحابة فيما يعرض له من شؤون الحرب والسلم، وكان يأخذ برأي غيره متى بدت آيات الحق فيه، وكان عمر يجمع الصحابة في عهده، وكان يمنعهم من مغادرة المدينة لمكان حاجته إلى استشارتهم في كل مسألة ليس فيها نص من كتاب الله، ولا سنة، أو قضاء من رسول الله ﷺ، وكان عثمان رضي الله عنه يقول: **«أمري لأمركم تبع»** وكذلك كان عمل علي المرتضى رضي الله عنه»[(٢)].

وهكذا كانت الشورى أصلاً في إدارة الشؤون العامة، وكان الأساس فيها تبصير ولي الأمر بوجوه الرأي المختلفة، وعدم الاستكبار برأيه على رأي الجماعة، وتحري الحق، والاهتداء إلى وجه المصلحة، وتحقيق أسلم النتائج في أعقد الأمور.

ولم يضع القرآن الكريم، ولا الرسول الشريف للشورى نظاماً خاصاً لتطبيقها، وإنما تركا نظمها دون تحديد؛ لأنها من الشؤون التي تتغير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها. وفي ذلك توسعة على الناس، وتمكينا لهم

---

(١) الفتاوى: ٢١٤/٢٨/١٤ والكشاف: ٤٧٤/١.

(٢) ينظر: الإسلام: عقيدة وشريعة/٤٥٢ والوحي المحمدي/٢٧٥.

من اختيار أفضل النظم لتحقيق هذا الأصل وتطبيق صورته، بما يتساوق وتقدم البشرية.

وإذا تبين أن المشورة أمر، وأنها للحكم أصل، ولها في السياسة عظيم الفضل؛ كان لا بد لولي أمر المؤمنين بعد الرسول عليه السلام من مشاورة أهل النظر، الذين عُرفوا في الأمة بكمال الاختصاص في بحث الشؤون وإدراك المصالح، وبنضج الآراء، وطول المران؛ ليستخرج بها منهم الرأي السديد في كل أمر من أمور المسلمين، مما ليس من الأمور التعبدية البحتة، ومما لم ينزل فيه تشريع. وإذا استشارهم وترجح عنده رأي، وجب عليه أن يمضيه، معتمدا على الله، مستسلماً لقدره، كما فعل رسول الله.

وخلاصة القول: إن أصول التشريع والحكم في القرآن تستند إلى حكم الله أو حكم رسوله بإذنه أو حكم المؤمنين الذي استنبطه لهم أهل الحل والعقد من أفرادهم، بشرط أن يأمر هؤلاء بطاعة الله ورسوله، ويؤدوا الأمانات إلى أهلها، ويحكموا بين الناس بالعدل، ويكرموا أهل المشورة بالشورى. ومن هنا يتبين: أن السيادة الحقة التي تنوب - بحق - عن الله في عمارة أرضه، وإقامة العدل بين خلقه، هي التي تجد في شرع الله مدار استمداد، وتربط بينه وبين تدبير العباد، وتقرر حق الطاعة للآمرين بأمر الله، وتمنحهم سلطة الاجتهاد والشورى والإجماع في تنفيذ أوامره، أو استنباط ماتدل عليه من أحكام، وتسلبهم سلطة الاستبداد بالحكم أو الاستقلال بالفهم!

٢ . ٤ . ٢ ـ المعاملات الدولية

ما من شيء أمر الله به الأفراد في معاملاتهم مع بعضهم إلا وأمر به الدول في علاقاتها الواحدة مع الأخرى؛ ولا شك أن الإسلام جعل جميع البشر إخوة في الإنسانية، بمقتضى وحدتهم في المربوبية لرب واحد، ووحدتهم في الخلق من نفس واحدة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾[1]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى

---

(١) الأنبياء/٩٢.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[١] وهذه الوحدة بين بني الإنسان، المُعلَنة بالقرآن، تقتضي المساواة بينهم في الحقوق والواجبات، وهي مناط التعارف، وداعية التعاون في كل مناحي الحياة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[٢].

وإذا كان التعارف هو الأصل الجامع للشعوب والأمم، فإن السلام لازم من لوازمه، والأساس لكل تعاون لنشر الخير بين الناس عامة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[٣]. ومن الثابت قطعاً أن السلام هو أصل دعوة الإسلام، وأساس بناء سياسته الإصلاحية فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض، وفيما بينهم وبين غيرهم من الأمم المختلفة. والإسلام بهذا الأصل لا يطلب من غير المسلمين سوى الكف عن عدائه، والدخول فيه أو المسالمة لأهله، ويأبى كل الإباء أن يسلك سبيل الإكراه والاعتداء في تبليغ رسالته: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[٤].

وإذا استمسك غير المسلمين بالسلام، وخلصت نياتهم، فهم والمسلمون في نظر القرآن إخوة في الإنسانية، يتعاونون على خيرها العام، ولكل دينه يدعو إليه بالموعظة الحسنة، دون ظلم لأحد، ولا هضم لحق أحد. والإسلام لا يخرج عن حالة السلام الأصلية هذه، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، إلا إذا امتدت إليه يد العدوان، وتعرضت دعوته للتهجم والبغي، وأصبح دعاتها والمستجيبون لها مفتونين عنها، محرومين من حريتهم بها. وحينئذ فقط يؤذن لهؤلاء أن يقابلوا العدوان بالعدوان، دون تجاوز ولا إسراف، إقراراً للسلم والعدل، وتمكيناً

---

(١) النساء من الآية: ١.

(٢) الحجرات من الآية: ١٣.

(٣) البقرة من الآية: ٢٠٨.

(٤) يونس من الآية: ٩٩.

لدين الله في الأرض. ولعل تتبع التدرج الحكيم الذي سلكه القرآن الكريم في أحكام الجهاد في سبيل الله، من جهاد الدعوة الواعظ إلى جهاد القتال الفاتح، أن يبين لنا، في إيجاز، كيف عامل دعاة الإسلام وعلى رأسهم الرسول عليه السلام المخالفين لهم في الدين، وكيف سارت دعوته في طريقها، تحدوها الرغبة الشاملة في السلم والخير للناس أجمعين.

لقد أمر الله نبيه في بدايات دعوته بالإنذار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾(١). فأنذر الرسول بالدعوة، ثم أمره بالجهر بما أُمر أن يبلغه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾(٢). فصدع بأمر الله، لا يقعده عن الصدع شرك مشرك. وبسبب ذلك، اشتد أذى المشركين للرسول وللقلة المؤمنة معه، ولم يأذن الله لأوليائه المستضعفين بقتال المشركين، ورد الأذى بالأذى؛ وإنما دعاهم إلى التجمل بالصبر، والتحلي بالمغفرة والصفح، وأمر النبي ﷺ بالإعلان على رؤوس الشرك أنه إنما هو من المنذرين، وبالدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة، والموعظة الحسنة، وجدال الناس بالتي هي أحسن، قال الله تعالى لنبيه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾(٣). وكان النبي الكريم يقول لأصحابه المتظلمين: «**إني أُمرت بالعفو، فلا تُقاتلوا القوم**»(٤)، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾(٥)، وقال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾(٦)، وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥﴾(٧).

---

(١) المدثر/١ ـ ٢.
(٢) الحجر من الآية: ٩٤.
(٣) المزمل/٩.
(٤) أسباب النزول للواحدي/١٨١.
(٥) الجاثية/١٤.
(٦) النمل/٩١.
(٧) النحل/١٢٥.

واستمر الرسول في نشر الدعوة بغير قتال، ولا جزية، معبدا سبلها الوعرة بالكف والصبر والصفح والموعظة، امتثالا لأمر ربه، وابتغاء لمرضاته، وتيسيرا لسبل هداية أعدائه. ثم أذن الله له في الهجرة، فأصبح له ولأصحابه دار سلام ونصرة يلجأون إليه، مطمئنين في حريتهم بدينهم. وعندئذ أذن الله لأول مرة بالقتال للمهاجرين منهم خاصة[1]؛ فهم الذين اعتدت عليهم قريش في أنفسهم وأموالهم، وأخرجتهم نفياً من أوطانهم لأجل إيمانهم، وذلك قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾[2]، فهذه الآيات بينت أن المقصود الأعظم من القتال بعد دفع الظلم والاعتداء، وإقرار الأمن؛ حماية الأديان كلها من الاضطهاد فيها، أو الإكراه عليها، وصيانة معابد أهلها من هدمها، وضمان حرية عبادة المسلمين لله وحده، وإعلاء كلمته، وتأمين دعوته، وتنفيذ شريعته.

ومضى المهاجرون في طريقهم، مأذونا لهم في قتال المشركين، دون الأمر به، مع التحريض على التجمل بالصبر والعفو؛ لأن الإذن بالقتال لم ينسخ الأمر بالعفو والمصابرة[3]، فالصبر زاد الداعي إلى الله وطريقه إلى

---

(١) والمبدأ الذي قام عليه هذا الإذن المدني بالقتال، وهو الدفاع ومقابلة البغي والعدوان بالمثل، يتسق مع المبدأ الذي قررته آيات الشورى المكية (٣٦ ـ ٣٩)، التي تليت آنفا، وهي بسبيل وصف صفات المؤمنين.

(٢) الحج/٣٩ ـ ٤١.

(٣) ولا سيما على اليهود الذين وادعهم الرسول عليه السلام عقب مَقْدمه إلى المدينة، وعاهدهم وأقرهم على دينهم، ولكنهم ناصبوه العداء بغيا وحسدا، وكانت أحبارهم يسألونه عليه السلام فيتعنتونه ويأتونه باللبس، ليلبسوا الحق بالباطل. ورغم ذلك أرشد الله المسلمين إلى مقام العفو والصفح عما في صدورهم من حقد، وما يفترونه=

قلوب الناس، والقتال ضرورة يُلجأ إليها لعلاج شذوذ لم تنفع فيه الحكمة، والإذن بالقتال توطئة للأمر به، إلى أن وقعت غزوة بدر الكبرى، فأصبح القتال مفروضاً على المسلمين جميعاً، على ألا يتجاوز قريشاً ومن حالفها من بني بكر وبعض يهود المدينة، وهم بنو قينقاع، و«كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله، وحاربوا فيما بين بدر وأحد»[١]، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[٢]. فهذه الآية أَمَرت المسلمين بقتال من قاتلهم، دون بغي ولا عدوان، والكف عمن كف عنهم[٣]. وقد بينت الآية التالية الغاية من هذا الأمر: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾[٤]. أمرت بقتالهم لإقامة دين الله، وتأمين الحرية به، والدعوة إليه، فلا يبقى إمكان لفتنة المسلمين عن دينهم، وصد الناس عن الإسلام، والمسلمين عن الدعوة إليه[٥].

وتأسيساً على هذه الحكمة السامية، ختم القرآن الكريم تشريع القتال بالأمر بقتال المشركين كافة كما يقاتلون المسلمين كافة، وبقتال الكتابيين حتى يدخلوا في الإسلام، أو يعطوا الجزية كأمارة على الخضوع، وانعدام القدرة على الصد عن سبيل الله، ثم بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[٦]،

= بألسنتهم من كذب، فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾: البقرة/١٠٩ فجعل الله العفو والصفح إلى غاية، وهو «تمكين الرسول ونصره»: (تفسير ابن تيمية: ١١٢/٥).

(١) سيرة ابن هشام: ٥٦١/١.

(٢) البقرة/١٩٠.

(٣) الطبري/١٨٩/٢/١ ـ بتصرف ـ.

(٤) البقرة/١٩٣.

(٥) الدستور القرآني: ٣٩٥/١ ـ بتصرف ـ.

(٦) التوبة من الآية: ٣٦.

وقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾...[٢].

وإذا كانت الغلبة في القتال للمسلمين، المُعبَّر عنه بالإثخان في الأعداء، وأمِنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم، فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل، ويكتفوا بالأسر، ثم يخيرهم في الأسارى، إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل، وإما بأخذ الفداء عنهم[٣]، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾[٤].

وإذا كف الأعداء عن العداء والقتال، وجنحوا إلى السلم، التي هي الأصل في العلاقة بين الناس، كما تقدم، فالله يأمر نبيه عليه السلام بتلبيته حقنا للدماء، حتى ولو كان هناك احتمال بأن هذا الجنوح قد يكون خداعاً[٥]، وذلك بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[٦].

وصونا لهذا السلم الأصلي، جعل الله للمسلمين الحق في أن ينشؤوا علاقات ومعاهدات بينهم وبين غيرهم بقصد وقف الحرب وقفاً مؤقتاً أو دائماً، والتحالف الحربي، والتعاون على دفع عدو مشترك، وغير ذلك من

---

(١) التوبة/٢٩.

(٢) التوبة من الآية: ٧٣.

(٣) الوحي المحمدي/٣١٣.

(٤) محمد/٤.

(٥) الوحي المحمدي/٣١٢ والدستور القرآني: ٣٩٨/١ والإسلام: عقيدة وشريعة/٤٦٧.

(٦) الأنفال/٦١ ـ ٦٢.

المصالح[١]. وقد انعقد بين النبي عليه السلام والمشركين معاهدات سلم وصلح، وانعقد مثل ذلك بينه وبين اليهود[٢]. وكان المسلمون يوفون بهذه المعاهدات إذا استكملت شروطها، والتزم الطرف الآخر بنصوصها، ولم تبد منه بوادر الخيانة، فإذا أخل بشيء من التزاماته، أو ظاهر على المسلمين الأعداء بالمال أو السلاح، أو المؤامرات، أو هاجم هو وحلفاؤه حلفاءهم؛ فإن المعاهدات تسقط حرمتها، وعلى المسلمين مهاجمة الغادر في عهده، ورد عدوانه وبغيه[٣]. ولهذا أمر الله نبيه بنبذ عهود المشركين الذين نقضوا عهد النبي والمؤمنين حينما ظاهروا حلفاءهم **«بني بكر»** على حلفائه **«خزاعة»** واستثنى منهم المعاهدين، بوصفهم أهل دار واحدة[٤]؛ حيث قال سبحانه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ ثم قال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾[٥]. وقبل هذا، قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ . . .[٦].

وكما أمر الله النبي والمؤمنين بنبذ عهود الناكثين لأيمانهم، وقتالهم، وإتمام عهد المعاهدين إلى مدته؛ كذلك أمرهم بترك موالاة الذين اعتدوا عليهم في دينهم، وأخرجوهم، وظاهروا على إخراجهم، وبترك المسالمين وشأنهم؛ بل وحثهم على البرور بهم، والعدل في معاملتهم، وقد أشار إلى

---

(١) ينظر بيان ذلك في الإسلام: عقيدة وشريعة/٤٦٨.

(٢) كما أشارت إلى ذلك آيات: البقرة/٩٩ ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ . . . والتوبة/٤ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

(٣) الإسلام: عقيدة وشريعة/٤٦٩ ـ ٤٧٠ ـ بتصرف ـ.

(٤) الوحي المحمدي/٣١٥ والإسلام: عقيدة وشريعة/٤٧٠.

(٥) التوبة/٧ ـ ١٢.

(٦) التوبة/٤.

ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾...[(١)].

ومن مجموع هذه النصوص المقتطفة من مختلف أدوار التنزيل، نخرج بخلاصة واضحة في المعاملة التي أمر بها القرآن الكريم، وجعلها شعاره في الصلة بالناس، وهي:

* أن الأصل في العلاقات الإنسانية هو السلم والتعاون، وحسن الجوار مع المسالمين والمحاربين. ومن هنا، سلكت الدعوة إلى الإيمان، في مرحلة المسالمة، سبيل الحكمة والموعظة الحسنة، من دون إكراه ولا عنف، وحين لم تفد الموعظة أذنت للمسلمين ثم أمرتهم، في مرحلة المنازلة، بقتال المعتدين والناكثين في عهودهم لرد العدوان والأذى عنهم، وتأمين حريتهم بدينهم، وكف الصد عن سبيل ربهم، ونقض عهودهم، في حين حرمت عليهم قتال المسالمين والكافين، والمعاهدين، والخاضعين، والذميين؛ بل وأباحت البر والإقساط إليهم، إقراراً لمبادئ الحرية والعدل، وترسيخاً لخلق المودة والرحمة، ومنعاً للاعتداء والاضطهاد، حتى يعم السلام العالم بأسره.

وليس من ريب أن أساس السلام في الحياة، والتعاون المثمر بين الشعوب والأمم لعمارة الأرض، وإقامة العدل المطلق فيها، وإشاعة المودة والرحمة بين أفرادها، لا سبيل إليه إلا ببذل المال في القيام بحق الله وحق الناس، وفقاً للنظم التي تبنى عليها المعاملات المالية في القرآن.

٢. ٤. ٣ ـ المعاملات المالية

اتضح مما بُسط من كلام على عبادة الزكاة، أن المال مال الله، وأن

---

(١) الممتحنة/٨ ـ ٩.

القرآن ـ في مكيه ومدنيه ـ حث على إنفاقه في سبيل الله، بأساليب الترغيب والترهيب؛ وذلك ليوثق عرى المحبة بين الأغنياء والفقراء، ويزيل الحواجز التي قطعت ما بين الناس من صلات التراحم والإحسان. . .

وكما عرض القرآن للمال في مصدره، ووضعه في مكانته، وأمر بإنفاقه في مصارفه؛ عرض كذلك لجانب آخر من الجوانب التي تتعلق بشؤونه؛ ذلك هو جانب النُظُم التي تقوم عليها المعاملات المالية التي تجري بين الناس، ويحتاجون إلى ضبطها في انتظام معايشهم ومصالحهم، وتبادل الإحساس وحل المشكلات بينهم.

واهتماماً بذلك الجانب الخطير في حياة الناس، وضع القرآن الكريم أسساً ثابتة لهذه المعاملات، وبينها في العهد المدني بصيغة الأمر والتشريع؛ فأمر بالوفاء بكل ما يتناوله اسم العقد أمرا عاما، من بيع، وإجارة، وزواج، وشركة، وأمانة، وعهد، وغير ذلك؛ حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾(١)، ونهى القرآن عن أكل أموال الناس بالباطل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾(٢).

وعند مزاولة التجارة وما يترتب عنها من بيع وشراء ـ وهو محور المعاملات ـ، أمر القرآن بكتابة عقود بين المتبايعين للاستيثاق في حالة تنازع أو نسيان؛ فأمر بكتابة الدين، وذلك نص قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾(٣)، ثم شرع الرهن والإشهاد على المبايعة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾(٤)، وقوله: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾(٥).

وإذا كان القرآن قد أحل البيع المفضي إلى تنمية المال، على الوجه

---

(١) المائدة/١.
(٢) البقرة من الآية: ١٨٨.
(٣) البقرة/٢٨٢.
(٤) البقرة/٢٨٣.
(٥) البقرة/٢٨٢.

الذي يرضي الله، ويبقي على صلات التراحم والتعاون بين الأفراد، ويُسهم في سعادة الإنسان؛ فإنه على عكس ذلك، حرم الربا تحريماً قاطعاً؛ لأنه مفض إلى نقص أموال المحتاجين، وزيادة أموال المترفين بخير حق، وذلك أساس كبير لقلق الناس، وإثارة الضغائن والأحقاد، التي تقطع ما بينهم من صلات.

ومن أجل ضرر الربا، أعلن القرآن تحريمها بهذا الأمر الجازم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾[(١)].

وخلاصة القول في هذه الأصول للتعامل المالي:

إن القرآن الكريم دعا إليها، ليكون المال حقاً تشترك في الانتفاع به جميع العباد، وذلك بشرط تحصيله من الطرق التي فيها خير للناس، وصرفه في نفعهم ومصالحهم وحقوقهم؛ مما يدل دلالة قاطعة على أن هذه الدعوة إنما ترنو إلى هدف واحد، يتصل ببناء الفرد والمجتمع معاً، وهو: تثبيت خلق الرحمة، مبعث البذل في قلب المسلم، وتأليف مجتمع متعاون متراحم، تتفاعل وحداته بإحساس واحد واتجاه واحد وغاية واحدة.

وليس غير هذا المجتمع بقادر على أن يحقق عزة الإنسان وسعادته، ومعنى خلافته في الأرض، وليس غيره كذلك بقادر على أن ينشئ لبنات متماسكة قوية، بتوخيها للمبادئ الثابتة التي أرساها القرآن، وجعلها أسساً ضابطة للمعاملات الاجتماعية والعلاقات الأسرية.

٢. ٤. ٤ ـ المعاملات الاجتماعية

بُين فيما مضى من مجالات، أن القرآن الكريم دعا المسلمين في كل عبادة ومعاملة إلى التآلف بالتعارف والتآخي بالتعاون، وذلك بمقتضى عقد الإيمان الذي يجمعهم، والمبادئ العليا التي توحدهم، والمسؤوليات العظمى التي توجبها أخوتهم. . .

(١) البقرة/٢٧٨.

وجرياً بدستور التعاون والتآخي، الذي يعقد صلات المختلفين، ويمحو عداوات المتخاصمين، دعا القرآن الكريم المؤمنين إلى التعاون المادي، وسبيله، كما تقدمت شواهده، مدُّ يد المعونة في حاجة المحتاج، وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع...، ودعا أيضاً إلى التعاون الأدبي، وأعني به: تعاون المسلمين جميعا في تنظيم المجتمع وإصلاحه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتناصح بالخير، والتواصي بالحق، والتوجيه إلى البر، وإصلاح ذات البين...[١]، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[٢]، وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾...[٤].

وإذا كان مبدأ الأخوة والتراحم والتكافل هو الأساس الذي تنبني عليه وحدة المجتمع المسلم، وتنعقد عليه صلات أفراده، ومسؤوليات بعضهم عن بعض؛ فليس من شك أن تلك المشاعر السامية لا سبيل إلى تلقيها وتنميتها إلا في أكناف الأسرة، بوصفها اللبنة الأساس في بناء المجتمع المسلم، والمحضن الطبيعي الذي يتولى رعاية الإنسان وتنمية جسده وعقله وروحه، وإعداده للوظيفة الكبرى المنوطة به في هذه الحياة.

ومن هنا، كانت تنمية الأسرة، وتقوية عراها، وصيانتها من التفكك، وتنقيتها من فوضى الجاهلية، ورفعها إلى مستوى العبادة السامية؛ من أهم ما اعتنى القرآن بتقريره، وأمر برعايته وتحقيقه، ملحوظا فيه خصائص الفطرة الإنسانية وحاجاتها ومقوماتها، ومبادئ الروابط السامية التي ترتفع به عن حضيض الحيوانية، وتدعوه إلى التنعم باطمئنان النفس في أسرته، والتعامل

---

(١) وبيان ذلك بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا الباب.

(٢) المائدة من الآية: ٢.

(٣) آل عمران/١٠٤.

(٤) الحجرات من الآية: ١٠.

بالمعروف مع أهله، في الوفاق والخلاف سواء. ولعل تتبع آيات متناثرة في سور شتى من القرآن الكريم، أن يبين لنا مدى عناية القرآن بالأسرة، واهتمامه بإقامتها على المودة والرحمة، وبتنظيمها، وتفصيل أحكامها، وبالدعوة إلى تنفيذ توجيهاتها بتقوى القلب.

ففي الزواج، وهو أصل الأسرة، ووسيلة تنظيم الفطرة البشرية وبقائها؛ امتن الله على الناس بأن جعل بين الزوجين مودة ورحمة، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[(١)]، وفي المباشرة، وهي العلاقة الخفية بين الجنسين، أمر الله بمباشرة النساء في الطهر، ومن حيث أمر الله، فقال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾[(٢)]. فرفع أمر المباشرة عن أن تكون شهوة جسد تُقضى في لحظة، إلى أن تكون وظيفة إنسانية وعبادة ربانية ذات غايات أسمى من تلك اللحظة وأعلى[(٣)]. وفي عقد الزواج، أمر سبحانه بإكرام الزوجة بمهر يدفعه إليها زوجها، فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[(٤)]، وأمر رسول الله ﷺ الولي أن يأخذ رأي المخطوبة في شريك حياتها، وصح ذلك في قوله عليه السلام: **«لا تُنكح الأيم حَتى تُستأمر، ولا تُنكح البِكر حَتى تُستأذن»**، قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها؟ قال: **«أن تَسكُت»**»[(٥)].

وفي المشاركة والمعاشرة، قرر القرآن الكريم المساواة بين الزوجين في الحقوق والواجبات، واختص الزوج بمسؤولية القوامة، وأمره بحسن المعاشرة وبالصبر عند تسرب بواعث الكراهة إلى القلب، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[(٦)]، وقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ

---

(١) الروم من الآية: ٢١.
(٢) البقرة من الآية: ٢٢٢.
(٣) كما بُين مراراً.
(٤) النساء من الآية: ٤.
(٥) مسلم، في النكاح (٦٤/١٤١٩)، عن أبي هريرة.
(٦) البقرة من الآية: ٢٢٨.

فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١].

وفي علاج نزغات الكراهة التي تمتد إلى قلب المرأة، فتحملها على النشوز؛ أمر القرآن الزوج بتقديم الموعظة لزوجته، فإذا لم يفلح هجرها، فإذا لم تكترث بوعظ أو هجر، ضربها ضربا غير مبرح، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ﴾[٢]، فإن شعرت الزوجة بنشوز الزوج أو إعراضه عنها، فعليها أن تحاول الإصلاح «**بكلمة طيبة، أو إشراقة في وجه، أو عدول عن رغبة**»[٣]، قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾[٤].

وإذا تجاوز الخلاف بين الزوجين حد خوف النشوز، ولم يجد أحدهما سبيلاً لتسوية شأنهما وعلاج حالهما؛ أمر القرآن أقاربهما، وهم الأحرص على سعادتهما، أو جماعة المسلمين، باعتبار الأخوة الدينية التي توجب التضامن في دفع الشر وجلب الخير؛ بالتحكيم بينهما، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ﴾[٥].

وإذا تعذر الإصلاح بينهما، واستحالت حياتهما إلى جحيم لا يطاق؛ أباح القرآن الطلاق، وجعله فترة اختبار، وسلك به طريق العلاج، وكرر في مراحله، حتى يتمكن الطليقان من مراجعة أنفسهما، وتدبر عاقبة أمرهما، لعلهما يجدان ما يدفعهما إلى العودة لاستئناف حياة زوجية جديدة. ومن هنا، أمر الله تعالى أن يكون الفراق بمعروف، وأن يكون الطلاق رجعياً، وفي طهر لم يمسسها فيه، وأن تبقى المطلقة في بيت الزوجية، فقال: ﴿فَإِذَا

---

(١) النساء من الآية: ١٩.
(٢) النساء من الآية: ٣٤.
(٣) الإسلام: عقيدة وشريعة/١٧٨.
(٤) النساء الآية: ١٢٨.
(٥) النساء من الآية: ٣٥.

بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾[١]، وقال: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾[٢]. وأغرى الزوج بالرجوع إلى زوجه ما دامت في عدتها، فقال: ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾[٣]، حتى إذا لم يريدا إصلاحاً أو ارتجاعاً، فرض الله للمطلقة الحق في المهر المتفق عليه حين إنشاء العقد، أو متعة لمن طُلقت قبل الدخول، ولم تكن قد سُمي لها مهر، ونصف المهر لمن طلقت قبل الدخول، وقد فُرض لها مهر، قال تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم ﴿٢٣٥﴾ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴿٢٣٦﴾﴾ . . .[٤].

وإذا كان الطليقان والدين لطفل رضيع، فإن الله أمرهما بالتشاور وتبادل الرأي في إرضاعه وفطامه؛ حيث قال: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾[٥]، وقال: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴿٢٣٣﴾﴾[٦].

---

(١) الطلاق من الآية: ٢.

(٢) الطلاق من الآية: ١.

(٣) البقرة من الآية: ٢٢٨.

(٤) البقرة/٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٥) الطلاق/٦.

(٦) البقرة/٢٣٣.

وتحقيقاً لمثل هذا التكافل العائلي في رضاع الطفل وفطامه، وحرصا على توثيق العرى بين أفراد الأسرة وربط قلوب بعضهم ببعض، ولا سيما بعد موت الأزواج أو الأقرباء؛ أمر القرآن الكريم بتوزيع الميراث على مستحقيه أمر فرض وإلزام، حسما للنزاع الذي قد ينشأ بينهم. وعبر عن هذا الأمر بلفظ «**الوصية**» و«**الفريضة**»، عند بيان أنصباء الأبناء، والوالدين، والزوجين؛ حيث قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وقال: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ إلى قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

وهكذا أنزل الله أوامره وأحكامه المتعلقة بشؤون الأسرة الإنسانية الخاصة والعامة، ومعاملاتهما؛ لتكون أسساً قوية ثابتة لتنظيم الفطرة، وتوطيد أركان البيت، وإسعاد أفراد الأسرة، وعلاج مظاهر الشقاق والنفرة. ومن ثم أسسا لبقاء مجتمع الإنسان، وتعارفه وتعاونه في عمارة الكون وتدبير المصالح وتحمل المسؤوليات المشتركة، التي تتجه به في اتجاه الصلاح والنماء والهناء...

---

(١) النساء/١١ ـ ١٢.

تحصيل وتعليق:

واستناداً إلى هذه السياحة القرآنية في حقيقة الأوامر الدينية ومجالاتها وثمراتها بالقرآن الكريم، يتحصل ويتبين:

* أن الأوامر الدينية تكاليف إلهية، صبغتها التيسير، وحكمتها التمحيص، وشرطها الاختيار، ومقتضاها الامتثال، وثمرة إطاعتها أو عصيانها، صلاح أو فساد في الدنيا، وثواب أو عقاب في الآخرة.

* أن الأوامر الدينية، بوصفها صادرة عن وحي الله الصادق إلى الأنبياء، هي أصل الشرائع والأحكام، وأساس انتظام حياة الإنسان، وذلك لأنها تؤسس لتثبيت الدين الحق، وتدعو إلى تحقيق العبادة غاية الخلق، وتتساوق مع فطرة البشر، وتزكي نفوسهم وتضبط حياتهم في منتهى اليسر.

* أن أوامر القرآن تنبسط متداخلة مترابطة، لتشمل مجالات الحياة الإنسانية كلها، وتستوعب سور القرآن جميعها؛ وهذا المسلك القرآني الفريد يوحي ـ فيما ألمح ـ بأن جميع ما في القرآن من أوامر وأحكام، وإن تنوعت مجالاتها وتعددت سورها وتفرقت آياتها، وحدة محكمة لا انفصام لها في التصور، ولا يصح تفريقها في العمل، ولا امتثال بعضها دون بعض، أو الأخذ بها في مجال دون آخر، ولا ريب أن لمثل هذا الإيحاء تأثيراً بالغاً في المراقبة الكلية لكل أمر، وعدم الاشتغال بأمر عن أمر، أو الوقوف في موضع واحد عند حكم دون حكم؛ فيكمل للقلب زكاته، وللعقل إدراكه، ويتحقق للمجتمع خيره وصلاحه، وللمكلف ثوابه وخلاصه.

* أن تتبع مفاهيم الأمر الديني في القرآن الكريم يهدي إلى تنويع في أساليب التعبير، بحيث عبر سبحانه عن دلالة الإلزام أو الإرشاد في الأمر تارة بمادة الأمر نفسها ـ وهي المقصودة أصالة بالدراسة ـ، وتارة بالصيغة، وتارة بالأخبار، وطوراً بألفاظ الكتب والفرض والقضاء... ولعل هذا التنويع في الأساليب لون باهر من ألوان الإعجاز البياني في القرآن، يؤيد صدق نبينا ﷺ، ودليل ساطع على أن ذلك الكتاب ليس كتاب تشريع فحسب، بل هو كتاب هدى وإرشاد؛ يسوق آيات الأوامر والأحكام بأساليب

متباينة، ليكون ذلك أدعى إلى قبولها وامتثالها والاسترشاد بهداياتها وتوجيهاتها في أجواء مختلفة، ولو جاءت أساليب بيانها على منهاج واحد لفقد القرآن أهم مميزاته في الهداية والعبرة، ولشعرت النفوس بالسآمة والنفرة، فأعرضت عن تلاوته ومدارسته، واستثقلت امتثال أوامره.

وعلاوة على ذلك، فإن هذا التنويع ينسجم مع مراعاة القرآن للمقامات ومراتب المأمور به. فمن حيث مراعاة المقام، فإن هذه الأوامر نزلت في أوقات مختلفة، وفي فترات متباعدة، وفقا للأحداث ومقتضيات الأحوال. ولكل واقعة أو مناسبة أسلوب خاص يناسبها؛ فقد تقتضي مناسبة الفرض والتشريع الدلالة على الوجوب بفعل الأمر الصيغي[(١)]، وقد تتطلب مناسبة التربية والتوجيه الدلالة على الوجوب بوعد على الفعل[(٢)]، وتتطلب مناسبة التقسيم والتوزيع الدلالة على الإلزام حسماً للنزاع بلفظ الوصية من الله[(٣)].

ومن حيث مراعاة مراتب المأمور به، فإن لكل مرتبة أسلوباً يناسبها أيضاً، فقد يتطلب تثبيت فضيلة ربانية أو خلقية لها صلة بالعقيدة أو الشريعة أو بهما معاً، التعبير عن وجوبها بفعل الأمر الصريح[(٤)] أو بلفظ القضاء[(٥)]، وقد يتطلب تشريع ركن تعبدي التنصيص على فرضيته بلفظ الكتب... وهلم جرا[(٦)].

* أن تتبع أوامر القرآن حسب مراحل التنزيل، وبقدر الطاقة والحاجة، يعين على فهم المنهاج الحكيم الذي سار عليه القرآن الكريم في عرض هذه الأوامر وبيانها؛ حيث تعلقت معظمها في المرحلة المكية بترسيخ أصول الإيمان ومحاسن الخلال، وتشريع أركان الإسلام، من غير تفصيل لها أو

---

(١) كما في آيات الأمر بالقتال، من آيات العهد المدني.
(٢) كما هو الشأن في التوجيه العام إلى الإنفاق في أول الإسلام.
(٣) كما في آيات الوصية بالميراث المتقدمة آنفاً.
(٤) وشاهد ذلك: آيات الأمر بالعبادة، والاستقامة، وأداء الأمانة...
(٥) كما في آيات الأمر بالإحسان إلى الوالدين، المقرون بعبادة الله في أكثر من موضع في القرآن.
(٦) كما في آيات الصيام من سورة البقرة.

تقييد فيها، وتوجهت في إيجاز معجز إلى الأفراد ـ وعلى رأسهم النبي ﷺ ـ؛ لأن حياتهم آنذاك كانت حياة دعوة، مترددة بين الحل والترحال، والأمن والخوف، والقبول والرفض، ومن ثم لم يكونوا في استعداد لأن يخاطبوا بحلال أو حرام أو تفصيل للأحكام.

في حين توجهت تلك الأوامر في المرحلة المدنية، بأسلوب بياني معجز، إلى الجماعة المؤمنة بوصف الإيمان؛ لأنهم كانوا بأخوة الإيمان جماعة متميزة في الحياة بدينها وجهادها ودستورها. وباعتبار هذا الواقع، تعلقت الأوامر في تلك المرحلة بتأكيد أصول الإيمان ووصلها بالشرائع، والحث على المحاسن وإحاطتها بسياج العقائد، وتكميل الشعائر بتفصيل ظروفها وأحوالها، ومراعاة التيسير في أمورها، ووضع قيودها وشروطها، وتتميم أحكامها وآدابها، ولم يكن للقرآن بد من هذا التفصيل، سموا بها عن مواطن الخلاف والجدل، ولإرادته بقاءها على الوضع الذي رسمه، لابتنائها على أسباب لا تتغير بتغير الأمكنة والأعصار، وباعتبار واقعهم ذلك، نزلت على المؤمنين الأوامر المُركِّزة لوحدتهم، المنظمة لشؤونهم، الفاصلة بينهم وبين غيرهم، وغير ذلك مما بسطناه في مجال المعاملات.

وهكذا، اختلفت الأوامر المكية عن الأوامر المدنية، من حيث الإجمال والتفصيل، وفقا لأحوال المخاطبين وحاجاتهم في مكة والمدينة، ولئن كان القرآن قد فصل هذه الأوامر في نواح لا بد فيها من التفصيل، كما في العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمواريث. . . ، جرياً على سنته في «**تفصيل ما لا يتغير**»؛ فإنه في أكثر أوامره ومتعلقاتها، المتغيرة بتغير الزمن وصور الحياة؛ كالقيام بالقسط، والعدل في الشهادة والحكم، والمشاورة في الأمر، والاستيثاق في الدين. . . ؛ لم يكن مفصلاً، يتتبع الصور ويرصد الجزئيات، ولكنه يؤثر الإجمال، جرياً على سنته في «**إجمال ما لا يتغير**»، ويترك التفصيل لأهل الاجتهاد في دائرة ما بين لهم من مقاصد أو أشار من قواعد.

ومن هنا، فلئن كانت بنا اليوم من حاجة، في غياب أوامر تتنزل،

فهي - بلا ريب - إلى دراسة أوامر القرآن وتوجيهاته وأحكامه، وفق ترتيب نزولها، لا سيما على عمومها، وأيضاً دراسة السنة الدالة عليها والشارحة لها، ومتابعة حوادث السيرة المواكبة لنزولها، وذلك كي نتبين معالم المنهاج الأول كيف سار، وكيف رُسم وفقاً لحاجات المسلمين الأول، ومن ثم أن نستلهم هذا المنهاج في فقه أوامر ديننا المفصلة، وفي تنزيل أوامره المجملة على واقعنا المتجدد، في ضوء المقاصد العامة والقواعد الكلية. وليس غير هذا المنهج الأول بقادر على أن يحقق للأمة عودة صحيحة من جديد إلى التاريخ!

وإذا كانت تلكم هي حقيقة الأوامر الدينية ومميزاتها ومجالاتها وطرائق بيانها، فمن الحتمي على الإنسان - فرداً ومجتمعاً - أن يوجه بذور استعداده نحو غايتها الحقيقية، وهي العبودية لله، بامتثال أوامره، اتقاء واستعلاء على اتباع أوامر سواه، وإن اختياره لهذا الامتثال عن وعي وإدراك، لهو السبيل الوحيد لكي ينضوي في سلك الكائنات الأخرى، التي آثرت امتثال أوامر الله الكونية، بلا حرية ولا إدراك، ومن ثم ليحقق التوافق والانسجام بينه وبينها، ويحتل منها قمتها، مسخرا إياها بأمر الله لتنفيذ الخلافة وحمل الأمانة والقيام بالتكليف؛ فيصبح في النهاية أهلا لنيل وراثة خالدة.

أجل، إن الإنسان لن يصل إلى هذه المنزلة التي أرادها الله له في الدنيا والآخرة إلا إذا خضع بجانبه الاختياري لله، واكتمل عبدا له سبحانه، وتلقى أوامره التكليفية باعتبارها أوامر كونية واجبة النفاذ، واعتقد بحق اليقين معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1].

أما إذا ترك الخضوع لله، وآثر الفسق عن أوامره واتباع هوى النفس وخطوات الشيطان؛ فإنه يشذ عن المخلوقات، ويخل بالتناسق المحكم في الكون، وينبع من بين يديه الشر، فيفقد الخلافة، ويضيع الأمانة، ويعجز

---

(١) الأحزاب من الآية: ٣٦.

عن تحقيق معنى الإنسانية والحرية، ويتردى من القمة إلى الهاوية.

وذلك هو واقع حال الإنسان الذي يؤثر الدنيا على الأخرى، مسخراً لطائفه الإنسانية تحت إمرة النفس الأمارة بالسوء والشيطان، وهذا الواقع وما يتصل به ستكشف عنه الدراسة الموضوعية لنصوص الأمر الشيطاني في الفصل التالي.



الفصل الثاني:
الأمر الشيطاني



توطئة

اقتضت سنة الاختيار التي بُني عليها التكليف والثواب والعقاب، أن يُخْلق الإنسان بإرادة ذات سلطان، بين كفتي ميزان، هذه من ذات اليمين تميل به إلى توجيه لطائفه الإنسانية نحو عبادة مولاه، بامتثال أوامره في عقائده وشرائعه؛ للوصول إلى ما قُدر له من كمال في دنياه وأخراه؛ وهذه من ذات الشمال تنزع به إلى تسخير تلك اللطائف السامية تحت إمرة النفس الأمارة بالسوء والشيطان، في عصيان أوامر الله وارتكاب الآثام، ثم سوقها أيضاً لامتثال أوامر شياطين الإنس المخالفة لهدى الله، في الاعتقادات والأقوال والأعمال، فإذا أصاب هذا الإنسان التقدير والاختيار، وصرف أجهزته المعنوية إلى ما يناسبها من وظائف العبودية، واستعلى بإرادته القوية على داعي النفس والشيطان؛ فإنه يترقى بالمجاهدة في سلم الكمالات، ويصبح صالحا بمسلكه في الحياة لمنزلة القرب من الله.

أما إذا أخطأ التقدير والاختيار، ووجه أجهزته المعنوية إلى تحصيل الملذات، مستسلماً بإرادته الضعيفة لهوى النفس وأوامر الشيطان ونزغات الطغيان؛ فإنه لا شك سينغمس في مستنقع الآثام، ويتردى إلى أدنى دركات الدناءة، ويرحل من الدنيا إلى جحيم الشقاوة.

ومن هنا، فإن هذا الاختيار الخاطئ، الذي يشقى به الإنسان، ليدعو بإلحاح إلى إثارة تساؤلات: تُرى ما الذي يدعو هذا الإنسان، العاقل المريد إلى الاستسلام لأوامر النفس والشيطان؟ وهل للشيطان من سلطان حقيقي على نفس الإنسان؟ وما هي حقيقة أمره؟ وما هي مداخله لفرضه؟ وما هي

تعاليم وحيه وبواعثه؟ ومن هم خلفاؤه في دعوته؟ وما هي صفاتهم؟

جواب ذلك، مذيلاً بأبعاده، يقتضي دراسة قضية الأمر الشيطاني، استناداً إلى نصوصها في القرآن الكريم، واستصحاباً لمعانيها في التعريف وشروحها في الحديث والتفسير.





المبحث الأول: حقيقته

نستشف من معنى أمر الشيطان، الذي حُدد في مبحث التعريف، أن هذا الأمر عبارة عن وسوسة خطيرة من وساوس الشيطان، مقدمتها المواعيد والأماني الكاذبة، ووسيلتها التزيين والإغراء، وغايتها الإضلال والإغواء، وسنامها التسلط والاستعلاء ـ بإذن الله ـ ومجالها الواسع، النفس الإنسانية، التي طويت فيها إرادة الطاعة وإرادة المعصية.

وتأسيسا على هذا التحديد والترتيب، نبسط مجاري القول في مفهوم الوسوسة، وما يحف بها من ألفاظ خطراتها؛ كالتزيين، والوعد، والتمنية، والسلطان، وقصدنا بيان علاقة الأمر بها وموقعه منها، بشكل يسهم في تشريح سماته الدلالية، وقياس مداها، من مبتدئها إلى منتهاها.

* * *

المطلب الأول: مفهوم الوسوسة

أصل الوسوسة: **صوت غير رفيع**[1] ومنه «الوسواس، وهو صوت

(١) المقاييس/ وس. وقريب منه قول ابن القيم في تفسيره: ص ٦٠: «وأصل الوسوسة: الحركة أو الصوت الخفي، الذي لا يُحس، فيحترز منه»، وانظر كذلك إغاثة اللهفان: ١١١/١، ووصفها الراغب في المفردات، بأنها «الخطرة الرديئة».

الحلي والهمس **الخفي**»[١]. ومبنى الكلمة يوحي بتكرار معناها[٢]؛ لأن الوسوسة كلام «يكرره الموسوس، ويؤكده عند من يلقيه إليه... و نظير ذلك: زلزل... وكبكب الشيء...»[٣].

ومن هنا، فإن الوسوسة تلتقي مع الأمر في كونها من جنس الحديث والكلام[٤] ولهذا استُعملت في القرآن الكريم[٥] في معنى: الحديث الخفي للنفس والشيطان؛ كالذي في قوله تعالى، من آية ق: ١٦ ...﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.... قال المفسرون في معناه: «ما تحدث به نفسه»[٦] وقد قال النبي ﷺ: «**إنَّ الله تجاوز لأمتي عما حَدَّثَت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به**»[٧]، وكذلك قوله تعالى في أول إغواء الشيطان لآدم وزوجه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾...[٨]؛ قال صاحب الميزان: «الوسوسة هي الدعاء إلى أمر بصوت خفي»[٩]، وقوله في الاستعاذة من وسوسة شياطين الجن والإنس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾[١٠] إلى قوله: ...﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ

---

(١) المفردات/وس.

(٢) وتكرير اللفظة ومعناها يتساوق مع دلالة ورود الأمر بصيغة المضارع في الآيات المتقدمة بمبحث التعريف الاصطلاحي، مما يدل على أن الأمر الشيطاني هو وسوسة دائمة، متجددة، حتى يعزم عليها العبد، ويقع في المعاصي.

(٣) التفسير القيم/٦٠.

(٤) ويعضد ذلك، قول ابن تيمية: «الوسواس من جنس الحديث والكلام»: (التفسير الكبير: ٥٧٦/٧)، وقد يكون «من قبيل الطلب، وهو أن يخطر في القلب ما يريد أن يفعله...»: (المجموع: ٣٥٤/٢٢/١١).

(٥) في خمس آيات مكية، اثنتان منها صريحتا الإسناد إلى الشيطان؛ وهما: آيتا الأعراف: ٢٠ وطه: ١٢٠ وآيتا الاستعاذة، من سورة الناس، يشترك فيها الشيطان الموسوس من الجن والإنس.

(٦) التفسير الكبير: ٥٧٧/٧.

(٧) رواه مسلم في الإيمان، رقم: ٢٠١، ٢٠٢، والبخاري في العتق، رقم: ٢٥٢٨، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) الأعراف: ٢٠.

(٩) الميزان: ٣٥/٨.

(١٠) الناس/١.

ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾[١]. فذكر وسوسته أولا، وهي مشتركة بين الجن والإنس[٢]، ثم ذكر أنها تلقى في صدور الناس؛ فتدخل قلوبهم. وقد جعل الله للشيطان نفوذا إلى قلب العبد وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وُكل بالعبد، فلا يفارقه إلى الممات. وفي الصحيح، عن النبي عليه السلام أنه قال: «. . .**إن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم**». . .[٣]، وقال: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن**. . .»[٤]. فالملك يُلهم التقوى للنفس، والشيطان يحدث وسواس الشر. لهذا كانت وسوسته مبدأ كل شر، ومعصية، وبلاء[٥]. وشر النفس وفسادها، إنما ينشأ من وسوسته، فهي ـ كما قال ابن القيم ـ: «مركبه، وموضع شره، ومحل طاعته، وباب كيده الأعظم»[٦]، وما أحسن ما وصفها الله بالأمارة[٧]، إذ أطاعت أمر الشيطان، فصارت شيطاناً رجيماً، تخالف أوامر الله، وتدعو الإنسان إلى الطغيان، ومثلها في القرآن الكريم نفس امرأة العزيز، سيدة يوسف، فإنها دعته إلى الفاحشة، واستعانت بالنساء وحبسته، وقد أقرت بذنبها، مبينة سبب مراودتها ليوسف، فقالت فيما يحكيه القرآن عنها: . . .﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ

---

(١) الناس/٤ ـ ٦.

(٢) كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾. . . الأنعام من الآية: ١١٢.

(٣) من حديث رواه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٨)، عن علي بن الحسين.

(٤) رواه مسلم في المسافرين (٦٩).

(٥) وهي مراتب يتدرج فيها إبليس وجنوده مع ابن آدم ابتداء من أعلاها، وهي شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، إلى أدناها، وهي أن يسلط عليه حزبه من الجن والإنس بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع. . .: (يراجع بتوسع: التفسير القيم: ٦١٢ ـ ٦١٤).

(٦) إغاثة اللهفان: ١١٢/١.

(٧) كما وصف قسيمتيها: اللوامة والمطمئنة؛ مما يدل على أن النفس البشرية يتنازعها داعيان: داعي النفس والشيطان، وداعي الهدى والإيمان. (انظر إغاثة اللهفان: ٧٥/١ والتفسير الكبير: ١٨٧/٥ والفتاوى: ٨٥/٢٨/١٤).

ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾[(١)] وقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾...[(٢)].

وإذا كانت الوسوسة هي أصل المعاصي وغاية كيد الشيطان، فما هي أنواعها ونزغاتها؟ وكيف يُخطر الشيطان في قلب الإنسان الأفعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان، حتى تصير مأمورات تُعقد عليها العزيمة، وتتطلب الامتثال؟ وأي مدخل يسلك الشيطان في دسها، حتى تلبس ثوب الحق وتنجذب إليها النفوس طائعة؟

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني: مفهوم التزيين

التزيين في اللغة: **التحسين**[(٣)] أي: جعل الشيء زَيْنا؛ أي: حسناً[(٤)]؛ يقال: زانه كذا وزَيَّنه: إذا أظهر حسنه إما بالفعل أو بالقول[(٥)]، وقد نسب الله تعالى التزيين في مواضع إلى نفسه[(٦)]، وفي مواضع ذكره غير مسمى فاعله[(٧)]، وفي مواضع نسبه إلى الشيطان[(٨)]. وتدبر سياقها الوارد في التحذير من كيده، يفيد أن التزيين جاء بمعناه المذموم، **تحسيناً للقبيح من**

---

(١) يوسف/ من الآية ٥١.

(٢) يوسف/ ٥٣.

(٣) المقاييس/زين. ويوحي بهذا المعنى قوله تعالى، من آية فاطر: ٨ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾....

(٤) التحرير: ٥٠/١٤/٧ ـ طبع سحنون ـ وصيغة الكلمة «التفعيل» ترد للجعل: (انظر: التحرير: ٢٩٤/٢ بتصرف).

(٥) المفردات/زين.

(٦) كقوله في الإيمان: ...﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾... الحجرات/ من الآية: ٧.

(٧) كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾... البقرة / من الآية ٢١٢ وحُذف فاعل التزيين؛ لأن المزيِّن لهم أمور كثيرة: (يراجع: التحرير: ٢٩٤/٢).

(٨) ست مرات، مثبت المفعول، باستثناء آية الحجر: ٣٩، ومفعوله ـ في الغالب ـ هو لفظ «الأعمال»، دلالة على أن فعل التزيين يقع على كل أعمال الإنسان، الخفية منها والظاهرة.

أعمال الكفر، وإظهاراً للباطل في صورة الحق، بوساوس شيطانية. وقد كان التزيين أول عدة إبليس التي أعدها لخوض غمار المعركة مع الإنسان في الأرض، جزاء ما لعنه الله وطرده من هداه. قال تعالى، حكاية عنه في آية الحجر: ٣٩ ... ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. ونظير ذلك قوله تعالى: ...﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾...[1]. فزين للكفار حب أنفسهم وإيثار الحياة الدنيا، والإعراض عن دعوة الحق، وزين للعصاة الفحشاء والمنكر لتعلق نفوسهم بها، فدعاهم إلى ارتكاب المعاصي، وزين للمشركين «**عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات**»[2]، ومن قبلهم زين لفرعون سوء عمله، ونفث في قلبه أنه على حق وصواب، وأجرى كلمة الباطل على لسانه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3]. وهكذا دأب الشيطان مع كثير من بني آدم: «**يزين في أعينهم السيئات ويأمرهم بها ويحثهم عليها**»[4] ويغريهم[5] بزينتها؛ فيروها حسنة ويجترحوها، وعليها من الشيطان بهرجة تزينها ببريق أخاذ؛ يغر الإنسان، ويجعله مفتوناً بنفسه، معتداً بعمله[6] أو رأيه[7]، لأنه حسن في عينه، لا مجال فيه للنقد أو النقصان!

---

(١) النمل من الآية: ٢٤.

(٢) إغاثة اللهفان: ١/١١٠.

(٣) النازعات/ ٢٤.

(٤) كذا فسر الحسن قوله تعالى، من آية الأعراف: ١٧ ...﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾...: انظر: إغاثة اللهفان: ١/١٠٣.

(٥) والإغراء صنو «التزيين»، فإن السيئات إذا زينها الشيطان بإلقاء الأوهام الكاذبة في النفس، وافتتن بها الإنسان؛ أغراه الشيطان بزينتها المصطنعة على ارتكابها. ولعل في لفظ الإغراء دعوة لاهثة من الشيطان وملزمة للإنسان. ومعنى الدعوة والإلزام في اللفظ يقارب معاني الطلب والتكليف والإلزام الملحوظة في الأمر. يشهد لذلك أن مادة «غري» في اللغة تفيد معنى اللصوق واللهج؛ يقال: غري بكذا، أي: **لهج به ولصق**، ومنه الغِراء، وهو ما **يلصق** به: (راجع: المفردات/غري).

(٦) كالراقصة، والمغني، والمتبرجة، والزانية، وغيرهم، ممن زُين لهم سوء عملهم باسم الفن، حتى ظنوا أن الله موفقهم ومعينهم.

(٧) كأن يرى ماركس أن فكرة الدين فكرة خاطئة، ذلك لأنه يخدر الشعوب ويمنعها من التقدم، فينفي فكرة وجود الله.

ويؤدي ذلك إلى شعوره بالاستغناء عن ربه وغفلته عن الحق.

ومن هنا، كان التزيين هو مفتاح سيئ الاعتقاد ورديء الأوهام والأفكار، التي يتضلع منها كل شرك وجهل وظلم؛ وهو باب دخول المحجوبين عن الحق تحت ولاية الشيطان وإمرته، من غير أن يشعروا بشيء وراء أنفسهم؛ وهو المِقود الذي يقود منه الشيطان الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا إلى الضلال فالبوار.

❋ ❋ ❋

المطلب الثالث: مفهوم الوعد

بينا فيما تقدم[(١)]، أن الوعد إخبار بما سيكون في المستقبل من الأمور المرغوبة أو المكروهة؛ كقوله ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾. . .[(٢)]. وفي هذه الآية وعده وأمره، وقوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾. . .[(٣)]. وفي هذه أيضاً وعده وأمره. وقد تبين من المقارنة بينهما في هذه الآية، أن الوعد مقدمة نفسية شعورية للوساوس الشيطانية، وبها يُتوصل إلى الأمر بالفعل، وهو ارتقاء إلى درجة ثانية في الوسوسة، تفضي إلى نتائج عملية مذمومة، وهذان الأمران «هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان. فإنه إذا خَوَّفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها. . .»[(٤)] ومواعيد الشيطان مواعيد الغرور والكذب، كما قال تعالى:

---

(١) راجع مطلب الوعد والأمر بمبحث العلاقات.

(٢) إبراهيم من الآية ٢٢.

(٣) البقرة من الآية ٢٦٨.

(٤) إغاثة اللهفان: ١٠٧/١.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[(١)]، وقال عليه السلام «**إن للشيطان لَمة بابن آدم، وللملَك لمَّة؛ فأما لمة الشيطان؛ فإيعادٌ بالشر، وتكذيبٌ بالحق، وأما لمة المَلك؛ فإيعاد بالخير، وتَصديق بالحَق**...» الحديث[(٢)]. ومن وعوده الكاذبة: «تسويله للمشركين بأنهم إن جعلوا أولادهم للأصنام، سلم الآباء من الثكل، والأولاد من الأمراض، ووعدهم بالحسنى على شركهم ومعاصيهم؛ كأن تشفع الأصنام لهم عند الله في الدنيا، وتضمن لهم الظفر على الأعداء، ووعدهم بأنهم لا يخشون عذاباً بعد الموت لإنكار البعث، ووعد العصاة بحصول اللذات المطلوبة من المعاصي؛ مثل: الزنا، والسرقة، والخمر، والمقامرة...»[(٣)]. ولعل أشد الوعود إغراء، الوعد بالمغفرة بعد الخطيئة[(٤)].

***

المطلب الرابع: مفهوم التمنية

التمنية والمَني، من مَنى يمْنِي[(٥)]. ومداره في المعاجم على «**التقدير**»[(٦)]؛ يقال: منى لك الماني؛ أي: **قدر لك المقدر**[(٧)]، ومنه المَنا:

---

(١) النساء/١١٩ ـ ١٢٠. قال ابن القيم: «والفرق بين وعده وتمنيته، أنه يعد الباطل ويمني المحال»: إغاثة اللهفان/١٠٧.

(٢) رواه الترمذي في التفسير، برقم ٢٩٨٨، عن عبدالله بن مسعود: (صحيح سننه: ٣/٢٠٠)، وهذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن لمة الملك والشيطان هاتفان فقط أو داعيان، فللشيطان الهوى، وللملك الفطرة المؤمنة، وليس لأي هاتف منهما إلزام أو إجبار للإرادة على اختيار فعل دون آخر، ويعزز ذلك آية إبراهيم/٢٤ المتقدمة.

(٣) انظر: التحرير: ٧/١٥/١٥٤، ١٥٥، تفسير آية الإسراء/٦٤ ـ بتصرف ـ.

(٤) في الظلال: ٥/٣٤٣.

(٥) اللسان/منى.

(٦) المفردات واللسان والمقاييس/منى.

(٧) المفردات والمقاييس/منى.

الكيل أو الميزان الذي يوزن به[١]، ولتصور هذا الاستعمال الحسي للمادة؛ عرف الراغب التمني **بتقدير** شيء في النفس وتصويره فيها[٢]، والأمنية بالصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء. والتمني قد يكون عن تخمين وظن، ويكون عن رؤية وبناء على أصل، لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك؛ فأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له[٣]، ولهذا عبر به عن الكذب؛ لأن «الكاذب **يقدر** في نفسه الحديث بما يكون وبما لا يكون ثم يقوله»[٤].

وانسجاما مع الأصل اللغوي للتمنية، جاء قسم الشيطان الذي أخبر عنه القرآن في آية النساء: ١٩ . . . ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ . . . بمعنى: يجعلهم يتمنون؛ أي يقدرون غير الواقع واقعاً، وغير الحق حقا، في الاعتقادات والأعمال، إغراقا في تضليلهم المشار إليه في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾. وهذا التقدير كناية عن الوعد الكاذب بطول البقاء، وباللذات الحاضرة، والتسويف بالتوبة، والنجاة من الجزاء، والنيل من حظ الآخرة في نهاية المطاف[٥].

فهذه الأماني المستحيلة يلقيها الشيطان في نفوس بني آدم لإطماعهم في حصول ما يرغبون فيه، وتهوين انتشار الضلالات بينهم، وركوب المعاصي، وصرفهم عن تقدير وبال أمرهم؛ حتى إذا التذوا بأمانيه، اتبعوا أمره، وخالفوا أمر الله.

وهكذا كان شأن الشيطان مع مشركي العرب، وكل الأمم الضالة؛

---

(١) اللسان/منى.

(٢) ومثله ما في اللسان: «تمنيت الشيء؛ أي: قدرته وأحببت أن يصير إلي. . .».

(٣) المفردات/منى ـ بتصرف ـ.

(٤) اللسان/منى ـ بتصرف ـ وجاء في التحرير: ٥٧٤/١: «ولأن الكاذب ما كذب إلا لأنه يتمنى أن يكون ما في نفس الأمر موافقاً لخبره، فمن أجل ذلك حدثت العلاقة بين الكذب والتمني، فاستعملت الأمنية في الأكذوبة».

(٥) وإلى هذه الأماني ترجع أقوال المفسرين في تفسير «التمنية» (ينظر: إغاثة اللهفان: ١٠٦/١ ـ ١٠٥ وتفسير المنار: ٤٢٧/٥).

يمنيهم بما يلقيه من الأماني في قلوبهم وفي طريق معاصيهم، ويزين لهم الضلال والكفر وتوابعه من الشعائر الوثنية، فإذا استسلموا لتمنياته دعاهم كما دعوه[١]، بصريح قسمه ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾، إلى أفعال قبيحة، وشعائر وثنية سخيفة[٢]، لها من عمل الشيطان نصيب مفروض؛ لأنها تحرم ما أحل الله؛ كأكل البحيرة، وتحل ما حرم الله؛ كتغيير خلق الله وفطرته، فهي ليست من الدين في شيء، وإنما هي من نسج أساطيرهم وعوائدهم.

ومن هنا، نحصل أن تمنية الشيطان مرحلة استهواء وتزيين، «وأمره» مرحلة امتثال وتسخير، والقصد من ذلك: أن الخبيث ـ لعنه الله ـ إذا خالط نفس العبد، وسألها عما تتمناه، فعرفه؛ قدره فيها بأروع ما يكون حُسناً، حتى يُخيل إليها أنه واقع لا محالة؛ فإذا نال ذلك منها، استعان به على نقل العبد إلى مرحلة الاستجابة لدعوته، فإذا استجاب المُمَنى، صيره ـ عدو الله ـ من جنده في مواجهة الله تعالى وحزبه.

❊ ❊ ❊

المطلب الخامس: مفهوم السلطان

لما كان ملاك الأمر في «**الأمر**» الاستعلاء، والشأن في الآمر أن يكون ذا سلطان، كان للشيطان الآمر سلطاناً مكيناً بنص القرآن، منحه الله له ولذريته، عن إذن منه، لتتم سنة الامتحان، ويستقيم أمر الدعوة الإلهية بالأمر والنهي، والثواب والعقاب. وبمقتضى هذا السلطان، يتسلط الشيطان على أوليائه، ويوسوس في صدورهم، فيزين لهم أعمالهم، ويعدهم ويمنيهم ويستحوذ عليهم ويحتنكهم حتى يطيعوه فيما يأمرهم به من الكفر والمعاصي.

وانطلاقاً من أهمية هذا السلطان وعظيم صلته بأمر الشيطان، نحدد

---

(١) كما صرح بذلك في الآية قبلها: ١١٧ ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾.

(٢) ستتناولها بتوسع في المبحث الثاني.

معناه في اللغة، وفي اصطلاح القرآن الكريم، قصداً إلى تحديد أثره، وقياس مداه، ومن ثم استكناه حقيقة الأمر الشيطاني، وبيان حدود استعلائه وسلطانه.

٥. ١ ـ مفهوم السلطان في اللغة

أصل **السلطان** في اللغة «**القوة والقهر**»[١]، وسمي بذلك لتسليطه[٢]، يقال: سلطته فتَسلَّط[٣]، والتَسلُّط: **القهر**[٤]. ومن هذا الأصل استعملت سلاطة اللسان في **القوة على المقال**، وسميت الحجة سلطانا، وذلك لما يلحق من **الهجوم على القلوب**[٥].

٥. ٢ ـ مفهوم سلطان الشيطان في اصطلاح القرآن الكريم

أضيف لفظ السلطان إلى الشيطان ـ في القرآن الكريم ـ في ست آيات مكية[٦]، يشهد سياقها بأنه **القدرة المتسلطة على الشر بالإغواء والإضلال**، ويأتي في أغلب الآيات منفياً عن الشيطان نفياً كلياً أو جزئياً بـ«**ما كان**»[٧] و«**ليس**». ولم يأت مثبتا إلا في آية واحدة. وحيثما ورد منفياً، جاء نفيه عن عباد الله المؤمنين، والمتوكلين، والمخلصين، واستُثني منه بالاستثناء المنقطع الغاوون، والمستجيبون لدعوته... وحيثما ورد مثبتا، جاء إثباته على أهل الشرك وعلى من تولاه...

---

(١) المقاييس/سلط.

(٢) اللسان/سلط.

(٣) المفردات/سلط.

(٤) المقاييس/سلط، وفي المفردات: «السلاطة: التمكن من القهر».

(٥) المفردات/سلط ونقل صاحب اللسان، عن الزجاج أن «اشتقاق السلطان، من السليط، قال: والسليط، ما يضاء به. ومن هذا قيل للزيت: سليط...».

(٦) وهي آيات: الإسراء /٦٥ والحجر/٤٢ وسبأ/٦٥ والنحل/٩٩، ١٠٠ وإبراهيم/٢٢ وسيأتي ذكرها عند دراستها وتحليلها.

(٧) وتركيب «ما كان» يدل في الاستعمال اللغوي على المبالغة في النفي.

وهكذا يتبين أن للشيطان سلطاناً قاهراً على النفوس، نفاه القرآن الكريم في مواضع، وأثبته في مواضع؛ فقال في جانب نفيه، في سياق الإخبار عن قصة آدم وإبليس وتقرير سنة الله في الغواية والهداية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ الحجر: ٤٢. فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا قدرة لإبليس، ولا سلطان له على غواية العباد الذين أخلصهم الله للخير[1]، ثم استثنى منهم من كان غاويا؛ أي: مائلاً إلى الغواية، مستحسناً للضلال، مختاراً اتباع هواه.

وقال تعالى في آيتي: الإسراء: ٦٥ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ والنحل: ٩٩ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ فإن الذين أشرقت أرواحهم بنور الإيمان، وتوكلوا على الله واستعانوا به من الشيطان، لا سبيل له عليهم، ولا له فيهم تأثير؛ لأن مداخله إلى نفوسهم مغلقة، وقلوبهم موصولة بالله، معتصمة بهداه.

وينقلنا القرآن الكريم من غيب المبدأ إلى غيب المعاد، على مألوف عادته في طي الزمان للإعذار والإنذار، فيُرينا في معرض الآخرة سلطان الغاوين يحاور المستضعفين والمستكبرين سواء، بقوله شامتا بهم على استجابتهم لأمره، وتركهم لدعوة الحق، وليس له عليهم من سلطان: ... ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية[2].

وقد بين الله الحكمة الإلهية من تسليط عدو الله عليهم؛ فقال في سياق التعقيب على قصة قوم سبأ، وعلى نفاذ أمر الله فيهم بسبب ظلم نفوسهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي

---

(١) ويشهد لهذه الصفة، قوله تعالى في الآيتين قبلها: ... ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الحجر/٣٩ ـ ٤٠.

(٢) إبراهيم: من الآية/٢٢.

شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾[١]. فثبت بنص هذه الآية والآيات قبلها أنه ليس هناك إجبار من الشيطان للعباد، ولا قهر لهم منه على اتباعه فيما يأمرهم؛ وإنما هو تسليطه عليهم ليُظهر الله في عالم الواقع المؤمنين من الشاكين، فيحق القول ويقع الجزاء. وقد أثبت تعالى لعدوه هذا السلطان، الذي تسلط به على خلقه بإذنه، في قوله من آية النحل: ١٠٠ ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ فعُلم من هذه الآية أن الشيطان إنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته، وهو وليهم وسلطانهم. ويشهد لتسلطه عليهم مفاهيم[٢] الاحتناك و«الأز» و«الاستحواذ»، التي عرضها القرآن الكريم بشكل ينفر القلوب من قبول دعوته؛ كالذي في قوله من آية الإسراء: ٦٢، فيما حكاه تعالى عنه، بقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ أي: «لألجمنهم فأتسلط عليهم تسلط راكب الدابة، الملجم لها؛ فيطيعونني فيما آمرهم، ويتوجهون إلى حيث أشير لهم، من غير عصيان وجماح»[٣]، وقوله في آية مريم: ٨٣ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾. أي: «تغريهم إغراء»، وفي لفظ: «تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا»، وفي آخر: «تحركهم بالإغواء والإضلال»[٤]، وقوله في آية المجادلة: ١٩ ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾... فأخبر تعالى أن الشيطان «استاقهم مستوليا عليهم». ومنه: حاذ الإبل يحوذها؛ أي: ساقها سوقاً عنيفاً»[٥].

وفي ضوء هذه الآيات، يتبين أن إبليس ـ لعنه الله ـ مخلوق ذو إرادة وسلطان، يدعو إلى الشر، ويؤز إلى الكفر، ويسوق إلى العصيان، وهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، «ولكن ليس له على

(١) سبأ/٢٠ ـ ٢١.
(٢) تناولناها ـ بإجمال ـ ها هنا؛ لأنها داخلة في مسمى السلطان، فالأمر.
(٣) الميزان: ٨٨/٤.
(٤) جامع البيان: ١٢٥/١٦/٩، والتحريك والتهييج أصل لمادة «أز»، كما في المفردات.
(٥) المفردات/حوذ. وفيه: «ومنه: حاذ الإبل يحوذها؛ أي: ساقها سوقا عنيفا».

ذلك سلطان حجة وبرهان؛ وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته»[١]، فإن اتباع خطواته، الذي هو «اتباع أمره بالاقتداء والاتباع»[٢] يوجب سلطانه؛ كما قال في آية النور: ٢١ ... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ ...، وقال في آية الحجر: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ ... فلما اتبعوه، ولم يخالفوا هواهم؛ جعل الله للشيطان عليهم تسلطاً وقهراً عقوبة لهم.

وبهذا يظهر، أن الشيطان لا يتسلط بالأمر إلا على ذوي النفوس الضعيفة، التي لا تنتهي عما حرمه الله عليها، ولا تذكر مقامها للحساب. ومن ثم، فهو ـ لعنه الله ـ لا يملك أن ينفذ إليها بسلطانه وأمره، إذا هي باعدت بينها وبين خطواته[٣]، وصحت من أمراضها، فتحلت بزينة الإيمان، واعتصمت بحبل التوكل، وأخلصت دينها لله. وما أحسن ما عبَّر ابن القيم عن موجب سلطان الشيطان والمانع منه، فقال: «فالتوحيد، والتوكل، والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه. والجميع بقضاء مَنْ أزمة الأمور بيده ومردها إليه...»[٤].

---

(١) إغاثة اللهفان: ١/١٠٠.

(٢) كذا فسره ابن تيمية: التفسير الكبير: ٥/٣١٦.

(٣) ومعنى التباعد ملحوظ في الاستعمال اللغوي لمادة شطن. قال الراغب: «الشيطان... من شطن، أي: تباعد، ومنه بئر شطون...» وانظر كذلك الزينة: ٢/١٨١. وهذا يؤكد أن الخبيث بعيد عن رحمة الله وهداه، فوجب أن يباعد العبد الخطو بينه وبين عدوه، حتى لا يجعل له سلطاناً عليه.

(٤) إغاثة اللهفان: ١/١٠١.

*** تعقيب واستنتاج**

وامتدادا لما سبق، نستشف أن مفاهيم الوسوسة، والتزيين، والوعد، والتمنية، والسلطان خواطر شيطانية، لها أوثق الصلات بمفهوم الأمر الشيطاني؛ إذ تلتقي مجتمعة، بعضها فوق بعض درجات، في إلزام الإنسان بامتثال أوامر الشيطان بألطف حيلة؛ ذلك بأن الشيطان يوسوس في القلب، ويزين الذنب للنفس، ويعدها، ويمنيها بلذته، ويطوي عنها سوء عاقبته، حتى يُخيل إلى العبد أنه من أنفع الأشياء، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيتسلط الشيطان عليها بسلطانه وأمره، ويسوق العبد إلى المعصية.

ومن هنا، نستنتج: أن الأمر الشيطاني أمر سلبي جزئي، له في كسب الخلق للشرور نصيب، بفرض من الله وتقدير، وليس له من قوة الأمر الإلزامية الإيجابية قوة حقيقية أصيلة؛ لأنه من نوع: الأمر بترك الفعل، وبصد الخير، وبطمس أختام التوحيد من الأرض، ومن ثم فأساسه ووجهته عدم ونفي؛ أي بلا أساس، وبلا فعل إيجابي، فهو إذن وسوسة عدمية، يتعلق بأمور عدمية، والعدم لا حقيقة له في ذاته[١].

أما الشيطان الآمر، فهو مخلوق متكبر حاقد عاجز، ليس له نصيب في الملك الإلهي، ولا له تدخل في شؤون الخلق والإيجاد في الكون؛ وإنما هو يتسلط ويأمر بقدر إنصات النفس، التي بين جنبي الإنسان إلى أمره، واتباعها لخطواته، و نسيانها لذكر الله. ومن ثم، فهو لايستند في أمره إلى قوة ذاتية مركوزة في جبلته، مستقلة عن قوة النفس الأمارة بالسوء، ولا يستمد قوته على الإغواء من إرادة مستقلة عن الإرادة الإلهية المطلقة؛ بل يستند في ذلك كله إلى من له الخلق والأمر، مالك الأزل والأبد، الله تعالى؛ إذ الخبيث مملوك لله تعالى، وأمره نافذ في خلقه بإذنه، فهو منتسب إليه تعالى بالإذن، ليستقيم أمر الامتحان الإلهي، ويتمحص الإنسان، ويترتب

---

(١) راجع في ذلك ما تقدم ضمن دراسة علاقة الأمر والنهي في مبحث العلاقات ص ١٥٠ - ١٥٢.

الجزاء. ولو كان للشيطان أمر حقيقي، لما رُد كلامه إلى الوسوسة، التي «هي من جنس الوشوشة»[١]، ولما أعيذ منها أهل الإيمان، بمجرد امتثال أمره تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[٢]، وكيف يكون له الأمر على أوليائه، والقرآن الكريم يخبرنا أنه يتبرأ منهم يوم الحساب، ويسلمهم إلى النار، لمّا علم أنه لا قوة له ولا منعة؟، كما قال: ...﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾...[٣]، وقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾...[٤].



---

(١) التفسير الكبير: ٥٦٥/٧.

(٢) الأعراف من الآية: ٢٠٠.

(٣) إبراهيم من الآية: ٢٢.

(٤) الحشر/١٦ ـ ١٧.



المبحث الثاني:

متعلقاته

تعلق الأمر الشيطاني بألوان من الشرور والمعاصي، وبأنواع من الكفر والضلالة، التي طواها القرآن الكريم في ألفاظ عامة وتراكيب اصطلاحية، اكتنزت بداخلها كل المبادئ الشيطانية المظلمة، التي يحض عليها الشيطان أتباعه، من الناحية العقائدية والتشريعية والأخلاقية... ونظرا لأهميتها في تعرف النسق المفهومي لمتعلقات أمر الشيطان ندير الكلام حولها، بمراعاة نظمها داخل الآيات القرآنية.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول: السوء

وردت كلمة «**السوء**» مصدراً معرفاً[1] في آية البقرة: ١٦٨ ﴿**إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ**﴾...[2]، معطوفا عليها «**الفحشاء**»، و«**القول على الله بلا علم**» وذلك في سياق وصف بعض مساوئ دين أهل الشرك، فيما حرموا على أنفسهم،

(١) من ساءه يسوءه، سوءاً، ومساءة: (راجع: اللسان/سوء، والجامع للأحكام: ٢/٢٠٩) والسوء ـ بضم السين ـ اسم مصدر: (التحرير: ١/١٠٥).

(٢) ونظير ذلك، تعلق السوء بأمر النفس في آية يوسف/٣٥.

مما أخرج الله لهم من الأرض(١). وتفرع ذكره هنا عن وحدانية الألوهية التي تضمنها قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . . . إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ . . . الآية(٢)، مما أفاد أن الله الذي يخلق ويرزق هو الذي يشرع؛ فيحلل ويحرم. ومن هنا توجه الخطاب القرآني في مستهل هذه الآية إلى الناس جميعاً، يدعوهم في معرض توبيخهم إلى التمتع بطيبات الحياة - إلا ما شرع الله لهم حرمته، وهو المبين بعد(٣) - ويحذرهم من اتباع سبل الشيطان، فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾، ثم بين الله تعالى ثمرة عداوته بأنه لا يأمرهم بخير؛ وإنما يأمرهم بالسوء. وفي لفظ السوء أقوال ترجع إلى تعميم وتخصيص وإجمال؛ فإنه يتناول في قول الرازي: «جميع المعاصي، سواء كانت تلك المعاصي من أفعال الجوارح، أو من أفعال القلوب»(٤). ويختص في رواية، عن ابن عباس «بما لا حد له»(٥)، و«بما يسوء في العقبى» في قول أبي حيان(٦)،

---

(١) ولهذا قيل في سبب نزول الآية الخاص: «نزلت في ثقيف، وبني عامر بن صعصعة، وخزاعة، وبني مدلج، حرموا على أنفسهم أكل البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وما حكى الله عنهم في سورة الأنعام، من قوله: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ . . .: الأنعام من الآية: ١٣٨: (انظر: التحرير: ١٠٢/١، والبحر: ٢ /٩٩، عن الكلبي ومقاتل وغيرهما، والجامع للأحكام: ٢٠٧/٢) و الظاهر أن اللفظ عام، من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولعل الأنسب بهذا العموم قول الحسن، فيما حكاه عنه صاحب البحر ٩٩/٢: «نزلت في كل من حَرَّم على نفسه شيئاً لم يحرمه الله عليه».

(٢) البقرة من الآية: ١٦٤.

(٣) ابتداء من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ . . . البقرة من الآية: ١٧٢، والتي بعدها.

(٤) مفاتيح الغيب: ٥/٥/٣.

(٥) فتح البيان: ٣٣٦/١ ويقابل هذا التفسير، تفسير الفحشاء «بما لا يجب الحد فيه».

(٦) البحر: ١٠٢/٢ وكذا علل الطبري والقرطبي تسميته بالسوء: (انظر: جامع البيان: ٧٧/٢ والجامع للأحكام: ٢٠٩/٢).

ويتحدد - إجمالا - في تفسير الزمخشري «بالقبيح»[١]، وفي هذا التفسير ملمح واضح من المعنى الأصيل لمادته، وهو «**القبح**»[٢] ومنه قولهم: «رجل أسوأ: قبيح»[٣] ثم استعمل «السوء» في كل **قبيح يغم الإنسان في عاجله وآجله، من قول أو فعل أو حال نفسية وبدنية**[٤] وإلى هذا القبح الحسي والمعنوي التفت الراغب في قوله: «السوء: كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجة، من فوات مال وجاه وفقد حميم...»[٥]. ولهذا جاء في القرآن الكريم **اسماً للآفة**[٦]، **وللقبيح من القول**[٧]، **ومن أعمال الكفر والعصيان**[٨]؛ **كما جاء وصفاً للعذاب الدنيوي**[٩] **والأخروي**[١٠].

وإذا تبين هذا، فأظهرُ هذه التخاريج الأربعة ملاءمة لسياق الآية، وللفظ السوء لغةً واصطلاحاً قرآنياً؛ هو القول الأول، ذلك بأن السوء الذي يأمر به الشيطان الناس؛ ومنهم العرب المشركون، هو **اسم جامع لكل معاصي الله التي تسوء مرتكبها بسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة**، ومن هذه المعاصي التي تختص بعقائد العرب وشرائعهم وشعائرهم: الإشراك بالله،

---

(١) الكشاف: ٣٢٨/١.

(٢) المقاييس/سوء.

(٣) اللسان، والمقاييس/سوء.

(٤) والجامع بين هذا المعنى والمعنى الحسي هو ظهور أثر كل سوء على الوجه، فيقبح منظره.

(٥) المفردات/سوأ.

(٦) كقوله من آية القصص: ٣٢ ﴿أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾....

(٧) كقوله من آية الممتحنة: ٢ ...﴿وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝﴾.

(٨) كقوله من آية التوبة: ٣٧ ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾، وقوله من آية النساء ١٧ ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾...، وقوله من آية الأعراف: ١٦٥ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾....

(٩) كقوله من آية الأعراف: ١٤١ ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾....

(١٠) كقوله من آية الأنعام: ١٥٧ ...﴿سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وعبادة الأصنام، والقول على الله بلا علم، وقطع آذان الأنعام لتحريرها للأصنام، والطواف بالبيت عراة، وغير ذلك، مما لا يستند تحليله أو تحريمه إلى حاكمية الله؛ بل يستند إلى دعوة الشيطان الهادفة إلى أن يعبد الخبيث من دون الله.

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني: الفحشاء

جاء لفظ «**الفحشاء**» مقترناً بالأمر، ومعطوفاً على «**السوء**»، ومعطوفاً عليه «**المنكر**»، في ثلاثة مواضع[1]، يشهد لفظها وسياقها بأنه أوسع مدلولاً مما ساقه المفسرون من شروح تخصصه، استنادا إلى خصوصية السياق والاستعمال القرآني، ولعله من المستحسن أن نعرض آراءهم في معناه، ثم نحررها في ضوء استعماله اللغوي، ودلالة نظمه وسياقه في الآيات.

وهكذا ذهب المفسرون في معنى «الفحشاء» مذاهب شتى؛ منها ما ذكره الطبري، عند تفسيره لآية البقرة المتقدمة؛ حيث قال: «وأما «الفحشاء»، فهي مصدر مثل: السراء والضراء، وهي كل ما استفحش ذكره وقبح مسموعه»[2]، وفي رواية «الزنا»[3]، وحكى الطبري، عن ابن عباس: «الفحشاء ما فيه حد»[4]، والتفت الرازي إلى دخول الفحشاء في السوء بدلالة العطف بينهما، فقال: «الفحشاء وهي نوع من السوء؛ لأنها أقبح أنواعه، وهو الذي يُستعظم ويُستفحش من المعاصي»[5]، وفسر الزمخشري،

---

(١) وهي آيات: البقرة /١٦٩، ٢٦٨، والنور/٢١.

(٢) جامع البيان: ٧٧/٢ ومثله ما رواه أبو حيان في البحر ١٠٢/٢: «وقيل: ما قبح قولاً أو فعلاً».

(٣) البحر: ١٠٢/٢، عن السدي.

(٤) الجامع للأحكام: ٢١٠/٢ وكذلك الكشاف: ٣٢٨/١.

(٥) مفاتيح الغيب: ٥/٥/٣.

وأبو حيان، ورشيد رضا «الفحشاء» بالبخل ومنع الصدقات خاصة[١]، عند تفسير آية البقرة: ٢٦٨ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾. ويؤكد هذا المعنى قول مقاتل «إن كل ما في القرآن من ذكر الفحشاء، فإنه الزنا؛ إلا قوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾... فإنه منع الزكاة»[٢]، وهذا المعنى يَتَخَرَّج استنادا إلى أن هذه الآية وردت في سياق الحث على الإنفاق والأمر بالصدقات[٣].

وفي تفسير الفحشاء من آية النور: ٢١، ذكر الطاهر ابن عاشور أنه «كل فعل أو قول قبيح»[٤]، وخصصه الرازي «بما أفرط قبحه»[٥]، وقال الطبري «هي الزنا والمنكر من القول»[٦]، ويناسب هذا المعنى مجيء الآية عقب الآيات العشر المتضمنة لقضية الإفك.

والمتأمل في هذه الأقوال، يلحظ بيسر أنها ترجع إلى تعميم وتخصيص؛ فالفحشاء في قول: «كل أمر يفحش ويتجاوز الحد»، وفي قول: **«فاحشة الزنا»**، وفي آخر **«البخل»**، وهذه الأقوال جميعها يعضدها الحس اللغوي للمادة؛ إذ الفحشاء في اللغة: **«ما عظم قبحه، وتجاوز قدره وحده من الأفعال والأقوال»**[٧]، ومنه «فحشت المرأة: **قبحت وكبرت**»[٨]، غير أن تخصيص الفحشاء بما خُصص به غالباً، وهو فاحشة الاعتداء على العرض؛ لأنه فعل فاحش فيه اعتداء، وفيه تجاوز للحد، أو فاحشة البخل؛ «لأن العرب تسمي البخيل فاحشاً لمجاوزته الحد في البخل»[٩]؛ هو

(١) الكشاف: ٣٩٦/١ والبحر: ٦٨١/٢ والمنار: ٧٤/٣.

(٢) الجامع للأحكام: ٢١٠/٢.

(٣) مضى الحديث عن هذا السياق بتوسع عند دراسة علاقة الوعد والأمر في مبحث العلاقات.

(٤) التحرير: ١٨٧/١٨.

(٥) مفاتيح الغيب: ١٨٦/٢٣/١٢ وكذلك الكشاف: ٥٦/٣.

(٦) جامع البيان: ١٠١/١٨/١٠.

(٧) ينظر هذا المعنى في المفردات/٣٨٧ والمقاييس: ٤٧٨/٤ ولسان العرب: ١٩٢/١٠.

(٨) اللسان/فحش.

(٩) المصدر نفسه ـ بتصرف ـ.

تخصيص لما أطلق القرآن مداه، بدلالة لفظ الفحشاء نفسه، ودلالة سياقه؛ إذ ورد هذا اللفظ في آياته الثلاث مطلقاً معرفاً، والتعريف فيه للجنس، فيتناول كل فعل فاحش وقبيح، ومن ذلك الزنا والبخل، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا؛ وهذه القبائح الفاحشة، وإن كان المقصود الأول بها في السياق هو استئصال العادات المرذولة، التي ألفها العرب في الجاهلية[١]، مما لا يقره الإسلام، أو مواجهة الذنوب والمعاصي، التي كان يُلم بها المؤمنون[٢]، ويجترحها المنافقون واليهود[٣] في المجتمع المسلم يومذاك؛ هي كذلك فواحش مطلقة تتساوق مع التلقينات المنطوية في الآيات، والتي تستهدف إثارة العداوة بين الشيطان، وبين من لا يملكون أمر أنفسهم. وفي ذلك مؤثر نفسي مقصود، يتجه به البيان القرآني إلى إعدادهم نفسيا لمقابلة ما قد يتعرضون له من عدوان عدوهم القديم الشيطان؛ بالإيمان والصبر وعدم الاستسلام، حتى يعبدوا الله ويتلقوا أمره في الحل والحرمة، آمنين من كل خاطرة فاحشة من خواطره. ومن هنا، فإن كل أمر فاحش يلقيه الشيطان في نفوس البشر، فيثير فيهم داعي مخالفته، فهو من الفحشاء التي يأمر بها الشيطان، ولا يأمر بها الله تعالى؛ فلا يهون إذن بعد هذا، أن نردد مع مقاتل: «إن كل ما في القرآن من ذكر الفحشاء، فإنه الزنا؛ لأن الزنا، وإن كانت فعلاً فاحشاً فيه اعتداء، إلا أنها ليست هي كل المفهوم من آيات الفحشاء، وإن دلت عليه بالتضمن؛ ذلك بأن الفحشاء استعملت في القرآن الكريم[٤] بكل مدلولاتها؛ أي: **كل معصية تجاوزت حد الآداب، وعظم قبحها وإنكارها**، كالذي جاء في صفة الحق سبحانه، من آية النحل: ٩٠

---

(١) كشرب الخمر، والقتل المفضي للثأر، والزنا، والكذب. . . .

(٢) وهم المخاطبون صراحة بآية النور، ليتشددوا في ترك المعصية، ولئلا يكون حالهم كحال أهل الإفك. وعبارة «يلم» فيها إيحاء إلى أن المؤمنين قد ينسيهم الشيطان ذكر الله، ولكنه لا يستطيع أمرهم بشيء، وحتى إذا أمرهم لا يلبون؛ وذلك لأنهم يسارعون إلى العودة إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾. . . : آل عمران من الآية: ١٣٥.

(٣) كإرجاف المنافقين واليهود في المدينة بحديث الإفك.

(٤) وعدد ورودها سبع مرات.

. . . ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾. . .؛ وقوله في آية الأعراف: ٢٨ ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ومن معاني الفحشاء: طواف المشركين بالبيت عراة، على وجه اجتناب المعصية، كما دل عليه قوله تعالى، مخبرا عن العرب الذين جعلوا الفواحش عبادة: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

وقد عُطف لفظ «الفحشاء» على «السوء»، في آية البقرة/١٦٨[١] فدل ذلك على مغايرة بينهما بالمفهوم، وإن كانا متحدين في الحكم الشرعي، لدخول كليهما تحت وصف الحرام أو الكبيرة؛ إذ السوء أعم من الفحشاء، والفحشاء أخص من معناه.

كذلك عُطف على «الفحشاء» «المنكر»، في آية النور، فما هو المقصود بـ«المنكر» في الآية؟

❋ ❋ ❋

المطلب الثالث: المنكر

في المنكر بالآية أقوال، فإنه فُسر «بما تنكره النفوس، فتنفر عنه ولا ترتضيه»[٢] أو «بما تنكره الشريعة وينكره أهل الخير»[٣] عموماً، وفُسر «بالمنكر من القول»[٤] خصوصاً، وهذه المعاني كلها متقاربة، وإن كان العموم هو الأولى؛ ذلك أن أصل المنكر في اللغة «يدل على خلاف المعرفة، التي يسكن إليها القلب، ونكر الشيء وأنكره: لم يقبله قلبه، ولم

---

(١) ونظير هذا العطف، قوله تعالى في آية يوسف: ٢٤ . . . ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾. . . .

(٢) الكشاف: ٥٦/٣ ومفاتيح الغيب: ١٨٦/٢٣/١٢.

(٣) التحرير: ١٨٧/١٨.

(٤) جامع البيان: ١٠١/١٨/١٠.

يعترف به لسانه»[١]. ومن ثم، فإن المنكر الذي يدعو إليه الشيطان من يتبع خطواته، هو كل فعل تنكره القلوب والفطر السليمة، وتنكره الشريعة؛ فهي شريعة الفطرة. وحديث الإفك ـ بدلالة سياق الآية مع الآيات قبلها ـ نموذج من هذا المنكر الذي قاد إليه الشيطان المؤمنين، وهو قول منفر شنيع؛ لأنه رُمي به بيت النبوة الكريم، فمس الرسول ﷺ في أعماق قلبه، وزعزع ثقة المؤمنين بالخير والعفة، وأوحى بأن الفاحشة شائعة فيهم، لتشيع بذلك في النفوس، ولتشيع بعدُ في الواقع.

وقد ألمع ابن تيمية إلى الفرق الدقيق بين الفحشاء والمنكر في حالة اقترانهما، كما هو شأنهما في هذه الآية؛ فقال: «وإذا قُرن المنكر بالفحشاء، فإن الفحشاء مبناها على المحبة والشهوة[٢]، والمنكر هو الذي تنكره القلوب. . . والفحشاء، وإن كانت مما تشتهيها النفوس، فإنها تنكرها القلوب»[٣].

❋ ❋ ❋

المطلب الرابع: القول على الله بلا علم

تزاوجت هذه الضميمة[٤] بواو العطف مع «السوء» و«الفحشاء»، في

(١) مقاييس اللغة/نكر.

(٢) يدل لذلك قوله تعالى في وصف الذين يرمون المحصنات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. . .: النور من الآية: ١٩.

(٣) التفسير الكبير: ٣١٨/٥.

(٤) ذكرت أربع مرات في القرآن الكريم، عدا آية البقرة، واستعملت بدلالة خاصة في افتراء المشركين واليهود والنصارى على الذات العلية، وذلك في مثل آيتي: الأعراف: ٣٣ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وآية البقرة: ٨٠ ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

آية البقرة: ١٦٩ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ وخصت بالعطف، مع أنها بعض السوء والفحشاء؛ لاشتمالها على أكبر الكبائر، وهو التجديف على الله والافتراء عليه، دون تثبت ولا يقين[١]، وذلك يشير إلى ما اختلقه المشركون وأهل الضلال، بتزيين الشيطان وأمره، من رسوم العبادت وتقاليد الحياة الاجتماعية، ونسبوه ظلماً وعناداً[٢] إلى أمر الله ودينه، وقد فصل القرآن الكريم هذا القول على الله بلا علم، وبينه صراحة في مواضع كثيرة؛ فذكر في مقام الإنكار على المشركين وذمهم والتنديد بشركهم وبتقاليدهم في الحرث والأنعام والطواف، أن ذلك القول هو أن لله أولاداً وشركاء، وأنه حرم البحائر والسوائب ونحوها، وأنه أمرهم بالطواف عراة، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ فنزه نفسه عن الشركاء بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣]، ونزه نفسه عن الأولاد المزعومة، بقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾[٤]، وصرح بأنه لم يحرم ما رزقهم الله من الطيبات، بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾[٦]،

---

(١) ولهذا وصف ابن تيمية «القول على الله بلا علم» بأنه منكر محض؛ كالإشراك بالله، فقال عنهما: «وأما الإشراك والقول على الله بلا علم فإنه منكر محض، ليس في النفوس ميل إليهما، بل إنما يكونان عن عناد وظلم، فهما منكر وظلم محض بالفطرة»: (التفسير الكبير: ٣١٨/٥) وهذا القول يعضده مجيء هذه الضميمة رداً على افتراءات المشركين وأهل الضلالة من أهل الكتاب، الذين كانوا يصرون على ما عندهم من مأثور آبائهم، ويرفضون الاستجابة للدين الجديد.

(٢) يدل لذلك قوله تعالى في آية الأنعام: ٢١ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾... وقوله في آية آل عمران: ٧٥ في سياق الرد على افتراء اليهود: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

(٣) يونس من الآية: ١٨.

(٤) يونس/٦٨.

(٥) المائدة من الآية: ١٠٣.

(٦) الأنعام من الآية: ١٤٠.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[٢]، وأخبر الله تعالى بأنه لا يأمر بالفحشاء في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾[٣]، فذكر الله عنهم أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بتقاليد أسلافهم[٤]؛ لاعتقادهم أن فعلهم مستند إلى أمر شرعي، فاتبعوا الظن والهوى[٥] بإيحاء من شياطينهم، وبغير هدى من الله. وقد أخبر تعالى بأنهم اتخذوا الشياطين أولياء، فقال في الآية قبلها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٦]، ثم قال في الآية بعدها: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٧]. فتبين أن الذين لا يؤمنون بالله هم أولياء الشياطين وأتباعهم، وأن أثر وحي

---

(١) يونس من الآية: ٥٩. ومن بدعهم في التحليل والتحريم، من غير الطيبات، النَّسء: «وهو تحريم الشهر الحرام، وذلك أن العرب كانت قد تمسكت من ملة إبراهيم ﷺ بتحريم الأشهر الأربعة. فإذا احتاجوا إلى تحليل المحرم للحرب، أخرجوا تحريمه إلى صفر، ثم يحتاجون إلى صفر ثم كذلك حتى تتدافع السنة...»: (تلبيس إبليس/٦٤).

(٢) النحل من الآية: ١١٦.

(٣) الأعراف/٢٨.

(٤) وقد كثر في القرآن الكريم التنديد بتقليد الآباء في عقائدهم الفاسدة، وغالباً ما ورد هذا التنديد عقب ذكر افترائهم الكذب على الله تعالى؛ نحو قوله تعالى، في آية المائدة: ١٠٦، التالية للآية: ١٠٤ ... ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾، وقوله، عقب آية البقرة: ١٦٩ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾: البقرة/١٦٩.

(٥) وقد ذم الله تعالى من أجاب داعي هواه، في مواضع كثيرة من كتابه، لمضادته لهدى الله، وموافقته لأغراض الشيطان؛ ومن ذلك قوله تعالى في الآية المتقدمة على يونس/٦٦ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: يونس/٦٦ وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾... القصص: ٥٠ وقوله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ الكهف/٢٨.

(٦) الأعراف/٢٧.

(٧) الأعراف/٣٠.

الشياطين وتزيينهم وتلبيسهم ظاهر في تصورات المشركين وتصرفاتهم، كما مضى. وقد أخبر تعالى بما يعاقبهم به في الآخرة، في مثل قوله، عقب آية يونس المتقدمة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[١].

* * *

المطلب الخامس: بتك آذان الأنعام

جاء الأمر «**ببتك آذان الأنعام**»، معطوفاً على «**إضلال**» الشيطان و«**تمنيته**»، ومعطوفا عليه الأمر «**بتغيير خلق الله**»، في آية النساء/١١٩، بمناسبة ذكر أحوال المشركين، الذين جعلوا الملائكة إناثا، ودعوها من دون الله بتسويل الشيطان، كما قال تعالى في الآية قبلها: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾[٢]. وسياق هذه الآية كسياق أختها في آية الحجر: ٣٩ ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٣]، فكلها أخبار عن أقسام إبليس المغلظة، التي قطعها على نفسه لإغواء الإنسان وإضلاله وإفساد فطرته. ولهذا جاء لفظ «البتك» في الآية فعلاً مضارعاً مسبوقاً بلام القسم وبفاء الفورية، ومؤكداً بالنون، دلالة على استمرارية فعل البتك وتجدده، وسرعة امتثال المشركين لأمر الشيطان به فور صدوره.

والبتك: **القطع**، ومنه سيف باتك: **قاطع** للأعضاء. واستعمل في قطع الأعضاء والشعر، يقال: بتك شعره وأذنه[٤]، وهو في هذا الموضع ما

---

(١) يونس/٦٩، ٧٠.

(٢) النساء/١١٧.

(٣) تقدمت عند دراسة مصطلح «التزيين».

(٤) المفردات/بتك (بتصرف) وكذلك: فتح القدير للشوكاني: ٥١٧/١ وتفسير المنار: ٤٢٧/٥ وإغاثة اللهفان: ١٠٦/١.

كانت تفعله العرب من قطع آذان بعض الأنعام، لتحريرها لأصنامهم؛ كالبحائر التي كانوا يقطعون أو يشقون آذانها شقاً واسعاً، ويتركون الحمل عليها[(١)] وقد فعل الكفار ذلك، اتباعاً لأمر الشيطان ورسمه، فكان فعلهم من عمل الشيطان؛ إذ كان الباعث عليه غرضاً شيطانياً، وذلك أن الخبيث أراد أن يعبدوا غير الله من الأوثان والأنداد، حتى ينسكوا إليه، ويحرموا ويحللوا له، ويشرعوا غير الذي شرعه الله لهم، فعُلم أن ذلك الفعل مظهر من مظاهر الشرك، واتباع الشيطان وولايته؛ لأن فيه إشارة إلى تحريم ما أحل الله، وتغيير ما خلقه كاملاً إلى البتك والقطع؛ وإنما خصه تعالى بالذكر هنا، وإن كان داخلاً في الإضلال والتمنية؛ لأنه من أسفه تصورات الكفار الوثنية.

***

المطلب السادس: تغيير خلق الله

وردت هذه الضميمة في نسق تركيبي مماثل لفعل «البتك»[(٢)] إذ عطفت عليه في آية النساء المتقدمة عطف المجمل على المفصل، وفيها أقوال للمفسرين، أوجزها الرازي في قولين:

أولهما: «تغيير دين الله، وهو قول سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، والحسن، والضحاك، ومجاهد، والسدي، والنخعي، وقتادة...»[(٣)]، واختاره الطبري وأيده، بصريح آية الروم: ٣٠ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾[(٤)] وقد اتجه

---

(١) عن جميع المفسرين: ينظر المنار: ٤٢٧/٥ وأنوار التنزيل/١٢٧ وفتح القدير: ٥١٧/١ والتحرير: ٢٠٥/٥/٣ وأضواء البيان: ٣٦٩/١ وجامع البيان: ٢٨١/٥/٤.

(٢) وهذا يدل على أن دلالتها كدلالته على الاستمرارية في الفعل، وعلى إصرار الآمر به والمقسم عليه.

(٣) مفاتيح الغيب: ٥٠/١١/٦.

(٤) جامع البيان: ٢٨٥/٥/٤.

الرازي في تقرير هذا القول وجهين: **الأول**: «أن الله تعالى فطر الخلق على الإسلام... فمن كفر، فقد غير فطرة الله، التي فطر الناس عليها. وهذا معنى قوله عليه السلام: «**ما مِن مَولود إلا يولَد على الفِطرة، فأبَواه يُهودانِه، أو يُنَصرانه، أو يُمَجسانه...**»[١] **والثاني**: أن تغيير دين الله هو تبديل الحلال حراما والحرام حلالا»[٢]. وإليه التفت البغوي، حيث قال: «وضع الله في الدين، بتحليل الحرام، وتحريم الحلال»[٣] وقال أبو حيان، مستدلاً لهذا الوجه: «...وكل ما حلله الله فحرموه، أو حرمه الله تعالى فحللوه. وعلى ذلك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[٤]»[٥]. ويشهد لهذا التغيير المعنوي مجال الآية المدني، وهو مجال التشريع والتقعيد.

وثانيهما: حمل التغيير على تغيير أحوال كلها تتعلق بالظاهر، وذكروا فيه وجوها[٦]: (الأول): قالت طائفة: «هو الخصاء، وفقء الأعين، وقطع الآذان، وغير ذلك مما يرجع إلى شرائع الأصنام، وضلالات المشركين»[٧]؛ وقيل: هو الوشم، والوشر[٨]، ونحو ذلك مما أرادوا به التزين، وهو تشويه، وكذلك وسم الوجوه بالنار[٩]؛ ومن ذلك الحديث الذي رواه

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (رقم ١٣٥٩)، عن أبي هريرة. ثم يقول رضي الله عنه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

(٢) مفاتيح الغيب: ٦/١١/٥٠.

(٣) معالم التنزيل: ١/٤٨٢.

(٤) يونس: من الآية: ٥٩.

(٥) البحر: ٣/٣٥٤.

(٦) مفاتيح الغيب: ٦/١١/٥٠.

(٧) حكاه القرطبي ـ بالمعنى ـ عن ابن عباس، وأنس، وعكرمة...(الجامع للأحكام: ٥/٣٨٩ وكذلك فتح القدير: ١/٥١٧ والتحرير: ٥/٢٠٥).

(٨) الوشر: صنع الوشر في الأسنان؛ أي: صنع الأَشَر فيها، وهي التحزيزات التي تكون في أسنان الشباب، تفعله المرأة الكبيرة تشبها بالشابة: (انظر: الجامع للأحكام: ٥/٣٩٣).

(٩) معالم التنزيل/١٢٧، والتحرير: ٥/٢٠٥.

عبدالله بن مسعود، قال: «**لعَن الله الواشِمات والمُستوشِمات، والمُتَنمصات؛ مُبتغيات للحُسن؛ مغَيرات خلق الله**»[١]. وعن أبي ريحانة، قال: «بلغنا أن رسول الله نهى عن الوشر، والوشم»[٢]، وقيل: هو التخنث، والسحاق، واللواط، والسفاح[٣]، وقيل: هو أن الله تعالى خلق الشمس والقمر، والأحجار، والنار، وغيرها من المخلوقات؛ ليُعتبر بها ويُنتفع بها، فغيرها الكفار بأن جعلوها معبودة. وبه قال الزجاج وجماعة[٤].

وهكذا يتبين من مراجعة هذه الأقوال في تفسير «**تغيير خلق الله**»، الذي يأمر به الشيطان الإنسان؛ أن التغيير يشمل التغيير الحسي؛ كالخصاء، ويشمل التغيير المعنوي، وهو العدول عن الإسلام إلى غيره، ولا مانع من حمل الآية على جميع الأمور التي ترجع إلى هذين النوعين؛ إذ مفهوم «**تغيير خلق الله**» واسع المدى، فيعم كل ما يلحق دين الله؛ عقيدة وشريعة، ومخلوقات الله من تحريف وتشويه ومسخ. وهذا المفهوم يبينه ويشهد له قول رسول الله ﷺ، الجامع بين التغييرين: «**ما مِن مولودٍ إلا يولَد على الفِطرة**» إلى قوله: «**كما تُنتَج البهيمة بهيمة جَمْعاء، هل تُحسون فيها من جَذعاء**»[٥]، فجمع ﷺ بين الأمرين: «تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس ـ لعنه الله ـ أنه لا بدَّ أن يغيرهما؛ فغيَّر فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغيَّر الصورة بالجدع والبتك، فغير الفطرة إلى الشرك، والخلقة إلى البتك والقطع. فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة»[٦]. وقد أخبر الله تعالى

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الأدب، رقم ٢٧٨٢ (صحيح السنن: ٣/١١٠)، ورواه النسائي بألفاظ مقاربة، في الزينة، رقم ٥٢٦٩: (صحيح سنن النسائي: ٣/٣٩٨).

(٢) صحيح سنن النسائي: ٣/٣٧١، في الزينة، برقم ٥١٢٧.

(٣) راجع الكشاف: ١/٥٦٥، ومفاتيح الغيب: ٦/١١/٥٠ والبحر: ٣/٣٥٤.

(٤) الجامع للأحكام: ٥/٣٩٤، ومفاتيح الغيب: ٦/١١/٥٠ وفتح القدير: ١/٥١٧.

(٥) تقدم تخريجه، ورواه أبو داود بلفظ: «**كما تَناتَجُ الإبل من بهيمة جمعاء، هل تحس من جدعاء؟!**»: (صحيح سنن أبي داود: ٣/١٥٣، عن أبي هريرة، رقم: ٤٧١٤).

(٦) إغاثة اللهفان: ١/١٧١.

أن نفس خلق الله لا تبديل له، فلا يخلق الخلق إلا على الفطرة، كما قال في آية الروم: ٣٠ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾، ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه، على «يدي الأب والكافل والصاحب...»[1]، كما دل عليه الحديث. ومصدره وحي شياطين الإنس والجن لهؤلاء بتحريفه عن الدين القيم إلى الكفر واتباع الشهوات؛ كما قال ﷺ، فيما يرويه عن ربه: «... **وإني خلَقت عِبادي حُنفاء كلهُم، وإنهم أتتهم الشَياطين، فاجتَالَتهم عن دينهم، وحَرَّمت عليهم ما أحلَلْت لهم وأَمَرتهم أن يُشركوا بي ما لَم أُنزِل به سلطانا الحديث...**»[2]، فعلم من هذا الحديث ونحوه، أن تغيير خلق الله في الآية، إنما هو تغيير يتَّبع فيه المغير أمر الشيطان، المتعلق بتحريف العقيدة والشريعة في دين الله، وبتغيير خلقة المخلوقات من السلامة والتقويم إلى المسخ والتشويه.

فأما الأمر بتحريف العقائد، فقد تبين أنه الأمر بتغيير فطرة الإسلام إلى الكفر. ومن ثم تغيير الدين القيم الواحد إلى أديان متفرقة، بغير علم ولا دليل، كما قال تعالى في معنى إقامة الوجه للدين، من آيتي الروم: ٣١، ٣٢ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾، وقال تعالى مبينا شدة اختلافهم في دينهم: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾[3]، وقال في سياق تهديدهم على تفرقهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية[4].

وأما الأمر بتحريف الشرائع، فهو الدعوة إلى تغيير الحلال حراماً والحرام حلالاً، على ما قرره المفسرون. ومنه ما كان يزاوله الجاهليون

---

(١) أحكام القرآن: ١/٥٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، من حديث عياض بن حمار المجاشعي، برقم ٢٨٦٥.

(٣) المؤمنون/٥٣.

(٤) الأنعام من الآية: ١٥٩.

العرب بإيحاء شياطينهم، من تحريم وتحليل لأنفسهم، فيما رزقهم الله من الأنعام والحرث؛ مع الزعم أن هذا الذي يحرمونه ويحللونه شرعه الله، ويشهد لذلك آية يونس ٥٩ المتقدمة، وقوله تعالى في آية الأنعام: ١٣٨ ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾.

وأما الأمر بتغيير مخلوقات الله[١] فهو الإغراء بسائر أنواع التشويه والتمثيل التي حرمها الإسلام، ومنها ما يرجع إلى شرائع الأصنام؛ كالإخصاء، وقطع الآذان، ونحوهما، ومنها ما يرجع إلى أغراض شيطانية ذميمة؛ كالوشم، وما جرى مجراه من التصنع للحسن، وهو تشويه وتدليس، ورُقْية للزنا، ويدخل في معنى تغيير خلق الله وضع المخلوقات في غير ما خلقها الله له؛ كجعل الكواكب والبشر آلهة من دون الله، ووضع شهوة الجماع في غير ما شرعه سبحانه؛ كالسفاح، واللواط، والسحاق...، ويدخل فيه كذلك، ما يحاوله علماء اليوم من وضع جينات الإنسان للاستنساخ، إرضاء لغروره وأنانيته...

وليس من تغيير خلق الله «التصرف في المخلوقات بما أذن الله فيه، ولا ما يدخل في معنى الحسن، فإن الختان من تغيير خلق الله، ولكنه لفوائد صحية، وكذلك حلق الشعر لفائدة دفع بعض الأضرار، وتقليم الأظافر لفائدة تيسير العمل بالأيدي، وكذلك ثقب الآذان لوضع الأقراط والتزيين...»[٢]. وقد قرر صحيح بيان رسول الله بأن هذه الأمور كلها من السنة والفطرة، وذلك في مثل قوله عليه السلام: «**خمسٌ مِن الفِطرة: تَقليم الأظفار، وقَص الشارِب، ونتفُ الإبْط، وحَلق العانَة والخِتان..**»[٣]، وكذلك

---

(١) ويشهد لهذا المعنى الاسمي لخلق الله، قوله تعالى من آية لقمان: ١١ ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾....

(٢) التحرير: ٥/٢٠٥، ٢٠٦.

(٣) رواه النسائي في كتاب الزينة، عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٥٠٥٩: (صحيح سنن النسائي: ٣/٣٥٨).

حديث أم زرع، وفيه: «**أَناسَ من حُلي أذني**»(١).

وجملة القول: إن تغيير خلق الله إنما يكون إثماً ومعصية، ويعد من إغراء الشيطان، إذا كان فيه عدولا عن فطرة الخلق، وأعظمها الإسلام، وعن سننه تعالى في شريعته، إلى تشويه الخلق، وأعظمه الشرك، وإلى تشريع الشركاء ما لم يأذن به الله. ومن ثم فإن مفاهيم تغيير خلق الله، كما دل عليها سياق الآية واتصال القرآن والحديث بها، تتكامل في تقرير صفة الشرك لا صفة الإسلام، وعبادة الشيطان لا عبادة الله.



(١) رواه البخاري بطوله في كتاب النكاح، عن عائشة رضي الله عنها برقم ٥١٥٩، و«أناس» أثقل حتى تدلى واضطرب من «ناس، ينوس؛ إذا اضطرب»: (انظر، المفردات/نوس).



المبحث الثالث:

أسبابه

شاءت الحكمة الإلهية أن تحدد الأسباب الأصيلة لضلال الضالين، فيما دار في الملأ الأعلى منذ البدء، بشأن قصة آدم وإبليس، أو قصة الهدى والضلال، والأمر والنهي؛ قصة آدم، خليفة الله في الأرض، مم خلق؟ وماذا صاحب خلقه وتلاه؟ وقصة إبليس، خليقة الشر، ما هي طبيعته وصفاته؟ وكيف ابتُلي بآدم؟ ولماذا عصى الأمر بالسجود فطُرد من رحمة الله، وما هي سبل الإضلال التي هدد اللعين بها آدم وبنيه؟

إنها قصة البداية التي أعلنت عن ميلاد خلق جديد، وصاحب هذا الإعلان من الأحداث: أمر وامتثال، وتمرد واحتجاج، وسؤال وجواب، وطرد ورجم، وطلب للنظرة إلى يوم البعث، وتهديد وانتقام... وهذه الأحداث التي رسمت أقدار البشرية، منذ بدء رحلتها على الأرض إلى نهايتها يوم الحساب، يعرضها القرآن الكريم في بيان معجز[1]، وقد تشابهت بعض مقدماتها وتعقيباتها، واختلفت طريقة عرضها، وتباينت أغراضها، وفق مساقها في كل معرض. ولعل تمثلها فيما نقرؤه من آياتها، يفيد في إبراز معالمها، واستكناه دلالاتها، وذلك بالقدر الذي يكشف عن الأسباب الأصيلة، الكامنة وراء الأمر الشيطاني، تلكم الأسباب التي تتسلسل متكاملة

---

(١) في سبع سور، وهي: ص والأعراف وطه والإسراء والحجر والكهف والبقرة.

ومتدرجة مع الأحداث، لتُعرب عن نفسها فيما يلي:

المطلب الأول: عصيان إبليس لأمر الله

تبدأ قصة البشرية بإعلان ميلاد آدم، في احتفال مهيب، في رحاب الملأ الأعلى، يعلنه الملك ذو الكبرياء، زيادة في التكريم، وتحتشد له الملائكة وفي زمرتهم إبليس، فيأمرهم ربهم بالسجود لهذا الكائن البشري[(١)] الذي خلقه من طين، ونفخ فيه من روحه. والقرآن الكريم يحكي هذا الأمر في مواضع شتى من آياته. قال تعالى في آيتي ص/٧١، ٧٢، في سياق الاستدلال بقصة آدم على الوحي: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[(٢)]، وقال تعالى في آية الأعراف: ١١، في مقام الامتنان على عباده بنعمة ابتداء الخلق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾...، وقال تعالى في آية الكهف: ٤٩، في مقام التعجب من أبناء آدم، الذين اتخذوا ذرية إبليس أولياء من دون الله، وهم لهم عدو: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾....

فتبين من هذه الآيات، ونحوها أن الأمر بالسجدة توجه صراحة إلى الملائكة، فهل كان إبليس منهم؟ وهل شمله الأمر المذكور؟ الظاهر أن إبليس خلق آخر غير الملائكة، فهو من الجن المخلوق من نار السموم، كما صرح بذلك قوله تعالى، مخبراً عن إبليس: ...﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[(٤)] والمأثور

---

(١) والسجود المأمور به ورد بمعنى **الخضوع** في جميع آياته، وإليه أشارت عائشة بنت الشاطئ في قولها: «والسجود إذا كان لغير الله، فليس معناه العبادة بالمصطلح الديني لمعنى السجود، وإنما هو الخضوع، على أصل الاستعمال اللغوي للمادة. وبهذا المعنى تُفسَّر آيات السجود لآدم، أو للنوع الإنساني فيه»: (مقال عن الإنسان/٤٠).

(٢) وينظر معها نظيرها: آية الحجر/٢٩.

(٣) الكهف من الآية: ٥٠.

(٤) الحجر/٢٧.

أن الملائكة خلق من نور، وهم بوصف الله تعالى لهم: ...﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾[1]، وهو - لعنه الله - استكبر وأبى، فليس هو إذن من الملائكة. أما الأمر الصادر إلى الملائكة، فقد شمل إبليس؛ «لأنه كان معهم، من غير تمييز له منهم، والمقام الذي كان يجمعهم جميعا كان هو مقام القدس، كما يستفاد من قصة ذكر الخلافة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾[2][3] فالأمر بالسجود إنما كان متجهاً إلى ذلك المقام، وإبليس كان مقيماً فيه مع الملائكة، لكن لم يخص بالذكر الصريح عند الأمر «لأن الملائكة كانوا الجمهور الأعظم الحاضرين، ووجود فرع من غيرهم لا يغير في صدور الأمر، على التغليب»[4]. وقد يكون الأمر صدر إليه منفرداً، ولم يذكر إهمالاً لشأنه بسبب ما كان من عصيانه، وإظهاراً للملائكة في الموقف[5]. وقد ذُكر صدور الأمر إلى إبليس صراحة، في آية الأعراف: ١٢ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾... فعلم من سياق التوبيخ في الآية، أن الأمر بالسجود أفاد الوجوب[6]، وأن إبليس - لعنه الله - خالف الائتمار إلى العصيان؛ فتميز بهذا عن الملائكة، الذين سجدوا طاعة لأمر الله، كما هو مقتضى طبيعتهم ووظيفتهم. قال تعالى إخباراً عنهم، وعن إبليس: ...﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[7]، وصرح بسجود

---

(١) الأنبياء/٢٦، ٢٧.

(٢) البقرة من الآية: ٣٠.

(٣) الميزان: ٢٣/٨.

(٤) جذور الشر/٢٢٢.

(٥) في الظلال: ١١٠/٧ و٢٠٦/٥.

(٦) وهذه الآية تنسجم مع استدلال المفسرين من الأصوليين والفقهاء بهذه الآية على أن صيغة الأمر تفيد الوجوب حقيقة، وقالوا في وجه الاستدلال بها: إن الله ذم إبليس على مخالفة ما أُمر به من السجود لآدم بالاستفهام الإنكاري. وإذا ثبت الذم على ترك المأمور، ثبت أن الأمر ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ للوجوب (ينظر: مفاتيح الغيب: ٣٥/١٤/٧، والجامع للأحكام: ١٧٠/٧).

(٧) الأعراف من الآية: ١١.

الملائكة جميعاً في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾[١]، واستثنى منهم إبليس[٢]، ووصفه بالكفر بسبب إبائه السجود واستكباره وفسقه عن أمر ربه، كما قال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[٣]، وقال ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٤]، وقال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[٥]. فتضمنت الآيات أن إبليس إنما عصى وكفر بالتكبر على الله وعدم امتثال أمره. ومن الدليل على ذلك، قوله تعالى موجها التوبيخ إليه: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾[٦]، وأيضاً فإنه قال: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، ولم يقل: فاستنكف عن الخضوع لآدم، بل إنما ذكر الفسق عن أمر الرب تعالى، وهو «الخروج عن طاعته»[٧]، فما الذي حاك في صدر إبليس فمنعه من طاعة ربه؟ وما الذي أظهر تكبره عليه، ومن ثم تكبره على خليقة يديه «آدم»، وهو يعرف أنه خالقه؟

---

(١) الحجر/٣٠ وينظر معها: ص/٧٢.

(٢) وقد وقع الخلاف بين المفسرين في توجيه هذا الاستثناء: أهو استثناء متصل أم منقطع؟ أي: هل إبليس من الملائكة أم ليس منهم؟ وهل كان مأموراً مثلهم؟: (راجع ذلك في: مفاتيح الغيب: ١٣٨/٢١/١١، والميزان: ٢٣/٨) وقد تبين - فيما تقدم - أولى التوجيهين بالصواب، وذلك أن الاستثناء المذكور في جميع آيات الأمر بالسجود ليس على وجهه؛ إنما هو كما نقول: حضر بنو فلان إلا زيد، وليس منهم، إنما هو معهم في مكان أو ملابسة. وإبليس كان مع الملائكة، وإن لم يكن منهم، وكان قد أمر بالسجود لآدم في زمرتهم. ويؤيد هذا الوجه ما رواه ابن جرير - بإسناده - عن الحسن قال: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس»: (جامع البيان: ٢٢٦/١/١).

(٣) الحجر/٣١.

(٤) البقرة/٣٤، ومعها ص/٧٣.

(٥) الكهف من الآية: ٥٠.

(٦) ص/٧٥.

(٧) ينظر جامع البيان: ٢٥٩/١٥/٩، والكشاف: ٤٨٨/٢، والبحر: ١٩٠/٧، وابن كثير: ٨٧/٣، والميزان: ٢٤/٨.

المطلب الثاني: الكبر والحسد

قال الله تعالى، إخباراً عن عدوه إبليس، لما سأله عن امتناعه عن السجود لآدم، واستكباره عن أمر ربه: . . . ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[(١)]، وقال: . . . ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[(٢)] وقال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[(٣)]. فعلم من رد إبليس في هذه الآيات أن الذي منعه من السجود لآدم هو الكبر والحسد، الناشئين عن طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان في جبلته، وهي ليست بعيدة في التصور عن طبيعة النار المتلظية، التي هي أصل تكوينه[(٤)]. وقد أظهر هذا التكبر والحسد في قوله: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، فأثبت لنفسه استقلال الإنية[(٥)] قبال الإنية الإلهية، التي ذل لها كل شيء، فاستدعاه ذلك إلى منازعة الله سبحانه في كبريائه[(٦)]، بما رأى لنفسه من استقلال وكبرياء؛ فأهمل وجوب امتثال أمر الله؛ لأنه الله، ولأنه أمره، بل وحكم لنفسه بمنطق من إنيته وكبريائه بالخيرية والفضل؛ إذ وجد أن مادتها، وهي النار، خير من مادة نفس آدم وهي الطين، فاستصغر أمره، وفضل نفسه عليه، ولا ينبغي للفاضل أن يخضع بالسجود لمفضوله، وإن أمر به الله سبحانه.

---

(١) ص/٧٦.

(٢) الإسراء من الآية: ٦١.

(٣) الحجر/٣٣.

(٤) والنار تنزع إلى الاستطالة والاستعلاء وإرادة الارتفاع، ومن صفاتها التي يمكن إسنادها إلى الشيطان كذلك: الخفة والطيش: (البيان في مداخل الشيطان/٢٦).

(٥) ومما يؤكد هذه الإنية مجيئها في جملة اسمية، دلالة على ثباتها واستمرارها. وقد وردت غير مطابقة لسؤال الباري: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؛ إذ كان من الحري أن يقول مثلاً: منعني أني خير منه، لكنه أتى بهذه الجملة ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ليظهر بها الإنية.

(٦) وله رداء الكبرياء سبحانه، كما وقع في الحديث القدسي، قال ﷺ: «**يقول الله سبحانه: «الكِبرياء رِدائي، والعَظمة إِزاري، من نازَعني واحِدا مِنها ألقيتَه في جهَنم»**: (صحيح ابن ماجة: ٣/٣٦٤، برقم: ٣٣٨٣، عن أبي هريرة).

وهكذا تكبَّر إبليس على الله وعلى آدم، وتعلق بأمر النار والطين، وتغافل عن العنصر الكريم، الزائد على الطين، ولم يحمله على هذا التغافل إلا حسده لآدم؛ إذ لم يحتمل أن يكرمه الله سبحانه عليه، فيسجد له ملائكة الرحمٰن، كما يصرح به قوله، معترضا على الملك الحكيم، في تبجح: . . . ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾[١]. وقد بين تعالى أنه فضل آدم عليه، وعلى الملائكة، وخوَّله الجنة يأكل منها حيث يشاء، في حديث الخلافة من سورة البقرة، وبين في قوله من آيتي: ص والحجر ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أنه ـ سبحانه ـ اهتم بأمر خلقته كل الاهتمام؛ حيث خلقه بكلتا يديه، بأي معنى فسرنا اليدين، ونفخ فيه من روحه بتلك النفخة العلوية، التي جعلت منه إنساناً، وميزته عن سائر الأحياء في هذه الأرض بالمعرفة والإدراك والإرادة والاختيار، وهذه الكرامة التي نالها آدم هي التي استفزت نار الحسد في نفس إبليس، فانتصب قائماً وترك السجود، فعصى وغوى.

ومن أجل هذا كله، كان سبب هلاك من هلك من بني آدم الكبر والحسد؛ فإن جميع المعاصي ترجع بحسب التحليل إليهما، وذلك لما فيهما من دعوى الإنية، وحب الفضل على الناس، وزوال النعم عنهم[٢]. وقد وردت في ذمهما أخبار كثيرة، منها قوله عليه السلام: «**دَبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم؛ الحَسد والبَغضاء؛ هي الحالِقة، لا أقول: تَحلِق الشعر؛ ولكن تحلق الدين**»[٣]، وقوله عليه السلام «**ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عُتلٍّ، جَوَّاظ، مستكبر**»[٤]، وقوله: «**الكِبر بَطَر الحق وغَمَط الناس**»[٥]، وقال بعض

(١) الإسراء من الآية: ٦٢.

(٢) ويقرب من هذا المعنى قول الغزالي، مبيناً حقيقة الحسد: «... **فالحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه...**» (الإحياء: ١٨٩/٣).

(٣) رواه الترمذي في صفة القيامة، عن الزبير بن العوام، رقم ٢٥١٠: (صحيح سنن الترمذي: ٦٠٧/٢).

(٤) صحيح ابن ماجة: ٣٤٩/٣، في الزهد، رقم ٣٣٣٩، عن حارثة بن وهب.

(٥) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، عن عبدالله بن مسعود. **وبطر الحق**: رده وعدم الإذغان له، **وغمط الناس**: ازدراؤهم، وانتقاص أقدارهم وحقوقهم، وكلتا شعبتي الكبر بارزة في قصة امتناع إبليس من السجود لآدم.

السلف: «أول خطيئة كانت هي الحسد، حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته، فأبى أن يسجد له، فحمله الحسد على المعصية» وحكي أن عوف بن عبدالله دخل على الفضل المهلب، وكان يومئذ على واسط، فقال: «إني أريد أن أعظك بشيء، فقال: ما هو؟ قال: إياك والكبر، فإنه أول ذنب عصي الله به، ثم قرأ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ الآية»[1].

وإذا كان بدء معصية إبليس الكبر والحسد، فماذا كان جزاؤه؟ وبم نفَّس عن حقده؟ وما هي عدته التي حددها لتنفيذ انتقامه من بني الإنسان؟

***

المطلب الثالث: الحقد والعداوة

لقد كان جزاء إبليس على الاستكبار والحسد والعصيان الطرد واللعنة والصغار، يشير إلى ذلك قوله تعالى ضمن القصة: . . . ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾[2]، وقوله: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾[3]. ونفذ أمر الله بالإبعاد، وهنا تحول استكبار إبليس وحسده إلى حقد دفين في نفسه، وإلى تصميم شديد على الانتقام من عدوه، الذي كان بسببه لعنته وطرده؛ فطلب من الخالق أن يؤجله إلى يوم البعث؛ كي ينجو من الموت: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾[4].

---

(١) جذور الشر/٥١.

(٢) الأعراف/١٣.

(٣) الحجر/٣٤ ـ ٣٥، والضمير: (فيها) عائد إلى المنزلة أو إلى السماء أو إلى الجنة، ومآل ذلك إلى مقام القدس المستفاد من حديث الخلافة: (الميزان: ٨/٢٤ ـ ببعض تصرف ـ).

(٤) الأعراف/١٤.

واقتضت مشيئة الله أن يجيبه إلى ما طلب: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾[(١)]، وما أن أذن الله له بالبقاء، حتى أعلن عداوته لآدم وذريته، وعزمه على المضي إلى النهاية في طريق المعصية؛ فطفق يسرد على ربه، دون استحياء منه ولا خوف، خطته التي رسمها لإغوائهم وإضلالهم، إذ قال: ...﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[(٢)]، وقال: ...﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾...﴾[(٣)]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[(٤)]، وقال: ...﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾...[(٥)] وقال: ...﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الآية[(٦)].

إن العدو اللعين يُقسِم بعزة رب العالمين ليغوينهم أجمعين، لا يستثني إلا من ليس له عليهم سلطان[(٧)]، من عباد الله المخلصين. ويجسد هذا الإغواء بالإصرار الشديد على تزيين القبيح لهم وإبرازه في صورة الحسن الجميل، وعلى القعود لهم على طريق الإيمان والطاعات الموصل إلى الله تعالى، ثم على إتيانهم وملاحقتهم من كل جانب، من جوانبهم الأربعة؛ أي: من قبل الدنيا، عن ابن عباس[(٨)] وما يستقبلهم من الحوادث فيها، مما تتعلق به الآمال والأماني، من الأمور التي تهواها النفوس أو تكرهها؛ كالزنا

---

(١) الحجر/٣٧، ٣٨.
(٢) ص/٨٢، ٨٣.
(٣) الأعراف/١٦، ١٧.
(٤) الحجر/٣٩، ٤٠.
(٥) الإسراء من الآية: ٦٢.
(٦) النساء/١١٧، ١١٨.
(٧) وقد تقرر في المبحث الأول أن الشيطان لا سلطان له إلا السلطان على الدعوة والوعد الكاذب.
(٨) إغاثة اللهفان: ١/١٠٢.

والفقر[١] ومن خلفهم والمراد به: «ناحية الأولاد والأعقاب»[٢] وعن أيمانهم، واليمين هو الجانب الميمون في الإنسان، والمقصود به: «ناحية سعادتهم وهو الدين...»[٣]. وهذا المعنى يوافق قول ابن عباس: «أشبه عليهم أمر دينهم»، وقول الحسن: «من قبل الحسنات أثبطهم عنها»[٤]، ويدخل فيه: تزيين المبالغة في بعض الأمور الدينية، والتكلف بما لم يأمرهم به الله[٥] ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾؛ أي: «السيئات يأمرهم بها، ويحثهم عليها، ويزينها في أعينهم»، كما قال ابن عباس[٦].

إنها لحرب ضروس تلك التي يعلنها إبليس على الإنسان، ويقيده بها من كل اتجاه، ويهدده بشتى أنواع الأسلحة، وآدم لم يخض معه المعارك بَعْدُ، ولم يرفع بوجهه سلاح. وقد أطلق تعالى لرسول الشر الزمام بسلسلة من الأوامر التكوينية، الموحية بضراوة المعركة التي يخوضها الشيطان وأتباعه مع بني الإنسان: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾[٧].

إنها معركة تُرسل فيها أصوات الشياطين في كل مكان، تنادي الباطل وتدعو إليه، وتقدح فيها الأرض بسنابك خيول الباطل، في صهيل عال للقضاء على الحق، وتقام في آثارها شركة بين إبليس وأتباعه. وكل ذلك تجسيم لوسائل الغواية الممكنة، التي يتفنن في استخدامها إبليس وقبيله؛ للتصرف في قلب الإنسان، وفي بدنه، وفي سائر شؤونه، دون أن يشعر

(١) الميزان: ٣٢/٨ ـ بتصرف ـ.
(٢) الميزان: ٣٢/٨.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) إغاثة اللهفان: ١٠٣/١.
(٥) الميزان: ٣٣/٨.
(٦) إغاثة اللهفان: ١٠٣/١.
(٧) الإسراء/٦٣، ٦٤.

الإنسان بهم، ولا بأعمالهم، بل لا يشعر إلا بنفسه، ولا يقع بصره إلا بعمله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾...[١].

وهكذا مضى إبليس مأذوناً له في إغواء الذين اتبعوه. وكان أول إغوائه دخوله متسلحا بسلاح الوسوسة على آدم وزوجه، من باب إغرائهما بما يشتهيانه من العمر الدائم أو الملك الخالد[٢]، وكان هدفه أن يزيل عنهما لباسهما، فتنكشف لهما عوراتهما، بعد أن يجرئهما على الأكل من الشجرة المحرمة عليهما: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾[٣]. وانطلت المكيدة على آدم وزوجه، ونسيا أن الله أمرهما بطاعته، وأن إبليس عدوهما، واستجابا للوسوسة: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾[٤].

ويأتي نداء الحق جلت قدرته عتاباً لهما على معصيتهما: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٥]. ويدرك آدم زلته، فيطلب التوبة من ربه، ولا يصر كالشيطان في المعصية: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[٦] فتاب الله عليهما؛ كما قال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[٧]. وبهذا تم أول ابتلاء لآدم بإبليس، كما تم ابتلاء إبليس بآدم من قبل، وكان هذا الابتلاء أول تدريب لخليفة الأرض في الجنة على

---

(١) الأعراف من الآية: ٢٧.

(٢) وهذا المعنى يتخرج على القراءة الأخرى؛ من آية الأعراف: ١٩ ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلِكَيْنِ﴾ - بكسر اللام - ويشهد لها قوله، في آية طه: ١١٧ ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

(٣) الأعراف/الآيات: ٢٠، ٢١.

(٤) الأعراف من الآية: ٢٢.

(٥) الأعراف/٢٢.

(٦) الأعراف/٢٣.

(٧) البقرة/٣٧.

عدم الاستسلام لشهواته أو لعدوه العنيد المصر على إغوائه، وعلى تجرع الندامة، وطلب المغفرة كلما أخطأ وغوى.

وبعد ذلك، جاء أمر الله بهبوط الجميع... آدم وزوجه، وإبليس وقبيله إلى الأرض، ليعادي بعضهم بعضاً، ولتدور المعركة الكبرى بين طبيعتين: إحداهما ممحضة للشر، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[(١)]، فتبين من هذه الآية أن عداوة إبليس، التي أبان عنها من زمن آدم، هي سبب تحريض إبليس وأتباعه للإنسان على الفساد في الأرض بأية وسيلة من الوسائل؛ ومنها: التزيين، والوعد، والأمر. ومن ثم كثر في القرآن الكريم تمثيل الشيطان في صور العدو المتربص بالناس - مؤمنين، وعصاة، وكافرين - لتذكيرهم بعداوته، وتحذيرهم من موالاته، وإثارة لداعية مخالفته في نفوسهم، واقترن هذا التمثيل بدعوته المضلة لحزبه إلى النار، وبنهي الله الجازم عن اتباع خطواته وولايته وعبادته، ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[(٣)]، وقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾[(٤)]، وقوله ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾[(٥)]. والمتأمل في هذه الآيات، يلحظ أن ثمة علاقة سببية مكينة بين عداوة الشيطان لبني آدم، ودعوته الدائبة إلى غوايتهم وإضلالهم، وذلك يعني أن من يتخذ الشيطان عدوا، لا يتبع أمره، ولا

---

(١) الأعراف/٢٤. وينظر نظيرتها آية البقرة/٣٦.

(٢) فاطر/٦.

(٣) البقرة/١٦٨ - ١٦٩.

(٤) يس/٦٠.

(٥) الكهف من الآية: ٥٠.

يسلك خطواته، التي نُهينا عنها[١]، بل يعرض عن وساوسه، و يبغضه، ولا يقترب إليه بقلبه وعمله؛ إذ أصل العداوة: «**البغض والبعد**»[٢]. ولهذا كانت هي المنبه لعباد الله المخلصين أمام وعود الشيطان وأوامره. وهؤلاء هم الذين يحبون الله، وهو يحبهم، ويقربون منه، وهو يقرب أكثر مما يقربون. وأولئك هم حزب الله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

كذلك يعني بدلالة المخالفة، أن من يتخذ الشيطان وليا من دون الله، يتبع سبله في «**اجتلابه واجتنابه**»[٤]، وفي كل أحواله؛ إذ لا يكون بعد الولاية، وهي «**المحبة والقرب**»[٥] إلا الاتباع لعدو الله، والتقرب منه بأداء ما افترض عليه من طقوس دينه؛ كالتقريب للأصنام، أو عبادة الأشخاص، أو اتباع الشهوات، أو اجتراح المعاصي. فإذا ما بلغ الأمر من الإنسان هذا الحد من طاعته، تحول من عبادة الله إلى عبادته، حتى لا يسمع، ولا يبصر، ولا يبطش، ولا يسعى في الأرض إلا كما يحب له شيطانه ويرضى، وهو -

---

(١) وأهمها في القرآن الكريم:

اتباع الهوى: وإلى ذمه الإشارة في آية القصص: ٥٠ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾. وذلك لأن الهوى كالشيطان «يدعو إلى اللذة الحاضرة، وإن كانت سببا للألم والأذى في العاجل، ومنع لذات في الآجل»: (ذم الهوى/١٣).

اتباع سبل المفسدين: قال تعالى ...﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: الأعراف من الآية: ١٤٢.

اتباع الشهوات: قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: مريم من الآية: ٥٩.

اتباع السبل: قال تعالى ...﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾: الأنعام من الآية: ١٥٣.

اتباع الظن: قال سبحانه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾: الأنعام من الآية: ١٤٨.

اتباع الآباء: وقد مر شاهده في آية الأعراف: ٢٨.

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان/٦.

(٣) المجادلة من الآية: ٢٢.

(٤) اقتباس من قول ابن الجوزي في تلبيس إبليس/ص ٢٣.

(٥) الفرقان/٦.

لعنه الله ـ يكيد له المكايد، ويوقعه في المصائب، ومن أجل هذا الولاء الذي عقده إبليس مع أوليائه كان الجزاء خسرانا مبينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[1].



(١) النساء من الآية: ١١٩.



خلاصة وتعقيب

ومما سبق، نحصل ونستلهم:

● أن دعوة الشيطان إلى الباطل دعوة أصيلة، انبثقت أسبابها في ساحة الملأ الأعلى مع خلق الإنسان، وإعلان خلافته في الأرض، على عهد من الله وشرط[1]، ومع صدور الأمر الإلهي بالسجود له. واستكبار إبليس عن الأمر، بسبب استشرافه لنفسه، واستعلائه على ربه، وحسده لآدم، فكان ذلك دافعا له لفعل الشر والإيعاز به بين الناس.

ثم تحدد منهجها ورُسم طريقها بإشهار إبليس عداوته لآدم وذريته، وبيانه لأسباب الغواية ووسائلها وأهدافها، التي سيزاولها ـ بإذن الله ـ على المدى الطويل من أجل الانتقام منهم، جزاء ما لعنه الله وطرده من رحمته.

ثم انتقلت، عقب نسيان آدم للعهد بغواية إبليس وندمه واستغفاره، إلى ميدانها المقدر لها: الأرض، وإلى مجال عملها: النفس الإنسانية. وانطلقت من عقالها، وهي متضلعة من وسائل الغواية والإضلال، تجمع طاقات الحسد، والانتقام، والخداع، والفسق، والجبن، وغيرها من الصفات الإبليسية، وتحشد أتباع الشهوات، ومحبي القوة، والجاه، والمال...، وتقود شياطين الإنس والجن، لخوض المعركة الكبرى الضارية، التي لا

(١) وهو المشار إليه في آية البقرة: ٣٨ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تهدأ لحظة مع دين الله، ومع المهتدين بهداه.

وإذا كانت قصة النشأة الإنسانية في القرآن الكريم توحي بالأسباب الباعثة لكل شياطين الإنس والجن، ومن ورائهم كبيرهم إبليس، على تدمير الإنسانية وسوقها إلى الفناء؛ فإن بنو إسرائيل اليوم، هم شياطين الإنس، الذين توحي إليهم شياطين الجن؛ ذلك بأنهم كمثل إبليس، يجحدون الحق بعد ظهوره، ويكرهون الخير لغيرهم، بدافع الأنانية المفرطة، والحسد المقيت، ويضمرون للعالم الشرور والأحقاد، ويستغلون نقط الضعف في النفوس لتعريتها من لباس التقوى، كما فعل إبليس بآدم من قبل، ولا يدعون وسيلة من الوسائل في سبيل إنزال الإنسان إلى مرتبة دنيا بهذه التعرية، التي تخدم مطامعهم في الثراء والسلطان ومحاربة كل دعوة إلى الله؛ فهم يطلقون الألسنة والأقلام، ويوجهون جميع أجهزة التوجيه والإعلام[١]، في اتجاه تزيين الرغائب والوسوسة له بارتكاب شتى أصناف الفواحش؛ وهم يروجون الأفكار والمذاهب الخبيثة[٢]، للتهوين من شأن الأديان والأخلاق، ومن ثم الحط من قيمة الإنسان، وسلبه خصائص إنسانيته، وهم يدعمون الجمعيات والمنظمات الهدامة[٣]، التي تلقي بذور

---

(١) ونفوذ اليهود لا يُضاهى في مجال الإعلام بوسائله المختلفة؛ كالصحافة، والإذاعة، ودور النشر، والسينما، والمسرح....

(٢) ومعظم المفكرين والدعاة، الذين عرفتهم البشرية مع الحركة الصهيونية الحديثة والمعاصرة، هم أفراد يهود، أو أتباع لهم في منظماتهم، وقد كانوا وراء كل دعوة أو فكرة تستخف بالقيم الأخلاقية، وتسعى إلى هدم الأديان؛ كاليهودي (كارل ماركس)، الذي كان وراء الشيوعية، التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان، واليهودي (فرويد)، الذي يرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والفنية إلى الغريزة الجنسية. وبهذا تنحط في نظره صلة الفرد بمجتمعه، وبأسرته، وبالكون وما وراءه...و(نيتشه)، الذي رفعه اليهود إلى مرتبة العظماء؛ لأنه سخر من الأخلاق الفاضلة؛ كالرحمة، ودعا إلى أخلاق العنف والاستخفاف بالقيم، التي تتفق مع الروح اليهودية الشريرة وتاريخها الأسود....

(٣) ولا تكاد توجد في العالم جمعية ذات أخطار وأسرار إلا واليهود خلفها؛ فقد كانوا خلف القرامطة، وخلف الجمعيات الهدامة التي أوقعت بالمسلمين أبلغ الأضرار، =

الفتن والشقاق في كل الدول وتدبر الحروب بينها؛ لتخضع لملكهم بلا مقاومة وقد فقدت مقوماتها الإنسانية، واستقرارها وسيادتها. . .

إنهم خلفاء إبليس في الأرض ودعاته؛ لأنهم نبتوا في رذيلة أنانيته وكبريائه، وارتووا من ضرع حسده وحقده، وتغذوا من نار عداوته وانتقامه، فهرعوا مهطعين إلى تنفيذ خطط إغوائه، واتباع سبل إضلاله، وعلوا في الأرض بحبل من الله وحبل من الناس[(١)]، يُغَلبون الشهوة على الإرادة، والغواية على الهداية، ولا يزال الصراع دائراً بينهم وبين فريق الحق[(٢)] إلى آخر عمر البشرية، تحقيقا لسنة التدافع، وسنة الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[(٣)] وقال: . . . ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[(٤)].

● أن دخول الشيطان على الأبوين من باب رغائبهما في حب البقاء

= وكانوا خلف عشرات الجمعيات، التي نشأت منذ قرون في أوروبا لهدم المسيحية؛ كجمعية (فرسان المعبد)، وجمعية (القداس الأسود)، وجمعية (الصليب الوردي). . . ولعل من أشهر الجمعيات، التي تغلغل نفوذها في معظم أنحاء العالم، منذ ق: ١٨: جمعية (الماسونية)، وهي جمعية يهودية، تسعى لتحطيم الحكومات، وتدمير مقومات الشعوب غير اليهودية، والقضاء على الأديان والأخلاق، وذلك كله في مصلحة اليهود: (انظر: بنو إسرائيل، في القرآن والسنة: ٣١٢/٢، ٣١٦ ـ بتصرف ـ).

(١) وهذا العلو مرتبط بقضاء سابق، وهو استثناء من حالة الذل والمسكنة، التي ضربت عليهم منذ تفرقهم في الأرض، حيث أخبرنا تعالى أن اليهود لن يعلوا في الأرض بالإفساد إلا بحبل من الله، وحبل من الناس، وذلك استناداً إلى إهمال أهل الحق لما معهم من الحق، وبعدهم عنه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. . . : آل عمران من الآية: ١١٢.

(٢) ولعل أحداث الصراع الدائر بين الصهيونية، ممثلة في دولة بنو إسرائيل وأذنابهم، والعالم الإسلامي، ممثلاً في دولة فلسطين المحتلة، تجسد ـ بحق ـ المعركة الكبرى الصارمة، الضارية، التي توشك أن تستمر حتى يقول الحجر والشجر: يا مؤمن ورائي يهودي فاقتله، كما جاء في خبر الصادق عليه السلام، وحينئذ سيكون خلاص البشرية من اليهود على أيدي المسلمين.

(٣) البقرة من الآية: ٢٥١.

(٤) محمد من الآية: ٤.

والملك، وسوقهما منها إلى نسيان عهد الله[١] وارتكاب المحضور، يشير إلى أن وحي الشيطان ينبني على نقط الضعف الفطرية في الإنسان، ومن ثغرة هذا الضعف يمكن الدخول إليه وشغله حتى ينسى ما في نفسه من الذكر[٢]، فيسهل إنزاله من طاعة الله إلى معصيته.

● أن الأمر الإلهي بالسجود لآدم يشير إلى تشريفه تعالى لآدم بقرب المنزلة، وكرامة الولاية، وشرف العلم؛ ولعل هذا التشريف الأول يشهد بوضوح على القيمة الكبرى، التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان، ولدوره المنوط به في الأرض، ولمكانه في نظام الوجود، ولطبيعته وقيمه وموازينه؛ فهو سيد هذه الأرض، ومن أجله خلق كل شيء فيها، وسخرت له طاقاتها وأرزاقها، وخلافته فيها لا تتعلق فقط بعمارتها في حدود عبودية الله وحده، بل تتعلق أيضاً بارتباطات شتى مع عناصر هذا الكون الفسيح وطاقاته، وتكتمل صورتها بتأمل الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها ويتعامل معها، فهو إذن عامل مهم في نظام الكون، ملحوظ في هذا النظام ودوره في الأرض هو الدور الأول، فلا يهون بعد هذا التشريف أن نسند الأهمية كلها للمادة وتأثيراتها الحتمية، ونزعم مع المذاهب المادية أنها هي العامل الأساسي المؤثر في الكون، وهي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً، وتسوقه إلى درك الحيوان، الذي لا يحفل إلا بإشباع غرائزه البهيمية...؛ وذلك لأن الإنسان في النظرة القرآنية هو ـ كما عبر سيد قطب ـ أعز وأغلى من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض. ولا يجوز ـ إذن ـ أن يُستعبد أو يُستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي... ولا يجوز أن تهدر أية قيمة من قيمه لقاء تحقيق لأي كسب مادي، أو إنتاج أي شيء مادي، أو تكثير أي عنصر مادي... فهذه الماديات كلها مخلوقة ـ أو مصنوعة ـ

---

(١) وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ طه/١١٥. وعهد الله لآدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة، تمثل المحظور، الذي لا بدَّ منه لتربية الإرادة، والارتقاء بالنفس إلى الكمالات.

(٢) وهو الذي يحدثه الشيطان بصريح قوله تعالى: ...﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾...: يوسف من الآية: ٤٢.

من أجله، من أجل تحقيق مقومات إنسانيته الكريمة، وتقرير سيادته الكاملة على الأرض بخلافته العظيمة فيها[١].

وهذه النظرة القرآنية الرفيعة إلى حقيقة الإنسان ووظيفته، ينشأ عنها إعلاء القيم الأدبية، التي يوزن بها في حياته، وتعظيم قيم الإيمان والصلاح في تقديره؛ لأنها هي القيم التي يقوم عليها عهد استخلافه، وهذه القيم - كما يقول سيد - أعلى وأكرم من جميع القيم المادية - هذا مع أن مفهوم الخلافة تحقيق هذه القيم المادية، ولكن بحيث لا تصبح هي الأصل ولا تطغى على تلك القيم العليا - ولهذا وزنه في توجيه القلب البشري إلى الطهارة، والارتفاع في حياته، بخلاف ما توحيه المذاهب المادية من استهزاء بكل القيم الروحية، وإهدار لكل القيم الأدبية، في سبيل الاهتمام المجرد بالإنتاج والسلع ومطالب البطون كالحيوان[٢]!

● أن الأمر بالسجدة كان أمراً تخييرياً من وجه، وأمراً تكوينياً من وجه آخر؛ فأما وجه التخيير فيه، فيتمثل في اختيار إبليس الفسق عن أمر ربه، استعلاء وترفعا على خالقه، وإعجاباً بمادة نفسه، وازدراء بأصل آدم، وكان في مكنته أن يسجد امتثالاً لأمر الله؛ فيبقى منضوياً في صفوف الملائكة، وسائر المخلوقات الكائنة بالأمر الكوني؛ ولكن تلقيه هذا الأمر باعتباره أمراً تخييرياً لا جبرياً، وتعلقه بالمرجحات فيه، بترجيحه للمعصية على الطاعة اختياراً؛ يعني دخوله مجال الحرية والابتلاء اختياراً أيضاً؛ ومن ثم خروجه من منزلة القدس التي شارك الملائكة فيها إلى منزلة البعد، وانفلاته من الوجود الجبري إلى الوجود الابتلائي الحر، وذلك يقابل - بوجه ما - قبول الإنسان للأمانة التي عُرضت عليه باختياره. ولذا فإن الأمر التخييري الذي توجه إلى إبليس هو عين الأمر الذي ابتُلي به الجن والإنس، وخُيروا فيه بين المعصية والطاعة، أو بين الدنيا والآخرة، غير أن إبليس فشل منذ تجربته الابتلائية الأولى بعصيانه لأمر ربه واختياره للدنيا، وتحركت

---

(١) في الظلال: ٧٢/١ - بتصرف -.
(٢) نفس المرجع: ٧٣/١ - بتصرف -.

نفسه لغواية الإنسان حتى يكون مصيره الخسران مثله. وقد أعطاه الله من الوسائل ما يمكنه من هذه الغواية، دون التأثير الملزم للناس والجن، وذلك عدل منه تعالى، حتى يتم ابتلاء الإنس بالجن، والجن بالإنس، كما ابتُلي إبليس بآدم وآدم بإبليس من قبل.

وأما وجه التكوين فيه؛ فيتجسد في خضوع الملائكة وامتثالهم للأمر، وتعاملهم معه على أنه كلمة الإيجاد الذي لا يتخلف، على ما تقتضيه جبلتهم ووظيفتهم. وحادثة سجودهم لآدم وإباء إبليس السجود له، وهي حادثة جزئية غيبية، كشفت النقاب عن طائفتين: طائفة مؤتمرة، وأخرى مستكبرة. ومن ثم كشفت عن جريان تكويني في الروابط الحقيقية، التي بين الإنسان والملائكة وإبليس، وبين ما عليه خلق الملائكة وإبليس، وهما مرتبطان بالإنسان، وما تقتضيه طبائع القبيلين بالنسبة إلى سعادة الإنسان وشقائه. وهذا يؤكد أن الأمر كان تكوينياً، متضمناً لدستور كلي عظيم[(١)]؛ إذ أظهر بتمييزه بين المتفقين في منزلة القرب، أن أغلب الأنواع المادية للكائنات وممثليها الروحانيين، والموكلين عليها؛ مسخرة كلها، ومهيأة لإفادة جميع حواس الإنسان إفادة تامة، وهي منقادة له من أجل تحقيق إنسانيته، ومن أجل تقرير وجوده الإنساني... وأن الذي يفسد استعداد الإنسان الفطري ويسوقه إلى السيئات، وإلى الضلال، هي المواد الشريرة وممثلاتها وسكنتها الخبيثة، مما يجعلها أعداء ألداء، وسدودا منيعة في طريق صعود الإنسان إلى الكمالات، والترقي إلى منتهى الإخلاص والعبودية لله تعالى[(٢)].

ومن هنا يتضح، أن الأمر بالسجدة يشير إلى رعاية الله لآدم رعاية تامة، أخضعت له الملائكة وجعلت منهم حفظة عليه، وأولياء عليه في

---

(١) وهو نظير ما أنفذه الله في مواضع من كلامه بلفظ الأمر أو ما أشبه؛ كقوله في فصلت: ١١ ... ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ وقوله في الأحزاب: ٧٢ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾....... فهذه الكلمات التكوينية ونظائرها في القرآن الكريم، تبين دساتير كلية من وراء الحوادث الجزئية الغيبية التي تحكيها.

(٢) انظر: كليات رسائل النور: ١/٢٧٠.

الطاعات والقربات... وأبعدت منه إبليس لأنه لم يقبل الخضوع لحقيقته الإنسانية، فتفرعت عنه المعصية والدعوة إليها. ولهذا، كانت ولاية الملائكة على الإنسان في الطاعات نظير ولاية الشيطان على الإنسان في المعاصي، وكلتا الولايتين ميزت سبيل الإنسان سبيلين: سبيل السعادة وسبيل الشقاوة. وفي هذا السبيل الأخير، سار الكفار والمنافقون واليهود ـ أئمة ومأمومين ـ تحت راية إبليس المظلمة، وقد ورثوا استكباره وحقده وعداوته، فصاروا مظهراً لتجلياته الشيطانية؛ يأمرون بأمره ويدعون بدعوته.





المبحث الرابع:

نتائجه

لقد وصف القرآن الكريم الغاوين، من المشركين والمنافقين واليهود، الذين ملكهم الشيطان وصيرهم من جنده، وقهرتهم نفوسهم وقادتهم لأوامرها بأوصاف مذمومة، تنتسب بأوثق العرى إلى الصفات الإبليسية القبيحة والأحوال النفسية الشريرة، فخرجوا بهذه الأوصاف، التي تجسد أفعالهم الاختيارية، عن طبيعة الآدمية السوية التي استحقت الخلافة في الأرض، ومُسخوا شياطين من صنف إبليس، يعاينون الناس بمسخهم معاينة، ويُسمعونهم أقوال الكفر بصيغ الأمر حقيقة، استناداً إلى همسات قرنائهم ووساوس شياطينهم، ولا يزالون بهم يزينون لهم الكفر والفسوق والمعاصي، ويستخفون عقولهم، ويسلبون إراداتهم، ويطمسون فطرهم، حتى يخضعوا لأوامرهم، كما خضعوا هم لأمر إبليس قائدهم، فيسخرونهم كما سخرهم في نشر دعوة الضلال في الأرض.

وانطلاقاً من علاقة هذا الصنف من أئمة الضلال بإبليس ودعوته، نعرض صفاتهم كما بينها القرآن الكريم، وهي:

المطلب الأول: الأمر بالكفر والشرك

لما كان الكفر والشرك أظلم الظلم وأعظم الذنوب وأكبر الكبائر، بنص القرآن الكريم[١] والحديث الشريف[٢]؛ كان أحب الأشياء إلى الشيطان، وأفضل القربات لديه، ومن ثم كان أول جهده في دعوته، وغاية مراده من الإنسان، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك، ألحقه بجنده، واستنابه على غيره، فصار داعياً نشيطاً من دعاته، يشرح صدور الناس بالكفر، ويدعوهم إلى اتخاذ الأنداد، ويصدهم عن الإيمان وإخلاص العبادة لله عز وجل، والبيان القرآني يقرر هذه الصفة في آيات العهد المكي، فيما يحكيه من أوامر المشركين، والمستكبرين؛ ومنها قوله تعالى في آية الزمر/٦٤، ملقنا رسوله المصطفى ما يواجه به اقتراح الكافرين: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾، ففي هذه الآية، ورد الأمر بعبادة غير الله مسنداً إلى كفار قريش الجاهليين، في صورة الاستفهام الإنكاري، على لسان رسول الله ﷺ، المأمور باستنكار دعوتهم له إلى مشاركتهم عبادة الأوثان، في مقابل أن يعبدوا معه إلهه[٣]، وتجيء هذه الدعوة في سياق عرض حقيقة التوحيد ووحدانية الخالق، فتبدو في هذا السياق دعوة مستنكرة، والله هو ... ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ...[٤]، وما يدعون من دونه هو المخلوق، فأنى يُعبد؟، كما يبدو الداعون إليها جاهلون جهلاً مطلقاً، نتيجة هضمهم لحق الربوبية، وتنقيصهم لعظمة

---

(١) كقوله تعالى، من آية لقمان: ١٣ ... ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

(٢) كقوله عليه السلام: «الكَبائر... الشِّرك بالله»... الحديث: (رواه النسائي في صحيحه: ٧٩/٣، كتاب تحريم الدم، رقم ٤٠٢١، عن أنس) وعن عبدالله، قال: سألت رسول الله عليه السلام: أي الذنب أعظم؟ قال: «الشرك: أن تجعَل للهِ نَداً... الحديث»: (صحيح سنن النسائي: ٨٠/٣، كتاب تحريم الدم، رقم ٤٠٣٦).

(٣) ويؤيد هذا العرض السخيف خبر النزول، وهو: قول المشركين لرسول الله عليه السلام: «استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك»: (انظر: الكشاف: ٤٠٧/٣، والجامع للأحكام: ٢٧٦/١٥).

(٤) من آية الزمر: ٦٢.

الألوهية[١]، وظلمهم لأنفسهم وللمؤمنين[٢]. ونظير هذه الدعوة الجارية على سنة الله في تقييض الشياطين لأهل الحق تحقيقاً للابتلاء[٣]، قوله تعالى على لسان مؤمن فرعون، في سياق مواجهة فرعون وملئه، واستنكاره أن يدعوهم إلى النجاة، فيدعونه إلى النار: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾[٤].

ويعرض الله مشاهد الكفار الظالمين، مستضعفين ومستكبرين، وهم

(١) لهذا أخبر الله تعالى عن المشركين أنهم ما قدروا الله حق قدره، في مواضع ثلاثة من كتابه: في لحاق هذه الآية، رقم: ٦٤، وفي آيتي: الأنعام/٩٢، والحج/٧٢.

(٢) وظلم النفس بالشرك أهون عند الله من ظلم المؤمنين به؛ فإن الظالم لنفسه إذا استغفر قَبِل الله توبته، كقوله تعالى على لسان بلقيس، وقد كانت تعبد الشمس من دون الله، ثم أسلمت: ... ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: النمل/٤٤. أما الظالم للمؤمنين، بإذاعة الكفر، والدعاء إلى خلاف ما جاء به الرسل، فله عذاب أليم في الدنيا والآخرة؛ لأنه لم يكتف بظلم نفسه، بل تعداه إلى ظلم غيره، وذلك أظلم الظلم. وقد أخبر تعالى عن دعوة فرعون لقومه إلى الكفر، في قوله: ... ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾... غافر/٢٩. ثم أخبر أنه هداهم إلى صراط الجحيم: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ غافر/٤٦. وأشبه به في ظلمه: ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾...: النور من الآية ١٩. هذا إذا أحبوا إشاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها، لا نصيحة منهم، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفروا الناس عنهم، وعن الانتفاع بدعوتهم.

(٣) وآية الزمر تصدق هذا التقييض المستفاد من آية الأنعام: ١١٢ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ والمقصود من ذلك: أن الله قدر أن يكون الشياطين، الذين تمحضوا للشر من الجنسين، أعداء ألداء لكل نبي، يعادونه، ويؤذون أتباعه، ويضلون قومه عن سبيل الله، وهم في عداوتهم لأهل الحق، يخدع بعضهم بعضا بالقول المزخرف، الذي يوحيه بعضهم إلى بعض، وعلى هذه السنة المقدرة، جرى شأن كل شياطين الشر في حرب الحق وأهله، فهم يتعاونون فيما بينهم، ويحرض بعضهم بعضاً على الضلال والعصيان.

(٤) غافر/٤١، ٤٢.

يتحاجون في النار، وذلك عقب عرض قولهم الرافض[١] بإصرار لدعوة الهدى في الدنيا، فيقول تعالى في آيات سبأ: ٣١، ٣٣ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾. . . .

فدعاة الضلال من المترفين يتبرؤون في هذه الآية من تبعة الإضلال، التي يلقيها المستضعفون عليهم، ويقرون بالهدى بعد زوال ما كانوا فيه من ثراء، وقوة، وسلطان في الدنيا، فيرد الأتباع على إنكارهم بقولهم: «ما كان إجرامنا من جهتنا، بل مكركم لنا دائماً، ومخادعتكم لنا ليلاً ونهاراً، إذ تأمروننا، ونحن أتباع، لا نقدر على مخالفتكم، مطيعون لكم لاستيلائكم علينا بالكفر بالله واتخاذ الأنداد. . .»[٢].

وفي ضوء هذا الجدل البائس، تشير الآية إلى مبدأ التبعية الفردية، وتبين جريمة المتبوعين والأتباع، وأن كليهما ظالم؛ هذا ظالم لنفسه بكفره، وظالم لغيره باستخدامه النفوذ والسلطان في تسويل الكفر للأتباع، والتمكين للباطل في الأرض؛ وهذا ظالم لنفسه بتنازله عن كرامته وكل خصائص إنسانيته، وظالم لربه بإشراكه الآلهة المُدعاة في العبادة.

وبهذا يتبين، أنه ليس لقادة الباطل من سلطان على أتباعهم سوى سلطان الترف الظاهر على الدعوة والمكر والتلبيس والتزيين[٣]؛ وهذا ذنبهم،

---

(١) وهو قوله تعالى، حكاية عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. . .: سبأ من الآية: ٣١.

(٢) البحر: ٥٥٢/٨.

(٣) وليس من فرق بين هؤلاء الشياطين وقائدهم الأكبر إبليس في نفي سلطان الدعوة، إلا في ظرف الاتباع، كما أنه ليس من فرق بينهما في الدعاء بدعوة الكفر إلا الفرق في=

وأنه ليس للأتباع من إدراك ولا إرادة، سوى ذل الخنوع للمتبوعين؛ وهذا ذنبهم. وكل من هؤلاء وهؤلاء مسؤولون، وإلى السعير سائرون، وفي العذاب محضرون، جزاء ما كانوا يعملون، وما ظلموا الله تعالى، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وكأني بهذا الحوار الذي يتلاوم فيه المتلاومون ويتبرأ فيه المتبوعون من الأتباع، ينسحب على حوار قائد الشياطين إبليس لأتباعه، من المستضعفين والمستكبرين سواء، وعن تبرئه منهم كل البراءة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ الآية[١].

وكأني بهذا المصير، الذي لاقوه نتيجة اختياراتهم الابتلائية[٢]، يصدق على مصير الشيطان وكلّ من اتبعه من بني آدم في أمره له بالكفر: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾ الآية[٣]. ومن أجل هذا الاتباع لأمر المستكبرين، استحق القرى، الظالم أهلها، الهلاك واللعنة في الدنيا والآخرة، فتلك عاد قد هلكت؛ لأنهم ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾[٤]، وتلك قرى ثمود، ذاقت وبال

= كيفية هذا الدعاء، فدعاء إبليس قائم على الوسوسة، ودعاء الشياطين تتفوه به ألسنتهم، ويحققه في عالم الواقع بغيهم.

(١) تقدم تخريجها.

(٢) والقصد من ذلك: أن الأتباع اختاروا أن يعطلوا إرادة الاختيار، التي زودهم الله بها لاحتمال تبعة التكليف، وكان في مكنتهم أن يختاروا مجابهة المستكبرين وجدالهم، فيما يأمرونهم من الكفر، على الخنوع لهم وإلغاء عقولهم وإلجام ألسنتهم، ولكنهم ضعفوا، ومن هذا الضعف تسلط عليهم المستكبرون، وهؤلاء هم الذين خدعتهم كثرة أموالهم وأولادهم، وأمنوا عذاب الله؛ إذ قالوا فيما يحكيه القرآن عنهم: ... ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾: سبأ/٣٥. ومن ثم اختاروا الدعوة إلى الضلال على الدعوة إلى الحق بإرادتهم الحرة، فقبلوا بذلك أن يكونوا قادة للباطل، يدعون أولياءهم إلى السعير، كما وصفهم القرآن الكريم في مثل آية البقرة: ٢٢١ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾.

(٣) تقدمت.

(٤) هود/٥٩.

مخالفتها لرسول الله صالح، وطاعتها للملأ المسرفين في الفساد: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١﴾(١) وأولئك قوم فرعون، يقدُمهم فرعون يوم القيامة، فيوردهم النار؛ لأنهم اتبعوا أمره ـ على شططه ـ وعصوا أمر الله، بلا تدبر ولا تفكر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧﴾(٢).

وهكذا يتبين، أن دعوة الكفر تصر أول ما تصر على اتباع أمر المتكبرين والجبارين والمسرفين، وجحود آيات الله وعصيان الرسل، وذلك خلاف ما تصر عليه دعوة الإسلام، من التمرد على سلطان الطغاة والمستكبرين، وطاعة الرسل، والتحرر من الدينونة لغير الله، وهذا هو مفرق الطريق بين الكفر والإيمان في كل رسالة، وعلى يد كل رسول.

* * *

المطلب الثاني:
الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف

ورَّث عدو الله أولياءه من المنافقين مرض القلب والحقد والخداع، وعداء الحق وأهله، والتقاعس عن البذل في سبيله. وكان يَحمِلهم ذلك الإرث الثقيل من الصفات الإبليسية على محاربة النبي ﷺ ودعوته ونفوذه، ولم يكن يسعهم في هذه الحرب ـ والمسلمون قد صاروا أصحاب سلطان نافذ وجانب مرهوب ـ إلا الاختباء في الصف المسلم، والتظاهر بالإسلام، والقيام بأركانه، والتضامن مع حلفائه، والتملق إلى المسلمين في الظاهر، والتآمر عليهم والكيد لهم في الخفاء، ولم يكن يخفى نفاقهم وكيدهم ـ في الغالب ـ على النبي ﷺ والمخلصين من أصحابه، كما أن مواقفهم العلنية

---

(١) الشعراء/١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) هود/٩٦، ٩٧.

التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات، وفيها الكيد والدس[١]، كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتا. وقد كان القرآن الكريم يوجه إليهم كذلك الفضائح تلو الفضائح، فلا تكاد تخلو سورة مدنية فيه من ذكر المنافقين، تلميحاً أو تصريحاً، ووصف أحوالهم وكشف دسائسهم، ومن الآيات الجامعة لمذامهم، والكاشفة عن أس دعوتهم وملاك عصبتهم، قوله تعالى في سورته الفاضحة لهم[٢] ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾[٣]، فبين تعالى في هذه الآية أن المنافقين يتشابهون في طبيعتهم وأوصافهم، كأن كلا منهم عين الآخر في الجبن والكيد والأيمان، كما قال: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾، ثم بين هذا التشابه بذكر سلوكهم، الذي يميزهم عن المؤمنين الصادقين[٤]، وهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وقبض الأيدي، والمنكر الذي يأمرون به «يدخل فيه كل قبيح[٥]، إلا أن الأعظم ههنا: الكفر بالله وتكذيب الرسول» والمعروف، الذي ينهون عنه الناس، «يدخل فيه كل حسن، إلا أن الأعظم ههنا، الإيمان بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله»[٦]. وقريب من هذا المعنى،

---

(١) ومن هذه المواقف: بناؤهم مسجد الضرار أثناء سفر رسول الله إلى غزوة تبوك، لستر المتآمرين على المسلمين تحت ستار الدين، وكذلك انخزال رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول بثلث الجيش في غزوة أحد؛ لإضعاف قوة المسلمين والنيل من عزيمتهم.

(٢) وهذه السورة المدنية من أواخر ما نزل من القرآن الكريم. وهذا يدل على أن الآية، التي نحن بصدد تفسيرها، قد وصفتهم وصفاً مبيناً، وميزت جماعتهم تمييزاً نهائياً عن باقي الطبقات الإيمانية، والطوائف الدينية، المنضوية في المجتمع المسلم آنذاك.

(٣) التوبة/٦٧ وقد تناولنا طرفاً من تفسيرها في مبحث العلاقات، ونضيف إليه هنا التفصيل المناسب للتفسير الموضوعي.

(٤) وقد ألمحنا ـ فيما سلف ـ إلى التقابل الموجود بين صفات كل من الفريقين، عند دراسة ضميمة (الأمر بالمعروف).

(٥) مضى توضيحه ـ باختصار ـ ضمن تحليل علاقة الأمر والنهي.

(٦) ينظر هذا المعنى في: مفاتيح الغيب: ١٢٩/١٦/٨، وجامع البيان: ١٧٤/١٠/٦، والكشاف: ٢٠٠/٢، وتفسير المنار: ٥٣٥/١٠.

قوله تعالى في سورتهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(١)]؛ أي: جعلوا أيمانهم وقاية، يحتمون وراءها، ليواصلوا إغواءهم للمخدوعين فيهم، فصدوا أنفسهم، وصدوا غيرهم بتلك الأيمان الكاذبة، عن طريق الإيمان بالله وطاعة رسوله؛ وعلة ذلك: أنهم قالوا - فيما يحكيه الله عنهم - ﴿كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾...[(٢)]. وقد أخبر تعالى عنهم أن ارتدادهم إلى الكفر كان بتسويل الشيطان وإغوائه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾﴾[(٣)].

ومن المنكر الذي يتواصون به - عدا ما تقدم - : الكذب، وإخلاف الوعود، والفجور، والغدر بنقض العهود. قال عليه السلام: «**آية المُنافق ثلاثٌ: إذا حدَّث كذِب وإذا اؤتُمِن خان، وإذا وعَد أخلف**»[(٤)]، وقال تعالى، مكذبا لهم في شهادتهم برسالة محمد: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾[(٥)] وقال عن عصبة الإفك الذين تولوا إذاعته في المسلمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾﴾[(٦)] ثم قال بعد ذلك، عن رأس النفاق - كما دل عليه خبر النزول[(٧)] - ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ

(١) المنافقون من الآية: ٢.
(٢) التوبة من الآية: ٧٤.
(٣) محمد/٢٥.
(٤) البخاري في الشهادات، رقم (٢٦٨٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) المنافقون/١.
(٦) النور من الآية: ١١.
(٧) روي «أنه لما مر صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين وابن سلول في ملأ من قومه، قال: من هذه؟ فقالوا: عائشة... فقال: والله ما نجت منه وما نجا منها...»: (راجع الظلال: ٧٨/٦) وهذه الرواية تدل على أن حامل لواء الكيد راح يذيع هذه القولة الخبيثة - عن طريق عصبة النفاق - لتلوكها ألسنة المسلمين غير متحرجين. وهذه الإذاعة تجسد دعوة منكرة إلى فعل الفاحشة؛ لأن فيها إيحاء بأن الفاحشة ذائعة في بيت النبوة الكريم الذي يمثل حصن العقيدة الحصين.

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١]، وصور عمل الخائضين فيه بأنه اتباع لخطوات الشيطان، كما نصت عليه آية النور المتقدمة[٢]. وقد أخبر تعالى عن إخلافهم الوعود[٣]، في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[٤].

ومن المعروف الذي يزجرون عنه الناس: الجهاد، وبذل المال في القتال والصدقات؛ إذ هم الذين تخلفوا عن رسول الله عليه السلام في غزوة تبوك: ... ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ ...[٥]، حرصاً على السلامة، وشحا بالنفقة، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ ...[٦]، وهم الذين إذا أنفقوا من أموالهم، أنفقوها للتقية والرياء، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[٧]، وإذا آتاهم الله من فضله يبخلون، ولا يؤدون حق شكره وطاعته؛ وإنما يتبعون أهواءهم، ووسوسة الشيطان، ولا سيما في البخل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ الآية[٨]. ومن أجل امتناعهم عن البذل في سبيل الله، وتواصيهم به، خص الله تعالى «قبض الأيدي» من عموم منكراتهم الفعلية في الآية؛ وذلك

---

(١) النور من الآية: ١١.
(٢) النور من الآية: ٢١.
(٣) ونظير هذا الإخلاف بالوعود، ما حكاه تعالى عن قائدهم إبليس، لما تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر، وخدعهم بنصرته إياهم ثم فر عنهم، وأسلمهم حين رأى جند الله قد نزلت من السماء، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية: (انظر قصة النزول في إغاثة اللهفان: ١/١٠٨).
(٤) التوبة/٧٥ ـ ٧٧.
(٥) التوبة من الآية: ٨١.
(٦) المنافقون من الآية: ٧.
(٧) التوبة من الآية: ٥٤.
(٨) تقدمت.

«لأنه شرها، وأضرها، وأقواها دلالة على النفاق، كما أن الإنفاق في سبيل الله أقوى الآيات على الإيمان[١]»[٢].

وهكذا يتبين، أن المنافقين يعين بعضهم بعضاً على جلب الشر ودفع الخير، وهم حين يزاولون تكاليف دعوتهم الباطلة، يزاولونها دساً وهمساً وغمزاً ولمزاً؛ لأنهم أفراد ضعاف رغم كونهم أقوياء نسبيا بعصبياتهم[٣]، فهم يخشون في كل لحظة أن ينكشف أمرهم ويهتك سترهم[٤]، ولا يجهرون بآرائهم وأقوالهم إلا حين يأمنون، ولا يخنسون إلا أمام الأقوياء من الناس، الذين ينسون الناس ليذكروا إله الناس، ولا يخنعون إلا لمصالحهم وأهوائهم، وإن جاءت بخلاف تكاليف الإيمان الخالص، فكان الضعف صنوا للنفاق الذي أعقبه الله في قلوبهم جزاء بما كانوا يفسقون[٥]، كما كانت القوة صنوا للإيمان الذي زينه الله في قلوب المؤمنين، جزاء بما كانوا يخلصون. وضعف أولئك مستمد من ضعف قائدهم إبليس، الذي جاء في صفة كيده: ﴿إِنَّ كَيْدَ

---

(١) قال تعالى في صفة الرسول ﷺ، والذين آمنوا معه، عقب ذكر تخلف المنافقين عن الجهاد والإنفاق في سبيله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾. . .: التوبة من الآية: ٨٨.

(٢) تفسير المنار: ٥٣٥/١٠.

(٣) وقد كانوا كذلك في أوائل العهد المدني، حيث لم يكن الإسلام قد رسخ في سواد قبائلهم رسوخا كافيا، وكان النبي محوطا بالمشركين، وهم قبلة الجزيرة، يتربصون به الدوائر، وباليهود في المدينة يجاهرونه العداء والمكر، وانعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على التضامن في موقف المعارضة والكيد، حتى أن المنافقين تقووا واشتدت وطأتهم على المسلمين بسبب ذلك الحلف، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم حتى مكّن الله نبيه من اليهود: (يراجع: في الظلال: ١٠٦/٨ ـ بتصرف ـ).

(٤) كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾: المنافقون من الآية: ٤، وانظر معها: التوبة/٦٤.

(٥) وكلمة الفسق ترد أكثر ما ترد وصفاً للمنافقين، ولا سيما في سورة التوبة، الفاضحة لهم، كما في هذه الآية، وآيتي التوبة: ٨٠ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ و٩٦ . . . ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. ودلالة ذلك واضحة على رسوخهم في الكفر؛ إذ أنهم عرفوا نور الإيمان، لكنهم اختاروا العودة إلى الكفر، عنادا واستكبارا، ولهذا نسيهم الله وغضب عليهم وأضلهم.

ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[١]، وقوة هؤلاء مستمدة من قوته وعزته سبحانه: . . . ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

* * *

المطلب الثالث: البخل والأمر به

سجل القرآن الكريم هذه الرذيلة على حزب الشيطان الكافرين، الذين ضعفت قلوبهم، واستولت عليها الشهوات، فجحدوا الدين الحق، وبخلوا بما آتاهم الله من فضله، وحرضوا الناس على البخل بكل ما فيه نفع للغير؛ لصرفهم عن الاستجابة لهذا الدين ونصرته والعمل بتكاليفه، وذلك حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وكراهية لأن يصيب الخير غيرهم، بدافع أنانيتهم البغيضة، ومن الآيات القرآنية الواصفة لهم، ما أورده تعالى على نسق متشابه، في آية النساء: ٣٧ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾، وفي آية الحديد: ٢٤ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

اختلف المفسرون في سبب نزول آية النساء، ومَنِ المعني بالذين يبخلون، على ثلاثة أقوال:

أولها: رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. . .أنها نزلت في أحبار اليهود؛ بخلوا بالإعلام بأمر محمد ﷺ وكتموا ما عندهم من العلم في ذلك[٣] وكذلك آية الحديد[٤]. وروي في وجه أمرهم بالبخل أنهم أمروا

---

(١) النساء من الآية: ٧٦.

(٢) المنافقون من الآية: ٨.

(٣) يراجع البحر: ٦٣٤/٣.

(٤) الجامع للأحكام: ٢٥٩/١٧ وفتح القدير: ٤٦٦/١.

أتباعهم بجحود أمر محمد وكتمان صفته[١] وقالوا للأنصار ينصحون لهم: «لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون»[٢]. واعتباراً بهذا النزول، يكون المراد بصلة الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾: اليهود «فإنهم جمعوا بين البخل بالمال، وكتمان ما أنزل الله من نعت محمد»[٣]، وأمروا الأنصار بترك الإنفاق على رسول الله وأصحابه، وأمروا أتباعهم بكتمان الحق[٤].

ثانيها: أنها نزلت في المنافقين[٥] الذين كان إنفاقهم وإيمانهم تقية[٦]، وينسحب معنى البخل بالمال، المستفاد من هذا النزول، على توجيه من وجه قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ في الآيتين سواء، إلى بخل مطلق الباخلين بفضل ما رزقهم الله من أموالهم، والآمرين الناس، من أهل الإسلام بذلك[٧]، قال الرازي، معللاً هذا الوجه، على ما حكاه عن القائلين به: «... وقال آخرون: المراد منه البخل بالمال؛ لأنه تعالى ذكره عقيب الآية، التي أوجب فيها رعاية حقوق الناس بالمال، فإنه قال: ...﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ

---

(١) البحر: ٦٣٤/٣ ومفاتيح الغيب: ١٠٣/١٠/٥.

(٢) أخرجه ابن جرير ـ بإسناده ـ عن ابن عباس في الجامع: ٨٦/٥/٤ والزمخشري في الكشاف: ٥٢٦/١ والبيضاوي في أنوار التنزيل/١١٢.

(٣) الجامع للأحكام ١٩٣/٥ وفتح التقدير ٤٦٦/١، تفسير آية النساء، والمعنى الثاني أولى بتأويل الآية، في رأي الطبري؛ «لأن الله تعالى وصفهم بأنهم يأمرون الناس بالبخل، ولم يبلغنا عن أمة من الأمم أنها كانت تأمر الناس بالبخل ديانة، ولا تخلقاً، بل ترى ذلك قبيحاً، ويُذم فاعله، ولا يُمتدَح، وإن هي تخلقت بالبخل واستعلمته في أنفسها، فالسخاء والجود تعده من مكارم الأفعال وتحث عليه، ولذلك قلنا: إن بخلهم الذي وصفهم الله به، إنما كان بخلاً بالعلم الذي كان الله آتهموه، وبخلوا بتبيينه للناس وكتموه، دون البخل بالأموال...» (جامع البيان: ٨٦/٥/٤ ـ ٨٧).

(٤) ينظر: مجمع البيان ٤٦/٣.

(٥) حكاه أبو حيان في البحر ٦٣٤/٣ وكذلك الشوكاني في الفتح ٤٦٦/١.

(٦) الجامع للأحكام: ١٩٣/٥.

(٧) ينظر: جامع البيان ٨٦/٥/٤ عن ابن عباس وزيد، تفسير آية النساء وكذلك الجامع للأحكام: ٢٥٩/١٧ وفتح القدير ١٧٦/٥ عن زيد وطاوس، تفسير آية الحديد.

﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ۝٣٦﴾...[1] ومعلوم أن الإحسان إلى هؤلاء إنما يكون بالمال، ثم ذم المعرضين عن هذا الإحسان، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ ثم عطف عليه ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ الآية. فوجب أن يكون هذا البخل بخلاً متعلقاً بما قبله، وما ذاك إلا البخل بالمال»[2].

ثالثها: أنها عامة في كل من يبخل من اليهود وغيرهم، بأداء ما يجب عليه أداؤه، ويأمر الناس به، وعامة في كل من كتم فضلاً آتاه الله تعالى من المال والعلم، وسواها من ألوان النعم، التي يجب إظهارها ويحرم كتمانها وجحودها[3].

والناظر في هذه الأقوال يرى أن القولين الأولين لهما وجه مفهوم وظاهر؛ لأن البخل والأمر به في الآيتين من الأحوال المذمومة التي تنطبق على اليهود، كما تنطبق على المنافقين... وكلاهما كان موجوداً في المجتمع المسلم في ذلك الحين. وكان حديث القرآن المدني الذي تنتسب إليه الآيتان[4]، وكلاهما من الكفار الذين أعد الله لهم عذاباً مهيناً، بصريح ذيل آية النساء، وقد أخبر تعالى أن الذين كفروا جنس تحته نوعان: أهل الكتاب والمشركون، في قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾[5]، وأخبر عن المنافقين

---

(١) النساء من الآية: ٣٦.

(٢) مفاتيح الغيب: ١٠٣/١٠/٥، تفسير آية النساء.

(٣) ينظر: البحر ٦٣٤/٣ ومجمع البيان ٤٧/٣ وتفسير ابن كثير لآية النساء ٤٧٠/١.

(٤) اختص القرآن المدني بكشف أحوال المنافقين، ومجادلة أهل الكتاب، وتسجيل رذائلهم، ودعوتهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ.

(٥) البقرة من الآية: ١٠٥، وقد تفرد أبو حيان ـ فيما أعلم ـ برواية تنص على أن آية النساء نزلت في المشركين: (البحر ٦٣٤/٣) ولا يبعد أن يكون لفظ الآية شاملاً لهم؛ لأنهم كانوا أول من ناهض دعوة الإسلام، بتجويع المؤمنين، والتضييق عليهم؛ =

بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية[١]، وعليه فإن آية النساء قد تكون مخصوصة باليهود، وكذلك آية الحديد[٢]، لأنهم هم الذين بلغنا عنهم بنص القرآن الكريم أنهم كانوا يستغنون عن الله بغناهم، ويبخلون به، ويزعمون أن الله فقير وهم أغنياء، تهكما بالقرآن حينما يحض الناس على الإنفاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ الآية[٣] ثم قال بعد: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ الآية[٤]، وهم أيضاً الذين كانوا يكتمون الحقائق الدينية التي يعرفونها في كتبهم عن هذا الدين، وعن رسوله الأمين، ويتواصون بكتمانها بُخلا بها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[٥]، وقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾[٦]. وقد أخذ الله عليهم العهد في كتبهم بأن يُبينوا تلك الحقائق للناس ولا يكتمونها، كما قال ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ

= لينفضوا عن رسول الله ﷺ، وكانوا أولياء للمنافقين واليهود، يظاهرونهم على حرب الإسلام بكل الوسائل؛ ومنها خطة التجويع، والتحريض على قطع أرزاق المؤمنين، والتسويل بالبخل لهم، بالامتناع عن الإنفاق في سبيل الله.

(١) التوبة من الآية: ٨٤.

(٢) باستثناء رواية القرطبي، عن الكلبي والسدي، التي تنص على أن الآية وردت في رؤساء اليهود: (الجامع للأحكام: ٢٥٩/١٧) تميل شروح المفسرين إلى توجيه الآية إلى وصف مطلق الباخلين بما أوتوا في الدنيا: (يراجع: جامع البيان: ٢٣٦/٢٧/١٣ والكشاف: ٦٦/٤ وفي الظلال: ٧٣٨/٧).

(٣) آل عمران من الآية: ١٨٠. وهذه الآية، وإن كان مدلولها عام، غير أن اتصالها بما بعدها من الآيات يفيد أنها نزلت بمناسبة دعوة اليهود إلى الوفاء بالتزاماتهم المالية الناشئة عن معاهداتهم مع الرسول عليه السلام، ودعوتهم كذلك إلى الإيمان بالرسول عليه السلام والإنفاق في سبيل الله.

(٤) آل عمران من الآية: ١٨١.

(٥) البقرة/١٤٦.

(٦) البقرة/٧٦.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾. . .[(١)]؛ ولكنهم نقضوا عهد الله بجحودهم الحق لما جاءهم، على علم منهم به، وتركهم ما أمرتهم به كتبهم من اتباع محمد عليه السلام ونصرته، بغيا وحسدا أن ينزل الله وحيه على رجل عربي، ليس من أبناء ملتهم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾[(٢)]، ويقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ الآية[(٣)].

فتبين من هذه الآيات، ومن روايات النزول التي تحكي إيعازهم بالبخل للمسلمين، أن رذيلة البخل بالمال والعلم والدين، والأمر به، تكاد تكون طبيعة متأصلة في اليهود[(٤)]، تنضاف إلى احتيالهم الباطل الذي لا

---

(١) آل عمران من الآية: ١٨٧.
(٢) البقرة/١٠١.
(٣) البقرة من الآيتين: ٨٩، ٩٠.
(٤) وقد ورث يهود اليوم هذه الرذيلة عن يهود الأمس؛ إذ هم يحرصون بدافع أنانيتهم المفرطة على احتجاز الأموال والخيرات لأنفسهم دون سائر الناس؛ لاستيلاء المطامع والشهوات على قلوبهم، حتى صار المال معبودهم، كما كان معبود آبائهم من قديم، وهم مع هذا الحرص يسخرونه بسخاء ـ قل نظيره في أمة من الأمم ـ لخدمة مطامعهم الشخصية في سيادة العالم، والتحكم في مصائر شعوبه، وإنشاء وطن قومي لهم، يجمعهم على كراهية من ليس على ملتهم، ومن ثم فهم لا يبخلون بالمال على أبناء جلدتهم، ويشترون ببريق الذهب ما يفشلون في شرائه بالحيلة. وهناك الآن كثير من أغنياء اليهود بذلوا الملايين من أموالهم، من أجل توطين اليهود في الأراضي المقدسة. ويحرص اليهود ـ أيضاً ـ على كتمان حقائقهم الدينية السرية والحفاظ على تعاليم اليهودية تحت ستار الجمعيات التي أنشأوها في العالم، كالماسونية.
واليوم، نشهد بصورة أوضح تحقق صفة الأمر بالبخل في اليهود، وذلك في دعوة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله، وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام؛ من الشيوعيين، وأذناب الاستعمار الغربي، ومرتزقة دول الكفر، وخاصة أمريكا، إلى حصار المسلمين وتجويعهم، ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق في وجوههم. وهذه الدعوة هي خطة أسلافهم في عهد المبعث، وخطة كل خصوم الإيمان وأولياء=

يحبه الله ولا يرضاه، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١].

ثم إن آية الباخلين في السورتين قد تصدق أيضاً على المنافقين، كما تبين من إيضاح القرآن الكريم لأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، في آية التوبة المتقدمة، وقد تصدق على غيرهم، من الذين يفرحون بما آتاهم الله من فضله، ويختالون به، ويبطرون عند إصابته؛ فيبخلون بإنفاقه في حقوق الله وسبله، ويشحون به كراهة انتقاصه بإخراج بعضه. ولا يكفيهم أنهم بخلوا حتى يحملون الناس على البخل، ويزينوه لهم، كأنهم يجدون في صدورهم من جود غيرهم بماله حرجا وضررا، وهذا هو «النهاية في حب البخل»[٢].

ويؤيد معنى البخل بالصدقة والحقوق، دوران لفظ «البخل» في اللغة على «إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه، ويقابله الجود. . . والبخل ضربان: بخل بقنيات نفسه، وبخل بقنيات غيره وهو أكثرهما ذماً. . .»[٣]، وإليه أشارت الآيتان. ويؤيد هذا المعنى ـ كذلك ـ وورود آية النساء في سياق الإحسان بالمال والمعاملة، كما دلت عليه الآية قبلها[٤] والآية بعدها[٥]. والسياق في آية الحديد أوسع دلالة؛ لأنها ذكرت عقيب تقرير حقيقة قدر الله

= الشيطان، من قديم الزمان إلى هذا الزمان، وكل هؤلاء ينسون الحقيقة القرآنية التي يذكرهم الله بها في كتابه، وأنى لهم الذكرى، وذلك في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: آل عمران من الآية: ١٨٠.

(١) قيل في اتصال هذه الجملة بالآية في السورتين: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ والمعنى: أن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً، ولا يحب الذين يبخلون» وهذا المعنى أشهر وأظهر؛ لأنه لا يقطع الآية من سياقها: (راجعه في: مفاتيح الغيب: ١٠٢/١٠/٥ والكشاف: ٥٢٦/١). وجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ نصب على الذم، أو رفع عليه، وجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف، كأنه قيل: الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة: (انظر: المصادر السابقة).

(٢) مفاتيح الغيب: ١٠٣/١٠/٥.

(٣) المفردات/بخل.

(٤) تقدمت في نص الرازي: ص ٦٨٧، هامش ٢.

(٥) وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية: ٣٨.

المحيط، في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾. . .[١]، فعلم أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله، لا يختال ولا يفخر بما يؤتاه من مال وقوة وجاه وعلم. . .، ولا يبخل ولا يأمر بالبخل في عطاء. . .[٢]ولئن كان ظاهر السياق في آية النساء بصدد البخل بالمال، فإن البخل بالعلم داخل في ذلك بطريق الأولى؛ لأنه من نعم الدنيا التي يحرم البخل بها وكتمانها.

ومن هنا، يتضح أن أظهر الأقوال ملاءمة لعموم اللفظ في الآيتين هو القول الثالث؛ إذ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، على ما قرره الأصوليون، وهذا العموم يستفاد صراحة من دلالة اسم الموصول على استغراق كل من بخل وأمر بالبخل، وكتم فضل الله عليه، من غير حصر في عدد معين، أو أشخاص مخصوصين، فكل من صدق عليه أنه باخل، سواء كان بخله من المال والمعاملة، أم من العلم والدين؛ فهو من الكافرين الذين جحدوا نعم الله، فأعد الله لهم ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وهو من قرناء الشياطين، كما صرح به لحاق آية النساء: ٣٨ ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ . ومن أجل هذه العاقبة السيئة للبخل والتواصي به، في الدنيا والآخرة، جاءت الأحاديث تظاهر القرآن الكريم[٣] في ذم البخل؛ منها قوله عليه السلام: **«وأيُّ داءٍ أدوأُ من البُخل»**[٤]، وقوله: **«إياكُم والشُّح! فإنه أُهلِك من كان قبلَكم بالشُّح، أمَرَهم بالبخل؛ فبَخِلوا، وأمرهم بالقَطيعة؛ فقَطعوا، وأمرهم بالفُجور؛ ففجَروا»**[٥].

---

(١) الحديد من الآية: ٢٢.

(٢) في الظلال: ٧٣٨/٧ ـ بتصرف ـ.

(٣) وفي القرآن الكريم آيات تنطوي على معان شعورية، تكشف عن غريزة الحرص والشح المتأصلة في النفس البشرية عموماً، ومن هذه الغريزة ينفذ الشيطان إلى الإنسان ويَستعلي عليه، ومن هذه الآيات: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾: المعارج/٢١ ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾: العاديات/٨، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾: العاديات/٦.

(٤) البخاري في المغازي، برقم: ٤٣٨٣، عن جابر بن عبدالله.

(٥) أبو داود، في الزكاة (١٦٩٨)، عن عبدالله بن عمرو: (صحيح السنن: ٤٧٠/١).

المطلب الرابع: الأمر بالزنا

لقد دعت امرأة العزيز يوسف عليه السلام الشاب الفتي، وكانت سيدته الحاكمة عليه، إلى الفاحشة، وأغرته بها إغراء شديدا، سواء بالقول الصريح، أم بتهييء المكان الوثير، كما قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾...[1] ولم يستجب يوسف لمراودتها، مع توفر دواعي الاستجابة وقوتها؛ وإنما اختار الاعتصام، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه؛ لأنه كان من عباد الله المخلصين. وضُبطت المرأة الحاكمة المتهالكة، متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه، فكالت له التهم زورا، ثم لجت في شهوتها، وقد شغفها فتاها حبا، كما تقول نساء طبقتها الماكرات في مجالسهن؛ فراودته عن نفسه مرة أخرى، بعد إشاعة فاحشتها في معرض اعتذارها للنساء المدعوات، المبهورات بفتنته، كما قالت: ... ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾[2]، واستعانت بهن على تذليل رغبتها[3]، وجعلت تغريه الإغراء الجديد، الذي يكتسي أسلوب القسم، وينطوي على نغمة التهديد: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[4]. ومعنى الآية: «ولئن لم يطاوعني على ما أدعوه إليه من حاجتي إليه ليُسجنن»[5]. فتبين أن هذا الإصرار في الدعوة إلى الفاحشة،

---

(١) يوسف من الآية: ٢٣.

(٢) يوسف من الآية: ٣٢.

(٣) وكانت معونتهن عبارة عن دعوتهن يوسف إلى الانقياد إلى رغبة سيدته، وتوحي بها حكاية أبي حيان لقولهن، عند تفسير آية يوسف/٣٢ « وقال له النسوة: أطع، وافعل ما أمرتك»: (البحر: ٦/٢٧٣).

(٤) ذكر الزمخشري أن الضمير في «آمره» راجع إلى الموصول، والمعنى: ما آمر به، فحذف الجار، كما في قوله: «أمرتك الخير»: (الكشاف: ٢/٣١٨) وجوز أبو حيان أن تكون «ما» مصدرية، فيرجع الضمير إلى يوسف، أي: موجب أمري ومقتضاه: (البحر: ٦/٢٣٧).

(٥) جامع البيان: ٧/١٢/٢١٠ وكذلك مجمع البيان: ٥/٢٣١.

بعد المراودة والافتراء والإشاعة والاستعانة، هو أعظم ما يكون من الأمر بالسوء والفحشاء، اللذين يأمر بهما الشيطان الإنسان، وتبين أيضاً من رد يوسف على هذا الإصرار، في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أنه عليه السلام صبر على البلاء، وآثر الحبس وأذى المراودة مع الطاعة، على الكرامة والعز، وقضاء الشهوة، ونيل الرياسة والمال مع المعصية، وما كان صبره ذلك إلا بفضل ضراعته إلى الله أن يثبت قلبه على دينه، ويصرفه إلى طاعته. وبهذا الدعاء الذي جاء على لسان نبي، عارف ببشريته، غير مغتر بعصمته، يستجيش القرآن الكريم وجدان التقوى والإيمان والذكر في قلوب المؤمنين، الذين قد يهمون في لحظة من لحظات ضعفهم البشري بالاستجابة لنداء نساء غويات.

وبعيداً عن المجتمع الفرعوني، وعن جو طبقته المترفة وما يغشاها من استهتار وفجور، نشهد ذلك الإغراء الخطير، الذي وجهته امرأة العزيز إلى فتاها، في مجتمعات اليوم المتحضرة والمتخلفة أو المسلمة والكافرة، شاخصا متحركا، يموج بالشهوة الرخيصة والنزوة العارضة، في كل دعوة غليظة جاهرة، من كل امرأة فاجرة، أعانت الشيطان على نفسها المريضة، وأرادت أن تمرح باللذة الوضيعة، مؤثرة ذلك على لذائذ الحياة السامية في البيت والزوج، فنصبت شباكها حول رجل تهواه وأحكمت خطتها، التي يغذيها المكر، لتوقع به في أتون شهوتها. وقد يكون هذا المعشوق تقياً ورعاً؛ فلا تزال به تدعوه إليها وتغريه بها، حتى إذا لم تظفر منه بشيء، بسبب اعتصامه، آذته في نفسه وماله، خاصة إذا امتد ساعد قدرتها إليه. وقد يكون متزوجاً، فتختطفه من بين أحضان زوجته وأولاده، وقد يكون خادما لديها، وهي سيدته الحاكمة، فيكون أسرع مجيب لها؛ لأنه يخاف الضرر بمخالفتها.

وهكذا نجد أن معظم الفواحش التي تُرتكب اليوم باسم التقدم والتحرر والمدنية، مصدرها المرأة المتبذلة التي تفترش عرضها لكل معتد أثيم في سبيل الحصول على شهوة عابرة أو عرض زائل، وتحقيق مطامع شياطين

الإنس، وعلى رأسهم اليهود[١]، الذين يسخرون المرأة تسخيراً خبيثاً، لإشاعة الفاحشة في كل المجتمعات. ومن هنا كانت النساء المائعات مصايد الشيطان، يفسح في نفوسهن الضعيفة ـ كما أفسح في نفس امرأة العزيز الأمارة ـ ما نهى الله عنه من التبرج بالزينة، والتغنج في المشية، والدعوة بالحركات واللفتات، والخضوع بالقول، ومصافحة الغرباء، ومخالطتهن من غير ضرورة، ولا يزال بهن يزين في أعينهن الفاحشة، حتى يخرب نفوسهن؛ فتصير غوية مثله، تأمر، وتدعو، وتراود، ولا تكف عن ذلك حتى تغوي من تسلطت عليه من الرجال، وتورثه الفقر والعجز وسخط الرب!

ومن أجل هذا السلطان الذي تملكه المرأة على بني جنسها؛ حذر النبي عليه السلام أمته من فتنة النساء، في مثل قوله: «**ما تَركت بَعدي في الناس فِتنةً أَضر على الرجال مِن النساء**»[٢].

❊ ❊ ❊

المطلب الخامس: التحاكم إلى الطاغوت

جاء هذا الوصف في سياق الحديث عن الذين ينقضون شرط الإيمان بانحرافهم عن شريعة الله، وذلك في آية النساء المدنية: ٦٠ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾.

ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من المنافقين، دعا رجلا

---

(١) واليهود اليوم هم أصحاب بيوت الدعارة في العالم، وهم ناشرو الانحلال الجنسي والخلقي في كل مكان.

(٢) رواه الترمذي في الأدب رقم: ٢٧٨٠، عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: (صحيح السنن: ٣/١٠٩).

من اليهود في خصومة بينهما إلى كاهن في جهينة، ليحكم بينهم ورسول الله بين أظهرهم[(١)]، وفي رواية: «أن اليهودي دعا المنافق إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى «كعب بن الأشرف» وهو الطاغوت»[(٢)]، وقيل: «في جماعة من المنافقين، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، وقيل: غير ذلك»[(٣)]. وهذه الروايات توحي بأن هذا التحاكم كان في أوائل العهد بالهجرة، يوم كان للنفاق صولة، وكان لليهود الذين عقدوا حلفا مع المنافقين قوة ومنعة.

وهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت؛ أي: «إلى بعض أهل الطغيان والباطل»[(٤)] ممن يصدرون عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله»[(٥)]؛ قد يكونون جماعة من المنافقين، كما أشار إليه خبر النزول، وكما صرح تعالى بوصفهم في لحاق الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾[(٦)]، وأخبر عن سلوكهم الملتوي في نظير الآية: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾[(٧)]، وقد يكونون جماعة من اليهود «الذين كانوا يدعون ـ حين تجدُّ لهم أقضية مع بعضهم البعض أو أهل المدينة ـ إلى التحاكم إلى

---

(١) يراجع: جامع البيان: ١٥٢/٥/٤ والجامع للأحكام: ٢٦٣/٥، عن الشعبي.

(٢) الجامع للأحكام: ٢٦٣/٥، عن ابن عباس والضحاك، وكذلك تفسير ابن كثير: ٤٩٢/١.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤٩٢/١.

(٤) مفاتيح الغيب: ١٦١/١٠/٥، وتفسير ابن كثير: ٤٩٢/١، ومعنى الطاغوت في اصطلاح القرآن ـ كما قال الإمام أبو الأعلى المودودي ـ : «كل دولة أو سلطة، أو كل إمامة أو قيادة، تبغي على الله وتتمرد، ثم تنفذ حكمها في أرضه، وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو بالإغراء أو بالتعليم الفاسد»: (المصطلحات الأربعة/٩٩) وقد سمى النبي ﷺ الأصنام المعبودة من دون الله طواغيت، في الحديث الصحيح، قال: «ويَتَّبع من يعبُد الطواغيت الطواغيت»: (أخرجه البخاري في التوحيد، برقم: ٧٤٣٧).

(٥) جامع البيان: ١٥٢/٥/٤.

(٦) النساء/٦١.

(٧) النور/٤٧ ـ ٤٩.

كتاب الله فيها ـ التوراة أحياناً، وإلى حكم الرسول أحياناً ـ كما وقع في بعض الأقضية، فيرفضون ويتحاكمون إلى شرائعهم الباطلة»[١]، ويشهد لهذا الفرض قوله تعالى في آية آل عمران: ٢٣ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾. ولكننا نطمئن إلى الفرض الأول؛ لقوله فيهم: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ واليهود لم يكونوا يسلمون، أو يزعمون أنهم آمنوا، بل كانوا يكفرون بما عرفوا من الحق، ويجاهرون الرسول ﷺ العداء والمكر[٢]، بخلاف المنافقين الذين كثر في القرآن الكريم وصفهم بإظهار الإسلام وتكذيبه بالأعمال، كما هو مقتضى طبيعتهم الفاسقة. ومن ثم كانوا هم الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، ثم لا يتأدبون بأدب الإيمان من تحكيم رسوله وفق شريعة الله!

وعلى أية حال، نحن لا يعنينا هنا التحقيق التاريخي لشخصية الذين يزعمون ويتحاكمون، فالنص القرآني يعني حقيقة مستقلة عن الأشخاص، والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة. وعليه، فإن سياق الآية لا يختص بمن ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل المنافقين الذين يزعمون الإيمان، وما هم بالمؤمنين، ثم يتحاكمون إلى الطاغوت من أي نوع، سواء كان شخصا يعظمونه ويصدرون عن أمره، أم كان شرائع وتقاليد جاهلية ألفوها واتبعوها، أم كان قانوناً وضعياً وهيئة تشريعية يرضون بحكمها... فكلها طواغيت يريدون التحاكم إليها من دون منهج الله وشريعته، التي لا تحيد عن الحق، ولا تنحرف مع الهوى، وهم لا يفعلون هذا عن جهل ولا

---

(١) في الظلال: ٤٢١/٢.

(٢) باستثناء فريق منهم، ممن أظهر الإسلام على سبيل النفاق، كما يشعر بذلك قوله تعالى، من آية البقرة: ٧٦ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾... وكذلك قول أبي مسلم، فيما حكاه الرازي عنه: «ظاهر الآية يدل على أنه كان منافقا من أهل الكتاب، مثل أنه كان يهودياً فأظهر الإسلام على سبيل النفاق...»: (مفاتيح الغيب: ١٦١/١٠/٥).

عن ظن؛ إنما يعلمون يقيناً أن هذا الطاغوت مُحَرم التحاكم إليه، كما قال: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ ومع ذلك فهم يزعمون الإيمان بالله واتباع أمره، ويسارعون إلى تحكيم الطاغوت اتباعا لأمر الشيطان، كما قال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾. فتبين أن الخبيث إنما يريد بوساوسه أن يضلهم ضلالاً بعيداً، بتحريضهم على الخروج من محيط الإيمان وفضائله، إلى سبل الكفر ورذائله، وأشنعها: التحاكم إلى الطاغوت وترك التحاكم إلى الحق، وذلك هو دينه الذي يدعو إليه من دون دين الله.

وما أحسن ما عبر سيد قطب عن الصلة الوثيقة التي تربط بين إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت وإرادة الشيطان إضلالهم، فقال: «فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت، وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت! هذا هو الدافع يكشفه لهم، لعلهم ينتبهون؛ فيرجعوا، ويكشفه للجماعة المسلمة، لتعرف من يحرك هؤلاء، ويقف وراءهم كذلك»[1].

استنتاج

ومما سبق نستنتج:

- أن مفهوم الشيطان في القرآن الكريم مفهوم يتسع مداه ويتكاثر أفراده بالولاء والاتباع لعدو الله؛ إذ ينسحب على كل من استشرى فساده، وتمحض للغواية، وقام يدعو للشر، من المشركين الظالمين، والمنافقين الفاسقين، واليهود المستكبرين، وهؤلاء هم أحب الفئات البشرية إلى الشيطان، وأقربهم إليه رحماً بصفاتهم وأفعالهم؛ إذ آثروا عبادته على عبادة الله، فجعلهم أسرى له، تحت سلطانه، مكبلين بشهواتهم وأربابهم، من مال، وجاه، وأصنام، وكهان، ورؤساء...، وجَنَّدهم في كتائبه الإبليسية لحرب الأنبياء وأصحاب الدعوات الحقة، ولصد الناس عن طريق الحق، ودعوتهم إلى اتباع الباطل. ومن أجل هذه الدعوة الباطلة، ولاهم الله

---

(١) في الظلال: ٤٢٢/٢.

الحق، ودعوتهم إلى اتباع الباطل. ومن أجل هذه الدعوة الباطلة، ولاهم الله ما تولوا، وكتب عليهم الضلالة أجمعين، هم وقائدهم اللعين، فوثبوا بخطوات واسعة، يهدي بعضهم بعضا، إلى عذاب السعير.

● أن جماع الشرور التي يأمر بها شياطين الإنس بني آدم هو الكفر والشرك، والبخل، والزنا، والتحاكم إلى الطاغوت. وهذه الشرور تتساوق مع الشرور الشيطانية، المنبثقة عن عبقرية إبليس الخبيثة؛ إذ هو الذي يأمر ـ كما تبين ـ بالشرك وتوابعه، من البخل، والزنا، والتحليل والتحريم بغير حق، ويرنو من وراء ذلك الأمر إلى تغيير الفطرة البشرية من الإيمان والتوحيد إلى الكفر والشرك، وذلك مطمح كل شيطان مريد من الجن والإنس!





المبحث الخامس:

أبعاده

وتأسيساً على ما سبق، تكتسي نصوص الأمر الشيطاني؛ ألفاظاً وصيغاً ومفاهيما، أبعاداً مختلفة، يمكن أن نحلق من خلالها في ضمير الأمة وتصوراتها، وتقاليدها، وأوضاعها؛ لنقتلع ما أصاب هذه الأمة من تشويه في عقيدتها والتباس في دينها وتحريف في شريعتها وفساد في أوضاعها، من أجل أن تعود عودة صحيحة إلى قرآنها العظيم، لتغترف من بحر معانيه السامية، التي فقهتها طليعتها في عصر نزوله، وتحققها في واقع حاضرها وغدها.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول:
الأبعاد العقائدية والتشريعية

ونستوحيها من قضية أساسة، يتكئ عليها وحي إبليس وأتباعه، وهي قضية الشرك بالله والتشريع بغير إذن من الله، أو قضية العقيدة الفاسدة والحاكمية الباطلة والطاعة العمياء بدون سند من الله أو الرسول...إنها قضية هذا الدين القيم، الذي لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة، يعرضها القرآن الكريم في سياق حديثه عن الجاهليين العرب، وهم يكدحون

حول الأصنام، ويقربون إليها وإلى الله الثمار والأولاد والأنعام، ويجترحون السوء والفحشاء والمنكر، بإيعاز من الشيطان والمشايخ والأجداد والكهان. . .

كما يعرضها في سياق حديثه عن قادة الكفر والنفاق في المجتمع المسلم آنذاك، وهم يزاولون تكاليف دعوتهم الباطلة بتسويل من الشيطان؛ فيتواصون بالكفر، ويتحاكمون فيما شجر بينهم إلى الطاغوت، ويصدون الناس عن الإسلام، وعن البذل والجهاد في سبيله، وعن القيام بتكاليفه، ويحاربون سراً وعلانية دين الحق ودعوته. وقد حكم الله سبحانه على المشركين في مجتمع الجاهلية بأنهم لا يؤمنون به، مع إيمانهم به إيمانا نظريا بأنه الرب، وبأنهم يقولون على الله بلا علم في التحليل والتحريم، وبأنهم أولياء الشياطين. . .كذلك حكم على شياطين الإنس في مجتمع الإسلام، بأنهم يزعمون الإيمان ولم يؤمنوا حق الإيمان، وبأنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وبأنهم الظالمون، والفاسقون، والكاذبون، والباخلون، وبأنهم قرناء الشياطين. . .!

وانطلاقاً من هذا الحكم الإلهي، يتبين أن من اتبع أمراً غير أمر الله، فعبد معبوداً غير الله، سواء كان المعبود الشيطان أو الأناس الباغون؛ صح فيه ما صح في المشركين والمنافقين واليهود، من أنهم مشركون، لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ـ مهما كانت دعواهم من الإيمان ـ ومن أنهم منافقون فاسقون. . .؛ لأن هذا الوصف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله، ولو أنهم صدقوا بآيات الله، وآمنوا بالآخرة، واتبعوا هدى الله، ما اتبعوا أمر العباد وتركوا أمر الله، ولا حرموا وحللوا بغير إذن من الله. ودين الإسلام، كما صوره رب العباد للعباد، يدل على معنى الخضوع والاستسلام، وهو يناقض معنى البعد والتفرد والعصيان، كما تدل عليه الشيطنة[1]. ومن ثم فالإسلام لا يتحقق فعلاً إلا بالاستسلام لله وحده، واتباعه وحده في الشرائع والشعائر سواء، وبنبذ الاتباع لأحد من الطواغيت

---

(١) انظر هذه المعاني المتقابلة بين الشيطان والإسلام، في كتاب الزينة: ١٨١/١.

في شؤون الحياة كلها، فليس هو إذن، مجرد الاعتقاد بألوهية الإله الواحد، وأداء شعائر عبادته، وإنما هو الدينونة لله وحده، في كل أمر، وفي كل شأن، وفي منهج الحياة كله، للدنيا والآخرة. ولقد فسر رسول الله ﷺ **«العبادة»** نصا بأنها **«الاتباع»** وليست هي الشعائر التعبدية، في قوله لعدي بن حاتم عن اليهود والنصارى، واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً: «**أمَا إنهم لم يَكونوا يعبدونَهم، ولكنهم كانوا إذا أَحَلُّوا لهم شيئاً؛ استَحَلوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً؛ حرموه**»[1]. وهذا الضلال الخطير، الذي أبطل مفهوم الدين ومفهوم العبادة عند أهل الكتاب، وأخرجهم من الإسلام إلى الشرك؛ هو الذي وقع فيه من قبلهم من أمم نوح، وإبراهيم، وعاد، وثمود، ولوط، وفرعون. . . ؛ حيث اتبعوا أمر الجبارين، والمترفين، والمستكبرين، والمسرفين؛ فأشركوهم مع الله في الألوهية، وراحوا يستمدون منهم الهدى، ومبادئ المال والاجتماع والأخلاق، مستغنين في ذلك عن السلطان المُنزَّل من عند الله، وتلك كانت جريمتهم التي استحقوا من أجلها العذاب في الدنيا واللعنة في الآخرة. إنها جريمة الاستسلام لزعامة الطواغيت وطاعتهم إياها، وعصيان أمر رسل الله. وهذا الاستسلام لربوبية العبيد هو الذي جاء القرآن الكريم لتطهير قلوب العرب والناس كافة منه، وإبطاله في واقعهم الاجتماعي، القائم على خرافات الكهان، وأوهام الآباء، فقال الله تعالى لهم: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ**

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير: تفسير آية التوبة: ٣١ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ وقال فيه ناصر الدين الألباني: (حسن): (انظر صحيح سنن الترمذي: ٣/٢٤٧، رقم ٣٠٩٥). والقصد منه ـ كما ذكر المودودي ـ أن الذين لم تكن وظيفتهم في الدين سوى أن يعلموا الناس أحكام الشريعة الإلهية، ويزكوهم حسب مرضاة الله، تدرج بهم هؤلاء حتى تجاوزوا بهم حدود العبودية، وأنزلوهم مقام الربوبية، وأشركوهم مع الله في الألوهية؛ بحيث يحلون لهم ما يشاؤون، ويحرمون عليهم ما يشاؤون، ويأمرونهم وينهونهم حسب ما تشاء أهواؤهم، بدون سند من كتاب الله، ويسنون لهم من السنن ما تشتهي أنفسهم. . . (المصطلحات الأربعة في القرآن/٧٥، ٧٦ «بتصرف»).

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾[١]، وناداهم بوصف الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾[٢]؛ أي: إن كنتم تعبدونني حق العبادة، فعليكم أن تصُموا آذانكم عن همسات الشيطان، وأن تتحرروا من سلطان أئمتكم، وسلطان الوهم والخرافة والتقليد، وتأكلوا ما أحللناه لكم هنيئا مريئا؛ لأنني أنا الله، الذي خلق لكم ما في الأرض من زروع وثمار وأنعام[٣]. والذي يخلق ويرزق هو الذي يملك، وهو وحده الذي يشرع للناس ما رزقهم من هذه الأموال، وليس الشياطين التي لا تخلق، ولا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً!

ومن هنا، فَهِم المسلمون الأول أن قضية هذا الدين في كل زمان ومكان، هي قضية الحاكمية والاتباع... هي قضية: من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره ويعبدونه؟ وقد عرفوا في جاهليتهم أن الله ربهم، وبأنه خالقهم ورازقهم، ولكنهم كانوا يشركون معه أرباباً؛ يتوجهون إليهم بالعبادة إما ليقربوهم إلى الله زلفى، ويكونوا لهم شفعاء عنده، كما كانوا يزاولون خصائص الربوبية، فيشرعون لأنفسهم ما لم يأذن به الله، كما تبين من سياق الآيات. وبدخولهم في دين الإسلام، صححوا تصورهم الخاطئ عن الربوبية؛ فأيقنوا أن الله هو الرب؛ بمعنى أنه الخالق الرازق، وأنه ـ كذلك ـ مالك الأمر والنهي، وصاحب السلطة العليا في حياتهم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية؛ كذلك أيقنوا أن شعائرهم في العبادات ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى، بعيدة عن الشرك، ملتزمة بمنهج نبيهم العظيم، الذي لُقنه من لدن حكيم خبير: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾[٤]. وذلك ما كان يفهمه

---

(١) البقرة: ١٦٨.
(٢) البقرة: ١٧٢.
(٣) انظر: المصطلحات الأربعة/٩٨ (بتصرف).
(٤) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.

العربي المسلم من معنى العبادة والدين؛ فيجسده في الإقرار بألوهيته وربوبيته، ويحققه في تقديم شعائر عبادته له سبحانه؛ في ركوعه، وسجوده، ودعائه، وطوافه... ويجليه في اتباع شريعة الله، وفي إطاعة أمره، واجتناب نهيه، من غير أن تكون له الخيرة من أمره.

أما الآن، ونحن في زمن انقلبت فيه المفاهيم والموازين، فقد بهت مفهوم الدين ومفهوم العبادة في نفوس الناس، فصاروا لا يفهمون من العبادة سوى تقديم الشعائر التعبدية لله، ولا يفهمون منها الدينونة الكاملة لله في كل شأن؛ ذلك بأنهم لا يعرفون طبيعة هذا الدين وحقيقته، ولا يقرؤون القرآن، كما أنزله الله، ولا يفقهون ألفاظه، ولو قرؤوا بجد وأخذوا بقوة قول الله سبحانه: ...﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾...[1]، لفهموا أنه ليس لأحد من دون الله أن يسلم لأحد بالحكم والأمر.

وقد أمر سبحانه باجتناب الطاغوت ونهى عن عبادة الشيطان، كما قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾...[2]، وقال: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾[3]. فعلم أن من يتخذ الشياطين والطواغيت أرباباً من دون الله، يتخذ تحت سياط أسرهم، ووطأة إغرائهم أو إكراههم، أرباباً كثيرة من دون الله؛ كالمال، والجاه، والأوثان، والأولياء والصالحين، والمشايخ، والكهان، وأرباب السلطان...

وفي هذا الزمان، ازداد تعبيد الطواغيت والشياطين الناس لهم من دون الله، في تصوراتهم وتقاليدهم، وفي كل جانب من جوانب حياتهم السياسية والمدنية والاجتماعية والأخلاقية...، واستعانوا على تعبيدهم لهم بالإغراء، والكذب، والتعليم الفاسد، والإعلام الباطل؛ فأوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، وقالوا للناس: ما للدين وشؤون الحياة؟ وزعموا

(١) يوسف من الآية: ٤٠.
(٢) النحل من الآية: ٣٦.
(٣) يس/٦٠.

أن لهم الحق في التشريع لهم بما يروه أصلح لأحوالهم من دون الله؛ لأنهم لا يريدون إلا إحساناً وتوفيقا، كما قال المنافقون من قبل؛ فرفعوا من أجل إصلاح حياتهم السياسية، شعارات الديموقراطية، والاشتراكية، والمساواة... ولم يتحقق شيء من ذلك في واقع الناس.

ومن أجل تنمية حياتهم المالية والاقتصادية، أحلوا لهم الربا، ودفعوا بهم للأرباب المرابين في بيوت المال والبنوك، ليأخذ هؤلاء حصيلة كدهم... ومن أجل إصلاح وتطوير حياتهم المدنية والاجتماعية والأخلاقية، ضغطوا على الناس بثقل الأعراف الاجتماعية، المنبثقة من القيم الفاسدة التي ينشؤونها؛ لدفعهم إلى التصرف في أموالهم بما لم يأذن به الله؛ كالإنفاق على الأزياء والمراسم، وأنواع الزينة والتجميل، وزاولوا العري والتكشف، فأسلموا الناس - ذكراناً وإناثاً - إلى الفتنة الشيطانية، كما فعل قائدهم إبليس مع أبويهم من قبل، وزجوا بالمرأة خاصة في سجن التحرر من الأخلاق، وفي جحيم المساواة مع الرجل في الحقوق، وهم ينعقون مع كل ناعق بتحريرها وإدماجها في تنمية المجتمعات، وقبل ذلك وبعده، اتخذوها تسلية وفتنة للنفوس بالكلمة، والصورة، والقصة، والفيلم... وزعم بعضهم أن تعلُّم الدين والعربية والعلوم الشرعية لا يتناسب مع ضرورات العصر وواقع الناس المادي؛ فنادوا بتعطيل منهج الله في التربية والتأديب، وزعم آخرون للناس أنهم يحترمون الدين، وأن ما يشرعونه للناس له أصل من هذا الدين، كما كان يزعم الجاهليون العرب في أمر التحليل والتحريم، وهم إنما يشرعون وفق أهوائهم، ويثبتون لافتة الإسلام على أشخاصهم، وعلى أوضاع فاسدة في مجتمعاتهم، وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض، ولا تخدروا عواطف الناس الدينية، أخذتهم العزة بالإثم وقالوا: إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ولقد حكم الله على هؤلاء المشرعين للناس من عند أنفسهم بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾[1].

---

(١) الأنعام من الآية: ١٥٠.

المطلب الثاني:
الأبعاد النفسية والتربوية

ونستلهمها من الإيحاءات النفسية والتربوية، التي أشارت إليها التحذيرات المنطوية في آيات الأوامر الشيطانية، كما هو واضح من سياقها في عمومها؛ ذلك بأن هذه التحذيرات تضمنت جانباً عظيماً من منهج التربية القرآني وإجراء من إجراءات الوقاية، يقوم على خبرة دقيقة بمداخل النفوس، وبما يثيرها وينفرها ويعالجها. وإن تدبر مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وقوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ليَرسم صورة كريهة مستنكرة لهذا العدو المبين؛ صورة ينفر منها طبع المؤمن، ويرتجف لها وجدانه، فلا يتصور مجرد تصور أن يخطو الشيطان؛ فيتبع خطاه، ولا يجرؤ بحال أن يغادر حصن الإيمان الذي يعصمه من اللعين ومن مطارداته. وإن تمثل العاقبة السيئة التي أعدها الله لأوليائه في مثل قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وقوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ ليثير في نفس المؤمن داعية مخالفتهم، ومجاهدة مكرهم في كل أمر، ويحفز همته للعمل بتكاليف هذا الدين واحتمال تبعاته، ابتغاء وجه الله ورضوانه والفوز بجنته!

وبمثل هذه المؤثرات والمعالجات النفسية، كان القرآن الكريم يربي الجماعة الناشئة على مجاهدة النفس والشيطان، ويوقظ قلبها، وينبه عقلها، ويشحذ عزائمها؛ لتُخرج الاستعدادات الفطرية الكامنة في ماهيتها الإنسانية، وتترقى في سلم الكمالات؛ فظهرت بفضل هذا المنهج التربوي الإلهي تلك الأصناف السامية من الناس، الذين أخذوا بيد الإنسانية إلى مراقي الفلاح، وهم يحذرون إطاعة نفوسهم وأهوائهم، ويتجنبون خطوات الشيطان، ويتألمون إذا رماهم هؤلاء الأعداء بسهام وساوسهم المزعجة، أو ألبسوا على قلوبهم المؤمنة تخيل الخواطر القبيحة، بصدد يقينيات الإيمان أو الأشخاص المنزهة. وقد ثبت في الصحيح، أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: **«وقد**

وَجدتُموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صَريح الإيمَان»[1]، وفي لفظ: إن أحدنا يجد في نفسه، يُعَرض بالشيء؛ لأن يكون حُمَمَة أحب إليه من أن يتكلم به! فقال: «...الحمدُ لله الذي رَدَّ كيدَه إلى الوسوَسة»[2] فقوله عليه السلام: «ذاك صَريحُ الإيمان» يدل على أن تلك الوساوس المؤلمة لقلوبهم لا تغير الإيمان، ولا تثلم أدب التوقير والاحترام، بل إنها أمارة على ثمرة الإيمان العميق. وقد قال كثير من العلماء: «فكراهة ذلك وبغضه وفرار القلب منه، هو صريح الإيمان، والحمد لله الذي كان غاية كيد الشيطان الوسوسة، فإن شيطان الجن إذا غلب كذب، والوسواس يعرض لكل من توجه إلى الله تعالى بذكر أو غيره...»[3] والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا إذا ابتُلوا بشيء من ذلك في قيامهم، وسجودهم، يثبتون ويلازمون ما هم فيه من الذكر والصلاة، ويتحصنون في قلعة الإيمان، ويقطعون الطريق على أعدائهم المخيفين، بجهادهم لأنفسهم على تعلم العلم النافع، وتحري العمل الصالح، واحتمال المشاق في سبيل الدعوة إلى الله. ثم بجهادهم لشيطان الجن ومداخله، وشيطان الإنس ومكايده، وذلك بسلاح الاستغفار، والذكر، والصلاة، والصبر، وبعدة القول الحسن، وغض البصر، وصون الأذن عن سماع الباطل، وبعتاد الجهاد والإنفاق في سبيل الله، والإخلاص في العبادة لله، والتزام سنة نبيه...؛ فإذا نزغ الشيطان في أنفسهم، وهي ثائرة على جهالة الجهال، استعاذوا بالله، وتذكروا، لينفثئ غضبهم، وتتفتح بصائرهم: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[4]، وإذا نزغ بينهم ليفسد ما بينهم من محبة ووفاق اختاروا أحسن ما

---

(١) رواه مسلم، في الإيمان، رقم ١٣٢، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود، في الأدب، رقم ٥١١٢، عن ابن عباس: (صحيح سنن أبي داود: ٣/٢٥٦).

(٣) الفتاوى: ١١/٢٢/٣٥٤.

(٤) الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

يقال، إطاعة لأمر الله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾...[١]، وقول رسول الله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بِشَق تَمرَة، فإن لم يَكن فبِكلِمة طيِّبة**»[٢]. وإذا دخل عليهم من باب شهواتهم، وحسن إليهم الفحشاء والمنكر، فعلوا المأمور وتركوا المحظور، وتوجهوا إلى الله بالذكر والصلاة: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۚ﴾...[٣] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً﴾...[٤] ...﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾...[٥]. وإذا جادلهم الشياطين الظالمون في آيات الله، واستخفوا بدعوة نبيهم؛ صموا آذانهم عن سماع جدالهم واستخفافهم وأعرضوا إعراضا، كما قال تعالى عنهم: ...﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾[٦]، وقال لنبيه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾[٧]، وقال أيضاً: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[٨]. وإذا آذوهم في أنفسهم وأموالهم، ثبتوا وصبروا واتقوا: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[٩]. وإذا قذفوا بنفوسهم الخوف من الفقر، والانكماش عن الإنفاق في سبيل الله، أعطوا عطاء من لا يخشى الفقر، كما أخبر تعالى عنهم: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[١٠]، ولم

(١) الإسراء من الآية: ٥٣.
(٢) البخاري في الأدب، رقم ٦٠٣٣، عن عدي بن حاتم.
(٣) النور من الآية: ٣٠ وينظر التي بعدها.
(٤) الإسراء من الآية: ٣٢.
(٥) العنكبوت من الآية: ٤٥.
(٦) الفرقان من الآية: ٦٣.
(٧) الأنعام/٦٨.
(٨) الأعراف/١٩٩.
(٩) آل عمران: ١٨٦.
(١٠) الرعد من الآية: ٢٢.

يبذروا تبذيرا: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾...[(١)].

وإذا زينوا لهم التثاقل إلى الأرض، باعوا أنفسهم وأموالهم لله، حتى يكون الدين لله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾...[(٢)]، ...﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[(٣)].

وإذا وسوس لهم الشيطان في طهارتهم، وصلاتهم، ومناسكهم... وفي كل أمر من أمور دينهم وحياتهم، اعتصموا بسنة نبيهم، واتبعوا هديه، وتركوا الغلو في شريعته: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[(٤)]، ...﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٥)]، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[(٦)].

وهكذا كان هؤلاء العباد المتقون مثُلا واقعية للأمة القوية التي يريدها الإسلام، وللنفوس الصحيحة التي ينشئها بمنهجه التربوي الحكيم؛ وذلك لأنهم تجردوا لله، وأخلصوا في عبادته، واستجابوا لتحذيرات القرآن وتوجيهاته، فقهروا أنفسهم وظفروا بها حتى صارت طوعا لهم، منقادة لهدى الله، وخالفوا دعوات الشياطين بعمل الخير والصرف عن الشر، فعصمهم الله من كيد أعدائهم ولم يأذن لهؤلاء في استذلالهم، فما لهم عليهم من سلطان.

وإن هذه النماذج الإنسانية الأصيلة لهي التي تستحق أن تحضر بصفاتها المميزة، ومقومات نفوسها وسلوكها وحياتها في واقعنا الفاسد؛ كي تَستَجيش قلوب الناس المريضة إلى التأسي العملي، تلكم القلوب التي ازداد إبليس تمكنا منها، حتى علق خَطْمُه فيها، وازداد أولياؤه دخولاً في سويدائها،

---

(١) الإسراء من الآية: ٢٧.
(٢) التوبة من الآية: ١١١.
(٣) النساء من الآية: ٧٦.
(٤) الأعراف من الآية: ١٥٨.
(٥) الأحزاب من الآية: ٢١.
(٦) البقرة من الآية: ١٩٠.

بسبب كثرة نسيانها لله، وهجرها لتعاليم وحيه، فضلاً عن تفنن الشياطين في إضلالها بألوان من الملذات التي هبطت بأصحابها إلى درك الحيوانات!

ومن هنا، فأولى لناس اليوم المتحضرين أن يسلكوا السبيل الأقوم، الذي سلكه هؤلاء الأناس المتحضرون حقاً؛ فيخالفوا أهواءهم، ويحذروا خطوات الشيطان، ويسدوا مداخلهم إلى قلوبهم بالفرار من همزاتهم إلى العليم الحكيم وحده، مستصرخين: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ﴾[1]، وبصم آذانهم عن أصواتهم وجلبة خيلهم ورجلهم؛ من غناء، وأفلام، ولمز، وغيبة، واستهزاء، وفتنة، وتشكيك...! وبكف ألسنتهم عن كل قبيح، يلقونه في نفوسهم؛ من إفك، وبهتان، وجدال باطل، ورد سيئ...! وبغض أبصارهم عن السوء، وحفظ فروجهم عن الفحشاء، وعن كل فساد ينتهك حرمات بيوتهم، ويمزق أوصال أسرهم، وينذر بتدمير حياتهم؛ من لواط، وسحاق، وخيانة، واغتصاب...!

وأولى لهم فأولى أن ينسوا الشياطين، ويذكروا الله ليذكرهم بجزيل ثوابه، وأن يقبضوا أيديهم عن الإنفاق في سبيل الطواغيت، ويبذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيل الله، وينصروا دعواته الحقة على دعاويهم الباطلة؛ ليمكن لهم في الأرض ويرفعهم درجات.

ثم أولى لهم فأولى أن يفهموا حق الفهم أن وساوس الشيطان وأتباعه، التي ابتلى الله بها عباده وحذرهم من اتباعها، هي بمثابة سياط لاهبة، أعطاها الله بيد الشياطين؛ كي تكون حافزة للمجاهدة، وداعية للتيقظ، ووسيلة للجدية، ودافعة للتهاون؛ ولم يعطها الله بيدهم كي تكون دافعة للجبن والتخريب والتخاذل. ومن أجل هذا كله، كان ارتقاء أهل الإيمان في سلم الكمالات الإنسانية يدور حول مجاهدتهم لهذه الوساوس، ومبارزتهم لأهل الضلالة والكفر؛ الأمر الذي يحفز طاقاتهم، وينمي رصيدهم من القوة المعنوية، وذخيرتهم من المشاعر الإنسانية، ويقود

---

(١) المؤمنون من الآية: ٩٧.

خطواتهم إلى النصر المشروط بتكاليفه، مهما طال تغلب أعدائهم واستعلاؤهم عليهم؛ ذلك بأن ﴿... ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١]، الذين ينوبون عن الله في أرضه، ويدينون له ولرسله بالطاعة؛ فيعملون، ويبنون، ويدعون، ويجاهدون، ويتفكرون...!



(١) هود من الآية: ٤٩.

الفصل الثالث:

الأمر الإنساني
(قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)



توطئة

لما أرادت المشيئة العليا أن تسلم للإنسان مقاليد هذه الأرض في حدود العبودية لله، سخرت له كل ما في الأرض من قوى وطاقات ووهبته من المواهب المعرفية ما يعالج به هذا الملك العريض، وركبت في فطرته ميولاً عظيمة نحو الشهوات، وإرادة حرة تملك الاستعلاء على هذه الشهوات، أو الاستسلام لخطامها، وتختار بين هذا وذاك طريق الهداية والنعيم أو الضلال والجحيم.

ولما كانت إرادة الإنسان هي مناط العهد مع الله، الذي نال به شرف الاستخلاف، وهي مناط التكليف والجزاء وشرط الابتلاء؛ اقتضت مشيئة الله أن يهبط الإنسان إلى الأرض، مزوداً بأول تدريب له على تقوية هذه الإرادة في مواجهة ضعفه البشري، وإغراء عدوه إبليس. ثم اقتضت رحمة الله به وحكمته ألا يتركه لضعفه وشهواته وشيطانه، وأن يرسل إليه الرسل للإنذار، والتذكير، والتبشير، والترغيب، والترهيب، حتى يخضع لهدى الله، ويغلب إرادته على هواه.

وهكذا نفذ مراد الله على أرضه، وتمت نعمته على خليفته، متمثلة في دينه، وأوامره ونواهيه، التي حد بها بين الحلال والحرام، والمحضور والمباح، والحسنة والسيئة، والخبيث والطيب، واستحفظ عليها أولياءه ورسله وأنبياءه، وتعبد بها خلقه، وأوجب عليهم رعايتها، وتكميل الغير بها، وجعل ذلك قمة العبودية والطاعة، وآية الإيمان، وذروة سنام الإسلام. فمنهم من شقي بمخالفتها والدعوة إلى معارضتها، فنُكس وجُعل أعلاه

أسفله، وتردى إلى أسفل سافلين؛ ومنهم من سعد بامتثالها والدعوة إلى اتباعها؛ فحلق إلى أعلى عليين، وظفر بجنة النعيم، وصدق فيه قول الله تعالى في مقام الترقي والامتنان: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[1] فهؤلاء المؤمنون المتعبدون بالأمر والنهي والدعوة إليهما، هم أمناء الله على دينه، يصونون صورته الصحيحة، ويحفظون وجهه النقي من التشويه؛ فيتكلمون بالحق، ويبلغون الهدى كما تلقوه من الله تعالى، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، خلافة عن الله الذي يحث على المصالح كلها، ويزجر عن المفاسد بأسرها، كما قال في آيته الجامعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ الآية[2]، وخلافة عن رسل الله، الذين جعلهم الله تعالى أئمة يهدون أقوامهم بأمر الله، كما قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ الآية[3]، وجعل من خلفائهم مشاعل هداية في دياجير الغواية، كما قال عن قوم موسى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[4]، وقال عن أمة محمد، التي لا تدانيها أمة على وجه الأرض في الأمر والنهي، والدعوة إلى الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[5].

نعم، إن هذه المهمة الضخمة التي تليق بمقام خلافة الإنسان، وشرف القيام على أمانة الله في الأرض، لخليقة بأن يعبر عنها الحق سبحانه في كتابه الكريم بمصطلحات أصيلة تكتنز تصورات هذا الدين الإيمانية، وحقائقه الرسالية والتبليغية؛ نحو «الدعوة إلى الله»، و«الإنذار» و«التبشير»، و«الشهادة على الناس»، و«الإصلاح»، و«النصح»، و«التذكير»، و«التبليغ»، و«الجهاد في سبيل الله»، و«إظهار الدين وإقامته» و«إعلاء كلمة الله»، و«التواصي

---

(١) التوبة من الآية: ١١٢.

(٢) النحل من الآية: ٩٠.

(٣) الأنبياء/٧٢.

(٤) الأعراف/١٥٩.

(٥) آل عمران/١١٠.

بالحق»، و«التعاون على البر»... ولعل مصطلح «الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر» يتربع ـ بحق ـ على سدة هذه المصطلحات كما مضى[١]؛ إذ هو مصطلح شامل لكل جانب من جوانب هذه المهمة الضخمة، التي ألقى الله تعالى أعباء القيام بها على عواتق أوليائه؛ ذلك بأنه يعبر بدقة عن ذلكم العمل الواسع النطاق والمتشعب المجالات، الذي كُلفت به الأمة الإسلامية؛ لإقامة دين الله بأسره وإظهاره على غيره، فأُمر كل فرد من أفرادها بحسب طاقته بنشر الخير ومحاربة الشر، من العقائد والعبادات وأسس التربية ومبادئ السياسة والاجتماع والاقتصاد، وفي كل جانب من جوانب الحياة البشرية. ومن أجل ذلك جسد هذا العمل الجليل أرقى درجات الكمال الإنساني، وأرفع درجات العبدية الخالصة، وصدق في وصفه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[٢].

وعمل تلك سعته وأهميته، وذلك فضله وأثره، خليق بأن ترتفع حوله تساؤلات؛ مثل: هل هو فرض أم لا؟ وإن كان فرضاً، فهل هو فرض عيني أم كفائي؟ وما هي شروطه ومراتبه؟ وما هي الصفات التي يستلزمها؟ وما هي القيم التي يكتسيها في واقع هذه الأمة؟...

وجوابا عن هذه الأسئلة، نخضع قضية «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لمبضع التفسير، انسجاما مع ما حُدد من مفهومها في التعريف، وما فُصل منه في دراسة ضميمة (الأمر بالمعروف)، واستصحابا لما شُرحت به القضية من نصوص القرآن والحديث، وآراء الأئمة الأعلام، التي توضح بجلاء جانبا أو عدة جوانب من مهمتها الواسعة، وترسم بدقة سماتها العامة، بما يشكل من هذه الشروح مجتمعة مفاهيم متداخلة، يتمم بعضها بعضاً، في اتجاه بناء رؤية قرآنية متكاملة لهذه القضية العظيمة في صرح الدين.

---

(١) في مبحث الخصائص ص ١١٥.

(٢) فصلت/٣٣.



المبحث الأول:

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المطلب الأول: وجوبه

لقد تطابقت النصوص القرآنية والحديثية وتصريحات العلماء الأعلام على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأكيد فرضيته؛ كما دلت عليه نصوص «الأمر بالمعروف» المتقدمة، ويدل عليه قول القرطبي ـ مثلاً ـ : «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة»[١]، وقال الشوكاني: «. . . وجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها»[٢]، وقول الغزالي مستهلاً الباب الأول من بحثه في الأمر والنهي: «الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفضيلته، والمذمة في إهماله وإضاعته، ويدل على ذلك، بعد إجماع الأمة عليه، وإشارات العقول السليمة إليه، الآيات، والأخبار، والآثار»[٣].

ومع اتفاق العلماء كلهم على وجوب الأمر والنهي، بلا خلاف من

(١) الجامع للأحكام: ٤٧/٤.

(٢) فتح القدير: ٣٦٩/١.

(٣) إحياء علوم الدين: ٣٠٦/٢.

أحد منهم، اختلفوا في كيفية هذا الواجب: أواجب عيني هو أم واجب كفائي؟ ومدار هذا الاختلاف مبني في الغالب على الآيات الواردة في كتاب الله تعالى، ومن أذكرها قوله سبحانه في آيتي آل عمران: ١٠٤ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾، و١١٠ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾....

اختلف المفسرون في تفسير الآيتين[١] على قولين:

القول الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية

يقول ابن العربي المالكي: في الآيتين «دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية»[٢]؛ لأن «صيغة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ صيغة وجوب»[٣] و«من» في قوله (منكم) للتبعيض، في قول معظم المفسرين[٤]. ومن ثم فالمقصود من هذه الآية: «أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد بحسبه...»[٥]، وقريب من هذا المعنى، قول ابن تيمية: «... والله تعالى، كما أخبر بأنها ـ أي: الأمة ـ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقد أوجب ذلك على الكفاية بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ الآية»[٦]، وزاد الغزالي هذا

---

(١) مضى بيان من توجه إليهم الأمر في الآيتين وسواها، وكذا عموم السياق فيهما (ينظر: مفهوم «الأمر بالمعروف» ص٢٤٦ هامش ١).

(٢) أحكام القرآن: ٣٨٣/١.

(٣) التحرير: ٣٧/٤.

(٤) ينظر الكشاف: ٤٥٢/١ والجامع للأحكام: ١٦٥/٤ والتحرير: ٣٨/٤ ومجمع البيان: ٤٨٣/٢ والبحر: ٢٨٩/٣ وجامع البيان: ٣٨/٤/٣.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٦٨/١.

(٦) مجموع الفتاوى: ٧٣/٢٨/١٤، ويضيف في نفس الموضع: «...لا يجب على كل واحد بعينه، بل هو على الكفاية، كما دل عليه القرآن، ولما كان الجهاد من تمام ذلك، كان الجهاد ـ أيضاً ـ كذلك، فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه، أثم كل قادر بحسب قدرته؛ إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته».

الوجوب تفصيلاً وبياناً، في قوله: «... فيها ـ أي: الأمة ـ بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين؛ إذ لم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ فإذا قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين...»(١)، ونصر الزمخشري هذا الرأي الجمهوري بقوله: «... لأنه لا يصلح إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر؛ فإن الجاهل ربما نهى عن معروف، وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه، وجهله في مذهب صاحبه، فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً، أو على من الإنكار عليه عبث...»(٢).

القول الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين

يقول الزجاج في معنى قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾: «ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير، وتأمرون بالمعروف، ولكن «من» تدخل ههنا لتحض المخاطبين من سائر الأجناس، وهي مؤكدة أن الأمر للمخاطبين. ومثل هذا من كتاب الله ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾(٣)، ليس يأمرهم باجتناب بعض الأوثان، ولكن المعنى: اجتنبوا الأوثان، فإنها رجس... والدليل على أنهم أُمروا كلهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قوله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾» ثم قال عقب ذلك: ويجوز أن تكون أمرت منهم فرقة؛ لأن

---

(١) إحياء علوم الدين: ٢/٢٦٩.

(٢) الكشاف: ١/٤٥٢، واستصحاباً لهذا الشرط، ذهب الرازي إلى أن الأمر والنهي واجب على بعض الأمة، وهم العلماء. ومن ثم جعل هذا التكليف واجباً على البعض، لا على الكل، بخلاف ما ذهب إليه معظم العلماء من وجوب فرض الكفاية على الناس كلهم، وسقوطه بأداء بعضهم: (ينظر: مفاتيح الغيب: ٤/٣/١٨٣).

(٣) الحج من الآية: ٣٠. واستدل ابن هشام بهذه الآية على مجيء «من» لبيان الجنس: (مغني اللبيب: ٢/٣١٩).

قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ ذكر الدعاة إلى الإيمان، والدعاة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون إليه الناس، وليس الخلق كلهم علماء. والعلم ينوب فيه بعض الناس عن بعض، وكذلك الجهاد»[١].

ويقول أبو حيان، فيما حكاه عن الزجاج: «وذهب الزجاج إلى أن «من» لبيان الجنس، وأتى على زعمه بنظائر من القرآن وكلام العرب، ويكون متعلق الأمر جميع الأمة يكونون يدعون جميع العالم إلى الخير؛ الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، وظاهر هذا الأمر الفرضية»[٢]. ويرى الشيخ محمد عبده أن «الأمر في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ عام، ويدل على العموم، قوله تعالى: ... ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٣]، فإن التواصي هو الأمر والنهي...» ثم يعترض على ما اشترطه معظم العلماء من العلم في الآمر والناهي، فيقول: «المفروض الذي ينبغي أن يحمل عليه خطاب التنزيل هو أن المسلم لا يجهل ما يجب عليه، وهو مأمور بالعلم والتفرقة بين المعروف والمنكر، على أن المعروف عند إطلاقه يراد به ما عرفته العقول والطباع السليمة، والمنكر ضده وهو ما أنكرته العقول والطباع السليمة، ولا يلزم لمعرفة هذا قراءة حاشية ابن عابدين على الدر، ولا فتح القدير، ولا المبسوط، وإنما المرشد إليه - مع سلامة الفطرة - كتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر والعمل، وهو لا يسع أحداً جهله، ولا يكون المسلم جاهلاً، لا يعرف الخير من الشر، ولا يميز المعروف والمنكر، وهو لا يجوز ديناً»[٤]. ويرى في موضع آخر أن في الآية فريضتين، على تقدير أن «من» للتبعيض؛ إذ يقول: «وتقدير الكلام: ولتكن منكم طائفة متميزة تقوم بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمخاطب بذلك المؤمنون كافة، فهم المكلفون أن ينتخبوا هذه الطائفة، فيكون هاهنا

---

(١) معاني القرآن: ٤٥٢/١.
(٢) البحر: ٢٨٩/٣.
(٣) العصر/ ٢، ٣.
(٤) تفسير المنار: ٢٧/٤.

فريضتان: إحداهما على جميع المسلمين؛ والمراد بذلك أن يشارك كل مسلم في اختيار أمة، تتخصص لتبليغ الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يقف وراءها، وينصرها، ويراقب سيرها، بحسب الاستطاعة، والثانية، على الأمة من المسلمين، التي كلفت بالدعوة، والأمر والنهي، ووقع اختيار المسلمين عليها، ولا يُفهم معنى هذا حق الفهم إلا بفهم لفظ الأمة، وليس معناه الجماعة، كما قيل[١]، وإلا لما اختير هذا اللفظ، والصواب أن الأمة أخص من الجماعة، فهي الجماعة التي تؤلف بين قلوبها غايات وأهداف تحقق تماسكها ووحدتها»[٢].

* **تعقيب وتحصيل:**

وإذا تأملنا في هذه الأقوال، نجد أن الخلاف بين العلماء في وقوع فرض الأمر والنهي ينبني على اختلافهم في توجيه «من» في الآية الأولى؛ حيث ذهب معظمهم إلى أن «من» في الآية للتبعيض، مما يدل على أن القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير واجب على كل فرد، بل إنما يجب على بعض الأفراد، ممن تتعين فيه الكفاية للقيام بهذا الفرض، والآية الثانية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ تدل على شمول الخطاب لجميع الأمة، فعُلم من ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان فرضاً على الأمة كافة، ولكن يسقط عنها إذا قام به بعض أفرادها. ويناسب هذا الوجه قوله تعالى: . . . ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[٣]. فيلزم في كل بلدة أو قبيلة وجود أفراد لهم معرفة واسعة بالدين؛ ليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقه، إرشاد القوم وإنذارهم.

في حين ذهب آخرون إلى أن «من» في الآية لبيان الجنس، فيكون متعلق الأمر جميع أفراد الأمة، ويعضد هذا الوجه قوله في الآية الأخرى

---

(١) وممن قال به الطبري في جامع البيان: ٣٨/٤/٣.
(٢) تفسير المنار: ٢٦/٤.
(٣) التوبة من الآية: ١٢٢.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، وقوله معبراً عن عمل الأمر والنهي الإصلاحي: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(١). وعلى أي وجه وجهت «من» في الآية، في قوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ فالوجوب متعين، سواء جعلتها للبيان أو للتبعيض، والمؤمنون جميعاً مطالبون بالدعوة، والأمر والنهي، وإصلاح الأمة، وتجديد الدين؛ كما قال تعالى في صفتهم: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الآية(٢)، فهم أولياء في الدين واتفاق الكلمة؛ أي: «يعين بعضهم بعضاً على الطاعات، ويتواصون بترك المحظورات»(٣). وقد عقب تعالى تكليفه الأمة المسلمة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآية(٤). فدل ذلك على أن التواصي باتباع المعروف واجتناب المنكر، لا يتم أمره إلا إذا كان المسلمون كلهم متحدين ومتعاضدين، على النحو الذي ثبت في الصحيح: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً**»(٥). فعُلم أن الطلب واجب على الجميع، والمقصود حصول العمل الذي فُرض على الأمة وقوعه، سواء قامت به طائفة، تتحلى بمواهب ممتازة، أو أفراد المجتمع المسلم، كل بحسبه ووجهته. ومن ثم فكل واحد يجب عليه أن يقوم من الدعوة والأمر والنهي بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فإن «نُصِّب لذلك رجل، تعين عليه بحكم الولاية، وهو المحتسب»(٦). وإن احتاج الأمر والنهي إلى جدال واحتجاج ومناقشة، كان فرض عين على من يصلح لذلك. يقول ابن العربي: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية... وقد يكون فرض عين إذا عَرف المرء

(١) المائدة من الآية: ٢.
(٢) التوبة من الآية: ٧٢.
(٣) الكنز الأكبر/٥٢.
(٤) آل عمران من الآية: ١٠٥.
(٥) رواه البخاري في الأدب، رقم ٦٠٢٦، عن أبي موسى الأشعري.
(٦) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، على هامش ابن جرير: ٣١/٤/٣.

من نفسه صلاحية النظر والاستقلال بالجدال، أو عُرف ذلك منه»[١].

وإن استطاع امرؤ أن يقيم المعروف ويزيل المنكر في الطرقات والأزقة والحارات، كان عليه أن يؤدي واجبه على هذا النطاق الضيق، كما ثبت في الصحيح، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إياكم والجلوس في الطرقات**» قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد، نتحدث فيها، فقال: «**فإذا أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه**». قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»[٢] وإن رأى الرجلُ الرجلَ، لا يقيم أمر صلاته، ولا يتم ركوعها ولا سجودها، وجب عليه أن يأمره، ويعظه، حتى يحسن الصلاة، فإن الصلاة من تمام الدين والمعروف[٣].

أما الذي لا يطيق أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، ولا يصلح لهذا الفرض بأي وجه، فعليه أن يقيم الأكفاء، ويشجعهم عليه، ويساعدهم فيه، ليكون له ـ على الأقل ـ حظه غير المباشر في أداء هذه الفريضة العظيمة، ولا يصبح تاركاً لها بالإطلاق. ومن هذه الوجهة نظر عبدالله دراز نظرة صائبة إلى مشكلة فرض الكفاية وفرض العين؛ فقال معقباً على الإمام الشاطبي[٤]: «هذه الآيات ـ أي: آيات الأمر والنهي ـ لا تدل على أن الطلب متوجه إلى البعض، بل إن الطلب واجب على الجميع، فعلى غير المتأهلين أن ينهضوا بالقادرين، ويعدوهم له، ويعاونوهم بكل الوسائل؛ ليتحقق هذا المهم من المصلحة، فإن لم يحصل هذا المهم من المصلحة أثم جميع المكلفين:

---

(١) أحكام القرآن: ١/٣٨٣.

(٢) مر تخريجه في ص٢٤٢، هامش ٣.

(٣) ينظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال: ٦٧ ـ بتصرف ـ.

(٤) وفرض الكفاية عند الإمام الشاطبي لا يجب على الجماعة بأسرها، بل يُفرَض على من يتأهل للقيام به، خلافاً لجمهور أهل العلم، الذين يرون أن الأمر والنهي فرض على الأمة كلها، ويقولون بسقوطه عنها إذا قام به بعض أفرادها: (ينظر: الموافقات: ١/١٧٦).

المتأهل وغيره»[1].

وملاك الأمر في فرض الأمر والنهي: أنه يتحتم على جميع المسلمين المشاركة في إقامة المعروف وإزالة المنكر، كل بحسب علمه، وطاقته، وجهته؛ فلا نقول: إنه فرض عين؛ بمعنى أن المنكر إذا وُجد وجب على كل الناس أن يهبوا لإنكاره. وإذا لم ينكروا أثموا؛ فهذا أمر متعذر، وحَسْبُ بعض المنكرات؛ كالغش والاحتكار، أن ينتصب لإزالتها فرد أو عدة أفراد.

ولا نقول: إنه فرض كفاية، إذا قام به طائفة سقط عن الباقين، أو إذا قام به طائفة لم يلزم غيرهم القيام به؛ إذ يتعذر على هذه الطائفة أن تحتسب على جميع الأفراد دائماً، وأن توجههم وتنصح لهم، وتأخذ بهم إلى قصد الطريق في جميع الأحوال والملابسات، ذلك بأن المنكرات التي يشاهدها عامة الناس؛ كمنكرات البيوت والطرقات، قد تكون أكثر من المنكرات التى تشاهدها تلك الطائفة المتميزة بطول باع في الشريعة، ومعرفة دقيقة لمواطن القول وأساليب العمل!

وكذا فإن الأمر والنهي فى المعروفات الظاهرة؛ كالصلاة والصيام، والمنكرات الصريحة؛ كالخمر والزنا، يستطيعه كل مسلم يعرف الأمور المعلومة من الدين ضرورة، فلا يحتاج لأداء واجبه فى الأمر والنهي إلى كفاية علمية ممتازة؛ وإنما يحتاج إلى عزيمة في جلب الخير لغيره ودفع الشر عنه، متى قدر على ذلك، ومن ثم يجب على كل مؤمن صادق، لا تأخذه في الله لومة لائم، أن ينهض بأعباء هذه المهمة العظيمة، كلما دعت الضرورة إلى ذلك؛ لئلا يتعطل الهدى وتهمل دعوة الحق.

❋ ❋ ❋

(١) الموافقات: ١/١٧٦ (التعليق الثاني) ـ بتصرف ـ.

المطلب الثاني: دحض شبهة إهماله

تبين مما تقدم، أن الأمر والنهي مفروضان على جميع المسلمين، وأن فرضيتهما تختلف باختلاف الأحوال؛ لكن يبدو أن بعض الناس في الصدر الأول توهم عدم وجوبهما والترخص في تركهما، تأويلا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ الآية[1]. فظاهر هذه الآية يوهم بأن الإنسان يكون مهتدياً إذا اقتصر على إصلاح نفسه، وإن ترك السعي لإصلاح غيره، وقد أزال أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا الوهم من أذهان الناس، ونفى الشبهة عن الآية، فقال في خطبة له على منبر رسول الله عليه السلام: «أيها الناس! إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ الآية» وإنا سمعنا النبي يقول: «**إن النَّاس إذا رأوا الظالِم؛ فلم يأخُذوا على يَديه؛ أوشِك أن يَعُمهم الله بِعقاب**»[2]، وفي رواية أخرى: «أيها الناس! إنكم لتتلون آية من كتاب الله، وتعدونها رخصة. واللهِ، ما أنزل الله في كتابه أشد منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ الآية. والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليعمنكم الله منه بعقاب»[3]. وما ذكره الصديق ظاهر، فإن الله تعالى قال: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾؛ أي: «التزموها واقبلوا عليها، ومن مصالح النفس فعل ما أُمرت به من الأمر والنهي، وقال ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ وإنما يتم الاهتداء؛ إذا أطيع الله، وأدى الواجب من الأمر والنهي، وغيرهما»[4]، فإذا أدى الآمر الواجب، لم يضره ضلال الضالين[5]. ويعضد هذا المعنى الصحيح للآية، قول صاحب الأضواء

---

(١) المائدة من الآية: ١٠٥.

(٢) رواه أبو داود في الملاحم رقم: ٤٣٣٨: (صحيح سننه: ٣٥/٣). ورواه ابن ماجة، بلفظ مقارب، في الفتن رقم ٣٢٥٢: (صحيح سننه: ٣١٢/٣) والترمذي في الفتن. رقم ٢١٦٨: (صحيح السنن: ٤٥٩/٢).

(٣) رواه الطبري، بإسناده، عن قيس بن حازم، في جامع البيان: ٩٩/٧/٥.

(٤) التفسير الكبير: ٦٧/٤.

(٥) مجموع الفتاوى: ٧٥/٢٨/١٤.

عند تفسيرها: «قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده، فلم يقبل منه المأمور، وذلك في قوله: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾؛ لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد»(١).

وكذلك قول أبي السعود: «ولا يُتَوهمن أن فيه رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتهما، كيف لا؟ ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر، حسبما تفي به الطاقة»(٢). وقريب منه قول الجصاص: «ومن الاهتداء اتباع أمر الله في أنفسنا وفي غيرنا، فلا دلالة فيها إذن على سقوط فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(٣).

وإذا كانت هذه الآية لا تنفي وجوب الأمر بالمعروف أبداً، بل تؤكد فرضيته أبلغ تأكيد، فإن هناك أحاديث أُذن فيها للآمر والناهي ـ صراحة ـ بترك الأمر والنهي، إذا اشتد البلاء، وغلب الفساد والشر على أحوال الناس، حتى لا يبقى لهم إصغاء إلى البر؛ ومن ذلك ما أخرجه أبو داود، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**كيفَ بكُم بزَمان، يُغربَل الناس فيه غَربَلة؛ تَبقى حُثالة من الناس؛ قد مَرَجت عهُودهم، وأماناتُهم، واختلفوا؛ فكانوا هكذا**» ـ وشبك بين أصابعه ـ فقالوا: وكيف بنا يا رسول الله؟ قال: «**تأخُذون ما تَعرِفون! وتَذَرون ما تُنكِرون! وتُقبِلون على أمر خاصَّتكم، وتَذَرون أمر عامَّتكم**»(٤)، وفي رواية أخرى: «... قال ـ لعبدالله بن عمرو ـ: «**الزَم بيتَك، وامْلِك عليك لِسانك، وخُذ بِما تعرِف، ودَع ما تُنكر، وعليك بأمر خَاصَّة نَفسِك، ودَع عنك أمرَ العامة**»(٥). ولعل هذا الحديث يفسره الحديث المشهور في السنن، عن أبي سعيد الخدري،

(١) أضواء البيان: ١٥١/٢.
(٢) إرشاد العقل السليم: ٨٨/٢.
(٣) أحكام القرآن: ٤٨٦/٢.
(٤) صحيح سنن أبي داود: ٣٧/٣، في الملاحم، رقم ٤٣٤٢.
(٥) المصدر نفسه، حديث رقم ٤٣٤٣.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رَأى منكُم مُنكرا فاستَطاع أن يُغَيره بِيده، فليُغَيره بيده، فإن لم يستَطِع؛ فبلسانه، فإن لم يَستطِع؛ فبقَلبِه وذلك أضْعَفُ الإيمان**»[١] فإذا قوي أهل الفجور وطغوا، سقط التغيير باللسان في هذه الحال، وبقي بالقلب، وهو آخر حدود الإيمان، وإلى هذه الرخصة، أشار شارح سنن أبي داود في قوله: «هذا ـ أي: الحديث المتقدم ـ رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كثر الأشرار وضعف الأخيار»[٢] ومن ثم فترك الأمر والنهي في مثل هذه الأحوال إنما هو مباح، لا واجب، ولا مندوب؛ إذ يسع الإنسان أن يهجر الدنيا زمن الفتنة، ويقطع صلته بالناس، للحفاظ على دينه وإيمانه، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ: «**لا يَنبغي للمُؤمِن أن يُذِل نفسَه**» قالوا: وكيف يُذِل نفسَه؟ قال: «**يَتعَرض من البَلاء لما لا يُطيقُه**»[٣]، ولكن أولو العزم والهمم لا يسلكون في الأمر والنهي طريقة الرخصة، كراهة الابتلاء ومخافة على النفس والمال؛ لأن ذلك طريق شرعته الشريعة لضعفاء الإيمان[٤]، الذين يخشون على حياتهم وأرزاقهم، ولا يطيقون إعلاء كلمة الحق وفل شوكة الباطل، أما هؤلاء الأقوياء في إيمانهم، فيتركون حظوظهم لحق الله، ويصبرون على الأذى في ذات الله، ويتصدون للبلاء والفتن، حين لايبقى من الدنيا إلا بلاء وفتنة، حتى يأتي أمر الله. وقد أنبأنا الصادق عليه السلام بظهور طائفة ـ في آخر عهود هذه الأمة ـ تحافظ على الدين في صورته الصحيحة، وتتصدى للفتن التي ستشرئب بأعناقها ضد الإسلام، فقال عليه السلام: «**. . . ولَن تَزال هذه الأمَّة قَائِمة عَلى أَمرِ الله، لا يَضرُّهم من خَالَفَهم حتى يَأتي أمْرُ الله**»[٥]، وفي

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة: ٣١٤/٣ في الفتن، رقم ٣٢٥٨، وصحيح سنن أبي داود: ٣٦/٣ في الملاحم، رقم ٤٣٤٠، وصحيح سنن الترمذي: ٤٦١/٢ في الفتن، رقم ٢١٧٢.

(٢) عون المعبود لمحمد أشرف العظيم آبادي: ٢١٧/٤، نقلاً عن كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للعمري/١٦١.

(٣) رواه ابن ماجة في الفتن، رقم ٣٢٥٩، عن حذيفة (صحيح السنن: ٣١٥/٣).

(٤) كما دل عليه حديث أبي سعيد رضي الله عنه المتقدم.

(٥) سبق تخريجه.

رواية: «**لا تَزال طائِفة من أُمَّتي ظاهِرين حَتى يَأتيهم أمرُ الله وهُم ظاهِرون**»(١).

ومن أجل سمو مكانة هذه الطائفة القائمة بأمر الله، الذين يهمهم إنقاذ غيرهم، ولا يجوزون لأنفسهم العزلة عن مجتمعهم زمن الفتنة؛ تطابقت الأحاديث على أفضلية الصدع بكلمة الحق، ومخالطة الناس والصبر على أذاهم؛ ومن ذلك ما جاء عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضَل الجِهاد، كلمةُ عدلٍ عند سُلطان جائِر**»(٢) وعن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله: «**المؤمِن الذي يُخالِط الناس، ويَصبِر على أذاهُم، أعظَمُ أجرًا من المُؤمِن الذي لا يُخالِط الناس، ولا يَصبِر على أذاهم**»(٣). فتبين أن هؤلاء هم أفضل الناس جهادا وأعظمهم أجراً؛ لأنهم يعرضون أنفسهم للهلاك من أجل ضمان حيوية الأمة وبقائها، فإذا هم أهملوا مسؤوليتهم الاجتماعية بالعزلة، وعدم الصبر على المخالطة، وإهمال الأمر والنهي على سبيل الرخصة؛ تقطعت أسباب الرجاء عن إصلاح الأمة، وانقطعت عنها رحمة الله، وتعرضت للهلاك.

ومن أجل هذا، أقسم الله تعالى أن تارك الأمر بالمعروف في خسر في قوله: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾(٤)، ولعن سبحانه بني إسرائيل وذمهم بتضييعه، ونجى الناهين عن السوء من عذابه، في قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾(٥)، وقوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه ابن ماجة في الفتن، رقم ٣٢٥٦: (صحيح السنن: ٣/٣١٤) وأبو داود في الملاحم، رقم ٤٣٤٤: (صحيح السنن: ٣/٣٧).
(٣) رواه ابن ماجة في الفتن، رقم ٣٢٧٣: (صحيح السنن: ٣/٣٢٠).
(٤) تقدمت الآيات.
(٥) المائدة/٧٨، ٧٩.

وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾[(١)]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾[(٢)] ولولا أن القيام بالأمر والنهي واجب، لما بعث الله العقاب، ومنع إجابة الدعاء بتركه، كما في حديث حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ، قال: «**والذي نَفسي بِيده؛ لتأمُرن بالمَعروف، ولتَنْهون عن المنكر، أو ليُوشِكن الله أن يَبعَث عليكُم عِقابا مِنه، ثم تَدْعُونه؛ فلا يُستجابُ لكم**»[(٣)]، وفي حديث جرير؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِن قَوم يعمل فيهم بالمَعاصي - هم أَعز مِنهم وأَمنَع - لا يُغيرون، إلا عمَّهم الله بعِقاب**»[(٤)].

ومن هنا، نحصل: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة افترضها الله على عباده لإقامة هذا الدين الحنيف وصيانته، وهي فريضة لا ينبغي أن تُهمَل، وإن اندلعت نيران الفتن، ونكد الزمان وتغيرت الأحوال؛ لأن إهمالها يحرم الأمة كلها ثمراتها الطيبة، ويعرضها لعقاب الله.

---

(١) المائدة/٦٢، ٦٣.

(٢) الأعراف/١٦٥.

(٣) رواه الترمذي في الفتن، رقم ٢١٦٩: (صحيح السنن: ٢/٤٦٠).

(٤) رواه ابن ماجة في الفتن، رقم ٣٢٥٤: (صحيح السنن: ٣/٣١٣). وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن عقاب الله، من نقص الأنفس والأموال والثمرات، وغلبة الأعداء؛ إنما ينزل بالأمم إذا فشت فيهم الفواحش، وظهرت المنكرات، بسبب عدم إنكارهم؛ فقال عليه السلام: «**لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع... ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم... ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم...**»: (رواه ابن ماجة في الفتن، رقم ٣٢٦٢، عن عبدالله بن عمر).



المبحث الثاني: شروطه

لما كان مقصود الدين الأعظم من القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو الدعوة إلى سبيل الله وإقامة الدين، وبعثه، وتقويمه؛ كان القيام بهذه الفريضة المهمة مشروطاً ـ في الغالب ـ بشروط، رغم ما يقتضيه عمومها من الوجوب على كل حال، ويمكن تمثلها فيما نطالعه في سياق آيات الأمر، من مصطلحات تكتنز بداخلها ما يحتاج إليه الأمر والنهي لإقامة المعروفات ومحو المنكرات، وهي:

المطلب الأول: الإيمان

لقد نطقت نصوص الأمر والنهي بأن الأمة التي تسودها شعب الإيمان وأخلاق الإسلام، تهب إلى الأمر بها، والنهي عما يضادها، حرصاً على مميزاتها وأثرها في سعادة الإنسان، وفي قوة الأمة كلها؛ فقال تعالى في سياق الأمر التكليفي للجماعة المسلمة بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المستفاد من آية آل عمران: ١٠٢: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾...[1]، ثم قال في لحاقه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ

---

(١) آل عمران/١٠٢، ١٠٣.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾[١]. فدلت الآيات على أن المعتصمين بالوحدة وترك التفرق والاختلاف مؤمنون ومسلمون، وأن المتفرقين في الدين كافرون ومشركون. وورود آية التكليف بالأمر والنهي عقب قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يقرر ـ بجلاء ـ وجوب الاعتصام والنهي عن التفرق، وإناطة الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأمة قوية ومتحدة، تتحقق فيها صفة الإيمان والإسلام؛ والإيمان يقتضي تصديق الله فيما أخبر، والإسلام يستلزم طاعته فيما أمر، وذلك هو سبيل الله، الذي أمرنا تعالى بسلوكه، لنكون مسلمين، ولنموت مسلمين. وإلى هذه الصفة الرفيعة أشار تعالى في قوله، منوها بدعوة الدعاة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[٢].

وعلى مثل هذه الصفات الإيمانية، تنتصب **«خير أمة»** للقيام بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تمتاز بها على كل أمة أو ملة أخرى في العالم، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ الآية[٣]. فمنصب هذه الأمة الرفيع: **«خير أمة»** لا ينفك عن إيمانها بالله[٤]؛ لأن الإيمان هو الذي يضع الميزان الصحيح للقيم، والتحديد الصحيح للمعروف والمنكر، عند اضطراب الموازين واختلال التصورات، كما أن الإيمان هو الزاد الصحيح، الذي يتزود منه الدعاة إلى الله، ويستندون إليه في مواجهة عوامل الشر والفساد؛ فلا جرم أن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صنوا للإيمان، وخصيصة بارزة من خصائص المؤمنين التي لا يمكن أن يصدق لهم إيمان بدونها، فإن فقدوا هذه الخصيصة، سُلبوا ثوب عزتهم وعظمتهم، ولم يبق أي فرق بينهم وبين غيرهم من أمم العالم. وعليه تلا عمر بن الخطاب هذه الآية الكريمة في حِجة، فقال: «**يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله**

---

(١) آل عمران: ١٠٥.

(٢) فصلت: ٣٣.

(٣) آل عمران من الآية: ١١٠.

(٤) مضى بيان دلالة تأخره عن الأمر والنهي ضمن دراسة ضميمة «الأمر بالمعروف».

منها»[١]، وفسرها مجاهد؛ فقال: **«كنتم خير الناس للناس على هذا الشرط، أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتؤمنوا بالله»**[٢] فالإيمان، كما يشعر به هذا القول، هو شرطُ شرطِ الخيرية. ومعياره المطلوب له، ليس هو تكميل النفس فحسب بتطهيرها من المعاصي، وسوقها إلى الإيمان بالله والإخلاص له في العبادة؛ وإنما الإيمان الحقيقي هو الذي ينقذ البشرية المشرفة على الهلاك، ويحدث في القلب كراهية للكفر وتألما من المنكر.

وكما وصف سبحانه الأمة المسلمة **«بخير أمة»** لأنها تأمر وتنهى وتؤمن؛ وصف كذلك المؤمنين من أهل الكتاب **«بأمة قائمة»**، وأثنى عليهم، في آية آل عمران: ١١٤؛ لأنهم يتلون كتاب الله، ويعبدون الله تعالى، و﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٣]، ونوه بإيمانهم في موضع آخر، بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية[٤]، مما يدل على أن الإيمان الصادق لهذه الأمة الخيرة من أهل الكتاب يقتضي ـ إضافة إلى تكميل النفس بفضائل الإيمان ـ حمل الرسالة، وهداية البشرية، وتلك مزية لم تُعرف لأكثر أهل الكتاب الكافرين في عهد نزول القرآن؛ إذ جحدوا الدين الحق، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، ولم يؤمنوا بآخر المرسلين؛ ولكن هذه الطائفة المستثناة منهم لم تزل على سبيل الحق قائمة، وبربها مؤمنة إيماناً صادقاً، حققته في انضمامها للصف المسلم، وقيامها بتكاليف الإيمان، وحراسة هذا الدين. وبذلك حققت سمة **«خير أمة»** التي انضمت إليها، وانصهرت في جسدها. وقد جلى تعالى سمة الخيرية في هذه الأمة بذكر المؤمنين والمؤمنات[٥] بأخص أوصافهم وأقواها دلالة على صحة

---

(١) جامع البيان: ٤٣/٤/٣.
(٢) المصدر نفسه: ٤٤/٤/٣.
(٣) تراجع دلالة ورود الإيمان متقدماً على الأمر والنهي ضمن مبحث الضمائم.
(٤) آل عمران من الآية: ١٩٩.
(٥) وورود هذا الوصف في آية التوبة بصيغة اسم الفاعل يدل على تلبس المؤمن بحلية الإيمان، حتى كان بها أجمل منعوت وموصوف.

عقيدتهم، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال مفتتحا بها أوصاف عباده: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية[1] وقال عن أوصاف أعدائه من المنافقين: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ الآية[2]. فعُلم من هاتين الآيتين أن الأمر والنهي إنما يكونان حيث يكون إيمان، ولا يكونان حيث يكون نفاق؛ ذلك بأن الإيمان يستلزم الولاية في الدين، واتفاق الكلمة، والنصرة، والقوة؛ فالمؤمن ولي المؤمن، وبه يتقوى؛ لأن قلبه موصول بقوة الله. أما النفاق فيستلزم تفرقاً عن السبيل المستقيم، وشتاتاً في الروح والفكر، وضعفا عن المواجهة، وتقاعساً عن النجدة. والمنافق للمنافق، كما قال القشيري: «أس به قوامه، وأصل به قيامه، يعينه على فساده، ويغمي عليه طريق رشاده»[3]. وقد نطقت الآية الأولى بأن الولاية بين المؤمنين قائمة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونطقت الآية الأخرى بأن المنافقين لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض، رغم اجتماعهم على النفاق، ودعواهم في الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾[4]. ولهذا كان التعاون بينهم وثيقاً في مجال الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، تبعاً لقلوبهم المنحرفة وأخلاقهم المنتكسة، التي ألفت الظلام ونفرت من النور!

ومن هنا، كان الفصل بين طوائف المؤمنين وطوائف المنافقين واجباً من واجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حذراً من عدوى أهل المنكر أن تصيب أهل المعروف، فكانت الولاية والألفة قائمة على أساس المبادئ المحبوبة بين أهل كل طائفة، وكانت الولاية، بمعنى السلطان، أمراً مفروضاً لأهل المعروف على أهل المنكر، ولا ولاية لفاسق على

(١) التوبة من الآية: ٧١.
(٢) التوبة من الآية: ٦٧.
(٣) لطائف الإشارات: ٤٣/٢.
(٤) التوبة من الآية: ٥٦.

مؤمن صالح، وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصدر قوة للإيمان، كما كان الإيمان مصدر قوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل منهما يدعم الآخر ويسنده[١]، بما بينهما من وثاقة وقوة هي في أصلها قوة الإسلام.

واعتباراً بهذه العلاقة المكينة بينهما، فإن الإيمان يسعى دائما إلى إبقاء هذا الانعزال بين الفريقين المتناقضين، ويعتبر الصلة الوحيدة التي يجب أن تقوم بين الفريقين هي صلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا صلة المودة والمؤاكلة والمشاربة، بل إن الإسلام الواجب بين المؤمنين لا يكون بين المؤمن والفاسق، الذي يشيع المنكرات، وإلى هذا المعنى أشار الحديث المتقدم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ: «**مَن رَأى مِنكُم مُنكَراً فاستَطاع أن يُغيره بِيده، فليُغيره بيده، فإن لم يَستَطع؛ فبلِسانه، فإن لم يَستَطِع؛ فبِقلبه، وذلكَ أَضعَفُ الإيمَان**»، وفي رواية: «**ولَيس وَرَاء ذَلك مِن الإيمان حَبَّة خَردَل**»[٢]. فخصائص الإيمان إذن هي استعمال القوة البدنية والمعنوية في منع المنكر؛ فإن عجز المؤمن، فليعلن على رؤوس الأشهاد سخطه له، وسخط الله على المنكر الظاهر، فإن عجز؛ أنكر بقلبه، والإنكار بالقلب هو الكراهة الشديدة من القلب للمنكر وفاعليه، كراهة حقة يعلمها الله من القلب، لا مجرد دعوى بلا أثر!

ومع كون هذه المرتبة الأخيرة من مراتب تغيير المنكر أضعف الإيمان؛ لأنها لا تقضي قضاء مبرماً على المنكر؛ فإنها قوة للإيمان من وجه آخر، هو عزل الفاسقين واعتبارهم بمنزلة المنبوذين، وفي ذلك ضمان لعدم تسرب عَدواهم إلى الغير، كما أن هذا العزل فضح لأعمال المنكر وأهله، قد يوقظ الضمائر ويدفع إلى التوبة.

---

(١) ولعل ذلك هو السر في ورود الإيمان على ذلك النظم من التقديم والتأخير، إزاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) كذا رواه مسلم في الإيمان برقم ٨٠، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وللصلة الوثيقة بين الإيمان والأمر والنهي، ذيل به تعالى أوصاف عباده في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ فتبين أن المؤمنين هم الموصوفون بهذه الأوصاف، التي جاءت على أحسن ترتيب؛ إذ بدأهم ـ أولاً ـ بما يخصهم في أنفسهم، وهو التوبة، والعبادة، والحمد، والسياحة في سبيل الله، والركوع، والسجود له. ثم بما يخصهم لغيرهم، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بما شمل ما يخصهم في أنفسهم وما يتعدى إلى غيرهم، وهو الحفظ لحدود الله، والإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

ومما يشهد لهذه الصلة أيضاً، مجيء التواصي بالحق والصبر والمرحمة، الذي عبر به تعالى عن عمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عقب الإيمان والعمل الصالح، في قوله تعالى في سورة العصر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾(١)، وقوله في سورة البلد: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾(٢). وبهذه الوصايا الثلاث: التواصي بإقامة الدين، والثبات على الصراط المستقيم، والتواصي بالرحمة، تكتمل الصورة الوضيئة للمؤمن الصادق، كما تكتمل مقومات المجتمع المسلم المتعاون.

وانسجاماً مع ما تقدم، يتضح أنه لا يوجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كان الإيمان لازماً له، وذلك يعني: أن للمؤمن وحده أن يقوم بعمل الأمر والنهي؛ لأنه أهل له، ومسؤول عنه لنصرة الدين. أما غير المؤمن، فلا يقوم به، ولا يطالب بأدائه؛ لأنه خارج عن الإيمان، وجاحد لأصل الدين، وجاهل بالمعروف والمنكر، اللذين يحددهما هذا الدين. . . ! ولعل هذا الوجه في اشتراط الإيمان، يشير إليه قول الغزالي: «هذا ـ أي

---

(١) وآياتها ثلاثة.

(٢) البلد/١٧.

الأمر والنهي ـ نصرة للدين، فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعَدُو له؟!»[١].

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني: الولاية

بينا فيما تقدم، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الأمة بأسرها، وثابت لآحاد المسلمين، غير أن وجوبه وثبوته يتعين، من باب أولى وأحرى، على ولي الأمر السلطان[٢]؛ إذ هو أولى الناس بوجوب الجهاد في سبيل الله، وأحقهم بنصر الله ورسوله، وإقامة دين الله، وإظهار شريعة رسول الله، وحمل الناس على متابعتها، فمن أراد أن يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف في هذه الشريعة «كان السلطان أحق بمنعه بما أمره الله به ورسوله»[٣]. ويعضد ذلك ورود فرض الأمر والنهي مقرونا بالنهي عن التفرق والاختلاف، في لحاق آية آل عمران: ١٠٤، مما يدل ـ عدا ما تقدم ـ على أن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتطلب الحكم والسلطة، كما تقتضي الدعوة والتبليغ، والسلطنة مما تستوجب الاتحاد والاتفاق من غير شك؛ فإن الأمة التي مُنيت بالتفرق والتشتت لا يحق لها أن تُمكن في أرض الله، فيسلط عليها من يستعبدها، ويحرمها حق اتباع النظام السياسي الذي ترتضيه، وتنفيذه وإقامته. وإلى هذه الحقيقة أشارت الآية الكريمة، وأشار الغزالي عند بيان وجه اتصالها بما قبلها؛ حيث قال: «إنه تعالى لما أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك مما لا يتم إلا إذا كان الآمر بالمعروف قادراً على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتعالين، ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل

---

(١) إحياء علوم الدين: ٢/٣١٢.

(٢) وهو أحد صنفي ولاة الأمور، بالمعنى الاصطلاحي القرآني، كما هدى إليه تعريف ضميمة «أولي الأمر» في مبحث الضمائم.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٤/٢٧/٢٣٤.

الحق والدين؛ لا جرم حذرهم تعالى من الفرقة والاختلاف لكي لا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف»[١]. فالبلوغ ـ إذن ـ بواجب الأمر والنهي إلى غايته لا بد له من الاقتدار والسلطة، مما لا يحصل و لا يدوم بدون الاتحاد والتآلف، يقول سيد قطب: «إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى... سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر... سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله»[٢]، ويقول في موضع آخر: «...وتحقيق منهج الله في حياة البشر يقتضي سلطة «تأمر» بالمعروف و«تنهى» عن المنكر... فتطاع»[٣]. وقد جعل الله إطاعتها من إطاعة الله ورسوله، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ الآية[٤].

ومما يشهد لحاجة الأمر والنهي إلى السلطة أيضاً، اقترانهما بالتمكين، الذي فُسر «بالسلطنة ونفاذ الأمر على الخلق»[٥]، وذلك في قوله تعالى، في أفراد الرعيل الأول من هذه الأمة، بعد الإذن لهم بقتال المعتدين عليهم، وقبل إنعامه عليهم بالتمكين: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾...[٦]. فبينت الآية أن هؤلاء الموعودين بالنصر[٧]، إذا سُلطوا على شيء من الأرض، وتملكوا مقاليد الأمور؛ أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر؛ أي: أقاموا دعوة الحق، التي حملوا لواءها بصورة علمية، ونفذوها بصورة عملية في واقع الناس. ومن ثم، فهذه الآية جديرة بأن تسمى منشور الدولة الإسلامية، بوحي من

(١) مفاتيح الغيب: ١٨٥/٨/٤.
(٢) في الظلال: ٢٧/٢.
(٣) المرجع نفسه: ٢٨/٢.
(٤) النساء من الآية: ٥٩.
(٥) البحر: ٥١٨/٧ ومفاتيح الغيب: ٤٢/٢٢/١١ والتحرير: ٢٨٠/١٧.
(٦) الحج/٤١.
(٧) بدلالة الآية قبلها: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾: الحج من الآية: ٤٠.

سياقها[١]، فإنها تعلن الوظائف الأساسية للدولة التي تقيمها الجماعة المسلمة، بعد تملكها زمام الأمور. وإليه أشار النسفي بقوله: «هو إخبار من الله عما ستكون عليه سيرة المهاجرين إن مكنهم الله في الأرض وبسط لهم الدنيا وكيف يقومون بأمر الدين»[٢]. وفسر الطبري هذا القيام في جانبه السياسي والاجتماعي، فقال: «﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول: ودعوا الناس إلى توحيد الله، والعمل بطاعته، وما يعرفه أهل الإيمان بالله ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يقول: ونهوا عن الشرك بالله والعمل بمعاصيه، والذي ينكره أهل الحق والإيمان بالله»[٣]، وقال القرطبي، ضمن حديثه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد، وإنما يقوم به السلطان؛ إذ كانت إقامة الحدود إليه، والتعزير إلى رأيه، والحبس والإطلاق له، والنفي والتغريب؛ فينصب في كل بلدة رجلا صالحا قويا أمينا، ويأمره بذلك، ويمضي الحدود على وجهها من غير زيادة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية»[٤].

وهكذا يتبين من وصف القرآن لحكومة المؤمنين، أن الأمر والنهي، فضلاً عن كونه سبباً من أسباب تثبيتها ونصرها، هو من أبرز أعمالها، بل هو كل عملها، وغاية كل شعبة من شعبها. يقول ابن تيمية ـ بتفصيل ـ: «والولايات كلها: الدينية؛ مثل إمرة المؤمنين، وما دونها من ملك، ووزارة، وديوانية، سواء كانت كتابة خطاب أو كتابة حساب لمستخرج أو مصروف في أرزاق المقاتلة أو غيرهم؛ ومثل إمارة حرب وقضاء وحسبة... وفروع هذه الولايات إنما شرعت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٥]؛ وذلك بأن «جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي، فالأمر الذي بعث الله به

---

(١) وقد أوضحنا عند دراسة ضميمة «الأمر بالمعروف» أن الآية لا تختص بالذين سيقت فيهم، بل هي تعم جميع طبقات الأمة في كل الأعصار.
(٢) تفسير النسفي: ١٠٤/٢، وكذلك البحر: ٥١٨/٧.
(٣) جامع البيان: ١٧٨/١٧/١٠.
(٤) الجامع للأحكام: ٤٧/٤.
(٥) الحسبة في الإسلام: ص ٢٥.

رسوله هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر، وهذا نعت النبي والمؤمنين»[١]. ولهذا أحدث أئمة المسلمين ولاية الحسبة[٢] وجعلوها كوظيفة القضاء، وظيفة عامة كبرى، يتولاها موظف كبير مختص، يسمى «المحتسب» وله أعوان وجند. وإليها أشار ابن خلدون بقوله: «أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلاً له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة»[٣].

---

(١) المصدر نفسه/٣٧.

(٢) الحِسبة أو الاحتساب اسم يتناول كل عمل إصلاحي يقوم به صاحبه ابتغاء وجه الله، ثم أصبح (اصطلاحاً) يطلق على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من حيث إنه عمل إصلاحي، وفعل خير يقوم به صاحبه احتساباً وإيماناً، لا يبتغي عليه من أحد جزاء ولا شكوراً. وقد كان المسلمون، في خير القرون، يحتسبون على الله كل شيء: الكلمة الطيبة، والنية الصالحة، وإماطة الأذى عن الطريق، وسقي الظمآن، وإغاثة اللهفان، وتعليم الجاهل، وتقويم المائل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بحكم ما فرض الله عليهم من التواصي بالحق، والتعاون على البر والتقوى. وكان في المسلمين ناس جعلوا لله حظا من أنفسهم وأوقاتهم وجهودهم في احتساب الخير عنده؛ يتبرعون بنصحهم وجهودهم في الأسواق، أو الطوارئ والمناسبات، يقومون في الناس يخدمونهم أو يحرسونهم، أو يعاونونهم أو يهدونهم، وكان عمر رضي الله عنه يطوف السوق بدرته، فيمنع إرهاق الدواب بالأحمال الثقال، ويمنع الزحام، والغش، وسد الطرق، ويمنع الجهلة من ممارسة ما لا يحسنون من معاملات وبيوع، ويقول: «لا يبيعن في سوقنا إلا من يفقه».
وما زال أمر الناس على هذا في احتساب الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى ترامى امتداد الدولة الإسلامية، وبعُد المنبع والعهد، وطال على الناس الأمد، ففترت الهمم ولكل شرة فترة، وشُغل الناس بحاجة أنفسهم وعاجل دنياهم، وكانوا أمة يسعى بذمتهم أدناهم، فاحتيج إلى من يقوم بحق الله وأمره، ويحرس حدوده، ويحمي تعاليمه، فعُين ولاة للنظر في مراعاة أحكام الشرع ومدى تطبيقها، في كافة الشؤون والحياة العامة: (يراجع في ذلك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعبدالستار/٢٨، ٢٩ ـ بتصرف ـ).

(٣) مقدمة ابن خلدون/٢٢٥.

وقد ترتب عن انتصاب أفراد الحكومة الإسلامية للاحتساب و انتدابهم إليه، القدرة على إزالة المنكر وتغييره في الحال، والسرعة في إقامة المعروف، وإعزاز سلطان الشرع، وخضوع الناس له رغباً أو رهباً، مما ضبط حياتهم على ميزان الشرع، ونقاها من المنكر والبغي، وجعلهم يعيشون دهراً طويلاً في سعادة وأمن.

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوجب على ذوي السلطان من غيرهم، لأنهم أقدر على الاضطلاع به أكثر من غيرهم، والقدرة هي مناط الأمر والنهي؛ فإن ذلك لا يمنع أفراد الرعية من الاحتساب عليهم ومناصحتهم، وتذكيرهم، ووعظهم، إذا تركوا المعروف، وأخذوا في ارتكاب المنكر، مصداقاً لقول رسول الله عليه السلام: «**الدِّينُ النَّصيحة**» ـ ثلاثاً ـ قلنا: لمن يا رسول الله، قال: «**لله، ولكِتابه، ولرَسوله، ولأئِمة المُسلِمين، وعَامَّتهم**»[1] وقول عبادة بن الصامت: «بايَعْنا رسول الله على السَّمع والطَّاعَة في العُسر، واليُسر، والمنْشَط، والمَكْره، وعلى أَثَرة علينا، وعلى ألا نُنازِع الأمر أَهله، وعلى أن نَقُول الحق أيْنَما كُنا، لا نَخاف في الله لَومَة لائِم»[2].

ومن هنا، نحصل أن عمل الأمر والنهي يحتاج إلى السلطة والقوة، لتنفيذ المعروف، وحظر المنكر. ومن ثم كان هذا العمل طابع الحكومة الإسلامية الأصيلة، وغرضها المنشود، الذي وُجدت له، ومُكن لها في الأرض بسببه، ولأجله، وكان على أفرادها الحاكمين أن يأمروا بما أمر الله، وينهوا عما نهى الله، وعلى كل واحد، ممن عليه طاعتهم أن يطيعهم في طاعة الله، ولا يطيعهم في معصية الله، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين تولى أمر المسلمين وخطبهم، فقال: «أيها الناس، القوي فيكم الضعيف عندي، حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم القوي عندي حتى

---

(١) تقدم تخريجه: ص ٢٦٠، هامش ١.

(٢) رواه مسلم في الإمارة برقم ٤١، ورواه البخاري في الأحكام ـ بلفظ مقارب ـ رقم ٧٢٠٠، عن عبادة بن الصامت.

آخذ له الحق، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عندكم»[١]. ولذا كان المسلمون في الصدر الأول وبعده يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر، فعلم أن عمل الأمر والنهي لا يختص بالحكام، وإن كانت القوة والإمارة لازمة له؛ لأنها تنظمه، بل يجوز لآحاد الرعية بالقول والفعل، كما صرح بذلك رسول الله عليه السلام في حديث أبي سعيد رضي الله عنه المتقدم، ودلت عليه آيات الأمر والنهي.

***

المطلب الثالث: العلم

تبين فيما تقدم[٢]، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى علم بالمعروف وإظهاره، وعلم بالمنكر وإنكاره؛ إذ «الأمر بالشيء مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلم المعروف، لا يمكنه الأمر به، والنهي عن المنكر مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلمه لا يمكنه النهي عنه»[٣]. وهذا العلم قد يكون ضروريا، فيستوي فيه العالم والجاهل، ويختص بالمعروفات المعلومة والمنكرات المشهورة، وقد يكون نظريا؛ فيتفرد به خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه، وهم المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[٤]. يقول صاحب التحرير: «والمعروف والمنكر إن كانا ضروريين، كان لكل مسلم أن يأمر وينهى فيهما، وإن كانا نظريين، فإنما يقوم بالأمر والنهي فيهما أهل العلم»[٥]. ومن

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٤/٢٨/٩٧.
(٢) ينظر: المطلب الأول من المبحث الأول.
(٣) التفسير الكبير: ٥/٣٠٥.
(٤) التوبة من الآية: ١٢٢.
(٥) التحرير: ٤/٤١.

مزايا هؤلاء الخواص[١]: بيان ما في دقائق الأقوال والأفعال من المنكر والفساد بالحجج القوية، ودفع ما يعارض به أصحابها من الحجج، وكذا تطبيق أحكام الله تعالى على مصالح العباد في كل زمان ومكان، على قدر علمهم واجتهادهم.

وهذا اللون العلمي الاستدلالي من تبليغ الدين، أحد وجوه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد انتهجه الرسول عليه السلام بمكة، امتثالاً لما كُلِّفه من الأمر بالعرف؛ أي المعروف، في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الآية[٢]. فالنبي عليه السلام كان يعرض الدين على الناس، مدعماً بالحجج القوية، وكان يوصيهم بالإيمان بالله ورسوله، وهو يرد على الاعتراضات التي يوجهها الكفار إليه؛ يلتمسون بها عيب الوحي والموحى إليه، كما يحتج بالدلائل الواضحة على أن الدين الذي جاء به هو الحق، وأن دين الشرك هو الباطل، فعلم من ذلك أن الداعي إلى الله، يحتاج في دعوته إلى بصيرة ونظر، واستقلال بالجدال، ودقة في المقال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[٣]، أي: «على يقين وبرهان عقلي وشرعي»[٤]، فلا بد للداعية إذن، من معرفة المعروف والمنكر، والتمييز بينهما بوضوح، ثم تبليغهما للناس في نصاعة بيان وقوة برهان. ويستلزم العلم بالمأمور به من المعروف والمنهي عنه من المنكر، العلم بحال المأمور والمنهي، وبمقام نصحهما؛ فإن الجاهل «قد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً، أو على من الإنكار عليه عبث»[٥]. وقد أمر الله نبيه المصطفى بالحكمة وحسن الأسلوب واللطافة، مع إيضاح الحق، فقال:

---

(١) وهم الصنف الآخر من «أولي الأمر»، كما تبين من تعريف هذه الضميمة.

(٢) الأعراف من الآية: ١٩٩.

(٣) يوسف من الآية: ١٠٨.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤٧٧/٢.

(٥) الكشاف: ٤٥٢/١.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾...[١] وقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[٢]، وأمر كليمه موسى عليه السلام في خطاب الطاغية فرعون بالقول اللين، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[٣].

وورد في الحديث الصحيح مدح الرفق وذم العنف، كما في قوله ﷺ: **«إن الرِّفق لا يكُون في شيء إلا زَانه ولا يُنزع مِن شيء إلا شَانَه»**[٤]، وقوله: **«إن الله رَفيق يُحب الرِّفق، ويُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العُنف وما لا يُعطي على مَا سِواه»**[٥].

وقال الإمام أحمد، فيما رواه الخلال عنه، وذكره بعض السلف: «لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى»[٦].

ومن مجموع هذه النصوص، يتبين أن الدعاة يحتاجون إلى المداراة والرفق في أمرهم ونهيهم للناس، لأن ذلك أقرب للقبول وأدعى للإجابة؛ فإن النفوس مجبولة على سماع الكلام الطيب، الذي يُظهر الشفقة على المأمور. ومن ثم فهي تلين بالقول اللين، ولا تلين بالقسوة، والعنف، والخرق، إلا نفساً متمردة، ومعلن صاحبها بالفسق، فيجب نهيه بغلظة «لأنه ليس لفاسق حُرمة»[٧].

---

(١) النحل من الآية: ١٢٥.
(٢) فصلت/٣٤.
(٣) طه/٤٤.
(٤) رواه مسلم في البر والصلة، برقم ٧٧، عن عائشة رضي الله عنها.
(٥) رواه مسلم في الكتاب نفسه، برقم ٧٨، عن عائشة ـ أيضاً ـ.
(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/٤٦.
(٧) المصدر نفسه/٤٧.



المبحث الثالث:

مراتبه

لقد تبين فيما تقدم من تعريف ضميمة الأمر بالمعروف، أن عمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واسع الأطراف، ومتشعب الجوانب، ومتكامل الغايات؛ فإنه يتناول دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى دين الله عز وجل، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، كما يتناول أيضاً إرشاد المسلمين بعضهم بعضا إلى كل خير، وتواصيهم وتناصحهم فيما بينهم بالمعروف، من كل واجب أو مندوب، وتناهيهم عن المنكر، من كل محرم أو مكروه.

ومن هنا، فإن القيام بهذين العملين، اللذين يجسدان فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يتحتم على الأمة المسلمة في داخلها وخارجها جميعاً، وذلك تبعاً لمرتبة المعروف والمنكر في سلم شرع الله، وحال المأمور والمنهي من الإيمان وعدمه؛ فيُدعى الذين لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر أول ما يُدعون إلى دين الله عز وجل؛ ذلك بأن «**رأس المعروف هو التوحيد، ورأس المنكر هو الشرك**»[1]. ومن ثم فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولاً إلى تقرير ألوهية الله وحده، والدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٤/٢٧/٢٣٤.

أمروا، والنهي عن المنكر يجب أن يتجه ابتداء إلى الزجر عن عبادة غير الله، ومحاربة الكفر وجهاده.

ثم يعنى الذين آمنوا بالله وأطاعوه، وأظهروا دينه على الدين كله، بإرشاد بعضهم بعضاً إلى كل ما أمر الله به ونهى عنه؛ وذلك يتضمن تربيتهم لأنفسهم وتنظيمهم لها في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي، مما يؤلف بين قلوبهم ويحفظ وحدتهم ويمنع فُرقَتهم، وعلى هذه التربية والتنظيم مدار نجاح الدعوة وإخفاقها، فإن كان التنظيم محكماً والتربية سليمة؛ أفلحت الدعوة، وإلا كان الفشل مصيرها المحتوم. ولذلك كان بين دعوة الناس إلى الإسلام، وتربية المجتمع المسلم، وتنظيمه لذاته وتقويمه لانحرافاته؛ رباط وثيق، يقوم على التلاحم والتكامل، فلا توجد التربية بدون الدعوة، وبالعكس؛ فمن المحال بلوغ الدعوة إلى غايتها المنشودة، من غير تربية وتنظيم.

وانطلاقاً من هذا الترتيب المتكامل في عمل الدعوة والأمر والنهي، نبسط مجاري القول في مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باستصحاب ما تفيده سياقات ورودهما في بعض آياتهما المتقدمة، وما تشير إليه أقوال المفسرين الشارحة لها.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول: مرتبة الدعوة والتبليغ

وهذه المرتبة من أسنى المراتب، التي ارتقى إليها الأنبياء والرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وأصفياء المؤمنين من أتباعهم، وهم يحثون الخطى بثبات ويقين في مسالك الدعوة إلى الله ومساربها الشاقة، ويعرجون فيها بإخلاص إلى تبليغ الدين القيم، وإظهاره على الدين كله. ولعل الآيات التي نسوق بعد تجسد ذلك بوضوح.

يقول تعالى بعد ذكر إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب ـ صلوات الله

عليهم ـ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الآية[١]. قال البغوي في تفسير الآية: «... يهدون بأمرنا: يدعون الناس إلى ديننا»[٢]. فتبين أن الإمامة في الدين إنما تكون للهداة بأمر الله أو الدعاة إلى دينه؛ وهذا العمل الدعوي، الذي ابتُعث له أولئك الأئمة، هو نفس العمل الذي قام به خاتم الأنبياء محمد عليه السلام بمكة؛ حيث صدع بكلمة التوحيد في بيئته المشركة، ودعا قومه إلى الإيمان بالله ورسوله وكتابه، ونهاهم عن الشرك وعبادة الأوثان والجحد بالرسالة. قال تعالى، آمراً نبيه بالصدع والدعوة في آيتي: الحجر: ٩٤ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ والشورى: ١٥ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾... وقال عن تكليفه الأمر بالمعروف في آية الأعراف: ١٩٩ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ ومن العرف في قول عطاء: «كلمة لا إله إلا الله»[٣]، ووصفه تعالى في نفس السورة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بمناسبة الكلام عن صفة متبعيه من اليهود، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية[٤]. وسياق الآية يشير إلى أن النبي عليه السلام يقوم بهذا العمل في بني إسرائيل، ولكن الواضح أنه لا يختص بهم وحدهم، بل هو عام في كل طائفة دعاها الرسول إلى الإسلام ـ يهودا كانوا أو نصارى، مشركين أم منافقين ـ؛ فإنه عليه السلام أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر. ومن أهم ذلك وأعظمه في قول ابن كثير: «ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله»[٥] وقريب من هذا المعنى، قول ابن جرير: «يأمر هذا النبي الأمي أتباعه بالمعروف، وهو الإيمان بالله ولزوم طاعته فيما

(١) الأنبياء من الآية: ٧٣.
(٢) معالم التنزيل: ٣٢٨/٢.
(٣) روح المعاني: ٢١٣/٦/١٠.
(٤) الأعراف من الآية: ١٥٧.
(٥) تفسير ابن كثير: ٢٤٣/٢.

أمر ونهى، فذلك المعروف الذي يأمرهم به. وينهاهم عن المنكر، وهو الشرك بالله، والانتهاء عما نهاهم الله عنه»[١].

وقد استعمل القرآن الكريم في التعبير عن هذه المهمة الدعوية التبليغية، التي أنيطت بسادة الخلق، مصطلحات «**الإبلاغ**»، و«**التذكير**»، و«**الإنذار**»، و«**التبشير**»، و«**الدعوة**» وغيرها، فقال تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام، فيما حكاه عنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾...[٣]، وقال لنبيه المصطفى عليه السلام: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[٤] وبدأه، ضمن قطرات الوحي الأولى، بهذه الكلمات الأمريات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾[٥]، فعلم أن «نفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر»[٦]، وأنه ليس من فرق بينهما من جهة التبليغ والدعوة، وبهذا اللفظ الذي يتضمن الأمر، عبر سبحانه عن دعوة النبي عليه السلام إلى الإيمان ـ أصل هذا الدين ـ في مثل قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾...[٧]، وفي مثل حديث وفد عبد قيس المتقدم[٨].

---

(١) جامع البيان: ٨٤/٩/٦.

(٢) الأعراف/٦١ ـ ٦٢. وقال تعالى، فيما أوجبه على رسله من مهمة التبليغ: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾: النحل من الآية: ٣٥.

(٣) يونس من الآية: ٧١.

(٤) البقرة من الآية: ١١٩. وكثيراً ما يرد لفظ الإنذار منفرداً أو مقترناً بلفظ التبشير، في وصف النبي ﷺ في القرآن الكريم، وذلك أن «**الإنذار: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور**»: (المفردات/نذر). وكلا الإخبارين وجه لمهمة واحدة، هي الدعوة إلى دين الله بالترغيب والترهيب، وذلك يتناول الأمر بالإيمان والنهي عن الكفر.

(٥) المدثر/١ ـ ٢.

(٦) مجموع الفتاوى: ٧٩/٢٨/١٤.

(٧) فاطر من الآية: ٢٤.

(٨) انظر ص٩٠، هامش ٣.

ولا شك أن هذه الدعوة، التي جرت عليها سنة الأنبياء والمرسلين، ودارت عليها غاية بعثتهم، كانت متحققة في أممهم وأتباعهم على مدارالتاريخ، ولعل أعظم أمة من الأمم قبلنا، «الأمة القائمة» من أهل الكتاب، فإنها آمنت برسالة محمد عليه السلام، وانخرطت في سلك أمته، وجهرت بدعوته، ولم تذهب مذهب الأكثرين في عداوة النبي والتكذيب برسالته، كما قال تعالى، منوها بعملها الدعوي والإصلاحي: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ . . .[(١)].

قال الطبري في تفسير الآية: «يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله، وتصديق محمد ﷺ، وما جاءهم به ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يقول: وينهون الناس عن الكفر بالله وتكذيب محمد، وما جاءهم به من عند الله»[(٢)]، وقال الجصاص: «صفة لهؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا بالله ورسوله، ودعوا الناس إلى تصديق النبي عليه السلام والإنكار على من خالفه. . .»[(٣)]. وللنهوض بهذه المهمة، أمر الله الأمة المسلمة في سورة آل عمران بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معاً، وكلاهما أريد به دعوة الناس إلى دين الله، والسعي إلى إظهاره وإقامته. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ . . . : ١٠٤ فالخير الذي كُلفت الأمة الإسلامية أن تدعو إليه العالمين هو الإسلام، الذي أنزله الله على محمد عليه السلام، في قول معظم المفسرين[(٤)]، وبين الله ذلك إيجاباً وسلباً بالأمر بالمعروف؛ أي: «باتباع محمد ودينه الذي جاء به من عند الله» والنهي عن المنكر؛ أي: «عن الكفر بالله، والتكذيب بمحمد، وبما جاء به من عند الله بجهادهم بالأيدي والجوارح. . .»[(٥)]. ومما

---

(١) آل عمران/١١٣ ـ ١١٤.

(٢) جامع البيان: ٥٦/٤/٣ وكذلك التصاريف/٢٠٣.

(٣) أحكام القرآن: ٣٥/٢.

(٤) انظر مثلاً، جامع البيان: ٣٨/٤/٣، والتحرير: ٤٠/٤/٣.

(٥) جامع البيان: ٣٨/٤/٣.

يدل على أن هذا التكليف تقوم به الأمة خارج جماعتها، قول الرازي في مناسبة الآية لما قبلها: «اعلم أنه تعالى في الآيات المتقدمة عاب أهل الكتاب على شيئين: (أحدهما) أنه عابهم على الكفر...، ثم بعد ذلك عابهم على سعيهم في إلقاء الغير في الكفر... فلما انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين، أمرهم أولا بالتقوى والإيمان... ثم أمرهم بالسعي في إلقاء الغير في الإيمان والطاعة»[(١)]. ومن أجل ذلك، تبوأت الأمة الإسلامية منصب ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ بصريح الآية الأخرى من آل عمران. فلفظ (أخرجت) يشي بأنه عمل الدعوة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقوم به الأمة الإسلامية في خارجها؛ فإنها أُخرجت لعمل معين تسعى لتحقيقه، وهو إصلاح الناس وهدايتهم إلى الحق. ولهذا قال أبو هريرة في بيان هذه الآية: «خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا الإسلام»[(٢)]، وقال ابن حجر في بيانه: «أي: خير بعض الناس لبعضهم، أي: أنفعهم لهم، وإنما كان ذلك لكونهم كانوا سببا في إسلامهم»[(٣)]. وقد عبر تعالى عن هذا الجانب الدعوي في عمل الأمر والنهي بمصطلح الشهادة على الناس، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾...[(٤)]. فالأمة الإسلامية لُقبت في هذه الآية «بأمة وسط»، ودل على مهمتها في الناس مصطلح **«الشهادة على الناس»**، كما لُقبت في الآية المتقدمة «بخير أمة»، ودل على تكميلها للناس مصطلح «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». ولا فرق بين الآيتين، فيما ترميان إليه؛ لأن خير أمة هي الأمة الوسط، التي تتجنب الإفراط والتفريط في فكرها وعملها، متمسكة بالقصد والاتزان في مضمار الحياة.

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٨٢/٨/٤. ومثله ما جاء في التصاريف/٢٠٣: «الأمر بالمعروف: بالتوحيد، والنهي عن المنكر: عن الشرك. وذلك قوله في آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾...».

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير، رقم ٤٥٥٧، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) فتح الباري: ٩١/٩.

(٤) البقرة من الآية: ١٤٣.

وشهادتها على الناس تستلزم في معناها: «بيان الرسالة المحمدية للناس، وتبليغها لهم، ودعوتهم إليها»[١]. وذلك هو رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي أخرجت له هذه الأمة إخراجاً!

ومن الواضح أن تكليف الأمة الإسلامية بالدعوة إلى الإسلام والزجر عن الكفر، لا يمكن أن يتم بمجرد مدح الإسلام وإطرائه، أو ذم الكفر وبيان عاقبته بين أيدي الناس، وإنما يتم إذا وقفت هذه الأمة نفسها لنشر الحق وجاهدت بالقوة لمحو الباطل، وجاد أبناؤها بحشاشة نفوسهم وضحوا برخاء عيشهم. ولهذا كان الجهاد، الذي يبتغى به مرضات الله وإعلاء كلمته، من ذيول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومتمماته، وإلى هذه العلاقة ألمع ابن تيمية بقوله: «...فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم الذي أُمرنا به...»[٢]، وكذلك الشاطبي في حديثه عن مشروعية القتال: «الجهاد الذي شُرع بالمدينة فرع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو مقرر بمكة»[٣]. ويقول عبدالله دراز، معلقا على كلامه: «بل هو أعلى فروعه»[٤]. ومما يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتناول دعوة الناس إلى الدين وقتالهم عليه، اقتران النصر والتمكين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في آيتي الحج: ٤٠، ٤١ ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾... فالله أمر المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح، وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الإيمان والعمل الصالح،

---

(١) ينظر في ذلك: مصطلح الشهادة على الناس وأبعاده الحضارية، عبدالمجيد النجار، الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية (ندوة علمية): ١/٣٠٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٤/٢٨/٧٣.

(٣) الموافقات: ٣/٥٠.

(٤) المصدر السابق.

ويؤيد ذلك قول القرطبي - عند تفسير آية آل عمران/٢١ - «إن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه»[1]، وكذلك قول الرازي في بيان المعروف والمنكر، بآية التوبة/١١٣: «رأس المعروف الإيمان بالله، ورأس المنكر: الكفر بالله، والجهاد يوجب الترغيب في الإيمان، والزجر عن الكفر، والجهاد داخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[2]. وإلى قريب من هذا المعنى، أشار ابن عباس - عند تفسير آية آل عمران/١١٠ - بقوله: «... تأمرونهم بالمعروف: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، والإقرار بما أنزل الله وتقاتلونهم عليه، ولا إله إلا الله هو أعظم المعروف، وتنهوهم عن المنكر، والمنكر هو التكذيب، وهو أنكر المنكر...»[3]. ويشهد لهذا التفسير، قول القفال: «تفضيلهم على الأمم الذين كانوا قبلهم، إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآكد الوجوه، وهو القتال؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد يكون بالقلب واللسان واليد، وأقواها ما يكون بالقتال، لأنه إلقاء النفس في خطر القتل، وأعرف المعروفات الدين الحق، والإيمان بالتوحيد والنبوة، وأنكر المنكرات الكفر بالله، فكان الجهاد في الدين تحملاً لأعظم المضار لغرض إيصال الغير إلى أعظم المنافع وتخليصه من أعظم المضار، فوجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات، ولما كان الجهاد في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع؛ لا جرم صار ذلك موجباً لفضل هذه الأمة على سائر الأمم...»[4].

ومن هنا، يتبين أن دعوة الناس إلى الإسلام، وزجرهم عن الكفر، هو الواجب الأوجب، الذي يجب أن يتجه إليه عمل الأمر والنهي، حتى قال أبو العالية، وهو من كبار التابعين: «كل ما ذكره الله في القرآن من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤٧/٤.
(٢) مفاتيح الغيب: ٢١٠/١٦/٨.
(٣) جامع البيان: ٤٥/٤/٣، وكذلك: ٣٩/١١/٧.
(٤) مفاتيح الغيب: ١٩٧/٨/٤.

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فالأمر بالمعروف دعاء من الشرك إلى الإسلام، والنهي عن المنكر النهي عن عبادة الأوثان والشياطين»[١]، كما يتبين أنه لا مندوحة لهذا العمل الدعوي عن الجهاد لتغليب الحق، والقضاء على الباطل. والجدير بالبيان هنا أن هذا الواجب الأوجب وإن اتجه، في الغالب، إلى الذين لم يؤمنوا بدين الله بعد، فإنه يتجه أيضاً إلى المؤمنين بهذا الدين، إن تزعزعت مبادئه في نفوسهم، وانحسر مفهومه في أذهانهم، وغُيبت تكاليفه من حياتهم؛ كما هو حال أكثرية المسلمين اليوم، من الذين يدعون الإيمان، ويتورطون في مزالق فكرية وعملية تنافي حقيقة الإيمان، حتى كادت صلتهم بالدين والإيمان وأمة الإسلام تنقطع؛ لولا أواصر العلاقات والعنصريات والطائفيات، وأدهى من ذلك وأمر، أن يوجد من هذه الأمة الشاهدة على الناس، أناس لا يرون غضاضة في الاستهزاء بالإسلام، ولا يترددون في النيل منه، ولا يردعهم حياء، ولا يرعون إلا ولا ذمة، وبديهي أن هؤلاء وأمثالهم يحتاجون ضرورة إلى من يخاطبهم بالدعوة إلى الدين، كما يحتاج إلى ذلك من يجحد هذا الدين من غير المسلمين.

❊ ❊ ❊

المطلب الثاني: مرتبة التربية والتنظيم

تبين فيما تقدم من آيات الأمر والنهي أن الشغل الأول للأنبياء وأممهم يتجه إلى تحقيق الألوهية لله، والتصديق بالرسالة، وإبطال ما يضاد ذلك. ولكن لا يغربن عن فهم المتأمل في هذه الآيات أن مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينحصر في هذا العمل الدعوي فحسب، بل يشمل أيضاً العمل التربوي والتنظيمي، كما تبين من سعة دلالة المعروف والمنكر وعموم معانيهما[٢]. ومن ثم، فإن من مهمة أولياء الله ودعاته أن يتوجهوا بعد قيام

(١) جامع البيان: ١٧٩/١٠/٦، تفسير آية التوبة / ٧٢.

(٢) يراجع في ذلك: مفهوم ضميمة «الأمر بالمعروف».

الأصل الأصيل إلى الأمر بالمعروفات الفرعية، والنهي عن المنكرات الفرعية، في العبادات، والأخلاق، والمعاملات، وفي سائر مناحي الحياة، بما يوطد بنيان المجتمع المسلم، ويدعم أركانه، ويصلح فساده، ويُنَظِّم شؤونه، وفق شريعة الله، ويَنْظم عقد وحدته، ويرسي قيم تراحمه...

وهكذا نجد القرآن الكريم يصرح في عمل الأنبياء التربوي والإصلاحي ببعض المعروفات الظاهرة، التي تنضوي في نطاق العبادات؛ كالصلاة والزكاة، وبمعروفات مفصلة تتعلق بالمواعظ والأحكام المبينة للحلال والحرام، والمصلحة للفساد. ومن ذلك ما جاء في صفة إسماعيل عليه السلام حيث قال تعالى مخبراً عن دعوته: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾[(١)]، وجاء في توجيه موسى عليه السلام إلى الأخذ بأشد ما أمر به قومه، قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾...[(٢)]، وجاء في سياق تأنيب موسى لأخيه على عصيان أمره له بإصلاح قومه، قوله تعالى على لسان موسى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾[(٣)]. والمراد بأمره ظاهراً، قوله تعالى فيما حكاه عنه: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[(٤)]. فعُلم أن إصلاح المفسدين[(٥)] في الجماعة المسلمة، ومنعهم من الإفساد،

---

(١) مريم/٥٥. فسر بعض المفسرين «الأهل» بعموم أمته، من حيث لزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة، وحمل الأمر على المفروض من الصلاة والزكاة: (انظر مفاتيح الغيب: ٢٣٣/٢١/١١، والجامع لأحكام القرآن: ١١٦/١١) وفسره آخرون بخصوص قرابته؛ لأنهم بالإحسان الديني أولى، كما قال تعالى لرسوله ﷺ، في آية طه: ١٣١ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾...: (ينظر: الكشاف: ٥١٣/٢ وتفسير ابن كثير: ١٢٣/٣).

(٢) الأعراف/١٤٥.

(٣) طه/٩٢ ـ ٩٣.

(٤) الأعراف/١٤٢.

(٥) وهم عبدة العجل في زمن موسى، كما أشار إلى ذلك قولهم، فيما أخبر به تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾: طه/٩١.

والإنكار عليهم أشد الإنكار، جزء من مهمة الأمر والنهي الشاملة، التي كُلفها الأنبياء وخلفاؤهم. وقد وجه سبحانه نبيه محمد ﷺ إلى إلزام أهله بالصلاة، جريا على سنن جده إسماعيل عليه السلام، فقال في أواسط العهد المكي: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية[1]، ووصفه في آية الأعراف المتقدمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك يتناول كل ما أمر النبي ﷺ بأخذه من الطاعات، ونهى عن فعله من المعاصي، وأمره ونهيه لا يختص بجانب دون جانب من جوانب الحياة؛ بل يتضمن - فضلاً عما تقدم - الإرشاد إلى القيام بصالح الأعمال، كالصلاة والزكاة... والحث على التحلي بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات؛ كصدق الحديث، وإحسان القِتلة، والزجر عن كل مكروه ومحضور من الأخلاق الفاسدة والمنكرات الفاحشة؛ كتزكية النفس، والكذب، والظلم، والفواحش، وإحلال كل خبيث، وتحريم كل طيب، وهذا الجانب التربوي والإصلاحي من عمل الأمر والنهي ملموح بوضوح في أحاديث نبوية عديدة؛ منها حديث أبي سفيان: «**ويأمرنا - أي: النبي - بالصلاة، والزكاة والصدق والعفاف...**»[2] وحديث البراء بن عازب: «أمرنا النبي ﷺ بسبع... أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس...»[3]، وحديث أنس أنه عليه السلام «أمر منادياً، فنادى في الناس: **إن الله ورسوله ينهاكم عن لحوم الحُمُر الأهلية، فإنها رجس**»[4] وحديث وفد عبد قيس: «ونهاهم عن أربع: **عن الحَنْتَم والدُّباء، والنقير والمُزَفَّت**...»[5]. وإلى هذا الجانب، التفت عطاء في تفسير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في آية الأعراف؛ حيث قال: «يأمرهم بالمعروف: بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. وينهاهم عن

---

(١) طه من الآية: ١٣٢.

(٢) تقدم تخريجه: ص ١٣٦ هامش ٢.

(٣) البخاري في الجنائز، برقم ١٢٣٩.

(٤) البخاري في الذبائح والصيد، برقم ٥٥٢٨.

(٥) البخاري في الإيمان، برقم ٥٣، عن ابن عباس رضي الله عنه.

المنكر: عن عبادة الأصنام، وقطع الأرحام»[1]. وقريب من هذا المعنى وأجمع، قول الرازي: «مجامع الأمر بالمعروف محصورة في قوله عليه السلام: «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله... وينهاهم عن المنكر، والمراد منه: أضداد الأمور المذكورة، وهي عبادة الأوثان، والقول في صفات الله بغير علم...، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين»[2].

كذلك نجد القرآن الكريم يشير، ضمن آيات الأمر والنهي الواصفة للمؤمنين، إلى إصلاح الأمة لنفسها، وتربيتها في داخلها، علاوة على قيامها بمهمتها الدعوية في غيرها من الأمم؛ لأنه من الواضح أنه لا يصح لها أن تأمر غيرها وتنهاه، إذا لم تُلْزم نفسها بالمعروف، ولم تنته هي عن المنكر. يقول القشيري في تفسير آية التوبة: ١١٢: «﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: هم الذين يدعون الخلق إلى الله، ويحذرونهم عن غير الله... يأمرون أنفسهم بالتزام الطاعات، بحملهم إياها على سنن الاستقامة، وينهون أنفسهم عن اتباع المنى والشهوات...»[3]، ويقول الصاوي في تفسير آية آل عمران: ١١٠: «قوله (للناس): إنما عبر باللام دون «من» إشارة إلى أن هذه الأمة نفع ورحمة لنفسها وللخلق عموما في الدنيا... والآخرة...»[4]. ولا شك أن رحمة الأمة لنفسها هي إرشاد المسلمين بعضهم بعضا إلى كل خير ونفع وصلاح، وتآمرهم فيما بينهم بكل معروف، وتناهيهم عن كل منكر. وهذا العمل التربوي والتنظيمي له مسلكان، **أحدهما**: يقوم عليه خواص الأمة وأولي أمرها، من العلماء والأمراء. وعملهم من الأمر والنهي يتجه، كما بيناه في كلامنا عن شرطي الولاية والعلم، إلى إيضاح دين الله، وتطبيق أحكامه، بمراعاة أحوال الناس في كل زمان ومكان، وإقامة

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٩/٧.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٦/٤٥/٨.

(٣) لطائف الإشارات: ٦٨/٢.

(٤) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: ١٧٣/١.

المعروفات وإحياء السنن، ومحو المنكرات والبدع؛ الأمر الذي يُصْلِح الأمة ويربيها على الخضوع لشريعة الله، ويرشدها إلى مراقي الفلاح في عاجل أمرها وآجله. وعليه، فمن مهام العلماء الأمر بدقائق الأحكام، المتعلقة بالعبادات والمعاملات والحدود والجنايات. . .، والرد على الآراء المتهافتة والأفكار الفاسدة، التي تروج بين ضعفاء الإيمان ومتبعي السبل. ومن مهام الأمراء والسلاطين، الأمر بإقامة الحدود والتعزير، والضرب على أيدي الفاسقين والمبتدعين، وتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة؛ فلا يروا، ولا يسمعوا منكراً إلا غيروه، ولا يندثر معروف إلا أظهروه، وكلما وجب على فاسق حد أقاموه.

وثانيهما: يقوم عليه عوام الأمة وأفرادها، كل بحسب طاقته وهمته؛ فيكون بينهم ما يستلزمه الإيمان من الدلالة على الخير والنهي عن الشر، وكل ذلك من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، الذي أوصت به سورة العصر؛ فإن التواصي بالحق: «أن يوصي بعضهم بعضا بالحق، وهو: كل ما كان ضد الباطل، فيشمل عمل الطاعات، وترك المعاصي، أو الشريعة كلها، أصولها وفروعها، أمرها ونهيها، ماضيها وحاضرها»[1]. ومن التواصي بالحق، الذي يتصل بتربية الأمة وإصلاحها، وتوثيق أواصر الأخوة بين أفرادها، التوصية بالإنفاق في سبيل الله، والإصلاح بين الناس، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وحسن الجوار. . .

وإن التواصي بمثل هذه الطاعات وترك أضدادها لهو التواصي الحق، الذي يقيم الأمة على صراط الله المستقيم، وييسر لها سبل اتباعه والاستقامة عليه، لتنجو من الخسر، ويأتي عقبه «التواصي بالصبر» «لأنه بمثابة التثبيت على هذا الصراط المستقيم؛ إذ الصبر لازم لعمل الطاعات، كما هو لازم

---

(١) أضواء البيان: ٩/٥٠٣. راجع استقراء الشنقيطي للآيات المبينة للوصايا الجامعة لأبواب الخير، الموصدة لأبواب الشر، في العقائد، والعبادات، والمعاملات في الصفحتين التاليتين: ٩/٥٠٤، ٥٠٥.

لترك المنكرات»[١]. ومن الطاعات المتواصى بها بين العباد، الصدقة، والإصلاح بين الناس. وقد جردا من المعروف، واختصا بالذكر اهتماما، في قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ الآية[٢]. فالقصد من الآية التربية الاجتماعية للمسلمين[٣]؛ إذ جرى فيها ذكر النجوى[٤]، وهي من أشهر الأحوال العارضة للناس في مجتمعاتهم، وقد ذمها الله هنا، ونهى عنها في مواضع عديدة[٥]، واستثنى منها المحمود والمشروع، وهو ما يخوض فيه الناس من الحديث في أعمال الخير. وعليه، فمعنى الآية: «لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث إلا فيما كان من أعمال الخير»[٦] ونوه بثلاثة منها، وهي الأمر[٧] بالصدقة، والمعروف والإصلاح بين الناس.

فأما الصدقة، فقد ندب الرسول عليه السلام الأمة إلى نفع الخلق بها، والدلالة عليها، سواء كانت صدقة حسية أو معنوية، فقال عليه السلام عن

---

(١) المرجع نفسه: ٥٠٦/٩.

(٢) النساء من الآية: ١١٤.

(٣) وقد دعا إليها حادث مناجاة بعض قوم أبيرق السارق مع بعض لتدبير الخيانة وتبييتها؛ مما أشارت إليه الآيات السابقة. والآية عامة في حق جميع الناس: (ينظر: مفاتيح الغيب: ٤٢/١١/٦ والجامع للأحكام: ٣٨٢/٥ والتحرير: ١٩٨/٥ والكنز الأكبر/٣٩).

(٤) والنجوى مصدر يدل على «المسارة»، وهي مشتقة من «نجوت الشيء أنجوه؛ أي: أخلصته وأفردته. والنجوة من الأرض: المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله»: «(انظر: الصحاح/نجو) وتطلق النجوى على المناجين، وفي القرآن: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾: الإسراء من الآية: ٤٧ وهو وصف بالمصدر، والآية تحتمل المعنيين: (التحرير: ١٩٨/٥).

(٥) مثل آية المجادلة: ٩ ـ ١٠ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾....

(٦) مفاتيح الغيب: ٤٢/١١/٦.

(٧) لم يسم الله تعالى مسارة الخير للخيرين أمثاله نجوى، وإنما سماها أمراً، وإن كان لها شكل النجوى؛ لأن الباعث عليها هو ابتغاء مرضاة الله: (ينظر في الظلال: ٥٢٣/٢).

أبي موسى الأشعري: «**عَلى كُل مُسلِم صَدَقَة**». قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «**يعمَل بيدِيه فَينفَع نفسَه ويَتصدَّق**» قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يعِين ذا الحاجَة المَلهُوف**» قال: «**أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يأمُر بالخَير أو ـ قال ـ بالمَعرُوف**» قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فليُمسِك عن الشر فإنَّه له صَدقَة**»(١). قال ابن حجر: «**وفي الكلام إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر في الأمر المحسوس منه، فلا تختص بأهل اليسار مثلاً، بل كل واحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال بغير مشقة**»(٢)، وعن أبي ذر رضي الله عنه ـ عن النبي عليه السلام ـ أنه قال: «**يُصبِح على كل سُلامى من أَحَدِكم صَدَقة، فكل تَسبِيحة صَدَقة، وكُل تَحمِيدة صَدَقة، وكل تَهلِيلة صَدَقة، وكل تكبِيرة صَدقَة، وأمْرٌ بالمَعروف صَدَقة، ونَهيٌ عن المُنكر صَدَقة...**»(٣).

وأما المعروف، فيشمل أنواع البر كلها، كما تقدم تعريفه، «**ويندرج تحته الصدقة والإصلاح بين الناس**»(٤). قال عليه السلام: «**كُل مَعروفٍ صَدَقة**»(٥)؛ ومن ذلك ـ كما قال القشيري ـ **إنجاد الناس وإسعادهم، فيما لهم فيه قربة إلى الله وزلفى عنده**»(٦).

وأما الإصلاح بين الناس، فهو المرغب فيه، والمشار إليه، في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾(٧)، وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾(٨) ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن فضل الإصلاح، والدعاء إليه، ومن ذلك حديث سهل بن سعد

---

(١) البخاري في الأدب، رقم ٦٠٢٢.
(٢) فتح الباري: ٦٢/١٢، كتاب الأدب، رقم ٦٠٢٢.
(٣) مسلم في المسافرين. رقم ٨٤.
(٤) البحر المحيط: ٦٥/٤.
(٥) البخاري في الأدب، برقم ٦٠٢١، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه.
(٦) لطائف الإشارات: ٣٦٣/١.
(٧) الحجرات من الآية: ١٠.
(٨) الحجرات من الآية: ٩.

رضي الله عنه «أن أناساً من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي عليه السلام في أناس من أصحابه يصلح بينهم»[١]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «**كل سُلامى مِن النَّاس علَيه صَدَقة، كلَّ يوم تطلُع فيه الشَّمسُ، يَعْدِل بينَ الناس صَدَقة**»[٢].

وامتدادا لهذه النصوص التي تربي النفوس بالمنهج الرباني على المشاعر السامية الكريمة، في جو التكافل والتراحم، الذي ينمو فيه الخير ويقوى، ويضعف فيه الشر ويذوى؛ أمر القرآن الكريم الأمة الإسلامية بالتعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، فقال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ**﴾ الآية[٣]، وتعاون الأمة المسلمة في البر والتقوى، لا في الإثم والعدوان، يجعلها أمة قائمة على الحق؛ لا تنفعل بحمية الجاهلية ونعرة العصبية، ولا ترجح العدوان على التقوى في شنآن، والباطل على الحق في حلف على نصرة، بل تضبط مشاعر أفرادها على التسامي والتسامح، وتحتسب عليهم دائماً، وتشرع لهم طرق الفضيلة، وتوصد في وجوههم أبواب الرذيلة؛ فيتولد في قلوبهم من الحب للأولى والكراهية للأخرى ما يدفع عشرة منهم، إذا تجاسر أحد على اقتراف منكر، إلى أن يكفوه عنه، ويأخذوا به إلى قصد الطريق، فإن نصرة الإنسان ليست بإعانته على الصلاح فحسب، بل من نصرته أيضاً أن يُزجَر ويردع عن المضي في طريق الغي. ولذلك روي عن النبي عليه السلام، أنه قال: «**انصُر أخاك ظالِماً أو مَظلوماً**» فقال رَجل: يا رَسول الله، أنصُره إذا كان مَظلوماً، أفَرأيت إذَا كان ظالِماً كَيفَ أَنصُره؟ قال: «**تحجُزُه أو تَمنَعُه من الظُّلم فإن ذَلك نَصرُه**»[٤].

وانسجاماً مع مبدأ النصرة للأخوة المسلمة في البر والتقوى، الذي

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الصلح، برقم ٢٦٩٠.
(٢) البخاري في الصلح، برقم ٢٧٠٧.
(٣) المائدة من الآية: ٢.
(٤) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢)، عن أنس رضي الله عنه.

يستند إليه عمل إصلاح الأمة؛ عبر القرآن والسنة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل الأمة بكلمة «**النصح**»، وهي تدل في اللغة على «تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه»[(١)]، وتعم في القرآن الدعوة إلى الإيمان والإصلاح الخلقي والتربية الفكرية والعملية جميعاً، قال تعالى على لسان صالح: . . . ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾. . .[(٢)] وقال عن الضعفاء من المؤمنين: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. . .[(٣)]، وقال رسول الله ﷺ في حديثه الجامع لأمر الدين: «**الدين النصيحة**. . . الحديث»[(٤)] وقد أوضح النبي في هذا الحديث ما يثمره الإيمان بالدين في نفس الإنسان من مشاعر نبيلة بعبارة موجزة بليغة. وللنصح المذكور وجهان: (أحدهما) يتعلق بعقيدة الإنسان وتربية نفسه، والآخر يتعلق بمهمة الدعوة والتبليغ والإصلاح والتربية، التي يقوم بها المسلم في داخل الأمة وخارجها، وبذلك يبسط لنا هذا الحديث بإيجاز دين الله كله. ولهذا عنى به المحدثون عناية كبيرة، ومن أقوالهم في شرحه قول النووي: «أما النصيحة لله تعالى فمعناها منصرف إلى الإيمان به، ونفي الشريك عنه. . . والدعاء إلى جميع أوصاف طاعته، والحث عليها، والتلطف في جمع الناس أو من أمكن منهم عليها. . . ومن النصيحة لكتابه: نشر علومه والدعاء إليه. . .»[(٥)].

وأما النصيحة لرسوله، فيقول ابن حجر في شرحها: «والنصيحة لرسوله تعظيمه، ونصره حياً وميتاً، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها، والاقتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبته ومحبة أتباعه»[(٦)].

---

(١) المفردات / نصح. وهذا المعنى مأخوذ» من قولهم: نصحت الجلد، خطته. والناصح، الخياط»: (المصدر نفسه).
(٢) الأعراف من الآية: ٧٩. وقد صنفت نظائر هذه الآية، ضمن المطلب الأول، ودلت على مهمة الأنبياء الدعوية.
(٣) التوبة من الآية: ٩١.
(٤) تقدم ذكره وتخريجه.
(٥) شرح صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة: ٣٨/٢.
(٦) فتح الباري: ١٨٨/١، كتاب الإيمان، رقم ٥٧.

«وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، أو لم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم. . .

وأما النصيحة لعامة المسلمين. . . فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم وسد خلاتهم، . . . وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه من المكروه؛ والذب عن أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة وتنشيط هممهم إلى الطاعات»(١).

وكان من اهتمام النبي ﷺ بالنصح للمسلمين، أنه بايع عليه أصحابه، وألزمهم به، وأخذ عليهم ميثاقا وعهداً، فروي عن جرير بن عبدالله أنه قال: **«بايعت رسول الله على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»**(٢).

ومن هنا، تتضح أهمية فريضة النصح للمسلمين في إصلاح الأمة وجمع شملها، كما يجمع الخياط الجلد وينصحه، فيصبح كل فرد من أفراد المجتمع ناصحاً لغيره ومصلحاً له؛ فيسعى الحاكم إلى إصلاح المحكوم، ويحاول المحكوم إصلاح الحاكم، ويُحكم الغني قبضته على مواطن ضعف الفقير، وينبه الفقير على مكامن داء الغني، ويُلفت العالم إلى أخطاء الجاهل، ويدل الجاهل على عيوب العالم، ويشيع هكذا في الأمة كلها جو من النصح والتعاون على البر، يمكن معه إصلاح ذاتها، وتكميل نفسها.

وفي ضوء ما سبق، نسلتهم أن الداعية إلى الله في هذا الزمان الأغبر ـ الذي أصبح فيه الدين أشد غربة منه في أول ظهوره، والمسلمون غرباء

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٣٨/٢ ـ ٣٩.

(٢) رواه البخاري في الإيمان، برقم ٥٧.

مضطهدون - ينبغي له أن يتدرج مع مراتب الأمر والنهي، في دعوته الدينية والخلقية، ويحذو حذو الأنبياء وخلفائهم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة؛ فيتجه في أمره بالمعروف إلى المعروف الأكبر، وهو تقرير التصور الاعتقادي الصحيح في جانب ألوهية الله سبحانه وصفاته وأسمائه، ويتجه في نهيه عن المنكر إلى المنكر الأكبر، وهو الشرك في ربوبية الله وحاكميته، وتعبيد الناس لحكم الطاغوت، والحكم بغير شريعة الله. فإذا تم له ذلك، وجب عليه أن يأمر إخوته في الإسلام باتباع أمر الله وسنة رسوله، وأن يعنى بإصلاح شعائر دينهم، وتزكية نفوسهم، وتقويم سلوكهم وأخلاقهم، وتنظيم حياتهم وفق مقتضى واقعهم، كما فعل النبي عليه السلام من قبل، حين أنشأ مجتمع الإسلام على أنقاض مجتمع الجاهلية. فهل يقتدي دعاتنا بهداه العظيم، ويترسموا خطاه الحكيمة في عمله الدعوي والتربوي؟





المبحث الرابع:

صفات الآمر والناهي

لقد وصف الله تعالى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، من الرسل والأنبياء والصلحاء الأتقياء، بصفات إيمانية جليلة، شكلت مجتمعة الفضائل والكمالات، التي حققوها ابتداء في أنفسهم قبل أن يدعو إليها غيرهم، لتكميلهم وإسعادهم؛ فكانوا بحق أول القائمين بالمعروف والعاملين به، وأول الراغبين عن المنكر والتاركين له؛ ذلك بأن هذا الدين لم يقم قط على أيدي قائلين غير فاعلين وواعظين غير متعظين! ولهذا وردت هذه الصفات الحميدة في جل الآيات المتقدمة، متعلقة بعمل المؤمنين في أنفسهم، ومقترنة بعملهم الدعوي في غيرهم، وذلك يدل على أن المؤمن الصادق هو الذي يقوم بعبادة الله في نفسه، ويتجاوز ذلك إلى النصح لخلقه. ومن أذكر هذه الصفات التي يتحلى بها الآمر والناهي إقامة الصلاة، والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر، والصبر، والعفو والإعراض.

***

المطلب الأول: إقامة الصلاة

لما كانت الصلاة من أوثق العرى التي تصل المؤمن بالله، وتفعله لعمل الطاعات وترك المعاصي، كانت أول شغل الأنبياء وخلفائهم؛

يستمدون من روحها زاد الدعوة إلى الله، ويستجمعون من قوتها كل طاقات الكمال لمحاربة الفساد. ومن ثم فإن الصفات الرفيعة التي لا بدَّ منها للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إنما هي تنشأ بالصلاة، وتتحفز بذكر الله، فلا يتمكن من القيام به حق القيام إلا من لم تغره الدنيا بمباهجها، ولم ينغمس في شهواتها؛ بل رآها دار الامتحان ومزرعة الآخرة، وقضى حياته كأنه مسؤول عن كل صغير وكبير أمام الله، وابتغى من وراء كل عمل ثواب الآخرة ومرضاة الله؛ ومن تغلغل في أحشائه حب الله، وملك عليه شغاف قلبه ولب مشاعره وعقله، وكل جوارحه؛ ومن انصرف عن كل ما يلهو به اللاّهون عن الله، واستنكف عن الفحشاء والمنكر والبغي. ولهذا أعلن القرآن الكريم أن مصدر هذه الصفات والفضائل هي الصلاة، وذلك في ختام العنكبوت: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1].

ونظراً للصلة المتينة بين إقامة الصلاة والدعوة إلى الله، أورد الله تعالى كلا منهما مصاحباً للآخر، مصاحبة تحتل منها الصلاة مكان الصدارة في معظم المواطن، فلقن سبحانه نبيه ـ سيد الدعاة ـ أول ما لقنه ذكر الصلاة، في سياق تقرير قضية الإيمان، والرد على العادلين بربهم الأصنام، حيث قال في خاتمة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[2]. وأخبر تعالى عن وصية لقمان لابنه، مزاوجا بين الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في قوله: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية[3] فتبين من تزاوجهما في هذه الوصية الحكيمة، أنهما عنوانان لتكميل الذات وتكميل الغير. قال الألوسي: «﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلاً لنفسك... ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك»[4]، ووصف تعالى الكملة من

---

(١) العنكبوت من الآية: ٤٥.
(٢) الأنعام/ ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٣) لقمان من الآية: ١٧.
(٤) روح المعاني: ١٣٥/١٢.

المؤمنين بالركوع والسجود لله، وهما مظهران لإقامة الصلاة، وأعقبهما بصفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث قال في آية التوبة: ١١٢ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية.

وأضاف سبحانه إلى هذين الوصفين: إيتاء الزكاة، عقب أول ما نزل من الإذن للمؤمنين في قتال من يقاتلونهم ويعادونهم في الدين، فقال في آية الحج: ٤١ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية[1]. فعلم أن نصر الله لأوليائه مشروط بالإتيان بهذه التكاليف الثلاثة، وقد وردت مجتمعة كذلك في سياق إبراز أخص أوصاف المؤمنين، التي يمتازون بها على المنافقين، في آية التوبة: ٧١ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية قال الألوسي، موضحاً أهمية الصلاة والزكاة في تزكية نفس المؤمن: «... فالصلاة والزكاة علاج لما في جبلة الإنسان من الهلع والجبن الناجم له عن الإقدام في الدفاع عن الحق وإعلاء كلمة الله، ومن الشح الصاد له عن الإنفاق في سبيل الله...»[2]. ومن ثم، فإن المؤمن حقاً بالله، والداعي إلى سبيله، هو الذي عبد الله ووثَّق صلته به، وذكره بالقلب واللسان، وأدى حق المال، وانتصر على شح النفس، والصلاة إنما شُرعت وجُعلت عماد الدين؛ ليلهج لسان المؤمن دوماً بذكر الله، وترسخ في نفسه ملكة المراقبة لله تعالى، في جُملة أحواله وأعماله، ومنها الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبهذا تبرز أهمية الصلاة لمن هب لمحاربة المنكر وإذاعة المعروف.

***

(١) والمقصود بهذا الإذن قوله تعالى في سياق آية الحج/٣٩ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

(٢) المنار: ٥٤٣/١٠.

المطلب الثاني:
الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر

من البين أن أبلغ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتجه أولاً إلى الفعل، فيكون الآمر مؤتمراً بما يأمر به غيره، منتهيا عما ينهى عنه غيره، وإلى هذه الصفة أشار القشيري في لطيفة من لطائف تفسيره؛ حيث قال: «الأمر بالمعروف يكون بالقول، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تنهى عنه، واشتغالك واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك، ومن لا حكم له على نفسه لا ينفذ حكمه على غيره»[١]. وقال في موضع آخر: «وشرط الآمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف، وحق الناهي عن المنكر أن يكون منصرفا عن المنكر»[٢]. وقد أوضح القرآن الكريم أن من أشنع التلاعب بالدين، أن تدعو الناس إليه بقولك وتخالفه بعملك، فإن ذلك يمس بكرامة الدين، وينال من قداسته، فضلا عن كونه يسقط فائدة القول، ويجعله بلا وزن ولا تأثير. ومن ثم نعى سبحانه على الذين يأمرون الناس بالبر، مع الغفلة عن أنفسهم وعدم تذكيرها بذلك، فقال سبحانه: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٣]، وقال في موضع آخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[٤]، وحكى تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام أنه صرح لقومه بأنه إذا نهاهم عن شيء انتهى هو عنه، وأن فعله لا يخالف قوله، فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾...[٥].

---

(١) لطائف الإشارات: ٣/١٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ١/٢٧٠.

(٣) البقرة/٤٤.

(٤) الصف/٢ ـ ٣.

(٥) هود من الآية: ٨٨.

وفي الصحيحين، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي عليه السلام قال: «**يُجاء بالرَّجل يومَ القيامة فيُلقى في النار، فتندَلِق أَقْتابه في النار، فيَدور كما يدور الحمار برَحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيَقولون: أي فُلان ما شَأنك؟ أليس كُنْتَ تأمُرنا بالمَعروف وتَنهانا عَن المُنكر؟ قال: كُنْتُ آمُركم بالمَعروف ولا آتيه، وأَنهاكُم عن المُنكر وآتيه**»[1].

ومن هنا، يتبين أن حال الذي يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، حال منكرة مذمومة، بسبب تركه الطاعة وفعله المعصية، مع علمه بهما ودعوته إليهما على بصيرة. ولا ريب في أنها حال كل عالم من علماء الدين المحترفين للدين، في كل أمة أعلنت الفساد، وجاهرت بالفسق، كما هو واضح من مناسبة نزول آية البقرة[2]. وما أحسن ما عاب سيد قطب سلوكهم، إذ قال: «إن آفة رجال الدين ـ حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة ـ أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون إلى البر ويهملونه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء من يملكون المال أوالسلطان، كما كان يفعل أحبار يهود»[3]، وأضاف مبرزاً أثر هذا السلوك المشين في نفوس المدعوين: «والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم، ولكن في الدعوات ذاتها، وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم؛ لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً، فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل، وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة، وينطفئ في قلوبهم

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق، برقم ٣٢٦٧، عن أسامة رضي الله عنه.

(٢) والآية، وإن كانت نزلت في أحبار اليهود خاصة، فإن لفظها عام، وسياقها سياق توبيخ عام، لا يخص قوماً دون قوم، ولا يعني جيلاً دون جيل، بل يعني، بتوجيه من خبر النزول، حال الأمم عند فسادها عامة، وفساد أرباب أديانها خاصة.

(٣) في الظلال: ١/٨٤.

النور الذي يشعه الإيمان، ولا يعودون يثقون في الدين، بعدما فقدوا ثقتهم برجال الدين»[١].

وأدق من هذا الكلام وأحسن وأجمع، قول الحق سبحانه، منوها بالدعوة إلى الله، ومزاوجا بينها وبين العمل الصالح: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الآية[٢].

المطلب الثالث: الصبر

بُين فيما تقدم، أن الصبر لازم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ذلك بأن هذه الطاعة لا يُطيق القيام بها رجل جزوع هلوع، يخاف على نفسه ويكترث لسلامته؛ وإنما يقدر عليها من قوي على مكابدة الشدائد، والثبات على الدين، مهما توالت المحن، وتراكمت الفتن. ومن هنا، حث الله عز وجل على الصبر في كتابه[٣]، وأمر به، ومدح أهله، وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إليه، وجعلها ثمرة له. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٤] ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[٥]، وقال: ... ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[٦]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٧]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[٨] فأنالهم

---

(١) في الظلال: ١/٨٤ ـ ٨٥.
(٢) فصلت من الآية ٣٢.
(٣) ذكر الله سبحانه الصبر في كتابه في نحو من سبعين موضعاً من القرآن: (ينظر بعض موارده، في الكنز الأكبر/٤٧٧ ـ ٤٨٠).
(٤) البقرة من الآية: ٤٥.
(٥) الأنفال من الآية: ٤٦.
(٦) البقرة/١٥٥ ـ ١٥٧.
(٧) الزمر من الآية: ١١.
(٨) السجدة/٢٤.

سبحانه إمامة الدين بالصبر واليقين. وفي الصحيحين، من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال لقوم سألوه: «ولَن تُعطُوا عطاءً خَيرا وأَوسَع من الصَّبر»[١]، وبين عليه السلام أن أعظم الأجر مع الصبر على البلاء، واحتمال أذى الناس، حيث قال: **«عظم الجَزاء مع عظَم البَلاء، وإنَّ الله إذا أَحب قَوْما ابْتَلاهم. فَمَن رَضِي؛ فله الرضا، ومَن سَخِط؛ فله السخط»**[٢]؛ وقال: **«المؤمِن الذِي يُخالط الناس، ويَصْبر على أذاهم، أعْظَم أجرًا مِن المؤمِن الذي لا يُخالط الناس، ولا يصبِر على أذاهُم»**[٣]، وقال علي بن أبي طالب، مبيناً منزلة الصبر من الإيمان: «اعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألا وإنه لا إيمان لمن لا صبر له»[٤]. وإذا كان الصبر بهذا الفضل والمنزلة؛ لاجرم أن كان الآمر والناهي أولى به وأحوج إليه من غيره، فيما يصيبه بسبب أمره ونهيه؛ ذلك بأن الصبر ـ كما يقول الغزالي ـ: «مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السالكين»[٥]، لهذا ذكره الله تعالى في كتابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بمنطوقه ومفهومه، مشفوعا بمدد الصبر، فقال سبحانه، فيما يحكيه عن لقمان الحكيم: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٦]. قال المفسرون: «لما نهى لقمان ابنه عن الشرك، وأخبر ـ ثانياً ـ بعلم الله تعالى وباهر قدرته، أمره بما يتوصل به إليه تعالى من الطاعات؛ فبدأ بأشرفها وهو الصلاة. . .، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن جميعها، وعلى ما يصيبه بسبب الأمر بالمعروف، ممن يبعثه عليه، والنهي عن المنكر ممن ينكره عليه، فكثيراً ما يؤذي فاعله». وقال الواحدي: «وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف

---

(١) البخاري في الرقائق، رقم ٤١٠٣، عن أنس بن مالك.
(٢) صحيح سنن ابن ماجة: ٣/٣٢٠. كتاب الفتن رقم ٤١٠٣، عن أنس بن مالك.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) ذم الهوى/٥٩.
(٥) إحياء علوم الدين: ٤/٦٢.
(٦) لقمان/١٧.

والنهي عن المنكر، والصبر على المكروه. لا ينبغي أن يمنع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا أن يخاف مكروهاً لا يطاق»[١]. وقد أمر الله تعالى رسله وأنبياءه ـ وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأشد الناس بلاء ـ بالصبر على تكذيب أقوامهم وأثنى عليهم، وأنالهم النصر بسببه، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾...[٢]، وقال مخبراً عن قول رسله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾[٣]، وقال لخاتم الرسل عليه السلام في ثاني سورة أنزلت عليه بعد سورة «اقرأ»، التي بها نبئ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾[٤]؛ فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة، وختمها بالأمر بالصبر، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، كما تبين فيما تقدم، فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر[٥]. وقد جمع تعالى بينه وبين التقوى في مثل قوله: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[٦]. والمؤمنون كانوا يدعون إلى الإيمان بالله وما أمر به من المعروف، وينهون عما نهى الله عنه من المنكر، فيؤذيهم المشركون وأهل الكتاب، وقد أخبرهم بذلك قبل وقوعه، وقال لهم: ﴿وَإِن

---

(١) الكنز الأكبر/٤٨١.

(٢) الأنعام من الآية: ٣٤.

(٣) إبراهيم/١٢.

(٤) المدثر /١ ـ ٧.

(٥) وقد أمر نبينا بالصبر على أذى أعداء دعوته في مواضع كثيرة، عدا هذا الموضع؛ كالذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾...: الطور/٤٦، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾... ق/٣٩، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾...: الأحقاف/٣٥.

(٦) آل عمران/١٨٦.

تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾. والتقوى «تتضمن طاعة الله، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر يتناول الصبر على المصائب، التي منها أذى المأمور المنهي للآمر الناهي»[1]. ولهذا أمر الله المتقين من عباده في سورة العصر بالتواصي بالحق، مشفوعا بالتواصي بالصبر. والتواصي بالحق أن يدعو المؤمنون بعضهم بعضاً إلى الاستقامة على صراط الله المستقيم واتباعه، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغالباً من يقوم به يتعرض لأذى الناس، فلزمهم التواصي بالصبر، وهو أن يتحاضوا فيما بينهم على تحمل ما يلقونه من الشدائد في سبيل الاستقامة على الدين وتبليغه، وقد نوه الله بهؤلاء المستقيمين، وبَيَّن أنهم أحسن قولا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾، ثم بين أن منزلتهم هي منزلة الصبر، وأن من ارتفع إليها وسلك مسلكها ذو حظ عظيم، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾﴾[2].

وهكذا، يتبين أن الصبر على ما يُصاب به الآمر والناهي من أرفع مكارم الأخلاق، وأجل المقامات، وأحسن طرق العبادات، وأقوى عزائم أهل الخير السالكين طريق النجاة. ومما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام، أن صفة الصبر، كما تتناول صبر الآمر والناهي على الأذى عند إصلاح الغير، تتناول أيضاً صبره عن معاصي الله بترك هواه؛ لأن الذي لا يسعه أن يلجم شهواته، لا يمكنه إصلاح غيره أيضاً. قال ابن الجوزي: «... الصبر ينقسم قسمين: صبر عن المحبوب وصبر على المكروه. فالطاعة مفتقرة إلى الصبر عليها، والمعصية مفتقرة إلى الصبر عنها، ولما كانت النفس مجبولة على حب الهوى، فكانت بالطبع تسعى في طلبه، افتقرت

---

(١) التفسير الكبير: ١١١/٥.

(٢) فصلت/٣٥.

إلى حبسها عما تؤذي عاقبته. ولا يقدر على استعمال الصبر إلا من عرف عيب الهوى وتلمح عقبى الصبر، فحينئذ يهون عليه ما صبر عليه وعنه»(١). فالآمر والناهي يحتاج إلى الصبر على أذى الناس في القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا الصبر، كما صنفه الغزالي، من أعلى مراتب الصبر، لأن باعث الشهوة والغضب يتعاونان على باعث الدين(٢)، كما يحتاج أيضاً إلى الصبر عن المعصية؛ لأن الدعوة، كما تكون بالقول، تكون بالقدوة والخلق الحسن، فلا يستطيع أن ينتصب لها من لم ينه نفسه عما حرم الله عليها، ولم يصبر على مخالفة داعي هواه. وقد تجمعت مراتب الصبر وأقسامه في نفوس قادة الخلق، الأنبياء والصديقين والأولياء، وانعكست صوره المشرقة في مرآة حياتهم الدعوية، مجسدة براهين ناطقة بحبهم لله، وتفانيهم في تبليغ دعوته. والناظر في كلام الله عن رسله، وفي الآثار الواردة في سيرة النبي الكريم، يجد نماذج بشرية رفيعة، امتازوا بالجلَد، ورباطة الجأش، وقوة المراس؛ فتحملوا صابرين صنوف الأذى، ولم يثنهم شيء من ذلك عن تبليغ دعوة ربهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ومن ذلك ما قصه الله تعالى من خبر خليله عليه السلام مع قومه، حيث قال حكاية عن كيدهم برسول الله: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾(٣) وثبت في الصحيح، عن عبدالله، قال: «كأَنِّي أَنْظُر إلى رَسُول الله، وهو يَحكي نَبِياً من الأنبياء ضَرَبه قومُه، وهو يَمسَح الدَّم عن وَجهِه، ويقول: «**رَبِّ اغفِر لِقَومي؛ فإنَّهم لا يَعلَمون**»(٤) ورُوي عن أبي حازم: أنه سمع سهل بن سعد، وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ، فقال: أمَا واللهِ إني لأعرِف من كان يَغسِل جُرح رَسول الله ﷺ، ومن كان يَسكُب الماءَ، وبما دووِي، قال: كانت

(١) ذم الهوى/٥٨.
(٢) الإحياء: ٧٢/٤ ـ بتصرف ـ.
(٣) الصافات/٩٧ ـ ٩٨.
(٤) صحيح سنن ابن ماجة: ٣١٨/٣. كتاب الفتن، رقم ٤٠٩٧.

فاطمة عليها السلام بنت رسول الله تغسله، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمِجَن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يَزيد الدَّم إلا كَثرَة، أخذت قِطعَة من حَصير فأَحْرَقَتها وألْصَقَتها، فاسْتَمْسَكَ الدَّم، وكُسِرت رُباعِيته يَومئذ، وجُرِح وجهُه، وكُسِرت البَيْضَة عَلى رَأسِه»[١].

وجاء عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ ركب حمارا، عليه إكاف، تحته قطيفة فدَكِية، وأَرْدَف وَراءَه أُسامَة، وهُوَ يَعُود سَعد بن عُبادة ـ في بني الحارث بن الخزرج. وذَاك قَبلَ وقعة بدر، حتَّى مَرَّ بمَجلِس فيه أَخْلاَط مِن المُسلِمين والمُشرِكين عَبدَة الأوثَان، واليَهود، فيهم عَبدالله بنُ أُبي، وفي المَجلس عبدُالله بنُ رُواحَة، فلما غشِيَت المَجلِس عَجاجَةُ الدَّابة، خَمَّر عبدالله بن أبي أَنْفَه بِرِدائِه، ثم قال: لا تغَبِّروا عَلينا، فسلَّم علَيهم النَّبِي. ثم وَقَف فنَزَل. فدَعاهُم إلى الله، وقَرأ عَليهم القُرآن، فقال عبدالله بن أبي: أيها المرء! لا أحسنَ مِن هَذا، إنْ كانَ ما تَقُولُ حَقا، فلا تُؤذِنا في مَجالِسنا، وارجِع إلى رَحْلك. فمن جاءَكَ مِنا فاقْصُص عَليه، فقال عبدالله بن رواحة: اغْشَنا في مجالسنا. فإنا نُحب ذلك، قال: فاسْتَب المُسلِمون والمُشرِكون واليهود، حتَّى هَمُّوا أن يَتَواثَبوا، فلم يزل النبي عليه السلام يخَفِّضهم، ثم رَكِب دابَّته حَتى دَخل على سعد بن عُبادة، فقال: «أي سَعد! ألم تَسمَع إلى ما قَال أَبُو حُباب؟ (يريد عبدالله بن أبي) قال كذا وكذا» قال: اعْفُ عَنه، يا رَسول الله! واصفح. فوالله! لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصْطلح أهل هذه البُحَيرة أن يُتوجوه، فيُعَصِّبوه بالعِصابَة. فلما رَدَّ الله ذلك بالحَقِّ الذِي أعْطَاكَه، شَرِق بِذلك، فذلك فَعَل بِه ما رأيت. فعفا عنه النبي»[٢]، وورد في صحيح البخاري: «لما كَانَ يَوْم حنين آثر النبي نَاسا، فأَعْطى الأقرع مائة من الإبل، وأَعْطَى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسا، فقال رجل: ما أُريدَ بهذه القِسمَة وَجْهُ الله، فقلت: لأُخبِرَن النبي، قال:

---

(١) البخاري في المغازي، رقم ٤٠٧٥، ومسلم في الجهاد والسير ـ بلفظ مقارب ـ رقم ١٠١.

(٢) مسلم في الجهاد والسير، رقم ١١٦.

«رَحِم الله مُوسى، قَد أُوذِي بأَكثَر مِن هَذا فَصَبَر»[١].

وبهذه النماذج النبوية والأحمدية للصبر، مضت سنة رسول الله ﷺ، وسنة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قبله، وسنة السالكين من الدعاة، في كل زمان. فما أحوجنا، اليوم، وقد صوب الباطل سهامه القاتلة نحو الحق، إلى التأسي بهذه النماذج، كي يُصنع جيل راشد من الدعاة، يتجاسرون على الصدع بكلمة الحق عند الخاصة والعامة، وإذا أوذوا في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، يصبرون، ويحتسبون؛ بل يقابلون الأذى بالصفح، والدعاء بالمغفرة للمأمور المنهي، حتى يدخلوا في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[٢] ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[٣].

* * *

المطلب الرابع: العفو والإعراض

جمع القرآن الكريم بين العفو، والأمر بالعرف، والإعراض، في سياق إرشاد النبي ﷺ إلى مكارم الأخلاق، عند جدال المشركين ودعوتهم إلى الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[٤] وينبئ ذلك بأن ثمة علاقة قوية بين الأمر وبين العفو والإعراض، وقد ذكر المفسرون في بيان قوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ ثلاثة معان: أحدها: أن يراد بالعفو ظاهره؛ أي الأخذ مجاز عن القبول والرضا، والعفو؛ أي ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس، والمراد: ارض من الناس بما تيسر من أعمالهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا يتنفروا، وثانيها: العفو: هو ترك

(١) البخاري في المغازي، رقم ٤٣٣٧، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) البقرة من الآية: ١٠٩.
(٣) الشورى/٤٣.
(٤) الأعراف / ١٩٩.

الغلظة عليهم قبل فرض قتالهم، وثالثها: ما عُفي من أموالهم قبل نزول فرض الزكاة؛ أي خذ أي شيء أتوك به[١].

والظاهر أن المعاني الثلاثة كلها تتعلق بمكارم الأخلاق، فإن النبي عليه السلام كُلف في مكة بأن لا يفاجئ الناس بالتكاليف الشاقة؛ كالزكاة والقتال، وأن يقبل منهم المُيَسر الممكن من أخلاقهم في المعاشرة والصحبة، وأن يعفو عن أخطائهم وضعفهم، حتى يسلس قيادهم للدين الجديد، ويتطوعوا لألوان من الخير والبر دون مشقة. وقد أمر القرآن الكريم بأخذ العفو قبل الأمر بالعرف، مما يدل على أن الإنسان لا يصلح للأمر بالمعروف إلا إذا كان على مستوى خلقي عال، فيكون مثلاً شاخصاً للحلم والرزانة، فيعفو عن الناس، ويصفح عن أخطائهم، ويحتمل نقدهم ولومهم وطعنهم، فلا يصلح لذلك لئيم نزق، ولا طائش عجول. ولهذا جاء في الأثر عن بعض السلف[٢]: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه»[٣].

ويشير ترتيب الإعراض عن الجاهلين عقب العفو والأمر بالعرف، إلى أن المأمور المنهي إذا تظاهر بالجهل واستمسك بالجحد، مع قيام الآمر الناهي بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغاية الرفق والتلطف وحسن الخلق، وجب الإعراض عنه وتجاهله؛ لأن مجادلة الجاهلين أهون من أن يلتفت إليها من شغل باله ووقته وجهده باهتمامات كبيرة ومهمات عظيمة، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا جمع الله تعالى لنبيه بين التكليف بالدعوة إلى الله والأمر بالإعراض عن المشركين، والنهي عن اتباع أهوائهم، ومجادلتهم في شرائع الدين، في مثل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ

(١) انظر: روح المعاني: ٦/١٠/٢١٣، وجامع البيان: ٦/٩/١٥٥.

(٢) تقدم نظيره في شرط العلم.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٤/٢٨/٧٩.

بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[١]، وقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[٢]، وقوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾... [٣] والجدير بالبيان في هذا المقام، أن القرآن الكريم لا يعارض الجدال بالتي هي أحسن، والنقاش العلمي الهادف، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٤]، وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٥] ولكنه يأمر، إذا لم يكن إلا العناد والمكابرة، أن يسكت الآمر الناهي عن حماقة الحمقى، وسفه السفهاء، ولا يضيع وقته، ولا يهدر طاقته بالاشتباك معهم في جدال أو عراك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٦]، وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[٧]. ولا يعني العفو والإعراض مصانعة من يتمرد على الله ورسوله، أو المسامحة في الحقوق التي يجب أداؤها على كل فرد، والتخفيف في الأعمال التي يلزم الجميع أداؤها، بدون استثناء؛ فإن المصانعة أو المسامحة في مثل هذه الأمور تفضي إلى تبدد نظام الشريعة كلها، وانتكاث عقده، فيصير كل امرئ حبله على غاربه، ويسوقه سائق الهوى أنى شاء، ومن ثم فالعفو والإعراض يتعلقان بالحق العام والسلوك البشري، دون حقوق الله وواجباته. وفي هذا الصدد يقول الرازي: «الحقوق التي تُستوفى من الناس. وتؤخذ منهم، إما أن يجوز إدخال المساهلة والمسامحة فيها، وإما أن لا يجوز. أما القسم الأول، فهو المراد بقوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ ويدخل فيه ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية، ويدخل فيه أيضاً التخلق مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلظة والفظاظة... ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف... وأما القسم

---

(١) الحجر/٩٤.

(٢) الشورى من الآية: ١٥.

(٣) الحج من الآية ٦٧.

(٤) النحل من الآية: ١٢٥.

(٥) فصلت من الآية: ٣٣.

(٦) الفرقان من الآية: ٦٣.

(٧) الفرقان من الآية: ٧٢.

الثاني: وهو الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف. والعرف والعارفة والمعروف؛ هو كل أمر عُرف أنه لا بدَّ من الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه؛ وذلك لأنه لو اقتصر على الأخذ بالعفو ولم يأمر بالعرف ولم يكشف عن حقيقة الحال، لكان ذلك سعياً في تغيير الدين وإبطال الحق وأنه لا يجوز»[١].

ويقول سيد قطب، عقب كلامه عن العفو المأمور بأخذه: «كل أولئك في المعاملات الشخصية، لا في العقيدة الدينية، ولا في الواجبات الشرعية، فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح، ولكن في الأخذ، والعطاء، والصحبة، والجوار»[٢].

ويقول الطبري في الإعراض: «ذلك وإن كان أمرا من الله لنبيه، فإنه تأديب منه سبحانه لخلقه باحتمال من ظلمهم، أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الواجب عليه من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله، وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب»[٣]، ويقول ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾: «فالآمر والناهي إذا أوذي وكان أذاه تعديا لحدود الله، وفيه حق الله، يجب على كل أحد النهي عنه، وصاحبه مستحق للعقوبة، لكن لما فيه حق الآدمي كان له العفو عنه، كما له أن يعفو عن القاذف والقاتل وغير ذلك، وعفوه عنه لا يسقط من ذلك العقوبة، التي وجبت عليه لحق الله...»[٤].



(١) مفاتيح الغيب: ٨/١٥/١٠٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٣/٧١٢.

(٣) جامع البيان: ٦/٩/١٥٦.

(٤) التفسير الكبير: ٥/١١٢.



المبحث الخامس:

القيم في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وانسجاماً مع ما سبق، تكتسي قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قيما مختلفة، تجلي خطر الدعوة الإسلامية وضرورتها في حفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف، وتبرز الأمة المسلمة في أرفع منصبها، وأكرم حقيقتها، وأشرف غايات وجودها، مما يضفي ثقلا في ميزان كمالاتها الدنيوية وجزاءاتها الأخروية. وعليه نُدير الكلام - بإيجاز - حول أهم هذه القيم وفق الترتيب التالي:

* * *

المطلب الأول: قيمة إيمانية ودعوية

إن اقتران «**الأمر بالمعروف**» بالإيمان بالله، معطوفاً أو معطوفاً عليه، دل على أن الإيمان، وهو سنام العقيدة الإسلامية، متى وقر في قلب طاهر، متشوف إلى مرضاة الله، ووقع في نفس سليمة الحس والإدراك، قادرة على المكابدة والبذل والإيثار، مهتدية إلى طريقي الخير والشر؛ فإن هذا الإيمان يقترن به شعور بما يقتضيه حق الجماعة من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ الأمر بالخير والصلاح، والنهي عن الشر والفساد؛ من أجل تحقيق مجتمع سائر على الهدى، مترابط، متعاون. ومن ثم فلا يتوهمن

مسلم أن الإيمان يكفي فيه النطق بالشهادتين وأداء العبادات، وتجنب السيئات؛ وإنما الإيمان الصحيح النافع هو الذي يلزم الإنسان أداء حق نفسه، كما يلزمه أداء حق غيره، وبذلك تتقرر مسؤولية أمانته على الدين، التي حملها مختاراً، بمقتضى خلافته في الأرض. والقرآن الكريم، على المألوف من نظرته إلى الإنسان واختياراته الابتلائية، يميز بين من يفعل الخير أو الشر في نفسه، وبين من يتجاوز فعل ذلك إلى غيره، فيحاسب العبد على ما فعله في نفسه فرداً حراً مختاراً، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾[١].

أما إذا جاوز العبد فعله في نفسه إلى غيره، فأمر بمعروف، أو دعا إلى منكر، عظم القرآن الكريم أمره أشد ما يكون التعظيم، أو شنع على جرمه أشد ما يكون التشنيع. وقد نبه الله تعالى نبيه الكريم إلى هذا المبدأ الجسيم الذي يترتب عليه خير كثير أو شر مستطير، ضمن قطرات الوحي الأولى، حينما ساق نموذجين متقابلين للإنسان: (الأول) نموذج الطغيان، ويجسده طاغية[٢] تجاوز الحد في التكذيب والتولي عن الحق؛ إذ لم يكتف بفعل الشر في نفسه، بل تجاوزه إلى غيره، فصير المعروف منكراً بزجر عبد من عباد الله عن فعل الصلاة، الذي يبعد أن يكون فيه إذاية أو ضرر بالآخرين. وهذا هو فعل الطغيان الذي عجب منه الله تعالى نبيه في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾[٣]. (والثاني) نموذج التقوى والإيمان، ويجسده عبد في أرقى كمالات عبوديته وأشد حالاتها خلوصا: الصلاة، وهو في تلك الحال وغيرها يعلو على الهدى، ويأمر غيره بالتقوى، فهل مثل هذا يُنهى؟!: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾[٤].

---

(١) الأنعام/١٠٤.

(٢) هو أبو جهل كما عينته روايات النزول، غير أن الأصل في الخطاب القرآني العموم.

(٣) العلق/٩ ـ ١٠.

(٤) العلق/١١ ـ ١٢.

وانطلاقاً من ثنائية هذه النظرة القرآنية الأولى إلى الإنسان وأعماله، يتضح بوضوح أهمية وخطورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدلالة على الخير أو التحريض على الشر، وبالتالي في بقاء هذه الأمة، أمة الشهادة على الناس، أو في اضمحلالها وزوالها. ومن هنا، كانت عناية القرآن الكريم في الآيات المتقدمة بجعلهما مناط خيرتها، وبمزاوجتهما مع أصول الإسلام وفرائضه، ليفيد أنهما من الطاعات الواجبة على كل من يحتمل تبعاتها الجسام ومسؤولياتها الباهضة.

***

المطلب الثاني:
قيمة اجتماعية وإصلاحية

وتتجلى هذه القيمة في حفظ المجتمع المسلم، وضمان أمنه، وتوطيد دعائمه، وتثبيته على الدين، وإلزامه بقيمه العليا؛ وذلك بإظهار المعروف، وإحياء السنة، وطمس المنكر، وإقبار البدعة، وإصلاح الفاسد، وتقويم المعوج، ولم الشعث، والأخذ بيد الجائر وهدايته إلى سواء السبيل... وهذا العمل الاجتماعي الإصلاحي لا يختص بطائفة دون طائفة، أو طبقة دون طبقة، كما تبين، بل هو عمل تقوم به الأمة كافة، ويتآزر في القيام به علماؤها وأمراؤها وعوامها؛ فمن ملك القدرة على منع المنكر وإظهار المعروف، بأن يكون حاكماً له سلطانه وأمره ونهيه، أو عالماً له علمه وقلمه ولسانه؛ تعين عليه سد خروق المجتمع، وحراسة ثغوره، ودفع الرذيلة عنه، وجلب الفضيلة إليه بقوة اللسان والسلطان، ومن ملك إيماناً صادقاً، وقلباً عارفاً بالمعروف، ونافراً من المنكر، وجب عليه أن يدعو، على قدر طاقته وجهته، إلى الخير والفضيلة ضد الشر والرذيلة، وأن يعلن كراهيته للمنكر كراهية حقيقية من القلب، يظهر أثرها في مجانبة أهل المنكر وعدم مخالطتهم، حتى ينكسروا وينحسروا.

ومن هنا، يتحتم اليوم على الذين يُصلحون إذا أفسد الناس، من كل

المراتب والطبقات، أن يسعوا إلى تثبيت معاني الخير والصلاح، وإزالة عوامل الشر والفساد، ودستورهم للعمل في الحياة الاجتماعية، التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، والتواصي بالحق، والصبر، والمرحمة، والنصح، والموالاة، والنصرة بين الإخوة.

وإن هذا الدستور العظيم، المستمد من شريعة الله لهو صمام أمن الحياة، وضمان سعادة الفرد والمجتمع، وراعي آداب الأمة، وفضائلها، وحقوقها، وحرماتها، وشرائعها... وإنه لكذلك أكثر في هذا الزمن الأغبر، الذي هجم فيه المنكر بقضه وقضيضه على المعروف، حتى كاد يدمغه ويزهقه، لولا بقية من رسومه الظاهرة، وأَمِر أَمْر الأشرار، وأصبح لهم أنصار، وضَعُف الأخيار وأصبحوا أقلية غرباء، يتعرضون للأذى، ويُرشقون بقوارص اللوم، ويُحرمون رغد العيش، وتُصم آذان الناس عن سماع نصحهم وتذكيرهم.

وفي خضم هذا المد الإفسادي الهادر، عجت المجتمعات الإسلامية بالمنكرات الأخلاقية والاجتماعية والدينية، على مستوى المدرسة، والأسرة، والإدارة، والحانة، والمقهى، والطريق، والسوق...؛ حيث شاعت الإباحة في كل مكان، حتى عمت بها البلوى، فامتلأت الطرقات والأزقة والحارات بالكشف الجسدي، والاختلاط الجنسي، وأرسلت النساء نظراتهن المثيرة، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال، المتهالكين على جنبات المقاهي وقارعة الطرقات، وهم يرصدون الرائحين والغادين بأعينهم وأنوفهم وأسماعهم وقلوبهم، فيملأون أعينهم من الحرام بالنظر المريب إلى النساء، ويفتحون أسماعهم على الحرام بالتجسس، ويملأون صدورهم من الهواء الفاسد بالشهوات، فيستقر في قلوبهم ما يغضب الله ويسخطه.

كذلك تعالت أصوات السكارى في الأزقة، ومن وراء الأبواب الموصدة، وامتدت أيدي المجرمين إلى هتك حرمة المال والنفس، دون رقيب عليها أو حسيب. وضجت البيوت بشكوى الأزواج من اتخاذ الأخذان وخلط الأنساب، وألهى الناسَ أكلُهم وشربهم وبيعهم وشراؤهم ولهوهم عن

إقامة شعائر الله، من صلاة وزكاة وصيام... حتى غدت المساجد خاوية على عروشها إلا مما رحم الله! وامتلأت المدن المتحضرة من القذارة والقمامة، التي يلقيها أبناؤها بأيديهم، فيسدوا منافذهم إلى قضاء أعمالهم ومصالحهم، وابتليت أسواق المسلمين بألوان من المنكرات، التي يبعث عليها الجشع في قلوب البائعين؛ كالغش، والتدليس، والكذب، والخيانة، والتحايل، والحلف الكاذب، والاحتكار.

فهذه ـ بإجمال ـ بعض منكرات هذه الأيام، التي ينبغي أن يتجه إليها جهاد الآمرين والناهين، كل على قدر استطاعته؛ فيقيم صاحب السلطان الحدود على القتلة، والزناة، والمخمورين، والسارقين، وتاركي الصلاة ومانعي الزكاة... وينشئ أنواع المراقبات المختلفة على الأسعار، والغش، والآداب العامة، وغيرها، ويدعو العالم الناس بلسانه وقلمه إلى الخوف من سخط الله وعقابه، ويزجرهم عن الفواحش المدمرة للمال، والعرض، والنفس، والعقل، والدين...، ويوضح لهم أن الحدود إنما شرعت لاستتباب الأمن وبعث الطمأنينة على الحقوق والحرمات، وينكر العامي المنكر كلما رآه، ويعلن براءته منه على رؤوس الأشهاد، بقوله: (اللَّهم إن هذا منكر لا يرضيك)، ويميط الأذى من طريق المسلمين؛ بل ويفرض من نفسه حاسباً ومسؤولاً عن مال أخيه وولده، وعرضه وكرامته، فيهب للدفاع عنه، ولو في كلمة سباب أو غيبة مغتاب.

وهكذا يجب أن يبذل المجتمع المسلم جهده في سبيل الحق وإسعاد الخلق، بحراسة دين الله وحماية ذماره، حتى تبقى حدوده قائمة، يعز الله بها أهل طاعته، كما يذل أهل معصيته، فيكون فعل المعروف يسيراً، وفاعله عزيزاً، يسايره المجتمع ويعاضده، في حين يكون ارتكاب المنكر شاقاً، دونه خرط القتاد، ومرتكبه غريباً ذليلاً، يخذله كل أحد ويعانده. ومن ثم، فلو تعطل ذلك الجهد وأُهمل في المجتمع يوماً من الأيام، فلم يأمر المسلمون بمعروف، ولم ينهوا عن منكر، وتركوا العصاة والمنحرفين دون إرشاد أو عقاب؛ تفاقم كل فساد، واستشرى كل داء، وصار الأمر من سيئ إلى أسوء، وسُدت طرق إصلاح الأمة كلها، مما يفضي بها إلى الخسر

والدمار. وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلاً، مبيناً مدى حاجة المجتمع الإنساني إلى الأمر والنهي؛ فقال: «**مثل القائم على حدود الله والمُدْهِن فيها؛ كمثل قوم استَهَموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها يصعدون، فيستقون الماء، فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها فإنا ننقبها من أسفلها؛ فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم، نجوا جميعاً، وإن تركوهم؛ غرقوا جميعاً**»[١].

من فم الوحي نستنتج أن أصغر خرق في الآداب والقوانين، التي تحفظ المجتمع، ممثلة في هيكل السفينة، يعدل في ميزان البصيرة النبوية أوسع قبر لهذا المجتمع كله، وأن السكوت على هذه الجريمة النكراء جريمة أخرى أشد نكراً، وأن قانون الحياة وضرورة النجاة يفرضان على أهل العقل والطبقة العليا، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، أن يسارعوا إلى الضرب على أيدي الأسفلين، أهل المنكر، الذين يريدون أن يغرقوا المجتمع كله بتفكيرهم الأحمق وعملهم الأرعن.

❋ ❋ ❋

المطلب الثالث: قيمة حضارية

وتتجسد هذه القيمة في كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زاد هذه الأمة، التي أخرجها الله للناس، من طراز خاص، وطبيعة خاصة؛ فهي أمة دعوة وشهادة، تسوق الهداية والخير لغيرها من الأمم، وتشهد على الناس جميعا، كما يشهد عليها نبيها عليه السلام، فتقيم بينهم القسط، وتصنع لهم القيم، وتفصل في تقاليدهم وتصوراتهم وشعاراتهم... وتقول لهم: هذا حق أو معروف منها، وهذا منكر أو باطل، وفق منهج الله الذي اختاره لها. ومن هنا، كانت طبيعة هذه الأمة الدعوية ووظيفتها التبليغية،

---

(١) صحيح سنن الترمذي: ٤٦١/٣، كتاب الفتن، رقم ٢١٧٣، عن النعمان بن بشير.

حفاظ جامعتها، وسياج وحدتها، وتاج حضارتها، وإكليل عزها ونصرها؛ إذ عاشت بفضل الأمر والنهي أكرم حياة وآمنها، وأبعدها عن الاختلاف وأقر بها من الائتلاف، وعرفت أشمخ حضارة وأعرقها، وتبوأت ذروة الكمال الإنساني كله، فكانت أمة متفتحة الطاقات والمواهب، مرهوبة لدى الناس، عزيزة الجانب، تأمر بالمعروف وتأتمر به، وتنهى عن المنكر وتنتهي عنه، وتقيم هذا وذاك بالجهاد في سبيل الله؛ فتزج بأبنائها في أتون المعارك بين الحق والباطل، ويحتمل هؤلاء الأبناء الأبرار الآلام والتضحيات، ويؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع، حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها، ولا يرضون أبداً أن يقفوا متفرجين على الصراع بين المجرمين وأصحاب الدعوات، كما هو شأن أكثرية المسلمين الزائفين اليوم، من الذين أهمتهم أموالهم وأنفسهم ومناصبهم، واكتفوا من تكاليف الأخوة والنصرة، التي يستلزمها هذا الدين، ببيانات الإدانة والتنديد بالمعتدين، وبث جرائمهم على القنوات، وإغداق الثناء على المجاهدين، والتنويه بجلائل أعمالهم وقوة احتمالهم في مواطن القتال!

إن القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يهدف إلى غاية سامية، وهي أن يظهر دين الإسلام على الدين كله، وتهيمن حضارة الإيمان على سائر الحضارات الزائفة؛ هيمنة نصح وتقويم وإرشاد، تحفظ حياة الإنسان، وترتقي بها نحو الكمال، وليس هيمنة استعمار واستبداد واستعباد، تمتص طاقات الحركة والإيجابية في الإنسان، وتسلمه ذليلاً إلى الهلاك. وإن الهجمة الشرسة التي يشنها بنو إسرائيل اليوم على الإسلام، ممثلاً في دولة فلسطين؛ يستبيحون الديار، ويروحون فيها ويغدون باستهتار، ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وأنفس وأعراض، والغرب من ورائهم نصير معين بالإمداد والإقرار، لهي الهجمة التي هزت بذور الحق الكامنة في هذه الأمة هزا، وتوشك أن تُنبت في صبح قريب طليعة مسلمة جديدة ومجددة، تبوئ لهذه الأمة مقام خلافتها العظيم، وتعيد إليها شرف القيام على أمانة العقيدة في الأرض، وترد إلى ذاكرتها مجدها العتيد ومنصبها الحضاري في الشهادة على الناس، بالتوجيه والتهذيب والتشريع والتأديب، ولسوف تطلق هذه

الطليعة حينئذ طاقاتها للعمل والبناء، وتقدم كثرتها المتفرجة بالصراع - التي ستبصر، بإذن الله، العنصر الغالي في دعوة الله - إلى حلبة هذا الصراع، من أجل انتزاع الحق المغتصب، وإزهاق باطل صهيون، ببذل المال والدم في سبيل الله، لا بالنفخ في الأبواق، وتقديم بيانات الإدانات، وبذلك ستقوم - حقا - بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وستحقق به ذلك التساند والتكامل بين إخوة الإيمان، المعبر عن حياة الأمة، وسلامة إحساسها، وصلاح أمرها؛ حتى إذا اشتكى منها مصر أو قطر تداعى له سائر الأمصار والأقطار بالعون والنصرة؛ بصرف النظر عن الأجناس والألقاب والحدود والقوميات. . . !

ذلك ما تتشوف إليه أنظار هذه الأمة في غدها. وإن غداً لناظره قريب!

* * *

المطلب الرابع:
قيمة جزائية: دنيوية وأخروية

لقد ذُيلت آيات الأمر والنهي بتعقيبات جزائية، تبوئ الآمرين الناهين مقاماً مرضياً عند الله جل جلاله، في الدنيا والآخرة؛ ذلك بأنه سبحانه عقد مع المؤمنين البيعة، فاشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم النعيم المقيم في الآخرة، ولهم السلطان المبين في الدنيا؛ كما قال، قبل ذكر أوصافهم في آية التوبة: ١١١: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾. . . وقال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1] وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾[3]

(١) يونس من الآية: ٦٤.
(٢) النحل من الآية: ٩٠.
(٣) غافر/٥١.

فهؤلاء العباد المخلصون، الذين ضمن الله لهم الجنة والنصر والسعادة، قاموا بالله لله، لا تأخذهم لومة لائم، وعملوا لله، ونصحوا الدين لله، ودعوا خلق الله إلى الله؛ فربحت تجارتهم. قال تعالى مرتبا الفلاح على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، وقال مبيناً جزاء المؤمنين من أهل الكتاب بأنه جزاء الصالحين: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2]، وقال ملوحاً بوعده الصادق لعباده المؤمنين أنه سيرحمهم بواسع رحمته: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾[3]، وقال مقررا ما وعده الله من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[4]، وقال آمرا نبيه أن يبشر الآمرين الناهين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]. وفي الآية التي قبلها أمرهم بالاستبشار في قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ﴾[6]. وبين سبحانه أن جزاء الأمر هو النجاة من الهلاك والخسر في الدنيا والآخرة، في مثل قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾...[7] وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[8]. وقد قررت هذا الجزاء العظيم عن الأمر والنهي أحاديث نبوية صحيحة، نقتطف منها قوله عليه السلام: **«مَن دَعا إلى هُدى؛ كان لهُ مِن الأجرِ مثل أُجور مَن تَبِعَه، لا يَنْقُص ذَلك مِن أُجورِهم شَيئا...»**[9]، وقوله: **«مَن دَل عَلى خَير، فلَه مِثل أَجْر فاعِله»**، أو قال: **«عَامِله»**[10].

---

(١) آل عمران من الآية: ١٠٤ وكذلك الأعراف/١٥٧.
(٢) آل عمران من الآية: ١١٤.
(٣) التوبة من الآية: ٧١.
(٤) الحج من الآية: ٤١.
(٥) التوبة من الآية: ١١٢.
(٦) التوبة من الآية: ١١١.
(٧) الأعراف من الآية: ١٦٥.
(٨) العصر/١، ٢، ٣.
(٩) صحيح سنن أبي داود: ٣/١١٩، كتاب السنة، رقم ٤٦٠٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(١٠) صحيح سنن الترمذي: ٣/٦٦، كتاب العلم، رقم ٢٦٧٠، عن أنس رضي الله عنه.

وهكذا، فإن هذا الأجر الممنون، الذي وُعده الآمرون الناهون، في القرآن الكريم والحديث الشريف، لهو الأجر الخالص الذي فتح كوامن بصائر المؤمنين في خير القرون، وأثار بذور مواهبهم المختلفة؛ فشمروا عن سوق العزائم، وانطلقوا بكل جد وتفان لتحقيق معنى وجودهم، وسر فضيلتهم، وأساس وظيفتهم، وهو حفظ الإسلام؛ فاشتغلوا بطاعة الله تعالى، وتحصيل محبته ورضاه، واستعذبوا بيع النفس والمال إليه والعبودية الخالصة له؛ فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر من غير قيود، ولزموا الصبر على ما ينالون من الأذى في كل الأحوال، متشربين روح الإخلاص، حتى غدا العالم الإسلامي رياضا يانعة بأزهار الأمن والسعادة، وأكاليل العز والسيادة؛ إذ كان فيه الحق منتصرا، والباطل مندحراً، والمعروف مزدهرا، والمنكر منكسراً. وبتلك الثمرات الدنيوية الطيبة، صار المسلمون أسياد المخلوقات، واستحقوا دخول الصالحين في رحمة الله، وما ذاك إلا لأنهم جعلوا الحياة الأخرى غاية المنى، واتخذوا هذه الحياة الدنيا وسيلة لها ومزرعة، وسعوا لها سعيها، ولم يسعوا قط وراء المطامع الدنيوية الدنيئة، من كسب الصيت، والسمعة، والأجرة، وكيف لمثلهم أن يسعوا إلى ذلك، وهم قد ارتشفوا من مرهم الإخلاص الناجع. ونالوا بفضله شرف امتثال الآية الكريمة، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[1] بإيثار الحق والهدى على اتباع النفس والهوى، وحصل لهم امتثال ـ أيضاً ـ بالآية الكريمة: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[2] باستعلائهم عن الأجر المادي والمعنوي، المقبلين من الناس، مدركين أن استحسان الناس كلامهم، وحسن تأثيره فيهم، هو مما يتولاه الله تعالى، ومن إحسانه وفضله وحده، وليس داخلا ضمن وظيفتهم التي هي منحصرة في التبليغ فحسب.

وبملحظ من بريق هذا الأجر المعنوي والأخروي، الذي أخذ بمجامع قلوب الجيل الراشد، ومن تبعهم بإحسان، وكان أس الأساس لجميع

---

(١) يونس من الآية: ٧٢.

(٢) النور من الآية: ٥٤.

كمالاتهم ومثلهم؛ نهيب بدعاة اليوم، الذين انتصبوا لإلقاء الخطب، والصدع بالحق في المنابر والحفلات الكبرى، وردهات المساجد، والمجامع المكتظة بالناس؛ أن يتعهدوا نياتهم بروح الأعمال الصالحة: الإخلاص، ويحرصوا على أن لا تشوبها شائبة من الغش والنفاق والرياء، فلا يؤثروا حظوظهم الدنيوية على حظوظهم الأخروية بطلب توجه الناس إليهم، والرغبة في إقبالهم، وبعدم الرضا بما قسم الله من رزق، والقناعة به؛ فإن ذلك مجلبة للمنافسة، والحسد، والغيرة، فيتبدل الوفاق بين الإخوة نفاقاً، والاتفاق بينهم اختلافاً. وقد نهانا سبحانه عن التفرق والاختلاف قبل تكليف الأمة المسلمة بالدعوة والأمر والنهي. ولا يُشفى هذا المرض العضال ـ الذي يوشك اليوم أن يجهز على البقية الباقية من وحدة الأمة وتناصح أفرادها ـ إلا بمرهم التعاون والاجتماع والإخلاص، وترجيح الحق على أثرة النفس، مع تذكر الوظيفة العالية الشريفة التي تجمع بين الإخوان، في الله، ولله، وهي: أن تكون هذه الأمة مسيطرة على الأمم كلها، ومربية لنفوسها، ثم استحضار الغاية النبيلة التي يرنو إليها كل طالب حق، وهي القيام بعبادة الله وتبليغ دينه، دون عبادة الشهرة والمال، ونيل رضا الله تعالى ومقامه الكريم، دون رضا الناس والمقام الاجتماعي.

فهل يصغ إلى هذا عباد الشهرة والمنفعة، من الذين يبخسون قيمة الأجر الإلهي العظيم على الدعوة إلى الدين؟!







الخاتمة

فلله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم، وإليه ترجع الأمور.

لقد كانت هذه الدراسة قراءة علمية هادفة، تقصدت «مصطلح الأمر في القرآن الكريم» بالتشريح والتحليل، وتطلبت واقعه الدلالي بالتبين والتبيين، على وفق منهج رشيد، هو أقرب إلى المنهج العلمي الدقيق: إحصاء وتصنيفاً، وعوداً بالمصطلح إلى أصله الدلالي ومأخذه اللغوي، وتبينا له في مختلف السياقات والاستعمالات والأوضاع في القرآن الكريم، بمعونة كل أدوات التفهم السليم العميق، والاستنباط الصحيح الدقيق، وترتيباً لمفاهيمه المستخلصة من كل ذلك على نسق مفهومي قويم، وعرضا لها على الأنظار في مرحلة التحرير، وقد تلاحمت عناصرها بانتظام وتركيز.

وإذا كان غير يسير الزعم بأن البحث قد ترسم هذا المنهج الترسم الأمثل، ورسم لمصطلح الأمر الصورة الأكمل، فإنه غير عسير الزعم بأنه قد أسهم في تحصيل فوائد منهجية، واجتناء ثمرات علمية.

أما الفوائد المنهجية، فأهمها:

١ ـ فائدة دراسة المفاهيم القرآنية، طبق منهج الدراسة المصطلحية، في تحقيق الفهم السليم للنص القرآني الكريم، وتحديد مفاهيم مصطلحه؛ تحديداً يحصي آياته، ويجمع مشمولاته ويكشف عمود نظامه، ويبرز سماته ومقوماته، ويغوص على أبعاده وموضوعاته، ويستخرج لطائفه وإيحاءاته، مما يدفع دفعا إلى إجماع الأمر، وإتقان الدرس، وإحكام التدبير، وإحقاق التعبير، ويشرع السبيل أمام تخليص المصطلح الكريم من غلطات المفسرين

وشطحات المتأولين، وتقريب مفهومه القرآني من أفهام المتلقين، ليقع العمل به في واقع المسلمين.

ولعمري لوأحسن الدارسون في تطبيق منهج الدراسة المصطلحية على المصطلح القرآني الكريم، وأغنوه بالمحاولات والتجارب، وأوسعوه من حيث الإجراءات والوسائل، وتطلبوا في تنفيذه الغايات والمقاصد، لجعلوه لهم شرعة ومنهاجاً، وللدرس المصطلحي قواماً وملاكاً.

٢ ـ رسم ضوابط منهجية، أتاحها منهج الدراسة المصطلحية؛ لدراسة نتاج الفهوم في سائر القرون، ولاسيما الفهوم التفسيرية؛ دراسة لا تغيب عنها أصول التفسير السليم: من تفسير القرآن بالقرآن، ورعاية نظم الكلام وظاهر البيان، والأخذ بصحيح الأحاديث وصريح العقائد. . . وسائر ما من شأنه أن يعين على كشف الحق من أي علم كان، وطرح كل غثاء ببرهان، ومن ثم يعين على تقديم الفهم الشامل الصحيح للمصطلح في القرآن، وتنزيله على واقع البحث بميزان.

٣ ـ رصد الخصوصيات المنهجية لدراسة مصطلح الأمر في القرآن الكريم على مستوى التحضير والتحرير، وهي خصوصيات نابعة ـ كما تقدم ـ من موارد المصطلح الكثيرة ومعانيه المتشعبة وسماته المتميزة وأبعاده الممتدة ومجالاته المتنوعة، وظاهرة في تتبع مسالك مخصوصة؛ كالاستقراء الشامل لموارده، والتركيب الدقيق لمعانيه، وتعضيدها ومقارنتها بنظائرها في نصوص الحديث بالهامش، والوصف والتحليل لسمات المصطلح وصفاته وعلاقاته، والدراسة المصطلحية للكلمات المفاتيح المبينة لحقيقة موضوعاته، والتفسير للمستفادات العلمية ضمن مجالاته، والترتيب لعناصر العرض ومعاقد البحث، وصلاً لمدلولاته وجمعاً لمشمولاته. وإن الاحتكام إلى هذه الخصوصيات ليشهد شهادة قاطعة على أن المنهج الدارس لن ينضج ويستقيم، والمصطلح المدروس لن يفصح ويبين، إلا إذا اجتهد الدارس في تنزيل قواعد المنهج وإجراءاته على واقع البحث وخصوصياته. وبغير ذلك، لا يمكن أن يستقيم للبحث المصطلحي في المفاهيم سير راشد.

وأما الثمرات العلمية، فنجملها فيما يلي:

١ ـ انطلق مصطلح الأمر في اللغة من معان لغوية متآلفة تؤول إلى معنى «الظهور»، وتطور عن مأخذ حسي هو «معالم الطريق الظاهرة»، ولبس في القرآن الكريم حلة جديدة من المعاني المصدرية والاسمية، التي استمدت من مجموع نصوصه، ومختلف سياقاته وصور وروده، وتوجت باستنباط تعريف جامع للمصطلح، وهو الشأن الرباني المتعلق بالخلق تدبيراً وتكليفاً.

٢ ـ تميز مصطلح الأمر في القرآن الكريم بكثرة النصوص وتنوع أحوال الورود، وتعدد الضمائم والعلاقات، وتشعب الدلالات والامتدادات، مما أثمر قوة في اصطلاحيته، وجدة في دلالاته، وسعة في استعمالاته وعلاقاته وامتداداته. وبملحظ من تمايز معانيه المصدرية والاسمية، تنوعت وظائفه في جهازه المصطلحي، فشملت التأسيس لتثبيت شريعتي الفطرة والدين، والدعوة إلى الخير أو الشر، والتحقيق لشؤون التدبير والتكليف، وباعتبار ذلك، احتل المصطلح موقعاً عظيماً داخل أسرته المفهومية؛ إذ ارتبط من خلال مفاهيمه التكوينية والتكليفية، المصدرية والاسمية، بالمصطلحات المنتمية إلى الكلام الإلهي، والمؤسسة لبناء الشريعة التكليفية والتكوينية، والمتعلقة بالشؤون الإلهية والجزاءات الأخروية.

كما ارتبط انطلاقاً من مفاهيمه الدعوية، الإصلاحية والتخريبية، بالمفاهيم المجلية لحقيقة الدين الرسالية ووظيفة أتباعه التبليغية، والمفاهيم المعبرة عن وساوس الشيطان وأعمال أوليائه الإفسادية.

٣ ـ ازدادت وظيفة الأمر الإنجازية وضوحاً وموقعه المتميز شموخاً بين المفاهيم المتعلقة بالشؤون الربانية والإنسانية، من خلال وروده موصوفاً «بالحكمة» و«القضاء» و«الفعل» على سبيل التعظيم للشؤون الإلهية في المجال التكويني، و«بالمرج» على سبيل الذم لأحوال الكفار المضطربة في المجال النفسي، وبالجامع» و«الأمن» و«الخوف» على سبيل إبراز طبيعة شؤون المسلمين في المجال السياسي والحربي، وهو ما يفيد التأكيد على سمات بارزة في مفهوم الأمر بوصفه نتيجة: سمة التحقق والنفاذ والإيجاد على غاية الإحكام، في بعدها الإلهي، وسمتي التشاور في أمر التمكين

لأمر الله والاضطراب في تناقل أخبار الحرب، في بعدهما الإنساني.

٤ ـ كشف البحث في علاقات الأمر في القرآن الكريم عن أشكال متنوعة من أوجه الترابط والتغاير، الواصلة للمصطلح بسواه والفارقة له عن سواه؛ فبين أن العلاقة بين «الأمر» و«النهي» مجتمعين ومفترقين في السياق القرآني علاقة متشعبة، وجهها الأول: الائتلاف الذي تجسده صلات التقابل (العموم والخصوص) والتداخل والتلازم والتناظر، ووجهها الثاني: الاختلاف الذي يرقى إلى درجة التضاد، كما بين أن المصطلح تعالق مع الإرادة والحكم على وجه العموم والخصوص، ومع الوعظ والوعد على وجه التكامل. وبهذه الأوجه العلائقية، تعزز مفهوم الأمر، كما حدد في التعريف، بما هو طلب يتم به التكليف، ودعاء إنساني إلى الخير وشيطاني إلى الشر، واتضحت سماته بشكل دقيق من خلال تأكيد موقعه التأسيسي ضمن الخطاب التكليفي الإلهي، وموقعه الرسالي ضمن الخطاب التبليغي الإنساني، وموقعه التخريبي ضمن الوحي الشيطاني. ولعل أهم ما استفيد في ضوء ذلك: بيان منهج القرآن الكريم في التشريع والدعوة والإرشاد، وتحصيل فوائد علمية وعملية، لها أثر كبير في تصحيح الفهم والعمل، وتحريض الإنسان على الامتثال.

٥ ـ باستقصاء التراكيب المختلفة التي انضم فيها الأمر إلى غيره من المصطلحات، تكشفت لنا امتدادات المصطلح المفهومية الداخلية، ممثلة في ضميمتي الإضافة: (أمر الله) و(أولو الأمر) وضميمة الإسناد: (الأمر بالمعروف) وضميمتي الوصف «عزم الأمور» و«عاقبة الأمور» وضمائم لغوية أخرى أبرزت اختصاصاته. ولعل أهم ما تحصل من دراسة هذه الضمائم الاصطلاحية:

● أن ضميمة «أمر الله»، أشهر ضمائم الأمر في القرآن الكريم وأضخمها، دلت على معنى الشأن الرباني المتعلق بالخلق تدبيراً وتكليفاً، وهو ما نمى مفهوم الأمر في مجال التدبير والتكليف، وجلى، بملحظ من حجم الورود وجزئيات المعنى، المكانة العظمى التي يحتلها أمر الله التكويني خاصة في القرآن الكريم، هذه المكانة عززها ورود الضميمة ـ بهذا المعنى الكوني ـ موصوفة بـ«الفعل» و«القدر المقدور» باعتبار دلالتهما على تحقق أمر الله بمقدار وإحكام، ومقترنة بضميمة إذن الله ـ بمعناها الكوني ـ على وجه

الترادف والتكامل، في سياق الإنذار بعذاب الله بعد ظهور الآيات، واستعراض أدلة القدرة والنعمة في مجال الكون، وكذا بضميمة «سنة الله»، على وجه العموم والخصوص، في مجال التقدير والتشريع لزواج زينب بالنبي عليه السلام.

● أن انضمام الأمر إلى المعروف أفاد معنى: دعوة هذه الأمة الناس بالقول إلى الأمور المعروفة والمحمودة في العقل والشرع، مما أكسب الأمر قيدا في مفهومه العام، الدال على الطلب، وسعة في هذا المفهوم من جهة دلالة المعروف على مطلق الطاعات التي يستلزمها دين الإسلام، وبذلك احتلت الضميمة موقعاً متميزاً ضمن تكاليف هذا الدين، وجسدت خصيصة بارزة من خصائص المؤمنين، تثبت خيريتهم وتليق بمقام خلافتهم، وهو ما يزكيه اقترانها بأوثق العرى بمصطلحات ضخمة، شكلت قوام الدين؛ كـ«الإيمان»، و«إقامة الصلاة» و«الصبر»، و«الدعاء إلى الخير»، و«إحلال الطيبات»، و«النهي عن المنكر»...

● أن ضميمة «أولوا الأمر» جاءت بمعنى: جماعة من المؤمنين بعد رسول الله ﷺ، إليهم يرجع الناس في شؤونهم ومصالحهم، وهو الأمر الذي جعل مفهوم الأمر الدال على الشأن مقيدا بشرط الإيمان، وممتدا إلى كل الأعصار، ومتناولا جميع أهل الحل والعقد من العلماء والأمراء.

● أن انضمام «الأمور» إلى وصف «العزم»، الدال على عقد القلب على الأمر، ووصف «العاقبة» المستعمل في معنى آخر الكفر والعصيان، أفاد نوعاً من الأمور، وهي الطاعات والخلال الواجبة التي تعقد عليها العزيمة، والأعمال التي تصير إلى الله سبحانه للجزاء عليها في الدنيا والآخرة.

٦ ـ نظراً لما تتسم به مشتقات الأمر في القرآن من قلة الموارد، وضآلة العناصر، لم يكن لها أثر كبير في تقوية دلالة المصطلح وإثراء مفهومه، ورسم تشعبه خارج نصوصه. ولعل أهم ما تحصل من دراستها: تكثيف مفهوم الأمر الشيطاني (الأمارة)، وتأكيد اتصاف الكملة من المؤمنين بفضيلة الأمر بالمعروف (الآمرون).

٧ ـ انتظمت المعلومات المصطلحية والمستفادات العلمية، المستلهمة

من جميع نصوص المصطلح في سلك قضايا ثلاث: قضية الأمر الإلهي، وقضية الأمر الشيطاني، وقضية الأمر الإنساني. وحاصل دراستها الموضوعية يتمثل في النتائج التالية:

- أن قضية الأمر الإلهي بشقيها التكويني والتكليفي هي عمود قضايا الأمر في القرآن الكريم، بل هي قطب دعوة القرآن إلى الإيمان والإسلام، ومن ثم كان حشد موضوعاتها على التمام ضرب من المحال، والكلام في تفسيرها ليس كمثله كلام، ولئن طال، فليس على المتكلم تثريب ولا ملام.

- أن الأوامر التكوينية الإلهية، كما كشف عنها مسار البحث الطويل، غيب من الغيب الذي تتقاصر دون إدراكه الأفهام؛ لأنها ـ كصفات الله الأزلية ـ تتسم بخاصية الإحاطة بكل شيء، والتجلي في كل شيء؛ ولا غرو فقد تبين أنها نازلة من خزينة الكلام الإلهي الذي لا ينفد، نابعة من صفة الإرادة الإلهية المطلقة، شاملة للدساتير الكونية؛ الدنيوية والأخروية، نافذة في جميع الأحياء والأشياء والأقدار، بمنتهى اليسر والاطراد؛ متجلية في مجالات متنوعة، تستعصي على الاستقصاء، كمجالات التكوين والتدبير والتسخير والقضاء؛ مجلية لعظمة ربوبيته سبحانه وحقيقة رحمته وحاكميته وقدرته، ممثلة من قبل الأسباب الظاهرة والغيبية، التي تدبر أمور قدر الله في الكون والخلق، وفي عالمي الشهادة والغيب.

وبما أن تلكم الأوامر التكوينية هي مناط القدر والقضاء، فقد أنجز البحث دراسات مصطلحية مركزة لعدد من المفاهيم التي هي منها بسبيل مقيم وعلى سبب متين، منها مفاهيم: «الخلق» و«الإحياء» و«التدبير» و«التصريف» و«القضاء»... الأمر الذي يسر الولوج إلى مجالاتها المتشعبة، ورسم أبعادها الممتدة، وعزز حقيقتها القدرية، وبين وجوه الفصل والوصل في علاقاتها بأسرتها المفهومية، ولاسيما بمفهومي: «الخلق» و«القضاء»...، وأكد سماتها البارزة: سمات التحقق، والنفاذ، والثبات، والوحدة والسرعة، والتقدير والتدبير لكل شيء وفق ما سطر في الكتاب.

وبالجملة، فإن هذه الدراسة للأوامر التكوينية أسهمت في رسم صورة مقاربة للكمال عن مفهوم هذه الأوامر وتجلياتها ووسائل امتثالها وتمثيلها؛

صورة فتحت من كل شيء نافذة للعلم بالله وكلامه وكمالاته، والعلم بأقضيته وأقداره، والعلم بالكون وقوانينه وأعماله.

● باستقراء مسالك البحث في حقيقة الأوامر التكليفية ومجالاتها، يتحصل:

● أن الدراسة المصطلحية لمفاهيم: «التكليف» و«الدين» و«الوحي» أسهمت في توسيع مفهوم الأمر التكليفي، وتبيين أبرز خصائصه وعلاقاته، التي تعزز موقعه الأصيل، المؤسس لتثبيت دين الإسلام، وتنظيم حياة الإنسان؛ كصلات الأمر بـ«الدين» و«الدين» بـ«الفطرة»، وسمات: الثبات والاستقامة، والحق، واليسر، والإحياء...

كما ذللت هذه الدراسة سبيل الكشف عن مصدره السامي ومقامه العالي، من خلال تجلية حقيقة الوحي المنزل على الأنبياء، وعلو موقعه ضمن سائر الكلام الإلهي، وعادت بالبيان على وسائطه الغيبية والبشرية، مما نفى عنهم دعوى الربوبية وعزز وظيفتهم التبليغية.

● أن الدراسة الموضوعية لمفاهيم الأوامر التكليفية ـ مادة وصيغا وأساليب ـ ضمن مجالات الحياة الإنسانية، الفكرية والخلقية والعملية، بينت بوضوح أن تلكم الأوامر ركزت الاهتمام على ترسيخ أصول الإيمان، وتشريع أركان الإسلام، وما تعبدنا الله به من الدعاء وتلاوة القرآن، وتثبيت محاسن الخلال، ولاسيما الاستقامة، والعدل، والإحسان، وصلة الأرحام، وتأسيس قواعد المعاملات في شتى مناحي الحياة، وخاصة المشاورة في الأمر، وأداء الأمانات في الولايات والأموال، والعدل بين الناس في الأحكام، والاستيثاق في الدين، والتعاون بين الأفراد والجماعات في الحرب والسلم، والمودة والرحمة بين الأزواج...

ومن خلال عرض تلكم الأوامر، أبرزت الدراسة وحدتها وتكاملها، بشكل يدعو الإنسان إلى امتثالها جميعا؛ لبلوغ كماله المادي والمعنوي، ورصدت تنوع صيغها وأساليبها، واختلاف مكيها عن مدنيها من حيث التفصيل والإجمال، وذلك وفق أهمية المأمور به، وظروف التنزيل، وأحوال المخاطبين في مكة والمدينة، وفي كل مكان وزمان.

وبالجملة، فإن الدراسة قد أسهمت في الكشف عن أعظم مظاهر وحدانية الألوهية، ورحمتها بالإنسان، وحكمتها في تشريع الأحكام، وعرفت بأوجب واجبات عبودية هذا الإنسان اتجاه تجلي ربوبية مولاه.

• بتحليل موضوع الأمر الشيطاني، تم تشريح سمات المفهوم الدلالية بدراسة مصطلحية لمفاهيم لها وثيق الصلة بمفهومه؛ كـ«الوسوسة»، و«التزيين»، و«التمنية»، و«السلطان»، فتبينت علاقته بها، وتعزز موقعه منها، وخلص البحث إلى تأكيد مفهوم أمر الشيطان، وتوسيعه، والتركيز على عدميته، ونفي تأثيره. وبمقتضى هذا النظر المفهومي، تم تحليل متعلقاته داخل النصوص؛ كـ«السوء»، و«الفحشاء»، و«القول على الله بلا علم»، و«تغيير خلق الله»، وتجلية الأسباب الكامنة وراء الأمر بذلك؛ حيث تحددت في: عصيان إبليس للأمر الإلهي، وفي كبره وحسده، وفي حقده وعداوته، مما أثبت أن الإنسان مخلوق كريم، والشيطان له عدو مبين، وأمره ناضح بالكيد والتصميم، ونافذ على كل غافل ضعيف. وبتحليل مظاهر نفاذه، بين البحث أن أولياء إبليس هم المشركون والمنافقون واليهود، وأن جماع الشرور التي يأمرون بها نيابة عنه هي الكفر والشرك، والبخل، والزنا، والتحاكم إلى شريعة الشيطان عوضا عن شريعة الله. ثم ختم ذلك بتحليل الأبعاد المختلفة التي تكتسيها نصوص الأمر الشيطاني في واقع الأمة وغدها، علاجا لما لحقها من ضعف في عقيدتها، وتحريف في شريعتها، وفساد في أوضاعها.

• كشف البحث عن الأبعاد الموضوعية لمفهوم الأمر الدال على الدعاء إلى الخير، ضمن تحليل قضية الأمر الإنساني الموسومة بقضية «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، حيث أثبت فرضية الأمر والنهي على جميع المسلمين، كل بحسب علمه وطاقته وجهته، ودحض شبهة إهمالهما، وبين أهم شروطهما، وهي: الإيمان، والولاية، والعلم، وتدرج في بسط مراتبهما من مرتبة الدعوة والتبليغ إلى مرتبة التربية والتنظيم، وتناول من صفات الآمرين والناهين: إقامة الصلاة، والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر، والصبر، والعفو والإعراض، وجلى، ضمن قيمه المختلفة، أهمية الدعوة وضرورتها في حفظ الحياة الإنسانية من المنكر وإقامتها على المعروف،

والارتقاء بها إلى ذروة الكمال الإنساني والرقي الحضاري.

وكان من أهم نتائج البحث في هذه القضية: بناء رؤية قرآنية متكاملة لمفهوم الأمر الإنساني في جانبه الإيجابي، وتقرير وظيفته الدعوية الإصلاحية، والتعرف على عدد من المصطلحات المنتمية إلى أسرته المفهومية.

وبعد، فهذا حظي من اجتلاء مفهوم الأمر واتباع مسالكه واجتناء ثمراته، ولست أدعي أنني حققت تغلغلا في آياته، واستيفاء في فهمه، واستيلاء على شامل دلالته. كيف؟ وذلك مما تفنى دونه الأعمار، وتجف عنده الأقلام. ولو «استقبلت من أمري ما استدبرت» لعدت إلى كتابة البحث مرة أخرى، متعهدة قلبي، ومنيبة إلى أمر ربي، رجاء أن يهيئ الله لي رشداً من أمري، ويفتح لي طريقاً إلى كتابه، أصيب فيه مزيدا من معاني هذا المصطلح الجليل ونفحاته؛ إذ من القطعي أن مصطلحات القرآن لا تتفتح عن أسرارها، ولا تعطي خيراتها، إلا لمن يستقبل أنوارها بقلب سليم، ويحقق مفاهيمها بغاية التسليم، لا لمن يقرؤها لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية، ولا لمن يدرسها لمجرد إحصائها ووصف مفرداتها، وتتبع سياقاتها وأوضاعها، وضبط مدلولاتها ونسق مشمولاتها. . .

فلعل هذه الدراسة أن لا تكون مجرد دراسة علمية لهذا المفهوم، وفق المنهج المعلوم، وأن تكون قراءة هادفة لتحريك الجوارح وتوجيه القلوب:

* إلى الإيمان بخلق الله وأمره.

* إلى فعل المأمور وترك المحظور والتسليم بالمقدور في كل الأمور، لا في بعض الأمور.

* إلى مجاهدة أوامر إبليس ومواجهة تآمر حزبه على تغيير الدين.

* إلى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده في أمرهم كله. . .

ولعلي بعد ذلك أكون قد يسرت سبيلاً إلى فقه هذا المفهوم، قد لا يكون واضحاً كل الوضوح، بل قد يكون آهلاً بالهنات والعيوب، ولكن سداده وصوابه أنه شق أكثر من طريق إلى إنجاز بحوث في مفاهيم ستلقي مزيداً من الأضواء الكاشفة على كثير من حقائق المفهوم المجملة، وعلى

علائقه المفهومية خارج النصوص وداخلها، وعلى قضاياه الموضوعية، ومن ذلك:

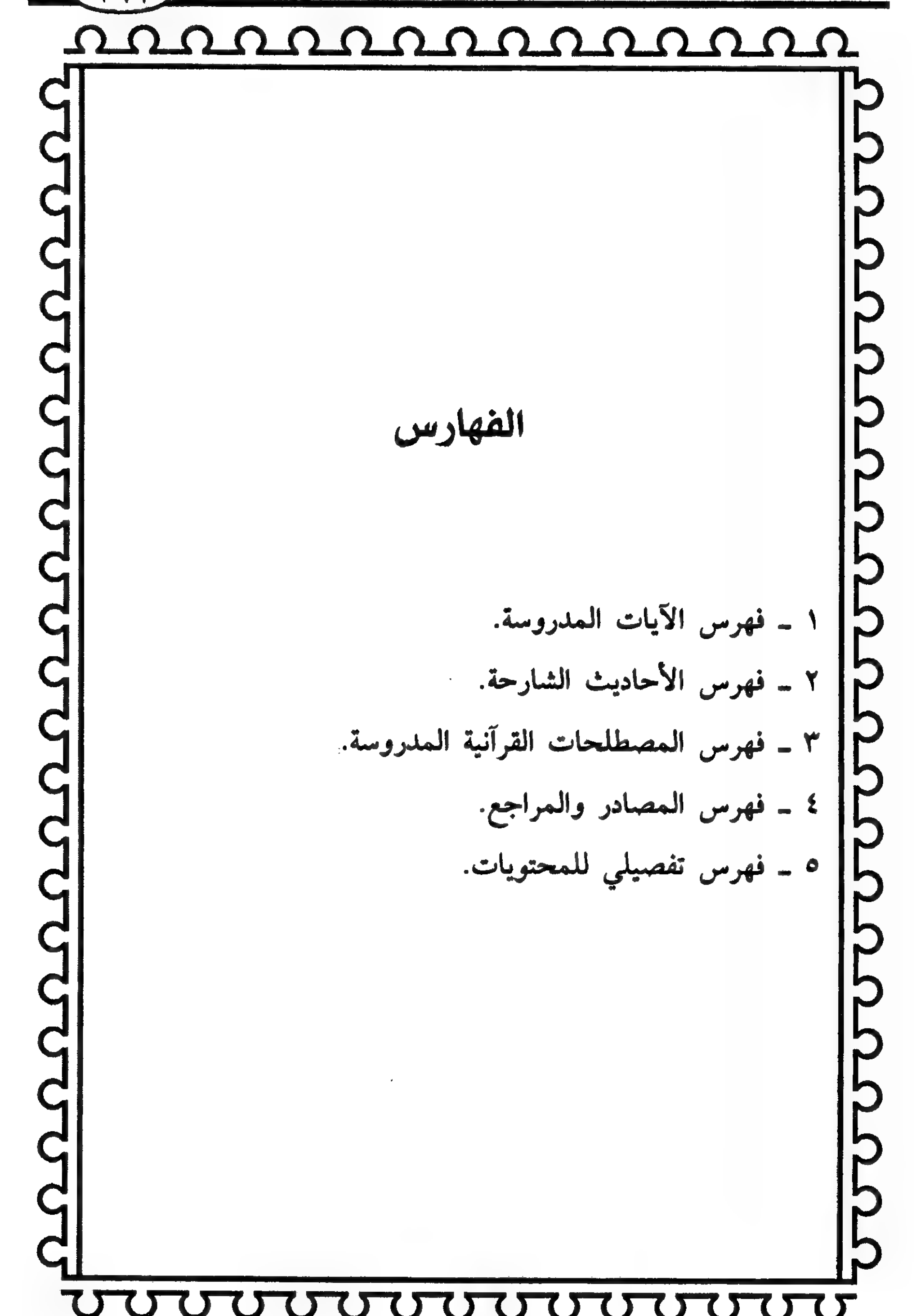
- بحث مفاهيم « الكلمة» و«الكتب» و«الوصية» و«الفرض» و«الخلق» و«الموت» و«النصر» و«البعث». . .
- بحث علاقة الأمر بمفاهيم» الخلق» و«القضاء» و«القدر»، وغيرها من العلاقات التي نالها ضيم وهضم بسبب ضيق الوقت؛ كـ«قطع ما أمر الله به أن يوصل» و«نقض عهد الله» و«الفساد في الأرض»، و«وصل ما أمر الله به أن يوصل» و«خشية الله»، و«الإضلال» و«الأمر»، و«تدبير الأمر» و«تفصيل الآيات». . .
- دراسة سنن الله في التقدير والتشريع؛ لفهم أعمق وأوسع لقضية الأوامر التكوينية والتكليفية.
- دراسة أوامر القرآن التكليفية وفق ترتيب النزول وأحداث السيرة؛ لتبين معالم المنهاج الأول كيف سار، وكيف رسم وفقا لحاجات المسلمين الأول، ومن ثم استلهام هذا المنهاج في فقه أوامر ديننا المفصلة، وتنزيل أوامره المجملة على واقعنا المتجدد؛ لتحقيق عودة صحيحة إلى التاريخ.

وبعد، فحسبي بهذا العمل الذي يعتبر باكورة عملي في التأليف المصطلحي، أن أكون أعدت الاعتبار للنصوص، ورسمت منهجاً تطبيقياً لدراسة المصطلحات القرآنية، واستخلاص مفاهيمها بعد تخليصها، وتجديد الفهم لموضوعاتها، وأسهمت في وضع لبنة متينة في صرح المعجم المفهومي للقرآن الكريم، الذي التفت سواعد الباحثين على بنائه بكل عزم وتصميم.

حسبي هذا، حسبي وأن أكون قدمت بحثا فيه جدة وطرافة، وسلاسة نظم وحسن ديباجة، ومتعة علمية ولذة روحية. . .

والله تعالى هو الموفق لما في هذا البحث من رشد وصواب، والميسر لتصحيح ما فيه من خطأ وهنات. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.





الفهارس



فهرس الآيات القرآنية المدروسة

الآيات	السورة/رقم الآية	الصفحات
﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ...﴾	البقرة/٢٧	٥٩٠
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾	البقرة/٤٣	٧٦٥
﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾	البقرة/٩٣	٩٣
﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾	البقرة/١٠٩	٢١٠ ـ ٦٠٣ ـ ٧٧٣
﴿بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾	البقرة/١١٧	٣٢٤
﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾	البقرة/١٦٩	٩٣، ٦٤٦
﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾	البقرة/٢١٠	٧٦، ٤٣١
﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾	البقرة/٢٢٢	٢٣٦، ٣١٣، ٣٩٠، ٤٩٧
﴿الشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ﴾	البقرة/٢٦٨	٦٢٨، ٦٤٢
﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ﴾	البقرة/٢٧٥	٨٥
﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾	آل عمران/٢١	٩١
﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾	آل عمران/٤٧	٣٢٤
﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾	آل عمران/٨٠	٤٥١، ٥١٩

الآيات	السورة/رقم الآية	الصفحات
﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾	النساء/١١٩	٩٣، ٤٩٤، ٦٤٨
﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾	المائدة/ ٥٢	٧٦
﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾	المائدة/ ٩٥	٨٣
﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾	المائدة/١١٧	١٥١، ٥١٩، ٥٢٥
﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨)﴾	الأنعام/٨	٧٥، ٤٠٦، ٤٤٩
﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	الأنعام/١٤	٥١١، ٥٢٦
﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾	الأنعام/٥٨	٧٥، ٣٩٥
﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	الأنعام/٧١	٥٢٩، ٥٣٣
﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾	الأنعام/١٥٩	٦٥٢
﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾	الأنعام/١٦٢ ـ ١٦٣	٥١١، ٥٢٦، ٧٦٣
﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾	الأعراف/١٢	٨٩، ٦٥٧
﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾	الأعراف/٢٨	١٧، ٢٣٦، ٥٥٢
﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾	الأعراف/٢٩	٥٥٣، ٥٦٢
﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾	الأعراف/٥٤	٨٩، ١٠٣، ٢١٥، ٣٤٢
﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾	الأعراف/٧٧	١٥٤، ٢١٣، ٤٠٣
﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾	الأعراف/١٤٥	٧٥٢
﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾	الأعراف/١٥٠	٢٠٩





فهرس الأحاديث النبوية الشارحة

الحديث	الصفحة

ـ ب ـ ت ـ

الحديث	الصفحة

- ج - خ -

د - ذ

ر

س - ش

ص

الحديث	الصفحة

ع

ف

ك

الحديث	الصفحة

ل

م

الحديث	الصفحة

ـ ن ـ و ـ

ي



فهرس المصطلحات القرآنية المدروسة

المصطلح	الصفحة





فهرس المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم**، برواية حفص عن عاصم.

كتب التفسير وعلوم القرآن

١ ـ **الإتقان في علوم القرآن**، السيوطي، مصر، ١٣٦٨ هـ.

٢ ـ **أحكام القرآن**، ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢.

٣ ـ **أحكام القرآن**، الجصاص، دار الفكر، د. ت.

٤ ـ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الحكيم**، أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.

٥ ـ **أسباب نزول القرآن**، الواحدي، تحقيق ودراسة: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

٦ ـ **الأساس في التفسير**، سعيد حوى، دار السلام، مصر، ط: ١٩٨٥/١

٧ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، ١٩٨٨.

٨ ـ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، البيضاوي، دار الجيل، بيروت، د. ت

٩ ـ **البحر المحيط**، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، ١٩٩٢.

١٠ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، الفيروزآبادي، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت.

١١ ـ **التحرير والتنوير**، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ١٩٨٤، ودار سحنون، (د، ت).

١٢ ـ **التصاريف: تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه**، يحيى بن سلام، تقديم وتحقيق: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٩.

١٣ - **تفسيرات ابن تيمية**، جمع وتنسيق: إقبال محمد الأعظمي، السعودية، ط: ١ /١٩٧١.

١٤ - **التفسير البياني للقرآن الكريم**، دار المعارف، مصر، (د. ت).

١٥ - **تفسير الطوفي** (ق، القيامة، النبأ، الانشقاق، الطارق)، تحقيق علي حسين البواب، مكتبة التوبة، الرياض، ط: ١/ ١٩٩٢.

١٦ - **تفسير غريب القرآن**، عمر بن أبي الحسن الأنصاري (المعروف بابن الملقن) تحقيق: سمير طه المجدوب، عالم الكتب، بيروت، ط: ١٩٨٧/١.

١٧ - **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، دار الجيل، بيروت، ط: ١٩٨٨/١.

١٨ - **تفسير القرآن الحكيم (المنار)**، محمد عبده ورشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط: ٢.

١٩ - **التفسير القرآني للقرآن**، عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي ودار نهر النيل للطباعة، مصر، (د. ت).

٢٠ - **التفسير القيم**، ابن القيم الجوزية، جمع: محمد أويس الندوي، وتحقيق: محمد حامد الفقي، دار العلوم الحديثة، بيروت، د. ت.

٢١ - **التفسير الكبير**، ابن تيمية، تحقيق وتعليق: عبدالرحمٰن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

٢٢ - **تفسير المراغي**، مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٩٩٨/١.

٢٣ - **تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط: ١٩٨٤/٢.

٢٤ - **تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)**، دار الفكر، (د. ت).

٢٥ - **التكميل في أصول التأويل**، عبدالحميد الفراهي، المطبعة الحميدية، ط: ١٣٨٨/١ هـ.

٢٦ - **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، دار الكتاب العربي، مصر ١٩٦٧.

٢٧ - **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، الطبري، دار الفكر، ١٩٨٤.

٢٨ - **حاشية الصاوي على تفسير الجلالين**، دار الفكر، بيروت، (د. ت).

٢٩ - **رغائب الفرقان وغرائب القرآن**، النيسابوري، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨.

٣٠ - **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين الآلوسي، تصحيح: محمد حسين العرب، دار الفكر، بيروت ١٩٩٤.

٣١ - **غريب القرآن وتفسيره**، أبو عبدالرحمٰن اليزيدي، تحقيق وتعليق: محمد سليم الحاج، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥.

٣٢ - **فتح البيان في مقاصد القرآن**، صديق بن حسن البخاري، المكتبة العصرية، بيروت، ط:٢/ ١٩٩٥.

٣٣ - **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي الشوكاني، عالم الكتب، (د. ت).

٣٤ - **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ١٩٧١/٧.

٣٥ - **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر، ط: ١/ ١٩٧٧.

٣٦ - **لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)**، علاء الدين بن محمد بن إبراهيم البغدادي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، (د. ت).

٣٧ - **لطائف الإشارات**، القشيري، تقديم وتحقيق وتعليق: إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ٢/ ١٩٨١.

٣٨ - **مباحث في علوم القرآن**، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط: ١٩٧٧/١٠.

٣٩ - **مباحث في علوم القرآن**، مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ١٩٩٥/٢٧.

٤٠ - **مجمع البيان في تفسير القرآن**، الفضل بن الحسن الطبرسي، تصحيح وتعليق تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٣٩ هـ.

٤١ - **محاسن التأويل**، محمد جمال الدين القاسمي، تصحيح وتعليق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت، ط: ١٩٧٩/٢.

٤٢ - **معالم التنزيل (تفسير البغوي)**، البغوي، تحقيق: خالد العك وإبراهيم سوار، دار المعرفة، بيروت، ط: ١٩٨٧/٢.

٤٣ - **مفاتيح الغيب**، الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.

٤٤ - **مقدمة جامع التفاسير**، الراغب الأصفهاني، تحقيق وتقديم وتعليق: أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، الكويت، ط: ١٩٨٤/١.

٤٥ - **معاني القرآن وإعرابه**، الزجاج، تحقيق: عبدالجليل عبده شلبي، المكتبة العصرية، بيروت، د. ت.

٤٦ - **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبدالعظيم الزرقاني، دار الفكر، د. ت.

٤٧ - **الميزان في تفسير القرآن**: **محمد حسين الطباطبائي**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، ١٩٧٢.

مصادر الحديث والسيرة

٤٨ - **تهذيب سيرة ابن هشام**، عبدالسلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، منشورات محمد الداية، لبنان، د. ت.

٤٩ - **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط: ٣/ ١٩٨٣.

٥٠ - **سنن أبي داود**، تعليق: سعد علي، مصر، ط: ١/١٩٥٢.

٥١ - **سيرة ابن هشام**، تحقيق وضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، د. ت.

٥٢ - **سيرة ابن إسحاق**، تحقيق وتعليق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث والتعريب، الرباط، ١٩٧٦.

٥٣ - **صحيح البخاري**، المكتبة العصرية، بيروت، ط: ٣/ ١٩٩٩.

٥٤ - **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق وتعليق وتخريج: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط: ١/١٩٧٩.

٥٥ - **صحيح سنن ابن ماجة**، ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط: ١/١٩٩٧.

٥٦ - **صحيح سنن أبي داود**، ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط: ١/١٩٩٨.

٥٧ - **صحيح سنن الترمذي**، ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط: ١/٢٠٠٠.

٥٨ - **صحيح سنن النسائي**، ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط: ١/١٩٩٨.

٥٩ - **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

٦٠ - **صحيح مسلم بشرح النووي**، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢.

٦١ - **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبدالعزيز بن باز، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢.

المعاجم

٦٢ ـ **أساس البلاغة**، الزمخشري، دار مطابع الشعب، مصر، د. ت.

٦٣ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**، الزبيدي، تحقيق: إبراهيم الترزي، دار التراث العربي، ١٩٧٢.

٦٤ ـ **تاج اللغة وصحاح العربية**، الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط: ٣، ١٩٨٤.

٦٥ ـ **التعريفات**، الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١/١٩٨٣.

٦٦ ـ **تهذيب اللغة**، الأزهري، تحقيق: جماعة من الدارسين، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، والدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤.

٦٧ ـ **التوقيف على مهمات التعاريف**، محمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط: ١/١٩٩٠.

٦٨ ـ **جمهرة اللغة**، ابن دريد، تحقيق وتقديم: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط: ١/ ١٩٨٧.

٦٩ ـ **الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة**، زكريا بن محمد الأنصاري، تحقيق وتقديم: مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط: ١/١٩٩١.

٧٠ ـ **الزينة في الكلمات الإسلامية**، الرازي، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٨.

٧١ ـ **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، السمين الحلبي، تحقيق وتعليق: محمد التونجي، عالم الكتب، ط: ١/١٩٩٣.

٧٢ ـ **العين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، ط: ١/١٩٨٨.

٧٣ ـ **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣.

٧٤ ـ **لسان العرب**، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، د. ت.

٧٥ ـ **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد علي التهانوي، تحقيق: علي حروج، مكتبة لبنان.

٧٦ ـ **الكليات**، الكفوي، دار الكتاب الإسلامي، ط: ٢/١٩٩٢.

٧٧ ـ **المصباح المنير**، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، مكتبة لبنان، ١٩٨٧.

٧٨ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت، ط: ٤/١٩٩٧.

٧٩ ـ **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩.

٨٠ ـ **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

كتب اللغة

٨١ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**، الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، د. ت.

٨٢ ـ **التعبير الاصطلاحي**، كريم زكي حسام الدين، مكتبة الأنجلو ـ المصرية، ط: ١٩٨٥/١.

٨٣ ـ **شرح المفصل**، ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥.

٨٤ ـ **شروح التلخيص**، سعد الدين التفتازاني، طبع: عيسى البابي الحلبي، مصر، د. ت.

٨٥ ـ **الصاحبي في فقه اللغة**، أحمد ابن فارس، تح: أحمد صقر، طبع: عيسى الحلبي وشركاؤه، د. ت.

٨٦ ـ **علم المعاني**، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، ١٩٨٥.

٨٧ ـ **الفروق في اللغة**، أبو هلال العسكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: ١٩٧٣/١.

٨٨ ـ **فقه اللغة وسر العربية**، عبدالملك بن محمد الثعالبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د. ت

٨٩ ـ **الكافية في النحو**، ابن الحاجب، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

٩٠ ـ **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، عبدالفتاح لاشين، دار المعارف، ط: ١٩٧٨/٣.

٩١ ـ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ابن هشام، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٧.

٩٢ ـ **مفتاح العلوم**، أبو يعقوب السكاكي، نشر: المكتبة العلمية الجديدة، بيروت ـ لبنان.

٩٣ ـ **نهج البلاغة**، الإمام علي، شرح: محمد عبده، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

كتب الأصول

٩٤ ـ **الإبهاج في شرح المنهاج**، علي بن عبدالكافي وولده تاج الدين السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١/١٩٨٤.

٩٥ ـ **الإحكام في أصول الأحكام**، الآمدي، دار الفكر، ط: ١/١٩٨١.

٩٦ ـ **الأسماء والصفات**، البيهقي، دار الكتب اللبنانية، بيروت، د. ت.

٩٧ ـ **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**، الجويني، تحقيق وتعليق وتقديم: محمد يوسف موسى وعلي عبدالمنعم عبدالحميد، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٠.

٩٨ ـ **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، الشوكاني، دار الفكر، د. ت. ط.

٩٩ ـ **أصول الدين**، عبدالقاهر البغدادي، تحقيق: لجنة التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: ١/١٩٨١.

١٠٠ ـ **الاقتصاد في الاعتقاد**، الغزالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط: ١/١٩٨٣.

١٠١ ـ **الآيات البينات على شرح جمع الجوامع**، أحمد بن قاسم العبادي، دار الكتب العلمية، لبنان، د. ط. ت.

١٠٢ ـ **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**، الباقلاني، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط: ١/١٩٨٧.

١٠٣ ـ **حاشية البناني على شرح الجلال المحلي على متن جمع الجوامع**، لتاج الدين السبكي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢.

١٠٤ ـ **درء تعارض العقل والنقل**، ابن تيمية، تح: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، د. ت.

١٠٥ ـ **شرح العقيدة الواسطية.**

١٠٦ ـ **العقائد الإسلامية**، سيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.

١٠٧ ـ **القدر(النظرية الثانية)**، عدنان الرفاعي، دار الفكر، دمشق، ط: ٢/١٩٩٩.

١٠٨ ـ **القدر عند ابن تيمية**، راشد الغنوشي، المركز المغاربي للبحوث والترجمة، لندن، ط: ٢/١٩٩٩.

١٠٩ ـ **المحصول في علم أصول الفقه**، الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١/١٩٨٨.

١١٠ ـ **المستصفى من علم الأصول**، الغزالي، دار الفكر، د. ت. ط.

١١١ ـ **المعتمد في أصول الفقه**، أبو الحسين البصري المعتزلي، تحقيق: محمد حميد الله، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٤.

١١٢ ـ **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، علال الفاسي، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، المغرب، د. ت.

١١٣ ـ **الموافقات في أصول الشريعة**، الشاطبي، ضبط وترقيم: محمد عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

كتب في الأخلاق والتربية

١١٤ ـ **إحياء علوم الدين**، الغزالي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢.

١١٥ ـ **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، عبدالرحمٰن حسن حنبكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط: ١٩٩٢/٣.

١١٦ ـ **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، ابن القيم الجوزية، تحقيق وتصحيح وتعليق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

١١٧ ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، أبو بكر الخلال، تح: عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٩٨٦/١.

١١٨ ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، جلال الدين العمري، ترجمة: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، شركة الشعاع للنشر، الكويت، د. ت.

١١٩ ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، عبدالمعز عبدالستار، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: ١٩٨٢/٢.

١٢٠ ـ **البيان في مداخل الشيطان**، عبدالحميد البلالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ١٩٨٦/٢.

١٢١ ـ **تلبيس إبليس**، عبدالرحمٰن ابن الجوزي، نشر وتصحيح وتعليق: إدارة الطباعة المنيرية، بمساعدة بعض علماء الأزهر، ط: ١٣٦٨/٢ هـ.

١٢٢ ـ **جذور الشر**، إبراهيم محمد الجمل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: ١٩٨٥/١.

١٢٣ ـ **الحسبة في الإسلام**، أحمد بن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٩٩٢/١.

١٢٤ ـ **دراسات في النفس الإنسانية**، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، د. ت.

١٢٥ ـ **ذم الهوى**، عبدالرحمٰن ابن الجوزي، تح: مصطفى عبدالواحد، ومراجعة: محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، ط: ١٩٦٢/١.

١٢٦ ـ **الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان**، ابن تيمية، المكتب الثقافي السعودي، المغرب، ١٤١٩ هـ.

١٢٧ ـ **الكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، عبدالرحمٰن بن أبي بكر بن داود الحنبلي، تح: مصطفى عثمان حميدة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٩٩٦/١.

١٢٨ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ابن القيم الجوزية، تح: محمد حامد الفقي، دار الرشاد، المغرب، د. ت.

١٢٩ ـ **مكارم الأخلاق**، أحمد بن تيمية، تحقيق وإعداد: عبدالله بدران ومحمد عمر الحاج، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠١.

دراسات في المصطلح والمنهج

١٣٠ ـ **الدراسة المصطلحية والعلوم الإنسانية (ندوة علمية)**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٦

١٣١ ـ **المصطلحات الأربعة في القرآن**، أبو الأعلى المودودي، تعريب محمد كاظم سباق، دار العروبة للدعوة الإسلامية، لاهور، ١٩٥٥.

١٣٢ ـ **مصطلحات القرآن الأربعة في فكر المودودي**، حمد بن صادق الجمال، دار عالم الكتب، بيروت، ط: ١٩٩٣/٢.

١٣٣ ـ **مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ**، الشاهد البوشيخي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: ١٩٨٢/١.

١٣٤ ـ **مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين**، قضايا ونماذج، الشاهد البوشيخي، دار القلم، دمشق، ط: ١٩٩٣/١.

١٣٥ ـ **مشروع المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية**، الشاهد البوشيخي، مطبعة آنفو ـ برانت، فاس، ط: ٢٠٠٢/١.

١٣٦ ـ **مفهوم الإيمان في القرآن والحديث**، خايف الله، بحث مرقون.

١٣٧ ـ **مفهوم التأويل في القرآن والحديث**، فريدة زمرد، مطبعة آنفو ـ برانت، فاس، ط: ٢٠٠١/١.

١٣٨ ـ **نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية**، الشاهد البوشيخي، مطبعة آنفو ـ برانت، فاس، ٢٠٠٢.

١٣٩ ـ **نظرات في المصطلح والمنهج**، الشاهد البوشيخي، مطبعة آنفو ـ برانت، فاس، ط: ٢٠٠٢/١.

١٤٠ ـ **وراقية عن المفاهيم القرآنية**، فريدة زمرد، مجلة دراسات مصطلحية، معهد الدراسات المصطلحية بفاس، ع١/٢٠٠١.

مصادر ومراجع أخرى

١٤١ ـ **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**، أحمد كنعان، دار النفائس، د. ت.

١٤٢ ـ **أسرار الترادف في القرآن الكريم**، علي اليمني دردير، دار ابن حنظل، مصر، ١٩٨٥.

١٤٣ ـ **الإسلام: عقيدة وشريعة**، محمود شلتوت، دار القلم، مصر، د. ت.

١٤٤ ـ **الأشباه والنظائر في القرآن الكريم**، مقاتل بن سليمان، دراسة وتحقيق: عبدالله محمود شحاتة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٩٧٥/٢.

١٤٥ ـ **إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، الدامغاني، تحقيق وترتيب: عبدالعزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط: ١٩٧٧/٢.

١٤٦ ـ **الإنسان مسير أم مخير**، البوطي، دار الفكر المعاصر ـ بيروت ودار الفكر ـ سوريا، ط: ١٩٩٨/٢.

١٤٧ ـ **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**، محمد سيد طنطاوي، دار مكتبة الأندلس ـ ليبيا، ط: ١٩٧٣/٢.

١٤٨ ـ **الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق**، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، سورية، ط: ١٩٩٧/١.

١٤٩ ـ **التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية**، محمد باقر الصدر، تقديم وتنقيح وتعليق: جلال الدين علي الصغير، الدار العالمية، بيروت، ط: ١٩٨٩/١.

١٥٠ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**، النووي، تصحيح وتعليق: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، لبنان، د. ت.

١٥١ ـ **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية**، عبدالعظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: ١٩٩٢/١.

١٥٢ ـ **دراسات لأسلوب القرآن**، محمد عبدالخالق عظيمة، دار الحديث، القاهرة، د. ت.

١٥٣ ـ **الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة**، محمد عزة دروزة، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨١.

١٥٤ ـ **دلائل النظام**، عبدالحميد الفراهي الهندي، المطبعة الحميدية، ط: ١٣٨٨/١ هـ.

١٥٥ ـ **العبادة في الإسلام**، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ٢٠٠١/٢.

١٥٦ ـ **فقه الزكاة**، يوسف القرضاوي، دار المعرفة، البيضاء، المغرب، د. ت.
١٥٧ ـ **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**، عبدالرحمٰن حسن حنبكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط: ١٩٨٩/٢.
١٥٨ ـ **كليات رسائل النور**، سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مصر، ط: ١٩٩٣/٢.
١٥٩ ـ **مباحث في التفسير الموضوعي**، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط: ١٩٨٩/١.
١٦٠ ـ **مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، تخريج: عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء ـ مصر ـ ودار ابن حزم ـ الرياض ـ ، ط: ١٩٩٨/٢.
١٦١ ـ **مقالات الإسلاميين**، أبو الحسن الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط: ١٩٨٥/٢
١٦٢ ـ **مقال في الإنسان**، عائشة عبدالرحمٰن، دار المعارف، مصر، د. ت.
١٦٣ ـ **مقدمة ابن خلدون**، طبع: مصطفى محمد، مصر، د. ت.
١٦٤ ـ **منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، ابن الجوزي، تح ودراسة: محمد السيد الطنطاوي وفؤاد عبدالمنعم أحمد، منشأة المعارف، مصر، د. ت.
١٦٥ ـ **من علوم الأرض القرآنية**، عدنان الشريف، دار العلم للملايين، بيروت، ط: ١٩٩٤/٢.
١٦٦ ـ **منهج القرآن الكريم في تقرير الأحكام: مصطفى محمد الباجقني**، الدار الجماهيرية، ليبيا، ط: ١٩٩٣/٢.
١٦٧ ـ **نظرات جديدة في القرآن المعجز**، محمد عادل القلقيلي، دار الجيل، بيروت، ط: ١٩٩٧/١.
١٦٨ ـ **الوحي المحمدي**، محمد رشيد رضا، ط: ١٩٨٤/١٠.







فهرس تفصيلي للمحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة





بيانات شخصية

الاسم العائلي: زيان.

الاسم الشخصي: جميلة.

الحالة العائلية: متزوجة.

المهنة: أستاذة جامعية باحثة.

التخصص: القرآن الكريم وعلومه.

مقر وعنوان العمل: كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس ـ فاس المغرب.

عنوان المراسلة:

رقم ٣، إقامة لا بالموري، زنقة ضرار بن أزور، ملعب الخيل، فاس. ٣٠٠٠٠ المغرب.

أو عن طريق: لحسن بنعبيدات، ص. ب: ٢٧٤٥، فاس الرئيسية، ٣٠٠٠٠ المغرب.

الهاتف النقال: ٠٠٢١٢ ٦٤١١٨٧٠٢

الهاتف الثابت: ٠٠٢١٢ ٣٥٦٢٥٠٠٦

البريد الإلكتروني: zian_jamila@yahoo. fr